

تفسير القشيري

المسمى

لطائف الاشارات

تأليف

الإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازئ بن عبد الملك

القشيري النسابوري الشافعي

المتوفى ٤٦٥ هـ

وضع حواشيه وعلقه عليه

عبد اللطيف حسن عبد الرحمن

المجلد الثالث

المحتوى:

أول سورة الروم - آخر سورة الناز



دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Title: Tafsir al-Quşayri

"Laṭā'f al-'iṣārāt"

(The exegesis of the Holy coran)

classification: Exegesis of the coran

Author: ʿAbdul-Karīm ben Hawāzin al-Quşayri

Editor: ʿAbdul-Laṭīf Ḥasan ʿAbdul-Rahmān

Publisher: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Pages: 1408 (3volumes)

Year: 2007

Printed in: Lebanon

Edition: 2nd

الكتاب: تفسير القشيري

المسمى: لطائف الإشارات

التصنيف: تفسير قرآن

المؤلف: الإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري

المحقق: عبد اللطيف حسن عبد الرحمن

الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت

عدد الصفحات: 1408 (3 أجزاء)

سنة الطباعة: 2007

بلد الطباعة: لبنان

الطبعة: الثانية



دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان



Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés



جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة

لدار الكتب العلمية - بيروت - لبنان
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو
مجزئاً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban

Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

الطبعة الثانية

٢٠٠٧ م - ١٤٢٨ هـ

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications **Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah**

أرامون ، القبة	عرمون ، القبة
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.	مبنى دار الكتب العلمية
Tel : +961 5 804 810/11/12	هاتف: +٩٦١ ٥ ٨٠٤ ٨١٠/١١/١٢
Fax: +961 5 804813	فاكس: +٩٦١ ٥ ٨٠٤ ٨١٣
P.o.Box: 11-9424 Beirut-lebanon	ص.ب: ٩٤٢٤ - بيروت - لبنان
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290	رياض الصلح - بيروت ١١٠٧ ٢٢٩٠

ISBN 2-7451-2837-X (10 dig)

ISBN 978-2-7451-2837-9 (13 dig)



9 782745 128379

<http://www.al-ilmiyah.com>
sales @al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السورة التي يذكر فيها الروم

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله اسم عزيز شفيع المذنبين جوؤه، بلاء المتهمين قصوؤه؛ ضياء الموحدين عهوده. وسلوة المحزونين ذكره، وجرقة الممتحنين شكره.

اسم عزيز رداؤه كبرياؤه، وجبار سناؤه بهاؤه، وبهاؤه علاؤه.

العابدون حسبهم عطاؤه، والواجدون حسبهم بقاؤه.

قوله جلّ ذكره: ﴿اللَّهُ غَلَبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ مِثْقَالٍ﴾.

الإشارة في «الألف» إلى أنه أَلِفَ صُخْبَتَنَا مَنْ عَرَفَ عَظَمَتَنَا. وأنه أَلِفَ بِلَاءَنَا مَنْ عَرَفَ كِبَرِيَاءَنَا.

والإشارة في «اللام» إلى أنه لَزِمَ بَابَنَا مَنْ ذَاقَ مُحَابَنَاتَنَا، وَلَزِمَ بِسَاطِنَا مَنْ شَهِدَ جَمَالَتَنَا.

والإشارة في «الميم» إلى أنه مُكِّنَ مَنْ قُرْبَانَا مَنْ قَامَ عَلَى خِدْمَتَنَا، وَمَاتَ عَلَى وَفَائِنَا مَنْ تَحَقَّقَ بَوْلَانَتَنَا.

قوله ﴿غَلَبَتِ الرُّومُ﴾: سُرَّ المسلمون بظفر الروم على العجم - وإن كان الكفر يجمعهم - إلا أن الروم اختصوا بالإيمان ببعض الأنبياء، فشكر الله لهم، وأنزل فيهم الآية.. فكيف بمن يكون سروره لدين الله، وحزنه واهتمامه لدين الله؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿قَبْلُ﴾ إذا أطلق انتظم الأزل، «وبعد» إذا أطلق دلّ على الأبد؛ فالمعنى الأمر الأزلي لله، والأمر الأبدي لله، لأنّ الرّبّ الأزلي والسيد الأبديّ الله.

الله الأمر يوم العرفان، والله الأمر يوم الغفران.

الله الأمر حين القسمة ولا حين، والله الأمر عند النعمة وليس أي معين.

ويقال: لي الأمر ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وقد علمت ما تفعلون، فلا يمنعني أحد من تحقيق

عرفانكم، ولي الأمر ﴿مَنْ بَعْدِي﴾ وقد رأيتُ ما فعلتم، فلا يمنعني أحدٌ من غفرانكم.
وقيل: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ﴾ بتحقيق ودُّكم، والله الأمر من بعد بحفظ عهدكم:

إني - على جفواتها - وبربها وبكل مُتصل بها مُتوسل
﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّحُ الْمُؤْمِنُونَ يُنْصِرُ اللَّهُ﴾:

اليوم إرجاف السرور وإنما يوم اللقاء حقيقة الإرجاف
اليوم ترخَّ وغداً فرح، اليوم عبء وغداً خبرة، اليوم أسف وغداً لطف، اليوم
بكاء وغداً لقاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلُفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الكريم لا يخلف وعده لا سيما والصدق نعته.

يقول المؤمنون: منا يوم الميثاق وعدّ بالطاعة، ومنه ذلك اليوم وعدّ بالجنة،
فإن وقع في وعدنا تقصير لا يقع في وعده قصور.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفِلُونَ﴾.

استغراقهم في الاشتغال بالدنيا، وانهماكهم في تعليق القلب بها... متّعهم عن
العلم بالآخرة. وقيمة كل امرئ علمه بالله؛ ففي الأثر عن عليّ - رضي الله عنه - أنه
قال؛ أهل الدنيا على غفلة من الآخرة، والمشتغلون بعلم الآخرة كذلك بوجودها في
غفلة عن الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا
بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

إن من نظر حق النظر، ووضع النظر موضعه أثمر له العلم واجباً، فإذا استبصر
بنور اليقين أحكام الغائبات، وعلم موعوده الصادق في المستأنف - نجا عن كد التردد
والتجوز فسيبيل من صحا عقله ألا يجنح إلى التقصير فيما به كمال سكونه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
كَانُوا أَشَدَّ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ
فَمَا كَانُوا لِيُظِلِّمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

سائر النفوس في أقطار الأرض ومناكبها لأداء العبادات، وسير القلوب بجولان
الفكر في جميع المخلوقات، وغايته الظفر بحقائق العلوم التي ترجب ثلج الصدر - ثم
تلك العلوم على درجات. وسير الأرواح في ميادين الغيب بنعت حرق سرادقات
الملوكوت، وقصاراه الوصول إلى محل الشهود واستيلاء سلطان الحقيقة. وسير

الأشرار بالترقي عن الجذثان بأسرها، والتحقق أولاً بالصفات، ثم بالخمود بالكلية عما سوى الحق.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ كَانَ عَقِبَةَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا الشُّوْءُ أَنْ كَذَبُوا بِبَابِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

مَنْ ذَرَعَ الشُّوكَ لَمْ يَحْصُدْ الْوَرْدَ، وَمَنْ اسْتَنْبَتَ الْحَشِيشَ لَمْ يَقْطِفِ الثَّمَارَ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقَ الْغَيِّ لَمْ يَخْلُلْ بِسَاحَةِ الرُّشْدِ.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

يبدأ الخلق على ما يشاء، ثم يعيده إذا ما شاء على ما يشاء.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

شهودهم ما جحدوه في الدنيا عياناً، ثم ما ينضاف إلى ذلك من اليأس بعد ما يعرفون قطعاً هو الذي يفتت أكبادهم، وبه تتم محتهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

تغلب العداوة مِنْ بعض على بعض.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَرُونَ﴾.

فريقٌ منهم أهل الوصلة، وفريق هم أهل الفرة. فريق للجنة والمئة، وفريق للعذاب والمحنة. فريق في السعير، وفريق في السرور. فريق في الثواب، وفريق في العذاب. فريق في الفراق، وفريق في التلاقي.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْحٍ يُخْبَرُونَ﴾.

فهم في رياض وغياض.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

فهم في بوارٍ وهلاك.

قوله جل ذكره: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾.

مَنْ كَانَ صَبَاحُهُ لِلَّهِ بِبُورِكَ لَهُ فِي يَوْمِهِ، وَمَنْ كَانَ مَسَاوُهُ بِاللَّهِ بِبُورِكَ لَهُ فِي لَيْلِهِ:

وَأَنْ صَبَاحاً نَلْتَقِي فِي مَسَائِهِ صَبَاحٌ عَلَى قَلْبِ الْغَرِيبِ حَبِيبٍ

شَتَانٌ بَيْنَ عَبْدٍ صَبَاحُهُ مُفْتَتِحٌ بِعِبَادَتِهِ وَمَسَاوُهُ مُخْتَتَمٌ بِطَاعَتِهِ، وَبَيْنَ عَبْدٍ صَبَاحُهُ مَفْتَتِحٌ بِمَشَاهِدَتِهِ وَرَوَاحَةٌ مَفْتَتِحٌ بِعَزِيزِ قَرْبَتِهِ!

ويقال الآية تتضمن الأمر بتسبيحه في هذه الأوقات، والآية تتضمن الصلوات الخمس، وإرادة الحق من أوليائه بأن يجددوا العهد في اليوم واللييلة خمس مرات؛ فتقف على بساط المناجاة، وتستدرك ما فاتك فيما بين الصلاتين من طوارق الزلات. قوله جل ذكره: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾: الطير من البيض، والحيوان من النطفة.

﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾: البيض من الطير، والنطفة من الحيوان.

والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن.

ويظهر أوقاتاً من بين أوقات؛ كالقبض من بين أوقات البسط، والبسط من بين أوقات القبض.

﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: يحييها بالمطر، ويأتي بالربيع بعد وحشة الشتاء؛ كذلك يوم النشور يحيي الخلق بعد الموت.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْشُرُونَ﴾.

خلق آدم من التراب، ثم من آدم الذرية. فذكرهم نسبتهم لثلاثي ينجبوا بأحوالهم.

ويقال الأصل تربة ولكن العبرة بالتربية لا بالتربة، القيمة لما منه لا لأعيان المخلوقات. اصطفى واختار الكعبة فهي أفضل من الجنة؛ الجنة جواهر وبقايت، والبيت حجر! ولكن البيت مختاره وهذا المختار حجر! واختار الإنسان، وهذا المختار مدبر! والغني غني لذاته، غني عن كل غير من رشم وأثر.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

رَدَّ الْمَثَلُ إِلَى الْمَثَلِ، وَرَبَطَ الشَّكْلَ بِالشَّكْلِ، وَجَعَلَ سَكُونَ الْبَعْضِ إِلَى الْبَعْضِ، وَلَكِنْ ذَلِكَ لِلْأَشْبَاحِ وَالصُّوَرِ، أَمَّا الْأَرْوَاحُ فَصُخْبَتُهَا لِلْأَشْبَاحِ كَرَّةٌ لَا طَوْعَ. وَأَمَّا الْأَسْرَارُ فَمُعْتَقَةٌ لَا تَسَاكِنُ الْأَطْلَالَ وَلَا تَتَدَنَسُ بِالْأَعْلَالِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقُ الْإِنسَانِ مِنَ التُّرَابِ وَتُخْرُجُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ أَسْفَادٌ لِكُلِّ فِئَةٍ شَرَفٌ وَرَجَاءٌ وَالْأَرْضُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِيهَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ فِي عُلُوقِهَا وَالْأَرْضَ فِي دَنُوقِهَا؛ هذه بنجومها وكواكبها، وهذه بأقطارها ومنابها. وهذه بشمسها وقمرها، وهذه بمائها ومدبرها.

ومن آياته اختلاف لغات أهل الأرض، واختلاف تسبيحات الملائكة الذين هم

سكان السماء . وإن اختصاص كل شيء منها بحكم - شاهد عدل ، ودليل صدق على أنها تناجي أفكار المتيقظين ، وتنادي على أنفسها . أنها جميعها من تقدير العزيز العليم .

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَيْغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ﴾ .

غلبه النوم بغير اختيار صاحبه ثم انتباهه من غير اكتساب له بوسع يدل على موته وبغيه بعد ذلك وقت نشوره . ثم في حال منامه يرى ما يسره وما يضره ، وعلى أوصاف كثيرة أمره . . كذلك الميت في قبره . الله أعلم كيف حاله في أمره ، وما يلقاه من خيره وشره ، ونفعه وضره ؟

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ .

يلقي في القلوب من الرجاء والتوقع في الأمور ، ثم يختلف بهم الحال ؛ فمن عبد يحصل مقصوده ، ومن آخر لا يتفق مراده .

والأحوال اللطيفة كالبرق ، وقالوا : إنها لوائح ثم لوامع ثم طوالع ثم شوارق ثم متوع النهار^(١) ، فاللوائح في أوائل العلوم ، واللوامع من حيث الفهوم ، والطوالع من حيث المعارف ، والشوارق من حيث التوحيد .

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ .

يُفني هذه الأدوار ، ويُغيّر هذه الأطوار ، ويبدل أحوالاً غير هذه الأحوال ؛ إماتة ثم إحياء ، وإعادة وقبلها إبداء وقبر ثم نشر ، ومعاناة في القبر ثم محاسبة بعد النشر .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَكُمْ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّكُمْ قَنُوتٌ﴾ .

له ذلك ملكاً ، ومنه تلك الأشياء بدءاً ، وبه إيجاداً ، وإليه رجوعاً .

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

﴿وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ أي في ظنكم وتقديركم .

وفي الحقيقة السهولة والوعورة على الحق لا تجوز .

(١) متّع نهاره : كناية عن استمرار العطاء الإلهي والكشف الرباني بتمديد وقت النهار إلى الليل ، حتى يندم الليل :

﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ : له الصفة العليا في الوجود بحق القِدَم، وفي الجود بنعت الكَرَم، وفي القدرة بوصف الشمول، وفي النصرة بوصف الكمال، وفي العلم بعموم التعلُّق، وفي الحكم بوجوب التحقق، وفي المشيئة بوصف البلوغ، وفي القضية بحكم النفوذ، وفي الجبروت بعين العز والجلال، وفي الملكوت بنعت المجد والجمال.

قوله جل ذكره: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُم مِّنْ مَّلَكَةٍ أَيْمَنُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَن تَر فِيهِ سَوَاءً تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

أي إذا كان لكم ممالك لا تَرْضُونَ بالمساواة بينكم وبينهم، وأنتم متساكلون بكل وجه - إلا أنكم بحكم الشرع مالكوهم - فَمَا تقولون في الذي لم يَزَلْ، ولا يزال كما لم يزل؟

هل يجوز أن يُقَدَّر في وصفه أن يُسَاوِيَهُ عبيده؟ وهل يجوز أن يكون مملوكه شريكه؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً!

قوله جل ذكره: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَن أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ﴾.

أشدُّ الظلم متابعة الهوى، لأنه قريبٌ من الشُّرْكِ، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَذَ إِلَهُهُ هَوًى﴾ [الجاثية: ٢٣]. فَمَنْ اتَّبَعَ هواه خالف رضا مولاه؛ فهو بوضعه الشيء غير موضعه صار ظالماً، كما أن العاصي بوضعه المعصية موضع الطاعة ظالمٌ.. كذلك هذا بمتابعة هواه بدلاً عن موافقة ومتابعة رضا مولاه صار في الظلم متمادياً.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أُخْلِصْ قُضْدَكَ إِلَى الله، واحفظ عهدك مع الله، وأفرِّد عملك في سكاتك وحركاتك وجميع تصرفاتك لله.

﴿حَنِيفًا﴾ : أي مستقيماً في دينه، مائلاً إليه، مُغْرِضاً عن غيره، والزَّمْ ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي أثبتهم عليها قبل أن يُوجَدَ منهم فِعْلٌ ولا كَسْبٌ، ولا شِرْكٌ ولا كُفْرٌ، وكما ليس منهم إيمان وإحسان فليس منهم كفران ولا عصيان. فاعرف بهذه الجملة، ثم افعَلْ ما أُمِرْتَ به، واحذر ما نُهِيتَ عنه.

فعلى هذا التأويل فإن معنى قوله: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي اعْرِفْ واغْلَمْ أن فطرة الله التي فطر الناس عليها: تَجَرُّدُهُمْ عن أفعالهم، ثم اتصافهم بما يكسبون - وإن كان هذا أيضاً بتقدير الله.

وعلى هذا تكون ﴿فَطَرَتْ﴾ الله منصوبة بإضمار اَعْلَمَ - كما قلنا .

سبحانه فَطَرَ كُلَّ أَحَدٍ عَلَى مَا عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ فِي السَّعَادَةِ أَوْ الشَّقَاوَةِ، وَلَا تَبْدِيلَ لِحُكْمِهِ، وَلَا تَحْوِيلَ لِمَا عَلَيْهِ فَطَرَهُ. فَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ سَعِيداً أَرَادَ سَعَادَتَهُ وَأَخْبَرَ عَنْ سَعَادَتِهِ، وَخَلَقَهُ فِي حُكْمِهِ سَعِيداً. وَمَنْ عَلِمَ شَقَاوَتَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ شَقِيئاً وَأَخْبَرَ عَنْ شَقَاوَتِهِ وَخَلَقَهُ فِي حُكْمِهِ شَقِيئاً. . وَلَا تَبْدِيلَ لِحُكْمِهِ، هَذَا هُوَ الدِّينُ الْمُسْتَقِيمُ وَالْحَقُّ الصَّحِيحُ.

قوله جل ذكره: ﴿مُتَّبِعِينَ لِيَئِيهِ وَالَّتِيقَةُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

أي راجعين إلى الله بالكلية من غير أن تبقى بقية، متصفين بوفاته، منحرفين بكل وجه عن خلافه، مُتَّبِعِينَ صَغِيرِ الْإِثْمِ وَكَبِيرِهِ، قَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ، مُؤَثِّرِينَ يَسِيرَ وَفَاقِهِ وَعَسِيرِهِ، مُقِيمِينَ الصَّلَاةَ بَارِكَانَهَا وَسُنَنَهَا وَأَدَابَهَا جَهراً، مُتَحَقِّقِينَ بِمِرَاعَاةِ فُضَائِلِهَا سِرّاً.

قوله جل ذكره: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ .

أقاموا في دنياهم في خمار الغفلة، وعناد الجهل والفترة؛ فركنوا إلى ظنونهم، واستوطنوا مركب أوهامهم، وتمولوا من كيس غيرهم، وظنوا أنهم على شيء. فإذا انكشف ضباب وقتهم، وانقشع سحاب جحدهم. . انقلب فرحهم ترحاً، واستيقنوا أنهم كانوا في ضلالة، ولم يعرفوا إلا في أوطان الجهالة.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسُ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ .

إذا أظلمتهم المحنة ونالتهم الفتنة؛ وَمَسَّتْهُمْ الْبَلِيَّةُ رَجَعُوا إِلَى اللَّهِ بِأَجْمَعِهِمْ مُسْتَعِينِينَ، وبلطفه مستجيرين، وعن محتتهم مستكشفين.

فإذا جاد عليهم بكشف ما نالهم، ونظر إليهم باللطف فيما أصابهم: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ لا كلهم - بل فريق منهم بربهم يشركون؛ يعودون إلى عاداتهم المذمومة في الكفران، ويقابلون إحسانه بالنسيان، هؤلاء ليس لهم عهد ولا وفاء، ولا في مودتهم صفاء.

قوله جل ذكره: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَالَيْنَهُمْ فَتَمْنَعُوا فَأَسَافَتُمْ﴾ .

أي عن قريب سيحدث بهم مثلما أصابهم، ثم إنهم يعودون إلى التضرع، ويأخذون فيما كانوا عليه بدءاً من التخشع، فإذا أشكاهم وعافاهم رجعوا إلى رأس خطاياهم.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ أُنْزِلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُمْ يَنْكُرُونَهُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾.

بين أنهم بنوا على غير أصل طريقهم، واتبعوا فيما ابتدعوه أهواءهم، وعلى غير شرع من الله أو حجة أو بيان أسسوا مذاهبهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾.

تستميلهم طوارق أحوالهم؛ فإن كانت نعمة فإلى فرح، وإن كانت شدة فإلى قنوط وترح... وليس وصف الأكابر كذلك؛ قال تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الإشارة فيها إلى أن العبد لا يعلّق قلبه إلا بالله؛ لأن ما يسوءهم ليس زواله إلا بالله، وما يسرهم ليس وجوده إلا من الله، فالبسط الذي يسرهم ويونسهم منه وجوده، والقبض الذي يسوءهم ويوحشهم منه حصوله، فالواجب لزوم عقوبة^(١) الأسرار، وقطع الأفكار عن الأغيار.

قوله جل ذكره: ﴿فَتَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقُّهَا وَالْيَتِيمَ وَالْإِسْكِينَ وَإِنَّ السَّبِيلَ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

القربة على قسمين: قرابة النسب وقرابة الدين، وقرابة الدين أمس، وبالمواساة أحق وإذا كان الرجل مشغلاً بالعبادة، غير متفرغ لطلب المعيشة فالذين لهم إيمان بحاله، وإشراف على وقته يجب عليهم القيام بشأنه بقدر ما يمكنهم، مما يكون له عون على الطاعة وفراغ القلب من كل علة؛ فاشتغال الرجل بمراعاة القلب يجعل حقه أكّد، وتفقّده أوجب.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾: المريد هو الذي يُؤثِرُ حق الله على حظ نفسه؛ فإيثار المريد وجه الله أتم من مراعاته حال نفسه، فهيمته في الإحسان إلى ذوي القربى والمساكين تتقدم على نظره لنفسه وعباله وما يهيمه من خاصته.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا آتَيْنَا مِنْ رَبٍّ لَّا نَبْرَأُ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَوْنَ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْنَا مِنْ دُونِ ذَلِكَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْلِعُونَ﴾.

إتياء الزكاة بأن تريد بها وجه الله، وألا تستخدم الفقير لما تبرز به من رافقه، بل

(١) العقوبة: الساحة، وما حول الدار والمحلة. (اللسان ٧٩/١٥ مادة: عقا).

أفضل الصدقة على ذي رَحِم كاشح^(١) حتى يكون إعطاؤه لله مجرداً عن كل نصيب لك فيه، فهؤلاء هم الذين يضاعف أجْرهم: قهرهم لأنفسهم حيث يخالفونها، وفوزهم بالعوض من قبل الله.

ثم الزكاة هي التطهير، وتطهير المال معلوم ببيان الشريعة في كيفية إخراج الزكاة، وأصناف المال وأوصافه.

زكاة البدن وزكاة القلب وزكاة السر. كل ذلك يجب القيام به.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيْذُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَٰذَا مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَٰلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾ حرف يقتضي التراخي؛ وفي ذلك إشارة إلى أنه ليس من ضرورة خلقه إياك أن يرزقك؛ كنت في ضعف أحوالك ابتداء ما خلقك، فأثبتك وأحياك من غير حاجة لك إلى رزق؛ فإلى أن خرجت من بطن أمك: إما أن كان يُغنيك عن الرزق وأنت جنين في بطن الأم ولم يكن لك أكل ولا شرب، وإما أن كان يعطيك ما يكفيك من الرزق - إن حق ما قالوا: إن الجنين يتغذى بدم الطمث^(٢). وإذا أخرجك من بطن أمك رزقك على الوجه المعهود في الوقت المعلوم، فيسر لك أسباب الأكل والشرب من لبن الأم، ثم من فنون الطعام، ثم أرزاق القلوب والسرائر من الإيمان والعرفان وأرزاق التوفيق من الطاعات والعبادات، وأرزاق اللسان من الأذكار وغير ذلك مما جرى ذكره.

﴿ثُمَّ يُعِيْذُكُمْ﴾ بسقوط شهواتكم، ويميتكم عن شواهدكم.

﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بحياة قلوبكم ثم يحييكم بربكم.

ويقال: من الأرزاق ما هو وجود الأرفاق ومنها ما هو شهود الرزاق.

ويقال: لا مكتة لك في تبديل خلقك، وكذلك لا قدرة لك على تعسر رزقك، فالموسع عليه رزقه - بفضل سبحانه. لا بمناقب نفسه، والمقتّر عليه رزقه بحكمه سبحانه. لا بمعاييب نفسه.

﴿هَٰذَا مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَٰلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ هل من شركائكم الذين أثبتوهم أي من الأصنام أو توهمتوهم من جملة الأنام. من يفعل شيئاً من ذلك؟ ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ﴾ تنزيهاً له وتقديساً.

(١) الكاشح: العدو المغض. (اللسان ٥٧٢/٢ مادة: كشح).

(٢) الطمث: دم الحيض.

قوله جل ذكره: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

الإشارة من البر إلى النفس، ومن البحر إلى القلب.

وفساد البر بأكُل الحرام وارتكاب المحظورات، وفساد البحر من الغفلة والأوصاف الذميمة مثل سوء العزم والحسد والحقد وإرادة الشرّ والفسق. . وغير ذلك. وعقْد الإصرار على المخالفات من أعظم فساد القلب، كما أنَّ العزم على الخيرات قبل فعلها من أعظم الخيرات.

ومن جملة الفساد التأويلات بغير حق، والانحطاط إلى الرخص في غير قيام بجِد، والإغراق في الدعاوى من غير استحياء من الله تعالى.

﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: بعض الذي عملوا من سقوط تعظيم الشرع من القلب، وعدم التأسف على ما فاتته من الحق.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾.

﴿سِيرُوا﴾ بالاعتبار، واطلبوا الحق بنعت الأفكار.

﴿فَانظُرُوا﴾ كيف كانت حال مَنْ تقدّمكم من الأشكال والأمثال، وقيسوا عليها حكمكم في جميع الأحوال. ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ كانوا أكثرهم عدداً، ولكن كانوا في التحقيق أقلهم وزناً وقُدراً.

قوله جل ذكره: ﴿فَاقْرَءْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَاسِمِ مِن قَبْلُ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ﴾.

أخلص قُضْدَكَ وصدق عَزْمِكَ للدين القيم بالموافقة والاتباع دون الاستبداد بالأمر على وجه الابتداع. فَمَنْ لم يتأدب بِمَنْ هو إمام وقته ولم يتلقف الأذكار ممن هو لسان وقته كان خُسْرَانَهُ أَتَمَّ من رِبْحِهِ، ونقصائه أَعَمَّ من نفعه^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُوكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلِتُكْمِلُوا شُكْرَكُمْ﴾.

يرسل رياح الرجاء على قلوب العباد فتكنس عن قلوبهم غبار الخوف وغُثاء اليأس، ثم يرسل عليها أمطار التوفيق فتحملهم إلى بساط الجُهد، وتكرمهم بقوى النشاط. ويرسل رياح البسط على أرواح الأولياء فيطهرها من وحشة القبض، وينشر

(١) الآيتان (٤٤، ٤٥) لم تردا.

فيها إرادة الوصال . ويرسل رياح التوحيد فتهب على أسرار الأصفياء فيطهرها من آثار العناء ، ويبشرها بدوام الوصال . . فذلك ارتياح به ولكن بعد اجتياح عنك .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَهَاءُ وَهُمْ بِالْبَيْتَةِ فَاَنْتَقَمْنَا مِنْ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

أرسلنا من قبلك رسلاً إلى عبادنا، فَمَنْ قابِلهم بالتصديق وصل إلى خلاصة التحقيق، وَمَنْ عارضهم بالجحود أذقناهم عذاب الخلود، فانتقمنا من الذين أجمعوا، وأخذناهم من حيث لم يحتسبوا، وشوشتنا عليهم ما أملوا، ونقضنا عليهم ما استطابوا وتنعّموا، وأخذنا بخناقهم فحاق بهم ما مكروا .

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بتوطنتهم بأعقاب أعدائهم، ولم يلبثوا إلا يسيراً حتى رقيناهم فوق رقابهم، وخزبنا أوطان أعدائهم، وهدمنا بنيانهم، وأخذنا نيرانهم، وعطلنا عنهم ديارهم، ومحونا بقهر التدمير آثارهم، فظلت شمسهم كاسفة، ومكيدة قهرنا لهم بأجمعهم خاسفة .

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ فَتُبْرِ سَحَابًا فَيَسْطُرُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُ كِسْفًا فَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ .

يرسل رياح عطفيه وجوده مبشرات بوضله وجوده، ثم يُنمطر جود غيبه على أسرارهم بلطفه، ويطوي بساط الحشمة عن ساحات قُربه، ويضرب قباب الهيبة بمشاهد كشفه، وينشر عليهم أزهار أنسه، ثم يتجلى لهم بحقائق قُده، ويسقيهم بيده شراب حبه، وبعد ما محاهم عن أوصافهم أصحابهم - لا بهم - ولكن بنفسه، فالعبارات عن ذلك خُزُس، والإشارات دونها طُمُس .

قوله جل ذكره: ﴿فَانظُرْ إِلَى ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ ءَاثَرِ الْقُوَّةِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

يحيي الأرض بأزهارها وأنوارها عند مجيء الأمطار ليُخرج زرعها وثمارها، ويحيي النفوس بعد نُفُوتها، ويوفقها للخيرات بعد فترتها، فتعمر أوطان الرِّفاق بصادق إقدامهم، وتندفع البلايا عن الأنام ببركات أيامهم، ويحيي القلوب بعد غفلتها بأنوار المحاضرات، فتعود إلى استدامة الذكر بحسن المراعاة، ويهتدي بأنوار أهلها أهل العسر من أصحاب الإرادات، ويحيي الأرواح بعد حجبها - بأنوار المشاهدات، فتطلع شمسها عن بُرج السعادة، ويتصل بمشام أسرار الكافة نسيم ما يفيض عليهم من الزيادات، فلا يبقى صاحب نفس إلا حظي منه بنصيب، ويُخفي الأسرار - وقد تكون لها وقفة في بعض الحالات - فتنتفي بالكلية آثار الغيرية، ولا يَبْقَى في الدار ديار

ولا من سكانها آثار؛ فسَطَوَاتُ الحَقَائِقِ لَا تُثَبِّتُ لَهَا دَرَّةً مِنْ صِفَاتِ الْخَلَائِقِ، هُنَاكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ.. سَقَطَ الْمَاءُ وَالْقَطْرَةُ، وَطَاحَتِ الرُّسُومُ وَالْجُمْلَةُ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾.

إِذَا انْسَدَّتْ الْبَصِيرَةُ عَنِ الْإِدْرَاكِ دَامَ الْعَمَى عَلَى عَمُومِ الْأَوْقَاتِ.. كَذَلِكَ مَنْ حَقَّقَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَاوَةُ جَرَّتْهُ إِلَى نَفْسِهَا - وَإِنْ تَبَوَّأَ الْجَنَّةَ مَنْزِلًا.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدَرِينًا﴾.

مَنْ فَقَدَ الْحَيَاةَ الْأَصْلِيَّةَ لَمْ يَعْشُ بِالرُّقَى وَالتَّمَائِمِ، وَإِذَا كَانَ فِي السَّرِيرَةِ طَرَشٌ عَنْ سَمَاعِ الْحَقِيقَةِ فَسَمِعَ الظَّاهِرَ لَا يَفِيدُهُ آكُذُ الْحُجَّةِ. وَكَمَا لَا يُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ فَكَذَلِكَ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَهْدِيَ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

أَظْهَرَهُمْ عَلَى ضَعْفِ الصَّغَرِ وَالطُّفُولِيَّةِ ثُمَّ بَعْدَهُ قُوَّةُ الشَّبَابِ ثُمَّ ضَعْفُ الشَّيْبِ
ثم:

آخِرُ الْأَمْرِ مَا تَرَى الْقَبِيرَ وَاللَّحْدَ وَالشَّرَى

كَذَلِكَ فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِهِمْ يَظْهَرُهُمْ عَلَى وَصْفِ ضَعْفِ الْبَدَايَةِ فِي نَعْتِ التَّرَدُّدِ وَالْحَيْرَةِ فِي الطَّلَبِ، ثُمَّ بَعْدَ قُوَّةِ الْوَصْلِ فِي ضَعْفِ التَّوْحِيدِ.

وَيُقَالُ أَوَّلًا ضَعْفُ الْعَقْلِ لِأَنَّهُ بِشَرَطِ الْبَرَهَانِ وَتَأْمَلُهُ، ثُمَّ قُوَّةُ الْبَيَانِ فِي حَالِ الْعُرْفَانِ، لِأَنَّهُ بِسُطُوَّةِ الْوُجُودِ ثُمَّ بَعْدَهُ ضَعْفُ الْخُمُودِ، لِأَنَّهُ الْخُمُودُ يَتَلَوُّ الْوُجُودَ وَلَا يَبْقَى مَعَهُ أَثَرٌ.

وَيُقَالُ ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾: أَيُّ حَالِ ضَعْفٍ مِنْ حَيْثُ الْحَاجَةُ ثُمَّ بَعْدَهُ قُوَّةُ الْوُجُودِ ثُمَّ بَعْدَهُ ضَعْفُ الْمَسْكِنَةِ، قَالَ ﷺ: «أَحْيَيْتُنِي مَسْكِينًا وَأَمَتْنِي مَسْكِينًا وَاحْشَرْنِي فِي زَمَرَةِ الْمَسَاكِينِ»^(١).

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَمْ يَشُؤْا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾.

إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ لِأَحَدِ أَمْرَيْنِ: إِمَّا لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَمْوَاتًا.. وَالْمِيتَ لَا إِحْسَاسَ لَهُ، أَوْ لِأَنَّهُمْ عَدَوْا مَا لَقُوا مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ بِالإِضَافَةِ إِلَى مَا يَرَوْنَ ذَلِكَ الْيَوْمَ يَسِيرًا. وَإِنْ أَهْلُ التَّحْقِيقِ يَخْبِرُونَهُمْ عَنْ طَوْلِ لُبِّيهِمْ تَحْتَ الْأَرْضِ. وَإِنْ ذَلِكَ الَّذِي يَقُولُونَهُ مِنْ جُمْلَةٍ مَا

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (زَهْد ٣٧)، وَابْنُ مَاجَةَ (زَهْد ٧).

كانوا يظهرون من جَخدمهم على موجب جهلهم، ثم لا يُسَمَعُ عُذْرُهُمْ، ولا يُدْفَعُ ضُرُّهُمْ.

وأخبر بعد هذا في آخر السورة عن إصرارهم وانهماكهم في غيِّهم، وأن ذلك نصيبهم من القسمة إلى آخر أعمارهم.

ثم خَتَمَ السورة بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام باصطباره على مقاساة مسارهم ومضارهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

السورة التي يذكر فيها لقمان

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة مَنْ سمعها أقرَّ أنه لا يسمع مثلها، وَمَنْ عَرَفَهَا أُنْفَ أَنْ يَسْمَعَ غيرها. كلمة مَنْ سمعها طابت قِصَّتُهُ، وزالت بكل وجهٍ غُصَّتُهُ، وَتَمَّتْ من النِّعَمِ في الدنيا والعقبى حِصَّتُهُ، وَزَهَّدَ في دنياه من غير رغبة في عقباه؛ لَأَنَّهُ - وَإِنْ جَلَّتْ - غيرُ مَولاه.

كلمة مَنْ سمعها لم يرغب في عمارة فناءه، ولم يتحشم سرعة وفائه.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي تَلَكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾.

الألف تشير إلى آلائه، واللام تشير إلى لطفه وعطائه، والميم تشير إلى مجده وسنائه؛ فبِآلائه يرفع الجَحْدَ عن قلوبِ أوليائه، وبِلطفه وعطائه يثبت المحبة في أسرار أصفياه، وبمجده وسنائه مستغني عن جميع خَلْقِهِ بوصف كبريائه.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾: المحروس عن التغير والتبديل.

قوله جل ذكره: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

هو هدى وبيان، ورحمة وبرهان للمحسنين العارفين بالله، والمقيمين عبادة الله كأنهم ينظرون إلى الله. وَشَرَطُ الْمُحْسِنِينَ أَنْ يَكُونَ مُحْسِنًا إِلَى عِبَادِ اللَّهِ: دانيهم وقاصيهم، ومطيعيهم وعاصيهم.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾: يأتون بشرائطها في الظاهر من ستر العورة، وتقديم الطهارة، واستقبال القبلة، والعلم بدخول الوقت، والوقوف في مكانٍ طاهر. وفي الباطن يأتون بشرائطها من طهارة السِّرِّ عن العلائق، وسِتْرِ عورةِ الباطنِ بتنقيته عن العيوب، لأنها مهما تكن فالله يراها؛ فإذا أَرَدْتَ ألا يرى الله عيوبك فاحذرْها حتى لا تكون. والوقوف في مكان طاهر، وهو وقوف القلب على الحد الذي أُذِنَتْ في الوقوف فيه مما لا يكون دعوى بلا تحقيق، وَرَجِمَ اللَّهُ مَنْ وَقَفَ عند حدِّه. والمعرفة بدخول الوقت فتعلم وقت التذلل والاستكانة. وتميز بينه وبين وقت السرور والبسط، وتستقبل القبلة بتفسيك، وتعلق قلبك بالله من غير تخصيص بقطرٍ أو مكان.

قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

الذين يقومون بشرط صلاتهم وحق آداب عبادتهم هم الذين اهتدوا في الدنيا والعقبى فسلّموا ونَجّوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَتَخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾: ما يشغل عن ذكر الله، ويخجّب عن الله سماعه. ويقال: هو لغو الظاهر الموجب سهو الضمائر، وهو ما يكون خوضاً في الباطل، وأخذاً بما لا يعينك.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا تُلِيَ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فَنَسِيَهُ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

المُفْتَرِقُ بِهِمْ، والمُتَشَتُّ بقلبه لا تزيده كثرة الوعظ إلا نفوراً وتبوّاً؛ فسماعه كلّ سماع، ووعظه هباءً وضياع، كما قيل:

إذا أنا عاتبْتُ المملوّ فإنما أخطُ بأقلامي على الماءِ أحرفاً
قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ أَلْعَمَ خَلِيلِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿ءَامَنُوا﴾: صدّقوا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: تحقّقوا؛ فاتصاف بتحقيقهم راجع إلى تصديقهم، فنَجّوا وسلّموا؛ فهم في راحتهم مقيمون، دائمون لا يترخون.

قوله جلّ ذكره: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَآلَقَنَ فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.

أمسك السموات بقدرته بغير عماد، وحفظها لا إلى سناد أو مشدودة إلى أوتاد، بل بحكم الله وبتقديره، ومشيتته وتديره.

﴿وَالَقَنَ فِي الْأَرْضِ رَوْسِي...﴾ في الظاهر الجبال، وفي الحقيقة الأبدال والأوتاد الذين هم غياث الخلق، بهم يقيم، وبهم يصرف البلاء عن قريبهم وقاصيهم.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...﴾ المطر من سماء الظاهر في رياض الخُضرة؛ ومن سماء الباطن في رياض أهل الدنوّ والخُضرة.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

هذا خَلَقُ الله العزيز في كبريائه، فأروني ماذا خَلَقَ الذين عبدتم من دونه في أرضه وسمائه؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

﴿الْحِكْمَةَ﴾ الإصابة في العقل والعقد والنطق. ويقال ﴿الْحِكْمَةَ﴾ متابعة الطريق من حيث توفيق الحق لا من حيث همة النفس. ويقال ﴿الْحِكْمَةَ﴾ ألا تكون تحت سلطان الهوى. ويقال ﴿الْحِكْمَةَ﴾ الكون بحكم من له الحكم. ويقال ﴿الْحِكْمَةَ﴾ معرفة قدر نفسك حتى لا تمدّ رجلك خارجاً عن كسائك. ويقال ﴿الْحِكْمَةَ﴾ ألا تستعصي على مَنْ تعلم أنك لا تقاومه.

﴿إِنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾: حقيقة الشكر انفراج عين القلب بشهود ملاطفات الربّ. فهو مقلوب قولهم: كَثُرَتْ عن أنيابها الداية؛ فيقال شكر وكشر مثل جذب وجذب.

ويقال الشكرُ تحققك بعجزك عن شكره. ويقال الشكر ما به يحصل كمال استلذاذ النعمة. ويقال الشكر فضلة تظهر على اللسان من امتلاء القلب بالسرور؛ فينطلق بمدح المشكور. ويقال الشكر نعت كل غني كما أن الكفران وصف كل لئيم. ويقال الشكر قرع باب الزيادة. ويقال الشكر قيد الإنعام. ويقال الشكر قصة يملئها صميم الفؤاد بنشر صحيفة الأفضال. ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ [النمل: ٤٠]: لأنه في صلاحها ونصيبتها يسعى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّكَ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

الشرك على ضربين: جلي وخفي؛ فالجلي عبادة الأصنام، والخفي حسابان شيء من الحدثان من الأنام. ويقال الشرك إثبات غير مع شهود الغيب. ويقال الشرك ظلم على القلب، والمعاصي ظلم على النفس، وظلم النفوس معرض للغفران، ولكن ظلم القلوب لا سبيل إليه للغفران.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْعَصِيرِ﴾.

أوجب الله شكر نفسه وشكر الوالدين. ولما حصل الإجماع على أن شكر الوالدين بدوام طاعتهما، وألا يكتفى فيه بمجرد النطق بالشثناء عليهما علم أن شكر الحق لا يكفي فيه مجرّد القول ما لم تكن فيه موافقه العقل؛ وذلك بالتزام الطاعة، واستعمال النعمة في وجه الطاعة دون صرفها في الرئّة؛ فشكر الحق بالتعظيم والتكبير، وشكر الوالدين بالإفناق والتوفير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَجْهَدَكَ عَلَيْهِ أَنْ تَشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا

وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَأَتَتْهُمَا مَيْمَنٌ مِّنْ آثَابِ اللَّهِ إِلَى ثَمَرٍ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾

إن جاهدك على أن تشرك بالله، أو تسعى بما هو زلة في أمر الله - فلا تطعهما، ولكن عاشرهما بالجميل؛ تخشين في تليين، فاجعل لهما ظاهرك فيما ليس فيه حرج، وانفرد بسرك الله، ﴿وَأَتَتْهُمَا مَيْمَنٌ مِّنْ آثَابِ اللَّهِ﴾: وهو المنيب إليه حقاً من غير أن تبقى بقية في النفس.

قوله جل ذكره: ﴿يَبْقَىٰ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

إذا كانت ذرة أو أقل من ذلك وسبقت بها القسمة فلا محالة تصل إلى المقسوم له بغير مرية.. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾: عالم بدقائق الأمور وخفاياها.

قوله جل ذكره: ﴿يَبْقَىٰ أَقِيرَ الصَّلَاةِ وَأَمْرٍ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصِيرٌ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

الأمر بالمعروف يكون بالقول، وأبلغه أن يكون بامتناعك بنفسك عما تُنهى عنه، واشتغالك واتصافك بنفسك بما تأمر به غيرك، ومن لا حُكْمَ له عَلَى نَفْسِهِ لا ينفذ حكمه على غيره.

والمعروف الذي يجب الأمر به هو ما يُوصَلُ العبد إلى الله، والمنكر الذي يجب النهي عنه هو ما يشغل العبد عن الله.

﴿وَأَصِيرٌ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ تنبيه على أن من قام لله بحق امتحن في الله؛ فسبيله أن يصبر لله - فإن من صبر لله لا يخسر على الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَتَّبِعْ فِي الْأَرْضِ مَرَجًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ﴾.

يعني لا تتكبر على الناس، وطالغهم من حيث النسبة والتحقيق بأنك بمشهد من مولاك. ومن علم أن مولاة ينظر إليه لا يتكبر ولا يتناول بل يتخاضع ويتضاءل.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ النَّمِيرِ﴾.

كُنْ فانيأ عن شواهدك، مُضْطَلَمًا^(١) عن صَوْتِكَ، مأخوذاً عن حَوْلِكَ وقوتك، مُتَشَبِّهاً^(٢) مما استولى عليك من كشوفات سِرِّكَ.

(١) اصطلم: استأصل.

(٢) انتشق الماء في أنفه واستنشقه: صبه فيه. (اللسان ١٠/٣٥٣).

وانظر مَنْ الذي يسمع صوتَكَ حتى تستفيق من خمار غفلتك؛ ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ النَّعِيرِ﴾: في الإشارة هو الذي يتكلم في لسان المعرفة من غير إذن من الحق. وقالوا: إنه الصوفي يتكلم قبل أوانه.

ويقال إنما ينهق الحمارُ عند رؤية الشيطان فلذلك كان صوته أنكرَ الأصوات.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾.

أثبت في كل شيء منها نفعاً لكم، فالسماوات لتكون لكم سقفاً، والأرض لتكون لكم فراشاً، والشمس لتكون لكم سراجاً، والقمر لتعلموا به عدد السنين والحساب، والنجوم لتتهدوا بها.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾: الإسباغ ما يفضل عن قدرة الحاجة ولا تحتاج معه إلى الزيادة.

قوله: ﴿نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾: تكلموا فيه فأكثروا. فالظاهرة وجود النعمة، والباطنة شهود المنعم. والظاهرة الدنيوية، والباطنة الدينية. والظاهرة حسن الخلق، والباطنة حسن الخلق. الظاهرة نفس بلا زلة، والباطنة قلب بلا غفلة. الظاهرة العطاء، والباطنة الرضاء. الظاهرة في الأموال ونمائها، والباطنة في الأحوال وصفاتها. الظاهرة النعمة، والباطنة العصمة. الظاهرة توفيق الطاعات، والباطنة قبولها. الظاهرة تسوية الخلق، والباطنة تصفية الخلق. الظاهرة صحبة الصالحين، والباطنة حفظ حُرْمَتِهِمْ. الظاهرة الزهد في الدنيا، والباطنة الاكتفاء بالمولى من الدنيا والعقبى. الظاهرة الزهد، والباطنة الوجد. الظاهرة توفيق المجاهدة والباطنة تحقيق المشاهدة. الظاهرة وظائف النفس، والباطنة لطائف القلب. الظاهرة اشتغالك بنفسك عن الخلق، والباطنة اشتغالك بربك عن نفسك. الظاهرة طلبه، الباطنة وجوده^(١). الظاهرة أن تصل إليه، الباطنة أن تبقى معه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا جَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

لم يتخطوا منهم ولا من أمثالهم، ولم يهتدوا إلى محوّل أحوالهم. فأما من سمّت نفسه، وخلص في الله فُضِّدَهُ فقد استمسك بالعروة الوثقى، وسلّك المحجّة المثلى: -

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

(١) انظر حديث القشيري عن الوجود بالرسالة ص ٦١ - ٦٤.

وعلى العكس: -

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُهُ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

إلينا إياهم، ومنا عذابهم، وعلينا حسابهم. ولئن سألتهم عن خالقهم لأقروا، ولكن إذا عادوا إلى غيهم نقضوا وأصروا^(١).

قوله جل ذكره: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

لله ما في السموات والأرض ملكاً، ويُجري فيهم حكمه حقاً، وإليه مرجعهم حتماً.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

لو أن ما في الأرض من الأشجار أقلام والبهار كانت مداداً، وبمقدار ما يقابله تُثَقِّقُ القراطيس^(٢)، ويتكلفُ الكتابُ حتى تنكسر الأقلام، وتنفى البحار، وتستوفي القراطيس، وتنفى أعمارُ الكتاب. ما نَفِدَتْ معاني ما لنا مَعَكَ من الكلام، والذي نُسَمِّعُ فيما نخاطبك به لأنك معنا أبَدُ الأبد، والأبدى من الوصف لا يتناهى.

ويقال إن كان لك معكم كلام كثير فما عندكم ينفذ وما عند الله باقي:

صحائفٌ عندي للعتابِ طَوْنُهَا سَتُنَشِّرُ يَوْمًا والعتابُ يطول

قوله جل ذكره: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَفْهٍ وَاجِدٌ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

إيجادُ القليل أو الكثير عليه وعنده سيان؛ فلا من الكثير مشقة وعُسْر، ولا من القليل راحةٌ ويُسر، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] يقوله بكلمته ولكنه يكونه بقدرته، لا بمزاولة جهد، ولا باستفراغ وسع، ولا بدعاء خاطر، ولا بطرؤٍ غَرَضٍ^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

﴿اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾: الكائنُ الموجود، مُحِقُّ الحق، و﴿مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ﴾:

من العدمِ ظَهَرَ ومعه جوازُ العدم.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

(١) الآيات (٢٤، ٢٥) لم ترد.

(٢) القراطيس: (ج) القرطاس: الصحيفة التي يكتب فيها.

(٣) الآية (٢٩) لم ترد.

في الظاهر سلامتهم في السفينة، وفي الباطن سلامتهم من حدثان الكون، ونجاتهم في سفائن العصمة في بحار القدرة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ وَقُوفٍ لَا يَنْهَزَمُ مِنَ الْبَلَايَا، شُكُورٍ عَلَى مَا يَصِيبُهُ مِنْ تَصَارِيفِ التَّقْدِيرِ مِنْ جَنْسِي الْبَلَايَا وَالْعَطَايَا.

قوله جل ذكره: ﴿وَلِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجٌ كَالظُّلُلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَلَغَهُمُ الْبَرْقُ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَسَّارٍ كَفُورٍ﴾.

إذا تلاطمت عليهم أمواج بحار التقدير تمنوا أن تلفظهم تلك البحار إلى سواحل السلامة، فإذا جاد الحق بتحقيق مناهم عادوا إلى رأس خطاياهم:

وكم قد جهلتم ثم عُدْنَا بِحِلْمِنَا أَحِبَاءَنَا: كم تجهلون وتَحْلُم! قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْفُورًا رِجَالًا وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّكَ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾.

يخوفهم مرةً بأفعاله فيقول: ﴿وَأَنْفُورًا يَوْمًا﴾ [البقرة: ٤٨]، ومرةً بصفاته فيقول: ﴿أَلَمْ يَكُنْ بِأَنَّ اللَّهَ بَرٌّ﴾ [العلق: ١٤] ومرةً بذاته فيقول: ﴿وَيُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ نَفْسُكُمْ﴾ [آل عمران: ٢٨].

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾. يتفرد بعلم القيامة، ويعلم ما في الأرحام ذكورها وإناثها، شقيها وسعيدها، حسننها وقبيحها ويعلم متى يُنزل الغيث، وكم قطرة يُنزل، وبأي بقعة يُمطرها. ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

ما تدري نفس ماذا تكسب غداً من خير وشر، ووافق وشقاق، وما تدري نفس بأي أرض تموت؛ أنتدرك مرادها أم يفوت؟

سورة السجدة

قوله جل ذكره: ﴿يَسْمِعُ اللَّهُ الرَّخْصَ الرِّجِيَّةَ﴾.

كلمة سماعها ربيع الجميع، من العاصي والمطيع، والشريف والوضيع. مَنْ أَصغى إليها بسمع الخضوع ترك طيب الهجوع، وَمَنْ أَصغى إليها بسمع المحاب ترك لذية الطعام والشراب.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الإشارة من الألف إلى أنه أَلِفَ المحبون قربتي فلا يصبرون عني، وَأَلِفَ العارفون تمجدي فلا يستأنسون بغيري.

والإشارة في اللام إلى لقائي المُدْخِرِ لأحبائي، فلا أبالي أقاموا على ولائي أم قَصُرُوا في وفائي.

والإشارة في الميم: أي تَرَكَ أوليائي مرادهم لمرادي.. فلذلك آثرتهم على جميع عبادي.

﴿نَزَّلَ الْكِتَابَ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ٢]: إذا تَعَذَّرَ لقاء الأحبابِ فأعزَّ شيء على الأحباب كتاب؛ أنزلت على أحبائي كتابي، وَحَمَلْتُ إليهم الرسالة خطابي، ولا عليهم إن قرع أسماعهم عتابي، فَهُمْ فِي أمانٍ من عذابي.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّهٖ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ إِنِ شِئِدَر قَوْمًا مَّا أَنَّهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

الذي لكم منا حقيقة، وإن التبس على الأعداء فليس يضيركم، ولا عليكم، فإنَّ صحبة الحبيب مع الحبيب أَلَدُّها ما كان مقروناً بفقد الرقيب.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

وتلك الأيام خَلَقَهَا مِنْ خَلْقٍ غير الأيام، فليس من شرط المخلوق ولا من ضرورته أن يخلقه في وقت؛ إذ الوقت مخلوق في غير الوقت وكما يستغنى في كونه مخلوقاً عن الوقت استغنى الوقت عن الوقت.

﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾: ليس للعرش من هذا الحديث إلا هذا الخبر، ﴿أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ولكن القديم ليس له حد، استوى على العرش لكن لا يجوز عليه القرب بالذات ولا البعد، استوى على العرش ولكنه أشد الأشياء تَعَطُّشاً إلى شظية من الوصال لو كان للعرش حياة؟، ولكن العرش جماد. . وأنى يكون للجماد مراد؟! استوى على العرش لكنه صَمَدٌ بلا يد، أَحَدٌ بلا حد.

﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾: إذا لم يُرْذِ بكم خيراً فلا سماء عنه تُظِلُّكم، ولا أرض بغير رضاه تُقِلُّكم، ولا بالجواهر أحدٌ يناصركم، ولا أحد - إذا لم يُغْنِ بشأنكم في الدنيا والآخرة - ينظر إليكم. قوله جل ذكره: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾.

خاطَبَ الْخَلْقَ - على مقدار أفهامهم ويجوز لهم - عن الحقائق التي اعتادوا في تخاطبهم.

﴿ذَٰلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.
﴿الْعَزِيزُ﴾ مع المطيعين ﴿الرَّحِيمُ﴾ على العاصين.
﴿الْعَزِيزُ﴾ للمطيعين ليُخَسِّرَ صولتهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ للعاصين ليرفع زلَّتْهم.
قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾:

أَحْسَنَ صورة كل أحد؛ فالعرش ياقوتة حمراء، والملائكة أولو أجنحة مثنى وثلاث ورباع، وجبريل طاووس الملائكة، والحوور العين - كما في الخير - «في جمالها وأشكالها، والجنان» - كما في الأخبار ونص القرآن. فإذا انتهى إلى الإنسان قال: ﴿وَخَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٧، ٨] . . . كل هذا ولكن:

وكم أبصرت من حُسن ولكن عليك من الورى وقع اختياري
خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ طِينٍ وَلَكِنْ ﴿يُحْيِيهِمْ وَيُمِيتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وخلق الإنسان من طين ولكن: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البينة: ٨]، وخلق الإنسان من طين ولكن ﴿رَوَى اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾^(١) [المائدة: ١١٩]!

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا لَوْذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ لَأَوَّلَا لَنِي خَلَقَ جَدِيدٌ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾.

(١) الآية (٩) لم ترد.

لو كانت لهم ذرّة من العرفان، وشمّة من الاشتياق، ونسمة من المحبة لما تعصّبوا كلّ هذا التعصب في إنكار جواز الرجوع إلى الله ولكن قال: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَتُوفَنَكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

لولا غفلة قلوبهم وإلا لما أحال قبض ارواحهم على ملك الموت؛ فإنّ ملك الموت لا أثر منه في أحد، ولا له تصرفات في نفسه، وما يحصل من التوفي فمن خصائص قدرة الحق. ولكنهم غفلوا عن شهود حقائق الربّ فخاطبهم على مقدار فهمهم، وعلق بالأغيار قلوبهم، وكلّ يخاطب بما يختمل على قدر قوّته وضعفه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

ملكّتهم الدهشة وغلبتهم الخجلة، فاعتذروا حين لا عذر، واعترفوا ولا حين اعتراف.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

لو شئنا لسهلنا سبيل الاستدلال، وأدمننا التوفيق لكلّ أحد، ولكن تعلّقت المشيئة بإغواء قوم، كما تعلّقت بإدناء قوم، وأردنا أن يكون للنار قطّان، كما أردنا أن يكون للجنة سكران، ولأنّا علمنا يوم خلقنا الجنة أنه يسكنها قوم، ويوم خلقنا النار أنه ينزلها قوم، فمنّ المحال أن نريد ألا يقع معلومتنا، ولو لم يحصل لم يكن علماً، ولو لم يكن ذلك علماً لم نكن إلهاً. ومن المحال أن نريد ألا نكون إلهاً.

ويقال: من لم يتسلط عليه من يحبه لم يجر في ملكه ما يكرهه.

ويقال: يا مسكين أفنيت عمرك في الكد والعناء، وأمضيت أيامك في الجهد والرجاء، غيرت صفتك، وأكثرت مجاهدتك. فما تفعل في قضائي كيف تبدّله؟ وما تصنع في مشيتي بأيّ وسع تزدها؟ وفي معناه أنشدوا:

شكا إليك ما وجد من خائفة فيك الجلد
حيران لو شئت اهتدى ظمآن لو شئت ورّد

قوله جلّ ذكره: ﴿فَذُوقُوا يَمَا نَبِئْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَكُم وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قاسٍ من الهوانِ ما استوجبته بعصيانك، واخُلدُ في دارِ الخِزي لما أسلفته من كفرانك.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

التصديق والتكذيب ضدان - والضدان لا يجتمعان؛ التكذيب هو جحود واستكبار، والتصديق هو سجود وتحقيق، فَمَنْ اتَّصَفَ بِأَحَدٍ، الْقَسَمِينَ امْحَى عَنْهُ الثَّانِي.

﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾: سجدوا بظواهرهم في المحراب، وفي سرائرهم على ترابِ الخضوع وبساطِ الخشوع بنعت الذبول وحُكم الخمود.

ويقال: كيف يستكبر مَنْ لَا يَجِدُ كَمَالَ رَاحَتِهِ وَلَا حَقِيقَةَ أَنْسِهِ إِلَّا فِي تَذَلُّلِهِ بَيْنَ يَدَيِ مَعْبُودِهِ، وَلَا يُؤْزِرُ أَجَلَ جَحِيمِهِ عَلَى نَعِيمِهِ، وَلَا شِقَاءَهُ عَلَى شِفَائِهِ؟!.

قوله جلّ ذكره: ﴿نَجَّيْنَا جُنُودَهُمْ مِنَ الْعَصَاجِ يَذَّكَّرُونَ رَبِّهِمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

في الظاهر: عن الفِراش قياماً بحقّ العبادة والجهد والتهجد. وفي الباطن: تتباعد قلوبهم عن مضاجعات الأحوال، ورؤية قَدَرِ النفس، وتوَهُمُ المَقَام - فإن ذلك بجملته حجابٌ عن الحقيقة، وهو للعبد سُمٌّ قاتل - فلا يساكنون أعمالهم ولا يلاحظون أحوالهم. ويفارقون مآلِفهم، ويهجرون في الله معارفهم.

والليل زمان الأحباب، قال تعالى: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ [يونس: ٦٧]: يعني عن كلِّ شُغْلٍ وحديثٍ سوء حديثٍ محبوبكم. والنهارُ زمانُ أهل الدنيا، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ مَعَاذًا﴾ [النبا: ١١]، أولئك قال لهم: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠].

إذا ناجيتُمونا في ركعتين في الجمعة فعودوا إلى متجركم، واشتغلوا بحرفتكُم. وأما الأحبابُ فالليلُ لهم إما في طَرَبِ التلاقي وإما في حَرَبِ الفراقِ، فإن كانوا في أُنْسِ القربة فَلْيَلْهُمُ أَقْصَرُ من لحظة، كما قالوا:

زارني مَنْ هَوَيْتُ بَعْدَ بَعَادٍ بِوَصَالِ مُجَدِّدٍ وَوَدَادٍ
ليلة كاد يلتقي طرفاها قِصَراً وهي ليلة الميعادِ
وكما قالوا:

وليلة زَيْنُ ليالي الدهر قابلتُ فيها بدرها ببدر

لم تَسْتَبِينَ عَنْ شِقْوَ فَجَرٍ حَتَّى تَوَلَّيْتِ وَهِيَ بِكُرِّ الدَّهْرِ
وَأَمَّا إِنْ كَانَ الْوَقْتُ وَقْتُ مَقَاسَةِ فُرْقَةٍ وَانْفِرَادِ بِكُرْبَةٍ فَلْيُلْهِمْ طَوِيلَ، كَمَا قَالُوا:
كَمْ لَيْلَةٍ فِيكَ لَا صَبَاحَ لَهَا أَفْنَيْتُهَا قَابِضاً عَلَى كِبْدِي
قَدْ غُصَّتِ الْعَيْنُ بِالدَّمْعِ وَقَدْ وَضَعْتُ خَدِي عَلَى بَنَانِ يَدِي
قوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]: قَوْمٌ خَوْفًا مِنَ الْعَذَابِ وَطَمَعًا
فِي الثَّوَابِ، وَآخَرُونَ خَوْفًا مِنَ الْفِرَاقِ وَطَمَعًا فِي التَّلَاقِ، وَآخَرُونَ خَوْفًا مِنَ الْمَكْرِ
وَطَمَعًا فِي الْوَصْلِ.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾: يَأْتُونَ بِالشَّاهِدِ الَّذِي خَصَصْنَاهُمْ بِهِ؛ فَإِنْ طَهَّرْنَا
أَحْوَالَهُمْ عَنِ الْكَدُورَاتِ حَضَرُوا بِأَحْوَالٍ مُقَدَّسَةٍ، وَإِنْ دَنَسُوا أَوْقَاتَهُمْ بِالْآفَاتِ شَهِدُوا
بِحَالَاتٍ مُدَنَسَةٍ، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ فَالْعَبْدُ إِنَّمَا يَتَجَرَّ فِي الْبُضَاعَةِ الَّتِي يُوَدِّعُهَا
لَدَيْهِ سَيِّدُهُ:

يَفْدِيكَ بِالرُّوحِ صَبٌّ لَوْ يَكُونُ لَهُ أَعَزُّ مِنْ رُوحِهِ شَيْءٌ فَدَاكَ بِهِ
قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.
إِنَّمَا تَقَرُّ عَيْنُكَ بِرُؤْيَا مَنْ تَحِبُّهُ، أَوْ مَا تَحِبُّهُ؛ فَطَالِبُ قَلْبِكَ وَرَازِ حَالِكَ، فَيَحْصُلُ
الْيَوْمَ سُرُورُكَ، وَكَذَلِكَ غَدًا. . . وَعَلَى ذَلِكَ تَحْشُرُ؛ فَفِي الْخَبَرِ:
«مَنْ كَانَ بِحَالَةٍ لَقِيَ اللَّهَ بِهَا».

ثُمَّ إِنَّ وَصْفَ مَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِنَّهُ لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ - مُحَالٌ، اللَّهُمَّ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهَا
حَالٌ عَزِيزَةٌ، وَصِفَةٌ جَلِيلَةٌ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾.

أَفَمَنْ كَانَ فِي حَالِ الْوَصَالِ يَجْزِي أَذْيَالَهُ كَنْتَ هُوَ فِي مَذَلَّةِ الْفِرَاقِ يَقَاسِي وَبِأَلِهِ؟
أَفَمَنْ كَانَ فِي رَوْحِ الْقُرْبَةِ وَنَسِيمِ الزَّلْفَةِ كَمَنْ هُوَ فِي هَوْلِ الْعُقُوبَةِ يَعَانِي مَشَقَّةَ
الْكَلْفَةِ؟

أَفَمَنْ هُوَ فِي رَوْحِ إِقْبَالِنَا عَلَيْهِ كَمَنْ هُوَ مُحَنَةٌ إِعْرَاضِنَا عَنْهُ؟

أَفَمَنْ بَقِيَ مَعَنَا كَمَنْ بَقِيَ عَنَّا؟

أَفَمَنْ هُوَ فِي نَهَارِ الْعُرْفَانِ وَضِيَاءِ الْإِحْسَانِ كَمَنْ هُوَ فِي لِيَالِي الْكُفْرَانِ وَوَحْشَةِ
الْعَصِيَانِ؟

أَفَمَنْ أُيِّدَ بِنُورِ الْبِرْهَانِ وَطَلَعَتْ عَلَيْهِ شَمُوسُ الْعُرْفَانِ كَمَنْ رِبَطَ بِالْخَذْلَانِ وَوُثِمَ
بِالْحَرَمَانِ؟ لَا يَسْتَوِيَانِ وَلَا يَلْتَقِيَانِ!

قوله جل ذكره: ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.
 ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: صَدَقُوا، و﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: بما حَقَّقُوا - فلهم حُسْنُ الحال،
 وحميدُ المَالِ وجزيلُ المنال، وأما الذين كَذَّبُوا وجحدوا، وفي معاملاتهم أَسَاءُوا
 وأفسدوا، فقصاراهم الخزيُّ والهوان، وفنونٌ من المحنِ وألوانٌ.. كلما راموا من
 محنتهم خلاصاً ازدادوا فيها انتكاساً، ولكما أَمَلُوا نَجاةً جَزَعُوا وزيدوا ياساً^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.
 قومٌ عذابهم الأدنى مِحْنٌ الدنيا، والعذابُ الأكبرُ لهم عقوبةُ العنبي^(٢).
 وقومُ العذابِ الأدنى لهم فترةٌ تتداخلهم في عبادتهم، والعذابُ الأكبرُ لهم قسوةٌ
 في قلوبهم تصيبهم.

وقومُ العذابِ الأدنى لهم وقفةٌ في سلوكهم تُنِيبهم، والعذابُ الأكبرُ لهم حجةٌ
 عن مشاهدتهم تَالَهُم، قال قائلهم:

أَذْبَتَنِي بَانَصْرَافٍ قَلْبِكَ عَنِّي فَاَنْظُرْ إِلَيَّ فَقَدْ أَحْسَنْتَ تَأْدِيبِي

ويقال العذاب الأدنى الخذلان في الزلة، والأكبر الهجران في الوصلة.

ويقال العذاب الأدنى تَكَدَّرُ مشاربهم بعد صفوها، كما قالوا:

لَقَدْ كَانَ مَا بَيْنِي زَمَانًا وَبَيْنَهُ كَمَا بَيْنَ رِيحِ الْمَسْكِ وَالْعَنْبَرِ الْوَرْدِ

ويقال العذاب الأكبر لهم تطاولُ أيامِ الغياب من غير تبين آخر لها، كما قيل:

تَطَاوَلَ نَأِينَا يَا نُورَ حَتَّى كَأَنَّ نَسَجَتْ عَلَيْهِ الْعَنْكَبُوتُ

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ﴾.

إذا نَبَّهَ العبدُ بأنواع الرُّجَرِ، وَحُرْكَ - لَتَرْكِهِ حدودُ الرِّقَاقِ - بصنوفٍ من التَّأْدِيبِ
 ثم لم يَرتدِعْ عن فعله، واغترَّ بطول سلامته، وأَمِنَ من هَواجِمِ مَكْرِهِ، وخفَّيَا سِرِّهِ..
 أَخَذَهُ بَغْتَةً بَحِيثٌ لَا يَجِدُ خُرْجَةً مِنْ أَخَذَتِهِ، قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا الْيَوْمَ لَكُم مِّنَّا لَا
 تُنْصَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٥].

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى
 لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

(١) الآية (٢٠) لم ترد.

(٢) العنبة: بشرة تخرج بالإنسان تعدي، تسمند، فترم، وتمتلىء ماء، وتوجع، تأخذ الإنسان في عينه وحلقه. (اللسان ١/ ٦٣٠ مادة: عنب).

فلا تكن في مرية من لقائه غداً لنا ورؤيته لنا .

﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ :

وهذا محمد ﷺ جُعلَ رحمةً للعالمين .

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ .

لَمَّا صَبَرُوا على طلبنا سَعِدُوا بوجودنا، وتعدى ما نالوا من أفضالنا إلى مُتَبِعِيهِمْ، وانبسط شعاعُ شمسهم على جميع أهلِهِمْ؛ فهم للخلق هُداةٌ، وفي الدين عيون، وللمسترشدين نجوم .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ .

يحكم بينهم، وعند ذلك يتبين المردودُ من المقبول، والمهجور من الموصول، والرضي من الغوي، والعدو من الولي . . فكم من بهجةٍ دامت هنالك! وكم من مهجةٍ ذابت عند ذلك! .

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ .

أو لم يعتبروا بمنازلِ أقوام كانوا في خِبرةٍ فصاروا عِبرةً، كانوا في سرورٍ فالأوا إلى ثبور؛ فجميع ديارهم ومزارهم صارت لأغيارهم، وصنوفُ أموالهم عادت إلى أشكالهم، سكنوا في ظلالهم ولم يعتبروا بمن مضى من أمثالهم، وكما قيل:

نعمتُ كانت على قوم م زماناً ثم بـانت
هكذا النعمة والإحـ سانُ مذ كان وكانت

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَاهُ إِلَى الْآرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ (١) .

الإشارة فيه: تُسقى حدائقُ وُضْلِهِمْ بعد جفاف عُودِها، وزوال المأنوسِ من معهودِها، فيعود عُودُها مورقاً بعد ذبوله، حاكياً بحاله حال حصوله .

قوله جل ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ .

استبعدوا يومَ التلاقي وجحدوه، فأخبرهم أنه ليس لهم إلا الحسرة. والمحنة إذا شهدوه .

(١) الأرض الجزر: قيل: إنها أرض اليمن وقيل: أرض جزر لا نبات بها كأنه انقطع عنها أو انقطع عنها المطر. (اللسان ٣١٧/٥ مادة: جزر).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْظُرْ إِلَهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ .
 أعرض عنهم باشتغالك بنا، وإقبالك علينا، وانقطاعك إلينا .
 ﴿وَانْظُرْ﴾ زوائد وضيئنا، وعوائد لطفنا .
 ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ هواجم مقتنا وخفايا مكرنا . . وعن قريب يجد كل منتظره
 محتضراً .

سورة الأحزاب

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله شهود وجوده يوجب لك تلفاً في تلف، ووجود وجوده يوجب لك شرفاً في شرف، ففي تلفك يكون (هو) عنك الخلف، وفي شرفك تصل إلى كل لطف.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

يا أيها المشرف حالاً، المفتح قدرأ منّا، المعلى رتبة من قبلنا. . يا أيها المرقي إلى أعلى الرتب بأسنى القرب. . يا أيها المخبر عنا، المأمون على أسرارنا، المبلغ خطابنا إلى أحبائنا. . اتق الله أن تلاحظ غيراً معنا، أو تساكين شيئاً من دوننا، أو تثبت أحداً سوانا، أو تتوهم شظية من الحدثن من سوانا. ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأحزاب: ١] إشفافاً منك عليهم، وطمعاً في إيمانهم بنا لو وافقهم في شيء أرادوه منك.

والتقوى رقيب على قلوب أوليائه يمنهم في أنفاسهم، وسكناتهم، وحركاتهم أن ينظروا إلى غيره - أو يثبتوا معه غيره - إلا منصوباً لقدرته، مصرفاً بمشيئته، نافذاً فيه حكم قضيته.

التقوى لجأ يكبحك عما لا يجوز، زمام يقودك إلى ما تحب، سوط يسوقك إلى ما أمرت به، شاخص يحملك على القيام بحق الله، جزر يعصمك من توصل أعدائك إليك، عود تشفيك من داء الخطأ.

التقوى وسيلة إلى ساحات كرمه، ذريعة تتوصل بها إلى عقوبة جوده.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

اتبع ولا تبندع، واقتد بما نأمرك به، ولا تهتد باختيارك غير ما نختار لك، ولا تخرج أوطان الكسل، ولا تجنح إلى ناحية التواني، وكن لنا لا لك، وقم بنا لا بك.

قوله جل ذكره: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

انسلخ عن إياك، واصلق في إياك إلينا، وتشاغل عن حسابك معنا، واحذر ذهابك عنا، ولا تقصّر في خطابك معنا.

ويقال التوكل تحقق ثم تخلق ثم توثق ثم تملق؛ تحقق في العقيدة، وتخلق

بإقامة الشريعة، وتوثق بالمقسوم من القضية، وتملأ بين يديه بحسن العبودية.
ويقال التوكل تحقق وتعلق وتخلق؛ تحقق بالله وتعلق بالله ثم تخلق بأوامر الله.

ويقال التوكل استواء القلب في العدم والوجود.

قوله جل ذكره: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾.

القلب إذا اشتغل بشيء شغل عما سواه، فالمشتغل بما من العدم منفصل عما له القدم، والمتصل بقلبه بمن نعته القدم مشتغل عما من العدم.. والليل والنهار لا يجتمعان، والغيب والغير لا يلتقيان.

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ كُمُ قَوْلِكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾.

اللائي تظاهرن منهن لسن أمهاتكم، والذين تبنيتم لبناكم، وإن الذي صرتم إليه من افترائكم، وما نسبتم إلينا من آرائكم فذلك مردود عليكم، غير مقبول منكم، وإن أمسكتكم عنه بعد البيان نجوتكم، وإن تماديت بعد ما أعلمتم. أطلت المحنة عليكم.

قوله جل ذكره: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

راعوا أنسابهم، فإن أردتم غير النسبة فالأخوة في الدين تجمعكم، وقرابة الدين والشكلية أولى من قرابة النسب، كما قالوا:

وقالوا قريب من أب وعمومة فقلت: وإخوان الصفاء الأقارب

نناسبهم شكلاً وعِلماً وألفة وإن باعدتهم في الأصول المناسب

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾.

الإشارة من هذا: تقديم سنته على هواك، والوقوف عند إشارته دون ما يتعلق به منك، وإيثار من تتوكل به سبباً ونسباً على أعزتك ومن والاك.

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾:

ليكن الأجانب منك على جانب، ولتكن صلتك بالأقارب. وصلة الرحم ليست بمقاربة الديار وتعاقب المزار، ولكن بموافقة القلوب، والمساعدة في حالتي المكروه والمحبوب:

أرواحنا في مكانٍ واحدٍ وغدت أشباحنا بشامٍ أو خراسان
قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا﴾.

أخذ ميثاق النبيين وقت استخراج الذرية من صلب آدم - فهو الميثاق الأول، وكذلك ميثاق الكل. ثم عند بعث كل رسول ونبوّة كل نبي أخذ ميثاقه، وذلك على لسان جبريل عليه السلام، وقد استخلص الله سبحانه نبينا عليه السلام، فأسمعه كلامه - بلا واسطة - ليلة المعراج. وكذلك موسى عليه السلام - أخذ الميثاق منه بلا واسطة ولكن كان لنبينا - ﷺ - زيادة حال؛ فقد كان له مع سماع الخطاب كشف الرؤية.

ثم أخذ الموائيق من العباد بقلوبهم وأسرارهم بما يخصهم من خطابه، فلكل من الأنبياء والأولياء والأكابر على ما يؤهلهم له، قال ﷺ «لقد كان في الأمم محدثون فإن يكن في أمتي قَعَمَرٌ»^(١) وغير عمر مشارك لعمر في خواص كثيرة، وذلك شيء يتم بينهم وبين ربهم.

قوله جل ذكره: ﴿لَيْسَ لَكَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

يسألهم سؤال تشريف لا سؤال تعنيف، وسؤال إيجاب لا سؤال عتاب. والصدق ألا يكون في أحوالك شوب ولا في اعتقادك زنب، ولا في أعمالك عيب. ويقال من أمارات الصدق في المعاملة وجود الإخلاص من غير ملاحظة مخلوق. والصدق في الأحوال تصفيتها من غير مداخله إعجاب.

والصدق في الأقوال سلامتها من المعارض فيما بينك وبين نفسك، وفيما بينك وبين الناس التباعد عن التلبس، وفيما بينك وبين الله بإدامة التبرّي من الحول والقوة، ومواصلة الاستعانة، وحفظ العهود معه على الدوام.

والصدق في التوكل عدم الانزعاج عند الفقد، وزوال الاستبشار بالوجود^(٢).

(١) أخرجه البخاري (فضائل الصحابة ٦)، (أنبياء ٥٤)، ومسلم (فضائل الصحابة ٢٣) والترمذي (مناقب ١٧)، وأحمد بن حنبل ٦، ٥٥.

(٢) ربما كان (الموجود) وبذلك يكون القشيري قد استفاد من قول أبو عبد الله بن خفيف بهذا المعنى: القناعة ترك التشوّف إلى المفقود والاستغناء عن الموجود. (الرسالة القشيرية ص ١٦٠) والشاكر الذي يشكر على المفقود. (الرسالة القشيرية ص ١٧٥). وقد وردت في قول أحمد النوري (الوجود) حيث قال: نعت الصوفي السكون عند العدم والإيثار عند الوجود. (الرسالة القشيرية ص ٢٨١).

فهنا الوجود ضد العدم، أي وجود الأشياء وفقدانها. لكن يستحسن أن يقتصر اصطلاح الوجود على أنه هو بعد الارتقاء عن الوجد، ولا يكون وجود الحق إلا بعد خمود البشرية لأنه لا يكون للبشرية بقاء عند ظهور سلطان الحقيقة. (الرسالة القشيرية ص ٦٢).

والصدق في الأمر بالمعروف التحرز من قليل المداينة^(١) وكثيرها، وألا تترك ذلك لِفَرَعٍ أو لِبَطْمَعٍ، وأن تَشْرَبَ مما تَسْفِي، وتتصف بما تأمر، وتنهى (نَفْسَكَ)^(٢) عما تَزْجُرُ.

ويقال الصدق أن يهتدي إليك كلُّ أحد، ويكون عليك فيما تقول وتظهر اعتماد. ويقال الصدق ألا تجنح إلى التأويلات.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

ذكر نعمة الله مقابلتها بالشكر، ولو تذكرت ما دَفَعَ عنك فيما سَلَفَ لهانت عليك مقاساة البلاء في الحال، ولو تذكرت ما أولاك في الماضي لَقُرْبَتْ من قلبك الثقة في إيصال ما تَوَمَّلَهُ في المستقبل.

ومن جملة ما ذكَّره به: ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ كم بلاء صَرَفَهُ عن العبد وهو لم يشعر! وكم شُغل كان يقصده فضده ولم يعلم! وكم أمر عَوَّقه والعبد يَضُجُّ وهو - (سبحانه) - يعلم أن في تيسيره له هلاك العبد فَمَنَعَهُ منه رحمة به، والعبد يَتَّهِمُ ويضيق صدره بذلك!

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾.

أحاط بهم سُرَادِقُ البلاء، وأحْدَقَ بهم عَسْكَرُ العدو، واستسلموا للاجتياع، وبلغت القلوب الحناجر، وتَقَسَّمتِ الظنون، وداخَلَتْهم كوامِنُ الارتياب، وبدا في سويدائهم جَوْلَانُ الشك.

﴿هَٰذَا لِكِ ابْتِلَائِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَئِي لَا تُدْعَىٰ ذُرِّيَّةُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِغَدْرِهِمْ فَيَقُولُوا سُبْحَٰنَ اللَّهِ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

ثم أزال عنهم جملتها، وقَسَعَ عنهم شدتها، فانجاب عنهم سحبها، وتفرقت عن قلوبهم همومها، وتَفَجَّرَتْ ينابيع سكينتهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

صَرَّحُوا بالكذب - لما انطوت عليه قلوبهم - حين وجدوا للمقال مجالاً.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَٰغِيَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَرْبَ لَا مَقَامَ لَكُمۥ فَارْجِعُوا وَرَسَّاقُ فَسَبَّحُوا لِلَّهِ يَوْمَئِذٍ مِّمَّنْ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاقًا﴾.

(٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(١) المداينة: المصانة.

تواصوا فيما بينهم بالفرار عندما سَوَّلَتْ لهم شياطينهم من وشك ظَفَرَ الأعداء .
 قوله: ﴿وَيَسْتَكْذِبُونَ قُرْبَى﴾ يتعللون بانكشاف بيوتهم وضياع مَخْلَقَاتِهِمْ، ويكذبون فيما
 أظهروه غُدْرًا، وهم لم يَحْمِلْهُمْ على فعلهم غير جُنَيْهِمْ وَقَلَّةُ يَقِينِهِمْ^(١).
 قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلَّفُوا أَلَدْبَرُ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ
 مَسْئُولًا﴾.

ولكن لما عزم الأمر، وظهر الجَدَّ لم يساعدهم الصدق، ولم يذكروا أنهم
 سَيَسْأَلُونَ عن عهدهم، ويُعاقبون على ما أسلفوه من ذنبهم.
 قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُنْعَوُونَ
 إِلَّا قَلِيلًا﴾.

لأن الآجال لا تأخير لها ولا تقديم عليها، وكما قالوا: «إِنَّ الْهَارِبَ عَمَّا هُوَ
 كَائِنٌ فِي كَفِّ الطَّالِبِ يَتَقَلَّبُ».
 ﴿وَإِذَا لَا تُنْعَوُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾: فَإِنْ مَا يَذْخَرُهُ الْعَبْدُ عَنِ اللَّهِ مِنْ مَالٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ نَفْسٍ
 أَوْ قَرِيبٍ لَا يُبَارِكُ لَهُ فِيهِ، وَلَا يَجِدُ بِهِ مَنَعَةً، وَلَا يُرْزَقُ مِنْهُ غِبْطَةً.
 قوله جل ذكره: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً
 وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

من الذي يحقق لكم من دونه مَرْجُوًّا؟ ومن الذي يصرف عنكم دونه عَدُوًّا؟
 قوله جل ذكره: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّضِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ
 الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

هم الذين كانوا يمتنعون بأنفسهم عن نصره النبي عليه السلام، ويمنعون غيرهم
 ليكون جمعهم أكثر وكيدهم أخفى، وهم لا يعلمون أن الله يُطْلِعُ رسوله عليه السلام
 عليهم ثم ذَكَرَ وَضَفَّهِمْ فقال:
 ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَّى عَلَيْهِ مِنَ
 الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾.

إذا جاء الخوف طاشت من الرعب عقولهم، وطاحت بصائرهم، وتعطلت عن
 النصره جميع أعضائهم. وإذا ذهب الخوف زَيَّنُوا كلامهم، وقدموا خداعهم، واحتالوا
 في أحقاد خستهم. أولئك هذه صفاتهم؛ لم يباشر الإيمان قلوبهم، ولا صدقوا فيما
 أظهروا من ادعائهم واستسلامهم.

(١) الآية (١٤) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَلَٰئِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَاءِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾.

يحبسون الأحزاب لم يذهبوا، ويخافون من عودهم، ويفزعون من ظل أنفسهم إذا وقعوا على آثارهم، ولو اتفق هجوم الأعداء عليكم ما كانوا إلا في حرز سيوفهم ودرية^(١) رماحهم.

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرٍ﴾.

«كان» صلة ومعناها: لكم في رسول الله أسوة حسنة، به قدوتكم، ويجب عليكم متابعتة فيما يرسمه لكم. وأقوال الرسول ﷺ وأفعاله على الوجوب إلى أن يقوم دليل التخصيص، فأما أحواله فلا سبيل لأحد إلى الإشراف عليها، فإن ظهر شيء من ذلك بإخباره أو بدلالة أقواله وأفعاله عليه فإن كان ذلك مكتسباً من قبله فيلحق في الظاهر بالوجوب بأفعاله وأقواله، وإن كان غير مكتسب له فهي خصوصية له لا ينبغي لأحد أن يتعرض لمقابلته لاختصاصه - ﷺ - بعلو رتبته.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا رَمَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾.

كما أن المنافقين اضطربت عقائدهم عند رؤية الأعداء، فالمؤمنون وأهل اليقين ازدادوا ثقةً، وعلى الأعداء جرأة، ولحكم الله استسلاماً، ومن الله قوة.

قوله جل ذكره: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾.

شَكَرَ صَنِيعَهُمْ فِي الْمِرَاسِ^(٢)، ومدح يقينهم عند شهود الباس، وسماهم رجالاً إثباتاً لخصوصية رتبته وتميزاً لهم من بين أشكالهم بعلو الحالة والمنزلة، فمنهم من خرج من دنياه على صدقه ومنهم من ينتظر حكم الله في الحياة والممات، ولم يزيغوا عن عهدهم، ولم يراوغوا في مراعاة حذهم؛ فحقيقة الصدق حفظ العهد وتزك مجاوزة الحد.

ويقال: الصدق استواء الجهر والسر.

(١) الدرية: دابة يستتر بها الصائد الذي يرمي الصيد ليصيده، فإذا أمكنه رمى. (لسان العرب ١٤/٢٥٥ مادة: دري).

(٢) المراس: القوة على ممارسة الأمور.

ويقال: هو الثبات عندما يكون الأمر جدياً.

قوله جل ذكره: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾.

في الدنيا يجزي الصادقين بالتمكين والنصرة على العدو وإعلاء الراية، وفي الآخرة بجميل الثواب وجزيل المآب والخلود في النعيم المقيم والتقديم على الأمثال بالتكريم والتعظيم.

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ على الوجه الذي سبق به العلم، وتعلقت به المشيئة.

ويقال: إذا لم يجزم بعقوبة المنافق وعلق القول فيه بالرجاء فبالحري ألا يخيب المؤمن في رجائه.

قوله جل ذكره: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.

لم يثبت بالمسلمين عدواً، ولم يوصل إليهم من كيدهم سوءاً، ووضع كيدهم في نحورهم، واجتثهم من أصولهم، وبين بذلك جواهر صدقهم وغير صدقهم، وشكر من استوجب شكره من جملتهم، وفضح من استحق الذم من المدلسين منهم. ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَنَأْسُرَتِ فَرِيقًا﴾.

إن الحق - سبحانه - إذا أجمل أكمل، وإذا شفى كفى، وإذا وفى أوفى. فأظفر المسلمين عليهم، وأورثهم معادلتهم، وأذل متعززيهم، وكفاهم بكل وجه أمرهم، ومكنهم من قتلهم وأسرىهم ونهب أموالهم، وسبى ذراريهم^(١).

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأَيُّمُ النَّبِيُّ فُلَ لَّا رَوْحَكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتُمْ أُمْتِعْكُمْ وَأَرْحَمَكُمُ سَلَامًا جَمِيلًا وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

لم يرِدْ أن يكون قلب أحد من المؤمنين والمؤمنات منه في شغل، أو يعود إلى أحد منه أذى أو تعب، فخير - ﷺ - نساءه، ووفق الله سبحانه عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - حتى أخبرت عن صدق قلبها، وكمال دينها وبقينها، وبما هو المنتظر

(١) الذراري: (ج) الذرية: النسل.

الآية (٢٧) لم ترد.

من أصلها وتربيتها، والباقي جرير على منهاجها، وَتَسْجُنَ عَلَىٰ مِنْوَالِهَا. قوله جل ذكره: ﴿يَنْسَاءَ الَّتِي مَن يَأْتِ مِنْكَ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَّفَ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

زيادة العقوبة على الجزم من أمارات الفضيلة، ولذا فضل حدُّ الأحرار على العبيد وتقليل ذلك من أمارات النقص؛ فلما كانت منزلتهن في الشرف تزيد على منزلة جميع النساء ضاعف عقوبتهن على أجرامهن، وضاعف ثوابهن على طاعتهن. وقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ مِنكُم مِّنْهُ وَرَسُولُهُ وَتَعْمَلْ مِثْلًا نُّؤْذِيَهَا آجَرًا مَّرَّتَيْنِ وَاعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾.

ثم قال:

﴿يَنْسَاءَ الَّتِي لَسْتُ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

نهاهن عن التبذل، وأمرهن بمراعاة حُرمة الرسول ﷺ، والتصاون عن تطمع المنافقين في ملايتهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

«الرجس»: الأفعال الخبيثة والأخلاق الدنيئة؛ فالأفعال الخبيثة الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وما قل وما جل. والأخلاق الدنيئة الأهواء والبِدَع كالبخل والشح وقطع الرِّجْم، ويريد بهم الأخلاق الكريمة كالجود والإيثار والسخاء وصلة الرِّجْم، ويدبهم لهم التوفيق والعصمة والتسديد، ويظهرهم من الذنوب والعيوب.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا بُدِّلَ فِي بُيُوتِكُنَّ مَنَ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾.

أذكرن عظيم النعمة وجليل الحالة التي تجري في بيوتكن؛ من نزول الوحي ومجيء الملائكة، وحُرمة الرسول ﷺ - والنور الذي يقتبس في الآفاق، ونور الشمس الذي ينبسط على العالم، فاعرفن هذه النعمة، وأرعين هذه الحُرمة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾.

الإسلام هو الاستسلام، والإخلاص، والمبالغة في المجاهدة والمكابدة. ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.

الإيمان هو التصديق وهو مجمع الطاعات، ويقال هو التصديق والتحقيق، ويقال هو انتساب الحقيقة في القلب. ويقال هو حياة القلب أولاً بالعقل، ولقبوم بالعلم، ولآخرين، بالفهم عن الله، ولآخرين بالتوحيد، ولآخرين بالمعرفة، ولآخرين إيمانهم حياة قلوبهم بالله.

﴿وَالْقَنِينِ وَالْقَنِينَتِ﴾.

القنوت طول العبادة.

﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾.

في عهودهم وعقودهم ورعاية حدودهم.

﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾.

على الخصال الحميدة، وعن الصفات الذميمة، وعند جريان مفاجآت القضية.

﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾.

الخشوع إطراق السريرة عند بوايه الحقيقة.

﴿وَالْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ﴾.

بأموالهم وأنفسهم حتى لا يكون لهم مع أحد خصومة فيما نالوا منهم، أو قالوا فيهم^(١).

﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾.

الممسكين عمّا لا يجوز في الشريعة والطريقة.

﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾.

في الظاهر عن الحرام، وفي الإشارة عن جميع الآثام.

﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾.

بالستهم وقلوبهم وفي عموم أحوالهم لا يفترون، ولا يتدخلهم نسيان.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

فهؤلاء لهم جميل الحسنى، وجزيل العقبي.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ

مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾.

الافتيات عليه في أمره والاعتراض عليه في حكمه وترك الانقياد لإشارته. قرع

لباب الشرك، فمن لم يمسك عنه سريعاً وقّع في هدمته.

(١) هذا من أمارات الفتوة. (انظر الرسالة القشيرية ص ٢٢٦ - ٢٣١).

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

أنعم الله عليه بأن ذكره وأفرده من بين الصحابة باسمه.

ويقال: أنعم الله عليه بإقبالك عليه وتبنيك له. ويقال: بأن أغتفته، ويقال: بالإيمان والمعرفة. وأنعمت عليه بالعتق وبأن تبنيته. ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ إقامة للشرعية مع علمك بأن الأمر في العاقبة إلى ماذا يؤول؛ فإن الله أطلعك عليه، وقلت له: «اتق». قوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾: أي لم تظهر لهم أن الله عرفك ما يكون من الأمر في المستأنف.

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ مِنْ مِيلِكَ ومحبتك لها لا على وجه لا يحل. ﴿وَتُخْفِي النَّاسَ﴾ أي وتخشى عليهم أن يقعوا في الفتنة من قصة زيد، وكانت تلك الخشية إشفافاً منك عليهم، ورحمة بهم.

ويقال: وتستحي من الناس - والله أحق أن تستحي منه.

ويقال: تخشى الناس ألا يطبقوا سماع هذه الحالة ولا يقفوا على تحملها، فربما يخطر ببالهم ما ينفي عنهم وسعهم.

﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ لكي لا يكون عليك حرج، ولكي لا يكون على المؤمنين حرج في الزواج بزوجات أدعيائهم، وإنما ذلك يُحرّم في الابن إذا كان من الصلب.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾.

لا يُعَارَضُ ولا يُنَاقَضُ، ولا يُرَدُّ ولا يُجْحَد. وما كان على النبي من حرج بوجه لكونه معصوماً.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يُلْقُونَ رِسَالَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

«ويخشونه»: علماً منهم بأنه لا يُصِيبُ أحداً ضرراً ولا محذور ولا مكروه إلا بتقديره؛ فيفردونه بالخشية إذ علموا أنه لا شيء لأحد من دونه.

قوله جل ذكره: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

لم يكن مضافاً إلى ولدٍ فله عليكم شفقة الآباء . . ولكن ليس بأبيكم .

ويقال نَسَبُهُ ظَاهِرٌ . . ولكن إنما يُعْرَفُ بي لا بَنَسَبِهِ؛ فقلماً يقال: محمد بن عبد الله، ولكن إلى أبد الأبد يقال: محمد رسول الله. وشعارُ الإيمانِ وكلمةُ التوحيد - بعد لا إله إلا الله - محمدٌ رسولُ الله .

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ .

الإشارة فيه أجبوا الله؛ لأنَّ النبي - ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ شَيْئاً أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ» فيجب أن تقول: الله، ثم لا تنسَ الله بعد ذكرك الله .

ويقال: اذكروا الله بقلوبكم؛ فإنَّ الذكرَ الذي تمكن استدامته ذكرُ القلب؛ فأما ذِكْرُ اللسانِ فإدامته مُسَرَّمدٌ كالمتعذر .

﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾: التسيُّحُ من قبيل الذكر، ولكنه ذَكَرَهُ بلفظين لثلا تعتريك سامة .

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُكُمْ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ .

الصلاةُ في الأصلِ الدعاءُ؛ فصلاته - سبحانه - دعاؤه لنا بالتقريب، وصلاةُ الملائكة دعاؤهم إليه لنا: بالغفرانِ للعاصي، وبالإحسانِ للمطيع .

ويقال الصلاةُ من الله بمعنى الرحمة، ومن الملائكة بمعنى الشفاعة .

﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾: من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

ويقال ليخرجكم من الظلمات إلى النور أي يعصمكم من الضلال بزُوح الوصال .

ويقال ليخرجكم من ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير .

ويقال ليخرجكم من ظلمات نفوسكم إلى أنوار البصائر في قلوبكم .

ويقال ليخرجكم من أسباب التفرقة إلى شهود عين التوفيق، والتحقق بأوصاف الجمع .

ويقال يصونكم من الشُّرك، ويثبتكم بشواهد الإيمان .

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ .

التحية إذا قُرِئَتْ بالرؤية، واللقاء إذا قُرِئَ بالتحية فلا يكون ذلك إلا بمعنى رؤية البَصَر .

والسلام خطاب يفتح به الملوك إخباراً عن علو شأنهم ورتبتهم، فإلقاؤه حاصل وخطابه مسموع، ولا يكون ذلك إلا برؤية البصر .

﴿أَجْرًا كَرِيمًا﴾: الكَرَمُ نَفْيُ الدناءة، وكرماً أي حسناً .

وفي الإشارة أجرهم موفور على عمل يسير؛ فإن الكريم لا يستقصي عند البيع والشراء في الأعداد، وذلك تعريف بالإحسان السابق في وقت غيبتك.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾.

يَا أَيُّهَا الْمُشْرِفُ مِنْ قِبَلِنَا إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا بوحداانيتنا، وشاهدًا تُبَشِّرُ بمتابعتنا، وتحذِّرُ من مخالفة أمرنا، وتُعَلِّمُ النَّاسَ مواضع الخوف مِنَّا، وداعيًا إِلَيْنَا بِنَا، وسراجًا يستضيئون به، وشمسًا ينبسط شعاعها على جميع مَنْ صَدَّقَكَ، وَأَمَّنْ بِكَ، فلا يصل إِلَيْنَا إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ وَخَدَمَكَ، وَصَدَّقَكَ وَقَدَّمَكَ.

﴿وَنَبِّئِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بفضلنا معهم، ونيلهم طَوْلَنَا عليهم، وإحساننا إليهم. وَمَنْ لَمْ تَوْثِرْ فِيهِ بَرَكَةُ إِيْمَانِهِ بِكَ فَلَا قُدْرَ لَهُ عِنْدَنَا.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

لَا تَوَافِقْ مَنْ أَعْرَضْنَا عَنْهُ، وَأَضَلَّلْنَا بِهِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ، وَأَهْلِ الْبِدْعِ وَالشَّقَاقِ. وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ بِدَوَامِ الْإِنْقِطَاعِ إِلَيْهِ، وَكُفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدْوٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَعَهُنَّ وَسِرَّهِنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

إِذَا أَثَرْتُمْ فِرَاقَهُنَّ فَمَعَهُنَّ لِيَكُونَ لِهِنَّ عَنْكُمْ تَذَكُّرَةٌ فِي أَيَّامِ الْفِرْقَةِ فِي أَوَائِلِهَا إِلَى أَنْ تَتَوَطَّنَ نَفُوسُهُنَّ عَلَى الْفِرْقَةِ.

﴿وَسِرَّهِنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾: لَا تَذْكُرُوهُنَّ بَعْدَ الْفِرَاقِ إِلَّا بِخَيْرٍ، وَلَا تَسْتَرِدُوا مِنْهُنَّ شَيْئًا تَخْلُقْتُمْ بِهِ مَعَهُنَّ، فَلَا تَجْمَعُوا عَلَيْهِنَّ الْفِرَاقَ بِالْحَالِ وَالْأَضْرَارِ مِنْ جِهَةِ الْمَالِ.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَعْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ءَاتَيْنَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَنَوَاتٍ عَمَلِكَ وَنَوَاتٍ خَالِكَ وَنَوَاتٍ خَلْلِكَ الَّتِي هَاجَرَكَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

وَسَعْنَا الْأَمْرَ عَلَيْكَ فِي بَابِ النِّكَاحِ بِكُمْ شَيْئًا؛ فَإِنَّكَ مَأْمُونٌ مِنْ عَيْبِ عَدَمِ التَّسْوِيَةِ بَيْنَهُنَّ وَعَدَمِ مِرَاعَاةِ حَقُوقِهِنَّ، وَمِنْ الْحَيْفِ عَلَيْهِنَّ. وَالتَّوَسُّعُ فِي بَابِ النِّكَاحِ تَذُلُّ عَلَى الْفَضِيلَةِ كَالْحُرِّ وَالْعَبْدِ.

قوله جل ذكره: ﴿تُرْجَىٰ مَن نَّشَأُ مِنْهُنَّ وَتُؤَيَّ إِلَيْكَ مَن نَّشَأُ وَمَن آتَيْنَتْ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَخْرُجَ وَرِضَتِكَ بِمَا آتَيْنَتْهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ۖ﴾.

﴿مَن نَّشَأُ﴾: على ما تتعلق به إرادتك، ويقع عليه اختيارك، فلا حرج عليك ولا جناح.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ۖ﴾.

لَمَّا اخْتَرْتَهُنَّ أثبت الله لهن حُرْمَةً، فقال: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ فكما اخترتك فلا تختار عليهن امرأة أخرى تطيباً لقلوبهن، ونوعاً للمعادلة بينه وبينهن، وهذا يدل على كَرَمِهِ - والحفاظ كَرَمٍ ودين.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ الآية.

أَمَرَهُم بحفظ الأدب في الاستئذان، ومراعاة الوقت، ووجوب الاحترام؛ فإذا أُذِنَ لكم فادخلوا على وجه الأدب، وحفظ أحكام تلك الحاضرة، وإذا انتهت حوائجكم فاخرجوا، ولا تتغافلوا عنكم، ولا يَمْنَعَنَّكُمْ حُسْنُ خُلُقِهِ من حفظ الأدب، ولا يحملنكم فرط احتشامه على إبرامه.

﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَبِرُوا وَلَا مُسْتَقْسِمِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾: حُسْنُ خُلُقِهِ - ﷺ - جَرَّهُم إلى المباسطة معه، حتى أنزل الله هذه الآية.

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾: نَقَلَهُم عن مألوف العادة إلى معروف الشريعة ومفروض العبادة، وبيَّن أن البَشْرَ بَشَرٌ - وإن كانوا من الصحابة، فقال:

﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

فلا ينبغي لأحد أن يأمن نفسه - ولهذا يُشَدُّ الأمر في الشريعة بألا يخلو رجلٌ بامرأة ليس بينهما مَحْرَمَةٌ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾.

وهذا من خصائصه - ﷺ، وفي هذا شبه رخصة لمن يلاحظ شيئاً من هذا، فيهتم بالاتصال مَنْ له مِثْلٌ إِلَيْهِنَّ بغيرهن بعد وفاته - وإن كان التحرُّز عنه - وعن أمثال هذا مِنْ تَرْكِ الحظوظ - أنتم وأعلى.

بالتصاوين والتعطف. وقَرَنَ بذلك تهديده للمنافقين في تعاطيهم ما كان يشغل قلب الرسول ﷺ من الإرجاف^(١) في المدينة: -

قوله جل ذكره: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَارِبُوكَ بِهَا إِلَّا قَلِيلًا مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا نُقَفُوا أُخَذُوا وَقُتِلُوا نَفْسِيًّا سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

إنهم إِنْ يَمْتَنِعُوا عن الإرجاف وأمثال ذلك لأجرينا معهم سُنَّتَنَا في التدمير على مَنْ سَلَفَ من الكفار.

ثم ذَكَرَ مسألة القوم عن قيام الساعة وتكذيبهم ذلك، ثم استعجالهم قيامها من غير استعداد لها، ثم أخبر بصعوبة العقوبة التي علم أنه يُعَذِّبُهُمْ بِهَا، وما يقع عليهم من الندامة على ما فَرَّطُوا^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾.

نسبوه إلى الأذرة^(٣)، وأنَّ به عيباً في الخلقة، ولكنه كان رجلاً حَيِّياً، وكان إذا اغتسل لا يتجرَّد (من ثوبه)^(٤)، فتوهموا به ذلك. وذات يوم خلا ليغسله، ووضع ثيابه على حَجَرٍ فامشى إِلَيْهِ الْحَجَرُ بِثيابه، وموسى يعدو خَلْفَهُ حَتَّى تَوَسَّطَ بني إسرائيل، وشاهدوا خِلْفَتَهُ سَلِيمَةً، فوقف الحجر، وأخذ موسى ثيابه ولبسها، وهذا معنى قوله: ﴿فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ في القَدْرِ والمنزلة. والوجاهة النافعة ما كان عند الله لا عند الناس، فقبولُ الناس لا عِبْرَةٌ به ولا حَظَرٌ له، لا سيما العوامُ فإنهم يَقْبَلُونَ بلا شيء، وَيَرُدُّونَ بلا شيء قال قائلهم:

إِنْ كُنْتُ عِنْدَكَ يَا مَوْلَايَ مَطْرَحاً فعند غيرك محمولٌ على الحقد
وقالوا: فَإِنْ أَكُ فِي شِرَارِكُمْ قَلِيلاً فلإني في خِيَارِكُمْ كَثِيرٌ

قوله جل ذكره: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾.

القول السديد كلمة الإخلاص، وهي الشهادتان عن ضمير صادق.

(١) الإرجاف: الخبر الكاذب المثير للفتن والاضطراب (ج) أراجيف.

(٢) الآيات من (٦٣ حتى ٦٨) لم ترد.

(٣) الأذرة: نفخة في الخصية. (اللسان ١٥/٤ مادة: أذر).

(٤) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

ويقال سدادُ أقوالكم سدادُ أعمالكم، ولقد هَوَّنَ عليكم الأمرَ فَمَنْ رضي بالقالة - وهي الشهادة بأن تَرَكَ الشُّرْكَ - وقالها بِصِدْقٍ أصلح اللهُ له أعماله الدنيوية من الخَلَلِ، وَغَفَرَ له في الآخرة الزَّلَلِ؛ أي حصلت له سعادة الدارين.

ويقال ذَكَرَ ﴿أَعْمَلَكُمْ﴾ بالجمع، وقَدَّمها على الغُفْران؛ لأنه ما لم يُضْلِحْ لك في حالكِ أعمالك وإن لم يَكْفِكَ ما أَهَمَّكَ من أشغالك.. لم تنفرْ إلى حديث آخِرَتِكَ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

هنا إضمار أي: أهل السموات والأرض والجبال.

وقيل أحياءها وأعقلها، وهو كقوله: ﴿أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾: أي أبين أن تَحْنُ فيها، ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾: أي خان فيها. وهم مراتب: فالكفار خانوا في الأصل الأمانة - وهي المعرفة - فكفروا. وَمَنْ دُونَهُم خانوا بالمعاصي، وبعضهم أَشَدَّ وبعضهم أهون، وكل احتجب من الوزرِ مقداره.

ويقال «أبين» إباءً إشفاقٍ لا إباءً استكبارٍ، واستعفين... فعفا عنهم، وأعفاهن مِنْ حَمَلِها.

﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾: قَبْلِها ثم ما رعوها حقَّ رعايتها.. كلُّ بقدره.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمًا جَهُولًا﴾ بصعوبة حَمَلِ الأمانة في الحال، والعقوبة التي عليها في المآل. وقومٌ قالوا عَرَضَ الأمانة على السموات والأرض وعَرَضَها على الإنسان، فهن استعفين وهؤلاء لم يستعفوا ولم يراعوا.

ويقال: الأمانة القيام بالواجبات أصولها وفروعها.

ويقال: الأمانة التوحيد عقداً وحفظ الحدود جهداً.

ويقال: لَمَّا حَمَلَ آدَمُ الأمانة وأولاده قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبَرِ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٧٠].. وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

ويقال حمل الإنسان بالله لا بِنَفْسِهِ. ويقال ظَلَمَ نَفْسَهُ حيث لم يُشْفِقْ مما أشفقت منه السموات والأرضون. والظَلَمَ وَضَعَ الشيء في غير موضعه.

ويقال كاشَفَ السموات والأرض بوصف الربوبية والعظمة فأشفقوا، وكاشَفَ آدَمَ وَذُرِّيَّتَهُ بوصف اللطف فقبلوا وحملوا، وفي حال بقاء العبد يا الله يحمل السموات والأرض بشعرة من جَفْنِهِ. ويقال كانت السموات والأرض أصحاب الجثث والمباني فأشفقوا من حَمَلِ الأمانة. والجِثْلُ إنما تحمله القلوب. وآدم كان صاحبَ معنى فَحَمَلَ، وأنشدوا:

حملت جبال الحكم فوقى وإنني لأعجزُ عن حمل القميص وأضعفُ

ويقال لما عَرَضَ الحقُّ الأمانةَ على الخَلْقِ عَلَّقَ آدمُ بها هِمَّتَهُ، فصرف بهمته جميع المخلوقات عنها، فلما أبوا وأشفقوا حَمَلَهَا الإنسان طوعاً لا كرهاً.

قوله جل ذكره: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

اللام في «ليعذب» للصيرورة والعاقبة؛ أي صارت عاقبة هذا الأمر عذاب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات بالمغفرة والتجاوز. (تَمَّتِ السُّورَةُ) قد يقال: المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات والعاصون من المؤمنين والمؤمنات وَرَدَ ذكرهم. . فأين العابدون وذكرهم؟

ولكنهم في جملة مَنْ مَضَى ذِكْرُهُمْ، وليسوا في المشركين ولا في المنافقين، فلا محالة في جملة العاصين الذين تاب عليهم.

فيأيها العاصي، كنت تحذر أَنْ يُخْرِجَكَ العابدون من جملتهم، فاشهد الجَبَّارَ - في هذا الخطاب - كيف أدرجك في جملتهم؟!

سورة سبا

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله كلمة سَلَابَةٌ غَلَابَةٌ، نَهَابَةٌ، وَهَابَةٌ؛ تسلب القلوب.. ولكن لا كل قلب، وتغلب الألباب ولكن ليس كل لب، وتنهب الأرواح ولكن من الأحباب، وتهب الارتياح.. ولكن لقوم مخصوصين من الطلاب.

قوله جل ذكره: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمَأْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

افتتح السورة بذكر الشاء على نفسه، ومَذْحُه لنفسه إخباراً عن جلاله، واستحقاقه لنعوت عزه وجماله، فهو في الأزل حامدٌ لنفسه محمودٌ، وواحدٌ موجود، في الأزال معبود، وبالطلبات مقصود.

﴿الَّذِي لَمْ يَمَأْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: المُلْكُ لا يكون بالشركة؛ فلا مِلْكُ إلا الله. وإن أجرى هذا الاسم على مخلوق بالزنجي لا يتغير لونه وإن سُمِّيَ كافوراً!

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ من الذين أعتقهم، وفي النعمة أغرقهم.

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ بتخليد قوم في الجنة، وتأبيد قوم في النار.

قوله جل ذكره: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ من الحَبِّ تحت الأرض، والماء يرسب فيها، والأشياء التي تُلْقَى عليها، والناس يُقْبَرُونَ في الأرض..

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات والأزهار، والموتى يُبعثون.

﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من القَطْرِ والمَلَكِ، والبركة والرزق، والحُكْم.

﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الصحف، وحوائج الناس: وهِمَمُ الأولياء.

﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ﴾ بعباده، ﴿الْغَفُورُ﴾ لجميع المذنبين من المسلمين.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا

يَعْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾.

كُرِّرَ فِي الْقُرْآنِ تَكْذِيبُهُم بِالسَّاعَةِ، وَاسْتِعَادَهُمْ لِذَلِكَ، وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ. وَأَخْبَرَ عَنْ سَابِقِ عِلْمِهِ بِهِمْ، وَأَنَّهُ لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ مِنْ مَعْلُومَاتِهِ عَنْ عِلْمِهِ، فَاتَّيَتْ عِلْمَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ وَشَمُولِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ... لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عِلْمٌ لَكَانَ نَقْصًا، وَلَآئِنْ لَوْ خَرَجَ مَعْلُومٌ وَاحِدٌ عَنْ عِلْمِهِ لَكَانَ بِقُدْرَتِهِ نَقْصٌ، وَالنَّقْصُ - بِأَيِّ وَصْفٍ كَانَ - لَا يَجُوزُ فِي صِفَتِهِ بِحَالٍ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿لَيَجْزِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ الْآيَاتِ... .

الْمُحْسِنُونَ مِنْهُمْ يَجْزِيهِمْ بِالْخَيْرَاتِ الْمُتَّصِلَةِ، وَالْكَافِرُونَ مِنْهُمْ يَكْفِيهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ بِالْعُقُوبَاتِ غَيْرَ مُنْفَصِلَةٍ.

وَيُرَى الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ كِتَابَكَ الَّذِي أَتَيْتَ بِهِ حَقًّا وَصِدْقًا. وَالَّذِينَ كَفَرُوا قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنَّهُمْ يَرُونَ أَنَّ هَذَا الَّذِي تَقُولُ بِهِ مِنَ النُّشْرِ وَالْحِسَابِ وَالْبُعْثِ كَذِبٌ، أَوْ أَنَّ بِكَ جَنَّةً، ثُمَّ أَقَامَ عَلَيْهِمْ حُجَّةَ التَّجْوِيزِ بِمَا أَجْرَى بِهِ سُنَّتُهُ فِي الْخَلْقِ وَالْإِبْدَاعِ... . فَمَا زَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَّا جُحُودًا، وَمَا قَابَلُوهُ إِلَّا عِنْدًا^(١).

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَلُ أَوِي مَعْمُ وَالطَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ أَنْ أَمَلَ سِيفًا وَقَدَّرَ فِي السَّمَاءِ لَنَا صِلًا إِيَّايَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

«دَاوُدَ» اسْمٌ أَعْجَمِي، وَقِيلَ سَمِيَ دَاوُدَ لِأَنَّهُ دَاوَى جَرَحَهُ، وَرَدَّ فِي الْقِصَّةِ أَنَّهُ قَالَ فِي إِحْدَى مُنَاجَاتِهِ: يَا رَبِّ، إِنِّي أَرَى فِي التَّوْرَةِ مَا أُعْطِيتَ لِأَوْلِيَائِكَ وَأَنْبِيَائِكَ مِنْ الرُّتَبِ فَأَعْطِنِيهَا فَقَالَ: إِنِّي ابْتَلَيْتَهُمْ فَصَبَرُوا، فَقَالَ: إِنِّي أَصْبِرُ عَلَى بَلَائِكَ، فَأَعْطِنِي مَا أُعْطِيتَهُمْ، فَأَبْلَاهُ، فَوَقَفَ، فَأَعْطَاهُ مَا أُعْطَاهُمْ.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾: تَكَلَّمُوا فِي هَذَا الْفَضْلِ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرَادَ مَا ذَكَرَهُ بَعْدَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ لِلطَّيْرِ: ﴿أَوِي مَعْمُ﴾: وَكَذَلِكَ الْجِبَالُ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ تَنْفِيسٌ فِي وَقْتِ حُزْنِهِ وَبِكَائِهِ. وَقِيلَ ذَلِكَ الْفَضْلُ رَجُوعُهُ إِلَى اللَّهِ - فِي حَالٍ مَا وَقَعَ لَهُ - بِالتَّنْصِلِ وَالْإِعْتِذَارِ. وَيُقَالُ هُوَ شُهُودُهُ مَوْضِعَ ضَرُورَتِهِ وَأَنَّهُ لَا يُضْلِحُ أَمْرَهُ غَيْرُهُ. وَيُقَالُ طِيبُ صَوْتِهِ عِنْدَ قِرَاءَةِ الزُّبُورِ حَتَّى كَانَ لِيَرْغَبُ فِي مُتَابَعَتِهِ مَنْ يَسْمَعُ إِلَيْهِ. وَيُقَالُ حَلَاوَةُ صَوْتِهِ فِي الْمُنَاجَاةِ. وَيُقَالُ حُسْنُ خُلُقِهِ مَعَ أُمَّتِهِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ، وَيُقَالُ تَوْفِيقُهُ لِلْحُكْمِ بَيْنَ أُمَّتِهِ بِالْعَدْلِ... .

(١) الْآيَاتِ مِنْ (٥ حَتَّى ٩) لَمْ تَرُدَّ.

قوله: ﴿يَجِبَالُ أَوَّيْ مَعْمُ وَالطَّيْرِ﴾ أمر الجبال والطير بمجاوبته حتى خرج إلى الجبال والصحارى ينوح على نفسه.

ويقال أوحى الله له: يا داود، كانت تلك الزلّة مباركة عليك! فقال: يا رب، وكيف؟ فقال: كنت تجيء قبلها كما يجيء المطيعون والآن تجيء كما يجيء أهل الذنوب!

يا داود، إن أنين المذنبين أحب إلي من صراخ العابدين!
ويقال، كان داود يقول: اللهم لا تغفر للخاطئين، غيرة منه وصلابة في الدين... فلما وقع له ما وقع كان يقول: اللهم اغفر للمذنبين، فعسى أن تغفر لداود فيما بينهم.

ويقال لما تاب الله عليه، واجتمع الإنس والجن والطير بمجلسه، ورفع صوته، وأداره في حنكه على حسب ما كان من عادته تفرقت الطيور وقالوا: الصوت صوت داود والحال ليست تلك! فأوحى الله إليه هذه وخشة الزلّة، وتلك كانت أنس الطاعة.. فكان داود يبكي وينوح ويصيح والطير والجبال معه.

ويقال ليس كل من صاح وراءه معنى، فالمعنى كان مع داود لا مع الجبال والطير...

﴿أَنْ أَعْمَلَ سَيِّئَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ وَأَعْمَلُوا صِلَاحًا﴾. ألان له الحديد، وجعل ذلك معجزة له، وجعل فيه توسعة رزقه، ليجد في ذلك مكسباً، ليقطع طمعه عن أمته في ارتفاقه بهم ليبارك لهم في اتباعه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوهاً شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ﴾.
أي آتينا سليمان الرّيح أي سخرناها له، فكانت تحمل بساطة بالغدو مسيرة شهر؛ وبالرواح مسيرة شهر.

وفي القصة أنه لاحظ يوماً ملكه، فمال الرّيح ببساطه، فقال سليمان للريح: استوي، فقالت الرّيح: استوي أنت، فما دمت مستوياً بقلبك كنت مستوياً بك، فلما ملئت ملئت.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَسْلَمْنَا لَمْعَ عَيْنِ الْقَطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

أي وآتيناه ذلك، فكانت الشياطين مسخرة له، يعملون ما يشاء من الأشياء التي ذكرها سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

أي اعملوا يا آل داود للشكر، فقلوه: «شكراً» منصوب لأنه مفعول له.
ويقال شكراً؛ منصوب لأنه مفعول به مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلرَّكُوتِ
فَعِلُونَ﴾ [المؤمنين: ٤].

وقد مضى طَرَفٌ من القول في الشكر. والشكور كثير الشكر، والأصل في
الشكر الزيادة، والشكيرة اسم لما ينبت تحت الأشجار منها، ودابة شكور إذا أظهرت
من السَّمَنِ فوق ما تُعْطَى من العَلَفِ؛ فالشكور الذي يشكر على النعمة فوق ما يشكر
أمثاله وأضرابه. وإذا كان الناس يشكرونه على الرخاء فالشكور يشكره في البلاء.

والشاكر يشكر على البَذْلِ، والشكور على المنع^(١)... فكيف بالبذل؟

والشكور يشكر بقلبه ولسانه وجوارحه وماله، والشاكر ببعض هذه.

ويقال في ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ قَلِيلٌ مَّنْ يأخذ النعمة مني ولا يحملها على
الأسباب؛ فلا يشكر الوسائط ويشكرني. والأكثرُونَ يأخذون النعمة من الله، وَيَجِدُونَ
الخيرَ مِنْ قِبَلِهِ ثم يتقلدون المِثْلَ من غير الله، ويشكرون غير الله.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ
مِنْسَاتِهِمْ فَلَمَّا خَرَ بَيِّنَاتٍ لِّئَلَّا يُرَى أَن لُّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَلْقَيْنَا فِي الْعَذَابِ الْهَبِينَ﴾.

كان سليمان - عليه السلام - يتكىء على عصاه وقتما قُبِضَ، وبقي على ذلك
الوصف مدة، والشياطين كانوا مُسْخَرِينَ يعملون ما أمرهم به، ويتصرفون على الوجه
الذي رَسَمَ لهم، وينتهون عما رَجَرَهُمْ، فقد كانوا يتوهمون أنه حي. ثم إِنَّ الْأَرْضَ^(٢)
أكلت عصاه فَخَرَّ سليمانُ فَعَلِمَ الشياطينُ عندئذ أنه مات، فرجعوا إلى أعمالهم
الخبیثة، وانفك عنهم ما كانوا عليه من التسخير؛ وهكذا المَلِكُ الذي يقوم مُلْكُهُ
بغيره، ويكون استمساكه بعصا. فإنه إذا سَقَطَ سَقَطَ بسقوطه، وَمَنْ قام بغيره زال
بزواله.

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ
رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَمْ بَلَدَةٍ طَيِّبَةٍ وَرَبِّ غَفُورٍ﴾.

كانوا في رَعْدٍ من العيش وسلامة الحال ورفاهته، فأمرُوا بالصبر على العافية

(١) جاءت العبارة بالرسالة القشيرية ص ١٧٥: الشاكر الذي يشكر عند البذل، والشكور الذي يشكر عند
المطل.

(٢) الأرضة: ضربان: ضرب صغار مثل كبار الذر وهي آفة الخشب خاصة، وضرب مثل كبار النمل
ذوات أجنحة وهي آفة كل شيء من خشب ونبات، غير أنها لا تعرض للرطب وهي ذات قوائم،
والجمع أرض. (اللسان ١١٣/٧ مادة: أرض).

والشكر على النعمة، وهذا أمرٌ سهلٌ يسيرٌ، ولكنهم أعرضوا عن الوفاق، وكفروا بالنعمة، وضيّعوا الشكر، فبدّلوا وبُدِّلَ بهم الحال، كما قالوا:

تبدلت وتبدلنا يا حسرةً لمن ابتغى عوضاً لِسَلَمَى فلم يجد
قوله جلّ ذكره: ﴿فَاعْرِضُوا فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ^(١) وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ
أَكْمَلِي حَمَطٍ^(٢) وَأَثَلٍ^(٣) وَشِقْوَةٍ مِّنْ سِذْرٍ^(٤) وَقَلِيلٍ﴾.

كذلك من الناس من يكون في رَغَدٍ من الحال، واتصالٍ من التوفيق، وطَرَبٍ من القلب، ومساعدةٍ من الوقت، فيرتكب زَلَّةً أو يسيء أدباً أو يتبع شهوةً، ولا يعرف قُدْرَ ما هو به، فيتغير عليه الحال؛ فلا وقت ولا حال، ولا طرب ولا وصال؛ يُظْلِمُ عليه النهار وقد كانت ليلاليه مضيئةً، كما قلنا.

ما زلت أختال في زمانٍ وحالٍ حتى أمِنتُ الزمانَ مَكْرَهَ
حال عليّ الصدودُ حتى لم تَبْقَ مما شَهِدْتُ ذُرَّةَ
قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ مَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
الْقُرَى أَلْفًا بَرْكَةً فِيهَا قَرْيٌ ظَهَرَةٌ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيْرُوا فِيهَا لَيَالِيًا وَأَيَّامًا مَّيِّينًا﴾.

ما عوملوا إلا بما استوجبوا، ولا سَقُوا إِلَّا مِمَّا نَبِطُوا^(٥)، وما وقعوا إِلَّا في
الرَّهْطَةِ التي حَفَرُوا، وما قُتِلُوا إِلَّا بالسيف الذي صَنَعُوا!

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى...﴾: ما كان من شأنهم إلا التماذي في عصيانهم،
والإصرار على غيهم وطفيانهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَنفُسُهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ
صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

فرّقناهم تفريقاً حتى اتخذهم الناس مثلاً مضروباً؛ يقولون: ذهبوا أيدي سبا،

(١) العرم: السيل الشديد الذي لا يُطاق دفعه.

(٢) الخمط: ضرب من الأراك له حُمل يؤكل، وقيل: هو شجر قاتل أو سم قاتل، وقيل: شجر مثل
السدر وحمله كالتوت، وقيل: يقال لكل نبت قد أخذ طعماً من مرارة حتى لا يمكن أكله خمط،
وقيل غير ذلك. (اللسان ٢٩٦/٧ مادة: خمط).

(٣) الأثل: شجر يشبه الطرفاء إلا أنه أعظم منه وأجود عوداً تسوى به الأقداح الصفر الجياد. (اللسان
١٠/١١ مادة: أثل).

(٤) السدر: شجر شائك من فصيلة النبقيات مهددة فلسطين، ينمو برياً وزراعياً، وخشبه شديد الصلابة
شائع الاستعمال، وله ثمر فيه حلاوة. واحدته سدر (ج) سدر.

(٥) نبط: عَوْقه وشغله وبطاً به عنه.

وتفرقوا أيادي سبا. وفي قصتهم آيات لكل صبار على العاقبة، شكور على النعمة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّي بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾.

صدق عليهم إبليس ظنه - وإن كان لا يملك لنفسه أمراً، فإبليس مُسَلِّطٌ على أتباعه من الجن والإنس، وليس به من الإضلال شيء، ولو أمكنه أن يضرَّ غيره لأمكنه أن يمسك على الهداية نفسه، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَرِجَالٌ لَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥].

﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾: يهدي من يشاء ويضل من يشاء. ثم أخبر - سبحانه وتعالى - أنه بملكه متفرد، وفي الألوهية متوحد، وعن الأضداد والأنداد متعزّز، وأنهم لا يملكون مثقال ذرة، ولا مقياس حبة، وليس منهم نصير، ولا شريك ولا ظهير، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وأن الملائكة في السماء بوصف الهيبة فرعون، وفي الموقف الذي أثبتهم الحق واقفون، لا يفترون عن عبادته ولا يعصون^(١).

ثم قال جل ذكره: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَلْكَافِرِينَ﴾.

لم يقل أحد - مع شركه - إنه يُجِيلُ في الرزق على أحد غيره، فكما لا شريك له في الرزق ولا شريك له في الخلق فلا شريك له في استحقاق العبادة والتعظيم.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لَا تُشْكِرُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُشْكِرُ عَمَّا تَعْمَلُونَ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾.

ولا تسألون عما أجرمنا ولا نحن نسأل عن إجرامكم... ويوم الجمع يحاسب الله كلاً على أعماله، ويُطَالِبُ كلاً بشأنه، لا يؤاخذ أحداً بعمل غيره، وكل يُعْطَى كتابه، ويطلب الله من كل واحد حسابه.

وقد أجرى الله سُنته بأن يجمع بين عباده، ثم يعاملهم في حال اجتماعهم بغير ما يعاملهم في حال افتراقهم. فللاجتماع أثر كبير في الشريعة، وللصلاة بالجماعة أثر مخصوص. وقد عاتب الله - سبحانه - الذين يتفرقون عن النبي ﷺ، ومدح من لا يتفرق إلا عن استئذان.

(١) الآيتان (٢٢، ٢٣) لم تردا.

والشيوخ ينتظرون في الاجتماع زوائد، ويستروحون إلى هذه الآية: ﴿قُلْ يَجْمَعُ...﴾.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَ الَّذِينَ أَحَقُّ بِرَبِّهِمْ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، هو لك، تملكه وما ملك، لانهماكهم في ضلالتهم. وبعد تحققهم بأنها جمادات لا تفقه ولا تقدر، ولا تسمع ولا تبصر، وقعت لهم شبهة استحقاقها العبادة، فإذا طولبوا بالحجة لم يذكروا غير أنهم يقلدون أسلافهم... وهذا هو الضلال البعيد والخسران المبين.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أرسلناك مُؤَيِّدًا بالمعجزات، مُشْرِفًا بجميع الصفات، سيداً في الأرضين والسموات، ظاهراً لأهل الإيمان، مستوراً عن بصائر أهل الكفران - وإن كنت ظاهراً لهم من حيث العيان، قال تعالى: ﴿وَتَرْنَهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨].

قوله جل ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَجِزُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾.

لكثرة ما يقولون هذا كثره الله في كتابه خبراً عنهم، والجواب إن لكم ميعاد يوم، وفي هذا الميعاد لا تستأخرون ساعة ولا تستقدمون.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُؤْمِنَ بِهِدَا الْقُرْآنَ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ رَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْفُوتُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾.

لو رأيتم يومذاك لرأيت منظرًا فظيعاً؛ يرجع بعضهم إلى بعض القول، ويحيل بعضهم على بعض الجرم؛ يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا: أنتم أضللتمونا، ويُنكر الذين استكبروا ويقولون: بل أنتم اتبعتمونا... وهكذا أصحاب الزلات الأخلاء في الفساد، قال تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وكذلك الجوارح والأعضاء غداً يشهد بعضها على بعض؛ فاليد تقول للجملة أخذت، والعين تقول أبصرت، والاختلاف في الجملة عقوبة، ومن عمل بالمعاصي أخرج الله عايه كل من هو أطوع له، ولكنهم لا يعلمون ذلك، ولو علموا لاعتبروا، ولو اعتبروا لتابوا ووقفوا... ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً^(١).

(١) الآيتان (٣٢، ٣٣) لم تردا.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.

أي قابلوا رُسُلَنَا بالكذيب، وَصَبَرُ رُسُلُنَا... وماذا على هؤلاء الكفار لو آمنوا بهم؟ فهم لنجاتهم أرسلوا، ولصلاحيهم دَعَوَا وبلغُوا، ولو وافقوهم لسعدوا... ولكن أقساماً سبقت، وأحكاماً حقت، والله غالبٌ على أمره.

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾.

ليس هذا بكثرة الأموال والأولاد، وإنما هي بصائر مفتوحة لقوم، وأخرى مسدودة لقوم^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنَ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْفَضْلِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾.

لا تستحق الزُلْفَى عند الله؛ بالمال والأولاد، ولكن بالأعمال الصالحة والأحوال الصافية والأنفاس الزاكية، بل بالعناية السابقة، والهداية اللاحقة، والرعاية الصادقة ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْفَضْلِ﴾: يضاعف على ما كان لِمَن تقدمهم من الأَمَم ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ مِنْ تَكْدُرِ الصَّفْوَةِ والإخراج من الجنة.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

هم الذين لا يحترمون الأولياء، ولا يراعون حق اللّٰهِ في السرِّ، فهم في عذاب الاعتراض على أولياء الله، وعذاب الوقوع بشؤم ذلك في ارتكاب محارم الله، ثم في عذاب السقوط من عين الله.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِن رَّبِّي يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَمْ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

مَنْ الْخَلْفُ في الدنيا الرضا بالعدم والفقد، وهو أتم من السرور بالموجود؛ ومن ذلك الأنس بالله في الخلوة؛ ولا يكون ذلك إلا مع التجريد.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾.

قوم كانوا يعبدون الملائكة فيختبرهم عنهم؛ فيتبرأون منهم وينزهون الله ويسبحونه، فيفتضح هؤلاء - والافتضاح عند السؤال من شديد العقوبة، وفي بعض الأخبار:

أَنْ غَدَاً مَنْ يَسْأَلُهُمُ الْحَقَّ فَيَقْعُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَجَلِ مَا يَجْعَلُهُمْ يَقُولُونَ: عَذَّبْنَا رَبَّنَا بِمَا شِئْتَ مِنْ أَلْوَانِ الْعُقُوبَةِ وَلَا تَغْذِبْنَا بِهَذَا السُّؤَالِ!^(٢)

(٢) الآية (٤١) لم ترد.

(١) الآية (٣٦) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمَلُوكُ بِعَصَاكَ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

الإشارة في هذا أن من علق قلبه بالأغيار؛ وظن صلاح حاله بالاحتتيال؛ والاستعانة بالأمثال والأشكال ينزع الله الرحمة من قلوبهم؛ ويتركهم، ويشوش أحوالهم، فلا لهم من الأمثال والأشكال معونة، ولا لهم من عقولهم في أمورهم استبصار، ولا إلى الله رجوع، وإن رجعوا لا يرحمهم ولا يجيبهم، ويقول لهم: ذوقوا وبال^(١) ما به استوجبتم هذه العقوبة.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ مَا إِنَّمَا ظَنَنْتُمْ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ مَا يَبْنُونَ أَبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

الحكماء، والأولياء - الذين هم الأئمة في هذه الطريقة - إذا دلوا الناس على الله. قال بعض إخوان السوء - مثل بعض المتنصحين من أهل الغفلة وأبناء الدنيا لمريد: ما هذا؟ من الذي يطيق كل هذا؟ ربما لا تتمم الطريق!

لا بُد من الدنيا ما دمت تعيش!... وأمثال ذلك، حتى يميل هذا المسكين عند قبول النصيحة، وربما كان له هذا من خواطره الدنية... فيهلك ويضل.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾.

الإشارة من هذا إلى أهل الغفلة؛ يعارضون أصحاب القلوب فيما يجري من الأمور، بما تشوش إليهم نفوسهم، ويخطر ببالهم من هواجسهم عن مقتضى تفرقة قلوبهم - على قياس ما يقع لهم - من غير استناد إلى إلهام، أو اعتماد على تقدير من الله وإفهام.

وأهل الحقائق - الذين هم لسان الوقت - إذا قالوا شيئاً أو أطلقوا حديثاً، فلو طولوا بإقامة البرهان عليه لم يمكنهم؛ لأن الذي يتكلم عن الفراسة^(٢) أو عن الإلهام، أو كان مُسْتَنْطَقاً فليس يمكن لهؤلاء إقامة الحجة على أقوالهم. وأصحاب الغفلة ليس لهم إيمان بذلك، فإذا سمعوا شيئاً منه عارضوهم فيه لكون، فسيبيل هؤلاء الأكابر عند ذلك أن يسكتوا، ثم الأيام تجيب أولئك^(٣).

(١) ذاق فلان وبال عمله؛ أي ثقل فعله وعاقبته السيئة وجزاءه الوخيم.

(٢) الفراسة: مأخوذة من الثفرس وهو الثبث والنظر، ويطلق أيضاً على التوسم من السمة وهي العلامة، والفراسة قد تكون عادية تُعرف بقرائن الأحوال. وقد تكون إلهامية يخلقها الله في القلب وهي المراد غالباً عند القوم.

(٣) الآية (٤٥) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْقَلُ ذَرَّةٍ وَفُردَى ثَمَرٌ تَنفَكُّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

يقول: إذا سؤلت لكم أنفسكم تكذيب الرسول فأنعموا النظر... هل ترون فيه آثار ما رميته به؟ هذا محمد ﷺ. قلتم إنه ساحر - فأين آثار السحر على أحواله وأفعاله وأقواله؟ قلتم إنه شاعر - فمن أي قسم من أقسام الشعر كلامه؟ قلتم إنه مجنون - فأين جنون ظهر منه؟

وإذا قد عجزتم عن ذلك... فهلاً عرفتم أنه صادق^(١)!

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَ الْغُيُوبِ﴾.

يقذف بالحق على باطل أهل الغفلة فتزول حيلهم، ويظهر عجزهم. ويقذف بالحق على أحوال أهل الخلاف فيضمحل اجتراؤهم، ويحق بهم شؤم معاصيهم. ويقذف بالحق - إذا حضر أصحاب المعاني - على ظلمات أصحاب الدعاوى فيخمد ثائرتهم، ويفضحهم في الحال، ويفضح عوارضهم.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِي الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾.

الباطل على ممر الأيام لا يزيد إلا زهوفاً، والحق على ممر الأيام لا يزداد إلا قوة وظهوراً.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَمَا يُوحِيَ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.

إن كنت مهتدياً فبربي لا بجهدي. وإن كنت عندكم من أهل الضلال فوبال ضلالتني عائد علي، ولن يضررك ذلك. فانظروا أنتم إلى أنفسكم... أين وقعتم؟ وأي ضرر يعود عليكم لو أطمعتموني؟ لا في الحال تخسرون، ولا في أنفسكم تتعبون، ولا في جاهكم تنقصون.

وما أخبركم به نقص أصنامكم فبالضرورة أنتم تعلمون! فما لكم لا تبصرون؟ ولا لأنفسكم تنظرون؟

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فِرْعَوْنُ فَلَا قُوَّةَ وَأَخَذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

أي لو رأيت ذلك لرأيت فظيماً، وأمرأ عظيماً؛ إذا أخذهم بعد الإمهال فليس إلا الاستئصال.

﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاسُتُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

(١) الآية (٤٧) لم ترد.

إذا تابوا - وقد أَغْلِقْتُ الأبواب، وندموا - وقد تَقَطَّعَت الأسباب... فليس إلا الحسرات والندم، ولات حين ندامة!

كذلك من استهان بتفاصيل فترته، ولم يَسْتَفِقْ من غَفَلَتِهِ يُتَجَاوَزُ عنه مرةً، ويُغْفَى عنه كَرَّةً، فإذا استمكننت منه القسوةُ وَتَجَاوَزَ سوءُ الأدبِ حَدَّ الغفلة، وزاد على مقدار الكثرة... يحصل له من الحقِّ رَدٌّ، ويستقبله حجاب، وبعد ذلك لا يُسْمَعُ له دعاء، ولا يُزَحَّمُ له بكاء^(١)، كما قيل:

فَحَلَّ سَبِيلَ الْعَيْنِ بَعْدَكَ لِلْبُكَاءِ فليس لأيام الصفاء رجوع
قوله جلَّ ذكره: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّزِيمٍ﴾.

التوبة يشتهونها في آخر الأمر وقد فات الوقت، والخَصْمُ يريد إرضاءه فيستحيي أن يذكر في ذلك الوقت، وينسُدُّ لسانه ويعتقل؛ فلا يمكنه أن يُفْصِحَ بما في قلبه، ويودُّ أن لو كان بينه وبين ما أسلفه بُعْدٌ بعيد، ويتمنى أن يُطِيعَ فلا تساعد القوة، ويتمنى أن يكون له - قبل خروجه من الدنيا - نَفْسٌ... ثم لا يتفق.

(١) الآية (٥٣) لم ترد.

سورة فاطر

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة سماعها يوجب رَوْحاً لمن كان يشاهد الإتيان، ويوجب لَوْحاً لمن كان بوصف البيان؛ فالرَّوْحُ من وجود الإحسان، واللَّوْحُ من شهود السلطان، وكلُّ مُصِيب، ولكلُّ من الحق نصيب.

قوله جل ذكره: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ﴾.

استحق المدح والثناء على انفراده بالقدرة على خلق السموات والأرض.

﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَّىٰ وَتِلْكَ وَرَبُّكَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾:

تعرّف إلى العباد بأفعاله، وتذبّهم إلى الاعتبار بها، فمنها ما نعلم منه ذلك معيّنة كالسموات والأرض وغيرها، ومنها ما سبيل الإيمان به الخبر والنقل - لا بدليل العقل - والملائكة من ذلك؛ فلا نتحقق كيفية صورهم وأجنتهم، وكيف يطيرون بأجنتهم الثلاثة أو الأربعة، ولكن على الجملة نعلم كمال قدرته، وصدق كلمته.

قوله: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾: قيل الخلق الحسن، وقيل الصوت الحسن، وقيل الصوت الحسن وقيل مَلَاخَةُ العِينين، وقيل الكياسة في الخيرة، وقيل الفصاحة في المنطق، وقيل الفهم عن الله، ويقال السخاء والجود، ويقال الرضا بالتقدير، ويقال علو الهمة، ويقال التواضع، ويقال العفة عند الفقر، ويقال الظرف في الشئ، ويقال أن تكون مُحِبّاً إلى القلوب، ويقال خفة الروح، ويقال سلامة الصدر من الشرور، ويقال المعرفة بالله بلا تأمل برهان^(١)، ويقال الشوق إلى الله، ويقال التعطف على الخلق بجملتهم، ويقال تحرر القلوب من رِقِّ الحدثان بجملته، ويقال ألا يَطْلُبَ لنفسه منزلة في الدارين.

قوله جل ذكره: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لِمِنْ بَدِئَهُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

(١) انظر حديث القشيري عن المعرفة بالله بالرسالة القشيرية ص ٣١١ - ٣١٧.

المَوْسَعُ عَلَيْهِ رِزْقُهُ لَا يُضَيِّقُ عَلَيْهِ غَيْرُ اللَّهِ، والمحرومُ لَا يُوسَعُ عَلَيْهِ غَيْرُ اللَّهِ.
ويقال: ما يلج في قلوب العارفين من أنوار التحقيق لا سحاب يستره، ولا ضياء يقهره.

ويقال: ما يلزم قلوب أوليائه من اليقين فلا مُزِيلَ لَهُ، وما يُغْلَقُ عَلَى قُلُوبِ الْأَعْدَاءِ مِنْ أَبْوَابِ الذِّكْرِ فَلَا فَاتَحَ لَهُ غَيْرُهُ - سبحانه.

ويقال الذي يقرنه بقلوب أوليائه وأحوالهم من التيسير فلا مُنْهِكَ لَهُ، والذي يمنعه عن أعدائه - بما يُلْقِيهِمْ فِيهِ مِنْ انْغِلَاقِ الْأُمُورِ وَاسْتِصْعَابِهَا - فَلَا يُمَيِّسِرُ لَهُ مِنْ دُونِهِ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآذَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾.

مَنْ ذَكَرَ النِّعْمَةَ فَصَاحِبُ عِبَادَةٍ، وَنَائِلُ زِيَادَةٍ، وَمَنْ ذَكَرَ الْمُنْعِمَ فَصَاحِبُ إِرَادَةٍ، وَنَائِلُ زِيَادَةٍ... ولكنْ فَرْقٌ بَيْنَ زِيَادَةٍ وَزِيَادَةٍ؛ ذَلِكَ زِيَادَتُهُ فِي الدَّارَيْنِ عَطَاؤُهُ، وَهَذَا زِيَادَتُهُ لِقَاؤُهُ: الْيَوْمَ سِرًّا بِسِرٍّ مِنْ حَيْثُ الْمَشَاهِدَةِ، وَغَدًا جَهْرًا بِجَهْرٍ مِنْ حَيْثُ الْمَعَايِنَةِ. وَالنِّعْمَةُ عَلَى قَسَمَيْنِ: مَا دَفَعَ عَنْهُ مِنَ الْمَحْنِ، وَمَا نَفَعَ بِهِ مِنَ الْمَنْنِ؛ فَذِكْرُهُ لِمَا دَفَعَ عَنْهُ يَوْجِبُ دَوَامَ الْعِصْمَةِ، وَذِكْرُهُ لِمَا نَفَعَ بِهِ يَوْجِبُ تَمَامَ النِّعْمَةِ.

﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ...﴾؟ وَفَائِدَةُ هَذَا التَّعْرِيفِ أَنَّهُ إِذَا عَرَفَ أَنَّهُ لَا رَازِقَ غَيْرِهِ لَمْ يُعَلِّقْ قَلْبَهُ بِأَحَدٍ فِي طَلَبِ شَيْءٍ، وَلَمْ يَتَذَلَّ فِي ارْتِفَاقٍ لِمَخْلُوقٍ، وَكَمَا لَا يَرَى رِزْقَهُ مِنْ مَخْلُوقٍ لَا يَرَاهُ مِنْ نَفْسِهِ أَيْضًا؛ فَيَتَخَلَّصُ مِنْ ظُلُمَاتِ تَدْبِيرِهِ وَاحْتِيَالِهِ، وَمِنْ تَوَهُّمِ شَيْءٍ مِنْ أَمْثَالِهِ وَأَشْكَالِهِ، وَيَسْتَرِيحُ لَشُهُودِ تَقْدِيرِهِ، وَلَا مُحَالَةَ يُخْلِصُ فِي تَوَكُّلِهِ وَتَقْوِيضِهِ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَلِيَ اللَّهُ تَرْجِعَ الْأُمُورَ﴾.

هَذِهِ تَسْلِيَةٌ لِلرُّسُولِ ﷺ، وَتَسْهِيلٌ لِلصَّبْرِ عَلَيْهِ؛ فَإِذَا عَلِمَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ اسْتَقْبَلَهُمْ مِثْلَمَا اسْتَقْبَلَهُ، وَأَنَّهُمْ صَبَرُوا وَأَنَّ اللَّهَ كَفَاهُمْ، فَهُوَ يَسْلُكُ سَبِيلَهُمْ وَيَقْتَدِي بِهِمْ، وَكَمَا كَفَاهُمْ عَلِمَ أَنَّهُ أَيْضًا يَكْفِيهِ. وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ لِلْحِكْمَاءِ وَأَرْبَابِ الْقُلُوبِ فِي مَوْقِفِهِمْ مِنَ الْعَوَامِّ وَالْأَجَانِبِ عَنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلَ، بَيْنَمَا أَهْلُ الْحَقَائِقِ أَبَدًا مِنْهُمْ فِي مَقَاسَةِ الْأَذَى إِلَّا بِسُتْرِ حَالِهِمْ عَنْهُمْ.

وَالْعَوَامُّ أَقْرَبُ إِلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ مِنَ الْقُرَّاءِ الْمُتَقَشِّفِينَ، وَمِنْ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ هُمْ لِهَذِهِ الْأَصُولِ يَنْكُرُونَ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْهَيْوَةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾.

وَعَدُ اللَّهِ حَقٌّ فِي كُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ أَنَّهُ يَكُونُ، فَوَعْدُهُ فِي الْقِيَامَةِ حَقٌّ، ووَعْدُهُ لِمَنْ أَطَاعَهُ بِكَفَايَةِ الْأُمُورِ وَالسَّلَامَةِ حَقٌّ، ووَعْدُهُ لِلْمُطِيعِينَ فِي الْآخِرَةِ بِوُجُودِ الْكَرَامَةِ حَقٌّ، وَلِلْعَاصِينَ بِالنَّدَامَةِ حَقٌّ، فَإِذَا عَلِمَ الْعَبْدُ ذَلِكَ اسْتَعَدَّ لِلْمَوْتِ، وَلَمْ يَهْتَمَّ بِالرِّزْقِ، فَيَكْفِيهِ اللَّهُ شُغْلُهُ، فَيَنْشِطُ الْعَبْدُ فِي اسْتِكْثَارِ الطَّاعَةِ ثِقَةً بِالْوَعْدِ، وَلَا يُلِمْ بِالْمَخَالَفَاتِ خَوْفًا مِنَ الْوَعِيدِ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حَزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

عدوُّ الشَّيْطَانِ بدوام مخالفته؛ فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يِعَاوَنُهُ بِالْقَوْلِ وَلَكِنْ يُوَافِقُهُ بِالْفِعْلِ، وَلَنْ تَقْوَى عَلَى عِدَاوَتِهِ إِلَّا بِدَوَامِ الِاسْتِغَاثَةِ بِالرَّبِّ، وَتِلْكَ الِاسْتِغَاثَةُ تَكُونُ بِصَدَقِ الِاسْتِعَانَةِ. وَالشَّيْطَانُ لَا يَفْتَرُ فِي عِدَاوَتِكَ، فَلَا تَغْفُلْ أَنْتَ عَنْ مَوْلَاكَ لِحِظَةٍ فَيَرِزُ لَكَ عِدْوُكَ؛ فَإِنَّهُ أَبَدًا مَتَمَكِّنٌ لَكَ.

﴿إِنَّمَا يَدْعُو حَزْبَهُ﴾ وَحَزْبُهُ هُمُ الْمُعْرِضُونَ عَنِ اللَّهِ، الْمُسْتَغْلُونَ بِغَيْرِ اللَّهِ، الْغَافِلُونَ عَنِ اللَّهِ. وَدَلِيلُ هَذَا الْخَطَابِ: إِنَّ الشَّيْطَانَ عِدْوَكُمْ فَأَبْغُضُوهُ وَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا، وَأَنَا وَلِيُّكُمْ وَحَبِيبُكُمْ فَأَجِبُونِي وَارْضَوْا بِي حَبِيبًا.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ مُعَجَّلٌ وَعَذَابٌ مُؤَجَّلٌ، فَمُعَجَّلُهُ تَفَرُّقُهُ قُلُوبُهُمْ وَانْسِدَادُ بَصَائِرِهِمْ وَوَقَاحَةُ هِمَّتِهِمْ حَتَّى أَنَّهُمْ يَرْضَوْنَ بِأَنَّهُمْ يَكُونُ الصَّنَمُ مَعْبُودَهُمْ. وَأَمَّا عَذَابُ الْآخِرَةِ فَهُوَ مَا لَا تَخْفَى عَلَى مُسْلِمٍ - عَلَى الْجَمَلَةِ - صَعُوبَتُهُ.

وَأَمَّا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فَلَهُمْ مَغْفِرَةٌ أَيْ سَتْرٌ لَذُنُوبِهِمْ الْيَوْمَ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَافْتَضَحُوا، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَهَلَكُوا.

﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾: وَالْأَجْرُ الْكَبِيرُ الْيَوْمَ سَهُولَةُ الْعِبَادَةِ وَدَوَامُ الْمَعْرِفَةِ، وَمَا يَنَالُهُ فِي الْقَلْبِ مِنْ زَوَائِدِ الْيَقِينِ وَخَصَائِصِ الْأَحْوَالِ. وَفِي الْآخِرَةِ: تَحْقِيقُ السُّؤْلِ وَنَيْلُ مَا فَوْقَ الْمَأْمُولِ.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

مَعْنَى الْآيَةِ: أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا كَمَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ؟ لَا يَسْتَوِيَانِ! وَمَعْنَى ﴿زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ أَنْ الْكَافِرَ يَتَوَهَّمُ أَنَّ عَمَلَهُ حَسَنٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَحْسَبَنَّ أَنَّهُمْ يُخْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

ثم الراغبُ في الدنيا يجمع حلالها وحرامها، ويحوش^(١) خطامها، ولا يفكر في زوالها، ولا في ارتحاله عنها قبل كمالها؛ فلقد زين له سوء عمله والذي يتبع شهواته ويبيع مؤبد راحاته في الجنة بساعةٍ فلقد زين له سوء عمله. وإن الذي يُؤثرُ على ربِّه شيئاً من المخلوقات لهُوَ من جملتهم. والذي يتوهم أنه إذا وجدَ نجاته ودرجاته في الجنة - وأن هذا يكفيه. . فقد زُينَ له سوء عمله حيث يتغافل عن حلاوة المناجاة. والذي هو في صحبة حظوظه ولا يُؤثرُ حقوق الله فلقد زين له سوء عمله فراه حسناً.

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ﴾: يعني إذا عَرَفْتَ حقَّ التقدير، وعَلِمْتَ أنهم سقطوا من عين الله، ودَعَوْتَهُمْ جَهْرًا، وبَذَلْتَ لَهُمْ نُصْحًا، فاستجابتهم ليست لك، فلا تجعل على قلبك من ذلك مشقة ولا عناء.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ مَكَابٍ فَسَقَتْهُ إِلَى بَلَدٍ مَّتَّى فَأَخْبَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ اللَّهُ الشُّورُ﴾.

أجرى سُنَّتَهُ بأنه يُظهِرُ فَضْلَهُ في إحياء الأرض بالتدريج؛ فأولاً يرسل الرياح ثم يأتي بالسحاب، ثم يوجه ذلك السحاب إلى الموضع الذي يريد له تخصيصاً كيف يشاء، ويُمطرُ هناك كيف يشاء. كذلك إذا أراد إحياء قلب عبدٍ بما يسقيه وينزل عليه من أمطار عنايته، فيُرْسِلُ أولاً رياحَ الرجاء، ويزعج بها كوامنَ الإرادة، ثم ينشئ فيها سُحُبَ الاهتياج، ولوعة الانزعاج، ثم يوجد بمطرٍ يُنبِثُ في القلب أزهارَ البَسَطِ، وأنوارَ^(٢) الرُّوح، فيطيب لصاحبه الغيش إلى أن تمَّ لطائف الأنس.

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكُلُّ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾.

مَنْ كان يريد العزة بنفسه فَلْيَعْلَمْ أَنَّ العزةَ بجملتها لله، فليس للمخلوق شيء من العِزَّة. ويقال مَنْ كان يريد العزة لنفسه فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا، أي فليطلبها من الله، وفي آية أخرى أثبت العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وقال هاهنا ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾؛ وَوَجْهُ الجميع بينها أن عِزَّ الربوبية لله وَضْفًا، وعِزَّ الرسول، وعِزَّ المؤمنين لهم فضلًا من الله ولطفًا؛ فإذا الْعِزَّةُ لله جميعًا. وعِزُّه سبحانه - قُدْرَتُهُ. أو ويقال العزيز هو القاهر الذي لا يُفْهَرُ؛ فيكون من صفات فعله على أول القولين. . ومن صفات ذاته على القول الآخر. ويقال العزيز هو الذي لا يُوصَلُ إليه مِنْ قَوْلِهِمْ: أرضٌ عَزَّازٌ إذا لم تستقر عليها الأقدام، فيرجع معناه إلى جلال سلطانه.

(١) حوش المال: جمعه.

(٢) أنوار: (ج) النور: الزهر أو الأبيض منه. الواحدة: نورة.

ويقال العزيز الذي لا مثْلَ له؛ من قولهم؛ عَزَّ الطعام في اليد. فيرجع إلى استحقاقه لصفات المجد والعلو.

قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾: الكلم الطيب هو الصادر عن عقيدة طيبة - يعني الشهادتين - عن إخلاص. وأراد به صعود قبول، لأن حقيقة الصعود في اللغة بمعنى الخروج - ولا يجوز في صفة الكلام.

﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾: أي يقبله. ويقال العمل الصالح يرفع الكلم الطيب. ويقال الكلم الطيب ما يكون موافقاً للسنة، ويقال هو ما يشهد بصحته الإذن والتوقيف. ويقال هو نُطق القلب بالثناء على ما يستوجبه الرب. ويقال هو ما يكون دعاءً للمسلمين. ويقال ما يتجرد حقاً للحق ولا يكون فيه حظ للعبد. ويقال ما هو مُستخرج من العبد وهو فيه مفقود. ويقال هو بيان التنصل وكلمة الاستغفار.

ويقال العمل الصالح ما يصلح للقبول، ويقال الذي ليس فيه آفة ولا يُطلب عليه عوض.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السُّيُوفَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾. أي يُقْلَبُ عليهم مكْرهم فيما يتوهمونه من خيرٍ لهم يقلِّبه محنةً عليهم. ويقال: تَخْلِيَّتُهُ إياهم ومَكْرهم - مع قدرته على عصمتهم، وكَوْنُهُ لا يعصمهم هي عذابهم الشديد.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفُفٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

ذَكَرهم نَسَبَتهم لثلاث يُعْجَبوا بحالتهم، ثم إن ما يُتَّخَذُ من الطين سريع التغير، قليل القوة في المَكث، لكنه يَقْبَلُ الانجبار بالماء إذ تنجبر به طينته؛ فإذا جاد الحق عليه بماء الجود أعاده بعد انكساره بالذنوب.

وإذا كان لا يخفى عليه - سبحانه - شيء من أحوالهم في ابتداء خَلْقَتِهِمْ، فَمَنْ يُبَالِ أَنْ يَخْلُقَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَنْصِي فلا يبالي أَنْ يَغْفِرَ لِمَنْ رآه يعصي.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فَرَأَتْ سَالِحٌ شَرَابَهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلٌّ تَأْكُلُونَ لَعْمًا طَرِيًّا وَتُسَخَّرُونَ حِيلَةً تَلْبَسُونَهَا وَرَى الْفَلَكُ فِيهِ مَوَازِيرَ لِيَتَنَفَّوْا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

لا تستوي الحالتان: هذه إقبال على الله، واشتغال بطاعته، واستقلال بمعرفته. وهذه إغراض عن الله، وانقباض عن عبادته، واعتراض - على الله - في قسمته وقبضته.

هذه سبب وصاله، وهذه سبب هجره وانفصاله، وفي كل واحدة من الحالتين يعيش أهلها، ويُزجي أصحابها وقتها. ولا يستوي الوقتان: هذا بسطٌ وصاحبه في رُوح، وهذا قبضٌ وصاحبه في نُوح. هذا خوفٌ وصاحبه في اجتياح، وهذا رجاءٌ وصاحبه في ارتياح. هذا فَرْقٌ وصاحبه بوصف العبودية، وهذا جَمْعٌ وصاحبه في شهود الربوبية.

﴿وَمِنْ كُلِّ تَآكُلُونَ لَحْمًا طَرِيفًا وَتَسْتَخِرُونَ ظِلَّةً تَلْبَسُونَهَا﴾: كذلك كُلٌّ يتقربُ في حالته لربه، ويتزَيَّنُ على بابه، وهو جَلِيَّتُهُ التي بها يتحلَّى من طَرِبٍ أو حَرَبٍ، من شَرَفٍ أو تَلَفٍ.

قوله جل ذكره: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾.

تغلب الشمسُ مرةً على القلب، ويغلب القلبُ مرةً على الشمس. وكذلك القبضُ والبسطُ فقد يستويان، ومرةً يغلب القبضُ على البسط، ومرةً يغلب البسطُ على القبض، وكذلك الصحو والسُّكْرُ، وكذلك الفناء والبقاء.

وسَخَّرَ شمسَ التوحيد وأقمارَ المعرفة على ما يريد من إظهاره على القلوب. ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾: فاروني شظيةً من النفي أو الإثبات لما تدعونه من دونه! وإذ لم يُمكنكم ذلك.. فهُلَّا أفرزتم، وفي عبادته أخلصتم، وعن الأصنام تَبَرَّأْتُمْ؟

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ وَلَا يَنْتَظِرُكَ مِنْ خَيْرٍ﴾.

إن استعنتم بأصنامكم لا يُعينوكم، وإن دَعَوْتُمُوهم لا يسمعوا دعاءكم، ولو سَمِعُوا - على جهة ضَرْبِ المَثَلِ - لا يستجيبون لكم؛ لأنهم لا يَمْلِكُونَ نَفْعَ أَنْفُسِهِمْ. فكيف يَمْلِكُونَ نَفْعَ غَيْرِهِمْ؟

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ﴾: لا يؤمنون إلا في ذلك الوقت، ولكن لا ينفعهم الإيمانُ بعد زوال التكليف.

قوله جل ذكره: ﴿بَنَاتِنَا أَلْهَيْنَا أَنتُمْ أَفْقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

الفقر^(١) على ضربين: فقر الخِلْقَةِ وفقر الصفة؛ فأما فقر الخِلْقَةِ فهو عامٌ لكلٍّ أحدٍ؛ فكلُّ مخلوقٍ مفتقرٌ إلى خالقه، فهو قد حَصَلَ من العَدَمِ، فهو مفتقرٌ إليه ليبيده

(١) انظر حديث القشيري عند الفقر في الرسالة ص ٢٧١ - ٢٧٩.

وينشيه، ثم بعد ذلك مفتقرٌ - في حال بقائه إليه - لِيُدِيمَهُ وَيَقِيَهُ. فاللَّهُ - سبحانه - غني، والعبدُ فقير؛ العبدُ فقيرٌ بعينه واللَّهُ غنيٌ بعينه.

وأما فقر الصفة فهو التجرد، فققرُ العوامِ التجردُ من المال، وفقر الخواصِ التجرد من الأعلالِ لِيَسْلَمَ لهم الفقر.

والفقر على أقسام: فقر إلى الله، وفقر إلى شيء هو من الله؛ معلوم أو مرسوم وغير ذلك. ومن افتقر إلى شيء استغنى بوجود ذلك الشيء؛ فالفقيرُ إلى الله هو الغنيُّ بالله، والافتقار إلى الله لا يخلو من الاستغناء بالله، فالمفتقر إلى الله مُسْتَغْنٍ بالله، والمستغني بالله مفتقرٌ إلى الله^(١).

ومن شرف الفقر اقتراحه بالتواضع والخضوع، ومن آفات الغنى امتزاجه بالتكبر، وشرفُ العبد في فقره، وكذلك ذلُّه في توهمه أنه غنيٌّ: -

وَإِذَا تَذَلَّلْتُ الرَّقَابُ تَقَرُّبًا مِنَّا إِلَيْكَ فَعِزُّهَا فِي ذُلِّهَا

ومن الفقر المذموم، أن يَسْتَرْ الحقَّ على صاحبه مواضع فقره إلى ربِّه، ومن الفقر المحمود أن يُشْهِدَ الحقَّ مواضع فقره إليه.

ومن شرط الفقير المخلص ألا يملك شيئاً ويملك كلَّ شيء.

ويقال: الفقير الصادق الذي لا يملكه شيء.

ومن آداب الفقير الصادق إظهارُ التَّشْكُرِ عند كمالِ التَّكْسُرِ. ومن آداب الفقر كمال المعنى وزوال الدعوى. ويقال الشكر على البلوى والبعد عن الشكوى.

وحقيقة الفقر المحمود تجرُّد السُّرِّ عن المعلولات وإفراد القلب بالله.

ويقال: الفقر المحمود العَيْشُ مع الله براحة الفراغ على سَرَمِدِ الوقتِ من غير استكراه شيءٍ منه بكلِّ وجهٍ.

قوله: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾: الإشارة منه أن يُعْطِيَ حتى يُخَمَدَ.

ويقال الغنيُّ إذا أظهر غِنَاهُ لأحدٍ فإمَّا للمفاخرة أو للمكاثرة - وَجَلَّ قَدْرُ الحقِّ عن ذلك - وإمَّا ليجود ويفضَّل على أحدٍ.

ويقال: لا يقول لنا أنتم الفقراء للإضرار بنا - فَإِنَّ كَرَمَهُ يَتَقَدَّسُ عن ذلك - وإنما المقصود أنه إذا قال: والله الغني، وأنتم الفقراء أنه يجود علينا.

(١) قال القشيري برسالته: سئل الجنيدي عن الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى: أهو أتم أم الاستغناء بالله تعالى؟ فقال: إذا صح الافتقار إلى الله عز وجل، فقد صح الاستغناء بالله تعالى، وإذا صح الاستغناء بالله تعالى كمل الغنى به، فلا يقال: أيهما أتم الافتقار أم الغنى؟ لأنهما حالتان لا تتم إحداهما إلا بالأخرى. (الرسالة القشيرية ص ٢٧٣).

ويقال إذا لم تدع ما هو صفته - من استحقاق الغنى - أولاك ما يغنيك، وأعطاك فوق ما يكفيك.

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

عَرَّفَكَ أنه غني عنك، وأشهدك موضع فقرك إليه، وأنه لا بُدَّ لك منه، فما القصد من هذا لا إرادته لإكرامك وإيوائك في كَنَفِ إنعامه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

كُلُّ مُطَالِبٍ بعمله، وكلُّ مُحَاسِبٍ عن ديوانه، ولكلُّ معه شأن، وله مع كلِّ أحدٍ شأن. ومن العبادات ما تجري فيه النيابة ولكن في المعارف لا تجري النيابة؛ فلو أن عبداً عاصياً منهمكاً في غوايته فاتته صلاة مفروضة، فلو قضى عنه ألف ولي وألف صَفِيٍّ تلك الصلاة الواحدة عن كل ركعة ألف ركعة لم تُقْبَلْ منه إلا أن يجيء هو: معاذ الله أن نأخذ إلا مِمَّنْ وجدنا متاعنا عنده! فعتابك لا يجري مع غيرك والخطاب الذي معك لا يسمعه غيرك:

فَسِرْ أَوْ أَقِمْ وَفَقَّ عَلَيْكَ محبتي مكائك من قلبي عليك مصون

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ. وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

الإنذار هو الإعلام بموضع المخافة، والخشية هي المخافة؛ فمعنى الآية، لا ينفع التخويف إلا لمن صاحبَ الخوف - وطيرُ السماء على أشكالها تَنَفَّعُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمْتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الظُّلُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾.

كما لا يستوي الأعمى والبصير لا تستوي الظلمات والنور، ولا يستوي الظلُّ والحرور، ولا الأحياء والأموات. . . وكذلك لا يستوي الموصول بنا والمشغول عنا، والمجذوب إلينا، والمحجوب عنا، ولا يستوي مَنْ اصطَفِينَاهُ في الأزل ومن أَشَقِينَاهُ بحكم الأزل، ولا يستوي من أشهدناه حقنا ومن أغفلنا قلبه عن ذِكْرِنَا:

أحبابنا شتان: وافي وناقض ولا يستوي قطُّ مُحِبٍّ وباغض

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

أي وما من أمة ممن كانوا من قبلك إلا بعثنا فيهم نذيراً، وفي وقتك أرسلناك إلى جميع الأمم كافة بالحق.

﴿يَسِيرًا وَنَذِيرًا﴾: تضمنت الآية بيان أنه لم يُخل زماناً ولا قومًا من شرع. وفي وقته ﷺ أفرد به بأن أرسله إلى كافة الخلائق، ثم قال على جهة التسلية والتعزية له: قوله جل ذكره: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾.

أي لو قابلوك بالكذب فتلك سنتهم مع كل نبي؛ وإن أصرُّوا على سنتهم في الغي فلن تجد لسنة الله تبديلاً في الانتقام والخزي^(١). قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾.

بيّن في هذه الآية وأمثالها أن تخصيص الفعل بهيئاته وألوانه من أدلة قصد الفاعل وبرهانه، وفي إتقان الفعل وإحكامه شهادة على علم الصانع وإعلامه. وكذلك ﴿وَمِنْ أَلْسِنَةٍ أَلْسِنَاتٍ وَاللَّوَاتِ وَاللَّغَوَاتِ﴾: بل جميع المخلوقات متجانس الأعيان مختلف، وهو دليل ثبوت مُثَنِّيها بنعت الجلال. قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

«إنما» كلمة تحقيق تجري من وجه مجرى التحديد أي التخصيص والقصر، فمن فَقَدَ الْعِلْمَ بِاللَّهِ فلا خشية له من الله.

والفرق بين الخشية والرهبة أن الرهبة خوف يوجب هرب صاحبها فيجري في هربه، والخشية إذا حصلت كَبَحَتْ^(٢) جماح صاحبها فيبقى مع الله، فقدمت الخشية على الرهبة في الجملة.

والخوف قضية الإيمان، قال تعالى: ﴿وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] فالخشية قضية العلم، والهبة توجب المعرفة.

ويقال خشية العلماء من تقصيرهم في أداء حقّه. ويقال من استحيائهم من اطلاع الحق.

ويقال حَذَرًا من أن يحصل لهم سوء أدب وتترك احترام، وانبساط في غير وقته بإطلاق لفظ، أو تَرْخُص بِتَرْكِ الْأَوَّلَى.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾.

(١) الآية (٢٦) لم ترد.

(٢) كبح فلاناً عن حاجته: رده عنها. وجمع الرجل: ركب هواه فلا يمكن رده.

الذين يستغرق جميع أوقاتهم قيامهم بذكر الله وبحقّه، وإتيانهم بأنواع العبادات وصنوف القرب فلهم القدرُ الأجلُّ من التقريب، والنصيبُ الأوفر من الترحيب. وأما الذين أحوالهم بالصدِّ فمَنَالُهُم على العكس. أولئك هم الأولياءُ الأعزّةُ، وهؤلاء هم الأعداءُ الأذلةُ^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾.

ما عَرَفْنَاكَ - من اختيارنا لك وتخصيصنا إياك، وتقديمنا لك على الكافة - فعلى ما أخبرناك، وأنشدوا:

لا أبتغي بدلاً سواكِ خليلَ
فثِقِي بقولي والكِرَامُ ثِقَاتُ
قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.

﴿أَوْرَثْنَا﴾: أي أعطينا الكتاب - أي القرآن - الذين اصطفينا من عبادنا، وذكر الإعطاء بلفظ الإرث توسعاً.

﴿اصْطَفَيْنَا﴾: أي اخترنا. ثم ذكر أقسامهم، وفي الخبر أنه لما نزلت هذه الآية قال عليه السلام: «أمتي وربّ الكعبة»^(٢) ثلاث مرات.

وفي الآية وجوه من الإشارة: فمنها أنه لما ذكر هذا بلفظ الميراث فالميراث يقتضي صحة النسب على وجه مخصوص، فَمَنْ لا سبب له فلا نسب له، ولا ميراث له.

ومحلُّ النسبِ ها هنا المعرفة، ومحلُّ السببِ الطاعة. وإن قيل محلُّ النسبِ فضله، ومحلُّ السببِ فغلُّك: فهو وجّه. ويصحُّ أن يقال محلُّ النسبِ اختياره لك بدءاً ومحلُّ السببِ إحسانه لك تالياً.

ويقال أهلُ النسبِ على أقسام: - الأقوى، والأدنى كذلك في الاستحقاق. ويقال جميع وجوه التملُّك لا بُدَّ فيها من فعلٍ للعبد كالبيع، أمّا ما يُمَلِّكُ بالهبة فلا يحصل إلا بالقبول والقسمه، ولا يحصل الاستحقاق إلا بالحضور والمجاهدة وغير ذلك. والوصية لا تُسْتَحَقُّ إلا بالقبول، وفي الزكاة لا بُدَّ من قبول أهل الشَّهْمَانِ، والميراث لا يكون فيه شيء من جهة الوارث وفعله، والنسبُ ليس من جملة أفعاله.

(١) الآية (٣٠) لم ترد.

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٠/٤٩٠).

ويقال الميراث يُسْتَحَقُّ بوجهين: بالفرض والتعصيب، والتعصيب أقوى من الفرض؛ لأنه قد يستحق به جميع المال، ثم الميراث يبدأ بذوي الفروض ثم ما يتبقى فللعصبة^(١).

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ﴾: تكلموا في الظالم، فمنهم من قال هو الأفضل، وأرادوا به من ظلم نفسه لكثرة ما حملها من الطاعة.

والأكثر: إن السابق هو الأفضل، وقالوا: التقديم في الذكر لا يقتضي التقديم في الرتبة، ولهذا نظائر كثيرة.

ويقال قرَنَ باسم الظالم قرينة وهي قوله: «لنفس»، وقرن باسم السابق قرينة وهي قوله: ﴿إِذْنُ اللَّهِ﴾؛ فالظالم كانت له زلة، والسابق كانت له صولة، فالظالم رَفَعَ زلته بقوله: لنفسه، والسابق كَسَرَ صولته بقوله: بإذن الله.

كانه قال: يا ظالم ارفع رأسك، ظَلَمْتَ ولكن على نفسك، ويا سابق اخفض رأسك؛ سَبَقْتَ - ولكن بإذن الله.

ويقال إن العزيز إذا رأى ظالماً قَصَمَهُ، والكريم إذا رأى مظلوماً أَخَذَ بيده، كانه قال: يا ظالم، إن كان كونك ظالماً يوجب قَهْرَكَ، فكونك مظلوماً يوجب الأخذ بيدك.

ويقال الظالم مَنْ غَلَبَتْ زَلَّاتُهُ، والمقتصد مَنْ استوت حالاته، والسابق مَنْ زادت حسناته.

ويقال الظالم مَنْ زهد في دنياه، والمقتصد مَنْ رغب في عقباه، والسابق مَنْ آثر على الدارين مولاه.

ويقال الظالم مَنْ نَجَمَ كوكب عقله، والمقتصد مَنْ طَلَعَ بذُرْ علمه، والسابق مَنْ ذَرَّتْ شمس معرفته.

ويقال الظالم مَنْ طَلَبَهُ، والمقتصد مَنْ وَجَدَهُ، والسابق مَنْ بقي معه. ويقال الظالم مَنْ تَرَكَ المعصية، والمقتصد مَنْ تَرَكَ الغفلة، والسابق مَنْ تَرَكَ العلاقة.

ويقال الظالم مَنْ جاد بماله، والمقتصد مَنْ لم يبخل بنفسه، والسابق مَنْ جاد بروحه.

ويقال الظالم مَنْ له علم اليقين، والمقتصد مَنْ له عين اليقين، والسابق مَنْ له حق اليقين.

(١) العَصْبَةُ: الذين يرثون الرجل عن كلاله، من غير والد ولا ولد. فأما في الفرائض فكل من لم تكن له فريضة مسماة. فهو عَصْبَة، إن بقي شيء بعد الفرائض أخذ. (اللسان ٦٠٥/١ مادة: عصب).

ويقال الظالم صاحب المودة، والمقتصد الخلّة، والسابق صاحب المحبة.
ويقال الظالم يترك الحرام، والمقتصد يترك الشبهة، والسابق يترك الفضل^(١) في الجملة.

ويقال الظالمُ صاحبُ سخاء، والمقتصد صاحب جود، والسابق صاحب إثارة.
ويقال الظالم صاحب رجاء، والمقتصد صاحب بسط، والسابق صاحب أنس.
ويقال الظالم صاحب خوف، والمقتصد صاحب خشية، والسابق صاحب هبة.
ويقال الظالم له المغفرة، والمقتصد له الرحمة والرضوان، والسابق له القربة والمحبة.

ويقال الظالم صاحب الدنيا، والمقتصد طالب العُقبى، والسابق طالب المولى.
ويقال الظالم طالب النجاة، والمقتصد طالب الدرجات، والسابق صاحب المناجاة.

ويقال الظالم أَمِنَ من العقوبة، والمقتصد فاز بالمشوبة، والسابق متحقق بالقربة.
ويقال الظالم مضروبٌ بسوطِ الحرّص، مقتول بسيف الرغبة، مضطجعٌ على باب الحسرة. والمقتصد مضروبٌ بسوط الندامة، مقتولٌ بسيف الأسف، مضطجع على باب الجود.

والسابق مضروبٌ بسوط التواجد، مقتول بسيف المحبة، مضطجعٌ على باب الاشتياق.

ويقال الظالم صاحب التوكل، والمقتصد صاحب التسليم، والسابق صاحب التفويض.

ويقال الظالم صاحب تواجد، والمقتصد صاحب وَجْد، والسابق صاحب وجود.

ويقال الظالم صاحب المحاضرة، والمقتصد صاحب المكاشفة، والسابق صاحب المشاهدة.

ويقال الظالم يراه في الآخرة بمقدار أيام الدنيا في كل جمعة مرة، والمقتصد يراه في كل يوم مرة، والسابق غير محجوب عنه ألبتة.

ويقال الظالم مجذوبٌ إلى فِعْله الذي هو فضله، والمقتصد مكاشفٌ بوصفه الذي هو عِزّه، والسابق المستهلك في حقّه الذي هو وُجُودُه.
قوله: ﴿ذَلِكَ هُوَ أَفْضَلُ الْكَبِيرِ﴾ لأنه ذكر الظالم مع السابق.

(١) الفضل: هنا الزيادة. يقول سهال بن عبد الله عن الحلال الصافي: هو الذي لا يُعصى الله تعالى فيه، وهو الذي لا يُنسى الله تعالى فيه. (الرسالة القشيرية ص ١١٢).

قوله جل ذكره: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

نبّه على أن دخولهم الجنة لا باستحقاق بل بفضل، وليس في الفضل تمييز.
قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.
تحققوا بحقائق الرضا، والحزن سُمي حزنًا لحزونة^(١) الوقت على صاحبه وليس في الجنة حزونة وإنما هو رضا واستبشار.

ويقال ذلك الحزن حزن خوف العاقبة. ويقال هو دوام المراعاة خشية أن يحصل سوء الأدب. ويقال هو سياسة النفس.

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ للعصاة، ﴿شَكُورٌ﴾ للطيبين. قدّم ما للعاصين رفقاً بهم لضعف أحوالهم.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾.

﴿دَارَ الْمَقَامَةِ﴾: أي دار الإقامة، لا يرغبون عنها حولا، ولا يتمنون منها خروجاً.

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾: إذا أرادوا أن يَرَوْا مولاهم لا يحتاجون إلى قطع مسافة، بل غُرْفهم يلقون فيها تحية وسلاماً، فإذا رأوه لم يحتاجوا إلى قلب حدة أو تحديق مقلة في جهة؛ يَرُونَهُ كما هُم بلا كيفية.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾.

لا حياة يَتَمَتَّعون بها، ولا موت يستريحون به، وهم مقيمون في العذاب والحجاب، لا يفر عنهم العذاب، وتَرْفَعُ عنهم العقوبة.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَحَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾.

يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾، فيقال لهم أو لم نَعْمِرْكُمْ...؟

(١) حزن المكان حزونة: خشن وغلظ، فهو حزن.

أَمَا جَاءَكُمْ النَّذِيرُ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغُوا زَمَانَ الْمَشِيبِ؟

ويقال: أَلَمْ تَسْتَوْفُوا مَدَّةَ الْإِمَهَالِ فِي النَّظَرِ؟

﴿وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾: الرسل، ويقال ضعف الشيخوخة، ويقال سقوط السن،
ويقال تَقَوُّسُ الظَّهْرِ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ عَلَيْكَ يَذَاتِ
الْصُّدُورِ﴾.

أي عالم بإخلاص المخلصين، وصدق الصادقين، ونفاق المنافقين، وجحد
الكافرين.

عالمٌ بِمَنْ يَرِيدُ بِالنَّاسِ السُّوءَ وَبِمَنْ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكَ خَلِيفَ فِي الْأَرْضِ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يُزِيدُ
الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾.

أهل كل عصر خليف عمن تقدمهم؛ فَمِنْ قَوْمٍ هُمْ لِسَلَفِهِمْ حَمَالٌ^(١)، وَمِنْ قَوْمٍ
هُمْ أَرَاذِلُ وَأَنْذَالُ؛ فَالْأَفْضَلُ زَمَانُهُمْ لَهُمْ مَحَنَةٌ، وَالْأَرَاذِلُ هُمْ لَزَمَانُهُمْ مَحَنَةٌ. وقد
قالوا:

يَوْمٌ وَحَسَبُ الْبَدْرِ مِنْ أَجَلِهِ حَيَاغِدٌ وَالتَّفَتُ الْأَمْسُ

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ
الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ ءَاتَيْنَهُمُ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِنِّي بِغَدِّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ
بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾.

كَرَّرَ إِشْهَادَهُمْ عَجَزَ أَصْنَامِهِمْ، وَنَقَصَ مَنْ اتَّخَذُوهُمْ آلِهَةً مِنْ أَوْثَانِهِمْ؛ لِيُسْفَهَ
بِذَلِكَ آرَاءَهُمْ، وَلِيُنَبِّهَهُمْ إِلَى ذَمِيمِ أَحْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، وَخِسَّةِ هِمَمِهِمْ، وَنُقْصَانِ
عقولهم.

ثم أخبر أنهم لا يأتون بشيء مما به يُطَالَبُونَ، وليس لهم صواب عما يُسْأَلُونَ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَرُودَا وَلَكِنْ زَالَتَا إِنْ
أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَلِيمًا غَفُورًا﴾

(١) الحمال: ما يتحملة الإنسان عن غيره من دية أو غرامة مثل أن تقع حرب بين فريقين تسفك فيها
الدماء، فيدخل بينهم رجل يتحمل ديات القتلى ليصلح ذات البين. (لسان العرب ١١/ ١٨٠ مادة:
حمل).

أَمْسَكْهَا بِقُدْرَتِهِ، وَأَتَقْنَهُمَا بِحُكْمَتِهِ، وَرَتَّبَهُمَا بِمَشِيتِهِ، وَخَلَقَ أَهْلَهُمَا عَلَى مُوَجِبِ قَضِيَّتِهِ، فَلَا شَبِيهَ فِي إِبْقَائِهِمَا وَإِفْنَائِهِمَا يُسَاهِمُهُ، وَلَا شَرِيكَ فِي وَجُودِهِمَا وَنِظَامِهِمَا يُقَاسِمُهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنصَبُوا بِأَلَلِّهِ جَهْدَ أَيْتِنِهِمْ لَيْتَ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ إِيحَادِي الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا تَقَوُّرًا أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.

ليس لقولهم تحقيق، ولا لِعَهْدِهِمْ وُضْمَانُهُمْ توثيق، وما يَعِدُونَ من أنفسهم فصريح زور، وما يُوهِمُونَ من وفائهم فَصِرْفُ تَغْرِيرٍ. وكذلك المريد في أوان نشاطه تُمَنِّيهِ نَفْسُهُ فتظاهر أمام مَنْ تَقَدَّمَهُ حالاً بأنه عاهد الله، وأنه أَكَّدَ عَقْدَهُ مع الله. فإذا غَضَبَتْهُ شَهْوَتُهُ، وأَرَادَ الشَّيْطَانُ أَنْ يَكْذِبَهُ صَرَخَهُ بِكَيْدِهِ، وأَرْكَسَهُ^(١) في هَوَا غِيَّهِ، وَمُنِيَّةِ نَفْسِهِ؛ فَيَسْوُدُ وَجْهَهُ، وتذهب عند الله وجاهته.

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِمَّنْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانَتْ عَلَيْهِمْ قَدِيرًا﴾.

في الجملة ما خاب له ولي، وما ربح له عدو، ولا ينال الحقيقة مَنْ انعكس قَضْدُهُ، بل يرتدُّ عليه كَيْدُهُ؛ وهو سبحانه يُدْمِرُ على أعدائه تدميراً ويوسع لأوليائه فضلاً كبيراً.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِا مِن دَابَّةٍ وَلَا يَكُنِ يُؤَخِّرُهُمَ إِلَّا أَجَلٌ مُّسَمًّى فَلَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَكُنِ اللَّهُ كَانٍ يَبْكَاؤُهُ بِصِيرًا﴾.

لو عَجَلَ لهم ما يستوجبونه من الثواب والعقاب لم تَفِ أَعْمَارُهُمُ الْقَلِيلَةُ بِهِ، وما اتسعت أيامهم القصيرة له، فَأَخَّرَ ذَلِكَ لِيَوْمِ الْحَشْرِ. فإنه طويل. والله على كل شيء قدير، وبأمر عباده خبير بصير.

(١) أركسه: ركسه أي رد أوله على آخره، وقَلَبَهُ على رأسه.

سورة يس

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» آية افتتح بها خطابه؛ فَمَنْ عَلِمَهَا أَجَزَل ثوابه، وَمَنْ عَرَفَهَا أَكْثَر إيجابه، وَمَنْ أَكْبَرَ قَدْرَهَا أَكْرَمَ مآبه.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسَّ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾.

يقال معناه: يا سيد. ويقال: الياء تشير إلى يوم الميثاق، والشين تشير إلى سيره مع الأحباب؛ فيقال بحق يوم الميثاق وسيرِّي مع الأحباب، وبالقرآن الحكيم: -

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

أي إِنَّكَ - يا محمد لَمِنَ المرسلين، وَإِنَّكَ لَعَلَى صراطٍ مستقيم.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾.

أي هذا الكتاب تنزيل (العزیز): المتكبر الغني عن طاعة المطيعين، (الرحيم): الْمُتَفَضَّل على عباده المؤمنين.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنذِرْ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾.

أي خَصَصْنَاكَ بهذا القرآن، وأنزلنا عليك هذا الفرقان لِنُنذِرَ به قوماً حصلوا في أيام الفترة، وانقرض أسلافهم على هذه الصِّفَةِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي حَقَّ القول بالعقوبة على أكثرهم لأنهم أصروا على جَحْدِهِمْ، وانهمكوا في جهلهم، فالملعوم منهم والمحكوم عليهم أنهم لا يؤمنون.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْيُنِهِمْ أَغْلَلاً فَهِيَ إِلَى الْآذَانِ فَهْمٌ تُّمَمِّحُونَ﴾.

سَجَرُوهُمْ إلى هوانهم وصغرهم، وسنديقهم وبأل أمرهم.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

أغرقتهم اليوم في بحار الضلالة وأخطنا بهم سرادات الجهالة. وفي الآخرة سنُغْرِقُهُمْ في النار والانكال، ونضيق عليهم الحال، بالسلاسل والأغلال.

﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾: أعميناهم اليوم عن شهود الحُجَّة، ونُلْبِسُ عليهم في الآخرة سبيل

الْمَحْجَّةَ، فَيَتَعَلَّوْنَ فِي وَهْدَاتِ جَهَنَّمَ دَاحِرِينَ، وَيَقُونَ فِي حُرْقَاتِهَا مَهْجُورِينَ، مَطْرُودِينَ مَلْعُونِينَ، لَا تَقْطَعُ عَنْهُمْ مَا بِهِ يُعَذَّبُونَ، وَلَا تَرْحَمُهُمْ مِمَّا مِنْهُ يَشْكُونَ؛ تَمَادَى بِهِمْ جَزْمَانُ الْكُفْرِ، وَأَحَاطَتْ بِهِمْ سَرَادِقَاتُ الشَّقَاءِ، وَوَقَعَتْ عَلَيْهِمُ السَّيِّئَةُ بِالْفِرَاقِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

مهجور الحق لا يصله أحد، ومردود الحق لا يقبله أحد. والذي قصمته المشيئة وأقمته القضية لا تنجعه فيه النصيحة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾.

أي إنما ينتفع بإنذارك من اتبع الذكر؛ فإن إنذارك - وإن كان عاماً في الكل وللكل - فإن الذين كفروا على غيهم يصرون. . ألا ساء ما يخكمون، وإن كانوا لا يعلمون قُبْحَ ما يفعلون. أما الذين اتبعوا الذكر، واستبصروا، وانتفعوا بالذي سمعوه منك، وبه عملوا - فقد استوجبوا أن تبشرهم؛ فبشرهم، وأخبرهم على وجه يظهر السرور بمضمون خبرك عليهم.

﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: كبير وافر على أعمالهم - وإن كان فيها خلل.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتُوتَ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَاهُمْ﴾.

نحيي قلوباً ماتت بالقسوة بما نُمِطِرُ عليها من صَوْبِ الإقبال والزلفة، ونكتب ما قَدَّمُوا.

﴿وَأَتَاهُمُ﴾: حُطَّاهُم إلى المساجد، ووقوفهم على بساط المناجاة معنا، وترقرق^(١) دموعهم على عَرَصات^(٢) خدودهم، وتَصَاعَدُ أنفاسهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

أثبتنا تفصيله في اللوح المحفوظ. . لا لتناسينا لها - وكيف وقد أحصينا كل شيء عدداً؟ - ولكننا أحيينا إثبات آثار أحيائنا في المكنون من كتابنا.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَحْصَبَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾.

انقرض زمانهم ونسي أوائهم وشأنهم! ولكننا نتذكر أحوالهم بعد فوات أوقاتهم، ولا نرضى بالآلا يجري بين أحيائنا وعلى ألسنته أوليائنا ذُكْرُ الغائبين والماضين، وهذا مخلوق يقول في صفة مخلوق:

إِذَا نَسِيَ النَّاسُ إِخْوَانَهُمْ وَخَانَ الْمُوَدَّةَ خِلَالُهَا

(١) ترقرق الدمع: دار في العين.

(٢) عرصات: (ج) عرصة: البقعة الواسعة بين الدور ليس فيها بناء.

فَعُنْدِي لِإِخْوَانِيَ الْغَائِبِينَ صَحَائِفُ ذِكْرُكَ عَنْوَانُهَا
قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتَ إِلَّا تَكْذِبُونَ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَهُكُمْ لَمَرسُلُونَ﴾^(١).

قال الرسل: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَهُكُمْ لَمَرسُلُونَ﴾ وليس علمنا إلا بما أمرنا به من التبليغ والإنذار^(٢).

﴿قَالُوا إِنَّا نَطْفِرًا بِكُمْ لَيْنَ لَمَّا تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.
لنرجمكم، ولنضننَّ، ولنفعلنَّ.. فأجابهم الرسل: إنكم لجهلكم ولجحدكم سوف تلقون ما توعدون^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَفْقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَن لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهِتَدُونَ﴾.

في القصة أنه جاء من قرية فسماها مدينة، وقال من أقصى المدينة، ولم يكن أقصاها وأدناها ليتفاوتا بكثير، ولكنه - سبحانه - أجرى سُنَّتَه في استكثار القليل من فعل عبده إذا كان يرضاه، ويستنزِرُ الكثير من فضله إذا بذله وأعطاه.

﴿اتَّبِعُوا مَن لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا﴾ فابْلَغِ الوَعْظَ وَصَدَقِ النُّصْحَ. ولكن كما قالوا:
وكم سُفْتُ في آثاركم من نصيحة وقد يستفيد البغضة المتنصِّحُ

فلما صدق في حاله، وصبر على ما لقي من قومه، ورجع إلى التوبة، لقاء حُسن أفضاله، وآواه إلى كنف إقباله، وَوَجَدَ ما وَعَدَهُ رَبُّهُ من لُطْفِ أفضاله^(٤).

﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾.
تَمَتَّى أن يعلم قومه حاله، فَحَقَّقَ اللَّهُ مَنَاه، وأخبر عن حاله، وأنزل به خطابه، وعرف قومه ذلك. وإنما تحنى وأراد ذلك إشفاقاً عليهم، ليعملوا مثلما عمل ليَجِدُوا مثلما وَجَدَ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾.

ما كانت إلا قضية مِثًا بعقوبتهم، وتغييراً لِمَا كانوا به من السلامة إلى وصف البلاء.

قوله جل ذكره: ﴿يَنْحَسِرُوا عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

(٣) الآية (١٩) لم ترد.
(٤) الآيات من (٢٢) حتى (٢٥) لم ترد.

(١) الآية (١٤) لم ترد.
(٢) الآية (١٧) لم ترد.

إن لم يتحسروا هم اليوم فلهم موضع التحسر؛ وذلك لانخراطهم في سلك واحد من التكذيب ومخالفة الرسل، ومناوئة أوليائه - سبحانه .

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ وَإِن كَلَّمْنَا بَعْضَ لَدُنَّا مُحْضَرُونَ﴾ .

ألم يروا ما فعلنا بمن قبلهم من القرون الماضية، وما عاملنا به الأمم الخالية، فلم يرجع إليهم أحد، فكلهم في قبضة القدرة، ولم يفتنا أحدًا، ولم يكن لواحد منهم علينا عون ولا مدد، ولا عن حكمتنا ملتحذ.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَيُّ هُمُ الَّذِينَ أَلْقَيْنَاهُمُ أَخْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ .

لما كان أمر البعث أعظم شبيهم، وكثر فيه إنكارهم كان تكرار الله سبحانه لحديث البعث، وقد ضرب - سبحانه - المثل له بإحياء الأرض بالنبات في الكثير من الآيات. والعجب بمن ينكر علوم الأصول ويقول ليس في الكتاب عليها دليل! وكيف يشكل ذلك وأكثر ما في القرآن من الآيات يحث على سبيل الاستدلال، وتحكيم أدلة العقول؟ ولكن يهدي الله لنوره من يشاء. ولو أنهم أنصفوا من أنفسهم، واشتغلوا بأهم شيء عندهم لما ضيعوا أصول الدين، ولكنهم رضوا فيها بالتقليد، وادّعوا في الفروع رتبة الإمامة والتصدر. . ويقال في معناه:

يا مَنْ تَصَدَّرَ فِي دَسْتِ الْإِمَامَةِ فِي مسائل الفقه إملاء وتدريسا

غَفَلْتَ عَنْ حَجَجِ التَّوْحِيدِ تُحْكِمُهَا شَيْدَتْ فِرْعَا وَمَا مَهَّدَتْ تَأْسِيسَا

قوله جل ذكره: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِمَّنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

تنبه هذه الآية على التفكر في بديع صنعه؛ فقال: تنزيهاً لمن خلق الأشياء المتشاكلة في الأجزاء والأعضاء، من النبات، ومن أنفسهم، ومن الأشياء الأخرى التي لا يعلمون تفصيلها، كيف جعل أوصافها في الطعوم والروائح، في الشكل والهيئة، في اختلاف الأشجار في أوراقها وفنون أغصانها وجذوعها وأصناف أنوارها وأزهارها، واختلاف أشكال ثمارها في تفرقها واجتماعها، ثم ما نيط بها من الانتفاع على مجرى العادة مما يسميه قوم: الطبائع؛ في الحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة، واختلاف الأحداث التي يخلقها الله عقيب شراب هذه الأدوية وتناول هذه الأطعمة على مجرى

(١) الآيتان (٣٤، ٣٥) لم تردا.

العادة من التأثيرات التي تحصل في الأبدان. ثم اختلاف صور هذه الأعضاء الظاهرة والأجزاء الباطنة، فالأوقات متجانسة، والأزمان، متماثلة، والجواهر متشاكلة. . وهذه الأحكام مختلفة، ولولا تخصيص حُكْم لكل شيء بما اختص به لم يكن تخصيص بغير ذلك أولى منه. وإنَّ مَنْ كَحَلَ اللَّهُ عِيُونَ بصيرته بيْنُ التعريف، وقرَن أوقاته بالتوفيق، وأتمَّ نظره، ولم يصده مانع. فما أقوى في المسائل حُجَّتُه! وما أوضح في السلوك نَهْجُه!.

إنَّهَا لِأَقْسَامٍ سَبَقَتْ عَلَى مَنْ شَاءَ الْحَقُّ بِمَا شَاءَ.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَيُّهُ لَّهُمُ اللَّيْلُ سَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾.

نُبْطِلُ ضَوْءَ النَّهَارِ بهجوم الليل عليه، وتزِيلُ ظِلَامَ اللَّيْلِ بهجوم النهار عليه، كذلك نَهَارُ الْوُجُودِ يدخل على لَيْلِي التَّوَقُّفِ، ويقود بيد كَرَمِهِ عَصَا مَنْ عَمِيَ عن سلوك رُشْدِهِ فيهديه إلى سَوَاءِ الطَّرِيقِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾.

على ترتيب معلوم لا يتفاوت في فصول السنة، وكل يوم لها مشرق جديد ولها مغرب جديد. . وكل هذا بتقدير العزيز العليم.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

الإشارة منه أن العبد في أوان الطلب رقيق الحال، ضعيف، مختصر الفهم. . ثم يُفَكِّرُ حتى تزداد بصيرته. . إنه كالقمر يصير كاملاً، ثم يتناقص، ويدنو من الشمس قليلاً قليلاً، وكلَّمَا ازداد من الشمس دُنُوًّا ازداد في نفسه نقصاناً حتى يتلاشى ويختفي ولا يرى. . ثم يَبْعُدُ عن الشمس فلا يزال يتباعد ويتباعد حتى يعود بداراً - مَنْ الذي يُصَرِّفُهُ في ذلك إلا أنه تقدير العزيز العليم؟ وشبيه الشمس عارفٌ أبداً في ضياء معرفته، صاحبٌ تمكين غير مُتَلَوِّنٍ^(١)، يشرق من برج سعادته دائماً، لا يأخذه كسوفٌ، ولا يستره سحبٌ.

وشبيه القمر عبدٌ تتلون أحواله في تنقله؛ فهو في حال من البسط يترقى إلى حَدِّ الوصال، ثم يُرَدُّ إلى الفترة، ويقع في القبض مما كان به من صفاء الحال، فيتناقص، ويرجع إلى نقصان أمره إلى أن يرفع قلبه عن وقته، ثم يعود الحق - سبحانه - فيؤفِّقُه لرجوعه عن فترته، وإفاقته عن سَكْرَتِهِ، فلا يزال يصفو حاله إلى أن يَقْرُبَ من الوصال، ويرزق صفة الكمال، ثم بعد ذلك يأخذ في النقص

(١) انظر حديث القشيري عن التلويح والتمكين بالرسالة القشيرية ص ٧٨ - ٨٠.

والزوال .. كذلك حاله إلى أن يُحَقَّ له بالمقسم ارتحاله، كما قالوا:

ما كنت أشكو ما على بدني من كثرة التلوين من بُدَّتِه^(١)
وأنشدوا:

كُلُّ يَوْمٍ تَتَلَوْنَ غَيْرُ هَذَا بِكَ أَجْمَل
قوله جل ذكره: ﴿وَأَيُّ لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾.

الإشارة إلى حَمَلِ الْخَلْقِ فِي سَفِينَةِ السَّلَامَةِ فِي بَحَارِ التَّقْدِيرِ عِنْدَ تَلَاظِمِ أُمُوجِهَا بِفَنُونٍ مِنَ التَّغْيِيرِ وَالتَّأْثِيرِ. فَكُنْ مِنْ عَبْدٍ غَرِقَ فِي اشْتِغَالِهِ فِي لَيْلَةٍ وَنَهَارِهِ، لَا يَسْتَرِيحُ لِحِظَةٍ مِنْ كَذْ أَعْمَالِهِ، وَمَقَاسَةِ التَّعَبِ فِي أَعْمَالِهِ، وَجَمَعَ مَالَهُ. فَجَرَّهَ ذَلِكَ إِلَى نَسْيَانِ عَاقِبَتِهِ وَمَالِهِ، وَاسْتِيْلَاءِ شُغْلِهِ بِوَلَدِهِ وَعِيَالِهِ عَلَى فِكْرِهِ وَبَالِهِ - وَمَا سَغِيهِ إِلَّا فِي وَبَالِهِ!

وَكَمْ مِنْ عَبْدٍ غَرِقَ فِي لُجَّةِ هَوَاهُ، فَجَرَّثَهُ مِنْهُ إِلَى تَحْمِيلِ بِلَوَاهُ، وَخَسِيسٍ مِنْ أَمْرِ مَطْلُوبِهِ وَمُتَّبِعَاهُ. ثُمَّ لَا يَصِلُ قَطُّ إِلَى مَتْنَاهُ، خَيْرَ دُنْيَاهُ وَعَقْبَاهُ، وَيَبْقَى عَنْ مَوْلَاهُ! وَمِنْ أَمْثَالِ هَذَا وَذَلِكَ مَا لَا يُحْصَى، وَعَلَى عَقْلِ مَنْ فَكَّرَ وَاعْتَبَرَ لَا يَخْفَى.

أَمَّا إِذَا حَفِظَ عَبْدٌ فِي سَفِينَةِ الْعَنَاءَةِ أَفْرَدَهُ - سَبْحَانَهُ - بِالتَّحَرُّرِ مِنْ رِقِّ خَسَائِسِ الْأُمُورِ، وَشَغْلِهِ بِظَاهِرِهِ بِالْقِيَامِ بِحَقِّهِ، وَأَكْرَمَهُ فِي سِرَّائِهِ بِفَرَاغِ الْقَلْبِ مَعَ رَبِّهِ، وَرَقَّاهُ إِلَى مَا قَالَ: «أَنَا جَلِيسٌ مَنْ ذَكَرْنِي».. وَقُلْ فِي عُلُوِّ شَأْنٍ مِنْ هَذِهِ صِفَتِهِ.. وَلَا حَرَجَ! قَوْلُهُ جَلْ ذَكَرَهُ: ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُفْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾. لَوْلَا جُودُهُ وَفَضْلُهُ لَحُلَّ بِهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ مَا حَلَّ بِأَمْثَالِهِمْ، لَكِنَّهُ يَحْسُنُ الْأَفْضَالَ، يَحْفَظُهُمْ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ.

قَوْلُهُ جَلْ ذَكَرَهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الْآيَاتِ. هَذِهِ صِفَاتُ مَنْ سَيِّبُهُمْ^(٢) فِي أَوْدِيَةِ الْخَذْلَانِ، وَوَسَمَهُمْ بِسِمَةِ الْحَرَمَانِ، وَأَصْمَهُمْ عَنْ سَمَاعِ الرُّشْدِ، وَصَدَّهُمْ بِالْخَذْلَانِ عَنْ سُلُوكِ الْقَصْدِ، فَلَا تَأْتِيهِمْ آيَةٌ فِي الزُّجْرِ إِلَّا قَابَلُوهَا بِإِعْرَاضِهِمْ، وَتَجَافَوْا عَنِ الْإِعْتِبَارِ بِهَا عَلَى دَوَامِ انْتِبَاضِهِمْ، وَإِذَا أُمِرُوا بِالْإِنْفَاقِ وَالْإِطْعَامِ عَارِضُوا بِأَنَّ اللَّهَ رَازِقُ الْأَنَامِ، وَإِنْ يَشَأْ نُنْظِرْ إِلَيْهِمْ بِالْإِنْعَامِ^(٣): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَنْطَعِمُ﴾.

(٢) سَيِّبَهُ: أَطْلَقَهُ وَتَرَكَ وَخَلَّاهُ يَسِيبُ حَيْثُ شَاءَ.

(١) الْبَلَدَةُ: النَّصِيبُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ..

(٣) الْآيَةُ (٤٦) لَمْ تَرُدَّ.

ثم قال جل ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾.

يستعجلون هجوم الساعة، ويستبطنون قيام القيامة - لا عن تصديق يُريحهم من شكهم، أو عن خوف يمنعهم عن غيهم، ولكن تكذيباً لدعوة الرسل، وإنكاراً لصحة النبوة، واستبعاداً للنشر والحشر.

ويوم القيامة هم في العذاب مُحْضَرُونَ، ولا يُكْشَفُ عنهم، ولا يُنْصَرُونَ. قوله جل ذكره: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ قَالُوا يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾. يموتون قهراً، ويُحْشَرُونَ جَبْراً، ويلقون أمراً، ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضراً.

﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ يموتون على جهل، لا يعرفون ربهم، وَيُبْعَثُونَ على مِثْلِ حَالِهِمْ، لا يعرفون مَنْ بَعَثَهُمْ، ويعدون ما كانوا فيه في قبورهم من العقوبة الشديدة - بالإضافة إلى ما سَيَلْقَوْنَ من الآلام الجديدة - نوماً ورقاداً، وسيطئون من الفراق المبرح والاحتراق العظيم الضخم مهاداً، لا يذوقون بزداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً، ولقد عوملوا بذلك استحقاقاً^(١): فقد قال جل ذكره:-

﴿قَالِیَوْمَ لَا تَنْفَعُكُمْ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ﴾.

إنما يضاف العبد إلى ما كان الغالب عليه ذكُره بمجامع قلبه، فصاحب الدنيا مَنْ فِي أَسْرِهَا، وأصحاب الجنة مَنْ هُمْ طُلَابُهَا والساعون لها والعاملون لِنَيْلِهَا؛ قال تعالى مخبراً عن أحوالهم وأحوالهم: ﴿لِيُنْزِلَ هَذَا فَلَئِمَ الْعَمَلُونَ﴾ [الصفات: ٦١]. وهذه الأحوال - وإن جَلَّتْ منهم ولهم - فهي بالإضافة إلى أحوال السادة والأكابر تنقاصر، قال ﷺ: «أكثر أهل الجنة البُله»^(٢) وَمَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا عَنِ الدُّنْيَا حُرّاً فَلَا

(١) الآية (٥٣) لم ترد.

(٢) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد ٧٩/٨، ٢٦٤/١٠، ٤٠٢)، وصاحب (ميزان الاعتدال ١٣٦١) والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٥٧/٧، ٢٤٤، ٦٢٧، ٢٣٦/٩)، والعجلوني في (كشف الخفاء ٢٨٦/١)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ٢٩)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٩٢٨٣)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ١١٦٠/٣)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ١٧)، وابن الجوزي في (العلل المتناهية ٤٥٢/٢) يقال: رجل أبله بين البله والبلالة: وهو الذي غلب عليه سلامة الصدر وحسن الظن بالناس لأنهم أغفلوا أمر دنياهم فجهلوا حذق التصرف فيها، وأقبلوا على آخرتهم فشغلوا أنفسهم بها، فاستحقوا أن يكونوا أكثر أهل الجنة. (لسان العرب ٤٧٧/١٣ مادة: بله).

يبعد أن يكون في الجنة عن الجنة حراً، والله يختص برحمته من يشاء.

وقيل إنما يقول هذا الخطاب لأقوام فارغين، فيقول لهم: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ﴾ وهم أهل الحضرة والدنو، لا تشغلهم الجنة عن أنس القربة، وراحات الوصلة، والفراغ للرؤية.

ويقال: لو عَلِمُوا عَمَّنْ شُغِلُوا لَمَّا تَهَنَّأُوا بما شُغِلُوا.

ويقال بل إنما يقول لأهل الجنة: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ كأنه يخاطبهم مخاطبة المعاينة إجلالاً لهم كما يقال: الشيخ يفعل كذا، ويُرَادُ به: أنت تفعل كذا.

ويقال: إنما يقول هذا لأقوام في العرصة أصحاب ذنوب لم يدخلوا النار، ولم يدخلوا الجنة بَعْدَ لِعِضْيَانِهِمْ؛ فيقول الحق: عبيدي.. أهل النار لا يتفرغون إليك لأهوالهم، وما هم فيه من صعوبة أحوالهم، وأهل الجنة وأصحابها اليوم في شُغْلٍ عنك لأنهم في لذاتهم، وما وجدوا من أفضالهم مع أهلهم وأشكالهم؛ فليس لك اليوم إلا نحن!

وقيل شغلهم تأهبهم لرؤية مولاهم، وذلك من أتم الأشغال، وهي أشغال مؤنسة مريحة لا مُتَعَبَةٌ مَوْجِشَةٌ.

ويقال: الحق لا يتعلّق به حقٌّ ولا باطل؛ فلا تَنَافِي بين اشتغالهم بأبدانهم مع أهلهم، وشهودهم مولاهم، كما أنهم اليوم مشغولون مستديمون لمعرفته بأي حالة هم، ولا يَفْقِدُ اشتغالهم - باستيفاء حُظُوظِهِمْ - في معارفهم.

ويقال شَغَلَ نفوسهم بشهواتها حتى يخلص الشهود لأسرارهم على غيبة من إحساس النَّفْسِ الذي هو أصعب الرُّقَبَاءِ، ولا شيء أعلى من رؤية الحبيب مع فَقْدِ الرقيب.

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَابِكِ مُتَكُونُونَ﴾.

﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾: قيل أشكالهم في الحال والمنزلة، كقوله: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] وقيل حَظَايَاهُمْ^(١) من زوجاتهم.

﴿مَنْ فِيهَا فَكِكُهُمْ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾.

﴿مَنْ فِيهَا فَكِكُهُمْ﴾: أي نصيب أنفسهم. ويقال الإشارة فيها إلى راحات الوقت دون حظوظ النفس.

﴿وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾: ما يريدون، ويقال تسلم لهم دواعيهم، والدعوى - إذا كانت بغير حق - معلولة.

(١) حظيت المرأة عند زوجها: تمكنت من قلبه وأحبها.

قوله تعالى: ﴿سَلَّمْتُ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾.

يسمعون كلامه وسلامه بلا واسطة، وأكد ذلك بقوله: «قولا».

وبقوله: ﴿مِّن رَّبِّ﴾ ليعلم أنه ليس سلاماً على لسان سفير.

﴿مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ والرحمة في تلك الحالة أن يرزقهم الرؤية في حال ما يُسَلَّم عليهم لِتَكْمُلَ لهم النعمة. ويقال الرحمة في ذلك الوقت أن يُنْقِئَهُم في حال سماع السلام وحال اللقاء لئلا يصحبهم دهش، ولا تلحقهم حيرة.

ويقال إنما قال: ﴿مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ ليكون للعصاة من المؤمنين فيه نَفَسٌ، ولرجائهم مساع؛ فإن الذي يحتاج إلى الرحمة العاصي.

ويقال: قال ذلك ليعلم العبد أنه لم يصل إليه بفعله واستحقاقه، وإنما وصل إليه برحمة ربه.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَمْتَرُواْ الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾.

غيبه الرقيب أتم نعمة، وإبعاد العدو من أجل العوارف^(١)؛ فالأولياء في إيجاب القرية، والأعداء في العذاب والحجة.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ أَعَاهَدَ لَكُمْ يَنْبَغِي مَا دَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَإِنْ أَغْبَدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

لو كان هذا القول من مخلوق إلى مخلوق لكان شبه اعتذار؛ أي لقد نصحتكم ووعظتكم، ومن هذا حذرتكم، وكم أوصلت لكم القول، وذكرتكم فلم تقبلوا وغيظي، ولم تعملوا بأمر، فأنتم خالفتم، وعلى أنفسكم ظلمتم، وبذلك سبقت القضية ميلاً لكم^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

اليوم سخر الله أعضاء بدن الإنسان بعضها لبعض، وغداً ينقض هذه العادة، فتخرج بعض الأعضاء على بعض، وتجري بينها الخصومة والنزاع؛ فأما الكفار فشهادة أعضائهم عليهم مبيدة، وأما العصاة من المؤمنين فقد تشهد عليهم بعض أعضائهم بالعصيان، ولكن تشهد لهم بعض أعضائهم أيضاً بالإحسان، وكما قيل:

بيني وبينك يا ظلموم الموقف والحاكم العذل الجواد المنصف

(١) العوارف: (ج) العارفة: العطية والإحسان.

(٢) الآيات من (٦٢ حتى ٦٤) لم ترد.

وفي بعض الأخبار المروية المُسَنَدَةُ أَنَّ عَبْدًا تشهد عليه أعضاؤه بالزُّلَّة فيطير شِعْرُهُ من جفن عينيه، فيستأذن بالشهادة له فيقول الحق: تكلمي يا شعرة جُفْنِ عبيدي واحتجّي عن عبيدي، فتشهد له بالبكاء من خوفه، فيغفر له، وينادي منادٍ: هذا عتيقُ الله بِشَعْرَةٍ^(١).
قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْلَمُونَ﴾.

يُرَدُّه إذا استوى شبابه وقُوَّته إلى العكس، فكما كان يزداد في القوة يأخذ في النقصان إلى أن يبلغ أُرْدَلُ العمر في السن فيصير إلى مثل حال الطفولية في الضعف، ثم لا يَبْقَى بعد النقصان شيء، كما قيل:

طوى العصران ما نشره مني وأبلى جدتي نَشْرَ وطئي
أراني كل يوم في انتقاصٍ ولا يَبْقَى مع النقصان شيء

هذا في الجثث والمباني دون الأحوال والمعاني؛ فإن الأحوال في الزيادة إلى أن يبلغ حَدَّ الْخَرَفِ^(٢) فَيَخْتَلُ رأيه وعَقْلُهُ. وأهل الحقائق تشيب ذوائبهم ولكن محابهم ومعانيهم في عفوان^(٣) شبابها، وطراوة جدتها.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقَوَّانٌ مُبِينٌ﴾.

كلامه ﷺ كان خارجاً عن أوزان الشعر، والذي أتاها به من القرآن لم يكن من أنواع الشعر، ولا من طرق الخطباء.

تَحَيَّرَ القَوْمُ في بابه؛ ولم تكتحل بصائرهم بكحل التوحيد فعموا عن شهود الحقائق^(٤).

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلَائِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَسَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

ذَكَرَ عَظِيمٌ مِنْهُ عَلَيْهِم، وجميل نعمته لديهم بما سخر لهم من الأنعام التي ينتفعون بها بوجوه الانتفاع.

ولفظ ﴿أَيْدِينَا﴾ تَوَسَّعَ؛ أي مما عملنا وخلقنا، وذلك أنهم ينتفعون بركوبها وبأكل لحومها وشحومها، وبشرَبِ ألبانها، وبالحَمْلِ عليها، وقَطْعِ المسافات بها، ثم بأصوافها وأوبارها وشعرها ثم بِعَظْمِ بعضها. . فطالَبَهُم بالشكر عليها، ووصَفَهُم بالتقصير في شكرهم.

(١) الآيتان (٦٦، ٦٧) لم تردا.

(٢) الخرف: فساد العقل من الكبير أو المرض.

(٣) يقال: هو في عفوان شباب؛ أي: في نشاطه وحذته.

(٤) الآية (٧٠) لم ترد.

ثم أَظْهَرَ - ما إذا كان في صفة المخلوقين لكان شكاية - أنهم مع كل هذه الوجوه من الإحسان :-

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُبْصَرُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْخَضَرُونَ﴾.

اكتفوا بأمثالهم معبودات لهم، ثم سَلَّى نبيّه - ﷺ بأن قال له :-

﴿فَلَا يَخْزِيكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

وإذا عَلِمَ العبدُ أنه بمرأى من الحقِّ هَانَ عليه ما يقاسيه، ولا سيما إذا كان في الله.

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾.

أي شَدَدْنَا أَسْرَهُمْ، وجمعنا نَشْرَهُمْ، وَسَوَّيْنَا أَعْضَاءَهُمْ، وَرَكَّبْنَا أَجْزَاءَهُمْ، وأودعناهم العقل والتمييز... ثم إنه ﴿خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾: ينازعنا في خطابه، ويعترض علينا في أحكامنا بِزَعْمِهِ واستصوابه، وكما قيل:

أَعْلَمُهُ الرماية كُلُّ يَوْمٍ فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي

قوله جل ذكره: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُنْفِخُ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقَدُونَ﴾.

مهَّد لهم سبيل الاستدلال، وقال إن الإعادة في معنى الإبداء، فأَي إشكالٍ بقي في جواز الإعادة في الانتهاء؟ وإنَّ الذي قدر على خَلْقِ النَّارِ في الأغصان الرُّطبة من المَرْخ^(١) والعَفَّار^(٢) قادرٌ على خَلْقِ الْحَيَاةِ في الرُّمَّة^(٣) البالية، ثم زاد في البيان بأن قال: إن القدرة على مِثْلِ الشَّيْءِ كالقدرة عليه لاستوائهما بكل وجه، وإنه يحيي النفوس بعد موتها في العرصة كما يُحْيِي الإنسان من النطفة، والطير من البيضة، ويحيي القلوب بالعرفان لأهل الإيمان كما يميت نفوس أهل الكفر بالهوى والطغيان^(٤).

(١) المَرْخ: من العضاء وهو ينفرش ويطول في السماء حتى يستظل فيه، وليس له ورق ولا شوك وعيدانه سبلة قضبان دقاق، وينبت من شعب وفي خشب، ومنه يكون الزناد الذي يقتدح به. (اللسان ٥٤/٣ مادة: مرج).

(٢) العَفَّار: شجر فيه نار، يسوى من أغصانه الزناد فيقتدح بها (اللسان ٥٨٩/٤ مادة: عفر).

(٣) الرُّمَّة: العظام البالية (ج) ومم ورمام.

(٤) الآية (٨١) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.
 ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يَخْلُقُهُ وَقَدَرْتَهُ. وأخبرنا أنه تتعلّق
 بالمكوّن كلمته على ما يجب في صفته، وسيان عنده خَلَقُ الكثير في كثرته والقليل في
 قَلَّتِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي يَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.
 أي بقدرته ظهور كل شيء: فلا يحدث شيء - قَلٌّ أو كَثْرٌ - إلا بإبداعه وإنشائه،
 ولا يبقى منها شيء إلا بإبقائه، فمنه ظهور ما يُخْدِثُ، وإليه مصير ما يخلق.

سورة الصافات

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة إذا استولت على قلب أزالته عنه أولاً من الدارين أَرْبَهُ، ثم ألزمت على وجه التبعية حَرَبَهُ، ثم شَرَّفَتْ من حيث الهمة طَلَبَهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالْعَصْفَ صَفًا﴾ ..

افتتح الله هذه السورة بالقَسَمِ بالصافات، وهم الملائكة المصطفَّة في السماء وفي الهواء، وفي أماكنهم على ما أمرهم الحق - سبحانه - من المكان يلزمونه، والأمر يعانقون؛ يُسَبِّحُونَهُ وَيُقَدِّسُونَهُ، وبما يأمرهم به يطيعونه.

﴿فَالزَّجَرِ نَجْرًا﴾.

عَظْفُهُمْ على ما تَقَدَّمَ بحرف الفاء وهم الملائكة الذين يزجرون السحاب. ويقال يزجرون الناس عن المعاصي. ويقال هي الخواطر الزاجرة عن المناهي.

﴿فَالثَّلَاثِ ذِكْرًا﴾.

يقال «الصافات» الطيور المصطفَّة في السماء، ﴿فَالثَّلَاثِ ذِكْرًا﴾ الملائكة يتلون كتاب الله، ويتلون الوحي على الأنبياء عليهم السلام.

﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾.

هذا هو المقسوم عليه.

أخبر أنه سبحانه واحد في مُلْكِهِ، وذلك لأنهم تَعَجَّبُوا أن يقوم الواحد بجميع أحوال العالم. ومعنى كونه واحداً تَفَرُّدُهُ في حَقِّهِ عن القسمة، وتَقَدُّسُهُ في وجوده عن الشبهة، وتَنَزُّهُهُ في مُلْكِهِ عن الشريك؛ واحد في جلاله، واحد في استحقاق جماله، واحد في أفعاله، واحد في كبريائه بنعت علائه، ووصف سنائه.

قوله جل ذكره: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾.

مالك السموات والأرض وما بينهما، وخالقهما، وأكساب العباد داخله في هذا ﴿وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ مشارق النجوم والشمس والقمر، ومشارق القلوب بشموسها وأقمارها ونجومها.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا زَيْنًا أَلَمَّا أَلَدْنَا بَرِيَّةَ الْكُوكِبِ وَحِفْظًا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾.

زَيْنَ السماء الدنيا بالنجوم، وقلوب أوليائه بنجوم المعارف والأحوال، وحفظ السموات بأن جعل النجوم للشياطين رجوماً، وكذلك زَيْنَ القلوب بأنوار التوحيد، فإذا قُرِبَ منها الشيطان رَجَمَهَا بنجوم معارفهم^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿إِلَّا مَن خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ﴾.

كذلك إذا اغتتم الشيطان من الأولياء أن يُلقِيَ إليهم شيئاً من وساوسه تَذَكَّرُوا، فإذا هم مُبْصِرُونَ، ورجعوا. قال تعالى: ﴿إِنَّكَ الَّذِي أَتَقَوَّا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ٢٠١].

قوله جلّ ذكره: ﴿فَاسْتَفْنِيهِمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَن خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾. عَزَّوَجَلَّ عَنْزَهُم عن الإثبات، وضعفهم في كل حال، ثم ذكرهم نسبتهم أنها إلى الطين اللازب^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾.

حقيقة التعجب تغير النفس مما لم تجر العادة بحدوث مثله. وتقرأ ﴿عَجِبْتَ﴾ بالفتح خطاباً بالرسول ﷺ. وبالضم فكأن الحق يقول ذلك مِن قَبْلِ نفسه بل عَجِبْتُ، ويقال ذلك بمعنى إكبار ذلك الشيء، إما في القدر، أو الإكثار في الذم أو في المدح. قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾.

إذا ذُكِّرُوا بآياته يُعرضون عن الإيمان بها والتفكير فيها، ويقولون: ليس هذا الذي أتى به محمدٌ إلا سِحراً ظاهراً^(٣).

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَا بَيْنَا وَبَيْنَا نُزُلًا وَعِظْمًا أَوَلَا لَمُبْعُوثُونَ أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾.

قالوا: أئذا متنا، تفرقت أجزاءنا، وصرنا رميمًا. أئنا لمبعوثون؟ أو أبائنا الأولون يُبعثون كذلك؟ قالوه على جهة الاستبعاد؛ فالمعرفة لهم مفقودة، والبصائر لهم مسدودة، وقلوبهم عن التوحيد مسدودة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾.

قل لهم يا محمد؛ نعم، وعلى وصف الصغر ما يبعثكم، وبزجرة واحدة يحشركم، بعد أن يُقيم القيامة على جميعكم.

(١) الآيتان (٨، ٩) لم تردا.

(٢) لزب الطين: لصق وصلب أو لزق. (اللسان ٧٣٨/١ مادة: لزب).

(٣) الآيتان (١٤، ١٥) لم تردا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الَّذِينَ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ .

دوا بالويل على أنفسهم! ويقال لهم: هذا يوم الفصل الذي كنتم تكذبون به، وقد عاينتموه اليوم.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَخَشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَمْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ وَقَفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ .

أراد بأزواجهم قرناءهم وأشكالهم ومن عمل مثل أعمالهم، ومن أعانهم على ظلمهم بقليل أو كثير. . . وكذلك في هذه الطريقة: من أعان صاحب فترة في فترته، أو صاحب زلة على زلته - كان مشاركاً له في عقوبته، واستحقاق طرده وإهانته.

قوله: ﴿وَقَفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾: مقام السؤال مقام صعب؛ قوم يسألهم المَلَكُ وقوم يسألهم المَلَكُ؛ فالذين تسألهم الملائكة أقوام لهم أعمالٌ صالحةٌ تصلح للعرض والكشف، وأقوام لهم أعمالٌ لا تصلح للكشف، وهم قسمان: الخواص يسترهم الحق عن اطلاع الخلق عليهم في الدنيا والآخرة، وأقوام هم أرباب الزلات يرحمهم الله فلا يفضحهم، ثم إنهم يكونون في بعض أحوالهم بنعت الهيبة، وفي بعض أحوالهم بنعت البسط والقربة، وفي الخبر: «أن قوماً يسترهم بيده ويقول تذكر غداً ربك» وهؤلاء أصحاب الخصوص في التحقيق: فأما الأغيار والأجانب والكفار فيقال لهم: ﴿كَفَىٰ يَنْفِسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، فإذا قرؤوا كتابهم يقال لهم: من عمل هذا؟ وما جزاؤه؟ فيقولون: جزاؤه النار. فيقال لهم: أدخلوها بحكمكم.

ثم يقال لهم في بعض أحوال استيلاء الفرع عليهم:

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ بَلْ هُمْ آيَوْمَ مُّسْتَسْلِمُونَ وَأَقْبَلْ بِبَعْضِهِمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ .

يُورِك بعضهم الذنب على بعض؛ فهذا يتبرأ من صاحبه، وصاحبه يتبرأ منه، إلى أن يحكم الله عليهم بالخزي والهوان، ويجمعهم في اللعن والإبعاد^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ .

يشترون في العذاب ولكن تتفاوت أنصباؤهم، كما أنهم يشترون في الزلة ولكن تختلف مقادير زلاتهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ .

احتجابهم بقلوبهم أوقعهم في هذه عذابهم؛ ذلك لأنهم استكبروا عن الإقرار بربوبيته. ولو عرفوه لافتخروا بعبوديته؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ

(١) الآيات من (٢٨ حتى ٣٢) لم ترد.

عَنْ عِبَادِيهِ ﴿[الأعراف: ٢٠٦]، وقال: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٣] فَإِنَّ مَنْ عَرَفَ اللَّهَ فَلَا لَذَّةَ لَهُ إِلَّا فِي طَاعَتِهِ، قال قائلهم:

ويظهرُ في الهوى عِزُّ الموالِي فيلزمُني له ذُلُّ العبيد
قوله جل ذكره: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَئِنَّا لِشَاعِرٍ نَجْنُوْنَ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾.

لَمَّا لم يحتشموا من وصفه - سبحانه - بما لا يليق بجلاله لم يُبالوا بما أطلقوه من المثالب في وصف أنبيائه.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا نَجْنُوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾. الاستثناء راجعُ إلى قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾.

ويقال الإخلاصُ إفرادُ الحق - سبحانه - بالعبودية، والذي يشوبُ عمله رياءٌ فليس بمخلص.

ويقال: الإخلاصُ تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين، وفي الخبر: «يا معاذ، أخلص العملَ يَكْفِيكَ القليل منه».

ويقال: الإخلاصُ فقدُ رؤية الأشخاص.

ويقال: هو أن يلاحظ محل الاختصاص.

ويقال: هو أن تنظر إلى نفسك بعين الانتقاص.

قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَرِزْ مَعْلُومٌ فَوَكَّهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾.

لهم رزقٌ معلومٌ لأوقاتٍ معينة، وفي وقت الرسول عليه السلام: «مَنْ كَانَ لَهُ رِزْقٌ مَعْلُومٌ كَانَ مِنْ جَمَلَةِ الْمَيَاسِيرِ، وَهَذِهِ صِفَةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ فَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ رِزْقٌ مَعْلُومٌ لِأَبْشَارِهِمْ وَأَسْرَارِهِمْ، فَالْأَغْنِيَاءُ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ لَأَنْفُسِهِمْ وَالْفُقَرَاءُ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ لِقُلُوبِهِمْ وَأَسْرَارِهِمْ».

﴿فَوَكَّهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾: من ذلك ورود الرسول عليهم من قِبَلِ اللَّهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وكذلك اليومُ الخطابُ واردةٌ من اللَّهِ عَلَى قُلُوبِ الْخَوَاصِ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِكُلِّ أَمْرٍ.

قوله جل ذكره: ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ عَلَى مُرْرِ مُتَقَلِّبِينَ﴾.

يَسْتَأْنِسُ بَعْضُهُمْ بِرُؤْيَا بَعْضٍ، وَيَسْتَرْوِحُ بَعْضُهُمْ إِلَى لِقَاءِ بَعْضٍ.

قوله جل ذكره: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَائِنٍ مِّنْ مَّعِينٍ بَيْعَاتٍ لِّذَوِّ الشَّرِّيبِينَ﴾.

شرابٌ يوجبُ لهم الطَّرْدَ وَلَا وَحْشَةَ هُنَاكَ، شَرَابًا يُخْضِرُهُمْ وَلَا يُسْكِرُهُمْ، لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾.

فلا تغتال عقولهم، ولا تُزِيل جِسْمَتَهُمْ، ولا تَرْفَع عَنْهُمْ هَيْبَتَهُمْ؛ فقومٌ يشربون وهم بوصف الستر، وآخرون يُسْقَوْنَ في الحضور - وهم على نعت القُرب.
قوله جلّ ذكره: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عَيْنٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكَوْنٌ﴾.

لا يَنْظُرْنَ إلى غير الولي، ثم الولي قد ينظر إليهن، وفيهم مَنْ لا ينظر إليهن؛
جُنَيْثًا يَلْبَسْنَ وهي جُنُثٌ بغيرنا وأخرى بنا مجنونة لا نريدها
قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ...﴾.

يتذكرون فيما بينهم، ويذكرون مِنْ معارفهم مَنْ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، وما آمن به
المؤمنون فيخلق الله لهم إطلاعا عليه وهم في النار يحترقون^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتَوْدِينَ وَلَوْلَا رِغْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُمُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾.
نَطَقَ الولي بالحق ولكنه لم يُصْرَخْ يعين التوحيد؛ إذ جعل الفضل واسطة،
والأولى أن يقول: ولولا ربي لكنت من المحضرين^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ لِيُثِلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَمِلُونَ﴾.

يقال: بل الملائكة يقولون لهم هذا، ويقال: الحق - سبحانه - إذا أراهم مقامهم
في الجنة يقول لهم: ﴿لِيُثِلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَمِلُونَ﴾.

ويقال إن كان العابد يقول هذا، أو يقال له هذا إذا ظهرت الجنة فإنه إذا بدت
شظية من الحقائق وتباشير الوصلة، أو ذرّة من نسيم القربة فبالحرى أن يقول القائلون:
ليُثِلَ هذه الحالة تُبْذَلُ الأرواح.

على مِثْلِ سَلَمَى يَقْتُلُ المرء نفسه وإن بات من سَلَمَى على اليأس طاويا

وها هنا تضيق العبارات، وتتقاصر الإشارات.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ سَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾.

ذَكَرَ صفة هوان الأعداء، وما هم به من صفة المذلة والعذاب في النار؛ من أَكَلِ
الضريع، ومن شراب الزقوم التي هي في قُبْح صورة الشياطين، ثم إن مرجعهم لإلى
الجحيم... إلى آخر القصة^(٣).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾.

لَمَّا أَصَابَهُ مِنَ الْأَذَى مِنْ قَوْمِهِ جِين كَذْبُوهُ، ولم يسمعوا منه ما كان يقول مِنْ
حَدِيثِنَا.. رَجَعَ إِلَيْنَا، فخطبنا وخطبناه، وكلمنا وكلمناه، ونادانا فناديناه، وكان لنا

(٢) الآيتان (٥٨، ٥٩) لم تردا.

(١) الآيات من (٥١ حتى ٥٥) لم ترد.

(٣) الآيات من (٦٣ حتى ٧٤) لم ترد.

فَكُنَّا لَهُ، وَأَجَابْنَا فَأَجَبْنَاهُ.. فَلَنِعْمَ الْمَجِيبُ كَانَ لَنَا وَلنِعْمَ الْمَجِيبُونَ كُنَّا لَهُ!

﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾: شتان بين كَرْبِ نوح وبين كَرْبِ أهله!

وما يبكون مثل أخيه ولكن أَعَزَّى النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسِي

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾.

لأنّ الناس كلهم من أولاد نوح، فإنّ مَنْ كان معه في السفينة لم يتناسلوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَزَّكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾.

يريدُ به قول الناس عنه إلى يوم القيامة^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

يعني أنّ إبراهيم من شيعة نوح عليه السلام في التوحيد - وإنّ اختلفنا في فروع

شرعيهما.

﴿قلب سليم﴾: لا آفة فيه. ويقال لذيغ من المحبة. ويقال: سليم من محبة

الأغيار. ويقال سليم من حُظوظ نفسه وإرادته. ويقال: مستسلم لله في قضائه

واختياره.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوِيهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ؟﴾.

سألهم على جهة الإنكار عليهم، والتنبيه لهم على موضع غلطتهم^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَا ظَنُّكَ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ؟﴾.

إذا لقيتموه - وقد عبّدتهم غيره.. فما الذي تقولون له؟ وكيف بكم في مقام

الخجلة مما بين أيديكم وإن كنتم اليوم - غافلين عنه؟

قوله جلّ ذكره: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

قيل أراد «إلى» النجوم فأقام «في» مقام «إلى».

﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾: كانت تأتبه الحمى في وقت معلوم، فقال: قرُبَ الوَثْ الذي

أسقم فيه مَنْ أَخَذَ الْحُمَى إِيَّاي، فكأنه تعلل بذلك ليتأخّر عنهم عند ذهابهم إلى عيدهم

لتمشية ما كان في نفسه من كسر الأصنام.

ويقال كان ذلك من جملة المعارض. وقيل أرى من نفسه موافقة قولهم في

القول بالنجوم لأنهم كانوا يقولون بالنجوم، فتأخّر بهذا السبب عنهم.

وكان إبراهيم في زمان النبوة فلا يبعد أن اللّه - عزّ وجلّ - قد عرّفه بطريق

الوحي أنه يخلق - سبحانه - باختياره أفعالاً عند حركات الكواكب.

(٢) الآية (٨٦) لم ترد.

(١) الآيات من (٧٩ حتى ٨٢) لم ترد.

ثم لما ذهبوا إلى عيدهم كَسَرُوا أصنامهم، فلما رجعوا قالوا ما قالوا، وأجابهم بما أجابهم به^(١) إلى قوله:

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾.

رَدَّ اللَّهُ كَيْدَهُمْ إلى نُحُورِهِمْ. وقد تعرَّضَ له جبريل - عليه السلام - وهو في الهواء وَقَدْ رُمِيَ مِنَ الْمُنْجَنِقِ^(٢) فعرضَ عليه نفسه قائلاً: هل مِنْ حَاجَةٍ؟ فأجاب: أَمَا إِلَيْكَ... فلا!

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَيْ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾.

يقال إنه طلب هداية مخصوصة؛ لأنه كان صاحب هداية، إذ لو لم تكن له هداية لَمَا ذَهَبَ إلى رَبِّهِ. ويحتمل أنه كان صاحب هداية في الحال وطلب الهداية في المستقبل أي زيادة في الهداية، ويقال طلب الهداية على كيفية مراعاة الأدب في الحضور، ويقال طلب الهداية إلى نفسه لأنه فقد فيه قلبه ونفسه؛ فقال سيهديني إلي لأقوم بحق عبوديته؛ فإن المستهلك في حقائق الجمع لا يصح منه أداء العبادة إلا بأن يُرَدَّ إلى حالة التفرقة والتمييز.

ومعنى ﴿إِلَى رَبِّي﴾ أي إلى المكان الذي يُعْبَدُ فيه ربي.

ويقال أخبر عن إبراهيم أنه قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَيْ رَبِّي﴾: فأخبر عن قوله.

وأخبر عن موسى فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فأخبر عن صفته لا عن قوله...

وقال في صفة نبيينا ﷺ: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَمَرَنِي بِعِبَادِهِ...﴾ [الإسراء: ١]. [فأخبر عن ذاته سبحانه]^(٣).

وفصلٌ بَيْنَ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ؛ فإبراهيم كان بعين الفرق، وموسى بعين الجمع؛ ونبيينا كان بعين جمع الجمع.

قوله جل ذكره: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾.

لَمَّا قَالَ «حليم» نَبَّهَ عَلَى أَنَّهُ سَيَلْقَى مِنَ الْبَلَاءِ مَا يَحْتَاجُ إِلَى الْحِلْمِ فِي تَحْمَلِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَكَابِتُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

(١) الآيات من (٩٠ حتى ٩٦) لم ترد.

(٢) المنجنيق: آلة قديمة من آلات الحرب وحصار المدن، كانت تُرمى بها الحجارة على الأسوار فتهدمها (ج) منجنقات ومجانق ومجانيق.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى﴾ إشارة إلى وقت توطين القلب على الولد، رأى إبراهيم - عليه السلام - أنه يؤمر بذبح ابنه إسماعيل ليلة التروية، وسميت كذلك لأنه كان يُروى في ذلك طول يومه. هل هو حق أم لا؟ ثم إنه رأى في الليلة التالية مثل ذلك فعرف أن رؤياه حق، فسمي يوم عرفة.

وكان إسماعيل ابن ثلاث عشرة سنة، ويقال إنه رأى ذلك في النوم ثلاث مرات. أن اذبح ابنك، فقال لإسماعيل: ﴿يَبْنَىٰ إِيَّيَّ أَرَأَيْتَ فِي الْمَنَامِ إِيَّيَّ أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ؟﴾ فقال إسماعيل: ﴿يَتَأْتِيَ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾: أي لا تحكم فيه بحكم الرؤيا، فإنها قد تصيب وقد يكون لها تأويل، فإن كان هذا أمراً فافعل بمقتضاه، وإن كان له تأويل فثبت، فقد يمكنك ذبح ابنك كل وقت ولكن لا يمكنك تلافيه.

ويقال بل قال: أترك حديث الرؤيا واحمله على الأمر، واحمل الأمر على الوجوب، ثم احمله على الفور ولا تقصّر.

ويقال قال له: إن كان يطيب قلبك بأن تذبح ابنك لأجل الله فأنا يطيب قلبي أن يذبحني أبي لأجل الله.

ويقال قال إسماعيل لأبيه: أنت خليل الله وتنام.. ألم تعلم أن الخليل إذا نام عن خليله يؤمر بذبح ابنه؟ مالك يا أبت والنوم؟

ويقال في القصة: إنه رآه ذات يوم راكباً على فرس أشهب فاستحسنه، ونظر إليه بقلبه، فأمر بذبحه، فلما أخرجه عن قلبه، واستسلم لذبحه ظهر الفداء، وقيل له كان المقصود من هذا فراغ قلبك عنه.

ويقال في القصة: أمر إسماعيل أباه أن يشد يديه ورجليه لئلا يضطرب إذا مسه ألم الذبح فيعتاب، ثم لما هم بذبحه قال: افتح القيد عني حتى لا يقال لي: أمدود اليد جنتني؟ وإني لن أتحرك:

ولو بيد الحبيب سقيت سماً لكان السُّم من يده يطيب
ويقال أيهما كان أشدّ بلاء؟ قيل: إسماعيل؛ لأنه وجد الذبح من يد أبيه، ولم يتعوّد من يده إلا التربية بالجميل، وكان البلاء عليه أشدّ لأنه لم يتوقع منه ذلك.

ويقال بل كان إبراهيم أشدّ بلاء لأنه كان يحتاج أن يذبح ابنه بيده ويعيش بعده.
﴿سَجِدْ لِلَّهِ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الْعَادِرِينَ﴾ فلم يأت إسماعيل بالدعوى بل تأدّب بلفظ الاستثناء.

ويقال لو قال إسماعيل إماً لا تقُل: «يا بُنَيَّ» بهذه اللطافة، وإماً لا تقُل: ﴿إِيَّيَّ أَذْبَحُكَ﴾ فإن الجمع بينهما عجيب!

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا أَتَمَّوْا مَسْأَلَهُ لِلْجَبِينِ وَفَدَيْنَهُ أَنْ يُتَابِعَهُمْ قَدْ صَدَقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ .

قيل في التفاسير إنه كان يمرُّ بالسكين على خلقه والسكين لا يُقَطَّع، فتعجب إبراهيم، فنودي: يا إبراهيم، كان المقصودُ من هذا استسلامكما.

ويقال إن الله سَتَرَ عليهما عِلْمَ ما أريد منهما في حال البلاء، وإنما كَشَفَ عنهما بعد مُضِيِّ وقت المحنة لثلاثين عاماً معنى الابتلاء... وهكذا يكون الأمر عند البلاء؛ تَنَسُّدُ الوجوه في الحال؛ وكذلك كانت حالة النبي ﷺ في حال حديث الإفك^(١)، وكذلك حالة أيوب عليه السلام؛ وإنما يَتَبَيَّنُ الأمرُ بعد ظهور آخر المحنة وزوالها، وإلا لم تكن حينئذٍ محنة [إلا أنه يكون في حال البلاء إسبالٌ يُؤَلَّى مع مخامرة المحنة] ولكن مع استعجام الحال واستبهامه، إذ لو كشف الأمر على صاحبه لم يكن حينئذٍ بلاء؛ قال تعالى:

﴿إِن كَذَّبْنَا لَمَّا جَاءَنَا الرُّسُلَ وَفَدَيْنَهُ بِذَنبِنَا عَظِيمٍ﴾ .

قيل كان فداء الذبيح يُرَبَّى في الجنة قبله بأربعين خريفاً.

والناس في «البلاء» على أقسام: فبلاء مستعصب وذلك صفة العوام، وبلاء مستعذب وذلك صفة مَنْ يستعذبون بلاياهم، كأنهم لا ييأسون حتى إذا قُتِلُوا^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ بِمَنْحَقٍ نَّبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ وَنَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ .

وكلُّ هذا بعد البلاء؛ قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ .

مَنْ عليهما بالنبوة، وبالنجاة من فرعون وقومه، وبنصرته عليهما^(٣).

﴿وَأَيَّدْنَاهُمَا بِآيَاتِنَا﴾ .

يعني التوراة.

﴿وَهَدَيْنَاهُمَا صِرَاطَ الْمُسْتَقِيمِ﴾ .

بالتبري عن الحول والقوة، وشهود عين التوحيد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ هَارُونَ سُلْطَانًا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ .

ثم قال جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلنَّاسِ لِمَنِ الْمَرْسِلَاتُ﴾^(٤).

(١) الإفك: الكذب أو أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء.

(٢) الآيات من (١٠٨ حتى ١١١) لم ترد.

(٣) الآيات (١١٥، ١١٦) لم ترد.

(٤) الآيات (١٢١، ١٢٢) لم ترد.

«إلياس»: قيل هو إدريس، وقيل غيره، وكان بالشام، واسم صَنَمِهِم «بغل»، ومدينتهم بعلبك.. أنذر قومه فكذبوه، ووعظهم فما صدّقوه، فأهلك قومه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لِّمَنِ الْمُرْسَلِينَ﴾.

مضت قصته وكيف نجى أهله إلا امرأته التي شاركتهم في عصيانهم، فحقّ العذاب عليها مثلما عليهم^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لِمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

فكان في أول أمره يطلب الاستعفاء من النبوة، ولكن لم يُغفَ، ثم استقبله ما استقبله، فلم يلبث حتى رأى نفسه في بطن الحوت في الظلمة^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَالْقَمَّةَ الْخُوتَ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

أي بما يُلَامُ عليه، والحقّ - سبحانه - مُنَزَّةٌ عن الحيف في حُكْمِهِ؛ إذ الخلق خلقه، ثم الله راعى حقّ تعبّده، وحفظ ذمام ما سلف له في أداء حقه فقال: - ﴿فَقُولَا أَنْتُمْ كَانِ مِنَ الْمُسْتَجِيبِينَ لَكِيتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

فإن كَرَّمَ العهدَ فينا من الإيمان، وهو مِنَّا من جملة الإحسان، «فالمؤمن قد أخذ من الله خلقاً حسناً» - بذلك ورد الخبر.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَبَدَّلَ الْوَعْدَ وَالْعَرَاءَ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾.

«سقيم»: في ضعفٍ من الحال لما أثر من كونه قضى وقتاً في بطن الحوت.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾.

لِيُظِلَّهُ، فإنه كان في الصحراء وشعاع الشمس كان يضره، وقبض له الله ظبية ذات وليد كانت تجيء فيرضع من لبنها، فكان الحقّ أعاده إلى حال الطفولية. ثم إنه رجمه، ورجع إلى قومه، فأكرموا وآمنوا به، وكان الله قد كشف عنهم العذاب، لأنهم حينما خرج يونس من بينهم ندموا وتضرّعوا إلى الله لما رأوا أوائل العذاب قد أظلمتهم، فكشف الله عنهم العذاب، وآمنوا بالله، وكانوا يقولون: لو رأينا يونس لو قرّناه، وعظّمناه، فرجع يونس إليهم بعد نجاته من بطن الحوت، فاستقبله قومه، وأدخلوه بلدّهم مكرماً.

ويقال: الذنّب والجُرمُ كانا من قومه، فهم قد توعّدوا بالعذاب. وأمّا يونس فلم يكن قد أذنب ولا ألّمَ بمحظور، وخرج من بينهم، وكشف الله العذاب عنهم، وسلموا.. واستقبل يونس ما استقبله بل أنه قاسى اللّيا والتي^(٣) بعد نجاته؛ ويا عجباً

(١) الآيات من (١٣٤) حتى (١٣٨) لم ترد.

(٢) الآيتان (١٤٠، ١٤١) لم تردا.

(٣) يقال: اللّيا والتي: يكون بهما عن الشدة.

من سِرَّ تقديره! فقد جاء في القصة أن الله سبحانه - أوحى إلى يونس بعد نجاته أن قلْ لفلانِ الفَخَّارِ حتى يَكْثِرَ الجِرَارَ التي عملها في هذه السنة كُلِّها! فقال يونس: يا رب، إنه قَطَعَ مدةً في إنجاز ذلك، فكيف آمُرُهُ بأن يَكْثِرَها كُلِّها؟

فقال له: يا يونس، يَرِقُّ قلبُكَ لِخِزَافٍ يُثْلِفُ عَمَلٌ سنةً.. وتريدني أن أَهْلِكَ مائةَ ألفٍ من عبادي؟! يا يونس، إنك لم تخلقهم، ولو خَلَقْتَهُمْ لَرَجِمْتَهُمْ^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ إِرْيَاكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾.

لَمَّا قالوا في صفة الملائكة إنهم بناتُ الله بَيْنَ اللَّهِ فُبِحَ قولهم، فقال: سَلُّهُم من أين قالوا؟ وبأي حُجَّةٍ حكموا بما زعموا؟ وأي شُبْهَةٍ دَاخَلْتَهُمْ. ثم إنهم كانوا يستنكفون من البنات، ويؤثرون البنين عليهن.. ومع كُفْرِهِمْ وقبيح قولهم وصفوا القديم - سبحانه - بما استنكفوا منه لأنفسهم^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِنْ كُفِرُوا تَوَلَّاهُمْ مَا شَاءَ عَلَيْهِمْ يَقْيِنُونَ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِي الْجَنِيمِ﴾.

أي ما أنتم بفاتنين من الناس إِلَّا من أَغْوَيْتَهُ بِحُكْمِي، فبه ضَلُّوا لا بإضلالكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾.

الملائكة لهم مقام معلوم لا يَتَخَطَّوْنَ مقامَهُمْ، ولا يَتَعَدَّوْنَ حَدَّهُمْ، والأولياء لهم مقام مستور بينهم وبين الله لا يُطْلَعُ عليه أحداً، والأنبياء لهم مقام مشهور مؤيَّد بالمعجزات الظاهرة؛ لأنهم لِلْخَلْقِ قدوة فأمَرُهُم على الشُّعْرِ، وأمر الأولياء على السُّتْرِ^(٣).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الرُّسُلِ﴾.

أي سبقت كلمتنا لهم بالسعادة، وتقدّم حُكْمُنَا لهم بالولاية والرعاية، فَهُم من

قَبِلْنَا مبصرون:

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

مَنْ نَصَرَهُ لا يُغْلَبُ، وَمَنْ قَهَرَهُ لا يَغْلِبُ.

وجُنْدُهُ الذين نَصَبَهُمْ لنشر دينه، وأقامَهُم لنُصْرِ الحقِّ وتبيينه. مَنْ أراد إذلالَهُمْ فَعَلَى أذْقَانِهِ يَخِرُّ، وفي حبل هلاكه يَنْجِرُّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى جِئَ وَأَبْصَرْتُمْ فَسَوْفَ يَصِيرُونَ﴾.

تَوَلَّ عَنْهُمْ - يا محمد - إلى أن تنقضي آجالُهُمْ، وتنتهي أحوالُهُمْ. وانتظر انقضاء أيامِهِمْ، فإنه سينصرم حديثهم وشيكا:

﴿أَفَعَدَّيْنَا لِلْمَصْرِفِ إِثْرًا﴾.

(١) الآيتان (١٤٧، ١٤٨) لم تردا.

(٣) الآيات من (١٦٥ حتى ١٧٠) لم تردا.

وإنما قال ذلك فيما كانوا يتمنون قيام الساعة، وكانوا يستعجلون ذلك لِفَرَطِ جهلهم، ثم لقلّة تصديقهم. فإذا نزل العذابُ بساحتهم، وأناخ البلاءُ بعقوتهم فساء صباحهم. فتولّ عنهم فَعَن قَرِيبٍ سيحصل ما منه يَحْذَرُونَ^(١).
قوله جلّ ذكره: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ﴾: تقديساً له، وسلامٌ على أنبيائنا، ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أي هو المحمود على ما ساء أم سرّ، نَفَعَ أم ضَرَّ.

(١) الآيات (١٧٧، ١٧٨، ١٧٩) لم ترد.

سورة صّ

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسِّرْ اللَّهُ الْكَفْرَ الْيَسِيرَ﴾.

اسمٌ عزيزٌ اعترفت المعارفُ بالقصور عن إدراكه، اسمٌ جليلٌ تَقَنَّنَتْ العلومُ خَجَلًا من الطمع في إحاطته، اسمٌ كريمٌ صَغُرَتْ الحوائجُ عند ساحات جوده، اسمٌ رحيمٌ تلاشت قطرات زلّات عبادته في تلاطم أمواج رحمته.

قوله جلّ ذكره: ﴿صّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾.

الصّادُ مفتاحُ اسمه الصادق والصبور والصمد والصانع... أقسم بهذه الأشياء وبالقرآن. وجواب القسم: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾.

ويقال: أقسم بصفاء مودة أحبابه والقرآن ذي الذكر أي: ذي الشرف... وشرفه أنه ليس بمخلوق.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي﴾.

في صلابة ظاهرة، وعداوة بيّنة، وإعراض عن البحث للأدلة، والسّرُّ للشواهد.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَوْلَا جِنَّةٌ مِّنَّا﴾.

بادوا حين هَجَمَ البلاءُ مستغيثين، وقد فات وقتُ الإشكاء والإجابة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَعِجُّوا أَن جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾.

عَجِبُوا أن جاءهم مُنْذِرٌ منهم، ولم يعجبوا أن تكون المنحوتات آلهة، وهذه مناقضة ظاهرة. فلما تحيروا في شأن أنبيائهم رمّوهم بالسحر، وقسموا فيهم القول.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

لم تباشر خلاصة التوحيد قلوبهم، وبعدوا عن ذلك تجويزاً، فضلاً عن أن يكون إثباتاً وحكماً، فلا عَرَفُوا الإلهَ ولا معنى الإلهية؛ فلمنْ الإلهية هي القدرة على الاختراع. وتقديرُ قَادِرِينَ على الاختراع غيرُ صحيحٍ لما يجب من وجود التمانع بينهما وجوازه، ثم إن ذلك يمنع من كمالهما، ولو لم يكونا كاملي الوصف لم يكونا إلهين، وكلُّ أمرٍ جرى ثبوتُ سقوطٍ فهو مطروحٌ باطل.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾.

إذا تواصى الكفار فيما بينهم بالصبر على آلهتهم، فالمؤمنون أولى بالصبر على عبادة معبودهم والاستقامة في دينهم.

قوله جل ذكره: ﴿مَا سِعَتَا يَدَايَ فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْلَاقٌ﴾.

ركنوا إلى السوء والعادة، وما وجدوا عليه أسلافهم من الضلالة، واستنموا إلى التقليد والهوادة.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدْعُونَ عَذَابٍ﴾.

أي لو استبصروا في دينهم لَمَا أقدموا على ما أسرفوا فيه من جحودهم، ولولا أَنَا أَدَمْنَا لَهُمُ الْعَوَافِي لَمَا تَفَرَّغُوا إِلَى طغيانهم.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَعَّابِ﴾.

أي: هؤلاء الكفار الذين عارضوا أو نازعوا، وكذبوا واحتجبوا... أعندهم شيء من هذه الأشياء؟ أم هل هم يقدرُونَ على شيء من هذه الأشياء فيفعلوا ما أرادوا، ويعطوا من شأؤوا، أو يرتقوا إلى السماء فيأتوا بالوحي على مَنْ أرادوا^(١)؟

﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾.

بل هم جُند من الأحزاب المتحزبين. كُلُّهُمْ عَجْزَةٌ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، مهزومون. شَبَّهَهُمْ فِي بَقَائِهِمْ عَنْ مَرَادِهِم بِالْمَهْزُومِينَ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْكَافِرَ لَيْسَ مَعَهُمْ حُجَّةٌ، وَلَا لَهُمْ قُوَّةٌ، وَلَا لِأَصْنَامِهِمْ أَيْضاً مِنَ النِّفْعِ وَالضَّرِّ مُكْتَنَةٌ، وَلَا فِي الرَّدِّ وَالِدْفَعِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ قُدْرَةٌ.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ...﴾ الْآيَاتِ.

ذَكَرَ هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ عَلَى الْجَمْعِ، وَفِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ عَلَى الْإِفْرَادِ، وَفِي كُلِّ مَوْضِعٍ فَائِدَةٌ زَائِدَةٌ فِي الْفَصَاحَةِ وَالْإِفَادَةِ بِكُلِّ وَجْهٍ^(٢). ثُمَّ قَالَ:

﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلُ فَحَقَّ عِقَابٌ﴾.

أي ما كان منهم أَحَدٌ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّتْ الْعُقُوبَةُ عَلَيْهِ، وَاسْتَوْجَبَ الْعَذَابَ. ثُمَّ قَالَ:

﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِمَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾.

أي ليسوا ينتظرون إِلَّا الْقِيَامَةَ، وَمَا هِيَ إِلَّا صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ، وَإِذَا قَامَتْ فَإِنَّهَا لَا تَسْكُنُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

(٢) الْآيَةُ (١٣) لَمْ تَرُدْ.

(١) الْآيَةُ (١٠) لَمْ تَرُدْ.

اضْبُرْ - يا محمد - على ما يقولون، فإنه لن تطول مُدَّتْهُمْ، ولن نَمُدَّ - في مقاساتِكَ أذاهم - لُبَّتْكَ ومُكْتَكَّكَ، وعن قريب سينزل الله نَصْرَهُ، ويصدق لك بالتحقيق وَغَدَهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ أي ذا القوة، ولم تكن قُوَّتُهُ قوةَ نفس، وإنما كانت قوته قوةً فِعْلٍ؛ كان يصوم يوماً ويفطر يوماً - وهو أشدُّ الصوم، وكان قوياً في دين الله بِنَفْسِهِ وقلبه وهمتته.

﴿أَوَّابٌ﴾ رَجَّاعٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَمِيِّ وَالْإِنشَاقِ وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾. كان داود يُسَبِّحُ، والجبال تُسَبِّحُ، وكان داود يفهم تسبيح الجبال على وجه تخصيص له بالكرامة والمعجزة.

وكذلك الطير كانت تجتمع له فتسبح الله، وداود كان يعرف تسبيح الطير؛ وكلُّ مَنْ تَحَقَّقَ بحاله ساعده كلُّ شيءٍ كان بِقُرْبِهِ، ويصير غيرُ جنسِهِ بِحُكْمِهِ، وفي معناه أنشدوا:

رُبَّ ورقاء ^(١) هتوف بالضحي	ذات شجو صرخت في فَنِّ ^(٢)
ذَكَرَتْ إلفاً ودهراً صالحاً	وبَكَتْ شوقاً فهاجت حَزَنِي
فبُكائي رُبَّما أَرْقَها	وبكاهار بما أَرْقَني
ولقد تشكو فما أفهمها	ولقد أشكو فما تفهمني
غير أنني بالجوى ^(٣) أعرفها	وهي أيضاً بالجوى تعرفني

قوله جلّ ذكره: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَمَآيَنَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾.

أي قَوَّيْنَا مُلْكَهُ بأنصاره، وفي التفسير: كان يحفظ مُلْكَهُ كُلَّ ليلةٍ ثلاثةً وثلاثون ألفَ رجلٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَمَآيَنَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾.

أي شددنا مُلْكَهُ بنصرنا له ودفعنا البلاء عنه.

ويقال شدنا مُلْكَهُ بالعدل في القضية، وحُسن السيرة في الرعية.

(١) الورقاء: الحمامة أو التي لونها كالرماد فيه سواد (ج) ورق.

(٢) الفنن: الغصن الفض الورق أو المستقيم.

(٣) الجوى: الحرقه وشدة الوجد من عشق أو حزن.

ويقال شددنا ملكه بقبض أيدي الظَلَمَةِ.

ويقال شددنا ملكه بدعاء المستضعفين.

ويقال شددنا ملكه بأن رأى النصرَةَ ميثًا، وَتَبَرُّاً من حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ.

ويقال بوزراء ناصحين كانوا يدلُّونه على ما فيه صلاح مُلْكِهِ.

ويقال بِتَقْيُظِهِ وَحُسْنِ سياسته. ويقال بقبوله الحق من كُلِّ أحد.

ويقال برجوعه إلينا في عموم الأوقات.

﴿وَأَتَيْنَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْفُطَايَ﴾: أي أعطيناه الرُّشْدَ والصَّوَابَ، والفَهْمَ

والإصابة.

ويقال العلم بنفسه وكيفية سياسة أمته.

ويقال الثبات في الأمور والحكمة، وإحكام الرأي والتدبُّر.

ويقال صحبة الأبرار، ومجانبة الأشرار.

وَأَمَّا ﴿وَفَصَّلَ الْفُطَايَ﴾ فهو الحكم بالحق، وقيل: البينة على مَنْ ادَّعى واليمين

على مَنْ أنكر. ويقال: القضاء بين الخصوم.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَهَلْ أُنْتُكَ نَبُّؤُا الْخَصَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ الآيات.

أرسل الله إلى داود عليه السلام مَلَكَيْنِ من السماء على صورة رجلين فتحاكَمَا إليه تنبيهاً له على ما كان منه من تَزَوُّجِهِ بامرأة أوريا، وكان تَزَكُّ ذلك أَوْلَى - هذا على طريق مَنْ رأى تنزيه الأنبياء عليهم السلام من جميع الذنوب.

وَأَمَّا مَنْ جَوَّزَ عليهم الصغائر فقال: هذا من جملته. وكئى الخُضْمان باسم

النجعة عن النساء.

وكان داود عليه السلام قال لله سبحانه وتعالى: إِنِّي لَأَجِدُ فِي التَّوْرَةِ أَنَّكَ أَعْطَيْتَ الْأَنْبِيَاءَ الرُّتَبَ فَأَعْطَيْتُهَا، فقال: إِنَّهُمْ صَبَرُوا فِيمَا ابْتَلَيْتُهُمْ بِهِ، فَوَعَدَ دَاوُدُ مِنْ نَفْسِهِ الصَّبْرَ إِذَا ابْتَلَاهُ طَمَعاً فِي نَيْلِ الدَّرَجَاتِ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ يَبْتَلِيهِ يَوْمَ كَذَا، فَجَعَلَ دَاوُدَ ذَلِكَ الْيَوْمَ يَوْمَ عِبَادَةٍ، وَاخْتَلَى فِي بَيْتِهِ، وَأَمَرَ حُرَّاسَهُ أَلَّا يُوْذِيَهُ أَحَدٌ بِالدُّخُولِ عَلَيْهِ، وَأَغْلَقَ عَلَى نَفْسِهِ الْبَابَ، وَأَخَذَ يُصَلِّي زَمَاناً، وَيَقْرَأُ التَّوْرَةَ زَمَاناً يَتَعَبَّدُ. أَغْلَقَ عَلَى نَفْسِهِ الْبَابَ وَلَكِنْ لَمْ يُمْكِنَهُ غَلْقُ بَابِ السَّمَاءِ. وَأَمَرَ حَرَّاسَهُ أَنْ يَدْفَعُوا عَنْهُ النَّاسَ وَكَانُوا ثَلَاثِينَ أَلْفَ رَجُلٍ - وَيُقَالُ أَرْبَعَةُ أَلْفٍ - وَلَكِنْ لَمْ يُمَكِّنْهُمْ أَنْ يَدْفَعُوا عَنْهُ حُكْمَ الْقَضَاءِ، وَلَقَدْ قَالَ الْحُكَمَاءُ: الْهَارِبُ مِمَّا هُوَ كَائِنٌ فِي كَفِّ الطَّالِبِ يَقْلِبُ.

وكانت في البيت كوةٌ يدخل منها الضوء، فَدَخَلَ طَيْرٌ صَغِيرٌ مِنَ الذَّهَبِ، وَوَقَعَ قَرِيباً مِنْهُ، وَكَانَ لِدَاوُدَ ابْنٌ صَغِيرٌ فَهَمَّ أَنْ يَأْخُذَهُ لِيَدْفَعَهُ إِلَى ابْنِهِ، فَتَبَاعَدَ عَنْهُ. وَجَاءَ فِي

التفسير: أنه كان إبليس، قد تصوّر له في صورة طير، فَتَبَّعَهُ داود، ولم يزل الطائر يتباعد قليلاً قليلاً، وداود يتبعه حتى خَرَجَ من الكوة، وَنَظَرَ داود في إثره فَوَقَعَ بِصَرِّهِ على امرأة أوريا وهي تغتسل متجردة، فعاد إلى قلبه منها شيء، فكان هذا السبب.

ويقال لم يَزَعْ الاهتمام بسبب وَلَدِهِ حتى فعل به ما فعل، وفي ذلك لأولي الأبصار عِبْرَةٌ.

ويقال لم يكن أوريا قد تزوّج بها بعدُ، وقد كان خَطَبَهَا، وأجابته في الزواج به، فَخَطَبَ داود على خِطْبَتِهِ. وقيل بل كانت امرأته وسأله أن ينزل عنها، فَتَزَلَّ على أمره وتزوجها. وقيل بل أرسل أوريا إلى قتال الأعداء فقتل وتزوج بها. فلما تَسَوَّرَ الخصمان عليه، وقيل دَخَلَا من سور المحراب أي أعلاه ولذلك: -

﴿فَفَزَعَ مِنْهُمُ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ يَهَيِّئْ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَانْحَكُمَا بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطُوا وَاعِدَتَنَا إِلَى سَوَاءٍ الصِّرَاطِ﴾.

نحن خصمان ظَلَمَ بعضنا بعضاً، فاحْكُم بَيْنَنَا بالعدل:

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَمْ تَسْعَ وَتَسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾.

﴿أَكْفَلْنِيهَا﴾ أي انزل عنها حتى أكفلها أنا، ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي غلبني،

فقال داود:

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِي نَعِيمَكَ إِنِّي نَعَّاجِيهِ﴾.

فضحك أحدهما في وجه صاحبه، وصعد إلى السماء بين يديه، فَعَلِمَ داود عند ذلك أنه تنبيه له وعتاب فيما سَلَفَ منه، وظنَّ واستيقن أنه جاءته الفتنة الموعودة:

﴿فَأَسْتَغْفِرَ رَبِّي وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾.

أخذ في التضرع، وجاء في التفسير أنه سجد أربعين يوماً لا يرفع رأسه من السجود إلا (للصلاة)^(١) المكتوبة عليه، وأخذ يبكي حتى نَبَتْ العُشْبُ من دموعه، ولم يأكل ولم يشرب في تلك المدة، حتى أوحى الله إليه بالمغفرة، فقال: يا رب، فكيف بحديث الخصم؟ فقال: إني استوهبتك منه، وقال تعالى:

﴿فَفَغَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾.

إن له عندنا لَقُرْبَةً وَحُسْنَ رَجوع، وقيل: كان لا يشرب الماء إلا ممزوجاً بدموعه. ويقال لما التجأ داود عليه السلام في أوائل البلاء إلى التوبة والبكاء والتضرع والاستخذاء وَجَدَ المغفرة والتجاوز... وهكذا مَنْ رجع في أوائل الشدائد إلى الله

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

فَاللَّهُ يَكْفِيهِ مِمَّا يَنْوِيهِ، وكذلك مَنْ صَبَرَ إِلَى حِينٍ طَالَتْ عَلَيْهِ الْمُحَنَّةُ. وَيُقَالُ إِنَّ زَلَّةَ أَسْفَلَ عَلَيْهَا يَوْصَلُكَ إِلَى رَبِّكَ أَجْدَى عَلَيْكَ مِنْ طَاعَةِ إِعْجَابِكَ بِهَا يُقْصِيكَ عَنْ رَبِّكَ.

قوله جل ذكره: ﴿يَنْدَاؤُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَعْزِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ نَسُوءِ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

﴿جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾ أي بعد مَنْ تَقَدَّمَكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وَقِيلَ حَاكِمًا مِنْ قِبَلِي لِتَحْكُمَ بَيْنَ عِبَادِي بِالْحَقِّ، وَأَوْصَاهُ بِالْأَيْتِجِ فِي الْحُكْمِ هُوَاهُ تَنْبِيهًا عَلَى أَنْ أَعْظَمَ جُنَايَاتِ الْعَبْدِ وَأَقْبَحَ خَطَايَاهُ مُتَابَعَةُ الْهَوَى.

ولما ذَكَرَ اللَّهُ هَذِهِ الْقِصَّةَ أَعْقَبَهَا يَقُولُهُ:

﴿وَمَا سَلَفْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بِطِلَافٍ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾.

«باطلاً» أي وأنا مُبْطِلٌ فِي خَلْقِهِمَا، بَلْ كَانَ لِي مَا فَعَلْتُ وَأَنَا فِيهِ مُحِقٌّ.

ويقال ما خلقتهما للبطلان بل لأمرهما بالحق^(١).

ثم أخبر أنه لا يجعل المفسدين كالمحسنين قط، ثم قال:

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَذَّبَ رُوحًا وَيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾.

﴿مُبَارَكٌ﴾ وهو القرآن، ومبارك أي كبيرُ النفع، ويقال مبارك أي دائمُ باقي لا

ينسخه كتاب؛ مِنْ قَوْلِهِمْ بَرَكَ الطَّيْرُ عَلَى الْمَاءِ. وَيُقَالُ مَبَارَكٌ لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَ. ثُمَّ إِنَّهُ بَيَّنَّ أَنَّ الْبَرَكَهَ فِي تَذَكُّرِهِ وَالتَّفَكُّرِ فِي مَعَانِيهِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَوَهَبْنَا لِذَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

﴿نِعَمَ الْعَبْدِ﴾ لأنه كان أَوَّاباً إِلَى اللَّهِ، رَاجِعاً إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ؛ فِي النِّعْمَةِ

بِالشُّكْرِ، وَفِي الْمُحَنَةِ بِالصَّبْرِ.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّفِيفَتُ الْإِذَاءُ﴾.

﴿الصَّفِيفَتُ﴾ جَمْعُ صَافِنَةٍ وَهِيَ الْقَائِمَةُ، وَفِي التَّفَاسِيرِ هِيَ الَّتِي تَقُومُ عَلَى ثَلَاثِ

قَوَائِمٍ؛ إِذْ تَرَفَعَ إِحْدَى الْيَدَيْنِ عَلَى سُنْبُكَيْهَا. وَجَاءَ فِي التَّفَاسِيرِ أَنَّ سُلَيْمَانَ كَانَ قَدْ غَزَا أَهْلَ دِمَشْقَ، وَأَصَابَهَا مِنْهُمْ، وَقِيلَ وَرِثَهَا عَنْ أَبِيهِ دَاوُدَ وَكَانَ قَدْ أَصَابَهَا مِنَ الْعَمَالِقَةِ، وَقِيلَ كَانَتْ خِيلاً لَهَا أَجْنَحَةُ خَرَجَتْ مِنَ الْبَحْرِ.

وَفِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ عُرِضَ عَلَيْهِ عَشْرُونَ أَلْفَ فَرَسٍ فَشَغَلَتْهُ عَنْ بَعْضِ أَذْكَارِهِ اللَّهُ.

﴿بِالْعَشِيِّ﴾: فِي آخِرِ النَّهَارِ، وَقِيلَ كَانَ ذَلِكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ.

(١) الْآيَةُ (٢٨) لَمْ تَرُدْ.

قوله جل ذكره: ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ فُطِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾.

قبل أقبل يمسح سوقها وأعناقها بيده إكراماً منه لها بعد لها بعد أن فرغ من صلاته.

وقيل عَزَقَبَهَا (ليذبها فحَبَسَهَا بالعرقبة عن النفار)^(١)، وقيل وَضَعَ عليها الكيَّ فَسَبَّلَهَا^(٢)، وإيش ما كان فكل ذلك كان جائزاً في شرعه.

قوله جل ذكره: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾.

أي لَصَفْتُ بالأرض لحُبَّ المال. ويقال لَمَّا سَبَّلَ هذه الأفراس عَوْضَهُ الله - سبحانه - بأن سَخَّرَ له الريح، وهذا أبلغ، وكلُّ مَنْ تَرَكَ شيئاً لله لم يخسر على الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾.

اختلف الناس في هذه الفتنة؛ ومنها أنه كانت له مائة امرأة فقال: «لَأُطَوِّقَنَّ على هؤلاء فيولد من كل واحدة منهن غلام يقاتل في سبيل الله»^(٣) ولم يَقُلْ إن شاء الله، ولم تَحْمِلْ إلا امرأة واحدة جاءت بشق مولود، فألقته على كرسِيه، فاستغفر ربه من تَرَكَ الاستنشاء، وكان ذلك ترك ما هو الأوَّلَى.

وقيل كان له ابن، وخافت الشياطين أن يبقى بعد موت أبيه فيرثه، فَهَمُّوا بِقَتْلِهِ، فاستودعه الريح في الهواء لئلا تصل إليه الشياطين، فمات الولد، وألقته الريح على كرسِيه ميتاً. فالفتنة كانت في خوفه من الشياطين وتسليمه إلى الهواء، وكان الأوَّلَى به التوكل وترك الاستعانة بالريح.

وقيل في التفاسير: إنه تزوج بامرأة كانت زوجة مَلِكٍ قهره سليمان، وسبَّها، فقالت له: إن أَذُنْتُ لي أَنْ اتَّخِذَ تمثالاً على صورة أبي لأتسلى بنظري إليه؟ فأذن لها، فكانت (تعظمه وتسجد له مع جواربها أربعين يوماً)، وكانت تعبد سِرّاً، فعوقب عليه.

وقيل كان سبب بلائه أن امرأة كانت مِنْ أَحْبَبِ نسائه إليه، وكان إذا أراد دخول الخلاء نَزَعَ خاتمته ودَفَعَهُ إليها، وهي على باب الخلاء، فإذا خَرَجَ استردَّه. وجاء يوماً شيطانٌ يُقَالُ له «صخر» على صورة سليمان وقال لامرأته: ادفعي إليَّ الخاتم فدفعته، ولبسه، وقعد على كرسِيه، يُمَشِّي أمورَه - إلا التصرف في نسائه - فقد منعه اللُّهُ عن

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) سَبَّلَ المال: جعله في سبيل الخير وأنواع البر.

(٣) أخرجه البخاري (نكاح ١١٩)، (كفارات ٩)، ومسلم (إيمان ٢٢، ٢٤، ٢٥)، (نذور، ٧)، والنسائي (إيمان ٤٣)، وأحمد بن حنبل ٢/٢٢٩، ٢٧٥، ٥٠٦.

ذلك . فلما خرج سليمان طالَبَ المرأة بالخاتم، فقالت : الساعة دَفَعْتُهُ إِلَيْكَ . فظَنَّ أَنَّهُ فُتِنَ، وكان إذا أخبر النَّاسَ أَنَّهُ سليمان لَا يُصَدِّقُونَهُ، فخرج (هارباً إلى ساحل البحر)، وأصابته شدائد، وحمل سَمَكُ الصيادين بأجرةٍ حتى يجدَ قُوتاً .

ولما اتهم (بنو إسرائيل) الشَّيْطَانَ (واستنكروا حُكْمَهُ) نشروا التوراة بين يديه، ففرَّ ورمى بالخاتم في البحر، وطار في الهواء . وَلَمَّا أَدْنَى اللَّهُ رَدَّ مُلْكِ سليمان إِلَيْهِ، ابتلعت سمكةُ خاتمه، ووقعت في حبال الصيادين، ودفعوها إلى سليمان في أجرته، فلما شقَّ بَطْنُهَا ورأى خاتمه لبسه، وسَجَدَ له الملاحون، وعاد إلى سرير مُلْكِهِ .

قوله جلَّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنِّي بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ .

أي مُلْكًا لَا يسلبه أَحَدٌ مِنِّي بعد هذا كما سُلِبَ مِنِّي في هذه المرة .

وقيل أراد انفراده به ليكونَ معجزةً له على قومه .

وقيل أراد أَنَّهُ لَا ينبغي لأحدٍ من بعدي أَن يسألَ المُلْكَ، بل يجب أَن يَكِلَ أمره إلى الله في اختياره له .

ويقال لم يقصد الأنبياء، ولكن قال لَا ينبغي من بعدي لأحدٍ من الملوك .

وإنما سألَ المُلْكَ لسياسة الناس، وإنصافٍ بعضهم من بعض، والقيام بحق الله، ولم يسأله لأجل مَيْلِهِ إلى الدنيا . . . وهو كقول يوسف: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] .

ويقال لم يطلب المُلْكَ الظاهر، وإنما أراد به أَن يَمْلِكَ نَفْسَهُ، فإن المَلِكَ - على الحقيقة - مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ، وَمَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ لم يَتَّبِعْ هواه .

ويقال أراد به كمال حاله في شهود ربه حتى لَا يَرَى معه غيره .

ويقال سأل القناعة التي لَا يبقى معها اختيار .

ويقال علم أَن سِرُّ نَبِيْنَا - ﷺ - أَلَا يلاحظ الدنيا ولا ملكها فقال: ﴿لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنِّي بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥] لَا أَنَّهُ بَخِلَ به على نَبِيْنَا ﷺ ولكن لِعِلْمِهِ أَنَّهُ لَا ينظر إلى ذلك .

قوله جلَّ ذكره: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ .

شَكَرَ اللَّهُ سَعْيَهُ، وَسَخَّرَ له الرِّيحَ بَدَلًا من الأفراس؛ فلا يحتاج في إمساكها إلى العلفِ والمُؤْنِ .

﴿وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ وَمَا خَرَيْنَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْكِرْ بِمَنْزِلِ الْجَنَّةِ﴾ .

كما سَخَرْنَا لَهُ الشَّيَاطِينَ.

ثم قال: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا...﴾ أي فَاغْطِ أَوْ أَمْسِكْ، واحفظ وليس عليك حساب. والمشْيُ في الهواء للأولياء، وَقَطَعَ المسافات البعيدة في مدة يسيرة مما يعلم وجوده قطعاً في هذه الأمة - وإن لم يعلمه الأفراد والآحاد على التعيين. وإظهاره على خَدَمِ رسول الله ﷺ لشرفه يَدُلُّ على أن مقامه - ﷺ - أشرف^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾. أي بما كان يوسوس إليه بتذكيره إياه ما كان به من البلية، وقيل لما كان قال (أي الشيطان) لامرأته: اسجدي لي حتى أَرُدَّ عليكم ما سلبتكم.

ويقال إن سبب ابتلائه أنه استعان به مظلوم فلم يَنْصُرْهُ... فابْتَلِي. ويقال استضاف الناس يوماً فلماً جاءه ابن فقير مَنَعَهُ من الدخول. ويقال كان يغزو مَلِكاً كافراً، وكان لأيوب غَنَمٌ في ولايته، فداهنته لأجل غَنَمِهِ في القتال.

ويقال حَسَدَهُ إبليس، فقال: لَئِنْ سَلَّطْتَنِي عَلَيْهِ لَمْ يَشْكُرْ لَكَ. ويقال كان له سبع بنات وثلاثة بنين في مكتب واحد، فَجَرَّ الشَّيْطَانُ الاسْطِرْطَانَةَ فانهدم البيت عليهم.

ويقال لبث أيوب في البلاء ثمانين سنة، وقيل أربعين سنة، وقيل سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات.

قوله جل ذكره: ﴿أَرْكَضْ بِرَجْلِكَ هَذَا مُمْسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾. لما أراد اللُّهُ كَشَفَ البلاء عنه قال له: ﴿أَرْكَضْ بِرَجْلِكَ﴾، فركض، فَظَهَرَتْ عَيْنُ ماءٍ باردٍ فاغتسل به، فعاد إليه جماله وكماله. وقيل الأولى كانت عيناً حارةً والثانية باردة، واغتسل، وَرَدَّ الله وَشَعْرَهُ وبشره، وأحيا أولاده وأهله، وقيل بل يردُّهم إليه في الجنة في الآخرة^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَحُذِّ بِيَدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ يَدَهُ وَلَا تَحْصُفْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

الضِّغْثُ الحزمة من القضبان، وقيل كانت مائة، وأمر بأن يضرب بها دفعةً على امرأته لثلاثيحت في يمينه، فإنه كان قد حلف أن يضربها مائة خشبةٍ إِنْ صَحَّ (أنها أخطأت). فَشَكَرَ اللُّهُ لها لبراءةٍ ساحتها، وصبرها على خدمته. وسببُ يمينه أنه لما قال لها إبليس: اسجدي لي؛ أخبرت أيوب بذلك، فغاضه حيث سمعت من إبليس

(٢) الآية (٤٣) لم ترد.

(١) الآية (٤٠) لم ترد.

ذلك وظننت أنه صادق. وقيل باعت ذوائبها برغيفين حملتهما إليه فتوهم في ذلك ريبة، وكان أيوب يتعلق بذوائبها (إذا أراد القيام). وقيل رابه شيء منها فتحلف (أن يضربها بعد شفائه).

﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا...﴾: والصبر ألا تعترض على التقدير.

ويقال الصبر الوقوف تحت الحكم. ويقال التلذذ بالبلاء، واستعداؤه دون استصعابه. ويقال الصبر الوقوف مع الله بحسن الأدب.

ولم يتف قوله ﴿مَسَّيَ الضُّرِّ﴾ [الأنبياء: ٨٣] اسم الصبر عنه؛ لأن ذلك لم يكن على وجه الشكوى، ولأنه كان مرة واحدة، وقد وقف الكثير من الوقت ولم يقل مسني الضر؛ فكان الحكم للغالب.

﴿نِعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ لم يشغله البلاء عن المبلي. ونعم العبد لأنه خرج من البلاء على الوجه الذي دخل فيه.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرْ عِبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾.

﴿أُولَى الْأَيْدِي﴾: أي القوة. ﴿وَالْأَبْصَارِ﴾ أي البصائر.

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ﴾: أي بفضيلة خالصة وهي ذكر الجنة والنار، أو بدعاء الناس إلى الجنة والهرب من النار. ويقال بسلامة القلب من ذكر الدارين؛ فلا يكون العمل على ملاحظة جزاء. ويقال تجردوا لنا بقلوبهم عن ذكري الدار، ﴿وَأَتَيْنَاهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلَّ مَنَ الْأَخْيَارِ﴾.

﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾: قيل كان تكفل لله بعمل رجل صالح مات في وقته، وقيل كفل مائة من بني إسرائيل هربوا من أمير لهم ظالم، فكان يتفق عليهم. ويقال كان اليسع وذو الكفل أخوين.

قوله جل ذكره: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَتَابٍ﴾.

أي هذا القرآن فيه ذكر ما كان، وذكر الأنبياء والقصص.

ويقال إنه شرف لك؛ لأنه معجزة تدل على صدقك، وإن للذين يتقون المعاصي لحسن المُنْقَلَبِ.

﴿جَنَّاتٍ عِدْنٍ مِّنْ مَّثْنُونَةٍ لَّهُمُ الْأَنْبُوبُ﴾.

أي إذا جاؤوها لا يلحقهم ذل الحجاب، ولا كلفة الاستئذان، تستقبلهم

الملائكة بالترحاب والتبجيل. متكئين فيها على أرائكهم، يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب على ما يشتهون، وعندهم حورٌ عِين قاصراتُ الطُرفِ^(١) عن غير أزواجهن، (أتراب): لِدَاتٌ مُسْتَوِيَاتٌ فِي الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ وَالشَّكْلِ^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿هَذَا وَابْنُ الطُّغْيَانِ لَشَرٌّ مَثَابٌ﴾.

لَشَرٌّ مَرْجِعٌ وَمُنْقَلَبٌ؛ وهي جهنم يدخلونها فيبقون مُعَذِّبِينَ فيها، وبِئْسَ الْمَكَانُ ذَلِكَ^(٣)!

﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَبِيرٌ وَغَسَاقٌ﴾.

«حميم»: هو الماء الحلو، و «غَسَاقٌ» هو عصارة أهل النار، ويقال هو زمهرير^(٤) جهنم.

﴿وَبَآخَرٌ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾.

أي فنون أخرى من مثل ذلك العذاب.
قوله جلّ ذكره: ﴿هَذَا قَوْجٌ مُقْتَنِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ لَهُمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾.

هؤلاء قومٌ يقتحمون النارَ معكم وهم أتباعكم، ويقول الأتباع للمتبوعين: لا مرحباً بكم؛ أنتم قدمتموه لنا بأمركم فوافقناكم^(٥)، ويقولون: ﴿رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾.

فيقال لهم كُلُّكُمْ فيها، ولن يفترّ العذابُ عنكم.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾.

يقول الكفار عندما يدخلون النار: ما لنا لا نرى رجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَشْرَارِ وَالْمُسْتَضْعِفِينَ... فَلَسْنَا نَرَاهُمْ هَاهُنَا؟ أَهْمَ لَيْسُوا هَاهُنَا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ أَبْصَارُنَا؟ يقوله أبو جهل وأصحابه يعنون بلالاً والمستضعفين، فيُعرِّفون بأنهم في الفردوس، فتزداد حسراتهم^(٦).

﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾.

أي إن مخاصمة أهل النار في النار لَحَقٌّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَنْ إِلَهُ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي دُعِيَ الْفَهَارُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا يَنْتَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾.

(١) يقال: امرأة قاصرة الطرف: خجلة حبيّة، لا تمتد عينها إلى غير زوجها.

(٢) الآيات من (٥١ حتى ٥٤) لم ترد. (٣) الآية (٥٦) لم ترد.

(٤) الزمهرير: شدة البرد. (٥) الآية (٦٠) لم ترد.

(٦) الآية (٦٣) لم ترد.

قل يا محمد: إنما أنا مُنذِرٌ مخوفٌ، مُبلِّغٌ رسالةَ ربي، وما من إلٍ إلا الله الواحد الذي لا شريك له.

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنْمَأَ أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

أي الذي أتيئتمكم به من الأخبار عن القيامة والحشر، والجنة والنار، وما أخبرتكم به عن نبؤتي وصدقي هو نبأ عظيم، وأنتم أعرضتم عنه.

وما كان لي من علم بالملأ الأعلى واختصامهم فيه لولا أن الله عرّفني، وإلا ما كُنْتُ عَلِمْتُهُ. والملأ الأعلى قومٌ من الملائكة في السماء العليا، واختصامهم كان في شأن آدم حيث قالوا: أتجعل فيها من يُفسد فيها؟

وقد ورد في الخبر: «أن جبريل سأل الرسول ﷺ عن هذا الاختصام فقال: لا أدري. فقال جبريل: في الكفارات والدرجات؛ فالكفارات إسباغُ الوضوء في السُّبُرَات^(١)، ونَقْلُ الأقدام إلى الجماعات، وأما الدرجات فإفشاء السلام، وإطعامُ الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام^(٢)، وإنما اختلفوا في بيان الأجر وكمية الفضيلة فيها - فيجتهدون ويقولون إن هذا أفضل من هذا، ولكنهم في الأصل لا يجحدون.

... وهذا إنما يُوحى إليّ وأنا منذر مبين.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِ الْإِنْفِ خَلِّقُوا بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾.

إخباره الملائكة بذلك إنما يدلُّ على تفخيم شأن آدم؛ لأنه خلق ما خلق من الكونين، والجنة والنار، والعرش والكرسي، والملائكة، ولم يقل في صفة شيء منها ما قال في صفة آدم وأولاده. ولم يأمر بالسجود لأحدٍ ولا لشيءٍ إلا لآدم، وسبحان الله! خلق أعزَّ خلقه من أدل شيء وأخسّه وهو التراب والطين.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ﴾.

روح آدم - وإن كانت مخلوقة - فلها شرفٌ على الأرواح لإفرادها بالذكر، فلما سوى خلق آدم، ورُكِبَ فيه الروح جلّله بأنوار التخصيص، فوقعت هيئته على الملائكة، فسجدوا لأمره، وظهرت لإبليس شقاوته، ووقع - بامتناعه - في اللعنة^(٣).

(١) السبرات: جمع سبرة، وهي الغداة الباردة. (اللسان ٣٤١/٤ مادة: سبر).

(٢) للحديث رواية أخرى «سألني ربي فقال: يا محمد فيم اختصم الملأ الأعلى» أخرجه القرطبي في (التفسير ٢٢٦/١٥).

(٣) الآيتان (٧٣، ٧٤) لم تردا.

﴿قَالَ يٰٓإِبْرٰهٖمُ مَا مَنَعَكَ اَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ اَسْتَكَبَرْتَ اَمْ كُنْتَ مِنَ الْعٰلِيْنَ قَالَ اَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِيْ مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتُهُمْ مِنْ طِيْنٍ﴾ .

من هنا وقع في الغلط؛ تَوَهَّم أَنَّ التفضيل من حيث البنية والجوهرية، ولم يعلم أن التفضيل من حيث القسمة دون الخلقة.

ويقال ما أودع الله - سبحانه - عند آدم لم يوجد عند غيره، ففيه ظهرت الخصوصية.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ فَاخْرِجْ مِنْهَا فَاِنَّكَ رَچٖمٌ وَّ اِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيْ اِلٰى يَوْمِ الدِّينِ﴾ .

قال فاخرج من الجنة، ومن الصورة التي كنت فيها، ومن الحالة التي كنت عليها، ﴿فَاِنَّكَ رَچٖمٌ﴾ مَزْمِيٌّ بِاللَّعْنِ مِنِّي، وبالشُّهْبِ مِنَ السَّمَاءِ، وبالرجوم من قلوب الأولياء إِنْ تَعَرَّضْتَ لَهُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِيْ اِلٰى يَوْمِ يُبْعَثُوْنَ قَالَ فَاِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِيْنَ اِلٰى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُوْمِ﴾ .

من كمال شقاوته أنه جرى على لسانه، وتعلقت إرادته بسؤال إنظاره، فازداد إلى القيامة في سبب عقوبته، فَأَنْظَرَهُ اللهُ، وأجابه، لأنه بلسانه سأل تمام شقاوته.

﴿قَالَ فِعْرِيْكَ لَاغْوِيْنَهُمْ اٰمِيعِيْنَ اِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُحْلَصِيْنَ﴾ .

ولو عَرَفَ عِزَّتَهُ لَمَا أَقْسَمَ بِهَا عَلَى مَخَالَفَتِهِ.

ويقال تجاسرُهُ فِي مَخَاطَبَةِ الْحَقِّ - حيث أَصَرَ عَلَى الْخِلَافِ وَلَقَسَ عَلَيْهِ - أَفْبَحُ وَأَوَّلَى فِي اسْتِحْقَاقِ اللَّعْنَةِ مِنْ امْتِنَاعِهِ لِلْسُجُودِ لِآدَمَ.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُوْلُ لَاۡمَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَتَّبَعُ مِنْهُمْ اٰمِيعِيْنَ﴾ .

وختم الله سبحانه السورة بخطابه إلى الرسول ﷺ:

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَّمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَبِّرِيْنَ اِنْ هُوَ اِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعٰلَمِيْنَ وَلِلْعٰلَمِيْنَ نَبَأٌ بَعْدَ

جِيءَ﴾ .

ما جئتم من حيث أنا، ولا باختياري، وإنما أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ.

﴿اِنْ هُوَ اِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعٰلَمِيْنَ﴾ يعني القرآن، عظة لكم.

﴿وَلِلْعٰلَمِيْنَ نَبَأٌ بَعْدَ جِيءٍ﴾ وَعِلْمٌ صِدْقُهُ. بعد ما استمرت شريعته، فإن مثل ذلك إذا

كان باطلاً لا يدوم.

سورة الزمر

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله كلمة سماعها يوجب للقلوب شفاءها، وللأرواح ضياءها، وللأسرار سناءها وعلاءها.

كلمة مَنْ سَمِعَهَا يَسْمَعُ العلم ازداد بصيرةً على بصيرة، ثم بلطائف من التعريف غير محصورة. وَمَنْ سَمِعَهُ يَسْمَعُ الْوَجْدِ ظَلَّتْ ألبابه مبهورة، وأسراره بقهر الكشوفات منشورة.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

أي هذا كتاب عزيز نَزَلَ من ربّ عزيز على عبدٍ عزيز بلسان ملكٍ عزيز في شأنٍ أمةٍ عزيزةٍ بأمرٍ عزيز. وفي ورود الرسول به من الحبيب الأول نزهةً لقلوب الأحياء بعد ذبول غصن سرورها، وارتياحٌ عند قراءة فصولها.

وكتاب موسى في الألواح التي كان منها يقرأ موسى، وكتاب نبينا ﷺ نَزَلَ به الروح الأمين على قلب المصطفى صلوات الله عليه... وفضلٌ بين من يكون كتاب ربه مكتوباً في ألواح، وبين من يكون خطاب ربه محفوظاً في قلبه، وكذلك أمته، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْتَثُّ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾.

أي أنزلنا عليك القرآن بالدين الحق والشرع الحق، وأنا مُحِقٌّ في إنزاله. والعبادة الخالصة معانقة الأمر على غاية الخشوع، وتكون بالنفس والقلب والروح؛ فالتى بالنفس بالإخلاص فيها التباعد عن الانتقاص، والتي بالقلب بالإخلاص فيها العمى عن رؤية الأشخاص، والتي بالروح بالإخلاص فيها التنقي عن طلب الاختصاص.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾.

الدين الخالص ما تكون جملته لله؛ فما للعبد فيه نصيب فهو من الإخلاص بعيد، اللهم أن يكون بأمره؛ إذا أَمَرَ الْعَبْدَ أَنْ يَحْتَسِبَ الْأَجَرَ عَلَى طَاعَتِهِ فِطَاعَتِهِ لَا

تخرجه عن الإخلاص باحتسابه ما أمره به، ولولا هذا لَمَا صَحَّ أَنْ يَكُونَ فِي الْعَالَمِ مُخْلِصٌ.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ...﴾ أي الذين عبدوا الأصنام قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، ولم يقولوا هذا من قِبَلِ اللَّهِ ولا بأمره ولا بإذنه، وإنما حكموا بذلك من ذات أنفسهم، فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ. وفي هذا إشارة إلى أن ما يفعله العبد من القُرْبِ بنشاطِ نَفْسِهِ من غير أن يقتضيه حُكْمُ الوقت، وما يعقد بينه وبين الله مِنْ عقودٍ ثم لا يَفِي بها... فكل ذلك اتباعُ هَوَى، قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا آيَةً رِضْوَانٍ اللَّهُ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

لا تهديهم اليومَ لدينه، ولا في الآخرة إلى ثوابه. والإشارة فيه إلى تهديد مَنْ يتعرض لغير مقامه، ويدّعي شيئاً ليس بصادقٍ فيه، فاللَّهُ لا يهديه قط إلى ما فيه سَدَّاهُ ورُشْدُهُ. وعقوبته أَنْ يَحْرِمَهُ ذلك الشيء الذي تصدَّى له بدعواه قبل تحقُّقه بوجوده ودَوِّقه.

قوله جل ذكره: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

خاطَبهم على قَدْرِ عقولهم وعقائدهم حيث قالوا: المسيح ابن الله، وغزيرٌ ولَدُ اللَّهِ؛ فقال: لو أراد أن يَتَّخِذَ وَلَدًا لِلتَّبْنِي والكِرامَةِ لِاخْتَارَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ مُنْزَهُونَ عَنِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَأَوْصَافِ الْخَلْقِ.

ثم أخبر عن تَقْدِيسِهِ عن ذلك فقال: ﴿سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ تنزيهاً له على اتخاذ الأولاد... لا في الحقيقة لاستحالة معناه في نَفْتِهِ، ولا بالتَّبْنِي لِتَقْدِيسِهِ عَنِ الْجِنْسِيَةِ وَالْمَحَالَّاتِ، وإنما يذكر ذلك على جهة استبعاد؛ إذ لو كان ذلك فيكف كان يكون حُكْمُهُ؟ كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

قوله جل ذكره: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾.

أي خَلَقَهُمَا وهو مُجَقٌّ في خلقهما.

﴿يَكُونُ أَيْدٍ عَلَى النَّهَارِ وَتَكُونُ النَّهَارُ عَلَى الْإِيلِ وَسَحَرُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾.

يُدْخِلُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ، ويدخل النهار على الليل في الزيادة والنقصان، وَسَحَرُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ. وقد مضى فيما تقدم اختلافُ أحوالِ العبد في القبض والبسط، والجَمْعِ وَالْفَرْقِ، والأخذ والرد، والصحو والسُّكْرِ، ونجوم العقل وأقمار العلم،

وشموس المعرفة ونهار التوحيد، وليالي الشك والجحْد ونهار الوصل، وليالي الهجر والفراق وكيفية اختلافها، وزيادتها ونقصانها.

﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾.

«العزیز» المتعزِّز على المحبين، «الغفار» للمذنبين.

قوله جل ذكره: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أزْوَاجَ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾.

﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] يعني آدم وحواء.

﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ﴾ أي خلق لكم، ﴿ثَمَنِيَّةً أزْوَاجَ﴾ فمن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، ومن الضأن اثنين، ومن المواشي اثنين.

﴿يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾: أي يصوركم، ويركب أحوالكم. ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة^(١). ذكرهم نسبتهم لثلاث يُعْجَبُوا بأحوالهم.

ويقال بيِّن آثار أفعاله الحكيمة في كيفية خَلْقِك - من قطرتين - أمشاجاً^(٢) متشاكلة الأجزاء، مختلفة الصور في الأعضاء، سَخَّرَ بعضها مَحَالً للصفات الحميدة كالعلم والقدرة والحياة... وغير ذلك من أحوال القلوب، وسَخَّرَ بعضها مَحَالً للحواس كالسمع والبصر والشم وغيرها.

ويقال هذه كلها نِعَم أنعم الله بها علينا فذَكَّرْنَا بها - والنفوس مجبولة، وكذلك القلوب على حُبٍّ مَنْ أَحْسَنَ إليها - استجلاباً لمحبتنا له.

﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ...﴾ أي إن الذي أحسن إليكم بجميع هذه الوجوه هو ربُّكم. أي: أنا خلقتكم وأنا رزقتكم وأنا صوَّرتكم فأحسنْتُ صوَرَكُمْ، وأنا الذين أَسَبَّغْتُ عليكم إنعامي، وخصصتكم بجميل إكرامي، وأغرقتكم في بحار أفضالي، وعرفتكم استحقاق جمالي وجلالي، وهديتكم إلى توحيدِي، وألزمتكم رعاية حدودِي... فما لكم لا تَنقُطِعُونَ بالكلية إليَّ؟ ولا ترجون ما وَعَدْتُكُمْ لديَّ؟ وما لكم في الوقت بقلوبكم لا تنظرون إليَّ؟

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

(١) المشيمة: ظاهر الغشاء الذي يكون فيه الجنين في البطن، ويخرج معه عند الولادة (ج) مشايم.

(٢) الأمشاج: هي الأخلاط، ماء الرجل وماء المرأة والدم والعلقة. (اللسان ٣٦٧/٢ مادة: مشج).

إِنْ أَعْرَضْتُمْ وَأَبَيْتُمْ، وَفِي جُحُودِكُمْ تَمَادَيْتُمْ... فَمَا تَقْتَرُّ إِلَيْكُمْ؛ إِذْ نَحْنُ أَغْنِيَاءُ عَنْكُمْ، وَلَكِنِّي لَا أَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَبْقُوا عَنِّي!

يَا مُسْكِين... أَنْتَ إِنْ لَمْ تَكُنْ لِي فَأَنَا عَنْكَ غَنِيٌّ، وَأَنَا إِنْ لَمْ أَكُنْ لَكَ فَمَنْ تَكُونُ أَنْتَ؟ وَمَنْ يَكُونُ لَكَ؟ مَنْ الَّذِي يُخَمِّنُ إِلَيْكَ؟ مَنْ الَّذِي يَنْظُرُ إِلَيْكَ؟ مَنْ الَّذِي يَرْحَمُكَ؟ مَنْ الَّذِي يَنْثُرُ التُّرَابَ عَلَى جِرَاحِكَ؟

مَنْ الَّذِي يَهْتَمُّ بِشَأْنِكَ؟ بِمَنْ تَسْلُو إِذَا بَقِيَتْ عَنِّي؟ مَنْ الَّذِي يَبِيعُكَ رَغِيضًا بِمِثْقَالِ ذَهَبٍ؟!

عَبْدِي... أَنَا لَا أَرْضَى إِلَّا تَكُونَ لِي وَأَنْتَ تَرْضَى بِأَلَا تَكُونَ لِي! يَا قَلِيلَ الْوَفَاءِ، يَا كَثِيرَ التَّجَنُّي!

إِنْ أَطَعْتَنِي شَكَرْتُكَ، وَإِنْ ذَكَرْتَنِي ذَكَرْتُكَ، وَإِنْ خَطَوْتَ لِأَجْلِي خَطْوَةً مَلَأْتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ مِنْ شُكْرِكَ:

لَوْ عَلِمْنَا أَنَّ الزِّيَارَةَ حَقٌّ لَفَرَشْنَا الْخُدُودَ أَرْضًا لَتَرْضَى

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نِسَى مَا كَانَ يُدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَمَلٌ لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾.

إِذَا مَسَّهُ ضُرٌّ خَشَعَ وَخَضَعَ، وَإِلَى قُرْبِهِ فَرَعَ، وَتَمَلَّقَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَضَرَّعَ. فَإِذَا أزال عَنْهُ ضُرَّهُ، وَكفاه أَمْرَهُ، وَأَصْلَحَ شُغْلَهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ، وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا، فَيَعُودُ إِلَى رَأْسِ كُفْرَانِهِ، وَيَنْهَمُكَ فِي كِبَائِرِ عَصِيَانِهِ، وَيُشْرِكُ بِمَعْبُودِهِ. هَذِهِ صِفَتُهُ... فَسُخِّقْ لَهُ وَبُعْداً، وَلِسَوْفَ يَلْقَى عَذَابًا وَجِزَاءً.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ مَائَةً أَلَيْلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً رَبِّهِ...﴾.

«قَانِتًا»: الْقَنُوتُ هُوَ الْقِيَامُ، وَقِيلَ طَوَّلَ الْقِيَامَ. وَالْمُرَادُ هُوَ الَّذِي يَقُومُ بِحَقُوقِ الطَّاعَةِ أَوْقَاتَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؛ أَيِ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ.

وَالْهَمْزَةُ لِلِاسْتِفْهَامِ أَيِ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ كَمَنْ لَيْسَ بِقَانِتٍ؟ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ كَالْكَافِرِ الَّذِي جَرَى ذِكْرُهُ؟ أَيِ لَيْسَ كَذَلِكَ.

وَيَقَالُ الْقَنُوتُ الْقِيَامُ بِآدَابِ الْخِدْمَةِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا مِنْ غَيْرِ فُتُورٍ وَلَا تَقْصِيرٍ. «يَحْذَرُ» الْعَذَابَ الْمَوْعُودَ فِي الْآخِرَةِ، «وَيَرْجُو» الثَّوَابَ الْمَوْعُودَ. وَأَرَادَ بِالْحَذَرِ الْخَوْفَ.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

أي هل يستويان؟ هذا في أعلى الفضائل وهذا في سوء الرذائل! ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾: العِلْمُ في وصف المخلوق على ضربين: مجلوبٌ مُكْتَسَبٌ للعبد، وموهوبٌ مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ. ويقال مصنوع وموضوع. ويقال علمٌ برهانٍ وعلمٌ بيان؛ فالعلوم الدينية كلها برهانية إلا ما يحصل بشرط الإلهام.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ يَعْبادُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

أطيعوه واحذروا مخالفة أمره. ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ بأداء الطاعات، والإحسان هو الإتيان بجميع وجوه الإمكان).

﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾: أي لا تتعلّلوا بأذى الأعداء؛ إِنْ نَبَأَ بِكُمْ مَنْزِلٌ فَتَعَلَّلْكُمْ بمعادة قومٍ وَمَنْعِهِمْ إِيَّاكُمْ - لا يُسْمَع، فأَرْضُ اللَّهِ واسعةٌ، فاخْرُجُوا مِنْهَا إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ تَتَمَّ لَكُمْ فِيهِ عِبَادَتُكُمْ^(١).

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. والصبر حُسْبُ النَّفْسِ على ما تكرهه. ويقال هو تجرُّعُ كاسات التقدير من غير استكراهِ ولا تعيس.

ويقال هو التهذُّفُ^(٢) لسهام البلاء.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾.

مضى القول في معنى الإخلاص. وفي الخبر: إِنْ اللَّهَ يَقُولُ: «الإخلاص سِرٌّ بَيْنَ اللَّهِ وَعَبْدِهِ»^(٣).

ويقال الإخلاصُ لا يُفْسِدُهُ الشَّيْطَانُ، ولا يَطْلُعُ عَلَيْهِ الْمَلَكَانُ.

﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ في وقتي وفي شرعي.

والإسلامُ الانقيادُ لله بكل وجه.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

أخاف أصناف العذاب التي تحصل في ذلك اليوم.

(١) قال القشيري برسالته حاثاً على السفر: إِنْ ابْتَلِيَ مَرِيدٌ بِجَاهٍ أَوْ صَحْبَةٍ حَدَثَ أَوْ مِيلٌ إِلَى امْرَأَةٍ، وَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْخٌ يَدُلُّهُ عَلَى حُلِّ لَهْلَاكَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَحُلُّ لَهُ السَّفَرُ وَالتَّحَوُّلُ عَنْ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ. (الرسالة القشيرية ص ٣٦٣).

(٢) التهذُّفُ: الدنو والاستقبال. (اللسان ٣٤٥/٩ مادة: هدف).

(٣) ورد الحديث في الرسالة القشيرية ص ٢٠٨: سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الْإِخْلَاصِ مَا هُوَ؟ قَالَ: «سَأَلْتُ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الْإِخْلَاصِ مَا هُوَ؟ قَالَ: سَأَلْتُ رَبَّ الْعِزَّةِ عَنِ الْإِخْلَاصِ مَا هُوَ؟ قَالَ: سِرٌّ مِنْ سِرِّي اسْتَوْدَعْتَهُ قَلْبَ مَنْ أَحَبَّيْتَهُ مِنْ عِبَادِي». أَخْرَجَهُ الْقُرُونِيُّ فِي مَسَلَّاتِهِ عَنْ حَذِيفَةَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلِ اللَّهُ أَغْبَدُ مُخْلِصًا لِّمَنِ دِينِي فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

هذا غاية الزجر والتهديد، ثم بيّن أن ذلك غاية الخسران، وهو الخزي والهوان. والخاسير - على الحقيقة - مَنْ خَسِرَ دنياه بمتابعة الهوى، وخَسِرَ عَقْبَاه بارتكابه ما الربُّ عنه نَهَى، وخَسِرَ مولاه فلم يستح منه فيما رأى.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبُدُونَ﴾.

أحاط بهم سَرَادِقُهَا؛ فهم لا يخرجون منها، ولا يَفْتَرُونَ عنها. كما أنهم اليوم في جهنم عقائدهم؛ يستديم حجابهم، ولا ينقطع عنهم عقابهم. ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ...﴾. إِنَّ خِفَتِ الْيَوْمَ كُفَيْتِ خَوْفَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَإِلَّا فَبَيْنَ يَدَيْكَ عَقَبَةٌ كَوْودٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّلْعُوتَ أَنْ يَبْدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى﴾. طاعوث كل إنسان نفسه؛ وإنما يجتنب الطاغوت مَنْ خالف هواه، وعانق رضا مولاه. وعبادة النفس بموافقة الهوى - وقليل مَنْ لا يعبد هواه، ويجتنب حديث النفس.

﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾: أي رجعوا إليه في كل شيء.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَيَنْتَظِرُ عِبَادُ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أَزْوَاجُ الْأَتَّابِ﴾.

﴿يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ يقتضي أن يكون الاستماع لكل شيء، ولكن الاتباع يكون للأحسن. «أحسنه»: وفيه قولان؛ أحدهما أن يكون بمعنى الحسن ولا تكون الهمزة للمبالغة، كما يقال مَلِكٌ أَعَزُّ أَي عزيز. والثاني: الأحسن على المبالغة، والحسن ما كان مَأْذُوناً فيه في صفة الخَلْقِ ويَعْلَمُ ذلك بشهادة العلم، والأحسن هو الأولي والأصوب. ويقال الأحسن ما كان لله دون غيره، ويقال الأحسن هو ذكر الله خالصاً له. ويقال مَنْ عَرَفَ الله لا يسمع إلا بالله.

ويقال إن للعبد دواعي من باطنه هي هواجس النفس ووساوس الشيطان وخَوَاطِرُ الْمَلَكِ وخطابُ الْحَقِّ يُلْقَى في الرُّوع؛ فوساوسُ الشيطان تدعو إلى المعاصي، وهواجسُ النفس تدعو إلى ثبوت الأشياء من النفس وأن لها في شيء نصيباً، وخَوَاطِرُ الْمَلَكِ تدعو إلى الطاعات والقرب، وخطابُ الْحَقِّ في حقائق التوحيد.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أَزْوَاجُ الْأَتَّابِ﴾: -

أولئك الذين هداهم الله لتوحيده، وأولئك الذين عقولهم غير معقولة.
قوله جل ذكره: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾.

الذين حَقَّتْ عليهم كلمة العذاب فريقان: فريقٌ حَقَّتْ عليهم كلمةً بعذابهم في النار، وفريقٌ حَقَّتْ عليهم كلمةً العذاب بالحجاب اليوم، فهم اليوم لا يخرجون عن حجاب قلوبهم، ولا يكون لهم بهذه الطريقة إيمان - وإن كانوا من أهل الإيمان.
قوله جل ذكره: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَوْا رَبَّهُمْ هُمْ عُرُوفٌ مِنْ فَوْقَهَا عُرُوفٌ مَبِيتَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَاتِ﴾.

وَعَدَ المطيعين بالجنة - ولا محالة لا يُخْلِفُ، وَعَدَ التائبين بالمغفرة - ولا محالة يغفر لهم، وَعَدَ المريدين بالوجود والوصول - وإذا لم تقع لهم فترة فلا محالة مُصْدِقٌ وَغَدَهُ.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفًى ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

أخبر أنه يُنْزَلُ من السماء المطر فيُخْرِجُ به الزرع فيخضر، ثم يأخذ في الجفاف، ثم يصير هشيمًا... والإشارة من هذا إلى الإنسان، يكون طفلًا ثم شابًا ثم كهلاً ثم شيخاً ثم يصير إلى أرذل العمر ثم في آخره يخترم.

ويقال إن الزرع ما لم يأخذ في الجفاف لا يُؤْخَذُ منه الحب، فالحب هو المقصود منه. كذلك الإنسان ما لم يحصل من نفسه وصول لا يكون له قَدْرٌ ولا قيمة.

ويقال إن كَوْنُ المؤمن بقوة عقله يوجب استفادة له بعلمه إلى أن يبدو منه كمالٌ يُمكن من أنوار بصيرته، ثم إذا بدت لائحة من سلطان المعارف تصير تلك الأنوار مغمورة. فإذا بَدَتْ أنوار التوحيد استهلكت تلك الجملة، قالوا:

فلما استبان الصبح أدرج^(١) ضوءه بأنواره أنوار تلك الكواكب
قوله جل ذكره: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

جواب هذا الخطاب محذوف... أي أفمن شرح الله صدره للإسلام كمن ليس كذلك؟

(١) أدرج الشيء في الشيء: لفه وطواه.

لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ سُئِلَ الرَّسُولُ ﷺ - عَنِ الشَّرْحِ الْمَذْكُورِ فِيهَا، فَقَالَ: «ذَلِكَ نَوْزٌ يُقْذَفُ فِي الْقَلْبِ، فَقِيلَ: وَهَلْ لَذَلِكَ أَمَارَةٌ؟
قَالَ: «نَعَمْ؛ التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نَزْوِهِ»^(١).

وَالنُّورُ الَّذِي مِنْ قِبَلِهِ - سُبْحَانَهُ - نَوْزُ اللَّوَاتِحِ بِنُجُومِ الْعِلْمِ، ثُمَّ نَوْزُ اللَّوَامِعِ بَبَيَانِ الْقَهْمِ، ثُمَّ نَوْزُ الْمُحَاضِرَةِ بِزَوَائِدِ الْيَقِينِ، ثُمَّ نَوْزُ الْمَكَاشِفَةِ بِتَجَلِّي الصِّفَاتِ، ثُمَّ نَوْزُ الْمَشَاهِدَةِ بِظُهُورِ الذَّاتِ، ثُمَّ أَنْوَارِ الصِّمْدِيَةِ بِحَقَائِقِ التَّوْحِيدِ... وَعِنْدَ ذَلِكَ فَلَا وَجَدَ وَلَا فَقْدَ، وَلَا قُرْبَ وَلَا بُعْدَ... كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ.

﴿قَوْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: أَي الصَّلْبَةِ قُلُوبِهِمْ، لَمْ تَقْرَعْهَا خَوَاطِرُ التَّعْرِيفِ بِفَقِيَّتِ عَلَى نَكْرَةِ الْجَحْدِ... أُولَئِكَ فِي الضَّلَالَةِ الْبَاقِيَةِ، وَالْجَهَالَةِ الدَّائِمَةِ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَدِّدًا مَّثَانِي تَنْفَعُ مَن جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾.

﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾: لِأَنَّهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ.

﴿كِتَابًا مُّتَشَدِّدًا﴾: فِي الْإِعْجَازِ وَالْبَلَاغَةِ.

﴿مَّثَانِي﴾: يَشْنِي فِيهَا الْحُكْمَ وَلَا يُمَلُّ بِتَكَرُّرِ الْقِرَاءَةِ، وَيَشْتَمِلُ عَلَى نَوْعَيْنِ: الثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِذِكْرِ سُلْطَانِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَصِفَاتِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ.

﴿تَنْفَعُ مَن جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾: إِذَا سَمِعُوا آيَاتِ الْوَعِيدِ.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾: إِذَا سَمِعُوا آيَاتِ الْوَعْدِ.

وَيُقَالُ: تَقْشَعُرُ وَتَلِينُ بِالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، وَيُقَالُ بِالْقَبْضِ وَالْبَسْطِ، وَيُقَالُ بِالْهَيْبَةِ وَالْأَنْسِ، وَيُقَالُ بِالتَّجَلِّيِ وَالِاسْتِتَارِ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿أَفَمَن يَتَّبِعِ بَوَجهَهُ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

أَي فَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهَهُ سُوءَ الْعَذَابِ كَمَنْ لَيْسَ بِكَذَلِكَ؟ وَقِيلَ إِنَّ الْكَافِرَ يَلْقَى النَّارَ أَوَّلَ مَا يَلْقَاهَا بِوَجْهِهِ؛ لِأَنَّهُ يُرْمَى فِيهَا مِنْكَوسًا. فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيُوقَى ذَلِكَ؛ وَإِنَّمَا يَلْقَى النَّصْرَةَ وَالسُّرُورَ وَالْكَرَامَةَ؛ فَوَجْهُهُ ضَا حَكٌ مُّسْتَبْشِرٌ.

(١) أَخْرَجَهُ الزَّيْدِيُّ فِي (إِتْحَافِ السَّادَةِ الْمُتَّقِينَ ٩/٣٢٧، ٣٢٨، ١٠/٢٥٥)، وَالسِّيُوطِيُّ فِي (الدَّرِّ الْمَعْنُورِ ٣/٤٤، ٥/٣٢٥)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي (التَّفْسِيرِ ٣/٣٢٨)، وَالْقُرْطُبِيُّ فِي (التَّفْسِيرِ ٢/١٠٤، ٧/٨١).

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَنْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾. أشد العذاب ما يكون بغتة، كما أنَّ أتم السرور ما يكون فلتة^(١). ومن الهجران والفراق ما يكون بغتة غير متوقع، وهو أنكى للفؤاد وأشد وأوجع تأثيراً في القلب، وفي معناه قلنا:

فَبِتْ بخيرِ والدُّنَى مطمئنةً وأصبحت يوماً والزمانُ ثَقَلَبَا
وأتم السرورِ وأعظمه تأثيراً ما يكون فجأة، قال قائلهم:

بينما خاطر المُنَى بالتلاقي سابع في فؤاده وفؤادي
جَمَعَ اللَّهُ بيننا فالتقينا هكذا صُدْفَةً بلا ميعاد^(٢)
قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ فَرَوَانَا عَرِيبًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

أي أوضحنا لهم الآيات، ووقفناهم على حقائق الأشياء.
﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾: فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.
قوله جل ذكره: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

مثل الكافر ومعبوديه بعبدٍ اشترك فيه متنازعون.
﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾: فالصنم يدعي فيه قومٌ وقوم آخرون؛ فهذا يقول: أنا صَنَعْتُهُ، وذلك يقول: أنا استعملته، وثالث يقول: أنا عَبْدُهُ.
أما المؤمن فهو خالصٌ لله عزَّ وجل، يشبه «عبدًا سَلَمًا لرجل» أي ذا سلامة من التنازع والاختلاف.

ويقال: ﴿رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ تتجاذبه أشغال الدنيا، شُغْلُ الْوَلَدِ وشُغْلُ الْعِيَالِ، وغير ذلك من الأشغالِ المختلفةِ والخواطرِ المُشْتَتَةِ.

أما المؤمن فهو خالصٌ لله ليس لأحدٍ فيه نصيب؛ ولا للدنيا معه سببٌ إذ ليس منها شيء، ولا للرضوان معه شُغْلٌ، إذ ليس له طاعات يُدِلُّ بها، وعلى الجملة فهو خالصٌ لله، قال تعالى لموسى: ﴿وَأَصْطَفَيْتَكَ لِإِقْسَى﴾ [طه: ٤١] أي أبقيتك لي حتى لا تصلح لغيره.
﴿أَلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: الثناء له، وهو مُسْتَحِقُّ لصفات الجلال.
قوله جل ذكره: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلَهُمْ مَمَاتٌ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ فَخَصِمُونَ﴾.

(١) الفلتة: يقال: خرج الرجل فلتة؛ أي: بغتة، وحدث الأمر فلتة أي: فجأة بلا روية (ج) فلتات.

(٢) الآية (٢٦) لم ترد.

نَعَاه - عليه السلام - إليه . ونَعَى المسلمين إليهم فَفَزَعُوا بِأَجْمَعِهِمْ من مآثمهم ، ولا تعزية في العادة بعد ثلاث . وَمَنْ لم يَتَفَرَّغْ من مآثم نفسه وأنواع همومه ، فليس له من هذا الحديث شمة ، فإذا فرغ قلبه من حديث نفسه ، وعن الكون بجملته فحينئذ يجد الخير من ربه ، وليس هذا الحديث إلا بعد فنائهم عنهم ، وأنشد بعضهم :

كتابي إليكم بعد موتي بليلة ولم أدر أني بعد موتي أكتب
قوله جل ذكره: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ .

الإشارة فيه إلى من أشار إلى أشياء لم يبلغها ، وادّعى وجود أشياء لم يذُق شيئاً منها ، قال تعالى : ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ۖ﴾ [الزمر : ٦٠] .

ويقال : لا بل هؤلاء هم الكفار ، وأما المدّعي الذي لم يبلغ ما يدّعيه فليس يكذب على ربه إنما يكذب على نفسه ؛ حيث ادّعى لها أحوالاً لم يذُقها ولم يجزها ، فأما غير المتحقق الذي يكذب على الله فهو الجاحد والمبتدع الذي يقول في صفة الحق - سبحانه - ما يتقدّس ويتعالى عنه ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۚ لَّهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ۖ﴾ .

الذي جاء بالصدق في أفعاله من حيث الإخلاص ، وفي أحواله من حيث الصدق ، وفي أسرارهِ من حيث الحقيقة .

﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ : «الإحسان» - كما جاء في الخبر - أن تعبد الله كأنك تراه ^(٢) . فَمَنْ كانت - اليوم - مشاهدته على الدوام كانت رؤيته غداً على الدوام ، وَمَنْ لا فلا .

(١) قال القشيري برسالته : ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال ، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال ، وادّعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال وأنهم قائمون بالحق ، تجري عليهم أحكامه ، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم ، وأنهم لو كوشفوا بأسرار الأحدية ، واختطفوا عنهم بالكلية ، وزالت عنهم أحكام البشرية ، وبقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار الصمدية ، والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا ، والثائب عنهم سواهم فيما تصرفوا بل صرفوا .

هذه هي الصور التي يصور بها القشيري بعض متصوفي زمانه ، وهي أشبه بالصورة التي صور بها الكلّاباذي بعض متصوفي زمانه ، ولكنها أحلك سواداً وأكثر إبلاماً . (الرسالة القشيرية ص ٣٧) .

(٢) أخرجه البخاري في (الصحيح ١٤٤/٦) ، والبيهقي في (السنن الكبرى ٢٠٣/١٠) وابن خزيمة في (الصحيح ٢٢٤٤) ، والهيثمي في (موارد الظلمات ١٦) ، وابن حجر في (فتح الباري ٥١٣/٨) ، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٤٣٤/٨ ، ٩٤/١٠) ، وابن كثير في (التفسير ٣٥٦/٦) ، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٢٤٩ - ٥٢٥٤) .

قوله جل ذكره: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

من لا يكون مؤمناً فليس من أهل هذه الجملة. ومن كان معه إيمان: فإذا كُفِّرَ عنه أسوأ ما عَمِلَهُ فأسوأ أعماله كبائرُهُ؛ فَإِنْ غُفِرَتْ يَجْزِيَهُمْ بِأَحْسَنِ أَعْمَالِهِمْ. وأحسنُ أعمالِ المؤمنين الإيمانُ والمعرفة، فإن كان الإيمانُ مؤقتاً كان ثوابه مؤقتاً، وإن كان الإيمان على الدوام فثوابه على الدوام. ثم أحسنُ الأعمال عليها أحسنُ الثواب، وأحسنُ الثوابِ الرؤيةُ فيجب أن تكون على الدوام - وهذا استدلالٌ قوي.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾.

استفهام والمراد منه التقرير؛ فالله كافٍ عَبْدَهُ اليومَ في عرفانه بتصحيح إيمانه ومنع الشرك عنه، وغداً في غفرانه بتأخير العذاب عنه، وما بينهما فكفايته تامة وسلامته عامة^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضَرُّهُ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

قَرَّرَ عليهم علو صفاته، وما هو عليه من استحقاق جلاله فأقروا بذلك، ثم طالَبَهُم بِذِكْرِ صفات الأصنام التي عبدوها من دونه، فلم يمكنهم في وصفها إلا بالجمادية، والبُعْدِ عن الحياة والعلم والقدرة والتمكُّن من الخلق، فيقول: كيف أشركتم به هذه الأشياء؟ وهَلَا استحييتم من إطلاق أمثال ذلك في صفته؟.

قُلْ - يا محمد - حَسْبِيَ اللَّهُ، عليه يتوكل المتوكلون؛ كافيُّ الله المتفردُ بالجلال، القادرُ على ما يشاء، المتفضلُ عليَّ بما يشاء.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ يَتَقَوَّمُوا عَمَلُهُمْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَجِلُّ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾.

سوف ينكشف ربحنا وخسرانكم، وسوف تظهر زيادتنا ونقصانكم، وسوف نطالبكم فلا جواب لكم، ونُعَذِّبُكُمْ فلا شفيع لكم، ونُدْمِرُ عليكم فلا صريح لكم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَيْهِ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ سَلَ قَبْلَئِذَا يَصِلُ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾.

(١) الآية (٣٧) لم ترد.

مَنْ أَحْسَنَ فإِحْسَانَهُ إِلَى نَفْسِهِ اكْتَسَبَهُ وَمَنْ أَسَاءَ فَبِلَاؤِهِ عَلَى نَفْسِهِ جَلَبَهُ - وَالْحَقُّ غَنِيٌّ عَنِ التَّجَمُّلِ بِطَاعَةِ مَنْ أَقْبَلَ وَالتَّنَقُّصِ بِزَلَّةٍ مَنْ أَعْرَضَ .

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

يقبض الأرواح^(١) حين موتها، والتي لم تمُت من النفوس في حال نومها، فإذا نامت فيقبض أرواحها. وقبض الأرواح في حال الموت بإخراج اللطيفة التي في البدن وهي الروح، ويخلق بدّل الاستشعار والعلم الغفلة والغيبة في محال الإحساس والإدراك. ثم إذا قبض الأرواح عند الموت خلق في الأجزاء الموت بدّل الحياة، والموت ينافي الإحساس والعلم. وإذا ردّ الأرواح بعد النوم إلى الأجساد خلق الإدراك في محل الاستشعار فيصير الإنسان متيقظاً، وقبض الله الأرواح في حال النوم وردت به الأخبار، وذلك على مراتب؛ فإن روحاً تُقبض على الطهارة تُرْفَعُ إلى العرش وتسجد لله تعالى، وتكون لها تعريفات، ومعها مخاطبات «والله أعلم»^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿أَرَأَيْتُمْ أَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَٰئِكَ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَتَّقُونَ﴾ .

أي أنهم - وإن اتخذوا على زعمهم من دون الله شفعاء يحكمهم لا بتعريف من قبل الله أو إخبار - فإن الله تعالى لا يقبل الشفاعة من أحدٍ إلا إذا أذن بها، وإن الذي يقولونه إنما هو افتراء على الله.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ .

اشمأزت^(٣) قلوب الذين جحدوا ولم تسكن نفوسهم إلى التوحيد، وإذا ذُكر الذين من دونه استأنسوا إلى سماعه: -

(١) القشيري هنا لا يكاد يميز بين النفس والروح. لكنه بالرسالة يميز بينهما حيث يقول: ويُحتمل أن تكون النفس لطيفة مودعة في هذا القلب هي محل الأخلاق المعنوية، كما أن الروح لطيفة في هذا القلب هي محل الأخلاق المحمودة، وتكون (بشكل عام) مسخراً بعضها لبعض، والجميع إنسان واحد، وكون الروح والنفس من الأجسام اللطيفة في الصورة ككون الملائكة والشیاطين بصفة اللطافة. (الرسالة القشيرية ص ٨٧).

ثم يقول: اختلف أهل التحقيق من أهل السنة في الأرواح فمنهم من يقول: إنها الحياة، ومنهم من يقول: إنها أعيان مودعة في هذه القوالب، لطيفة، أجرى الله العادة بخلق الحياة في القلب ما دامت الأرواح في الأبدان. (الرسالة القشيرية ص ٨٨).

(٢) الآية (٤٤) لم ترد. (٣) اشمأز: انقبض واقتصر ونفر.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

عَلَّمَهُ - ﷻ - كيف يشي عليه - سبحانه .

وتشتمل الآية على الإشارة إلى بيان ما ينبغي من التتُّصُل والتدليل، وابتغاء العفو والتفضل، وتحقيق الالتجاء بحُسن التوكل. ثم أخبر عن أحوالهم في الآخرة فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

لافتدوا به .. ولكن لا يُقبل منهم، واليوم لو تصدَّقوا بمِثقال ذرة لقبل منهم. كما أنهم لو بكَّوا في الآخرة بالدماء لا يُزَحَمُ بكأوهم، ولكنهم بدمعة واحدة - اليوم - يُنمَحَى الكثير من دواوينهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾.

في سماع هذه الآية حَسَرَات لأصحاب الانتباه.

وفي بعض الأخبار أن قوماً من المسلمين من أصحاب الذنوب يُؤمَرُ بهم إلى النار فإذا وافوها يقول لهم مالِك: مَنْ أَنْتُمْ؟ إن الذين جاؤوا قبْلَكُمْ من أهل النار وجوههم كانت مُسَوَّدةً، وعبوتهم كانت مُزَرَّقةً... وأنتم لستم بتلك الصفة، فيقولون: ونحن لم نتوقع أن نلقاك، وإنما انتظرنا شيئاً آخر! قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

حاق بهم وبأل استهزأهم وجزاء مكرهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا نَحْنُ إِذَا حَوْلَتْهُ نِعْمَةٌ مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

في حال الضُّر يُتَبَرَّؤُونَ من الاستحقاق والحوْل والقوة، فإذا كَشَفَ عنهم البلاء وقعوا في مغاليطهم، وقالوا: إنما أُوتينا هذا باستحقاقٍ مِنَّا، قال تعالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا﴾، ثم أخبر أن الذين مِنْ قَبْلِهِمْ مثل هذا قالوا وحسبوا، ولم يحصلوا إلا على مغاليطهم، فأصابهم شوْمٌ ما قالوا، وهؤلاء سيصيبهم أيضاً مثل ما أصاب أولئك^(١).

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

(١) الآيتان: (٥٠، ٥١) لم تردا.

أو لم يَرَوْا كيف خالف بين أحوال الناس في الرزق: فَمِنْ مُوسَّعٍ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَمِنْ مُضَيَّقٍ عَلَيْهِ، وليس لواحدٍ منهم شيءٌ مِمَّا خُصَّ به من التقليل أو التكثير.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

التسمية «بإعبادي» مذخّر^(١)، والوصف بأنهم «أسرفوا» ذمّ. فلمّا قال: ﴿يَاعِبَادِيَ﴾ طمع المطيعون في أن يكونوا هم المقصودين بالآية، فرفعوا رؤوسهم، ونكّس العَصَا رؤوسهم وقالوا: مَنْ نحن... حتى يقول لنا هذا؟!.

فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ فانقلب الحال؛ فهؤلاء الذين نكّسوا رؤوسهم انتعشوا وزالت ذلّتهم، والذين رفعوا رؤوسهم أطرقوا وزالت صولتهم.

ثم أزال الأعجوبة عن القسمة بما قوّي رجاءهم بقوله: ﴿عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني إن أسرفت فعلى نفسك أسرفت.

﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾: بعد ما قطعت اختلافك إلى بابنا فلا ترفع قلبك عَنَّا.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ الألف واللام في «الذنوب» للاستغراق والعموم، والذنوب جمع ذنب، وجاءت «جميعاً» للتأكيد؛ فكأنه قال: أَغْفِرُ وَلَا أَتْرِكُ، وأغفو ولا أبتقي.

ويقال إن كانت لكم جناية كثيرة عيمة فلي بشأنكم عناية قديمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُمْ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ﴾.

الإنابة الرجوع بالكلية. وقيل الرق بين الإنابة وبين التوبة أن التائب يرجع من خوف العقوبة، وصاحب الإنابة يرجع استحياءً لِكَرَمِهِ^(٢).

(١) قال القشيري برسالته: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: ليس شيء أشرف من العبودية، ولا اسم أتم للمؤمن من الاسم له بالعبودية، ولذلك قال سبحانه في وصف النبي ﷺ ليلة المعراج، وكان أشرف أوقاته في الدنيا «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى»، وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ فلو كان اسم أجل من العبودية لسمّاه به. (الرسالة القشيرية ص ٢٠٠).

(٢) قال القشيري بهذا الخصوص برسالته: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: التوبة على ثلاثة أقسام: أولها التوبة، وأوسطها الإنابة، وآخرها الأوبة، فجعل التوبة بداية والأوبة نهاية والإنابة أوسطهما. فكل من تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة، ومن تاب طمعاً في الثواب فهو صاحب إنابة، ومن تاب مراعاة للأمر، لا لرغبة في الثواب أو رهبة في العقاب فهو صاحب أوبة.

ويقال أيضاً: التوبة صفة المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيّه المؤمنون﴾ والإنابة صفة=

﴿وَأَسْلِمُوا لِمَ﴾: وأخلصوا في طاعتكم، والإسلام - الذي هو بعد الإنابة - أن يعلم أن نجاته بفضلِهِ لا بإنابته؛ فبفضله يصل إلى إنابته... لا بإنابته يصل إلى فضله.
﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ قبل الفراق. ويقال هو أن يفوته وقت الرجوع بشهود الناس ثم لا ينصرف عن ذلك^(١).

قوله جل ذكره: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَصْرَتِي عَلَى مَا قَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاجِدِينَ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

يقال هذا في أقوام يَرَوْنَ أمثالهم تقدموا عليهم في أحوالهم، فيذكرون ما سَلَفَ من تقصيرهم، وَيَرَوْنَ مَا وَفَّقَ إِلَيْهِ أولئك من المراتب فيعضون بنواجز الحسرة^(٢) على أنامل الخيبة.

أو يقول: لو أن الله هداني لَكُنْتُ كذا، ويقول آخر: لو أن لي كَرَّةً فأكون كذا، فيقول الحق - سبحانه:

﴿بَلَى قَدْ جَاءَ تِلْكَ أَيْتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

فَذُقْ من العذاب ما على جُزْمِكَ استوجبت.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَوُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

هؤلاء الذين ادَّعَوْا أحوالاً ولم يَصْدُقُوا فيها، وأظهروا المحبة لله ولم يتحققوا بها، وكفاهم افتضاحاً بذلك! وأنشدوا:

ولمَّا ادَّعَيْتُ الْحُبَّ قَالَتْ كَذَّبْتَنِي فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا؟!

فما الْحُبُّ حَتَّى تَنْزِفَ الْعَيْنَ بِالْبِكَاءِ وتخرس حتى لا تجيب المناديا^(٣)

قوله جل ذكره: ﴿وَيَسْجَى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازِهِمْ لَا يَسْمَهُمُ الشُّوْءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

كما وقَّاهم - اليوم - عن المخالفات، حماهم - غداً - من العقوبات، فالمتقون

= الأولياء المقربين، قال الله تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ والأوية صفة الأنبياء والمرسلين، قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾. (الرسالة القشيرية ص ٩٤).

(١) الآية (٥٥) لم ترد.

(٢) عضوا عليه بالنواجز؛ أي حرصوا عليه.

(٣) البيتان في الرسالة القشيرية ص ٣٢٤. رواية البيت الثاني فيها:

فما الحب حتى يلصق القلب بالحشا وتذبل حتى لا تجيب المناديا

فازوا بسعادة الدارين؛ اليوم عصمة، وغداً نعمة. اليوم عناية وغداً حماية وكفاية.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

تدخل أكساب العباد في هذه الجملة، ولا يدخل كلامه فيه؛ لأن المخاطب لا يدخل تحت الخطاب ولا صفاته.

قوله جل ذكره: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

﴿مَقَالِيدُ﴾ أي مفاتيح، والمراد منه أنه قادر على جميع المقدورات، فما يريد أن يوجده أوجده.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾.

أي متى يكون لكم طمع في أن أعبد غيره... ويتوحيده رباني، وبتفريده عذاني، وبشراب حبه سقاني؟!

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

لئن لاحظت غيري، وأثبتت معي في الإبداع سواي أخطأت عملك، وأبطلت سعيك، بل الله - يا محمد - فاعبد، وكُن من جملة عبادي الشاكرين^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَعَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ما عرفوه حق معرفته، وما وصفوه حق وصفه، وما عظموه حق تعظيمه؛ فمن اتصف بتمثيل، أو جَنَحَ إلى تعطيل حاد عن الشئ المثلى وانحرف عن الطريقة الحسنی. وصفوا الحق بالأعضاء، وتوهموا في نغته الأجزاء، فما قدروه حق قدره؛ فالحلق في قبضة قدرته، والسموات مطويات بيمينه، ويمينه قدرته. ولأنه أقسم أن يُفني السموات ويطويها فهو قادر على ذلك.

﴿سُبْحَنَهُ وَعَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيهاً له عما أشركوا في وصفه.

قوله جل ذكره: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصُوعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾.

في النفخة الأولى تموتون، ثم في النفخة الثانية تُحْشَرُونَ، والنفختان متجانستان؛ ولكنه يخلق عند إحداهما إزهاق الأرواح، وفي الأخرى حياة النفوس،

(١) الآية (٦٦) لم ترد.

لِيُعْلَمَ أَنَّ النَفْخَةَ لَا تَعْمَلُ شَيْئاً لِعَيْنِهَا، وَإِنَّمَا الْجَبَّارُ بِقُدْرَتِهِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالسُّعَدَاءِ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

نور يخلقه في القيامة فتشرق القيامة به، وذلك عند تكوير^(١) الشمس وانكدار^(٢) النجوم، ويستضيء بذلك النور والإشراق قومٌ دون قوم. الْكُفَّارُ يَبْقَوْنَ فِي الظُّلُمَاتِ، وَالْمُؤْمِنُونَ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ.

ويقال اليوم إشراق، وغداً إشراق، اليوم إشراق القلب بحضوره، وغداً إشراق الأرض بنور ربها. ويقال غداً أنوار التولي للمؤمنين، واليوم أنوار التجلي للعارفين.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

إِنْ كَانَ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ خَيْرٍ فَغَيْرُ خَيْرٍ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

الكفار يُسَاقُونَ إِلَى النَّارِ عُنْفًا، وَالْمُؤْمِنُونَ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ لُطْفًا؛ فَالسُّوقُ يَجْمَعُ الْجَنَسِينَ... وَلَكِنْ شَتَانٌ بَيْنَ سَوْقٍ وَسَوْقٍ!.

فَإِذَا جَاءَ الْكَافِرَ قَابِلُهُمْ خَزَنَةُ النَّارِ بِالتَّوْبِيخِ وَالْعِتَابِ وَالتَّانِيْبِ؛ فَلَا تَكْرِيْمَ وَلَا تَعْظِيْمَ، وَلَا سَوَالَ وَلَا اسْتِقْبَالَ... بَلْ خِزْيٌ وَهَوَانٌ، وَمِنْ كُلِّ جَنْسٍ مِنَ الْعَذَابِ الْوَانُ^(٣).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾.

سَوْقٌ وَلَكِنْ بَغِيرِ تَعَبٍ وَلَا نَصَبٍ، سَوْقٌ وَلَكِنْ بِرُوحٍ وَطَرَبٍ.

«زُمَرًا» جَمَاعَاتٍ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ عَوَامُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَفَوْقَ هَؤُلَاءِ: «يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا» [مريم: ٨٥] وَفَوْقَهُمْ مَنْ قَالَ فِيهِمْ: ﴿وَأَزَلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١] وَفَرَّقَ بَيْنَ مَنْ يُسَاقُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَبَيْنَ مَنْ تُقَرَّبُ مِنْهُ الْجَنَّةُ... هَؤُلَاءِ الظَّالِمُونَ، وَالْآخَرُونَ الْمُقْتَصِدُونَ، وَالْآخَرُونَ السَّابِقُونَ.

(١) كَوَّرَتِ الشَّمْسُ: جَمَعَ ضَوْوَهَا وَصَارَ كَالْكُرَةِ، أَوْ اضْمَحَلَتْ وَذَهَبَ ضَوْوُهَا.

(٢) اِنْكَدَرَتِ النُّجُومُ: تَنَاضَرَتْ أَوْ اِنْحَدَرَتْ وَتَسَاقَطَتْ أَوْ أَظْلَمَتْ وَذَهَبَ نُورُهَا.

(٣) الْوَانُ (٧٢) لَمْ تَرُدَّ.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا...﴾ وإذا وافوا الجنة تكون الأبواب مُفْتَحَةً لئلا يصيبهم نَصَبُ الانتظار.

ويقال إذا كان حديث الجنة فالواجب أن يبادر إليها ولا يحتاج أن يُساق، ولعل هؤلاء لا رغبة لهم في الجنة بكثير؛ فَلَهُمْ معه في الطريق قَوْلُ ﴿طَبَقَتْ﴾؛ أي أنهم يُساقون إلى الجنة بلطف دون عنف.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

صَدَقْنَا وعده بإدخالنا الجنة، وإكمال المِثَّة.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ﴾ أي أرض الجنة؛ نتبوا منها حيث نشاء. وهؤلاء قوم مخصوصون، والذين هم قوم «الْعُرْف» أقوام آخرون.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

يُسَبِّحُونَ بحمد ربهم في عموم الأوقات... هذا هو عملُ الملائكة الذين من حول العرش.

وقُضِيَ بين أهل الجنة وأهل النار بالحق، لهؤلاء دَرَكَات ولأولئك درجات... إلى غير ذلك من فنون الحالات. وقُضِيَ بين الملائكة أيضاً في مقاماتهم على ما أَرَادَهُ الحق في عباداتهم.

سورة المؤمن

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة مَنْ تحَقَّقَ بها شَرَفٌ مِنَ الْحَقِّ مَنَالُهُ، وصفت عنده أحواله، وَخَلَعَ عَلَى نَفْسِهِ رِداءَ الْإِفْضَالِ، وَالْبَسَ قَلْبَهُ جِلَالِ الْإِقْبَالِ، وَأَفْرَدَ رُوحَهُ بِرُوحِ لُطْفِ الْجَمَالِ، وَاسْتَخْلَصَ سِرَّهُ بِكَشْفِ وَصْفِ الْجَلَالِ.

قوله جل ذكره: ﴿حَمِّ﴾.

أَي حُمِّ أَمْرٍ كَائِنٍ.

ويقال «الحاء» إشارة إلى جِلْمِهِ، «والميم» إشارة إلى مجده أي: بِجِلْمِي وَمَجْدِي لَا أَخْلُدُ فِي النَّارِ مَنْ آمَنَ بِي.

ويقال هذه الحروف مفاتيح أسمائه.

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

«العزیز»: الْمُعَزَّزُ لِأَوْلِيَائِهِ، «العلیم»: بِمَا كَانَ وَيَكُونُ مِنْهُمْ، فَلَا يَمْنَعُهُ عِلْمُهُ بِمَا سَلَفَ مِنْهُمْ عَنْ قَضَائِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْكَافِرِينَ﴾.

كَتَابَ مُعْتَوُونَ بِقَبُولِ تَوْبَتِهِ لِعِبَادَتِهِ؛ عَلِيمٌ أَنَّ الْعَاصِيَ مُنْكَسِرُ الْقَلْبِ فَازَالَ عَنْهُ الْإِنْكَسَارَ بِأَنْ قَدَّمَ نَصِيحَتَهُ، فَقَدَّمَ اسْمَهُ عَلَى قَبُولِ التَّوْبَةِ. فَسَكَنَ نَفْسَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ بِأَسْمَائِهِ يُوَجِّبَانِ الرَّجَاءَ؛ وَهَذَا قَوْلُهُ: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾.

ثم عقبهما بقوله: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ ثم لم يرض حتى قال بعدئذٍ ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾.

فَيَقَابِلُ قَوْلَهُ: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ قَوْلُهُ: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾.

ويقال: غَافِرُ الذَّنْبِ لِمَنْ أَصْرَّ وَاجْتَرَمَ، وَقَابِلُ التَّوْبِ لِمَنْ أَقَرَّ وَنَدِمَ، شَدِيدِ الْعِقَابِ لِمَنْ جَحَدَ وَعَتَدَ، ذِي الطَّوْلِ لِمَنْ عَرَفَ وَوَحَدَ.

ويقال غَافِرُ الذَّنْبِ لِلظَّالِمِينَ، وَقَابِلُ التَّوْبِ لِلْمُقْتَصِدِينَ، شَدِيدِ الْعِقَابِ لِلْمُشْرِكِينَ، ذِي الطَّوْلِ لِلْسَّابِقِينَ.

ويقال: سئئ الله أنه إذا خَوَّفَ العبادَ باسمٍ أو لفظٍ تَدَارَكَ قلوبهم بأن يُبَشِّرَهم باسمين أو بوضفين.

﴿إِنِّي الْمَصِيرُ﴾: وإذا كان إليه المصير فقد طاب إليه المسير.

قوله جل ذكره: ﴿مَا يُجَدِّلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرِرَكَ قَلْبُهُمْ فِي الْإِلَادِ﴾.

إذا ظهر البرهانُ واتَّضَحَ البيانُ استسلمتْ الألبابُ الصاحبةُ للاستجابة والإيمان.

فأما أهلُ الكفرِ فلهم على الجمود إصرارٌ، وشؤمٌ شريكهم يحولُ بينهم وبين الإنصافِ.. وكذلك من لا يحترمون أولياء الله، ويَصِرُّون على إنكارهم، ويعترضون عليهم بقلوبهم، ويجادلون في جحدِ الكرامات، وما يخصُّ الله به عباده من الآيات.. فهؤلاء يميزون بين رجحانهم ونقصانهم، وسيفتضحون كثيراً.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدُوا لِابْنِطِلٍ لِيُدْخِلُوهُ بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

كذلك مَنْ انقضى مِنَ الكفار كان تكذيبُ الرُّسُلِ ذأبهم، ولكنَّ الله - سبحانه - انتقم منهم، وعلى كُفْرِهِم احترامهم.

والمُنْكَرُ لهذا الطريق يدين بإنكاره، ويتقَرَّبُ إلى الله به، ويعد وقيعته في أولياء الله من جملة إحسانه وخيراته، ولكن الله - سبحانه - يعذبهم في العاجل بتخليتهم فيما هم فيه، وصدَّ قلوبهم عن هذه المعاني، وحرمانهم منها.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

إذا انختم على عبدٍ حُكْمُ الله بشقاوته فلا تنفعه كثرةُ ما يورِّدُ عليه من التُّصْح. والله على أمره غالبٌ. وَمَنْ أَسْرَتْهُ يَدُ الشَّوَاةِ فلا يُخْلَصُهُ مِنْ مَخَالِبِهَا جُهْدٌ ولا سَعَاةٌ.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.

حَمَلَةُ العرش من حَوْلِ العرش من خواص الملائكة، مأمورون بالتسبيح لله، ثم بالاستغفار للعاصين - لأنَّ الاستغفار للذنوب والتوبة إنما تحصل من الذنب - ويجتهدون في الدعاء لهم على نحو ما في هذه الآية وما بعدها؛ فيدعون لهم بالنجاة، ثم يرفع الدرجات، ويحيلون الأمر في كل ذلك على رحمة الله.

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ

وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ لِيَنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَفَهُمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠﴾

﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ﴾: فلن سلط عليك أراذل من خلقه - وهم الشياطين - فلقد قيض بالشفاعة أفاضل من خلقه ومن الملائكة المقربين.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُشَادُّونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾.

أشد العقوبات التي يوصلها الحق إليهم آثار سخطه وغضبه، وأجل النعم التي يغروهم بها آثار رضاه عنهم. فإذا عرف الكافر في الآخرة أن ربه عليه غضبان فلا شيء أصعب على قلبه من ذلك؛ لأنه عليم أنه لا بكاء ينفعه، ولا عناء يزيل عنه ما هو فيه ويدفعه، ولا يسمع له تضرع، ولا ترجى له حيلة.

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنَاكَ تِلْكَ الْبَيِّنَاتِ فَأَعْرَفْنَا بِدُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾.

الإماتة الأولى إمامتهم في الدنيا ثم في القبر يحييهم، ثم يميتهم فهي الإماتة الثانية. والإحياء الأول في القبر والثاني عند النشر.

﴿فَأَعْرَفْنَا بِدُنُوبِنَا﴾: أقروا بذنوبهم - ولكن في وقت لا ينفعهم الإقرار.

﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾: مما نحن فيه من العقوبة، وإنما يقولون ذلك حين لا ينفعهم الندم والإقرار. فيقال لهم:-

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَسَّلْتُمْ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾

أي تصدقوا المشركين لكفرهم. وهؤلاء إمامتهم محصورة، فأما أهل المحبة فلهم في كل وقت حياة وموت، قال قائلهم:

أموت إذا فقدتكم ثم أحياء فكم أحياء عليكم وكم أموت!

فإن الحق - سبحانه - يردد أبدأ الخواص من عباده بين الفناء والبقاء، والحياة والموت، والمحو والإنبات.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾.

يريههم آيات فضله فيما يلاطفهم، ويريههم آيات قهره فيما يكاشفهم، ويريههم آيات عفوهِ إذا تنصّلوا، وآيات جوده إذا توسّلوا، وآيات جلاله إذا هابوا فغابوا، وآيات

جمالِهِ إِذَا آبُوا وَاسْتَجَابُوا. ﴿وَيُزِيلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ لأبدانكم وهو توفيق المجاهدات، ولقلوبكم وهو تحقيق المشاهدات، ولأسراركم وهو فنون المواصلات والزيادات.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾: يرجع من العادة إلى العبادة، ومن الشك إلى اليقين، ومن الخلق إلى الحق، ومن الجهل إلى العلم، ومن الثكرة إلى العرفان. قوله جل ذكره: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

شَرَطُ الدعاء تقديم المعرفة لتعرف من الذي تدعوه، ثم تدعو بما تحتاج إليه مما لا بُدَّ لك منه، ثم تنظر هل أعطاك ما تطلب وأنت لا تدري؟ والواجب ألا تطلب شيئاً تكون فيه مخالفةً لأمره، وأن تتباعد عن سؤالك الأشياء الدنيئة والدنيوية، وأن ترضى بما يختاره لك مولاك. ومن الإخلاص في الدعاء ألا ترى الإجابة إلا منه، وألا ترى لنفسك استحقاقاً إلا بفضلِهِ، وأن تعلم أنه إن بقيت سؤالك عن مطلوبك - الذي هو حَظُّكَ - لا تَبْقَ عن عبادة ربِّكَ - التي هي حَقُّهُ «فإنَّ الدعاء مُخَّ العبادة»^(١) ومن الإخلاص في الدعاء أن تكون في حال الاضطرار لما لا يكون ابتداءً جُزْماً لك، وتكون ضرورتك لسراية جنائتك.

قوله جل ذكره: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْزِلَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾.

رافع الدرجات للعُصاة بالنجاة، وللمطيعين بالمشوبات، وللأصفياء والأولياء بالكرامات، ولذوي الحاجات بالكفايات، وللعارفين بتنقيبهم عن جميع أنواع الإرادات.

ويقال درجاتُ المطيعين بظواهرهم في الجنة، ودرجاتُ العارفين بقلوبهم في الدنيا؛ فيرفع درجاتهم عن النظر إلى الكونين دون المساكنة إليهما. وأما المحبون فيرفع درجاتهم عن أن يطلبوا في الدنيا والعقبى شيئاً غيرَ رضاٍ محبوبهم.

﴿ذُو الْعَرْشِ﴾: ذو المُلْكِ الرفيع. ويقال العرش الذي هو قِبْلَةُ الدعاء، خَلَقَهُ أَرْفَعَ المخلوقات وأعظمها جُثَّةً.

(١) أخرجه ابن ماجه في (السنن ٣٨٢٧)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢٦٧/٤، ٢٧١، ٢٧٦) والحاكم في (المستدرک ٤٩٠/١)، وابن حجر في (فتح الباري ٤٩/١)، والبغوي في (شرح السنة ١٨٤/٥)، والساعاتي في (منحة المعبود ١٢٥٢)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٢/٢٧٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣٠٦/١)، والشجري في (الأمالي ٢٢٣/١ - ٢٣٥) والطبري في (التفسير ٩٤/٢، ٥١/٢٤)، والبخاري في (الأدب المفرد ٧١٤).

﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ روح بها ضياء أبدانهم - وهو سلطان عقولهم، وروح بهاء ضياء قلوبهم - وهو شفاء علومهم، وروح بها ضياء أرواحهم - والذي هو للروح رَوْحٌ - بقاءهم بالله.

ويقال: روح هو روح إلهام، وروح هو روح إعلام، وروح هو روح إكرام.

ويقال: روح النبوة، وروح الرسالة، وروح الولاية، وروح المعرفة.

ويقال: روح بها بقاء الخلق، وروح بها ضياء الحق.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾.

يعلم الحاصل الموجود، ويعلم المعلوم المفقود، والذي كان والذي يكون، والذي لا يكون مما عِلِمَ أنه لا يجوز أن يكون، والذي جاز أن يكون أن لو كان كيف كان يكون.

﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

لا يتقيد ملكه بيوم، ولا يختص ملكه بوقت، ولكن دعَاوى الخلق - اليوم - لا أصل لها؛ إذ غداً تنقطع تلك الدعَاوى وترفع تلك الأوهام.

قوله جل ذكره: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

يجازيهم على أعمالهم بالجنان، وعلى أحوالهم بالرضوان، وعلى أنفاسهم بالقرية، وعلى محبتهم بالرؤية.

ويجازي المذنبين على توبتهم بالغفران، وعلى بكائهم بالضياء والشفاء.

﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾: أي أنه يستحيل تقدير الظلم منه، وكل ما يفعل فله أن يفعله. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ مع عباده؛ لا يشغله شأن عن شأن، وسريع الحساب مع أوليائه في الحال؛ يطالبهم بالصغير والكبير، والتقير والقطمير.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَیْمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾.

قيامة الكل مؤجلة، وقيامة المحبين مُعَجَّلة؛ فلهم في كل نفس قيامه من العقاب والعذاب والثواب، والبُعَاد والاقتراب، وما لم يكن لهم في حساب، وتشهد عليهم الأعضاء؛ فالدمع يشهد، وخفقان القلب ينطق، والنحول يُخبر، واللون يُفصح... والعبد يَسْتُر ولكن البلاء يَظْهَرُ:

يا مَنْ تَغَيَّرُ صورتي لِمَا بَدَا لجميع ما ظنُّوا بنا تصديقاً

وأنشدوا:

لي في محبته شهود أربع وشهود كل قضية اثنان
ذوبان جسمي وارتعاد مفاصلي وخفوق قلبي واعتقال لساني
وقلوبهم - إذا أزعج^(١) الرحيل بلغت الحناجر، وعيونهم شرفت بدموعها إذا
نودي بالرحيل وشدت الرواحل.

قوله جل ذكره: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾.

فخائنة أعين المحبين استحسانهم شيئاً، ولهذا قالوا:

يا قرّة العين: سل عيني هل اكتحلت بمنظر حسنٍ مُذْ غُبتَ عن بصري
ولذلك قالوا:

فعيني إذا استحسنت غيركم أمرت الشهاد^(٢) بتعذيبها
ومن خائنة أعينهم أن تأخذهم السنّة والسُّبات في أوقات المناجاة؛ وقد جاء في
قصة داود عليه السلامة: كَذَبَ مَنْ ادَّعى محبتي، فإذا جئته الليلُ نام عني!
ومن خائنة أعين العارفين أن يكون لهم خَيْرٌ بقلوبهم عما تقع عليه عيونهم.
ومن خائنة أعين الموحّدين أن تخرج منها قطرة دمعٍ تأسفاً على مخلوقٍ يفوت
في الدنيا والآخرة، ولا على أنفسهم.

ومن خائنة أعين المحبين النظرُ إلى غير المحبوب بأي وجهٍ كان، ففي الخبر:

«حُبُّكَ الشَّيْءَ يعمي ويصم»^(٣).

﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾: فالحق به خير.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

(١) أزعج: دنا واقترب أو عجل.

(٢) الشهاد: الأرق.

(٣) أخرجه أبو داود في (السنن ٥١٣٠)، وأحمد بن حنبل في (المسند ١٩٤/٥، ٤٥٠/٦)، والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢٧٦/٧، ٦٨٤/٩)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٤٩٠٨) والدولابي في (الكنى والأسماء ١٠١/١)، وأبو حنيفة في (المسند ١٦٨)، وفي (جامع مسانيد ٢٣/١، ٨٧)، وابن كثير في (التفسير ١٨١/١، ٤٧٣/٣)، والقرطبي في (التفسير ٣٠٧/١)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١١٧/٣)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣١/٣) وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٣٢٥/٣، ٢٣٤/٤، ٨٩/٥، ٣٩٢/١٠)، والمجلوني في (كشف الخفاء ١/٤١٠)، والفتني في (تذكرة الموضوعات ١٩٩)، وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٤٠٣/١)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ١٧٧).

يقضي للأجانب بالبعداد، ولأهل الوصال بالوداد، ويقضي يومَ القدوم بعزل عمال الصدود، وإذا ذُبِحَ الموتُ غداً بين الجنة والنار على صورة كبشٍ أملح فلا غربة أن يُذْبَحَ الفراقُ على رأسِ سكة^(١) الأحبابِ في صورة شخصٍ منكر ويصلب على جذوع العبرة لينظر إلى أهل الحضرة.

قوله جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّبُهُمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾.

أو لم يسيروا في أقطار الأرض بنفوسهم، ويطوفوا مشارقها ومغاربها ليعتبروا بها فيزهدوا فيها؟ أو لم يسيروا بقلوبهم في الملكوت بجولان الفكر ليشهدوا أنوار التجلي فيستبصروا بها؟ أو لم يسيروا بأسرارهم في ساحات الصمدية ليستهلكوا في سلطان الحقائق، وليتخلصوا من جميع المخلوقات قاصيها ودانيها؟

قوله جل ذكره: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُمْ قَوْمٌ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

إن بغى من أهل السلوك قاصداً لم يصل إلى مقصوده فليغلم أن موجب حجبهِ اعتراض خامر قلبه على بعض شيوخه في بعض أوقاته؛ فإن الشيوخ بمحل السفراء للمريدين. وفي الخبر: «الشيخ في قومه كالنبي في أمته»^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَجَنَ وَقَدَرُونَ فَقَالُوا سَحَرٌ كَذَّابٌ﴾.

أكرم خلقه في وقته كان موسى عليه السلام، وأحسن خلقه وأذلهم في حُكميه وأشدهم كفراً كان فرعون؛ فما قال أحدٌ غيره: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

فَبَعَثَ اللَّهُ - أَخْصَّ عبادَه إلى أَحْسَن عبادَه، فقابله بالتكذيب، ونسبه إلى السحر، وأثبه بكل أنواع التائب. ثم لم يُعْجَلُ اللَّهُ عقوبته، وأمهله إلى أن أوصل إليه شِقْوَتَه - إنه سبحانه حليمٌ بعباده.

(١) السكة: الطريق المستوي.

(٢) أخرجه المتقي الهندي في (كتر العمال ٤٢٦٣٣)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٨٢/١)، وابن القيسراني في (تذكرة الموضوعات ١٠٨٢)، والسيوطي في (اللآلئ المصنوعة ٨٠/١)، والعللوني في (كشف الخفاء ١٢/٢)، وابن الجوزي في (الموضوعات ١٨٣/١)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٤٨٨)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ٢٢٩، ٣٣٩).

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

عَزَمَ عَلَى إِهْلَاكِهِ وَإِهْلَاكَ قَوْمِهِ، وَاسْتَعَانَ عَلَى ذَلِكَ بِجُنْدِهِ وَخَيْلِهِ وَرَجُلِهِ، وَلَكِنْ كَانَ كَمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾، لَأنَّهُ إِذَا حَفَرَ أَحَدٌ لِيَوْمِي مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى حُفْرَةً مَا وَقَعَ فِيهَا غَيْرُ خَافِرِهَا... بِذَلِكَ أَجْرَى الْحَقُّ سُنَّتَهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾.

﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أَي لِيَسْتَعِينَ بِرَبِّهِ، وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَبْدِلَ دِينَكُمْ، وَأَخَافُ أَنْ يُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ، وَكَانَ الْمُفْسِدُ هُوَ فِرْعَوْنُ، وَهُوَ كَمَا قِيلَ فِي الْمَثَلِ: «رَمَثْنِي بِدَائِهَا وَانْسَلَّتْ» وَلَكِنْ كَادَ لَهُ الْكِيدُ، وَالْكَائِدُ لَا يَتَخَلَّصُ مِنْ كَيْدِهِ.

فَاسْتَعَاذَ مُوسَى بِرَبِّهِ، وَانْتَدَبَ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ وَبِمُوسَى كَانَ يَكْتُمُ إِيْمَانَهُ عَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ^(١):-

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَفَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.. الْآيَاتِ.

نَصَحَهُمْ وَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَنْجَحْ فِيهِمْ نُصْحٌ وَلَا قَوْلٌ. وَكَمْ كَرَّرَ ذَلِكَ الْمُؤْمِنُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ الْقَوْلَ وَأَعَادَ لَهُمُ التَّنْصِيحَ! فَلَمْ يَسْتَمِعُوا لَهُ؛ وَكَانَ كَمَا قِيلَ:

وَكَمْ سَقُتْ فِي آثَارِكُمْ مِنْ نَصِيحَةٍ وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الْبَغْضَةُ الْمَتَنَصِّحُ^(٢)

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَقٌّ إِذَا هَلَكَ قَلْبُكُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾.

بَيَّنَّ أَنْ تَكْذِيبَهُمْ كَتَكْذِيبِ آبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ مِنْ قَبْلُ، وَكَمَا أَهْلَكَ أَوَّلَكَ قَدِيمًا كَذَلِكَ يَفْعَلُ بِهِؤَلَاءِ^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أَبْنِي صَرَحًا لَعَلِّي أَتْلُعُ أَلَسَّابَبُ اسْتَبَابِ السَّمَوَاتِ فَأَطْلِعَ إِلَيَّ إِلَهُ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾.

السَّبَبُ مَا يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الشَّيْءِ؛ أَي لَعَلِّي أَصِلُ إِلَى السَّمَاءِ فَأَطْلِعَ إِلَى إِلِهِ

(٢) الْآيَاتِ مِنْ (٢٩) حَتَّى (٣٣) لَمْ تَرِدْ.

(١) الْآيَةُ (٢٧) لَمْ تَرِدْ.

(٣) الْآيَةُ (٣٥) لَمْ تَرِدْ.

موسى . ولو لم يكن من المضاهاة بين مَنْ قال إن المعبودَ في السماء وبين الكافر إلا هذا لكفى به خِزياً لمذهبهم . وقد غَلِطَ فرعونُ حينَ تَوَهَّم أنَّ المعبودَ في السماء ، ولو كان في السماء لكان فرعونُ مُصِيباً في طَلَبِهِ من السماء .

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ .

أخبر أنَّ اعتقاده بأنَّ المعبودَ في السماء خطأ، وأنه بذلك مصدودٌ عن سبيل الله .
قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَنْقُومُ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَنْقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتْنَعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ .

أَصَرَ على دعائه لهم وَأَصْرُوا على جحودهم وعُودهم .
﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْفَوْهُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ .
﴿فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ : في المقدار لا في الصفة ؛ لأن الأولى سيئة ، والمكافأة من الله عليها حسنة وليست بسيئة .

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ يعني في الحال ، لأنَّ مَنْ لا يكون مؤمناً في الحال لا يكون منه العملُ الصالح ، ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ : أي رزقاً مؤبداً مُخْلِداً ، لا يخرجون من الجنة ولا مِنَّا هم عليه من المال .

﴿وَيَنْقُومُ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى التَّجَوُّعِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ﴾
وهذا كُلُّهُ مِنْ قَوْلِ مؤمنٍ آل فرعونَ ، يقوله على جهة الاحتجاج لقومه ، ويلزمهم الحجة به .

﴿تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْفَقْرِ﴾ .

تدعونني لأكفر بالله وأشرك به من غير علم لي بصحة قولكم ، وأنا أدعوكم إلى الله وإلى ما أوضحه بالبرهان ، وأقيم عليه البيان .

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ .

لا جَرَمَ أنَّ ما تدعونني إليه باطل ؛ فليس لتلك الأصنام حياة ولا عِلْمٌ ولا قُدْرَةٌ ، وهي لا تنفع ولا تضرُّ . ولقد علمنا - بقول الدين ظهر صِدْقُهُم بالمعجزات - كَذِبَكُمْ فيما تقولون .

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

أفوض أمري إلى الله، وأتوكل عليه، ولا أخاف منكم، ولا من كيدهم.
قوله جل ذكره: ﴿فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.
والآية تدل على عذاب القبر.

ويقال إن أرواح الكفار في حواصل طير سود تُعرض على النار غدوًّا وعشيًّا إلى يوم القيامة حيث تدخل النار.

﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾: أي يا آل فرعون أدخلوا أشد العذاب، فنصبه على النداء المضاف. وقرأ «أدخلوا» على الأمر.

﴿أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾: أي أصعبه، وأصعب عذاب للكفار في النار يأثمهم من الخروج عنها. أما العصاة من المؤمنين فأشد عذابهم في النار إذا علموا أن هذا يوم لقاء المؤمنين، فإذا عرفوا ذلك فذلك اليوم أشد أيام عذابهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرْنَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضَّعِيفُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّقْتَدُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾.

يقول الضعفاء للذين استكبروا: أنتم أضللتونا، ويقول لهم المستكبرون: أنتم وافقتمونا باختياركم؛ فمحاجة بعضهم لبعض تزيد في غيظ قلوبهم، فكما يعذبون بنفوسهم يعذبون بضيق صدورهم ويغض بعضهم بعض.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ قَالُوا أَوْلَمْ نَأْتِكُمْ رُسُلَكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

وهذه أيضاً من أمارات الأجنبية، فهم يُدْخَلُونَ واسطة بينهم وبين ربهم. ثم إن الله ينزع الرحمة عن قلوب الملائكة كي لا يستشفعوا لهم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾.

ننصرهم بالآيات وفنون التعريفات حتى يعرفوا ويشهدوا أن الظفر وضده من الله، والخير والشر من الله.

ويقال ننصرهم على أعدائهم بكيد خفي ولطف غير مرئي، من حيث

يحتسبون ومن حيث لا يحتسبون؛ ننصرهم في الدنيا بالمعرفة وباليقين بأن الكائنات من الله، وننصرهم في الآخرة بأن يشهدوا ذلك، ويعرفوا - بالاضطرار - أن التأثير من الله، وغاية النصرة أن يقتل الناصر عدو من ينصره، فإذا أراد ختفه تحقق بأن لا عدو على الحقيقة، وأن الخلق أشباح تجري عليهم أحكام القدرة؛ فالولي لا عدو له، ولا صديق له إلا الله، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧].

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾. دليل الخطاب أن المؤمنين ينفعهم تنصلهم، ولهم من الله الرحمة، ولهم حسن الدار، وما بقي من هذه الدنيا إلا اليسير.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ هُدىً وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

مضى طرّف من البيان في قصة موسى.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾.

الصبر في انتظار الموعود من الحق على حسب الإيمان والتصديق؛ فمن كان تصديقه وبقائه أتم وأقوى كان صبره أتم وأوفى.

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾: وهو - سبحانه - يعطي وإن توهّم العبد أنه يبطل.

ويقال الصبر على قسمين: صبر على العافية، وصبر على البلاء، والصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء، فصبر الرجال على العافية وهو أتم الصبر^(١).

﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾. وفي هذا دليل على أنه كانت له ذنوب، ولم يكن جميع استغفاره لأتمته لأنه قال في موضع آخر: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩] وهنا لم يذكر ذلك. ويمكن حمل الذنب على ما كان قبل النبوة؛ إذ يجوز أن يكون العبد قد تاب من الزلة ثم يجب عليه الاستغفار منها كلما ذكرها، فإن تجديد التوبة يجب كما يجب أصل التوبة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ مِنْهُمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِمُعْجِزِينَ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾: أي بغير حجة.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ١٨٣ - ١٨٩.

﴿إِنَّ فِي صُفُورِهِمْ إِلَّا كِبَرًا﴾ أي ليس في صدورهم إلا كِبَرٌ يمنعهم عن الانقياد للحق، ويعقون به عن الله، ولا يصلون إلى مرادهم.

قوله جل ذكره: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي خَلَقَ السموات والأرض أكبر من بعثهم وخلقهم مرة أخرى بعد أن صاروا رميماً؛ فالقوم كانوا يُقِرُّون بخلق السموات والأرض، وينكرون أمر البعث.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

أراد به: ما يستوي المؤمن والكافر، ولا المربوط بشهوته كالمبسوط بصفوته، ولا المجذوب بقربه كالمحجوب بعقوبته، ولا المُرقي إلى مشاهدته كالمُبقي في شاهده، ولا المجدود بسعاده كالمردود لشقاوته.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

إِنَّ مِيقَاتِ الْحِسَابِ لَكَانَ وَإِنْ وَقَعَتِ الْمَدَّةُ فِي أَوَانِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

معناه: ادعوني أستجب لكم إن شئتم؛ لأنه قال في آية أخرى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ [الأنعام: ٤١].

ويقال ادعوني بشرط الدعاء، وشرط الدعاء الأكل من الحلال؛ إذ يقال الدعاء مفتاحه الحاجة، وأسبابه اللقمة الحلال.

ويقال كل مَنْ دعاه استجاب له إما بما يشاء له، أو بشيء آخر هو خير له منه.

ويقال الكافر ليس يدعوه؛ لأنه إنما يدعو مَنْ له شريك، وهو لا شريك له.

ويقال: إذا ثبت أن هذا الخطاب للمؤمنين فما مِنْ مؤمن يدعو الله ويسأله شيئاً إلا أعطاه في الدنيا، فأما في الآخرة فيقول له: هذا ما طلبته في الدنيا، وقد اذخرته لك لهذا اليوم حتى ليمنى العبد أنه ليه لم يُعط شيئاً في الدنيا قط.

ويقال ادعوني بالطاعات استجب لكم بالثواب والدرجات.

ويقال ادعوني بلا غفلة استجب لكم بلا مهلة. ويقال ادعوني بالتنصل استجب لكم بالتفضل. ويقال ادعوني بحسب الطاقة استجب لكم بكشف الفاقة.

ويقال ادعوني بالسؤال أستجب لكم بالثواب والأفضال.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أن يستكبرون عن دعائي، سيدخلون جهنم صاغرين.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ الآيات.

سكون الناس في الليل على أقسام: أهل الغفلة يسكنون إلى غفلتهم، وأهل المحبة يسكنون بحكم وصلتهم، وشتان بين سكون غفلة وسكون وصلة!

قوم يسكنون إلى أمثالهم وأشكالهم، وقوم يسكنون إلى حلاوة أعمالهم؛ لبسطهم واستقلالهم، وقوم يعدمون القرار في ليلهم ونهارهم وأولئك أصحاب الاشتياق.. أبداً في الاحتراق.

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الذي جعل سكونكم معه، وانزعاجكم له، واشتياقكم إليه، ومحبتكم فيه، وانقطاعكم إليه.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾.

﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾: خلق العرش والكرسي والسموات والأرضين وجميع المخلوقات ولم يقل هذا الخطاب، وإنما قال لنا: ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ وليس الحسن ما يستحسنه الناس بل الحسن ما يستحسنه الحبيب:

ما حطك الواشون عن رتبة عندي ولا ضرك مُعتاب
كانهم أثنوا - ولم يعلموا - عليك عندي بالذي عابوا
لم يقل للشموس في علائها، ولا للأقمار في ضيائها: ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾.

ولما انتهى إلينا قال ذلك، وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

ويقال إن الواشين قبحوا صورتكم عندنا، بل الملائكة كتبوا في صحائفكم قبيح ما ارتكبتم.. ومولاكم أحسن صورتكم، بأن محا من ديوانكم الزلات، وأثبت بدلاً منها الحسنات، قال تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ [الرعد: ٣٩]، وقال: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَجْزِلُهُمُ اللَّهُ سِتْرَاتِهِمْ حَسَنَاتٌ﴾ [الفرقان: ٧٠].

قوله جل ذكره: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾.

ليس الطيب ما تستطيبه النفس إنما الطيب ما يستطيبه القلب، فالخير القفار أطيب للفقير الشاكر من الحلواء للغني المتسخط.

وَرَزَقُ النُّفُوسِ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ، وَرَزَقَ الْقُلُوبَ لِمَاذَا الطَّاعَاتِ.
قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي﴾: الذي لا يموت، ولا فضله يفوت، فادعوه بلسان القوت، وذلك عليه لا يفوت.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أُعْبَدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قُلْ - يا محمد - إني نهيت عن عبادة ما تدعون من دون الله، أي أُمِرْتُ بالتبري عما عبدتم، والإعراض عما به اشتغلت، والاستسلام للذي خلقتني، وبالنبوة استخضني.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَفْثَةٍ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾.

فمن تربة إلى قطرة؛ ومن قطرة إلى علقة. . ثم من بطون أمهاتكم إلى ظهوركم في دنياكم. . ثم من حال كونكم طفلاً ثم شاباً ثم شيخاً.
وهو الذي يحيي ويميت، ثم يبعث في أخرى الدارين^(١).

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنْ يُمْسَحُوا عَنْهُمْ﴾.

في آيات الله يتباعدون؛ فلا حجة يوردون، ولا عذاب عن أنفسهم يردون، سيعلمون حين لا ينفعهم علمهم، ويعتذرون حين لا يسمع عذرهم، وذلك عندما^(٢).

﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾
الآيات.

يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ وَالْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ، ثم يُذَاقُونَ ألوان العذاب. . فإذا أقرؤا بكفرهم وذنوبهم يقال لهم: أدخلوا جهنم خالدين فيها، فبئس مثواهم ومصيرهم، وساء ذهابهم ومسيرهم^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمَا نُرِيدَكَ بِشَيْءٍ الَّذِي نَعِدُّكَ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَاِئْتِنَا بِرِجْمُونٍ﴾.

كُنْ بِقَلْبِكَ فارغاً عنهم، وانظر من بعد إلى ما يفعل بهم، واستيقن بأنه لا بقاء

(٢) الآية (٧٠) لم ترد.

(١) الآية (٦٨) لم ترد.

(٣) الآيات من (٧٣، ٧٦) لم ترد.

لجولة باطلهم. . . فإن لقيت بعض ما نتوعدهم به وإلا فلا تك في ريب من مقاساتهم ذلك بغد. ثم أكد تسليته إياه وتجديد تصييره وتعريفه بقوله:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِّنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرُسُلٍ أَنْ يَأْتِيَكَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

قصصنا عليك قصص بعضهم، ولم نخبرك عن قصص الآخرين.

ولم يكن في وسع أحد الإتيان بمعجزة إلا إذا أظهرنا نحن عليه ما أردنا إذا ما أردنا. فكذلك إن طالبك بآية فقد أظهرنا عليك من الآيات ما أرحنا به العذر، وأوضحنا صحة الأمر. . . وما اقترحوه. . . فإن شئنا أظهرنا، وإن شئنا تركنا.

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُلُوبِكُمْ وَطَلَبًا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ وَتُرِيدُكُمْ ءَايَتُهُ فَآيَ ءَايَتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾.

ذكرهم عظيم إنعامه بتسخير الأنعام؛ فقال جعلها لكم لتنتفعوا بها بالركوب والحمل والعمل، ولتستقوا ألبانها، ولتأكلوا لحومها وشحومها، ولتنتفعوا بأصوافها وأوبارها وأشعارها، ولتقطعوا مسافة بعيدة عليها. . . فعلى الأنعام وفي الفلك تنقلون من صُفْع^(١) إلى صُفْع. . . وأنا الذي يسرْتُ لكم هذا، وأنا الذي ألهمتكم الانتفاع به؛ فتقوا في ذلك واعرفوه.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآمَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. . . الآيات أمرهم بالاعتبار بمن كانوا قبلهم؛ كانوا أشد قوة وأكثر أموالاً وأطول أعماراً، فانجزوا في جبال آمالهم، فوقعوا في وهدة غرورهم، وما بقي الحق عن مراده فيهم، واغتروا بسلامتهم في مدة ما أرخينا لهم عنان إمهالهم، ثم فاجأناهم بالعقوبة، فلم يُعجزوا الله في مراده منهم.

فلما رأوا شدة البأس، ووقعوا مذلة الخيبة واليأس تمنوا أن لو أعيدوا إلى الدنيا من الرأس. . . فقابلهم الله بالخيبة؛ وخرطهم في سلك من أبادهم من أهل الشرك والسخط.

(١) الصقع: الناحية من البلاد.

سورة فصلت

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

أفصح مَنْ عرف «بسم الله»، وما ربح مَنْ بقي عن «بسم الله».

مَنْ صحب لسانه «بسم الله» وصحب جَنَانَهُ «بسم الله» كفى له شفيعاً «بسم الله» إلى مَنْ يُعِيدُنَا بِذِكْرِ «بسم الله».

قوله جل ذكره: ﴿حَمْدٌ تَزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بحقي وحياتي، ومجدي في صفاتي وذاتي.. هذا تنزيلٌ من الرحمن الرحيم.

قوله جل ذكره: ﴿كَتَبْتُ فَصَّلْتُ ءَايَاتَكُمْ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

بَيَّنْتُ آيَاتَهُ ودَلَّالَتَهُ.

﴿وَقُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: الدليل منصوبٌ للكافة ولكن الاستبصار به

للعالمين - دون المُفْرِضِينَ الجاحدين.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَاعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

﴿بَشِيرًا﴾: لِمَنْ اخترناهم واصطفيناهم.

﴿وَنَذِيرًا﴾: لِمَنْ أقميناهم، وعن شهودِ آياتنا أعميناهم.

﴿فَاعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ عند دعائنا إياهم، فهم مُثَبِّتُونَ فيما أَرَدْنَاهُمْ، وعلى ذلك

(الوصف) عَلِمْنَاهُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ وَإِنْ أَذَانُنَا وَقَدْ أَرْسَلْنَا

رُسُلَنَا بِحُجَابٍ فَأَعْمَلُوا إِنَّا عَمِلُونَ﴾.

قالوا ذلك على الاستهانة والاستهزاء، ولو قالوه عن بصيرة لكان ذلك منهم

توحيداً، فمُتُوا بِالْمَقْتِ لِمَا فَقَدُوا من تحقيق القلب.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا

إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا ذُنُوبَكُمْ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

إنما أنا بشرٌ مثلكم في الصورة والبنية، والذات والخلقة. والفرقان بيني وبينكم

أنه يُوحَى إِلَيَّ أنما إلهكم إله واحد؛ فالخصوصية من قبيله لا من قبيلي، ولقد بَقِيْتُ

فيكم عمراً، ولقيتموني دهرًا.. فما عثرتُم مني على غير صواب، ولا وجدتُم في قولي شوب كذاب. وأمري إليكم أن استقيموا في طاعته، واستسلموا لأمره.... وطوبى لِمَنْ أجاب، والويل لِمَنْ أصرَّ وعاب!

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

﴿ءَامَنُوا﴾: شاهدوا، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: لازموا بساط العبودية.

﴿ءَامَنُوا﴾: شهدوا الحضرة، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: وقفوا بالباب.

﴿ءَامَنُوا﴾: حضروا، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: بعد ما حضروا لم ينصرفوا.

﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: غير منقوص؛ فأجرُ النفوسِ الجنة، وأجرُ القلوب الرضا بالله، وأجرُ الأرواح الاستئناس بالله، وأجرُ الأسرار دوام المشاهدة لله.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَنتَ كُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ءَٰدَآءَ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

خَلَقَ الزَّمَانَ ولم يكن قبله زمان، وَخَلَقَ الْمَكَانَ، ولم يكن قبله مكان؛ فالحق-سبحانه- كان ولا مكان ولا زمان، فهو عزيز لا يُدْرِكُهُ الْمَكَانُ، ولا يَمْلِكُهُ الزمان.

﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ ءَٰدَآءَ﴾... وكيف يكون الذي لم يكن ثم حصل نِدَا للذي لم يَزَلْ.. ولا يزال كما لم يزل! ذلك ربُّ العالمين.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْ فِيهَا رِيسَىٰ مِّنْ فَوْقِهَا وَيَبْرُكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لِيُنذِرَ﴾.

الجبَالُ أوتادُ الأرضِ في الصورة، والأولياءُ أوتادُ ورواسٍ للأرضِ في الحقيقة. ﴿وَيَبْرُكَ فِيهَا﴾: البركةُ الزيادة.. فيأتيهم المطرُ ببركاتِ الأولياء، ويندفع عنهم البلاء ببركات الأولياء.

﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾: وجعلها مختلفةً في الطَّعْمِ والصورة والمقدار. وأرزاقُ القلوبِ والسرائر كما مضى ذكره فيما تقدم.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

﴿أَسْتَوَىٰ﴾ أي قَصَدَ، وقيل فعل فعلاً هو الذي يعلم تعيينه.

ويقال رَبُّهُ أَطَارَهَا، وَرَكَّبَ فِيهَا نَجْمَهَا وَأَزَاهَا.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾: هذا على ضرب المثل؛ أي لا يتعسر عليه شيء مما خلقه، فله مِنْ خَلْقِهِ ما أَرَادَهُ. وقيل بل أحياهما وأعقلهما

وأنطقهما فقلنا ذلك . وجعل نفوس العابدين أرضاً لطاعته وعبادته، وجعل قلوبهم فلماً لنجوم علمه وشموس معرفته .

وأوتاد النفوس الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة . وفي القلوب ضياء العرفان، وشموس التوحيد، ونجوم العلوم والعقول والنفوس . والقلوب بيده يُصَرِّفُها على ما أراد من أحكامه .

قوله جل ذكره: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ .

زَيَّنَ السماء الدنيا بمصابيح، وزَيَّنَ وجه الأرض بمصابيح هي قلوب الأحباب؛ فأهل السماء إذا نظروا إلى قلوب الأولياء بالليل فذلك متنزههم كما أن أهل الأرض إذا نظروا إلى السماء استأنسوا برؤية الكواكب .

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ .
أي أخبر المكذبين لك أن لكم سلفاً . . فإن سلكتم طريقهم في العناد، وأبيتهم إلا الإصرار الحفناكم بأمثالكم .

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ﴾ .

ركنوا إلى قوة نفوسهم فخانتهم قواهم، واستمكنت منهم بلواهم .
﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ .
فلم يغادر منهم أحداً .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةٌ مِنَ الْغَمَامِ يَوْمَ كَانُوا يَكْسِبُونَ وَيَحْيَىٰ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ﴾ .

قيل إنهم في الابتداء آمنوا وصدقوا، ثم ارتدوا وكذبوا، فأجراهم مجرى إخوانهم في الاستتصال .

﴿وَيَحْيَىٰ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ : منهم من نجاهم من غير أن رأوا الناس؛ فعبروا القنطرة ولم يعلموا، وقوم كالبرق الخاطف وهم أعلاهم، وقوم كالراكض . . وهم أيضاً من الأكابر، وقوم على الصراط يسقطون ويردهم الملائكة على الصراط . فبعد وبعد . .
قوم بعدما دخلوا النار فمنهم من تأخذه إلى كعبه ثم إلى ركبته ثم إلى حقويه^(١)، فإذا

(١) الحقو: الخصر .

ما بلغت النار القلب قال الحق لها: لا تحرقى قلبه؛ فإنه محترق في. وقوم يخرجون من النار بعدما امتحشوا^(١) فصاروا حُمماً.

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَبُحُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَإِيَّاهُ تُرْجَعُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَشْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا بُحُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَبِّحْتُمْ مِنَ الْخَيْرِينَ ۚ﴾.

شهدت عليهم أجزاؤهم، ولم يكن في حسابهم أن الله سينطقها وهو الذي أنطق كل شيء، ولم يذُرْ بخلدتهم ما استقبلهم من المصير الأليم.

﴿ذلِكُمْ ظَنُّكُم﴾: وكذا من قعد في وصف الأقوال، ووسم موضعها، وحكم لنفسه أنه مُقَدَّمُ بلده. فلا يَسْمَعُ منه إلا ببرهانٍ ودليلٍ من حاله، فإن خالف الحال قوله فلا يُعتمد عليه بعد ذلك.

والظن بالله إذا كان جميلاً فلعمري يُقَابَلُ بالتحقيق، أما إذا كان نتيجة الغرور وغير مأذون به في الشرع فإنه يُرَدِّي صاحبه.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾.

فإن يصبروا على موضع الخسف فسيتقلبون إلى النار، وإن يستعتبوا - فعلى ما قال - فما هم بمعتبين.

﴿وَقِيَصْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾.

إذا أراد الله بعبده خيراً قَيَّضَ له قرناءً خير يُعِينُونَهُ على الطاعات، وَيُخِيلُونَهُ عليها، ويدعونه إليها. وإذا كانوا إخواناً سوء حملوه على المخالفات، ودَعَوْهُ إليها. ومن ذلك الشيطان؛ فإنه مُقَيَّضٌ مُسَلِّطٌ على الإنسان يوسوس إليه بالمخالفات. وشراً من ذلك النَّفْسُ. فإنها بشس القرين!! فهي تدعو العبد - اليوم - إلى ما فيه هلاكه، وتشهد عليه غداً بفعل الزلْمِ. فالنفس - وشراً قرين للمرء نفسه - والشياطين وشياطين الإنس.. كلها تُزَيِّنُ لهم ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من طول الأمل، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من نسيان الزَّلَلِ، والتسوية في التوبة، والتقصير في الطاعة.

(١) محشت النار جلده: أحرقت.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالنَّوْأ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

استولى على قلوبهم الجحْدُ والإنكارُ، ودام على العداوة فيهم الإصرارُ؛ فاحتالوا بكل وجه، وتواصوا فيما بينهم بألا يستمعوا لهذا القرآن لأنه يغلب القلوب، ويسلب العقول، وكل من استمع إليه صَبَا إليه .

وقالوا: إذا أَخَذَ محمدٌ في القرآن فأكثرُوا عند قراءته اللغو واللغَطَ حتى يقع في السهو والغَلَطَ .

ولم يعلموا أن الذي نُورَ قلبه بالإيمان، وأُيِّدَ بالفهم، وأُمِّدَ بالنصرة، وكُشفَ بسماع السرِّ من الغيب هو الذي يسمع ويؤمن . والذي هو في ظلمات جهله لا يدخل الإيمان قلبه، ولا يباشر السماع سيره .

قوله جل ذكره: ﴿فَلْيُذِقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرًا الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

اليومَ بإدامة الحرمان الذي هو الفراق، وغداً بالتخليد في النار التي هي الاحتراق .

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ الَّذِينَ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ .

لهم فيها الخزي والهوان بلا انقطاع ولا انصرام .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أُضِلُّوا مِنَ الْغَيِّ وَالْإِنْسِ نَجْمَهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ .

من الجن إبليس . ومن الإنس قابيل بن آدم فهو أول من سنَّ المعصية (حين قتل أخاه)^(١) .

﴿نَجْمَهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ ؛ هذه الإرادة وهذا التمني زيادة في عقوبتهم أيضاً؛ لأنهم يتأذون بتلك الإرادة وهذا التمني؛ فهم يجدون أنه لا نفع لهم من ذلك إذ لن يُجابوا في شيء، ولن يُمنع عنهم العذاب .

وفيد هذا الإخبار عنهم عن وقوع التبري فيما بينهم، فبعضهم يتبرأ من بعض، كما يفيد بأن الندم في غير وقته لا جدوى منه .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا عَلَىٰ هُمُ الْمَلِكَةُ إِلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَالْجَنَّةُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ .

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق .

«ثم» استقاموا: ثم حرف يقتضي التراخي، فهو لا يدل على أنهم في الحال لا يكونون مستقيمين، ولكنه معناه استقاموا في الحال، ثم استقاموا في المآل بأن استداموا إيمانهم إلى وقت خروجهم من الدنيا، وهو آخر أحوال كونهم مُكَلَّفِينَ.

ويقال: قالوا بشرط الاستجابة أولاً، ثم استبصروا بموجب الحجة، ولم يشبوا على وصف التقليد، ولم يكتفوا بالقالة دون صفاء الحالة.

«استقاموا»: الاستقامة هي الثبات على شرائط الإيمان بجملتها من غير إخلال بشيء من أقسامها. ويقال: هم على قسمين:

مستقيم (في أصول) التوحيد والمعرفة.. وهذه صفة جميع المؤمنين.

ومستقيم في الفروع من غير عصيان.. وهؤلاء مختلفون؛ فمنهم.. ومنهم، ومنهم.

﴿وَأَبَشِرُوا بِأَلْحَنَةِ﴾: الذي لهم البشارة هم كل من استقام في التوحيد، ولم يشرك. فله الأمان من الخلود. ويقال: مَنْ كان له أصل الاستقامة أَمِنَ من الخلود في النار، ومن كمال الاستقامة أَمِنَ من الوعيد من غير أن يلحقه سوء بحال.. ثم الاستقامة لهم على حسب أحوالهم؛ فمستقيم في عهده، ومستقيم في عقده، ومستقيم في جهده ومراعاة حدّه، ومستقيم في عقده وجهده وحدّه وحبّه. وودّه.. وهذا أتمهم.

ويقال: استقاموا على دوام الشهود وعلى انفراد القلب بالله.

ويقال: استقاموا في تصفية العقد ثم في توفية العهد ثم صحة القصد بدوام الوجد.

ويقال: استقاموا بأقوالهم ثم بأعمالهم، ثم بصفاء أحوالهم في وقتهم وفي مآلهم.

ويقال: أقاموا على طاعته، واستقاموا في معرفته، وهاموا في محبته، وقاموا بشرائط خدمته.

ويقال: استقامة الزاهد ألا يرجع إلى الدنيا، وألا يمنعه الجاه بين الناس عن الله. واستقامة العارف ألا يشوب معرفته حظ في الدارين فيحجبه عن مولاه. واستقامة العابد ألا يعود إلى فترته واتباع شهوته، ولا يتداخله رياء وتصنع واستقامة المُحِبِّ ألا يكون له أَرَبٌ من محبوبه، بل يكتفي من عطائه ببقائه، ومن مقتضى جوده بدوام عزّه ووجوده.

﴿أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾: إنما يكون الخوف في المستقبل من الوقت، من حلول

مكروه أو فوات محبوب فالملائكة يبشرونهم بأن كل مطلوب لهم سيكون، وكل محذور لهم لا يكون.

والحزن من حُزونه الوقت، ومن كان راضياً بما يجري فلا حزن له في عيشه. والملائكة يبشرونهم بأنهم لا حزنه في أحوالهم، وإنما هم الرُّوح والراحة.

﴿وَأَبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾: أي بحسن المآب، وبما وَعَدَ اللَّهُ من جميل الثواب.

والذي هو موعودٌ للأولياء بسفارة المَلَكِ موجودٌ اليومَ لخواصِّ عباده بعباء المَلَكِ؛ فلا يكون لأحدهم مطالعة في المستقبل من حاله بل يكون بحكم الوقت؛ فلا يكون له خوف؛ لأنَّ الخوف - كما قلنا من قبل - ينشأ من تطلع إلى المستقبل إمّا من زوالٍ محبوبٍ أو حصولٍ مكروه، وإن الذي بصفة الرضا^(١) لا حزنه في حاله ووقته.

ويمكن القول: ﴿لا تخافوا﴾ من العذاب، ﴿ولا تحزنوا﴾ على ما خلفتم من الأسباب، ﴿وَأَبشروا﴾ بحسن الثواب في المآب.

ويقال: ﴿لا تخافوا﴾ من عزل الولاية، ﴿ولا تحزنوا﴾ على ما أسلفتم من الجناية، «وَأَبشروا» بحسن العناية في البداية.

ويقال: ﴿لا تخافوا﴾ مما أسلفتم، ﴿ولا تحزنوا﴾ على ما خلفتم، ﴿وَأَبشروا﴾ بالجنة التي لها تكلفتم.

ويقال: ﴿لا تخافوا﴾ المذلة، ﴿ولا تحزنوا﴾ على ما أسلفتم من الزلة، ﴿وَأَبشروا﴾ بدوام الوصلة.

قوله جل ذكره: ﴿تَحْنُ أُولِيَائُكُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ نَزَّلْنَا مِنْ عَفْوَ رَحِيمٍ﴾.

الولاية من الله بمعنى المحبة، وتكون بمعنى النصرة.

وهذا الخطاب يحتمل أن يكون من قِبَلِ الملائكة الذين تنزلوا عليهم، ويحتمل أن يكون ابتداءً خطابٍ من الله.

والنصرة تصدر من المحبة؛ فلو لم تكن المحبة الأزلية لم تحصل النصرة في الحال.

ويقال: ﴿تَحْنُ أُولِيَائُكُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ بتحقيق المعرفة، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بتحصيل المغفرة.

ويقال ﴿تَحْنُ أُولِيَائُكُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ بالعناية، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بحسن الكفاية وجميل الرعاية.

(١) انظر الرسالة القشيرية ص ١٩٢، ١٩٧.

﴿وَفِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، بالمشاهدة، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾، بالمعابنة.

في الدنيا الرضاء بالقضاء، وفي الآخرة باللقاء في دار البقاء.

في الدنيا بالإيمان، وفي الآخرة بالغفران.

في الدنيا بالمحبة، وفي الآخرة بالقربة.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ﴾: الولاية نقد، وتحصيل

الشهوات وعد، فَمَنْ يَشْتَغَلْ بِنَقْدِهِ قَلَّمَا يَشْتَغَلْ بوعده.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾: أي ما تريدون، وتدعون الله ليعطيكم.

﴿تَزَلَّ﴾: أي فضلاً وعطاء، وتقدمة لما يستديم إلى الأبد من فنون الأفضال

ووجوه المبار.

﴿مِنْ عَفْوَ رَبِّهِمْ﴾: وفي ذلك مساع لآمال المذنبين؛ لأنهم هم الذين يحتاجون

إلى المغفرة، ولولا رحمته لما وصلوا إلى مغفرته.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ

الْمُسْلِمِينَ﴾.

أي لا أحد أحسن قولاً منه، ويكون المراد منه النبي ﷺ ويحتمل أن يكون

جميع الأنبياء عليهم السلام.

ويقال هم المؤمنون. ويقال هم الأئمة الذين يدعون الناس إلى الله.

وقيل هم المؤذنون. ويقال الداعي إلى الله هو الذي يدعو الناس إلى الاكتفاء

بالله وترك طالب العوض من الله، ويكمل أمره إلى الله، ويرضى من الله بقسمة الله.

﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾: أي كما يدعو الخلق إلى الله يأتي بما يدعوهم إليه.

ويقال هم الذين عرفوا طريق الله، ثم سلكوا طريق الله، ثم دعوا الناس إلى الله.

ويقال بل سلكوا طريق الله؛ فبسلوكهم وبمنازلاتهم عرفوا الطريق إلى الله، ثم

دعوا الخلق إليه بعدما عرفوا الطريق إليه.

﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾: المسلمون لحكمه هم الراضون بقضائه وتقديره.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي

يَبْغُكَ وَيَنْهَكُ عَدَاوَةً كَانَتْ وَلِيَّ حَيِّمٌ﴾.

ادفع بالخصلة التي هي أحسن السيئة يعني بالعفو عن المكافأة، وبالتجاوز

والصفح عن الزلة، وترك الانتصاف^(١).

(١) هذا من أمارات الفتوة. (انظر حديث القشيري عن الفتوة برسائله ص ٢٢٦، ٢٣١).

﴿فَإِذَا أَلَىٰ يَدَيْكَ وَيَتِمُّ عَدَاؤُكَ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ يُشَبِّهُ الْوَلِيَّ الْحَمِيمَ - وَلَمْ يَصِرْ وَلِيًّا مُخْلِصًا. . وهذا من جملة حُسْنِ الْأَدَبِ فِي الْخِدْمَةِ فِي حَقِّ صَحْبِكَ مَعَ اللَّهِ؛ تَحْلُمُ مَعَ عِبَادِهِ لِأَجْلِهِ.

وَمِنْ جَمْلَةِ حُسْنِ الْخُلُقِ فِي الصَّحْبَةِ مَعَ الْخَلْقِ أَلَّا تَنْتَقِمَ لِنَفْسِكَ، وَأَنْ تَعْفُو عَنْ خَصْمِكَ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا دُوَّ حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

لَا يَقُومُ بِحَقِّ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ إِلَّا مَنْ أَكْرَمَ بِتَوْفِيقِ الصَّبْرِ، وَرُقِّيَ عَنْ سَفْسَافِ الشِّيمِ إِلَى مُعَالِي الْأَخْلَاقِ. وَلَا يَصِلُ أَحْسَنَ الدَّرَجَاتِ إِلَّا مَنْ صَبَرَ عَلَى مَقَاسَةِ الشَّدَائِدِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

إِذَا اتَّصَلْتُ بِقَلْبِكَ نَزْعَاتُ الشَّيْطَانِ فَبَادِرْ بِذِكْرِ رَبِّكَ، وَارْجِعْ إِلَيْهِ قَبْلَ آيَةِ خَطْوَةٍ^(١). . فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَخَالَفْ أَوَّلَ هَاجِسٍ مِنْ هَوَاجِسِ الشَّيْطَانِ صَارَ فِكْرُهُ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَحْصُلُ الْعِزْمُ عَلَى مَا يَدْعُو إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ. . فَإِذَا لَمْ تَتَذَكَّرْ ذَلِكَ تَجْرِي الزَّلَّةُ، وَإِذَا لَمْ تَتَذَكَّرْ ذَلِكَ بِحُسْنِ الرَّجْعِي صَارَ فَسْقًا. . وَبِتَمَادِي الْوَقْتِ تَصْبِحُ فِي حَظَرِ كُلِّ آفَةٍ.

وَلَا يَتَخَلَّصُ الْعَبْدُ مِنْ نَزْعَاتِ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِصَدَقِ الْاسْتِعَانَةِ وَصَدَقِ الْاسْتِغَاثَةِ وَبِذَلِكَ يَنْجُو مِنَ الشَّيْطَانِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٦٥]؛ فَكَلِمَا أَزَادَ الْعَبْدُ فِي تَبَرُّيهِ مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، وَأَخْلَصَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ بِتَضَرُّعِهِ وَاسْتِعَانَتِهِ وَاسْتِعَاذَتِهِ زَادَ اللَّهُ فِي حِفْظِهِ، وَدَفَعَ الشَّيْطَانَ عَنْهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

أَوْضَحَ الْآيَاتِ، وَالْأَخَ الْبَيِّنَاتِ، وَأَزَاحَ عِلَّةَ مَنْ رَامَ الْوَصُولَ. وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَدَوْرَانُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ مِنْ جَمْلَةِ أَمَارَاتِ قُدْرَتِهِ، وَدَلَالَاتِ تَوْحِيدِهِ.

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ﴾ فِي عِلَالَتِهَا، ﴿وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ فِي ضِيَانِهِ، ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ فَقَدْ غَارَ^(٢) عَلَيْكَ أَنْ تَسْجُدَ لغيره.

(١) رُبَّمَا كَانَتْ (خَطْرَةً) فَالْقَشِيرِيُّ يَقُولُ بِرِسَالَتِهِ عِنْدَ حَدِيثِهِ عَنِ الْخَوَاطِرِ: الْخَوَاطِرُ خَطَابَاتُ تَرْدٍ عَلَى الضَّمَائِرِ، فَقَدْ يَكُونُ الْخَطَابُ بِإِلْقَاءِ مُلْكٍ أَوْ إِلْقَاءِ شَيْطَانٍ أَوْ أَحَادِيثِ نَفْسٍ أَوْ مِنَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَقَالُوا: كُلُّ خَاطِرٍ لَا يَشْهَدُ لَهُ ظَاهِرُهُ فَهُوَ بَاطِلٌ. (الرِّسَالَةُ الْقَشِيرِيَّةُ ص ٨٣، ٨٤).

(٢) قَالَ الْقَشِيرِيُّ بِرِسَالَتِهِ عِنْدَ حَدِيثِهِ عَنِ الْغِيَرَةِ: الْغِيَرَةُ كِرَاهِيَةٌ مُشَارَكَةِ الْآخَرِينَ، وَإِذَا وَصَفَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ بِالْغِيَرَةِ، فَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ لَا يَرْضَى بِمُشَارَكَةِ غَيْرِهِ مَعَهُ، فِيمَا هُوَ حَقٌّ لَهُ مِنْ طَاعَةِ عَبْدِهِ. (الرِّسَالَةُ الْقَشِيرِيَّةُ ص ٢٥٥).

والشمس - وإنِ عَلَتْ، والقمر - وإنِ حَسُنُ . . فلا جُلِكَ خلقناهما، فلا تسجد لهما، واسجد لنا.

ويقال: خَلَقَ الملائكة - ومع كثرة عبادتهم، ومع تقدمهم في الطاعة - قال لهم: اسجدوا لآدم، وحين امتنع واحد منهم لُعِنَ إلى الأبد. وقال لأولاد آدم العصاة المذنبين: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ فشتان ما هما!! .

والحق - سبحانه وتعالى - يأمر بك بعبادة وجهك عن الشمس والقمر . . وأنت لأجلِ كُلِّ حَظٍّ خَسِيسٍ تنقل قَدَمَكَ إلى كُلِّ أَحَدٍ؛ وتدخل بمحيالك على كُلِّ أَحَدٍ!!
قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ .

أي إن تَرَفَّعَ الكفار فلا خَلَلَ؛ لأن الحق غني عن كل أحد، ثم إن الملائكة - الذين هم سكان الآخر - يسجدون له بالليل والنهار، وهم لا يسأمون من عبادته .
قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُجِي الْمَوْتِ إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

الأرض تكون جَذْبَةً يابسة في الشتاء، فإذا نزل عليها المطر اهتزت بالنبات واخضرت وكذلك القلوب إذا خشعت لاستشعارها بما أُلْمِتْ به من الذنوب أقبل عليها الحق سبحانه، فظهرت فيها بركات الندم، وعفا عن أربابها ما قصرُوا في صِدْقِ القَدَمِ. وكذلك إذا وقعت للعبد فترة في معاملاته، أو غيبة عن بساط طاعته، ثم تعمَّده الحق - سبحانه - بما يدخل عليه من التذكر تظهر في القلب أنوار الوفاق، فيعود إلى مألوف مقامه، ويرجع عود سداذه غَضًا طرياً، ويصير شجر وفاقه - بعد ما أصابته الجدوبة - بماء العناية مستقيماً.

وكذلك إذا بدت لأهل العرفان وقفة، أو حدثت لهم من جرء سوء أدبٍ بَدَرَ منهم حجةٌ ثم نظر الحق - سبحانه - إليهم بالرعاية . . اهتزت رياض أنسهم، واخضرت مشاهد قريهم، وانهزمت وفودٌ وقفتهم .
﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُجِي الْمَوْتِ إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ : إن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادرٌ على إحياء النفوس بالحشر والنشر. وكذلك هو قادر على إحياء القلوب بنور العناية بعد الفترة والحجبة .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي بآيَاتِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

سيلقون من العذاب ما يستوجبونه . . فليعملوا ما شاءوا . . فليسوا . . يسعون إلا في ذمهم، وليسوا بمشون إلا إلى هلاكهم بأقدامهم .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَنُتِبَ عَزِيزٌ﴾.

الجواب محذوف ومعناه: بقوا عتًا، ووقعوا في هوانهم وشقوا إلى الأبد.

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَنُتِبَ عَزِيزٌ﴾: كتاب عزيز لا مثل له حيث قد عجزوا عن الإتيان بمثله. كتاب عزيز غالب لشبه المبتدعين والكفار.

عزيز لا يقدر على معارضة أحد.. من قولهم أرض عزاز.

كتاب عزيز لأنه كلام رب عزيز إلى رسول عزيز بسفارة ملك عزيز إلى أمة عزيزة.

كتاب عزيز على المؤمنين لأنه كتاب حبيبهم.. وكتاب الحبيب إلى الحبيب عزيز.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

أي لا ينقضه كتاب آخر لا مما تقدمه من الكتب، ولا مما يأتي من بعده.. أي لا كتاب بعده، ولا نسخ له.

ويقال لا يدفع^(١) معناه لفظه، ولا يخالف لفظه معناه..

ويقال لا يقدر أحد أن يأتي بمثله.

قوله جل ذكره: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾.

أصول التوحيد لا تختلف بالشرائع؛ فجوهرها في الأحكام واحد: هو أنه تجب موافقة أوامره، واجتناب مزاجره. ثم إن الله تعالى قال في كل كتاب، وشرع لكل أمة أن يعرفوا أنه للمطيعين مثيب، وللكافرين ذو عذاب شديد.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَبًا لَقَالُوا لَوْلَا نُفُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَتَعْجَبُ وَعَرَبٌ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۚ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

أخبر أنه أراح العلة أن يعرف صدق الدعوة، وصحة الشريعة.

ثم وصف الكتاب بأنه شفاء للمؤمنين، وسبب شقاء للكافرين.

وهو شفاء حيث استراحوا به عن كد الفكر وتحير الخواطر.

وهو شفاء لضيق صدور المريدين لما فيه من التنعم بقراءته، والتلذذ بالتفكير فيه.

(١) دفع الشيء: نجاه ورده بقوة أو شاقه.

وهو شفاء لقلوب المحبين من لواعج الاشتياق لما به تمنى لطف المواجهين .
وهو شفاء لقلوب العارفين بما يتوالى عليها من أنوار التحقيق ، وأثار خطاب الرب العزيز .

﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ : هم لا يسمعون بقلوبهم من الحق ، ولا يستجيبون . . بقوا في ظلمات الجحد والجهل .

﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ : لا يزدادون على مر الأيام إلا ضللاً .
قوله جل ذكره : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ .

آتينا موسى التوراة ، وأرسلناه إلى قومه ، فاختلّفوا في أمره . . فمن كحلنا سرّه بنور التوحيد صدّقه ، ومن أعميناه عن مواقع البيان قابله بالتكذيب وجحده .

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ وهي أن عقوبتهم في النار بعد قيام القيامة لعجلنا استئصالهم ، ولأذقناهم في الحال وبالهم .

قوله جل ذكره : ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ .
«لنفسه» لأن النفع عائد إليه . ومن عمل عملاً سيئاً فإنما ظلّم نفسه ، وأساء إليها ؛ لأنه هو الذي يقاضي ضرّه ويلاقي شرّه .

قوله جل ذكره : ﴿إِلَيْهِ يُرْجَعُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ آيُنْ شُرَكَاءُى قَالُوا آءَذْنُكَ مَا مِثْلُ شَهِيدٍ﴾ .

لما استعجلوا وقالوا : متى تقوم هذه القيامة التي يتوعّدنا بها؟ قال الله تعالى : إنّ علم القيامة ينفرد به الحق فلا يعلمه غيره ، فكما لا يعلم أحد ما الذي يخرج من الأشجار من الثمار ، وما الذي تنطوي عليه أرحام النساء من أولادها ذكوراً وإناثاً ، وما هم عليه من أوصاف الخلقة ، وما يحصل من الحيوانات من نتائجها - فلا يعلم هذه الأشياء إلا الله - فكذلك لا يعلم أحد متى تقوم القيامة .

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ آيُنْ شُرَكَاءُى﴾ : يتبرؤون من شركائهم ، ولكن في وقت لا تنفعهم كثرة ندمهم وبكائهم .

قوله جل ذكره : ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ .
لا يمل الإنسان من إيوادة النفع والسلامة ، وإنّ مَسَّهُ الشرُّ فيئوس لا يرجو زواله لعدم علمه بربه ، وانسداد الطريق على قلبه في الرجوع إليه^(١) .

(١) الآية (٤٨) لم ترد .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْتُهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ صَرَاءٍ مَسَّيْتُهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ فَأَنِمْ وَلَيْنَ رُجِئْتُ إِلَيْكَ رَجِئْتُ إِنِّي لِي عِنْدَهُمُ لِلْحُسْنَى فَلَتُنَيِّتَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَمَّا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

لئن كشفنا عنه البلاء، وأوجبنا له الرجاء لادعاه استحقاقاً أو اتفاقاً، وما اعتقد أن ذلك منّا فضل وإيجاب.

ويقول: لو كان حشر ونشر لكان لي من الله لطف وخير، وغداً يعلم الأمر، وأنه بخلاف ما توهم. . . وذلك عندما نذيقه ما يستوجب من عذاب.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾.

هو لا يميز بين البلاء والعتاء؛ فكثير مما يتوهمه عطاء هو مكر واستدراج. . . وهو يستديمه. وكثير مما فضل وصرف وعطاء يظنه من البلاء فيعافه ويكرهه.

ويقال إذا أنعمنا عليه صاحبه بالبطر، وإذا أبلينا قائله بالضجر.

ويقال إذا أنعمنا عليه أعجب بنفسه، وتكبر مختالاً في زهوه، لا يشكر ربه، ولا يذكر فضله، ويتباعد عن بساط طاعته.

والمستغني عنّا يهيم على وجهه، وإذا مسه الشر فذو دعاء كثير، وتضرع عريض، وابتهاج شديد، واستكشاف دائم.

ثم إذا كشفنا عنه ذلك فله إلى عثوه وتبوء عود، ولسوء طريقته في الجحود إعادة.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ سَتَرْنَاهُمْ عَائِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَقٌّ يَبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾.

﴿سَتَرْنَاهُمْ﴾: السين للاستقبال؛ أي سيظهر لهم من الآيات، ومن الأحداث التي تجري في أحوال العالم، وما سيحل بهم من اختلاف الأمور ما يبين لهم من خلاله أن هذا الدين حق، وأن هذا الكتاب حق، وأن محمداً - ﷺ - حق، وأن المجري لهذه الآيات والأحداث والأمور والمنشئ له هو الحق - سبحانه.

ومن تلك الآيات ما كان من قهر الكفار، وغلو الإسلام، وتلاشي أعداء الدين.

ويقال من تلك الآيات في الأفق اختلاف أحكام الأعيان مع اتفاق جواهرها في

التجانس . . وهذه آيات حدوثِ العالم، واقتضاء المُحدَثِ لصفاته .

﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ : من أمارات الحدوثِ واختلافِ الأوصاف ما يمكنهم إدراكه .

ويقال : ﴿فِي الْأَفَاقِ﴾ للعلماء، ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ لأهل المعرفة مما يجدونه من العقاب إذا أَلْمُوا بِذَنْبٍ، ومن الثواب إذا أخلصوا في طاعة .

وكذلك ما يحصل لهم من اختلاف الأحوال من قبضٍ وبسط، وجمع وفَرَقٍ، وحجبٍ وجذبٍ . . وما يجدونه بالضرورة في معاملاتهم ومنازلاتهم .

﴿أَوَلَمْ يَكُفَّ بِرَبِّكَ أَنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ : هو الكافي، ولكنهم - أي الكفار - في مِرْيَةٍ من لقاء ربهم في القيامة . والإشارة فيه : أن العوالمَ لفي شكٍ من تجويز ما يُكَاشَفُ به أهلُ الحضورِ من تعريفات السرِّ .

﴿أَلَا إِنَّكُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُونَ﴾ : عالمٌ لا يَخْفَى عليه شيء .

سورة الشورى

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسِّرْ اللَّهُ الْكَفْرَ الْزَيْمَ﴾.

سلوة العاصين في سماع رحمة الله، وحظوة العابدين في رجائهم نعمة الله، وراحة الفقراء في رضاهم بقسمة الله. لكل من حاله نصيب، وكل في مُتَنَفِّسِهِ مُصِيبٌ.
قوله جلّ ذكره: ﴿حَمْدَ عَسَقَ﴾.

الحاء مفتاح اسمه: حلیم وحافظ وحكيم، والميم مفتاح اسمه: مَلِكٌ وماجد ومجيد ومثان ومؤمن ومهيمن، والعين مفتاح اسمه: عالم وعدل وعالٍ، والعين مفتاح اسمه: سيّد وسميع وسريع الحساب، والقاف مفتاح اسمه قادر وقاهر وقريب وقدير وقُدوس.
قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

أقسم بهذه الأسماء وهذه الحروف إنه كما أوحى إلى الذين مِنْ قَبْلِكَ كذلك يوحى إليك العزيز الحكيم، كما أوحى إليهم العزيز الحكيم.
قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.
له ما في السموات وما في الأرض مُلْكاً.

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾: عُلُوّه وعظمته استحقاقه لأصاف المجد؛ أي وجوب أن يكون بصفات المجد والجلال.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

أي تكاد السموات تتشقق مِنْ عظمة مَنْ فوقهن وهو الله تعالى، والفوقية هنا فوقية رتبة؛ وذلك من شدة هيبتهن من الله.

ويقال مِنْ ثِقَلِ الملائكة الذين هم فوق السموات لكثرتهم. وفي الخبر: «أطت^(١) السماء أطاً وحق لها أن تئط؛ ما مِنْ موضع قَدِمَ في السموات إلا وعليه قائم أو راكم أو ساجد»^(٢).

(١) الأطيع: صوت الرجل والإبل من ثقل أحمالها. (اللسان ٧/٢٥٦ مادة: أطم).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في المسند ١٧٣/٥.

ويقال إنه على عادة العرب إذا أخبروا عن شيء قالوا كادت السموات تنشق له.. وهنا لُفِّح قول المشركين ولجراتهم على الله تعالى، ولِعِظَم قولهم كادت السموات تنشق.. قال تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخِشْرُ الْجِبَالِ هَذَا أَنْ دَعَوْنَا لِلْإِخْمَنِ وَلَئِذَا ﴿[مريم: ٨٩ - ٩١] وعلى هذا التأويل: ﴿يَنْفَطَرْنَ مِنْ قُوفِهِنَّ﴾ أي إلى أسفلهن، أي تنفطر جملتها.

ومع أن أولاد آدم بهذه الصفة إلا أن الملائكة يسبحون بحمد ربهم لا يفترون، ويستغفرون لمن في الأرض.. ثم قال: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: أي يغفر لهم مع كثرة عصيانهم. وفي الوقت الذي يرتكب فيه الكفار هذا الجُرم العظيم بسبب شُرْكهم فإنه - سبحانه - لا يقطع رِزْقَه ونفَعه عنهم - وإن كان يريد أن يعذبهم في الآخرة.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾.

المشركون اتخذوا الشياطين أولياء من دونه، وذلك بموافقتهم لها فيما توسوس به إليهم. وليس يخفى على الله أمرهم، وسيعذبهم بما يستوجبونه. ولست - يا محمد - بمُسَلِّطٍ عليهم.

وفي الإشارة: كُلُّ مَنْ يَعْمَلْ بِمُتَابَعَةِ هَوَاهُ وَيَتْرَكَ اللَّهَ حَدًّا أَوْ يَنْقُضَ لَهُ عَهْدًا فَهُوَ يَتَّخِذُ الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ، والله يعلمه، ولا يخفى عليه أمره، وعلى الله حسابه.. ثم إن شاء عذبه، وإن شاء غَفَرَ له.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾.

أنزلنا عليك قرآنًا يتلى بلغة بالعرب لتخوف به أهل مكة والذين حولها. وجميع العالم مُخْلِيقٌ بالكعبة ومكة لأنها سرُّ الأرض.

﴿وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ﴾ تنذرهم بيوم القيامة. والإنذارُ الإعلامُ بموضع المخافة. ويوم الجمع - وهو اليوم الذي يُجْمَعُ فيه الخَلْقُ كُلُّهُمْ، ويُجْمَعُ بين المرء وعمله، وبين الجسد وروحه وبين المرء وشكله في الخير والشر - لا شك في كونه. وفي ذلك اليوم فريق يُبْعَثُ إلى الجنة وفريقٌ يحصل في السعير. وكما أنهم اليوم فريقان؛ فريق في راحة الطاعات وحلاوة العبادات، وفريق في ظلمة الشرك وعقوبة الجحد.. فكذلك غدًا؛ فريق هم أهل اللقاء، وفريق هم أهل الشقاء والبلاء.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

إن أراد أن يجمعهم كلهم على الهدى والرشاد لم يكن مانع . . وإذا لازين لهم . ولو شاء أن يجمعهم كلهم على الفساد والعناد لم يكن دافع - وإذا لاشين منه . وحيث خلَقهم مختلفين - على ما أراد - فلا مبالاة بهم . . إنه إله واحد جبارٌ غيرُ مأمور، متولٍ جميع الأمور؛ من الخير والشر، والنفع والضرر . هو الذي يحيي النفوس والقلوب اليومَ وغداً، ويميت النفوس والقلوب اليومَ وغداً . . وهو على كل شيء قدير^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ .

﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾: أي إلى كتاب الله، وسُنَّة نبيه ﷺ، وإجماع الأئمة، وشواهد القياس . والعبرة بهذه الأشياء فهي قانون الشريعة، وجمليتها من كتاب الله؛ فإن الكتاب هو الذي يدل على صحة هذه الجملة .

ويقال: إذا لم تهتدوا إلى شيءٍ وتعارضت منكم الخواطر فدَعُوا تدبيركم، والتجئوا إلى ظلِّ شهود تقديره، وانتظروا ما ينبغي لكم أن تفعلوه بحكم تيسيره .

ويقال إذا اشتغلت قلوبكم بحديث أنفسكم؛ لا تدرون أبا لسعادة جرى حُكْمُكم أم بالشقاوة مضى اسمُكم؟ فكلُّوا الأمر فيه إلى الله، واشتغلوا في الوقت بأمر الله دون التفكير فيما ليس لكم سبيل إلى علمه عن عواقبكم .

قوله جل ذكره: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ .

جَلَّوْا لكم من أنفسكم «أزواجاً»: أي أشكالا؛ فَخَلَقَ حواءَ مِنْ آدَمَ . وَخَلَقَ - بسبب بقاء التناسل - جميع الحيوانات أجناساً .

﴿يَذُرُّكُمْ﴾: يُكثِّرُ خَلْقَكُمْ . «فيه» الهاء تعود إلى البطن أي في البطن، وقيل: في الرِّجَم، وقيل: في التزويج .

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾: لأنه فاطر السموات والأرض، ولأنه لا مثل يضارعه، ولا شكل يشاكله . والكاف في ليس «كمثله» صلة أي ليس مثله شيء . ويقال: لفظ «مثل» صلة؛ ومعناه ليس كهو شيء . ويقال معناه ليس له مثل؛ إذ لو كان له مثل لكان كمثله شيء وهو هو، فلمَّا قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فمعناه ليس له مثل، والحق لا شبيه له في ذاته ولا في صفاته ولا في أحكامه .

وقد وقع قومٌ في تشبيه ذاته بذات المخلوقين فوصفوه بالحدِّ والنهاية والكون في

(١) الآية (٩) لم ترد .

المكان، وأقبح قولاً منهم مَنْ وصفوه بالجوارح والآلات؛ فظنوا أن بَصَرَهُ في حذقة، وَسَمْعَهُ في عضو، وقدرته في يد... إلى غير ذلك.

وقومٌ قاسوا حُكْمَهُ على حُكْمِ عبادِهِ؛ فقالوا: ما يكون من الخَلْقِ قبيحاً فمَنه قبيح، وما يكون من الخَلْقِ حسناً فمَنه حَسَنٌ!! وهؤلاء كلهم أصحاب التشبيه - والحقُّ مستحقٌّ للتنزيه دون التشبيه، مستحقٌّ للتوحيد دون التحديد، مستحقٌّ للتحصيل دون التعطيل والتمثيل.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

«مقاليد» أي مفاتيح، والمفاتيح للخزائن، وخزائنه مقدوراته. وكما أن في الموجودات معادن مختلفة فكذلك القلوب معادن جواهر الأحوال؛ فبعض القلوب معادن المعرفة، وبعضها معادن المحبة، وبعضها للشوق، وبعضها للأُنس... وغير ذلك من الأحوال كاللوحيد والتفريد والهيبة والرضا. وفائدة التعريف بأن المقاليد له: أن يقطع العبد أفكاره عن الخَلْق، ويتوجّه في طلب ما يرد من الله الذي ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾، والذي هو ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: يوسّع ويضيّق أرزاقَ النفوس وأرزاقَ القلوب حسبما شاء وحكّم وعَلِمَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾﴾.

﴿شَرَعَ﴾: أي بيّن وأظهر. ﴿مِنَ الدِّينِ﴾ أراد به أصول الدين؛ فإنها لا تختلف في جميع الشرائع، وأمّا الفروع فمختلفة، فالآية تدلُّ على مسائل أحكامها في جميع الشرائع واحدة.

ثم بيّن ذلك بقوله: ﴿﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾﴾... وفي القصة أن تحريم البنات والأخوات إنما شرّع في زمان نوح عليه السلام.

قوله جلّ ذكره: ﴿﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾﴾.

يعني أنهم أضروا على باطلهم بعد وضوح البيان وظهور البرهان حين لا عذر ولا شك. ﴿﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾﴾... وهو أنه حكّم بتأخير العقوبة إلى يوم القيامة لعجل لهم ما يتمنونه...

قوله جلّ ذكره: ﴿﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَفْوَاهَ مُّوَلِّ قُلْ ءَامَنْتُ

يَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمُ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾

أي أَدْعُ إِلَى هَذَا الْقُرْآنِ، وَإِلَى الدِّينِ الْحَنِيفِيِّ، وَاسْتَقِيمْ فِي الدَّعَاءِ، وَفِي الطَّاعَةِ. أَمَرَ الْكُلَّ مِنَ الْخَلْقِ بِالْإِسْتِقَامَةِ، وَأَفْرَدَهُ بِذِكْرِ التَّزَامِ الْإِسْتِقَامَةِ.

ويقال: الألف والسين والتاء في الاستقامة للسؤال والرغبة؛ أي سَلْ مِنِّي أَنْ أَقْسِمَكَ، ﴿وَلَا تَلْبِغْ أَمْوَالَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ يَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾: أُمِرْتُ بِالْعَدْلِ فِي الْقَضِيَّةِ، وَبِأَنْ أُعْلِمَ أَنَّ اللَّهَ إِلَهُ الْجَمِيعِ، وَأَنَّهُ يَحَاسِبُ غَدَاً كَلَاً بِعَمَلِهِ، وَبِأَنْ الْحُجَّةَ لِلَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَبِأَنْ الْحَاجَةَ لَهُمْ إِلَى مَوْلَاهُمْ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جُمُوعُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

يجادلون في الله من بعد ما استُجِيبَ لدعاء محمد ﷺ يوم بدرٍ عَلَى الْمُشْرِكِينَ. حُجَّةٌ هَؤُلَاءِ الْكَفَّارِ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ لِأَنَّهُمْ يَحْتَجُّونَ بِالْبَاطِلِ، وَهُمْ مِنَ اللَّهِ مُسْتَوْجِبُونَ لِلْعَنَةِ وَالْعِقَابِ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾.

أَنْزَلَ الْكِتَابَ، وَأَنْزَلَ الْحُكْمَ بِالْمِيزَانِ أَيِ بِالْحَقِّ.

وَيَقَالُ أَلْهَمَهُمْ وَزَنَ الْأَشْيَاءَ بِالْمِيزَانِ، وَمُرَاعَاةَ الْعَدْلِ فِي الْأَحْوَالِ.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾: يَزْجُرُهُمْ عَنْ طَوْلِ الْأَمَلِ، وَيُنَبِّهُهُمْ إِلَى انْتِظَارِ هَجُومِ الْأَجَلِ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارِقُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ وَمَا بَعْدَهُ مِنْ أَحْكَامِ الْآخِرَةِ، وَيَكُونُ أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ؛ فَلَا يَتَمَنُّونَ الْمَوْتَ حَذَرَ الْإِبْتِلَاءِ، وَلَكِنْ إِذَا وَرَدَ الْمَوْتُ لَمْ يَكْرَهُوهُ، وَكَانُوا مُسْتَعِدِينَ لَهُ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾.

﴿لَطِيفٌ﴾ أَيِ عَالِمٍ بِدَقَائِقِ الْأُمُورِ وَغَوَامِضِهَا. وَاللَّطِيفُ هُوَ الْمُلَطِّفُ الْمُحْسِنُ... وَكِلَاهُمَا فِي وَصْفِهِ صَحِيحٌ. وَاللَّطْفُ فِي الْحَقِيقَةِ قُدْرَةُ الطَّاعَةِ، وَمَا يَكُونُ سَبَبَ إِحْسَانِهِ لِلْعَبْدِ الْيَوْمَ هُوَ لُطْفٌ مِنْهُ بِهِ.

وأكثرُ ما يستعمل اللطف - في وصفه - في الإحسان بالأمور الدينية .

ويقال : خَاطَبَ العابدين بقوله : ﴿لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ : أي يعلم غوامض أحوالهم من دقيق الرياء والتصنع لئلا يُعْجَبُوا بأحوالهم وأعمالهم . وخاطَبَ العُصاة بقوله : «لطف» : لئلا يياسوا من إحسانه .

ويقال : خاطَبَ الأغنياء بقوله : «لطف» : ليعلموا أنه يعلم دقائق معاملاتهم في جمع المال من غير وجهه بنوع تأويل ، وخاطَبَ الفقراء . بقوله : «لطف» أي أنه مُحْسِنٌ يرزق من يشاء .

ويقال : سماعُ قوله : «اللَّهُ» يوجبُ الهيبةَ والفرع ، وسماعُ «لطف» يوجبُ السكونَ والطمأنينة . فسماعُ قوله : «اللَّهُ» أوجب لهم تهويلاً ، وسماعُ قوله : «لطف» أوجب لهم تأملاً .

ويقال : اللطيفُ مَنْ يعطي قَدَرَ الكفايةِ وفوق ما يحتاج العبدُ إليه .

ويقال : مَنْ لُطِفَ بالعبدِ عِلْمُهُ بأنه لطيف ، ولولا لُطْفُهُ لَمَا عَرَفَ أنه لطيف .

ويقال : مِنْ لُطْفِهِ أنه أعطاه فوق الكفاية ، وكَلَّفَهُ دون الطاقة .

ويقال : مِنْ لُطْفِهِ بالعبدِ إِبْهَامُ عاقبته عليه ؛ لأنه لو علم سعادته لا تَكَلَّ عليه ، وأَقْلَ عَمَلِهِ ولو عَلِمَ شقاوته لا يَسْ وَلَتَرَكَ عَمَلَهُ . فأرادَه أن يستكثرَ في الوقت من الطاعة .

ويقال : من لطفه بالعبد إخفاء أجله عنه ؛ لئلا يستوحش إن كان قد دنا أجله .

ويقال : من لطفه بالعبد أنه يُنْسِيهِ ما عمله في الدنيا من الزلة ؛ لئلا يتنصص عليه العيشُ في الجنة .

ويقال : اللطيفُ مَنْ نُورُ الأسرارِ ، وحفظ على عبده ما أودَعَ قلبه من الأسرار ، وغفر له ما عمل من ذنوبٍ في الإعلان والإسرار .

قوله جل ذكره : ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَمْ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤَتْهِ مِنْهَا وَمَا لَمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ .

﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ : نَزَدَهُ - اليومَ - في الطاعات توفيقاً ، وفي المعارف وصفاء الحالات تحقيقاً . وَنَزَدَهُ في الآخرة ثواباً واقتراباً وفنونَ نِجَاةٍ وصنوفَ درجاتٍ .

﴿وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ : مكتفياً به نؤته منها ما يريد ، وليس له في الآخرة نصب .

قوله جل ذكره : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُصِّحَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

﴿مَا لَمْ يَأْذُنْ بِهِ اللَّهُ﴾: أي ليس ذلك مما أمَرَ به، وإنما هو افتراء منهم .
 ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَضْلِ﴾: أي ما سبق به الحُكْمُ بتأخير العقوبة إلى القيامة . .
 قوله جلّ ذكره: ﴿تَرَى الْفَالِغِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.

إذا حصل الإجماع فإلى وقتٍ ما لا يُعَذَّبُهُم الله في الغالب، ولكنه لا محالة يعذبهم . وربما يثبُت ذلك لبعض أصحاب القلوب فيتأسفون، ويعلمون أنّ ذلك من الله لهم مُعْجَلٌ قد أصابهم، أمّا الكفار . . فعداء يُشْفِقُونَ مما يقع بهم عند ما يقرؤونه في كتابهم، لأنّ العذاب - لا محالة - واقعٌ بهم .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾: في الدنيا جنان الوصلة، ولذاذة الطاعة والعبادة، وطيب الأُنس في أوقات الخلوة . وفي الآخرة في روضات الجنة: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: إنّ أرادوا دوام اللطف دأماً لهم، وإنّ أرادوا تمام الكشف كان لهم . . ذلك هو الفضل الكبير .

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ .
 ذلك الذي يُبَشِّرُ اللَّهُ عباده قد مضى ذكره في القرآن متفرقاً؛ من أوصاف الجنة وأطايها، وما وعد الله من المثوبة . . ونحو ذلك .

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ لَا أَتْلُوهُ عَلَيْهِ أَجراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ .
 قل - يا محمد - لا أسألكم عليه أجراً . مَنْ بَشَّرَ أحداً بالخير طَلَبَ عليه أجراً، ولكن الله - وقد بَشَّرَ المؤمنين على لسان نبيه بما لهم من الكرامات الأبدية - لم يطلب عليه أجراً؛ فالله - سبحانه - لا يطلب عِوَضاً، وكذلك نبيه - ﷺ - لا يسأل أجراً؛ فإن المؤمن قد أخذ من الله خُلُقاً حَسَناً . . فمتى يطلب الرسول منهم أجراً؟! وهو - صلوات الله عليه - يشفع لكل مَنْ آمَنَ به، والله - سبحانه - يعطي الثواب لكل مَنْ آمَنَ به .

﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾: أراد أن تثبت مودتك في القربى؛ فتودّ مَنْ يتقرب إلى الله في طاعته .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ يَتَرَفَّ حَسَنَةً نَّزِدَ لَهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ .
 تضعيف الثواب في الآخرة للواحد من عشرة إلى سبعمائة . . هذه هي الزيادة .
 ويقال: الزيادة هي زيادة التوفيق في الدنيا .

ويقال: إذا أتى زيادة في المجاهدة تفضّلنا بزيادة . . وهي تحقيق المشاهدة .

ويقال مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً الْوُضَائِفِ نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنُ اللَّطَائِفِ .

ويقال : تلك الزيادة لا يصل إليها العبدُ بوسعه ؛ فهي مما لا يدخل تحت طَوْقِ الْبَشَرِ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشِإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُمْ عَلَيْهَا يَصُدُّونَ ﴾ .

أي أُنْكَ إِنَّ افْتَرَيْتَهُ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِكَ ، ولكنك لم تكذب على ربك .
ومعنى الآية أَنَّ اللَّهَ يَتَصَرَّفُ فِي عِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ : مِنْ إِبْعَادٍ وَتَقْرِيبٍ ، وَإِدْنَاءٍ وَتَبْعِيدٍ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

﴿ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ الألف واللام للجنس مطلقاً ، وهي هنا للعهد ؛ أي تلك السيئات التي تكفي التوبة المذكورة في الشريعة لقبولها ؛ فإنه يعفو عنها إذا شاء .
﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ : من الأعمال على اختلافها .

وهو «الذي» . . : الذي من الأسماء الموصولة التي لا يتم معناها إلا بِصَلَةٍ ، فهو قد تعرّف إلى عبادته على جهة المدح لنفسه بأنه يقبل توبة العبد ؛ فالزَّلَّةُ - وإن كانت توجب للعبد ذميمة الصِّفَةِ - فإن قبولها يوجب للحق حميد الاسم .

ويقال : قوله : «عباده» اسم يقتضي الخصوصية (لأنه أضافه إلى نفسه)^(١) حتى تمتئ كثير من الشيوخ أن يحاسبه حساب الأولين والآخرين لعله يقول له : عبدي . ولكن ما طلبوه فيما قالوه موجود في ﴿ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ ؛ وإذا فلا ينبغي لهم أن يتمنوا كذلك ، وعليهم أن أن يتوبوا لكي يصلوا إلى ذلك .

ويقال لما كان حديث العفو عن السيئات ذكرها على الجمع والتصريح فقال : ﴿ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ . ثم لما كان حديث التهديد قال : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ فذكره على التلويع ؛ فلم يقل : ويعلم زلتك - بل قال ويعلم «ما» تفعلون ، وتدخل في ذلك الطاعة والزَّلَّةُ جميعاً .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَسَتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَبِزَيْدُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ .

(أي إذا دَعَوُهُ استجاب لهم)^(٢) بعظيم الثواب في الآخرة .

﴿ وَبِزَيْدُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ يقول المفسرون من أهل السُّنَّة في هذه الزيادة إنها الرؤية .

(٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق .

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق .

ذَكَرَ التَّوْبَةَ وَأَهْلَهَا، وذكر العاصين بوصفهم، ثم ذكر المطيعين الذين آمنوا وعملوا الصالحات. . فلَمَّا وصل إلى الزيادة - التي هي الرؤية - قال: «ويزيدهم» على الجمع؛ والكنية إذا تَلَثَّ مذكوراتٍ رجعت إليها جميعاً؛ فيكون المعنى أن الطاعات في مقابلها الدرجات، وتكون بمقدارها في الزيادة والنقصان، وأمَّا الرؤية فسبيلها الزيادة والفضل. . والفضل ليس فيه تمييز.

ويقال: لَمَّا ذكر أن التائبين تُقْبَلُ توبتهم، وَمَنْ لم يَثْبُ غفر زلته، وأنَّ المطيعين لهم الجنة. . فربما خَطَرَ ببالِ أَحَدٍ: وإذا فهذه النارُ لِمَنْ هي؟! فقال جل ذكره: ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

فالعصاة من المؤمنين لهم عذاب. . أمَّا الكافرون فلهم عذاب شديد؛ لأنَّ دليل الخطاب يقتضي هذا وذلك؛ يقتضي أن المؤمنين لهم عذاب. . ولكن ليس بشديد، وأمَّا عذاب الكافرين فشديد.

ويقال: إن لم يَثْبُ العبدُ خوفاً من النار، ولا طمعاً في الجنة لَكَانَ من حَقِّه أن يتوب لِيَقْبَلَ الحقُّ - سبحانه.

ويقال إن العاصي يكون أبداً منكسراً القلب، فإذا عَلِمَ أن اللَّهَ يَقْبَلُ الطاعة من المطيعين يتمنى أن ليت له طاعة مُيسَّرةً ليقبلها، فيقول الحقُّ: عبي، إن لم تَكُنْ لك طاعةٌ تصلح للقبول فَلَكَ توبةٌ إن أَتَيْتَ بها تصلح لقبولها.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾.

هذا الخطاب في الظاهر يشبه الاعتذار في تخاطب الآدميين. والمعنى: أنني لم أبسط عليك أيها الفقير في الدنيا لَمَّا كان لي من العلم أنني لو قَسَمْتُ عليك الدنيا لَطَغَيْتَ، وَلَسَعَيْتَ في الأرض بالفساد.

ويقال: قوله: «ولكن. .»: لكن كلمة استدراك، فالمعنى: لم أَوْسَعْ عليك الرزق بمقدار ما تريد؛ ولم أَمْنَعْ عنك (الكل)؛ لأنِّي أَنْزَلُ بِقَدَرٍ ما أشاء.

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

الله - سبحانه مُخَيِّي القلوب؛ فكما أنه ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾، فبعدها أصابت الأرض جدوبةً، وأبطأ نزولُ الغيث، وَقِنَطُ الناس من مجيء المطر، وأشرف الوقت على حُدِّ القَوَاتِ يُنْزِلُ اللَّهُ بفضلِهِ الغيث، ويحيي الأرض بعد قنوط أهلها. . فكذلك العبد؛ إذا ذَبَلَ غُضُنُ وقته، وتَكَدَّرَ صَفْوُ ودّه،

وكسفت شمسُ أُنْسِيه، وَبَعَدَ عن الحضرةِ وساحاتِ القربِ عَهْدُهُ فلربما ينظر إليه الحقُّ برحمته؛ فيُنزل على سِرِّه أَمطارَ الرحمة، ويعود عودُهُ طرِيًّا، وَيُنْبِتُ في مشاهد أُنْسِيه ورداً جَيِّتًا.. . وأشدوا:

إِنْ رَاعَنِي مِنْكَ الصَّدُودُ فَلَعَلَّ أَيَّامِي تَعُودُ
وَلَعَلَّ عَهْدَكَ بِاللُّوَى يحيا فقد تحيا العهود
وَالْغَصَنُ يَيْبَسُ تَارَةً وتراه مُخْضِرًا يَمِيدُ^(١)

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾.

جعل الله في كل شيء من المخلوقات دلالة على توحيده في جلاله، وتفريده بنعت كبريائه وجماله.

﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾: والإشارة منها أَنَّ الحقَّ - سبحانه - يغار على أوليائه أَنْ يَسْكَنَ بعضهم بقلبه إلى بعض؛ فأبدأ يُبَدِّدُ شَمْلَهُمْ، ولا تكاد الجماعة من أهل القلوب تتفق في موضع واحد إلا نادراً، وذلك لمدّة يسيرة.. . كما قالوا:

رمى الدهرُ بالفتيان حتى كَانَهُمْ بأكنافِ أطرافِ السماءِ نجومُ

وفي بعض الأحيان قد يتفضّل الحقُّ عليهم فتدنو بهم الديار، ويحصل بينهم - في الظاهر - اجتماعٌ والتقاءٌ، فيكون في ذلك الوقت قد نظر الحقُّ - سبحانه - بفضلِهِ إلى أَنَّ في اجتماعهم بركاتٍ لحياة العالم.

وهذا - وإن كان نادراً - فإنه على جَمْعِهِمْ - إذا يشاء - قدير.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِنْ مُصِيبِكُمْ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾.

إذا تحقّق العبدُ بهذه الآية فإنه إذا أصابته شظيةٌ أو حالةٌ مما يسوءه، وعَلِمَ أن ذلك جزاءٌ له، وعقابٌ على ما بَدَرَ منه من سوءِ الأدبِ لاستحيى بخجلته مِنْ فِعْلِهِ، وَلَشَغْلِهِ ذلك عن رؤية الناس، فلا يحاول أن يتنقّم منهم أو يكافئهم أو يدعو عليهم، وإنما يشغله تلافي ما بَدَرَ منه من سوءِ الفعلِ عن محاولة الانتصاف لنفسه ممن يتسلّط عليه من الخلق.. . تاركاً الأمرَ كُلَّهُ لربِّه.

ويقال: إذا كَثُرَت الأسبابُ من البلايا على العبد، وتوالى عليه ذلك.. . فَلْيُفَكِّرْ في أفعاله المذمومة.. . كم يحصل منه حتى يبلغَ جزاء ما يفعله - مع العفو الكثير - هذا

(١) يعيد: يتمايل.

المبلغ؟! فعند ذلك يزداد حُزْنُهُ وتأسُّفُهُ؛ لِعِلْمِهِ بكثرة ذنوبه ومعاصيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ ءَاتَيْنَا الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَاقِ﴾.

يريد بها السفن التي تجري في البحار؛ يرسل الله الريح فتسيرها مرة، ويسكنها أخرى، وما يريهم خلال ذلك من الهلاك أو السلامة.. وهو بهذا يحثهم على التفكر والتنبه دائماً.

والإشارة في هذا إلى إمساك الناس في خلال فترة الوقت عن الأنواء المختلفة، وحفظهم في إيواء السلامة، فالواجب الشكر في كل حالة، وإذا خلص الشكر استوجب جزيل المزيد^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ فَحْشٍ فَتَنَعُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

يعني أنّ الراحة في الدنيا لا تصفو، ومن المشائب لا تخلو. وإن اتفق وجود البعض منها في أحيان فإنها سريعة (الزوال)، وشيكة الارتحال.

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الثواب الموعود «خير» من هذا القليل الموجود.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا عَصَبُوا هُمْ يَفْقَرُونَ﴾.

﴿كَثِيرَ الْإِثْمِ﴾: الشِرْك. و ﴿وَالْفَوَاحِشِ﴾: ما دون ذلك من الزلات. فإذا تركوها لا يتجرّعون كاسات الغضب بل تسكن لديهم سورة النفس؛ لأنهم يتوكلون على ربهم في عموم الأحوال.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

﴿اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾: فيما دعاهم إليه وما أمرهم به من فنون الطاعات؛ فهؤلاء هم الذين لهم حسن الثواب وحميد المآب.

والمستجيب لربه هو الذي لا يبقى له نفس إلا على موافقة رضاه، ولا تبقى منه لنفسه بقية.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾: لا يستبد أحدهم برأيه؛ لأنه يتهم أمره ورأيه أبداً ثم إذا أراد القطع بشيء يتوكل على الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾.

«البغي»: الظلم، فيعلم أحدهم أن الظلم الذي أصابه هو من قبيل نفسه، فينتصر

(١) الآيات من (٣٣) حتى (٣٥) لم ترد.

على الظالم وهو نفسه؛ بأن يكبح عنانها عن الركض في ميدان المخالفات.
قوله جل ذكره: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَ سَيِّئَةٍ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الظَّالِمِينَ﴾.

(يعني لا تجاوزوا حد ما جنى الجاني عليكم في المكافأة أو الانتقام).
﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾: مَنْ عفا عن الجاني، وأصلح ما بينه وبين الله -
أصلح الله ما بينه وبين الناس. ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾: فالذي للعبد من الله وعلى الله، وعند
الله خير مما يعمل به باختياره.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ
يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

عَلِمَ الله أن الكل من عباده لا يجد التحرر من أحكام النفس، ولا يتمكن من
محاسن الخلق فرخص لهم في المكافأة على سبيل العدل والقسط - وإن كان الأولى
بهم الصّح والعفو.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ...﴾: السبيل بالملامة لمن جاوز الحد، وعدا
الطّور، وأتى غير المأذون له من الفعل... فهو لاء لهم عذاب أليم.
قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَنِ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

صَبَرَ على البلاء من غير شكوى، وَغَفَرَ - بالتجاوز عن الخضم - ولم تبق لتفسيه عليه
دعوى، بل يُبرئ خضمه من كل دعوى، في الدنيا والعقبى... فذلك من عزم الأمور.
قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ
يَقُولُوكَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾.

إن الذين أضلهم الله، وأعمى أبصارهم وبصائرهم، وأوقعهم في كد عقوبتهم،
وَحَرَمَهُمْ بَرْدَ الرضا لحكم ربهم ليس لهم ولي من دون الله، ولا مانع لهم من عذابه.
وتراهم إذا رأوا العذاب يطلبون منه النجاة فلا ينالونها.

وتراهم يُغَرَضُونَ على النار وهم خاشعون من الذل؛ لا تنفعهم ندامة، ولا تُسْمَعُ
منهم دعوة، وَيُعْزِرُهُمُ الْمُؤْمِنُونَ بما ذكروهم به فلا يسمعون، فالיום لا ناصر
ينصرهم، ولا راحم يرحمهم^(١).

قوله جل ذكره: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ
مَلَجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾.

(١) الآتان (٤٥، ٤٦) لم تردا.

الاستجابة لله الوفاء بعهده، والقيام بحقه، والرجوع عن مخالفته إلى مرافقته، والاستسلام.

في كل وقتٍ لحكمه. والطريق اليوم إلى الاستجابة مفتوح. وعن قريبٍ سيُغلق الباب على القلب بفتنة، ويؤخذ فتنة.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ حَفِظًا إِلَّا بَلَعُ﴾. فإن أعرضوا عن الإجابة فليس عليك إلا تبليغ الرسالة، ثم نحن أعلم بما نعاملهم به.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرِّجْ بِهَا وَإِنْ نُسِفَتْ سَيِّئَتُهُ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾.

إذا أذقنا الإنسان منّا رفاهيةً ونعمةً فرح بتلك الحالة، وقابلها بالبطر، وتوصل بتمام عافيته إلى المخالفة، وجعل السلامة ذريعةً للمخالفة. وإن أصابته فتنةٌ وبلية، ومسته مصيبةٌ ورزية فإنه كفورٌ بنعمائنا، جحودٌ لآياتنا.

قوله جل ذكره: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ...﴾.

يهب لمن يشاء الذكور، ولمن يشاء الإناث، ولمن يشاء الجنين، ويجعل من يشاء عقيماً، فلا اعتراض عليه في تقديره، ولا افتيات في اختياره، فهو أولى بعباده من عباده^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾.

لله بحق ملكه أن يفعل ما يشاء، ويعطي من يشاء من عباده ما يشاء، ولكن أجرى العادة وحكم بأنه لا يفعل إلا ما ورد في هذه الآية؛ فلم يكلم أحداً إلا بالوحي، أو من وراء حجاب؛ يعني وهو لا يرى الحق، فالمحجوب هو العبد لا الرب، والحجاب أن يخلق في محل الرؤية ضد الرؤية. . تعالى الله عن أن يكون من وراء حجاب؛ لأن ذلك صفة الأجسام المحدودة التي يُسبَلُ عليها ستر. إنه «علي»: في شأنه وقدره، «حكيم»: في أفعاله.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

(١) الآية (٥٠) لم ترد.

أي ذلك مثلما أوحينا إليك «روحاً» من أمرنا يعني القرآن؛ سَمَاءَ روحاً لأنه مَنْ آمَنَ به صار به قلبه حَيًّا .

ويقال: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾: أي جبريل عليه السلام، ويسمى جبريل روح القدس .

﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ . .﴾: ما كنت تدري قبل هذا ما القرآن، «ولا

الإيمان»: أي تفصيل هذه الشرائع .

﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ﴾: أي القرآن «نوراً» نهدي به مَنْ نشاء من عبادنا المؤمنين .

﴿أَلَّا إِلَى اللَّهِ نَصِيرُ الْأُمُورُ﴾: لأن منه ابتداء الأمور .

سورة الزُخْرَف

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم «الله»: اسمٌ عزيزٌ مَنْ وَثِقَ بِجُودِهِ وَكَرَمِهِ لَمْ يُعَلِّقْ بغيره صواعِدَ هَمِّهِ، وَلَمْ يَقِفْ عَلَى سُدَّةٍ مَخْلُوقٍ بِقُدَمِيهِ فِي ابْتِغَاءِ كَرَمِهِ. اسمٌ عزيزٌ مَنْ عَوَّدَهُ خَفَايَا لُطْفِهِ لَمْ يَتَذَلَّ فِي طَلَبِ شَيْءٍ مِنْ غَيْرِهِ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَى غَيْرِهِ فِي شَرِّهِ وَخَيْرِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿حَمْدٌ وَلَكِنَّا لَنُبَوِّدُ الْغَايِبِينَ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

الحاء تدل على حياته والميم على مجده.. وهذا قَسَمٌ؛ ومعناه: وحياتي ومجدي وهذا القرآنِ إِنَّ الذي أَخْبَرْتُ عَنْ رَحْمَتِي بعبادي المؤمنين حقٌ وَصِدْقٌ. وجعلناه قرآنًا عربيًّا لِنَتَبَسَّرَ عَلَيْكُمْ فَهَمُّ مَعْنَاهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِنَّمَا فِي أَزْرِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾.

﴿فِي أَزْرِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا﴾: أي أنه مكتوب في اللوح المحفوظ.

﴿لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾: لِعَلِّي الْقَدَرِ، حَكِيمٌ الْوَصْفِ؛ لَا تَبْدِيلَ لَهُ وَلَا تَحْوِيلَ.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾.

أي أننا لا نفعل ذلك؛ (فيكون معنى الاستفهام) ^(١) أفنقطع عنكم خطابنا وتعريفنا إن أسرفتم في خلافكم؟ لا... إننا لا نرفع التكليف بِأَن خَالَفْتُمْ، وَلَا نَهْجِرُكُمْ - بِقَطْعِ الْكَلَامِ عَنْكُمْ - إِنْ أَسْرَفْتُمْ.

وفي هذا إشارة لطيفة وهو أنه لا يقطع الكلام - اليوم - عَمَّنْ تَمَادَى فِي عَصِيَانِهِ، وَأَسْرَفَ فِي أَكْثَرِ شَأْنِهِ. فَأَحْرَى أَنَّ مَنْ لَمْ يُقَصِّرْ فِي إِيْمَانِهِ - وَإِنْ تَلَطَّحَ بِعَصِيَانِهِ، وَلَمْ يَدْخُلْ خَلْلٌ فِي عِرْفَانِهِ - أَلَا يَمْنَعُ عَنْهُ لَطَائِفُ غَفْرَانِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

ما أتاهم من رسولٍ فقابلوه بالتصديق، بَلْ كَذَّبَ بِهِ الْكَافِرُونَ وَجَحَدُوا، وَعَلَى غَيْرِهِمْ أَصْرُوا...

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾.

أي لم يُعجزنا أحدٌ منهم، ولم نعاذب منهم أحداً، وانتقمنا من الذين أساءوا.
قوله جل ذكره: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ
الْعَلِيمُ﴾.

كانوا يُقرُّون بأنَّ اللهَ خالقُهم، وأنه خَلَقَ السمواتِ والأرضَ، وإنما جحدوا
حديثَ الأنبياءِ، وحديثَ البعثِ وجوازه.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ﴾.

كما جَعَلَ الأرضَ قراراً لأشباحهم جَعَلَ الأشباحَ قراراً لأرواحهم؛ فالخَلْقُ سُكَّانُ
الأرضِ، فإذا انتهت المدةُ - مدةُ كَوْنِ النفوسِ على الأرضِ - حَكَمَ اللهُ بخرابها..
كذلك إذا فارقت الأرواحُ الأشباحَ بالكُلِّيَّةِ قضى اللهُ بخرابها.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرَنَا بَوْدًا بَلَدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ
نُخْرِجُونَ﴾.

يعني كما يُخيي الأرضَ بالمطرِ يُخيي القلوبَ بحُسنِ النَّظَرِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾.

أي الأصنافَ من الخَلْقِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾.

كذلك جَسَسَ عليكم الأحوالَ كلها؛ فَمِنْ رغبةٍ في الخيراتِ إلى رهبةٍ مما
توعدُّكم به من العقوباتِ. ومن خوفٍ يحملكم على تَرْكِ الزَّلَّاتِ إلى رجاءٍ يبعثكم
على فعل الطاعات طمعاً في المثوباتِ.. وغير ذلك من فنون الصِّفَاتِ.

﴿لَيْسَتُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾.

يعني الفلَكُ والأنعام..

﴿ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا
كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾.

مطيعين، وكما سَخَّرَ لهم الفلَكُ في البحرِ، والدوابَّ للركوبِ، وأعظمَ عليهم
المنة بذلك فكذلك سَهَّلَ للمؤمنين مركبَ التوفيقِ فَحَمَلَهُمْ عليه إلى بساطِ الطاعةِ،
وسَهَّلَ للمريدين مركبَ الإرادةِ فَحَمَلَهُمْ عليه إلى عَرَصَاتِ الجودِ، وسَهَّلَ للعارفين
مركبَ الهِمَمِ فأنَاخوا بعِفْوَةِ العِزَّةِ. وعند ذلك مَحَطُّ الكافةِ؛ إذ لم تخرق سرادفاتِ

العِزَّةُ هِمَّةٌ مخلوقٍ: سواء كان مَلَكًا مُقَرَّبًا أو نَبِيًّا مُرْسَلًا أو وَلِيًّا مُكْرَمًا، فعند سطواتِ العِزَّةِ يتلاشى كُلُّ مخلوقٍ، ويقف وراءها كُلُّ مُخَدِّثٍ مسبوق^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَجَعَلُوا لَهُمْ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾.

هم الذين قالوا: الملائكة بنات الله؛ فجعلوا البنات لله جزءاً على التخصيص من جملة مخلوقاته.. تَعَسَّأَ لهم في قولهم ذلك وخِزْيًا!! فردَّ عليهم ذلك قائلاً: ﴿أَمْ أَخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾.

قال لهم على جهة التوبيخ، وعابهم بما قالوا؛ إذ - على حدّ قولهم - كيف يُؤْثِرُهم بالبنين ويجعل لنفسه البنات؟! ففي قولهم ضلالٌ؛ إذ حكموا للقديم بالولد. وفيه جهلٌ؛ إذ حكموا له بالبنات ولهم بالبنين - وهم يستنكفون من البنات.. ثم.. أي عيب في البنات؟ ثم.. كيف يحكمون بأن الملائكة إناثٌ - وهم لم يشاهدوا خَلْقَتَهُمْ؟

كلّ ذلك كان منهم خطأ محظوراً^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

إنما قالوا ذلك استهزاء واستبعاداً لا إيماناً وإخلاصاً فقال تعالى: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ ولو عَلِمُوا ذلك وقالوه على وجه التصديق لم يكن ذلك منهم معلولاً.

ثم قال: ﴿أَمْ أَنَبَّيْتُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾.

أي ليس كذلك، حتى أخبر أنهم ركنوا إلى تقليد لا يُفْضِي إلى العلم، فقال:

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾.

فنحن نقتدي بهم، ثم قال:

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾.

سلكوا طريق هؤلاء في التقليد لأسلافهم، والاستنامة إلى ما اعتادوه من السيرة والعادة.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَوَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ يَدَيَّ وَمَا وَعَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.

(٢) الآيات من (١٧ حتى ١٩) لم ترد.

(١) الآية (١٤) لم ترد.

فلم ينبج فيهم قوله، ولم ينفعهم وَغْظُهُ، وَأَصْرُوا عَلَى تَكْذِيبِهِمْ، فانتقمَ الحق - سبحانه - منهم كما فعل بالذين من قبلهم^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾.

أخبر أن إبراهيم لما دعا أباه وقومه إلى الله وتوحيده أبوا إلا تكذيبه؛ فبرأ منهم بأجمعهم، وجعل الله كلمة التوحيد باقية في عقبه وقومه^(٢).

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَقًّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾

أَرْحَيْنَا عَنْ إِمَالِهِمْ مَدَّةً، ثُمَّ كَانَ أَمْرُهُمْ أَنْ انتصرنا منهم، ودمرناهم أجمعين.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْفَرِثِيِّينَ عَظِيمٍ﴾.

إما أبي مسعود الثقفي^(٣) أو أبي جهل، وهذا أيضاً من فِرْطِ جهلهم.

﴿أَمْ يَرْفَعُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمًا يَبْتَهِمُ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرَاءً وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

أهم يَفْسُمُونَ - يا محمد - رحمة ربك في التخصيص بالنبوة؟ أياكون اختياراً لله - سبحانه - على مقتضى هواهم؟ بش ما يحكمون!

﴿نَحْنُ قَسَمًا يَبْتَهِمُ...﴾ فلم نجعل القسمة في الحياة الدنيا لهم... فكيف نجعل قسمة النبوة إلى هؤلاء؟!...

والإشارة من هذا: أن الحق - سبحانه - لم يجعل قسمة السعادة والشقاوة إلى أحد، وإنما المردود من رده بحكمه وقضائه وقدره، والمقبول - من جملة عبادته - من أراد وقيله... لا لعلّة أو سبب، وليس الرد أو القبول لأمر مكتسب...

ثم إنه قَسَمَ لِبُغْضِ عِبَادِهِ النعمة والغنى، وللبعض القلة والفقر، وجعل لكل واحد منهم سكناً يسكنون إليه يستقلون به؛ فللأغنياء وجود الإنعام وجزيل الأقسام... فشكروا واستبشروا، وللفقراء شهود المُنعم والقَسَام... فحمدوا وافتخروا. الأغنياء وجدوا النعمة فاستغنوا وانشغلوا، والفقراء سمعوا قوله: «نحن» فاشتغلوا.

(١) الآية (٢٥) لم ترد. (٢) الآيتان (٢٧، ٢٨) لم تردا.

(٣) هو عروة بن مسعود بن معتب الثقفي (٠... - ٩ هـ = ٦٣٠ م) صحابي مشهور، كان كبيراً في قومه بالطائف، ولما أسلم استأذن النبي ﷺ أن يرجع إلى قومه يدعوهم للإسلام، فقال: أخاف أن يقتلوك. قال: لو وجدوني نائماً ما أيقظوني، فأذن له، فرجع، فدعاهم إلى الإسلام فخالفوه، ورماء أحدهم بسهم فقتله.

الأعلام ٢٢٧/٤، والإصابة ٥٥٢٨، ورغبة الأمل ٣٠/٥.

وفي الخبر أن النبي ﷺ قال للأَنْصار: «أما ترضون أن يرجع الناس بالْغنى؛ وأنتم ترجعون بالنبي إلى أهليكم؟».

﴿لَيْسَ أَخَذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا..﴾: لو كانت المقادير متساوية لَتَعَطَّلَت المعاشُ، وَلَبَقِيَ كُلٌّ عِنْدَ حَالِهِ؛ فجعل بعضهم مَخْصُوصِينَ بِالرِّقَّةِ وَالْمَالِ، وآخرين مَخْصُوصِينَ بِالْفَقْرِ وَرِقَّةِ الْحَالِ.. حتى احتاج الْفَقِيرُ فِي جَبْرِ حَاجَتِهِ إِلَى أَنْ يَعْمَلَ لِلْغَنِيِّ كِي يَرْتَفِقَ مِنْ جَهْتِهِ بِأَجْرَتِهِ فَيُضْلِحَ بِذَلِكَ أَمْرَ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ جَمِيعاً.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾.

معنى الآية أنه ليس للدنيا عندنا خطر؛ فالذي يبقى عتاً لو صَبَّيْنَا عَلَيْهِ الدُّنْيَا بحذافيرها لم يكن ذلك جبراناً لمصيبته. ولولا فتنة قلوب المؤمنين لجعلنا لبيوتهم سُقْفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ مِنْ فَضَّةٍ، وكذلك ما يكون شبيهاً بهذا.

ولو فعلنا.. لم يكن لِمَا أَعْطَيْنَاهُ خَطَرٌ؛ لِأَنَّ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا لَيْسَ لَهَا عِنْدَنَا خَطَرٌ^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَقْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ يَقِصْ لَمْ شَيْطَانًا فَهُوَ لَمْ قَرِينٌ﴾.

مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ الْخُلُوةِ مَعَ اللَّهِ فَحَادَ عَنْ ذِكْرِهِ، وَأَخْلَدَ إِلَى الْخَوَاطِرِ الرَّدِيَّةِ فَيَقِصَّ اللَّهُ لَهُ مَنْ يَشْغَلُهُ عَنِ اللَّهِ - وَهَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْأَدَبَ فِي الْخُلُوةِ. وَإِذَا اشْتَغَلَ الْعَبْدُ فِي خُلُوتِهِ بِرَبِّهِ.. فَلَوْ تَعَرَّضَ لَهُ مَنْ يَشْغَلُهُ عَنِ اللَّهِ - وَهَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْأَدَبَ فِي الْخُلُوةِ. وَإِذَا اشْتَغَلَ الْعَبْدُ فِي خُلُوتِهِ بِرَبِّهِ.. فَلَوْ تَعَرَّضَ لَهُ مَنْ يَشْغَلُهُ عَنِ رَبِّهِ صَرَفَهُ الْحَقُّ عَنْهُ بِأَيِّ وَجْهِ كَانَ، وَصَرَفَ دَوَاعِيَهُ عَنْ مِفَاتِحِهِ بِمَا يَشْغَلُهُ عَنِ اللَّهِ.

ويقال: أَصْعَبُ الشَّيَاطِينِ نَفْسُكَ؛ وَالْعَبْدُ إِذَا لَمْ يَعْرِفْ خَطَرَ فَرَاغِ قَلْبِهِ، وَاتَّبَعَ شَهْوَتَهُ، وَفَتَحَ ذَلِكَ الْبَابَ عَلَى نَفْسِهِ بَقِيَ فِي يَدِ هَوَاهُ أَسِيرًا لَا يَكَادُ يَتَخَلَّصُ عَنْهُ إِلَّا بَعْدَ مُدَّةٍ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَنْهَوْنَهُمْ لِيَصْطَرُّوا عَنْ السَّبِيلِ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَلْسَ الْقَرِينُ﴾.

الذي سَوَّلَ لَهُ نَفْسُهُ أَمْرًا يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ عَلَى صَوَابٍ، ثُمَّ يَحْمِلُ صَاحِبَهُ عَلَى مُوَافَقَتِهِ فِي بَاطِلِهِ، وَيَدَّعِي أَنَّهُ عَلَى حَقٍّ. وَهُوَ بِهَذَا يَضُرُّ بِنَفْسِهِ وَيَضُرُّ بغيره. ثُمَّ إِذَا مَا انْكَشَفَ - غَدَا - الْغَطَاءُ تَبَيَّنَ صَاحِبُهُ خِيَانَتَهُ، وَنَدِمَ عَلَى صُخْبَتِهِ، وَيَقُولُ: ﴿يَتَوَلَّىٰ لِيَتَنَّىٰ لَوْ أَنِّي أَخَذْتُ

(١) الْآيَاتَانِ (٣٤، ٣٥) لَمْ تَرِدَا.

فَلَا تَأْخُذْ بِلِغَالِ الْفِرْقَانِ [الفرقان: ٢٨] و ﴿يَبْلُغْتَ بَيْنَ وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾. ولكن هذه الندامة لا تنفع حينئذ؛ لأن الوقت يكون قد فات، لهذا قال تعالى:

﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَأَنْتُمْ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. هذا الاستفهام فيه معنى النفي؛ أي أنه ليس يمكنك هداية مَنْ سَدَّ ذُنَا بِصِيرَتِهِ، وَلَيْسْنَا عَلَيْهِ رُشْدَهُ، وَمَنْ صَبَّيْنَا فِي مَسَامِعِ قُلُوبِهِمْ رِصَاصَ الشَّقَاءِ وَالْحِرْمَانِ... فكيف يمكنك إسماعه؟!

قوله جل ذكره: ﴿فَأَمَّا نَذَبْنَا بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَفِعُونَ﴾. يعني: إن انقضى أجلك ولم يتفق لك شهود ما نتوَعَدُهُمْ به فلا تتوَهَّمْ أَنَّ صِدْقَ كَلَامِنَا يَشُوْبُهُ مِثْنٌ، فَإِنَّمَا أَخْبَرْنَاكَ عَنْهُ - لا محالة - سيكون.

قوله جل ذكره: ﴿أَوْ نُزِيلْنَاكَ الْآزَىٰ وَعَدَّتْهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾. أَثْبَتَهُ عَلَىٰ حَذِّ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، وَوَقَّعَهُ عَلَىٰ وَصْفِ التَّجْوِيزِ لاسْتِبْدَادِهِ - سبحانه بعلم الغيب. والمقصود كذلك أن يكون كلُّ أحد بالنسبة لأمر الله من جملة نظارة التقدير - فالله يفعل ما يريد.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَسْتَمِيعٌ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. اجتهد من غير تقصير وتوكل على الله من غير فتور، وقف حيثما أمِرت، وثق بأنك على صراطٍ مستقيم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تُلْهِمْ لَكَ إِلَٰهًا لِّذِكْرِكَ لِقَوْلِكَ وَسَوْفَ تُنْشَرُونَ﴾. أي إن هذا القرآن لَذِكْرٌ لَكَ؛ أي شرفٌ لك، وحسنٌ صيب، واستحقاقٌ منزلة. .

قوله جل ذكره: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْمَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَٰهَةً يُعْبَدُونَ﴾.

حَشَرَ أَرْوَاحَ الْأَنْبِيَاءِ - عليهم السلام - ليلة الإسراء، وقيل له - ﷺ: «سَلِّهِمْ: هل أَمَرْنَا أَحَدًا بِعِبَادَةِ غَيْرِنَا؟ فلم يَشْكُ النَّبِيُّ - ﷺ - ولم يسأل»^(١).

ويقال: الخطابُ له، والمرادُ به غيره. . فَمَنْ يَرْتَابُ فِي ذَلِكَ؟ ويقال: المراد منه سَلِّ أَقْوَامَهُمْ، لكي إذا قالوا إن الله لم يأمر بذلك كان هذا أبلغ في إبرام الحجة عليهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا... إِذَا هُمْ مِنْهَا يَعْصُونَ﴾.

(١) للحديث رواية أخرى: «لا أسأل قد اكتفيت» أخرجه ابن الجوزي في (زاد المسير ٣١٩/٧).

كُرِّرَ قِصَّةُ مُوسَى غَيْرَ مَرَّةٍ فِي الْقُرْآنِ، وَأَعَادَهَا هُنَا مَجْمَلَةً؛ أَرْسَلْنَاهُ بِدَلَالَتِنَا، أَرْسَلْنَاهُ بِحُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ قَاهِرَةٍ، أَرْسَلْنَاهُ بِالْمُعْجَزَاتِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ مِنَ الْقَبْطِ، فَقَبِلَ بِالْهَزْءِ وَالضَّحْكَ وَالتَّكْذِيبِ. وَمَعَ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ لَمْ يُخْرِجْ عَلَيْهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ شَيْئاً إِلَّا كَانَ أَوْضَحَ مِمَّا قَبْلَهُ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَقَابِلُوهُ إِلَّا بِجَفَاءٍ أَوْحَشَ مِمَّا قَبْلَهُ. فَلَمَّا عَضُّهُمْ الْأَمْرُ قَالُوا: يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ، ادْعُ لَنَا رَبَّكَ لِيَكْشِفَ عَنَّا الْبَلِيَّةَ لِنُؤْمِنَ بِكَ، فَدَعَا مُوسَى.. فَكَشَفَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَعَادُوا إِلَى كُفْرِهِمْ، وَنَقَضُوا عَهْدَهُمْ^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْتَوِيضُ اللَّيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰؤُلَاءِ الْأَنْهَارُ تُجْرَى مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

تَعَزَّزَ بِمُلْكِهِ مِصْرَ، وَجَرَى النِّيلُ بِأَمْرِهِ! وَكَانَ فِي ذَلِكَ هَلَاكُهُ؛ لِيُعْلَمَ أَنَّ مَنْ تَعَزَّزَ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَخْتَفَهُ وَهَلَاكَ فِي ذَلِكَ الشَّيْءِ.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾.

اسْتَصْغَرَ مُوسَى وَحِدَيْتَهُ، وَعَابَهُ بِالْفَقْرِ.. فَسَلَّطَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَكَانَ هَلَاكُهُ بِيَدَيْهِ، فَمَا اسْتَصْغَرَ أَحَدٌ أَحَدًا إِلَّا سَلَّطَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتِيحِينَ﴾.

أَطَاعُوهُ طَاعَةً الرِّهْبَةِ، وَطَاعَةً الرِّهْبَةِ لَا تَكُونُ مُخْلِصَةً، وَإِنَّمَا تَكُونُ الطَّاعَةُ صَادِقَةً إِذَا صَدَرَتْ عَنِ الرِّغْبَةِ.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿ءَاسَفُونَا﴾ أَغْضَبُونَا، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَغْضَبُوا أَوْلِيَائَنَا، فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ. وَهَٰذَا لَهُ أَصْلٌ فِي بَابِ الْجَمْعِ؛ حَيْثُ أَضَافَ إِسَاقَهُمْ لِأَوْلِيَائِهِ إِلَى نَفْسِهِ... وَفِي الْخَبَرِ: أَنَّهُ يَقُولُ: «مَرَضْتُ فَلَمْ تَعُدَّنِي»^(٣).

وَقَالَ فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا...﴾ [الحج: ٢٧].

وَقَالَ فِي قِصَّةِ نَبِيِّنَا - ﷺ: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾.

وَضُرِبَ الْمَثَلُ بِعِيسَى هُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩]؛ خَلَقَ عِيسَى بَلَا أَبِ كَمَا خَلَقَ آدَمَ بَلَا أَبَوَيْنِ. فَجَحَدُوا بِهَذِهِ الْآيَةِ.

(١) الآيات (٤٨، ٤٩، ٥٠) لم ترد. (٢) الآية (٥٣) لم ترد.

(٣) للحديث رواية أخرى: «مرضت فلم يعدني ابن آدم» أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/٤٠٤). الآية (٥٦) لم ترد.

وقيل هو قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] فقالوا: رضينا بأن نكون في النار مع عيسى وعزير والملائكة، وليس لهم في الآية موضع ذكر؛ لأنه سبحانه قال: «وما تعبدون، ولم يقل «ومن تعبدون».

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا أَلَهْتُمَا خَيْرَ مَا هُوَ مَا صَرَّوْهُ لَكَ إِلَّا جَدلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

﴿مَا صَرَّوْهُ لَكَ إِلَّا جَدلاً﴾: وذلك أنهم قالوا: إن قال آلهتكم خير فقد أقر بأنها معبودة، وإن قال: عيسى خير من آلهتكم فقد أقر بأن عيسى يصلح لأن يُعبد، وإن قال: ليس واحد منهم خيراً فقد نفى ذلك عن عيسى عليه. وهم راموا بهذا الكلام أن يجادلوه، ولم يكن سؤالهم للاستفادة. فكان جواب النبي ﷺ عليهم: «أن عيسى عليه السلام خير من آلهتكم ولكنه لا يستحق أن يُعبد؛ إذ ليس كل ما هو خير من الأصنام بمستحق أن يكون معبوداً من دون الله وهكذا بين الله - سبحانه - لنبيه أنهم قوم جادلون، وأن حُجَّتَهُم داحضة عند ربهم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَلَكًا يُبَيِّنُ إِسْرَائِيلَ﴾. فليس عيسى إلا عبد أنعمنا عليه بالنبوة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ لَكِهُنَّ فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾.

ولو شئنا لأنزلنا ملائكة من السماء حتى يكونوا سكران الأرض بدلكم.

ثم قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّقُوا هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

﴿وَإِنَّكُمْ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ﴾: يعني به عيسى عليه السلام إذا أنزله من السماء فهو علامة للساعة، ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ﴾ بنزوله بين يدي القيامة^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

ولا يصدنكم الشيطان عن الإيمان بالساعة، وعن اتباع الإيمان بهداي.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا﴾.

ذكر مجيء عيسى عليه السلام أول مرة؛ حيث أتى قومه بالشرائع الواضحة،

(١) في الموسوعة قال رسول الله ﷺ: «لينزلن ابن مريم حكماً عادلاً فليكسرن الصليب» أخرجه مسلم في الصحيح (الإيمان ب٧١ رقم ٢٤٣)، والطحاوي في (مشكل الآثار ١/ ٢٨) والآجري في (الشرعية ٣٨٠)، والتمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٩٧٢٢)، والقرطبي في (التفسير ١٠/ ٣١٥)، (٨٦/ ١٨).

ودعاهم إلى دين الله، ولكنهم تحزّبوا عليه، وإن الذين كفروا به لمستحقون للعقوبة.
قوله جلّ ذكره: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾.

ما كان لغير الله فمآله إلى الضياع. والأخلاء الذين اصطحبوا على مقتضى الهوى بعضهم لبعض عدو؛ يتبرأ بعضهم من بعض، فلا ينفع أحد أحداً.
وأما الأخلاء في الله فيشفع بعضهم في بعض، ويتكلم بعضهم في شأن بعض، أولئك هم المتقون الذين استثناهم الله بقوله: ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾.

وشرط الخلّة^(١) في الله؛ ألا يستعمل بعضهم بعضاً في الأمور الدنيوية، ولا يرتفق بعضهم ببعض؛ حتى تكون الصلّة خالصة لله لا لنصيب في الدنيا، ويكون قبول بعضهم بعضاً لأجل الله، ولا تجري بينهم مهادنة، وبقدّر ما يرى أحدهم في صاحبه من قبول لطريق الله يقبله، فإن علم منه شيئاً لا يرضاه الله لا يرضى ذلك من صاحبه، فإذا عاد إلى تركه عاد هذا إلى مودته، وإلا فلا ينبغي أن يساعد على معصيته، كما ينبغي أن يتقيه بقلبه، وألا يسكن إليه لغرض دنيوي أو لطمع أو لعوض.
قوله جلّ ذكره: ﴿بَلِيبَادٍ لَا خَوْفٌ عَلَيْكَ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتَ تَحْزَنُونَ﴾.

يقال لهم غداً: ﴿يا عبادي لا خوف عليكم اليوم﴾ مما يلقاه أهل الجمع من الأهوال، ولا أنتم تحزنون فيما قصّرتُم من الأعمال...
أما الذنوب.. فقد غفرناها، وأما الأهوال.. فكفيناها، وأما المظالم.. فقصيناها. فإذا قال المنادي: هذا الخطاب يُطعمُ الكلّ قالوا: نحن عباده، فإذا قال:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾.

أيس الكفار، وقوي رجاء المسلمين.

قوله جلّ ذكره: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾.

في رياض الجنة، وترتعون.

ويقال: ﴿تُحْبَرُونَ﴾ من لذة السماع.

قوله جلّ ذكره: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

العباد لهم فيها ما تشتهي أنفسهم لأنهم قاسوا في الدنيا - بحكم المجاهدات - الجوع والعطش، وتحملوا وجوة المشاق، فيجازون في الجنة بوجوه من الثواب.
وأما أهل المعرفة والمحبتون فلهم ما يلد أعينهم من النظر إلى الله لطول ما

(١) يصلح هذا يُضاف إلى حديثه - أي القشيري - عن الصلّة بالرسالة ص ٢٩٤.

قاسوه من قَرْطِ الاشتياق بقلوبهم؛ وما عالجه من الاحتراق لشدة غليلهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَتِلْكَ لَئِنَّهُ الْآتِيَّ أَوْرِثُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي يقال لهم - والخطاب للمطيعين غداً -: أنتم يا أصحاب الإخلاص في أعمالكم؛ والصدق في أحوالكم:

﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

من الفاكهة الكثيرة تأكلون، وفي الأنس تتقبلون.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾.

هؤلاء هم الكفار المشركون، فهم أهل الخلود، لا يُفْتَرُ عنهم العذاب ولا يُخَفَّفُ.

وأما أهل التوحيد: فقد يكون منهم قومٌ في النار. ولكن لا يخلدون فيها. ودليل الخطاب يقتضي أنه يُفْتَرُ عنهم العذاب. ورد في الخبر الصحيح: أنه لا يُمِيتهم الحق - سبحانه - إماتةً إلى أن يُخْرِجَهُمْ من النار - والميت لا يحس ولا يتألم^(١).

﴿لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسُونَ﴾.

الإبلاس^(٢) من الخيبة، ويدل ذلك على أن المؤمنين لا يأس لهم فيها، وإن كانوا في بلائهم فهم على وصف رجائهم؛ يعدون أيامهم إلى أن ينتهي حسابهم.

ولقد قال الشيوخ: إنَّ حالَ المؤمن في النار - من وجوه - أَرْوَحُ لقلبه من حاله في الدنيا؛ فاليوم - خوفُ الهلاك، وغداً - يقينُ النجاة، وأنشدوا:

عَيْبُ السَّلامَةِ أَنَّ صَاحِبَهَا مَتَوَقَّعٌ لِقَوَاصِمِ الظُّهْرِ
وَفَضِيلَةُ الْبَلَوِ تَرْتُقِبُ أَهْلَهَا - عَقَبَ الرَّجَاءِ - مَوَدَّةُ الدَّهْرِ

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾.

هذا الخطاب يُشَبِّهُ كلمة العذر - وإن جَلَّ قَدْرُهُ - سبحانه - عن ذلك.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَادَا وَيَمْلِكُ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾.

لو قالوا: «يا مَلِكُ» لعل أقوالهم كانت أقرب إلى الإجابة، ولكن الأجنية حالت بينهم وبين ذلك، فكان الجوابُ عليهم:

(١) الحديث: «فأما تهم إماتة حتى إذا كانوا فحماً [...]». أخرجه مسلم (إيمان ٣٠٦)، وابن ماجه (زهد ٣٧).

(٢) أبلس فلان: سكت غمًا (اللسان ٣٠/٦ مادة: بلس).

﴿إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾ فيها . . نُصِخْتُمْ فَلَمْ تَنْتَصِحُوا، وَلَمْ تَقْبَلُوا الْقَوْلَ فِي حِينِهِ، وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهِينَ .

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ .

بل أمورهم مُنْتَقِضَةٌ عليهم؛ فلا يتمشى لهم شيء مما دبروه، ولا يرتفع لهم أمرٌ على نحو ما قَدَّرُوهُ - وهذه الحال أَوْضَحُ دَلِيلٍ عَلَى إِثْبَاتِ الصَّانِعِ .

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ يَحْسُبُونَ أَنَّا لَنَسْمَعَ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ .

إنما خَوْفُهُمْ بِسْمَاعِ الْمَلِكِ، وَبِكِتَابَتِهِمْ أَعْمَالَهُمْ عَلَيْهِمْ لَغَفَلَتِهِمْ عَنِ اللَّهِ - سبحانه، ولو كان لهم خَبَرٌ عَنِ اللَّهِ لَمَا خَوْفُهُمْ بِغَيْرِ اللَّهِ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ أَعْمَالَهُ تُكْتَبُ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ يُطَالَبُ بِمَقْتَضَىٰ ذَلِكَ - قَلَّ إِلِمَاؤُهُ بِمَا يَخَافُ أَنْ يُسَالَ عَنْهُ . .

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالِدِينَ﴾ .

أَيُّ إِنْ كَانَ فِي ضَمِيرِكُمْ وَفِي حُكْمِكُمْ وَفِي اعْتِقَادِكُمْ أَنَّ لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَسْتَنْكِفُ مِنْ هَذِهِ الْقَالَةِ .

قوله جل ذكره: ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ .

تَنْزَهُ اللَّهُ تَزْوِيهًا، وَتَقَدَّسَ تَقْدِيسًا عَمَّا قَالُوهُ . وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ وَأُمَثَالِهَا دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ حِكَايَةِ قَوْلِ الْمُبْتَدِعَةِ - فِيمَا أَخْطَأُوا فِيهِ مِنْ وَصْفِ الْمَعْبُودِ - قَصْدًا لِلرَّدِّ عَلَيْهِمْ، وَإِخْبَارًا بِتَقْبِيحِ أَقْوَالِهِمْ، وَبِطِلَالِ مَزَاعِمِهِمْ .

ثم قال جل ذكره: ﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ .

إِذْ لَيْسَ يَفُوتُ أَمْرُهُمْ، وَهُمْ لَا مُحَالَةَ سَيَلِقُونَ صِغَرَهُمْ .

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَغْتَرَّ بِطُولِ السَّلَامَةِ فَإِنَّ الْعَوَاقِبَ غَيْرُ مَأْمُونَةٍ .

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ .

المعبود - في السماء - الله، والمقصود - في طلب الحوائج - في الأرض - الله .

أهل السماء لا يعبدون غير الله، وأهل الأرض لا يقضي حوائجهم غير الله .

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في إِمهاله للعصاة، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوال العباد .

﴿وَبَارَكَ الَّذِي لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

تعالى وتقدس وتنزه وتكبر الذي له مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِقُدْرَتِهِ تَظْهَرُ . . لَا هُوَ بِظُهُورِهَا يَتَعَزَّزُ .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ

يَعْلَمُونَ﴾ .

أي شهد - اليوم - بالتوحيد، فيثبت له الحقُّ حقَّ الشفاعة . وفي الآية دليل على أن جميع المسلمين شفاعتهم تكون غداً مقبولة .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ .

فكيف لا يعتبرون؟ وكيف يتكبرون عن طاعة الله .

﴿وَقِيلِهِ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ .

أي يعلم علم الساعة ويعلم ﴿قيله يا رب﴾ .

﴿فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أي أمهلهم، وقل لكم مني سلام . . ولكن سوف تعلمون عقوبة

ما تستوجبون .

سورة الدخان

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة مَنْ ذَكَرَهَا نال في الدنيا والعُقبى بهجته، وَمَنْ عَرَفَهَا بِذَلِكَ فِي طلبها مُهَجَّتْهُ.

كلمة إذا استولت على قلبٍ عَطَلَتْهُ عن كُلِّ شُغْلٍ، كلمة إذا وَاظَبَ على ذِكْرِهَا عَبْدٌ أَمَّنَتْهُ من كُلِّ هَوْلٍ.

قوله جل ذكره: ﴿حَمِّ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.

الحاء تشير إلى حَقِّهِ؛ والميم تشير إلى محبته. ومعناه: بحقي وبمحبتي لِعِبَادِي، وبيكتابي العزيز إليهم: إِنِّي لَا أَعَذِّبُ أَهْلَ مَعْرِفَتِي بِفِرْقَتِي.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾.

﴿فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾: قيل هي ليلة القَدَر، وقيل هي النصف من شعبان وهي ليلة الصَّكِّ. أنزل القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا كُلَّ سَنَةٍ بِمَقْدَارِ مَا كَانَ جَبْرِيلُ يَنْزِلُ بِهِ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ.

وسماها: ﴿لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾ لأنها ليلة افتتاح الوصلة. وأشدُّ الليالي بركةً ليلة يكون العبد فيها حاضراً، بقلبه، مشاهداً لرَبِّهِ، يَتَنَعَّمُ فيها بأنوار الوصلة، ويجد فيها نسيم القربة. وأحوال هذه الطائفة في ليايلهم مختلفة، كما قالوا:

لَا أَظْلِمُ اللَّيْلَ وَلَا أَدْعِي أَنَّ نَجُومَ اللَّيْلِ لَيْسَتْ تَزُولُ
لَيْلِي كَمَا شَاءَتْ: قَصِيرٌ إِذَا جَادَتْ، وَإِنْ ضُئْتُ فَلَيْلِي طَوِيلٌ

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ يكتب من أَمِّ الكتاب في هذه الليلة ما يحل في السنة كُلِّهَا من أقسام الحوادث في الخير والشرِّ، في المحن والمُنَنِ، في النصر والهزيمة، في الخصب والقحط.

ولهؤلاء القوم (يعني الصوفية) أحوالٌ من الخصب والجذب، والوصل والفصل، والوفاق والخلاف، والتوفيق والخذلان، والقبض والبسط. فكم مِنْ عَبْدٍ يَنْزِلُ لَهُ الْحُكْمُ وَالْقَضَاءُ بِالْبُعْدِ وَالشَّوَاءِ، وَآخِرُ يَنْزِلُ حُكْمُهُ بِالرُّفْدِ وَالْوَفَاءِ.

قوله جل ذكره: ﴿أَمَّا مَنْ عِنْدَنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾: وهي الرسول - ﷺ، قال صلوات الله عليه: «أنا رحمة مهداة»^(١).

ويقال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ رحمة لنفوس أوليائنا بالتوفيق، ولقلوبهم بالتحقيق.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: «السميع» لأنين المشتاقين، «العليم» بحنين المحبين.

قوله جل ذكره: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتَ مُؤَقِّنِينَ﴾.

مالك السموات والأرضين، ومالك ما بينهما - وتدخل في ذلك أكساب العباد. وتملكها بمعنى القدرة عليها، وإذا حصل مقدور في الوجود دل على أنه مفعوله؛ لأن معنى الفعل مقدور وجد.

قوله جل ذكره: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾.

هذه الكلمة فيها نفى ما أثبتوه بجهلهم، وإثبات ما نفوه بجحدهم.

﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾: مُرَبِّي أضلكم ونسلكنم.

قوله جل ذكره: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾.

اللعب فعل يجري على غير ترتيب تشبيهاً باللعب الذي يسيل لا على نظام مخصوص؛ فوصف المنافق باللعب؛ وذلك لتردده وتحيره نتيجة شكه في عقيدته.

قوله جل ذكره: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ﴾.

هذا من أشرار الساعة؛ إذ يتقدم عليها.

وقيامة هؤلاء (يقصد الصوفية) معجلة (أي تتم هنا في هذه الدنيا) فيومهم الذي تأتي السماء فيه بدخان مبين هو يوم غيبة الأحاب، وانسداد ما كان مفتوحاً من الأبواب، أبواب الأنس بالأحاب وفي معناه قالوا:

فما جانب الدنيا بسهل ولا الضحى بطلق ولا ماء الحياة ببارد

قوله جل ذكره: ﴿يَعْنَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وعذاب هؤلاء (يقصد الصوفية) مقيم في الغالب، وهو عذاب مستعذب، أولئك

يقولون:

﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾.

وهؤلاء يستزيدون - على العكس من الخلق - العذاب، وفي ذلك يقول قائلهم:

فكل ما ربي قد نلت منها سوى ملذوذ وجدي بالعذاب

فهم يسألون البلاء والخلق يستكشفونه، ويقولون:

أنت البلاء فكيف أرجو كشفه إن البلاء إذا فقت بلاتي

(١) أخرجه المتقي الهندي في (كنز العمال ٣١٩٩٥)، والقرطبي في (التفسير ٦٣/٤).

قوله جل ذكره: ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾.

إن خالفوا دواعي قلوبهم من الخواطر^(١) التي تَرُدُّ من الحق عليهم عوقبوا - في الوقت بما لا يتسَّع لهم ويُسعِفهم، فإذا أخذوا في الاستغاثة يقال لهم: أنَّى لكم الذكرى وقد جاءكم الرسول على قلوبكم فخالفتكم^(٢)؟!

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾.

حيث نورثكم حزناً طويلاً، ولا تجدون في ظلال انتقامنا مقيلاً.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَن أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

فَتَنَّهُمْ بَعْدَ مَا أَصْرُوا عَلَى جُحُودِهِمْ وَلَمْ يَرْجِعُوا إِلَى طَرِيقِ الرُّشْدِ مِنْ نَفَرَةٍ^(٣) عَنودهم.

﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾: يطالبهم بإزالة الظلم عن بني إسرائيل، وأن يستبصروا، واستنفرهم لله، وأظهر الحُجَّةَ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ^(٤).

﴿فَأَمَرِ عِبَادِي لِيَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾.

أَمَرَهُ بِأَنْ يَسْرِيَ عِبَادَةُ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَرَّفَهُمْ أَنَّهُمْ سَيُنْقَذُونَ، وَأَنَّ عَدُوَّهُمْ ﴿جُنْدٌ مُعَرَّفُونَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿كَرَّ تَرَكَا مِنْ جَنَّتٍ وَعُيُونٍ وَدُرُوعٍ وَمَقَارٍ كَرِيرٍ وَنَعَمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَنَكِهِينَ﴾.

ما خلفوه من أحوالهم ومن رياشهم، وما تركوه من أسباب معاشهم استلبناه عنهم. ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾.

وَأَسْكَنَّا قَوْمًا آخَرِينَ فِي مَنَازِلِهِمْ وَدَوْرِهِمْ.

قوله جل ذكره: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾.

لم يكن لهم من القَدْرِ وَالْخَطَرِ ما يتحرك في العالم بسببهم ساكن، أو يسكن متحرك فلا الخضراء بسببهم اغبرَّتْ، ولا الغبراء لغيتهم اخضرَّتْ. لم يبقَ منهم عينٌ

(١) انظر حديث القشيري عن الخواطر في الرسالة ص ٨٣، ٨٥.

(٢) الآية (١٤) لم ترد.

(٣) نفر من الشيء: فزع وانقبض غير راضٍ به، ونفرت المرأة من زوجها: أعرضت وصذت ونفرت من المكان: تركه إلى غيره.

(٤) الآيات من (١٩ حتى ٢٢) لم ترد.

ولا أثر، ولم يظهر مِنْ قَبْلِهِمْ عَلَى قَلْبِ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِنَا أَثَرٌ. وكيف تبكي السماء لَفَقْدِ مَنْ لَمْ تَسْتَبْشِرْ بِهِ مِنْ قَبْلُ؟ بعكس المؤمن الذي تُسَرُّ السماءُ بصعودِ عمله إليها، فإنها تبكي عند غيابه وفَقْدِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ بَعَجْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾.

نَجَّاهُمْ، وأقمى عدوَّهم، وأهلكه.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ﴾ أي عَلِمْنَا ما يحتقِبون من أوزارهم، فرفعنا - باختيارنا - من أقدارهم ما وَضَعَهُ فِعْلُهُمْ وتدنَّسَهُمْ بأوزارهم.

ويقال: «على علم منا» بأحوالهم أنهم يُؤثرون أمرنا على كل شيء.

ويقال: «على علم منا» بمحبة قلوبهم لنا مع كثرة ذنوبهم فينا.

ويقال: «على علم منا» بما نودع عندهم من أسرارنا، وما نكاشفهم به من حقائق حقنا.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَلْبَتِ مَا فِيهِ بَلَكُوا مُبِينٌ﴾.

من مطالبته بالشكر عند الرخاء، والصبر عند الكدر والعناء.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ إِن هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ فَأَنذَرْنَا وَإِنَّا لَكَنُذِرِينَ﴾.

اقترح أبو جهلٍ على النبي - ﷺ - أن يحيي لهم نفْساً:

«لتخبرنا: هل أنت صادق أم لا؟» فأخبر الله - سبحانه - أنهم اقترحوا هذا بعد قيام الحُجَّةِ عليهم، وإظهار ما أراح لهم من العُذْر:

ثم قال جل ذكره: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

«تُبَّع» هو ملك لليمن، وكان مسلماً، وكان في قومه كثرة، وأهلك الله سبحانه قومه على كثرة عددهم، وكمال قُوَّتهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

ما خلقناهما إلا بالحقِّ، بالحُكْمِ الحقِّ؛ وبالأمرِ الحقِّ.. «فأنا مُجِئٌ فِي خَلْقِهِمَا»: أي كان لي خَلْقُهُمَا.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ يَوْمَ لَا يَنْفَعِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

يومئذ لا يُغني ناصر عن ناصر ولا حميم عن حميم، ولا نسيب عن نسيب.. شيئاً. ولا ينالهم نصر إلا من رَحِمَهُ اللهُ؛ وبفضله ونِعْمته.
قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ سَجَرَتَ الرَّقْمُومِ طَعَامُ الْأَثِيرِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلِي الْحَمِيمِ﴾.

«الأثيم» مرتكب الذنوب. «المهل» المذاب. «الحميم»: الماء الحار.
قوله جل ذكره: ﴿خَذُوهُ فَأَعْيَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾.
ادفعوا به إلى وسط الحميم. ويقال له:
﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾.

أنت كذلك عند قومك، ولكنك عندنا ذليل مهين.
قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الْمَتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُوبٍ﴾.
آمنين من المحن من جميع الوجوه، لباسهم من حرير، وفراشهم من سندس واستبرق^(١)، «متقابلين»: لا يبرحون ولا يبغيون عنها جِوَلًا^(٢).
قوله جل ذكره: ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾.

تباح لهم صُحْبَتُهُنَّ، ولا يكون في الجنة عقد تزويج ولا طلاق، ويمكن الولي بهذه الأوصاف من هذه اللطاف. ثم قد يُخْتَطَفُ قَوْمٌ مِنْ بَيْنِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ، فيُتَحَرَّرُونَ عَنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ؛ فكما أنهم في الدنيا مُخْتَطَفُونَ عَنْ كُلِّ الْعَلَاتِقِ فَإِنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ تَطْمَعُ الْحُورُ الْعِينُ فِي صَحْبَتِهِمْ فَيَسْتَلْبِهِمُ الْحَقُّ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ.
الزاهد في الدنيا يحميه منها، والعارف في الجنة يحميه من الجنة^(٣).
قوله جل ذكره: ﴿لَا يَدْخُلُوهَا فِيهَا أَلَمَاتٌ إِلَّا أَلَمَاتٌ الْأُولَى وَفَنَّهُمْ عَذَابُ الْجَحِيمِ﴾.

الموتة الأولى هي بقبض أرواحهم في الدنيا، وبقيةهم الله في الآخرة العذاب بفضله، وذلك هو الظفرُ بالبغيّة، ونجاح السؤل^(٤).
قوله جل ذكره: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾.
يا محمد، ليتذكر به أهلُك، فارتقب العواقب ترّ العجائب. إنهم يرتقبون، ولكن لا يرون إلا ما يكرهون^(٥).

(١) السندس: ضرب من رقيق الديباج أو الحرير المنسوج الذي يتلون ألواناً والاستبرق: الديباج الغليظ أو ثياب من حرير وذهب (مع).

(٢) الآية (٥٥) لم ترد.

(٣) الآية (٥٣) لم ترد.

(٤) الآية (٥٩) لم ترد.

(٥) الآية (٥٧) لم ترد.

سورة البجائية

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» باسم مَلِك لا يستظهر بجيشه، أحد لا يستمسك بعيشه، جبار ارتدى بكبريائه، قهار اتصف بعز سناة.

«بسم الله» باسم كريم صَمَد، لا يستغرق وجوده أمد، أبدي عظيم أحد، لا يوجد من دونه مَقَر ولا ملتحذ.

قوله جل ذكره: ﴿حَمَّ تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

﴿الْعَزِيزِ﴾: في جلاله، ﴿الْحَكِيمِ﴾: في أفعاله.

﴿الْعَزِيزِ﴾: في آزاله، ﴿الْحَكِيمِ﴾: في لطفه بالعبد بوصف إقباله.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

شواهد الربوبية لائحة، وأدلة الإلهية واضحة؛ فَمَنْ صحا مِنْ سَكْرَةِ الغفلة، ووضع سِرّه في محال العبرة حَظِي - لا محالة - بحقائق الوصلة.

قوله جل ذكره: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

إذا أنعم العبد نَظَرَه في استواء قدّه وقامته، واستكمال عقله وتامام تمييزه، وما هو مخصوص به في جوارحه وحوائجه، ثم فَكَّرَ فيما عداه من الدواب؛ في أجزائها وأعضائها. ثم وقف على اختصاص وامتياز بني آدم من بين البرية من الحيوانات في الفهم والعقل والتمييز والعلم، ثم في الإيمان والعرفان ووجوه خصائص أهل الصفة من هذه الطائفة في فنون الإحسان - عَرَفَ تخصُّصهم بمناقبهم، وانفرادهم بفضائلهم، فاستيقن أن الله كَرَّمهم، وعلى كثير من المخلوقات قَدَمهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنخَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَرْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

جَعَلَ الله العلوم الدينية كسبيةً مُصَحَّحةً بالدلائل، مُحَقَّقةً بالشواهد. فَمَنْ لم يَسْتَبْصِرْ بها زَلَّتْ قَدَمُه عن الصراط المستقيم، ووقع في عذاب الجحيم؛ فاليوم في ظلمة الحيرة والتقليد، وفي الآخرة في التخليد في الوعيد.

قوله جل ذكره: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَمَا يَنْبِئُهُ يُؤْمِنُونَ﴾ .
 فَمَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا فَبِأَيِّ حَدِيثٍ يُؤْمِنُ؟ ومن أي أصل يستمد بعده؟ ومن أي بحرٍ
 في التحقيق يغترف؟ هيهات! ما بقي للإشكال في هذا مجال.
 قوله جل ذكره: ﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَمْعُمُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلِّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُغْمِزُ مُسْتَظْهِرًا كَأَنَّ لَمْ
 يَسْمَعْهَا فَبَيِّنَ لَهُ بِعَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ .

كل صامت ناطق، يصمت عن الكلام والقول وينطق بالبرهان في الحكم.
 فَمَنْ اسْتَمَعَ بِسْمِ الْفَهْمِ، واستبصر بنور التوحيد فاز بذخر الدارين، وتصدى
 لِعِزِّ الْمُنْزَلِينَ. وَمَنْ تَصَامَمَ بِحُكْمِ الْغَفْلَةِ وَقَعَ فِي وَهْدَةِ الْجَهْلِ، وَوَسِمَ بِكَيِّْ الْهَجْرِ.
 قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ .
 قابله بالعناد، وتأولاه على ما يقع له من وجوه المراد من دون تصحيح
 بإسناد... فهو لاء ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾: مُذِلٌّ.

وقد يُكَاشِفُ الْعَبْدُ مِنْ بَوَاطِنِ الْقَلْبِ بِتَعْرِيفَاتٍ لَا يَتَدَاخَلُهُ فِيهَا رَبٌّ، وَلَا
 يَتَخَالَجُهُ مِنْهَا شَيْءٌ فِيمَا هُوَ بِهِ مِنْ حَالِهِ... فإذا استهان بها وقع في ذُلِّ الْحِجْبَةِ وَهَوَانِ
 الْفِرْقَةِ.

قوله جل ذكره: ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ
 اللَّهِ أَوْلِيَاءَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

فعند هذه الفترة، وفي وقت هذه المحنة فلا عُدْرَ يُقْبَلُ مِنْهُمْ، وَلَا خِطَابَ يُسْمَعُ
 عَنْهُمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُتَّصِلٌ، وَلَا يُرَدُّونَ إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْكُشْفِ:

فَخَلَّ سَبِيلَ الْعَيْنِ بَعْدَكَ لِلْبَكَاءِ فليس لأيام الصفاء رجوع^(١)

قوله جل ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ
 وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

عندما يركبون البحرَ فلربما تَسَلَّمُ السَّفِينَةُ ولربما تفرق.

وكذلك العبد في فلك الاعتصام في بحار التقدير، تمشي به رياح العناية،
 وَأَشْرَعَةُ التَّوَكُّلِ مَرْفُوعَةٌ، وَالسُّبُلُ فِي بَحْرِ الْيَقِينِ وَاضِحَةٌ. وطالما تهب رياح السلامة
 فَالسَّفِينَةُ نَاجِيَةٌ. أَمَّا إِنْ هَبَّتْ نَكَبَاتُ الْفِتْنَةِ فعندئذٍ لَا يَبْقَى بِيَدِ الْمَلَّاحِ شَيْءٌ، وَالْمُقَادِيرُ
 غَالِبَةٌ، وَسَرْعَانِ مَا تَبْلُغُ قُلُوبُ أَهْلِ السَّفِينَةِ الْحَنَاجِرَ.

(١) الآية (١١) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾: كُلُّ مَا خَلَقَ مِنْ وَجْهِ الِاتِّفَاعِ بِهَا - كُلُّهُ مِنْهُ سُبْحَانَهُ؛ فَمَا مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْأَعْيَانِ الظَّاهِرَةِ إِلَّا - وَمِنْ وَجْهِ - لِلْإِنْسَانِ بِهِ اتِّفَاعٌ. . . وَكُلُّهَا مِنْهُ سُبْحَانَهُ؛ فَالسَّمَاءُ لَهُمْ بِنَاءٌ، وَالْأَرْضُ لَهُمْ مِهَادٌ. . . إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ. وَمِنْ الْعَبْنِ أَنْ يَسْتَخْرَكَ مَا هُوَ مُسَخَّرٌ لِّكَ! وَلَيْتَأَمَّلِ الْعَبْدُ كُلَّ شَيْءٍ. . . كَيْفَ إِنْ كَانَ خَلَقَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا مَاذَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ؟! فَلَوْلَا الشَّمْسُ. . . كَيْفَ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِي النَّهَارِ؟ وَلَمْ يَكُنِ اللَّيْلُ كَيْفَ كَانَ يَسْكُنُ بِاللَّيْلِ؟ وَلَوْ لَمْ يَكُنِ الْقَمَرُ. . . كَيْفَ كَانَ يَهْتَدِي إِلَى الْحِسَابِ وَالْأَجَالِ؟. . . إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

نَدَّبَهُمْ إِلَى حُسْنِ الْخُلُقِ، وَجَمِيلِ الْعِشْرَةِ، وَالتَّجَاوُزِ عَنِ الْجَهْلِ، وَالتَّنْقِيهِ مِنَ كَدُورَاتِ الْبَشَرِيَّةِ. وَمَقْتَضِيَّاتِ الشُّحِّ.

وَبَيَّنَ أَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - لَا يَفُوتُهُ أَحَدٌ. فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ يَحْفَظُ أَوْلِيَاءَهُ، وَكَيْفَ يُدَمِّرُ أَعْدَاءَهُ. فَلْيَصْبِرْ أَيَّامًا قَلِيلًا لِّيَعْلَمَ كَيْفَ صَارَتْ عَوَاقِبُهُمْ.

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ تُرْجَعُونَ﴾.

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ مَهْنَاهُ، وَمَنْ ارْتَكَبَ سَيِّئَةً قَاسَىٰ بِلَوَاهِ. . . ثُمَّ مَرْجِعُهُ إِلَىٰ مَوْلَاهُ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾.

كَرَّرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ ذِكْرَ مُوسَىٰ وَذَكَرَ بَنِي إِسْرَءِيلَ. . . بَعْضُهُ عَلَى الْحِمْلَةِ وَبَعْضُهُ عَلَى التَّفْصِيلِ. وَهَذَا أَجْمَلٌ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، ثُمَّ عَقِبَهُ حَدِيثُ نَبِيِّنَا ﷺ^(١)، فَقَالَ:

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أَفْرَدْنَاكَ بِلَطَائِفِ فَاعْرِفْهَا، وَسَنَّا لَكَ طَرَائِقَ فَاسْلُكْهَا، وَأَثْبَتْنَا لَكَ حَقَائِقَ فَلَا تَتَجَاوَزْهَا، وَلَا تَجْنَحْ إِلَىٰ مُتَابَعَةِ غَيْرِكَ:

(١) الآية (١٧) لم ترد.

﴿إِنَّهُمْ لَن يَغْتَنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ .

إن أراد بك نعمة فلا يمنعها أحد، وإن أراد بك فتنة فلا يضرها عنك أحد. فلا تعلق بمخلوق فكرك، ولا تتوجه بضميرك إلى شيء، وثق بربك، وتوكل عليه.

قوله جل ذكره: ﴿هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ .

أنوار البصيرة إذا تلالأت انكشفت دونها تهمة التجويز.

ونظر الناس على مراتب: فمن ناظر بنور نجومه - وهو صاحب عقل، ومن ناظر بنو فراسته وهو صاحب ظن يقويه لؤخ - ولكنه من وراء السر^(١)، ومن ناظر بيقين علم بحكم برهان وشرط فكير، ومن ناظر بعين إيمان بوصف اتباع، ومن ناظر بنور بصيرة هو على نهار، وشمسه طالعة وسماؤه من السحاب مصحبة.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ .

أمن خفضناه في حضيض الضعة كمن رفعناه إلى أعالي المنعة؟

أمن أخذنا بيده ورحمناه كمن داسه الخذلان فرجمناه؟

أمن وهبناه بسط وقت وأنس حال وروح لطف حتى خصصناه ورقيناه، ثم قرَّبناه وأذنيناه كمن ترك جذه واستفراغ وسعه وإسبال دفعه واحترق قلبه.. فما أنعشناه^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ عَنَبَةً﴾ .

من لم يسلك سبيل الاتباع، ولم يستوف أحكام الرياضة، ولم يتسلخ عن هواه بالكلية، ولم يؤذبه إمام مقتدى فهو ينجر في كل هذبة، ويهيم في كل ضلالة، ويضل في كل فج، خسارته أكثر من ربحه!! أولئك في ضلال بعيد؛ يعملون القرب على ما يقع لهم من نشاط نفوسهم، زمامهم بيد هواهم، أولئك أهل المكر.. استدرجوا وما يشعرون!

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَحَيًّا وَمَا يَلْهِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ .

لم يعتبروا بما وجدوا عليه خلقهم وسلفهم، وأزجوا في البهيمية عيشهم

(١) انظر حاشيت القشيري عن الفراسة برسائله ص ٢٣١ - ٢٤١.

(٢) الآية (٢٢) لم ترد.

وَعُمْرَهُمْ، وَأَعْفُوا عَنْ كَذِّ الْفِكْرَةِ قُلُوبِهِمْ... فلا بالعلم استبصروا، ولا من التحقيق استمدوا. رأس ما ليهم الظن - وهم غافلون.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا يَنْتَبِهْ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

طلبوا إحياء موتاهم، وسوف يرون ما استبعدوا.

ثم أخبر أن مُلْكَ السموات والأرض لله، وإذا أقام القيامة يُخَشِّرُ أصحابُ البطلان، فإذا جاءهم يومُ الخصام:

﴿وَرَأَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِئُهُ كُلُّ أَتَقَى نَدْعَى إِلَى كَيْفِهَا الْيَوْمَ يُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

كل بحسابه مطالب... فأما الذين آمنوا فلقد فازوا وسادوا، وأما الذين كفروا فهلكوا وبادوا.. ويقال لهم: أنتم الذين إذا قيل لكم حديثُ عُقْبَاكُمْ كَذَّبْتُمْ مَوْلَاكُمْ؟ فالיום - كما نسيتمونا - ننساكم، والنارُ مأواكم^(١):

قوله جل ذكره: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

لله الحمد على ما يُبْدِي وَيُنْشِي، ويحيي ويُمِيت، ويُجْزِي وَيُمِيزي... إذ الحكم لله، والكبرياء لله، والعظمة والسَّناء لله، والرفعة والبهاء لله.

(١) الآيات من (٢٩ حتى ٣٥) لم ترد.

سورة الأحقاف

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة للقلوب سالبة، للعقول غالبية، للمطيعين واهبة، للعارفين ناهبة.. فالذين يهبهم لطفه، والذين ينهبهم فَمَنْ مَحَقَهُ فهو عنه خَلَقَهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿حَمَّ تَزِيلُ الْكَتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

حَمَيْتُ قلوب أهل عنايةتي فَصَرَفْتُ عنها خواطر التجويز، وَثَبَّتُها في مشاهد اليقين بنور التحقيق؛ فلاحَت فيها شواهد البرهان، فأَضَفْنَا إليها لطائف الإحسان؛ فَكَمَّلْنا مثالها من عين الوصلة، وغديناها بنسيم الأنس في ساحات القرية.

﴿الْعَزِيزِ﴾: الْمُعَزُّ للمؤمنين بإنزال الكتاب عليهم.

﴿الْعَلِيمِ﴾، الْمُخَيَّم لكتابه عن التبديل والتحويل.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ﴾.

الكافرون مُعْرِضُونَ عن موضع الإنذار، مقيمون على حَدِّ الإصرار.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنَبِّئُونَ بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَتُرَى مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أروني.. أي أثّر فيهم في الملك، أو القدرة على النفع والضرر؟ إن كانت لكم حُجَّةٌ فَأَظْهِرُوها، أو دلالة فَبَيِّنُوها.. وإذا قد عَجَزْتُمْ عن ذلك فهلأ رجعتم عن غيكم وأقلعتم؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ أَسْلَ مِنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾.

مَنْ أَشَدُّ ضَلَالاً مِنْ عَبْدٍ الجماد الذي ليس له حياة ولا له في النفع أو الضرر إثبات؟.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

إذا حُشِرَ الناسُ للحساب وقعت العداوة بين الأصنام وعابديها.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا تَنَالَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بِآيَاتِنَا قَالَ أَلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

رموا رُسُلَنَا بالسُّحَرِ ثم بالافتراء والمكر. . . قُلْ - يا محمد - كفى بالله بيني وبينكم شهيداً؛ أنتم أشركتم به، وأنا أخلصت له توحيداً. وما كنت بدعاً من الرسل؛ فلست بأول رسولٍ أُرْسِلَ، ولا بغير ما جاءوا به من أصول التوحيد جئت، إنما أمرتكم بالإخلاص في التوحيد، والصدق في العبودية، والدعاء إلى محاسن الأخلاق^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ إِنْ أَنِيعَ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

وهذا قبل أن نزل قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]. وفي الآية دليلٌ على فساد قول أهل القَدَرِ والبدع حيث قالوا: «إيلام البريء قبيحٌ في العقل». لأنه لو لم يَجْزُ ذلك لكان يقول: «أَعْلَمُ - قطعاً - أنني رسول الله، وأني معصومٌ... فلا محالة يغفر لي، ولكنه قال: وما أدري ما يُفْعَلُ بي ولا بكم؛ لِيُعْلَمَ أن الأمر أمره، والحكم حكمه، وله أن يفعل بعباده ما يريد.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

تبَيَّنَ له أنه لا عُذْرَ لهم بحال، ولا أمانَ لهم من عقوبة الله. وما يستروحون إليه من حُجَجِهِمْ عند أنفسهم كلها - في التحقيق - باطلٌ. وأخبر أن الكفار قالوا: لو كان هذا الذي يقوله من الحشر والنشر حقٌ لم تتقاصر رتبنا عند الله عن رتبة أحد، ولتَقَدَّمنا - في الاستحقاق - على الكل. ولما لم يجدوا لهذا القول دليلاً صرّحوا: ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾.

ولقد بَعَثَ اللَّهُ أنبياءه - عليهم السلام - وأنزل عليهم الكتب، وبيّن في كل كتاب، وعلى لسان كل رسولٍ بأنه يبعث محمداً رسولاً، ولكن القوم الذين في عصر نبينا - ﷺ - كتموه، وحسدوه^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. مضى تفسير الاستقامة. وإن من خرج على الإيمان والاستقامة حَظِي بكل كرامة، ووصل إلى جزيل السلامة.

(٢) الآية (١٢) لم ترد.

(١) الآية (٨) لم ترد.

وقيل: السين في «الاستقامة» سين الطَّلَب؛ وإن المستقيم هو الذي يتהל إلى الله تعالى في أن يُقيمَه على الحق، ويثبتَه على الصدق^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾.

أَمَرَ الإنسان برعاية حق والديه على جهة الاحترام، لما لهما عليه من حق التربية والإنعام، وإذا لم يُحسِن الإنسان حُرْمَةً مَنْ هو مِنْ جنسه فهو عن حُسْنِ مراعاة سيِّده أبعد. ولو لم يكن في هذا الباب إلا قوله - ﷺ: «رضا الرب من رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما»^(٢) لكان ذلك كافياً. ورعاية حق الوالد من حيث الاحترام، ورعاية حق الأم من حيث الشفقة والإكرام. وَوَعَدَ اللَّهُ الوالدين قبولَ الطاعة بقوله جل ذكره:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِينَ كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

فقبول الطاعة وغفران الزَّلَّة مشروطان ببرِّ الوالدين. وقد ذمَّ الله - سبحانه - الذي يتصف في حقهما بالتأقُّف، وفي ذلك تنبيه على ما وراء ذلك من أي تعتُّف، وعلى أنَّ الذي يَسْلُكُ ذلك يكونُ من أهل الخسران، وبالتالي يكون ناقص الإيمان.

وسبيلُ العبد في رعاية حق الوالدين أن يُصلِح ما بينه وبين الله، فحينئذٍ يَصْلُح ما بينه وبين غيره - على العموم، وأهله - على الخصوص.

وشرُّ خصال الولد في رعاية حق والديه أن يتبرَّم بطول حياتهما، ويتأذى بما يحفظ من حقهما. وعن قريب يموت الأصل ويبقى النسل، ولا بدُّ من أن يتبع النسل الأصل، وقد قالوا في هذا المعنى:

رويدك إن الدهرَ فيه كفايةً لتفريق ذات البين. . فانتظر الدهرا^(٣)

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَذَّتْكُمْ طَبِئَتُكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتُمْ بِهَا فَأَيُّومَ تُعْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾.

سبيلُ العبد ألا ينسى في كل حالٍ معبوده، وأن يتذكر أنه معه في همه وسروره،

(١) الآية (١٤) لم ترد.

(٢) أخرجه الترمذي في (السنن ١٨٩٩)، والحاكم في (المستدرک ٤/ ١٥٢)، والهيتمي في (مجمع الزوائد ٨/ ١٣٦)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/ ٣٣٠)، والمجلوني في (كشف الخفاء ١/ ٥٢٠)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ٨٨)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٣/ ٣٢٢).

(٣) الآيات ١٧، ١٨، ١٩ لم ترد.

وفي مناجاته عند رخائه وبلائه . فإن اتفق أَنَّ حَصَلَ لَهُ أَنْسٌ ، وَعَلَبَ عَلَيْهِ رَجَاءٌ وَبَسْطٌ
ثم هجم على قلبه قَبْضٌ أَوْ مَسَهُ خَوْفٌ . . فليخاطب ربه حتى لا يكونَ من جملة مَنْ
قيل له : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طِينَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَذْكُرْنَا عَادَ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ^(١) وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ
وَمَنْ خَلْفَهُ إِلَّا تَبَدُّوا إِلَّا اللَّهُ إِنَّ لَنَا عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

أخبر ^(٢) بالشرح عن قصة هود وقومه عاد وما جرى بينهم من الخطاب ، وتوجه
عليهم من العتاب ، وأخذهم باليم العذاب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّكُمْ فِيهِ ﴾ .

فلم يُعْنِ عنهم ما آتيناهم . . وانظروا كيف أهلكناهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا
أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ .

كان رسول الله ﷺ مبعوثاً إلى الجن كما كان مبعوثاً إلى الإنس . وإن قوماً أتوه
ليلة الجن وآمنوا به ، ورجعوا إلى قومهم فأخبروهم ، وآمن قومٌ منهم ؛ فاليوم في الجن
مؤمنون ، وفيهم كافرون .

﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ﴾ الصيحة على الباب وفوق البساط غيبة ؛ ولهذا لما
حضر الجن بساط خدمته - ﷺ - تواصلوا فيما بينهم بحفظ الأدب ، وقالوا لما حضروا
بساطه : ﴿ أَنْصِتُوا ﴾ ، فاهل الحضور صفتهم الذبول والسكون ، والهيبة والوقار . والثوران
أو الإنزعاج يدل على غيبة أو قلة تيقظ أو نقصان اطلاع . ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ ﴾ يعني الوحي
﴿ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ وأخبروهم بما رأوه وسمعوه ^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَفْقَوْمَنَا آجِبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِزَّكُمْ مِنْ
عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ .

يقال الإجابة على ضربين : إجابة لله ، وإجابة للداعي ؛ فإجابة الداعي بشهود
الوساطة - وهو الرسول ﷺ - . وإجابة الله بالجهر إذا بلغت الرسالة على لسان السفير ،
وبالسُر إذا حصلت التعريفات من الواردات على القلب ؛ فمستجيب بنفسه ومستجيب

(١) الأحقاف (ج) الحقف : من الرمل المعوج . وقيل : الأحقاف : ديار عاد وقيل : واحدها حقف وهو
المستطيل المشرف . وقيل : الأحقاف في القرآن : جبل محيط بالدنيا من زبرجدة خضراء تلتهب يوم
القيامة فتحشر الناس من كل أفق . (اللسان ٥٢ / ٩ مادة : حقف) .

(٢) الآيات من (٢٢ حتى ٢٨) لم ترد .

(٣) الآية (٣٠) لم ترد .

بقلبه ومستجيب بروحه ومستجيب بسرّه . ومن توقف عن دعاء الداعي إياه ، ولم يبادر بالاستجابة هُجِرَ فيما كان يُخاطب به ^(١) .

قوله جلّ ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ بِمُخْلَقِهِنَّ يَفْتَدِرْ عَلَيْهِمْ أَنْ يُخَيِّتَ الْمَوْتَ بَلَى إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

الرؤية هنا بمعنى العلم .

﴿وَلَمْ يَكُنْ﴾ أي ولم يعجز ولم يضعف .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ .

ثم يقال لهم على سبيل تأكيد إلزام الحجة :

قوله جلّ ذكره: ﴿الَّذِينَ هَذَا بِآلِ الْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ .

جزاء لكم على كفركم .

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ .

أولو الجد والصبر والحزم . وجاء في التفسير أنهم : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ﷺ . وقيل : هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم السلام . وقيل : منهم يعقوب وأيوب ويونس .

والصبرُ هو الوقوف لحُكْمِ الله ، والثباتُ من غير بثٍ ولا استكراه .

قوله جلّ ذكره: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَارٍ﴾ .

ويقال مُدَّةُ الخلق : من مبتدأ وقتهم إلى مُنتهى آجالهم بالإضافة إلى الأزلية كـلحظةٍ بل هي أقل ؛ إذ الأزل لا ابتداء له ولا انتهاء . . وأي خَطَرٍ لما حصل في لحظةٍ . . خيراً كان أو شراً ؟!

(١) الآية (٣٢) لم ترد .

سورة محمد ﷺ

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

مَنْ ذَكَرَ «بِسْمِ اللَّهِ» جَلَّتْ رُتْبَتُهُ، وَمَنْ عَرَفَ «بِسْمِ اللَّهِ» صَفَتْ حَالَتُهُ، وَمَنْ أَحَبَّ «بِسْمِ اللَّهِ» أَشْلَكَتْ قِصَّتُهُ، وَمَنْ صَجِبَ «بِسْمِ اللَّهِ» امْتَحَنَتْ أَثْنَتُهُ، وَتَلَّاسَتْ - بِالْكَلِيَّةِ - جُمْلَتُهُ.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: امتنعوا، وَصَدُّوا فَمَنَعُوا؛ فلأنهم امتنعوا عن سبيل الله استوجبوا الحُكْمَ والغِيبةَ.

﴿أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ﴾: أي أحبطها.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بما نُزِّلَ على محمد، ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

أصلح حالهم، فالكفرُ للأعمالِ مُخِطٌ، والإيمانُ للتخليدِ مُسْقِطٌ.

ويقال: الذين اشتغلوا بطاعةِ اللَّهِ، ولم يعملوا شيئاً ما خَالَفَ اللَّهَ - فلا محالة - نقوم بكفاية اشتغالهم بالله.

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾.

أي يضرب أمثال هؤلاء لحسانتهم، وأمثال هؤلاء لسيئاتهم.

ويكون اتباعُ الحقِّ بموافقةِ السُّنَّةِ، ورعايةِ حقوقِ الله، وإيثارِ رضاه، والقيام بطاعته ويكون اتباعُ الباطلِ بالابتداعِ، والعملِ بالهوى، وإيثارِ الحُظُوظِ، وارتكابِ المعصية.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَرَقُوهُ فَضْدُوا الْوَتَانَ فَإِنَّمَا مَتَا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَرْزَاقَهَا﴾.

إذا حَصَلَ الظُّفْرُ بالعدوِّ فالعفو عنهم وَتَرَكَ المِبالِغَةَ في التشديد عليهم - للندم مُوجِبٌ، وللفرصةِ تَضْيِيعٍ؛ بل الواجبُ إزهاقُ نفوسهم، واستئصالُ أصولهم، واقتلاعُ شَجَرِهِمْ من أصله.

وكذلك العبد إذا ظفر بنفسه فلا ينبغي أن يُبقي بعد انتفاش شوكة بقية من الحياة، فَمَنْ وضع عليها إصبعاً بَثَّتْ سُمُّها فيه .

﴿إِنَّمَا مَتَا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ﴾ ذلك إذا رجا المسلمون في ذلك غبطة أو فائدة؛ مثل إفراج الكفار عن قوم من المسلمين، أو بسبب ما يؤخذ من الفداء . . وأمثال هذا، فحينئذٍ ذلك مُسَلَّمٌ على ما يراه الإمام .

كذلك حال المجاهدة مع النفس: حيث يكون في إغفاء ساعة أو في إفطار يوم ترويح للنفس من الكد، وتقوية على الجهد فيما يستقبل من الأمر - فذلك مطلوبٌ حسبما يحصل به الاستصواب من شيخ المرید، أو فتوى لسان الوقت، أو فِرَاسة صاحب المجاهدة .

قوله جل ذكره: ﴿قُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ يُضِلَّ أَعْمَالُكُمْ سَيُذِلِّكُمْ وَيَضِلُّوا بِأَلْمَمِ وَيَدْخُلُهُمُ النَّارُ عَرَقًا لَهُمْ﴾ .

إذا قُتِلَ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ تَوَلَّى وَرَثَةُ الْمَقْتُولِ بِأَحْسَنَ مِنْ تَوَلِيَةِ الْمَقْتُولِ .
وكذلك يَرْفَعُ دَرَجَاتِهِ ؛ فَيُغْظَمُ ثَوَابُهُ ، وَيُكْرَمُ مَا بِهِ .

قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يُنْصَرُوا وَيَكُنَّ أَعْدَاؤُكُمْ﴾ .
نصرة الله من العبد نصرة دينه بإيضاح الدليل وتبيينه .

ونصرة الله للعبد بإعلاء كلمته، وقمع أعداء الدين ببركات سعيه وهمتيه .
﴿وَيَكُنَّ أَعْدَاؤُكُمْ﴾ بإدامة التوفيق لثلاث ينهزم من ضولة أعداء الدين .

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ ءَاضِلٌ ءَعْمَلَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ .

تَعَسَا لَهُمْ: لعنا وطردنا، وقمنا وبعدنا!

﴿ءَاضِلٌ ءَعْمَلَهُمْ﴾: هَتَكَ أَسْرَارَهُمْ، وَأَظْهَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَسْرَارَهُمْ، وَأَخْمَدَ نَارَهُمْ .
قوله جل ذكره: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ فِي الْأَرْضِ فَتَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ .

وكيف أهلكهم وأبادهم وأقامهم؟

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ .

المولى هنا بمعنى الناصر؛ فالله ناصر للذين آمنوا، وأما الكافرون فلا ناصر لهم .

أو المولى من الموالاة وهي ضد المعاداة، فيكون بمعنى المحب؛ فهو مولى الذين آمنوا أي مُحِبُّهُمْ، وأما الكافرون فلا يحبهم الله .

ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوَّلَ مَا لَهُمْ أَطْلَعُوهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ويصح أن يقال إن هذه أرجى آية في القرآن؛ ذلك بأنه سبحانه يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولم يقل: مولى الزهاد والعباد وأصحاب الأوراد والاجتهاد؛ فالمؤمن - وإن كان عاصياً - من جملة الذين آمنوا، (لا سيما و «آمنوا» فعل، والفعل لا عموم له). قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

مضى الكلام في هذه الآية.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَصَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾.

الأنعام تأكل من أي موضع بلا تمييز، وكذلك الكافر لا تمييز له بين الحلال والحرام. [كذلك الأنعام ليس لها وقت لأكلها؛ بل في كل وقت تقتات وتأكل، وكذلك الكافر، وفي الخبر: «إنه يأكل في سبعة أمعاء»^(١). أما المؤمن فيكتفي بالقليل كما في الخبر: «إن كان ولا بُد فثُلُث للطعام وثُلُث للشراب وثُلُث للنفس»^(٢) و «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه»^(٣).

ويقال: الأنعام تأكل على الغفلة؛ فَمَنْ كان في حال أكله ناسياً ربّه فأكله كأكل الأنعام.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا تَاصِرَ لَهُمْ﴾.

﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾: يعني بها مَنْ أهلكهم من القرون الماضية في الأعصر الخالية.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَنْ كَانَ عَلَى يَتْنٍ مِنْ رَبِّهِ كَمْ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ عَمَلِهِمْ وَابْتُغُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾.

«البينة»: الضياء والحُجَّة، والاستبصار بواضح المحجة: فالعلماء في ضياء برهانهم، والعارفون في ضياء بيانهم؛ فهؤلاء بأحكام أدلة الأصول يُبْصِرُونَ، وهؤلاء بحكم الإلهام والوصول يستبصرون.

(١) أخرجه الموطأ (صفة النبي ٩، ١٠)، وأحمد بن حنبل ٢/٢١، ٤٣، ٧٤.

(٢) أخرجه ابن ماجه (أطعمة ٥٠)، والترمذي (زهد ٤٧).

(٣) أخرجه الترمذي في (السنن ٢٣٨٠)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤/١٣٢)، والدارمي في (السنن ٢١٣)، والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/٣٨٧)، والقاضي عياض في (الشفاء ١/١٨٦)، وابن حجر في (فتح الباري ١١/٢٨٨، ١٣/٢٤٨)، والمجلوني في (كشف الخفاء ٢/٢٧٨)، وابن الجوزي في (تلييس إبليس ٢١٤).

قوله جل ذكره: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

كذلك اليوم شأن الأولياء، فلهم شراب الوفاء، ثم شراب الصفاء، ثم شراب الولاء، ثم شراب حال اللقاء.

ولكل من هذه الأشربة عمل، ولصاحبه شكر وصحو؛ فمن تحسنى شراب الوفاء لم ينظر إلى أحد في أيام غيبته من أحبابه:

وما سرّ صدري منذ شطّ بك النوى أنيس ولا كأس ولا متصرف
ومن شرب كأس الصفاء خلص له عن كل شوب، فلا كدورة في عهده، وهو في كل وقت صافٍ عن نفسه، خالٍ من مطالباته، قائم بلا شغل - في الدنيا والآخرة - ولا أرب.

ومن شرب كأس الولاء عديم فيه القرار، ولم يغيب بسرّه لحظة في ليل أو نهار. ومن شرب في حال اللقاء أنيس على الدوام ببقائه؛ فلم يطلب - مع بقاءه - شيئاً آخر من عطائه؛ لاستهلاكه في علائه عند سطوات كبرائه.

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَعِ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾.

هم المنافقون الذين كرهوا ما أنزل الله؛ لِمَا فِيهِ مِنْ افْتِضَاجِهِمْ.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾

﴿اهْتَدَوْا﴾: بأنواع المجاهدات، «فزادهم هدى»: بأنوار المشاهدات.

﴿اهْتَدَوْا﴾: بتأمل البرهان، «فزادهم هدى»: بزوح البيان.

﴿اهْتَدَوْا﴾: بعلم اليقين، «فزادهم هدى»: بحق اليقين.

﴿اهْتَدَوْا﴾: بآداب المناجاة، «فزادهم هدى»: بالنجاة ورفع الدرجات.

﴿اهْتَدَوْا﴾: إلى ما فيه من الحق ولم يختلفوا في أنه الحق، «فزادهم هدى»

بالاستقامة على طرق الحق.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ فَاَعْلَمُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكُمْ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.

كان عالماً بأنه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فأمره بالثبات عليها؛ قال (ص): «أنا أعلمكم بالله، وأخشاكم له»^(١).

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ٣١/٨، ١٢٠/٩)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٦/١٢٢، ١٨١)، والرافعي في (المفني عن حمل الأسفار ٤/١٥٣)، وابن حجر في (فتح الباري ١٠/٥١٣).

ويقال: كيف قيل له: ﴿... فَأَعْلَزَ﴾ ولم يقل: عَلِمْتُ، وإبراهيم قيل له: ﴿أَسْلِمْتَ﴾ [البقرة: ١٣١] فقال: «سلمت...»؟ فُجِبَ بأنَّ إبراهيمَ لَمَّا قال: «أسلمت» ابْتُلِيَ، وَنَبِئْنَا ﷺ لم يقل: علمت فعُوفِيَ.

وإبراهيم عليه السلام أتى بَعْدَهُ شَرَعَ كَشَفَ سِرَّهُ، وَنَبِئْنَا ﷺ لم يأتِ بَعْدَهُ شَرَعَ. ويقال: نَبِئْنَا ﷺ أخبر الحقُّ عنه بقوله: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ...﴾ [البقرة: ٢٨٥] والإيمان هو العلم - وإخبارُ الحقِّ سبحانه عنه أَمُّ من إخباره بنفسه عن نفسه: «عَلِمْتُ».

ويقال: فرق بين موسى عليه السلام لَمَّا احتاج إلى زيادة العلم فأَحِيلَ على الخضر، وَنَبِئْنَا ﷺ قال له: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]... فكَم بين مَنْ أُحِيلَ في استزادة العلم على عَبْدٍ وبين مَنْ أَمَرَ باستزادة العلم من الحق!!

ويقال لَمَّا قال له: ﴿فَأَعْلَزَ أَنْتَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ كان يأمره بالانقطاع إليه عن الخَلْق، ثم بالانقطاع منه - أي من الرسول - إليه... أي إلى الحق سبحانه. والعبد إذا قال هذه الكلمة على سبيل العادة والغفلة عن الحقيقة - أي كان بصفة النسيان - فليس لقوله كثير قيمة؛ كَأَن تُقَالَ عند التعجب من شيء... فليس لهذا قَدْرًا. أَمَّا إذا قالها مخلصاً فيها، ذاكرةً لمعناها، متحققاً بحقيقتها... فَإِنَّ كان بنفسه فهو في وطن التفرقة... وعندهم هذا من الشُرْكِ الخَفِيِّ، وإن قالها بحق فهو الإخلاص. فالعبد يعلم أولاً رَبَّهُ بِدليل وَحُجَّةٍ؛ فَعِلْمُهُ بنفسه كَسْبِيٌّ... وهو أصل الأصول، وعليه ينبنى كل علم استدلالِيٍّ! ثم تزداد قوة علمه بزيادة البيان وزيادة الحجج، ويتناقص علمه بنفسه لَغَلَبَاتِ ذِكْرِ اللَّهِ على القلب. فإذا انتهى إلى حال المشاهدة، واستيلاء سلطان الحقيقة عليه صار عِلْمُهُ في تلك الحالة ضرورياً. ويقلُّ إحساسه بنفسه حتى يصير علمه بنفسه كالاستدلالِيٍّ وكأنه غافلٌ عن نفسه أو ناسٍ لنفسه.

ويقال: الذي على البحر يغلب عليه ما يأخذه من رؤية البحر، فإذا ركب البحر قويت هذه الحالة، حتى إذا غرق في البحر فلا إحساسَ له بشيء سوى ما هو مستغرق فيه ومستهلك^(١).

﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ﴾: أي إذا عَلِمْتَ أنك علمت فاستغفرْ لذنوبك من هذا؛ فإن الحقَّ - على جلال قدره - لا يعلمه غيره.

(١) استفاد القشيري هنا من الدقائق حين أوضح مراحل التواجد فالوجد فالوجود قال في رسالته: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: التواجد يوجب استيعاب العبد، والوجود يوجب استغراق العبد، والوجود يوجب استهلاك العبد، فهو كمن شهد البحر، ثم ركب البحر، ثم غرق في البحر، وترتيب هذا الأمر قصود ثم ورود ثم شهود ثم وجود ثم جمود، وبمقدار الوجود يحصل الخمود. (الرسالة القشيرية ص ٦٣).

قوله جل ذكره: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ...﴾.

كان المسلمون تضيق قلوبهم بتباطؤ الوحي، وكانوا يتمنون أن ينزل الوحي بسرعة فقال تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ رأيت المنافقين يكرهون ذلك لما كان يشق عليهم من القتال، فكانوا يفتضحون عندئذ، وكانوا ينظرون إلى النبي ﷺ - بغاية الكراهة.

﴿... فَأَوَّلَى لَهُمْ﴾.

تهديد.

قوله جل ذكره: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾.

وهو قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ...﴾.

ويقال: فأولى لهم طاعة منهم لله ولرسوله. ﴿وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ بالإجابة لما أمروا به عن الجهاد.

ويقال: طاعة وقول معروف أمثل بهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.

إذا عزم الأمر - أي جدّ وفُرض القتال - فالصدق والإجابة خير لهم من كذبهم ونفاقهم وتقاعدهم من الجهاد.

قوله جل ذكره: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾.

أي فلعلمكم إن أعرضتم عن الإيمان - بمحمد ﷺ - ورجعتم إلى ما كنتم عليه أن تفسدوا في الأرض، وتسفكوا الدماء الحرام، وتقطعوا أرحامكم، وتعودوا إلى جاهليتكم.

قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾.

أصمهم عن سماع الحق وقبوله بقلوبهم، وأعمى بصائرهم.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.

أي إن تدبروا القرآن أفضى بهم إلى العرفان، وأراحهم من ظلمة التحير.

﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾: أقفل الحق على قلوب الكفار فلا يذأخلها زاجر التنبيه،

ولا ينبسط عليها شعاع العلم، فلا يحصل لهم فهم الخطاب؛ فالباب إذا كان مقفلاً... فكما لا يدخل فيه شيء لا يخرج منه شيء؛ كذلك قلوب الكفار مقفلة، فلا الكفر الذي فيها يخرج، ولا الإيمان الذي هم يدعون إليه يدخل في قلوبهم.

وأهل الشرك والكفر قد سُدتْ بصائرهم وغطيت أسرارهم، ولُبس عليهم وجه التحقيق.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾.

الذي يطلع فجر قلبه، ويتلألأ نور التوحيد فيه، ثم قبل متوع نهار إيمانه انكسفت شمس يومه، وأظلم نهار عرفانه، ودجا ليل شكه، وغابت نجوم عقله... فحدث عن ظلماته...! ولا حرج!

ذلك جزاؤهم على ممالأتهم مع المنافقين، وتظاهروهم... فإذا تَوَقَّعْتُمُ الْمَلَائِكَةَ تتصل آلامهم، ولا تنقطع بعد ذلك عقوباتهم^(١).

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَثَهُمْ﴾.

ليس الأمر كما توهّموه، بل الله يفضحهم ويكشف تليستهم، ولقد أخبر الرسول عنهم، وعرفه أعيانهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَقَرَفَهُمْ بِسَيْمِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾.

أي في معنى الخطاب، فالأسيرة تدل على السريرة، وما يخامر القلوب فعلى الوجوه يلوح أثره:

لست ممن ليس يدري ما هو من كرامة

إن للحب وللغضب على الوجه علامة

والمؤمن ينظر بنور الفراسة، والعارف ينظر بنور التحقيق، والموحد ينظر بالله فلا يستتر عليه شيء.

ويقال: بصائر الصديقين غير مغطاة، قال رسول الله ﷺ: «سدوا كل خوخة غير خوخة أبي بكر»^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾.

بالابتلاء والامتحان تتبين جواهر الرجال، فيظهر المخلص، ويفتضح الماذق، وينكشف المنافق، فالذين آمنوا وأخلصوا نجوا وتخلصوا، والذين كفروا وناققوا وقعوا في الهوان وأذلوا، ووسموا بالشقاوة وقُطعوا.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾.

(١) الآيات (٢٦، ٢٧، ٢٨) لم ترد.

(٢) أخرجه ابن كثير في (البداية والنهاية ١٢/١٣٦).

﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾: بالرياء والإعجاب والملاحظة .
 ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾: بالمساكنة إليها . ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ بطلب الأعيان عليها .

﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾: بتوهمكم أنه يجب بها شيء دون فضل الله ^(١) .
 قوله جل ذكره: ﴿فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْوِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ .
 أي لا تميلوا إلى الصلح مع الكفار وأنتم الأعلىون بالحجة .
 أنتم الأعلىون بالنصرة . قوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ . أي بالنصرة ويقال: لا تضعفوا بقلوبكم، وقوموا بالله؛ لأنكم - والله معكم - لا يخفى عليه شيء منكم، فهو على الدوام يراكم . وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ سَيِّدَهُ يَرَاهُ يَتَحَمَّلُ كُلَّ مُشْتَغَلٍ بِرُؤْيَيْهِ:
 ﴿وَلَنْ يَزِيدَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ .

أي لا ينقصكم أجر أعمالكم .
 قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا لِلنَّيِّبَةِ الدُّنْيَا لِمَبٍ وَلَهُوَ وَإِنْ تَوَمَّنَا وَتَنَفَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ .

تجنبوا الشرك والمعاصي حتى يفيكم أجوركم .
 والله لا يسألكم من أموالكم إلا اليسير منها وهو مقدار الزكاة .
 ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْ فِي تَعِينِكُمْ تَبَحَّلُوا وَخُذُوا أَصْفَانَكُمْ﴾ .
 «الإحفاء» الإلحاح في المسألة . . . وهذا إنما يقوله لمن لم يُوقَ شُحَّ نفسه، فأما الإخوان وَمَنْ عَلَتْ رَتْبُهُمْ فِي بَابِ حَرِيَةِ الْقَلْبِ فَلَا يُسَامِحُونَ فِي اسْتِيفَاءِ ذَرَّةٍ، وَيُطَالِبُونَ بِبَذْلِ الرُّوحِ، والتزام الغرامات .
 قوله جل ذكره: ﴿هَآتَيْنَهُ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِشَيْفَتِكُمْ فِي مَسِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ﴾ .

البخل مَثْعُ الواجب، وإذا بخل فإنما يبخل عن نفسه . لأنه لو لم يفعل ذلك لَحَصَلَ له الثراء - هكذا يظن .
 قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ .

«غني» بنفسه على قول، وغني بوصفه على القول الثاني . وغناه كونه لا تنقيد مرادته . أما البعد فهو فقير بنفسه؛ لأنه لا يستغني عن مولاه؛ في الابتداء منذ خلقه إلى الانتهاء، وهو في دوام الأوقات مفتقر إلى مولاه .

(١) الآية (٣٤) لم ترد .

والفَقِيرُ الصَادِقُ مَنْ يَشْهَدُ افْتِقَارَهُ إِلَى اللَّهِ . وَصِدْقُ الْفَقِيرِ فِي شُهُودِ فَقْرِهِ إِلَى اللَّهِ . وَمَنْ افْتَقَرَ إِلَى اللَّهِ اسْتَغْنَى بِاللَّهِ ، وَمَنْ افْتَقَرَ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ وَقَعَ فِي الذُّلِّ وَالْهَوَانِ .

وَيَقَالُ : اللَّهُ غَنِيٌّ عَنْ طَاعَتِكُمْ ، وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى رَحْمَتِهِ .

وَيَقَالُ : اللَّهُ غَنِيٌّ لَا يَحْتَاجُ إِلَيْكُمْ ، وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ لِأَنْكُمْ لَا بَدِيلَ لَكُمْ عَنْهُ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ .

يَسْتَبَدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ يَكُونُونَ أَشَدَّ مِنْكُمْ طَاعَةً ، وَأَصْدَقَ مِنْكُمْ وِفَاءً ؛ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِ أَمْثَالِكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُونَ أَمْثَالَكُمْ فِي الْعَصْيَانِ وَالْإِعْرَاضِ وَتَرْكِ الشُّكْرِ وَالْوَفَاءِ . . . بَلْ سَيَكُونُونَ خَيْرًا مِنْكُمْ .

سورة الفتح

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» تشير إلى سُمُوهُ في أَرْزِلِهِ، وَعُلُوُّهُ في أَبْدِهِ؛ وَسُمُوهُ في أَرْزِلِهِ نَفْيُ البداية عنه بحقّ الْقِدَمِ، وَعُلُوُّهُ في أَبْدِهِ نَفْيُ الانتهاء عنه باستحالة الْعَدَمِ؛ فمعرفة سُمُوهُ تَوْجِبُ للعبد سُمُوًا، ومعرفة عُلُوُّهُ تَوْجِبُ للعبد عُلُوًا.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾.

قضينا لك قضاءً بَيِّنًا، وحكمنا لك بتقوية دين الإسلام، والنصرة على عدوك، وأكرمناك بفتح ما انغلق على قلب مَنْ هو غيرك - مِنْ قَبْلِكَ - بتفصيل شرائع الإسلام، وغير ذلك من فتوحات قلبه صلوات الله عليه.

نزلت الآية في فتح مكة، ويقال في فتح الحُدَيْبِيَّة^(١).

ويقال: هديناك إلى شرائع الإسلام، وَبَسَّرْنَا لك أمور الدين.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

كلا القسمين - المتقدم والمتأخر - كان قبل النبوة.

ويقال: ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ من ذَنْبِ آدَمَ بِحُرْمَتِكَ، ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾: من ذنوب أُمَّتِكَ.

وإذا حُمِلَ على ترك الأولى فقد غفر له جميع ما فعل من قبيل ذلك، قبل النبوة وبعدها.

ولما نزلت هذه الآية قالوا: هنيئاً لك! فأنزل الله تعالى: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ

جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾. . . ويقال: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

﴿وَيُتَنَزَّلُ عَلَيْكَ الْوَحْيُ مُسْتَقِيمًا﴾.

يتم نعمته عليك بالنبوة، وبوفاء العاقبة، وببسط الشريعة، وبشفاعته لأمته، وبرؤية الله غداً، وبإظهار دينه على الأديان، وبأنه سيد ولد آدم، وبأنه أقسم بحياته، وخصه بالعيان. وبسماع كلامه سبحانه ليلة المعراج، وبأن بَعَثَهُ إلى سائر الأمم. . . وغير ذلك من مناقبه.

(١) الحديبية: قرية متوسطة ليست بالكبيرة، سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ تحتها. (معجم البلدان ٢/٢٢٩).

﴿وَيَهْدِيكَ رَبُّكَ بِرُحْمَاكَ مُسْتَقِيمًا﴾ يثبتك على الصراط المستقيم، ويزيدك هدايةً على هداية، ويهدي بك الخلق إلى الحق.

ويقال: يهديك صراطاً مستقيماً بترك خطك.

﴿وَنُصْرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾.

لا ذل فيه، وتكون غالباً لا يغلبك أحد:

ويقال: ينصرك على هواك ونفيسك، وينصرك بحسن خلقك ومقاساة الأذى من قومك.

ويقال نصراً عزيزاً: مُعزراً لك ولمن آمن بك.

وهكذا اشتملت هذه الآية على وجوه من الأفضال أكرم بها نبيّه - ﷺ - وخصه بها من الفتح والظفر على النفس والعدو، وتيسير ما انغلق على غيره، والمغفرة، وإتمام النعمة والهداية والنصرة. . . ولكل من هذه الأشياء خصائص عظيمة.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

السكينة ما يسكن إليه القلب من البصائر والحُجَج، فيرتقي القلب بوجودها عن حدّ الفكرة إلى رُوح اليقين وتلج الفؤاد، فتصير العلوم ضرورة. . . وهذا للخواص.

فأما عوام المسلمين فالمراد منها: السكون والطمأنينة واليقين.

ويقال: من أوصاف القلب في اليقين المعارف والبصائر والسكينة.

وفي التفاسير: السكينة ريح هفافة. وقالوا: لها وجه كوجه الإنسان. وقيل لها جناحان.

﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾.

أي يقيناً مع يقينهم وسكوناً مع سكونهم. تطلع أقمار عين اليقين على نجوم علم اليقين، ثم تطلع شمس حق اليقين على بذر عين اليقين.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقيل: هي جميع القلوب الدالة على وحدانية الله.

ويقال: ملوك السموات والأرض وما به من قوى تقهر أعداء الله.

ويقال: هم أنصار دينه.

ويقال: ما سلطه الحق على شيء فهو من جنوده، سواء سلطه على وليه في الشدة والرخاء، أو سلطه على عدوه في الراحة والبلاء.

قوله جل ذكره: ﴿لِيُنْزِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتٍ بَحْرٍ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ قُرْآنًا عَظِيمًا﴾.

يَسْتُرْ ذُنُوبَهُمْ وَيَحْطِئُ عَنْهُمْ . . . وذلك فوراً عظيم، وهو الظفرُ بالبغية .
 وسؤال كلِّ أحدٍ ومأمولُهُ، ومُبْتَغاه ومقصودُهُ مختلفٌ . . . وقد وَعَدَ الجميعَ ظَفراً به .
 قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ
 ظَلَمَ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ ذَايَرَةُ السَّوْءِ﴾ .

يعذبهم في الآجل بعذابهم وسوء عقابهم .
 و ﴿ظَلَمَ السَّوْءَ﴾ : هو ما كان بغير الإذن؛ ظنوا أَنَّ الله لا ينصر دينه ونبيّه عليه السلام .

﴿عَلَيْهِمْ ذَايَرَةُ السَّوْءِ﴾ : عاقبته تدور عليهم وتحقيق بهم .
 ﴿وَالْعَنَافُ﴾ : أبعدهم عن فضله، وحقت فيهم كلمته، وما سبقت لهم - من الله سبحانه - قِسْمَتُهُ ^(١) .

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ .
 ﴿أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً﴾ : على أُمَّتِكَ يوم القيامة . ويقال: شاهداً على الرُّسل والكتب .

ويقال: شاهداً بوحدانيتنا وربوبيتنا . ويقال: شاهداً لأمّتك بتوحيدينا .
 ﴿وَمُبَشِّراً﴾ : لهم ميثاً بالشواب، ﴿وَنَذِيراً﴾ للخلق؛ زاجراً ومُحَذِّراً من المعاصي والمخالفات .

ويقال: شاهداً مِنْ قِبَلِنَا، وَمُبَشِّراً بأمرنا، ونذيراً من لَدُنَّا ولنا وميثاً .
 قوله جلّ ذكره: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً
 وَأَصِيلاً﴾ .

قرىء: «ليؤمنوا» بالياء؛ لأن ذكر المؤمنين جرى، أي ليؤمن المؤمنون بالله ورسوله ويعزروه وينصروه أي الرسول، ويوقروه: أي: يُعَظِّمُوا الرسولَ. وتُسَبِّحُوهُ: أي تُسَبِّحُوا الله وتنزهوه بكرة وأصيلاً ^(٢) .

وقرىء: «لتؤمنوا» - بالتاء - أيها المؤمنون بالله ورسوله وتُعَزِّرُوهُ - على المخاطبة . وتعزيره يكون بإيثاره بكل وجه على نفسك، وتقدير حكمه على حكمك . وتوقيره يكون باتباع سُنَّته، والعلم بأنه سيُدَّ بَرِيَّتُهُ .

(١) الآية (٧) لم ترد .

(٢) البكرة: الغُدوة وهي أول النهار إلى طلوع الشمس .
 الأصيل: الوقت حين تصفر الشمس لمغربها .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾.

وهذه البيعة هي بيعة الرضوان بالحديبية تحت سَمْرَةَ^(١).

وذلك أن رسول الله - ﷺ - بعث عثمان رضي الله عنه إلى قريش ليُكَلِّمَهُمْ فارجفوا بِقَتْلِهِ. وأتى عروة بن مسعود إلى النبي ﷺ وقال:

جئت بأوشاب الناس لتنفضَ بِيَضَّتِكَ يديك، وقد استعدت قريش لقتالك، وكأني بأصحابك قد انكشفوا عنك إذا مسَّهم حرُّ السلاح! فقال أبو بكر: أنظن أنا نسلم رسولَ الله ﷺ؟

فبايعهم النبي ﷺ على أن يُقاتِلُوا وألا يهربوا، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾: أي عقدك عليهم هو عقد الله.

قوله جل ذكره: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.

أي ﴿يَدُ اللَّهِ﴾: في المنة عليهم بالتوفيق والهداية: ﴿فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ بالوفاء حين بايعوك.

ويقال: قدرة الله وقوته في نصرته دينه ونصرة نبيه ﷺ فوق نُصْرِهِمْ لدين الله ولرسوله.

وفي هذه الآية تصريحٌ بعين الجمع كما قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧].

قوله جل ذكره: ﴿فَمَنْ نَكَتَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾.

أي عذاب النكث عائدٌ عليه.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسْجُوبُهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أي من قام بما عاهد الله عليه على التمام فسيؤتيه أجراً عظيماً.

وإذا كان العبد بوصف إخلاصه، يعامل الله في شيء هو به متحقق، وله بقلبه شاهد فإن الوسائط التي تُظهِرُهَا أمارات التعريفات تجعله محوياً في أسرارِهِ. . والحكم عندئذ راجع.

قوله جل ذكره: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

لَمَّا قَصَدَ رسولُ الله ﷺ التوجه إلى الحديبية تخلف قومٌ من الأعراب عنه. قيل: هم أسلم وجهينة وغفار ومزينة وأشجع، وقالوا: ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ وليس لنا مَنْ يقوم

(١) السمرة: هي الشجرة (شجرة طلع) التي كانت عندها بيعة الرضوان عام الحديبية. (اللسان ٤/ ٣٧٩ مادة: سمر).

بشأننا وقالوا: انتظروا ماذا يكون؛ فما هم من قريش إلا أَكَلَهُ رَأْسُ. فلما رجع رسول الله ﷺ جاءوه مُعْتَذِرِينَ بأنه لم يكن لهم أحدٌ يقوم بأمرهم! وقالوا: استغفر لنا.

فأطلعهم الله - سبحانه - على كذبهم ونفاقهم؛ وأنهم لا يقولون ذلك إخلاصاً، وعندهم سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، فإنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

فَضَحَهُمْ. ويقال: ما شغل العبد عن الله شُؤْمٌ عليه.

ويقال: عَذْرُ المَآذِي وتوبة المناق كلاهما ليس حقائق.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَيْكَ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَرَبَّتْ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا أَسْوَأَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾.

حسبتم أن لن يرجع الرسول والمؤمنون من هذه السفارة إلى أهلهم أبداً، وزُيِّنَتْ لكم الأمانى ألا يعودوا، وأن الله لن ينصرهم. ﴿وَكَُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي هالكين فاسدين.

ويقال: إنَّ العدو إذا لم يقدر أن يكيّد بيده يتمنى ما تنقاصر عنه مُكْنَتُهُ، وتلك صفة كل عاجز، ونعت كل لئيم. ثم إن الله - سبحانه - يعكس ذلك عليه حتى لا يرتفع مراده ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

ويقال: من العقوبات الشديدة التي يعاقب الله بها المُبْطِل أن يتصور شيئاً يتمناه ويوطّن نفسه عليه لفرط جهله. ويلقى الحق في قلبه ذلك التمني حتى تسول له نفسه أن ذلك كالكائن... ثم يعذبه الله بامتناعه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾.

وما هو آتٍ فقريب... وإن الله ليرخي عنان الظلمة ثم لا يفلتون من عقابه. وكيف - وفي الحقيقة - ما يحصل منهم هو الذي يجريه عليهم؟

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَتَغَيَّرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

يغفر - وليس له شريك يقول له: لا تفعل، ويعذب من يشاء - وليس هناك مانع عن فعله يقول له: لا تفعل.

قوله جلّ ذكره: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَيْكَ مَعَانِهِمْ لِنَأْخُذْهُمَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا﴾.

وذلك أن النبي ﷺ والمؤمنين لما رجعوا من الحديبية وعدهم الله خيبر، وأن فيها سيطفر بأعدائه، فلما هم بالخروج أراد هؤلاء المخلفون أن يتبعوه لما علموا في ذلك من الغنيمة، فقال النبي ﷺ: «إنما يخرج معي إلى خيبر من خرج إلى الحديبية، والله بذلك حكم ألا يخرجوا معنا».

فقال المتخلفون: إنما يقول المؤمنون ذلك حسداً لنا؛ وليس هذا من قول الله! فأنزل الله تعالى ذلك لتكذيبهم، وليبان حكمه ألا يستصحبهم فهم أهل طمع، وكانت عاقبتهم أنهم لم يجدوا مرادهم ورؤوا بالمذلة وافضح أمرهم.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَلَنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

جاء في التفاسير أنهم أهل اليمامة أصحاب مسيلمة^(١) - وقد دعاهم أبو بكر وحاربه، فالآية تدل على إمامته. وقيل هم أهل فارس - وقد دعاهم عمر بن الخطاب وحاربه، فالآية تدل على صحة إمامته. وصحة إمامته تدل على صحة إمامة أبي بكر. ﴿أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أولى شدة. فإن أطعتم استوجبتم الثواب، وإن تخلفتم استحققتهم العقاب. ودلت الآية على أنه يجوز أن تكون للعبد بداية غير مرضية ثم يتغير بعدها إلى الصلاح - كما كان لهؤلاء وأنشدوا:

إذا فسَدَ الإنسانُ بعد صلاحه فَرَجَ له عَوْدَ الصَّلاحِ . . لعلَّه

قوله جل ذكره: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتُ جَعْنَىٰ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَُعَذِّبْهُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

هؤلاء أصحاب الأعداء. . رفع عنهم الحرج في تخلفهم عن الوقعة في قتال المشركين.

وكذلك مَنْ كان له عذر في المجاهدة مع النفس. «فإن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه»^(٢).

(١) انظر ترجمته في الأعلام ٢٢٦/٧، وفي الكامل لابن الأثير ١٣٧/٢ - ١٤٠، وفي شذرات الذهب ٢٣/١، وفي الروض الأنف ٣٤٠/٢.

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ١٠٨/٢)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١٤٠/٣)، والهيتمي في (موارد الظمآن ٥٤٥، ٩١٣، ٩١٤)، والألباني في (إرواء الغليل ٩/٣)، والهيتمي في (مجمع الزوائد ١٦٢/٣)، وابن خزيمة في (الصحيح ٩٥٠)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ١٠١/٢، ١٠٦/٢)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ١٣٥/٢)، وابن كثير في (التفسير ٢٦/٣)، والسيوطي في (الدر المنثور ١٩٣/١)، وابن الجوزي في (زاد المسير ٢٨٩/٢) والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٣٤٧/١٠)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٥١٩٨، ٥١٩٩، ٥٢٠٠) والمفتي الهندي في (كنز=

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

هذا بيعة الرضوان، وهي البيعة تحت الشجرة بالحديبية، وسميت بيعة الرضوان لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ... الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وكانوا ألفاً وخمسمائة وقيل وثلاثمائة وقيل وأربعمائة. وكانوا قصدوا دخول مكة، فلما بلغ ذلك المشركين قابلوهم صاذين لهم عن المسجد الحرام مع أنه لم يكن خارجاً لحرب، فقصده المشركون، ثم صالحوه على أن ينصرف هذا العام، ويقيم بها ثلاثاً ثم يخرج، (وأن يكون بينه وبينهم صلح عشرة أعوام يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضاً^(١)) وكان النبي قد رأى في منامه أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين، فبشر بذلك أصحابه، فلما صدهم المشركون خامر قلوبهم شيء، وعادت إلى قلوب بعضهم تهمة حتى قال الصديق: لم يقل العام! فسكنت قلوبهم بنزول الآية؛ لأن الله سبحانه علم في قلوبهم من الاضطراب والتشكك. فأنزل السكينة في قلوبهم، وثبتهم باليقين. ﴿وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتح خيبر بعد مدة يسيرة، وما حصلوا عليه من مغنم كثيرة من خيبر. وقيل ما يأخذونه إلى يوم القيامة.

وفي الآية دليل على أنه قد تخطر ببال الإنسان خواطر مشككة، وفي الرّيب موقعة، ولكن لا عبرة بها؛ فإن الله سبحانه إذا أراد بعبد خيراً لازم التوحيد قلبه، وقارن التحقيق سرّه فلا يضره كيد الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ الْبَاقِي أَتَقْوَى إِذَا مَسَّهُمْ طَلِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ ويدخل في ذلك جميع ما يغنمه المسلمون إلى القيامة فعجل لكم هذه - يعني خيبر، وقيل: الحديبية.

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ لما خرجوا من المدينة حرسهم الله، وحفظ عيالهم، وحمى بيضتهم حين هب اليهود في المدينة بعد خروج المسلمين، فمنعهم الله عنهم. أو يقال: كف أيدي الناس من أهل الحديبية.

﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

لتكون هذه آية للمؤمنين وعلامة يستدلون بها على حراسة الله لهم.

= العمال ٥٣٣٤، ٥٣٣٥، ٥٣٧٢، وابن حجر في (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ١٣٠)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٥/١٧١٨، ٦/٢٣٦٣) والألباني في (السلسلة الصحيحة ١٩٤)، والشهاب في (المسند ١٠٧٨، ١٠٧٩).

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

﴿وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾: في التوكل على الله والثقة به .

ويقال: كف أيدي الناس عن العبد هو أن يزرقه من حيث لا يحتسب، لئلا يحتاج إلى أن يتكفف الناس .

ويقال: أن يزرق عنه أيدي الظلمة .

ويقال: ألا تحمله المطالبة بسبب كثرة العيال ونفقتهم الكبيرة على الخطر بدينه؛ فيأخذ من الأشياء - برخصة التأويل - ما ليس بطيب .

قوله جل ذكره: ﴿وَأُخْرَى لَرَّ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ .

قيل: فتح الروم وفارس . وقيل: فتح مكة .

وكان الله على كل شيء قديرًا: فلا تعلقوا بغيره قلوبكم .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ قَتَلْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرُ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ .

يعني: خير وأسد وغطفان وغيرهم - لو قاتلوكم لانهزموا، ولا يجدون من دون الله ناصرًا .

قوله جل ذكره: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ .

أي سنة الله خذلائهم ولن تجد لسنة الله تحويلاً .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ أَلَّيْ كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ .

قيل إن سبعين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون قتله (فأخذناهم سِلْماً فاستحييناهم) فأنزل الله هذه الآية في شأنهم .

وقيل أخذ اثني عشر رجلاً من المشركين - بلا عهد - فمن عليهم الرسول ﷺ وقيل: هم أهل الحديبية كانوا قد خرجوا لمنع المسلمين، وحصل ترامي الأحجار بينهم؛ فاضطرهم المسلمون إلى بيوتهم، فأنزل الله هذه الآية يمن عليهم حيث كف أيدي بعضهم عن بعض عن قدرة من المسلمين لا من عجز؛ فأما الكفار فكفوا أيديهم رغباً وخوفاً؛ وأما المسلمون فنهيًا من قبل الله، لما في أصلاهم من المؤمنين - أراد الله أن يخرجوا، أو لِمَا عَلِمَ أن قوماً منهم يؤمنون .

والإشارة فيه: أن من الغنيمة الباردة والنعم السنية أن يسلم الناس منك، وتسلم منهم . وإن الله يفعل بأوليائه ذلك، فلا من أحد عليهم خيف، ولا منهم على أحد

حَيْفٌ وَلَا حِسَابٌ وَلَا مِطَالِبَةٌ وَلَا صَلَاحٌ وَلَا مَعَاتِبَةٌ، وَلَا صِدَاقَةٌ وَلَا عِدَاوَةٌ. وكذا من كان بالحق - وأنشدوا:

فَلَمْ يَبْقَ لِي وَقْتُ لِيَذْكُرِ مُخَالِفٍ وَلَمْ يَبْقَ لِي قَلْبٌ لِيَذْكُرِ مُوَافِقٍ
قوله جل ذكره: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ﴾.

﴿كَفَرُوا﴾ وجحدوا، ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾ ومنعوكم عن المسجد الحرام سنة الحديبية. ﴿وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا﴾: أي منعوا الهدي أن يبلغ منحره، فمعكوفاً حال من الهدي أي محبوساً.

وكان النبي ﷺ قد ساق تلك السنة سبعين بدنة. قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَافُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

لو تسلطتم عليهم لأصابتهم معرة ومضرة منكم بغير علم لسلطانكم عليهم ولا ظفرناكم بهم. وفي هذا تعريف للعبد بأن أموراً قد تنغلغ وتتعسر فيضيق قلب الإنسان.. والله في ذلك سير، ولا يعدم ما يجري من الأمر أن يكون خيراً للعبد وهو لا يدري.. كما قالوا:

كم مرة حُفَّت بك المكاره خير لك الله.. وأنت كاره
قوله جل ذكره: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَعْلَاهَا وَكَانَ اللَّهُ يَكْلِلُ مَنْ يَشَاءُ عَليماً﴾.

يعني الأنفة؛ أي دفعتهم أنفة الجاهلية أن يمنعوكم عن المسجد الحرام سنة الحديبية، فأنزل الله سكينته في قلوب المؤمنين حيث لم يقابلوهم بالخلاف والمحاربة، ووقفوا واستقبلوا الأمر بالحلم.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ وهي كلمة التوحيد تضدُّ عن قلب صادق: فكلمة التقوى يكون معها الاتقاء من الشرك.

﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾ حسب سابق حكمه وقديم علمه.. ﴿وَكَانَ اللَّهُ يَكْلِلُ مَنْ يَشَاءُ عَليماً﴾.

ويقال: الإلزام في الآية هو إلزام إكرام ولطف، لا الإلزام إكراه وعنف؛ والإلزام بر لا إلزام جبر...

وكم باسطين إلى وُضِلنا أكفهمو.. لم ينالوا نصيبا!

ويقال كلمة التقوى: التواصي بينهم بحفظ حق الله.

ويقال: هي أن تكون لك حاجة فتسأل الله ولا تُبديها للناس.

ويقال: هي سؤالك من الله أن يحرسك من المطامع.

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

أي صدقه في رؤياه ولم يكذبه؛ صدقه فيما أراه من دخول مكة ﴿ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ كذلك أراه لما خرج إلى الحديبية وأخبر أصحابه. فوطئ أصحابه نفوسهم على دخول مكة في تلك السنة. فلما كان من أمر الحديبية عاد إلى قلوب بعض المسلمين شيء، حتى قيل لهم لم يكن في الرؤيا دخولهم في هذا العام، ثم أذن الله في العام القابل، فأنزل الله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ فكان ذلك تحقيقاً لما أراه، فروياه صلوات الله حق؛ لأن رؤيا الأنبياء حق.

وكان في ذلك نوع امتحانٍ لهم: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ أنتم من الحكمة في التأخير.

وقوله: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ معناه إذ شاء الله كقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وقيل قالها على جهة تنبيههم إلى التأذّب بتقديم المشيئة في خطابهم.

وقيل يرجع تقديم المشيئة إلى: إن شاء الله آمين أو غير آمين.

وقيل: يرجع تقديم المشيئة إلى دخول كلهم أو دخول بعضهم؛ فإن الدخول كان بعد سنة، ومات منهم قوم.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

أرسل رسوله محمداً ﷺ بالدين الحنفي، وشريعة الإسلام ليظهره على كل ما هو دين؛ فما من دين لقوم إلا ومنه في أيدي المسلمين سيرة؛ وللإسلام العزة والغلبة عليه بالحجج والآيات.

وقيل: ليظهره وقت نزول عيسى عليه السلام.

وقيل: في القيامة حيث يظهر الإسلام على كل الأديان.

وقيل: ليظهره على الدين كله بالحجة والدليل.

قوله جل ذكره: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

﴿أَشِدَّاءُ﴾ جمع شديد، أي فيهم صلابة مع الكفار.

﴿رُحَمَاءُ﴾ جمع رحيم، وصفهم بالرحمة والتواد فيما بينهم.

﴿تَرْبُّهُمْ رُكْعًا سُبْحًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾.

تراهم راكعين ساجدين يطلبون من الله الفضل والرضوان.

﴿يَسِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾.

أي علامة التخشع التي على الصالحين.

ويقال: هي في القيامة يوم تبيض وجوه، وأنهم يكونون غداً محجلين.

وقد قال ﷺ: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار»^(١).

ويقال في التفسير: «معه» أبو بكر، و ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ عمر؛ و ﴿رُحَمَاءُ

بَيْنَهُمْ﴾. عثمان، و ﴿تَرْبُّهُمْ رُكْعًا سُبْحًا﴾ علي رضي الله عنهم.

وقيل: الآية عامة في المؤمنين.

﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى

سَوْقِهِ. يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ﴾.

هذا مثلهم في التوراة، وأما مثلهم في الإنجيل فكزراع أخرج شطأه أي: فراخه.

يقال: أشطأ الزرع إذا أخرج صفاره على جوانبه. ﴿فَآزَرَهُ﴾ أي عاونه.

﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ أي غلظ واستوى على سوقه؛ وآزرت الصغار الكبار حتى استوى بعضه

مع بعض. يعجب هذا الزرع الزرع ليعيظ بالمسلمين الكفار؛ شبه النبي ﷺ بالزرع

حين تخرج طاقة واحدة ما ينبت حولها فتشتد، كذلك كان وحده في تقوية دينه بمن

حوله من المسلمين.

فَمَنْ حَمَلِ الْآيَةَ عَلَى الصَّحَابَةِ: فمن أبغضهم دخل في الكفر، لأنه قال:

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ﴾ أي بأصحابه الكفار. ومن حملة على المسلمين ففيه حجة على

الإجماع، لأن من خالف الإجماع - فالله يغايظ به الكفار - فمخالف الإجماع كفر.

قوله جل ذكره: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وعد المؤمنين والمؤمنات مغفرة للذنوب، وأجراً عظيماً في الجنة فقول: «منهم»

للجنس أو للذين ختم لهم منهم بالإيمان.

(١) أخرجه ابن ماجه (إقامة ١٧٤).

سورة الحجرات

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ .

«بسم الله» اسم كريم من تنصل إليه من زلاته تفضل عليه بنجاته، ومن توسل إليه بطاعته تطول عليه بدرجاته .

«بسم الله» اسم عزيز من تقرب إليه بمناجاته قابله بلطف أفضاله، ومن تحبب إليه بإيمانه أقبل عليه بكشف جلاله وجماله .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَأَقْرَأُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ : شهادة للمنادى بالشرف .

﴿لَا تَقْدِمُوا﴾ أمر بتحمل الكلف . قدم الإكرام بالشرف على الإلزام بالكلف أي لا تقدموا بحكمكم ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ : أي لا تقضوا أمراً من دون الله ورسوله أي لا تعملوا من ذات أنفسكم شيئاً .

ويقال: قفوا حيثما وقفتهم، وافعلوا ما به أمرتم، وكونوا أصحاب الاقتداء والاتباع . لا أرباب الابتداء والابتداء .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ .

أمرهم بحفظ حرمة، ومراعاة الأدب في خدمته وصحبته، وألا ينظروا إليه بالعين التي ينظرون بها إلى أمثالهم . وأنه إذا كان بخلقه يلاينهم فينبغي ألا يتبسطوا معه متجاسرين، ولا يكونوا مع ما يعاشرهم به من تخلقه عن حدودهم زائدين .

ويقال: لا تبدأوه بحديث حتى يفتاحكم .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ .

هم الذين تقع السكينة عليهم من هبة حضرته، أولئك هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى بانتزاع حب الشهوات منها، فاتقوا سوء الأخلاق، وراعوا الأدب .

ويقال: هم الذين انسلخوا من عادات البشرية.
قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي لو عرفوا قُدْرَكَ لَمَا تركوا حُرْمَتَكَ، والتزموا هَيْبَتَكَ.
ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم ولم يستعجلوا، ولم يوقظوك وقت القيلولة بمناداتهم لكان خيراً لهم.

أمّا أصحابه - صلوات الله عليه وسلامه - الذين يعرفون قُدْرَه فَإِنَّ أحدهم - كما في الخبر: «كَأَنَّهُ يَقْرَعُ بَابَهُ بِالْأَظْفَرِ».

قوله جل ذكره: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقُ نَبِئُوا فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا يِجْهَلُونَ فَتَصِحُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَتَدِيمِينَ﴾.

دلّت الآية على تَرْكِ السكونِ إلى خَبَرِ الفاسقِ إلى أن يظهر صِدْقُهُ.

وفي الآية إشارة إلى تَرْكِ الاستماعِ إلى كلامِ الساعي والثَّمامِ والمغتابِ للناس.

والآية تدلُّ على قبول خيرِ والواحدِ إذا كان عَدْلًا.

والفاسقُ هو الخارجُ عن الطاعة^(١). ويقال هو الخارج عن حدِّ المروءة.

ويقال: هو الذي ألقى جِلْبَابَ الحياء.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾.

أي لو وافقكم محمدٌ رسولُ اللَّهِ ﷺ في كثير مما تطلبون منه لوقعتم في العَنَتِ^(٢) - وهو الفساد. ولو قَبِلَ قولَ واحدٍ (قَبْلَ وضوحِ الأمر) لأصابتكم من ذلك شدة.

والرسول صلوات الله عليه لا يطيعكم في أكثر الأمور إذا لم يَرَ في ذلك مصلحة لكم وللدِّين.

﴿وَلَئِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾: الإسلام والطاعة والتوحيد، وزَيَّنَهَا في قلوبكم.

(١) مشتق من فسقت الرطبة من قشرها، وكان الفأرة إنما سميت فويسقة لخروجها من حجرها على الناس. (لسان العرب ٣٠٨/١٠ مادة: فسق).

(٢) العنت: دخول المشقة على الإنسان، ولقاء الشدة. وقيل: العنت: الفجور والزنا وقيل: الجور والإثم والأذى. (لسان العرب ٦١/٢، ٦٢ مادة: عنت).

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾: هذا من تلوين الخطاب .

وفي الآية دليل على صحة قول أهل الحق في القدر، وتخصيص المؤمنين بالطاف لا يشترك فيها الكفار . ولولا أنه يوفّر الدواعي للطاعات لحصل التفريط والتقصير في العبادات .

﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾: أي فَعَلَ هذا بكم فضلاً منه ورحمة ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾ .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَيْنَ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلُوا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَتِّلُوا آلَئِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَقَىٰ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ .

تدل الآية على أن المؤمن بفسقه - والفسق دون الكفر - لا يخرج عن الإيمان لأن إحدى الطائفتين - لا سحالة - فاسقة إذا اقتتلا .
وتدل الآية على وجوب نصره المظلوم؛ حيث قال: ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ﴾ .

والإشارة فيه: أن النفس إذا ظَلَمَت القلب بدعائه إلى شهواتها، واشتغالها في فسادها فيجب أن يقاتلها حتى تشن بالجراحة بسيف المجاهدة . فإن استجابت إلى الطاعة يُعْفَى عنها لأنها هي المطيئة إلى باب الله .

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ .

إيقاع الصلح بين المتخاصمين من أوكد عزائم الدين .

وإذا كان ذلك واجباً فإنه يدل على عِظَمِ وَزْرِ الواشي والثّام؛ والمضدّر في إفساد ذات البين .

(ويقال إنما يتم ذلك بتسوية القلب مع الله فإن الله إذا علم صدق همة عبد في إصلاح ذات البين) فإنه يرفع عنهم تلك العصبية .

فأما شرط الأخوة: فَمِنْ حَقِّ الْأُخُوَّةِ فِي الدِّينِ أَلَّا تُخْرِجَ أَخَاكَ إِلَى الْإِسْتِعَانَةِ بِكَ أَوْ التَّمَاسِ النَّصْرَةَ عَنْكَ، وَأَلَّا تُقْصِرَ فِي تَقْضِ أَحْوَالِهِ بِحَيْثُ يَشْكُلُ عَلَيْكَ مَوْضِعُ حَاجَتِهِ فَيَحْتَاجُ إِلَى مَسَاءَلَتِكَ .

ومن حقّه ألا تُلْجِئَهُ إِلَى الْإِعْتِذَارِ لَكَ بَلْ تَبْسُطَ عُذْرَهُ؛ فَإِن أَشْكَلَ عَلَيْكَ وَجْهُهُ عُذْتُ بِاللَّائِمَةِ عَلَى نَفْسِكَ فِي خِفَاءِ عُذْرِهِ عَلَيْكَ وَمِنْ حَقِّهِ أَنْ تَتُوبَ عَنْهُ إِذَا أَذْنَبَ، وَتَعُودَهُ إِذَا مَرَضَ . وَإِذَا أَشَارَ عَلَيْكَ بِشَيْءٍ فَلَا تُطَالِبُهُ بِالْأَدْلِيلِ عَلَيْهِ وَإِبْرَازِ الْحُجَّةِ - كَمَا قَالُوا:

إِذَا اسْتَشْجِدُوا لَمْ يَسْأَلُوا مَنْ دَعَاهُمْ لَأَيَّةِ حَزْبٍ أَمْ لَأَيِّ مَكَانٍ

وَمِنْ حَقِّهِ أَنْ تَحْفَظَ عَهْدَهُ الْقَدِيمَ، وَأَنْ تُرَاعِيَ حَقَّهُ فِي أَهْلِهِ الْمُتَصِلِينَ بِهِ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ، وَفِي حَالِ الْحَيَاةِ وَبَعْدَ الْمَمَاتِ - كَمَا قِيلَ :

وخليل إن لم يكن منصفاً كنت منصفاً
تتحنسنى له الأمر ينن وكُن ملاطفا
إن يقل لك استو احترف ست رضى لا تكلفا

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَخْرَ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَمَّ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءٍ عَمَّ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ إِلَاتُمْ الَّتِي سَفُوتُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ .

نهى الله - سبحانه وتعالى - عن ازدراء الناس، وعن الغيبة، وعن الاستهانة بالحقوق، وعن ترك الاحترام.

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ : أي لا يعيبن بعضكم بعضاً، كقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

ويقال: ما استصغر أحد أحداً إلا سُلط عليه. ولا ينبغي أن يُعْتَبَر بظواهر أحوال الناس فإن في الزوايا خبايا. والحق يستر أولياءه في حجاب الضعة^(١)؛ وقد جاء في الخبر:

«رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرِ ذِي طَمَرِينَ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ»^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِمَّنْ الظَّنِّ إِنَّهُ بِغَضِّ الظَّنِّ إِنَّهُ وَلَا يَحْسَبُوا وَلَا يَفْتَبُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَجِبْتُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ .

النَّفْسُ لَا تَصْدُقُ، وَالْقَلْبُ لَا يَكْذِبُ. والتمييز بين النفس والقلب مُشْكِلٌ وَمَنْ بَقِيَ عَلَيْهِ مِنْ حَظْوْظِهِ بَقِيَّةٌ - وَإِنْ قَلَّتْ - فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَدَّعَى بَيَانَ الْقَلْبِ بَلْ هُوَ بِنَفْسِهِ مَا دَامَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ نَفْسِهِ، وَيَجِبُ أَنْ يَتَّهَمَ نَفْسَهُ فِي كُلِّ مَا يَقَعُ لَهُ مِنْ نَقْصَانٍ غَيْرِهِ. . هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وهو يخطب. «كلُّ الناس أفتة من عمر. . امرأة أفتة من عمر» .

﴿وَلَا يَحْسَبُوا﴾ . والعارف لا يتفرغ من شهود الحق إلى شهود الخلق. . فكيف

(١) الضعة: خلاف الرقعة في القدر. (لسان العرب ٣٩٧/٨ مادة: وضع).

(٢) أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد ٢٦٤/١٠)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢٣٤/٨)، (٢٣٥)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ٢٠٣/٣).

يتفرغ إلى تجسس أحوالهم؟ وهو لا يتفرغ إلى نفسه فكيف إلى غيره؟ ﴿وَلَا يَنْتَبِ بِمَعْصِيَتِكُمْ بَعْضًا﴾: لا تحصل الغيبة للخلق إلا من الغيبة عن الحق.

﴿أَيُّجِبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ جاء في التفسير أن المقصود بذلك الغيبة، وعلى ذلك يدل ظاهر الآية. وأخس الكفار وأقلهم قدراً من يأكل الميتة.. وعزيز رؤية من لا يغتاب أحداً بين يديك.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

إننا خلقناكم أجمعكم من آدم وحواء، ثم جعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا لا لتكاثروا ولا لتنافسوا. فإذا كانت الأصول تربة ونطفة وعلقة.. فالتفاخر بماذا؟ أبا لحماً المسنون؟^(١) أم بالنطفة في قرار مكين؟ أم بما ينطوي عليه ظاهره مما تعرفه؟! وقد قيل:

إِنْ آثَرْنَا تَذُلَّ عَلَيْنَا فَاَنْظُرُوا بَعْدَنَا إِلَى الْآثَارِ
أم بأفعالك التي هي بالرياء مشوبة؟ أم بأحوالك التي هي بالإعجاب مصحوبة؟ أم بمعاملاتك التي هي ملأى بالخيانة؟

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ﴾؟ اتقاكم أي أبعدكم عن نفسه، فالتقوى هي التحرر من النفس وأطماعها وحظوظها. فأكرم العباد عند الله من كان أبعد عن نفسه وأقرب إلى الله تعالى.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسَلْنَاكُمْ﴾.

الإيمان هو حياة القلب، والقلب لا يحيا إلا بعد ذبح النفس، والنفوس لا تموت ولكنها تغيب، ومع حضورها لا يتم خير، والاستسلام في الظاهر إسلام. وليس كل من استسلم ظاهراً مخلص في سره.

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

في هذا دليل على أن محل الإيمان القلب. كما أنه في وصف المنافقين قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] ومرض القلب والإيمان ضدان.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

جعل الله الإيمان مشروطاً بخصال ذكرها، ونص عليها بلفظ ﴿إِنَّمَا﴾ وهي

(١) الحماة والحما: الطين الأسود المتين. (لسان العرب ٦١/١ مادة: حما).

للتحقيق الذي يقتضي طَرْدَ الْعَكْسِ؛ فَمَنْ خَرَجَ عَنْ هَذِهِ الشَّرَاطِطِ الَّتِي جَعَلَهَا لِلْإِيمَانِ فَمَرْدُودٌ عَلَيْهِ قَوْلُهُ.

وَالْإِيمَانُ يَوْجِبُ لِلْعَبْدِ الْأَمَانَ، فَمَا لَمْ يَكُنِ الْإِيمَانُ مُوجِباً لِلْأَمَانِ فَصَاحِبُهُ بغيره أَوْلَى.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ أَتَمَلُّونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

تدل الآية على أَنَّ الوقوف في المسائل الدينية يُعْتَبَرُ واجباً؛ فالأسامي منه تُؤْخَذُ، والأحكامُ منه تُطَلَّبُ، وأوامره مُتَّبَعَةٌ.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمُ بِلِ اللَّهِ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

مَنْ لَاحِظُ شَيْئاً مِنْ أَعْمَالِهِ وَأَحْوَالِهِ فَإِنْ رَأَاهَا مِنْ نَفْسِهِ كَانَ شِرْكَاً، وَإِنْ رَأَاهَا لِنَفْسِهِ كَانَ مَكْراً فَكَيْفَ يَمُنُّ الْعَبْدُ بِمَا هُوَ شِرْكٌ أَوْ بِمَا هُوَ مَكْرٌ؟!

والذي يجب عليه قبول المِنَّةِ . . كيف يرى لنفسه على غيره مِنَّةً؟! هذا لعمري فضيحة! بل المِنَّةُ لله؛ فهو وليُّ النعمة. ولا تكون المِنَّةُ مَنَّةً إِلَّا إِذَا كَانَ الْعَبْدُ صَادِقاً فِي حَالِهِ، فَأَمَّا إِذَا كَانَ مَعْلُولاً فِي صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ فَهِيَ مُحَنَّةٌ لِمُصَاحِبِهَا لَا مِنَّةً.

وَالْمِنَّةُ تُكَدِّرُ الصَّنِيعَ إِذَا كَانَتْ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، وَلَكِنْ بِالْمِنَّةِ تَطْيِبُ النِّعْمَةُ إِذَا كَانَتْ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

وَمَنْ وَقَفَ هَاهُنَا تَكَدَّرَ عَلَيْهِ غَيْبُهُ؛ إِذْ لَيْسَ بِدَرِي مَا غَيْبُهُ فِيهِ، وَفِي مَعْنَى هَذَا قَوْلُ الْقَائِلِ:

أبكي . . وهل تدرين ما يبكييني؟
أبكي حذاراً أن تفارقيني
وتقطعني وضملي وتهجريني

سورة ق

«بسم الله» اسم جَبَرِ أحوالٍ مَنْ رَحِمَهُ، متَجَبَّرٌ بكبريائه على من أقماه فَقَهَرَهُ وَخَرَمَهُ.

«بسم الله» لطيفٌ يعلم خفايا تصنعُ العابدين، غافرٌ لجلائلِ ذنوبِ العاصين.
قوله جلّ ذكره: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾.

ق مفتاح أسمائه: «قوي وقادر وقدير وقريب».. أقسم بهذه الأسماء وبالقُرآن المجيد.

وجوابُ القَسَمِ محذوفٌ ومعناه لَتُبْعَثُنَّ في القيامة.

ويقال جوابه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ﴾ أي لقد علمنا.. وحذفت اللام لَمَّا تطاول الخطاب.

ويقال: جوابه قوله: ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿بَلْ عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.
﴿مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾: هو محمد ﷺ.

والتعجبُ نوعٌ من تعبيرِ النَّفْسِ عن استبعادها لأمرٍ خارجِ العادة لم يقع به عِلْمٌ من قَبْل. وقد مضى القولُ في إنكارهم للبعث واستبعادهم ذلك:
﴿أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾.

أي يَبْعُدُ عندنا أَنْ تُبْعَثَ بعد ما مِتْنَا. فقال جلّ ذكره:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ﴾.

في هذا تسليّةٌ للعبد فإنه إذا وُسِدَ التراب، وانصرف عنه الأصحاب، واضطرب لوفاته الأحباب. فَمَنْ يَتَفَقَّهُهُ وَمَنْ يَتَعَهَّدُهُ... وهو في شفير قبره، وليس لهم منه شيء سوى ذكره، ولا أحدٌ منهم يدري ما الذي يقاسيه المسكين في حُفْرَتِهِ؟ فيقول الحق - سبحانه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ ولعله يخبر الملائكة قائلاً: عَبْدِي الذي أَخْرَجْتَهُ من دُنياه - ماذا بقي بينه مَنْ يَهْوَاهُ؟ هذه أجزاؤه قد تَفَرَّقَتْ، وهذه عِظَامُهُ بَلِيَّتْ، وهذه أعضاؤه قد تَفَشَّتْ!

﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ﴾: وهو اللوح المحفوظ؛ أثبتنا فيه تفصيل أحوال الخلق من غير نسيان، وبيئنا فيه كل ما يحتاج العبد إلى تذكره.

قوله جل ذكره: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾.

﴿مَرِيجٍ﴾ أي مختلط وملتبس؛ فهم يترددون في ظلمات تحيرهم، ويضطربون في شكهم.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾.

أو لم يعتبروا؟ أو لم يستدلوا بما رفعنا فوقهم من السماء، رفعنا سقمها فسويناها، وأثبتنا فيها الكواكب وبها زينها، وأذننا فيها شمسها وقمرها؟ أو لم يروا كيف جنسنا عينها ونوعنا أثرها؟

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾.

والأرض مددناها؛ فجعلناها لهم مهاداً، وجعلنا لها الجبال أوتاداً، وأثبتنا فيها أشجاراً وأزهاراً وأنواراً. كل ذلك:

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾.

علامة ودلالة لكل من أناب إلينا، ورجع من شهود أفعالنا إلى رؤية صفاتنا، ومن شهود صفاتنا إلى شهود حقنا وذاتنا.

قوله جل ذكره: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾.

أنزلنا من السماء ماءً مباركاً كثير النفع والزيادة، فأنبتنا به ﴿جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾: أي الذي يُحصَد - كما تقول مسجد الجامع.

الأجزاء متجانسة. ولكن أوصافها في الطعوم والروائح والألوان والهيئات والمقادير مختلفة.

قوله جل ذكره: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَقِيزٌ﴾.

والنخل باسقات: طويلات، لها طلع منضود بعضه فوق بعض لكثرة الطلع أو لما فيها من الثمار. وكيف جعلنا بعض الثمار متفرقة كالنخيل والكمثرى^(١) وغيرهما، وكيف جعلنا بعضها مجتمعة كالعنب والرطب^(٢) وغيرهما. كل ذلك جعلناه رزقاً للعباد ولكي يتفكروا به.

(١) الكمثرى: معروف من الفواكه هذا الذي تسميه العامة الإجناس، مؤنث لا ينصرف. (لسان العرب ١٥٢/٥ مادة: كمثر).

(٢) الرطب: نضيج البسر قبل أن يتمر، واحده رطبة. (اللسان ٤٢٠/١ مادة: رطب).

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ .

وكما سقنا هذا الماء إلى بلدة جف نباتها، وكما فعلنا كل هذه الأشياء ونحن قادرون على ذلك - كذلك نجتمعكم في الحشر والنشر، فليس بَعَثُكُمْ بأبعد من هذا.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَنَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُيُوسُفَ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ هُنَّ عِيدٌ﴾ .

إنّا لم نَعْجِزْ عن هؤلاء - الذين ذكر أسماءهم - وفيه تهديد لهم وتسليّة للرسول.

﴿أَفَحْيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ لَمِ يَسْمَعُوا حَتَّىٰ نُلْقِيَ الْبُرْهَانَ فِيهِمْ﴾ .

أي إنّا لم نَعْجِزْ عن الخلق الأول . فكيف نَعْجِزْ عن الخلق الثاني - وهو الإعادة؟ لم يعتص علينا فعل شيء، ولم نتعب من شيء . فكيف يشق علينا أمر البعث؟ أي ليس كذلك.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوسُ بِهِ فَسُئِلَ عَنْ قُرْبَىٰهِ فَقَالَ الْأَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ جَنْبِ الْوَرِيدِ﴾ .

نعلم ما توسوس به نفسه من شهوات تطلب استنفادها، مثل التصنع مع الخلق، وسوء الخلق، والحق . وغير ذلك من آفات النفس التي تُشَوِّش على القلب والوقت.

﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ جَنْبِ الْوَرِيدِ﴾ فَجَبَلَ الوريد أقرب أجزاء نفسه إلى نفسه، والمراد من ذلك العلم والقدرة، وأنه يسمع قولهم، ولا يشكل عليه شيء من أمرهم.

وفي هذه الآية هَيِّئَةٌ وَفَرَعٌ وخوف لقوم، وروخ وسكون وأنس قلب لقوم.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ يُلَاقَى السَّائِقَانِ مِنَ الْبَيْنِ وَنَ الْيَمَالِ قَيْدٌ﴾ .

خَوْفُهُم بشهود الملائكة وحضور الحَفَظَةِ، وبكتابتهم عليهم أعمالهم، فهما قَعِيدَا كُلِّ أَحَدٍ: ويقال: إذا كان العبد قاعداً فواحدٌ عن يمينه يكتب خيرا، وإذا كان يساره يكتب معاصيه، وإذا قام فواحدٌ عند رأسه وواحدٌ عند قدميه، وإذا كان ماشياً فواحدٌ قائم بين يديه وآخرٌ خلفه.

ويقال: هما اثنان بالليل لكل واحد، واثنان بالنهار.

ويقال: بل الذي يكتب الخيرات اليوم يكون غيره غداً، وأما الذي يكتب الشر والمعصية بالأمس فإنه يكون كاتباً للطاعة غداً حتى يشهد طاعتك.

ويقال: بل الذي يكتب المعصية اثنان؛ كل يوم اثنان آخران وكل ليلة اثنان آخران لئلا يُعْلَمَ من مساويك إلا القليل منها، ويكون عِلْمُ المعاصي متفرقاً بهم^(١).

قوله جل ذكره: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ .

(١) الآية (١٨) لم ترد.

إذا أشرفت النفس على الخروج من الدنيا فأحوالهم مختلفة؛ فمنهم من يزداد في ذلك الوقت خوفه ولا يتبين إلا عند ذهاب الروح حاله. ومنهم من يكشف قبل خروجه فيسكن رَوْعُه، ويحفظ عليه عقله، ويتم له حضوره وتميزه، فيسلم الروح على مهل من غير استكراه ولا عبوس. . ومنهم، ومنهم. . وفي معناه يقول بعضهم:

أنا إن مت - والهوى حشو قلبي - فبداء الهوى يموت الكرام

ثم قال جل ذكره: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾. سائق يسوقها إما إلى الجنة أو إلى النار، وشهيد يشهد عليها بما فعلت من الخير والشر.

ويقال له: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكُنْثَفْنَا عَنْكَ غِطَاءً فَصَرَكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

المؤمنون - اليوم بصّرهم حديد؛ ينصرون رُشدَهم ويحذرون شرهم.

والكافر يقال له غداً: ﴿فَصَرَكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي: ها أنت علمت ما كنت فيه من التكذيب؛ فالיום لا يسمع منك خطاب، ولا يرفع عنك عذاب.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي﴾.

لا يخفى من أحوالهم شيء إلا ذكر، إن كان خيراً يُجازون عليه، وإن كان غير خير يُحاسبون عليه: إما برحمة منه فيغفر لهم وينجون، وإما على مقدار جُرمهم يُعذبون.

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كِغَارٍ عِنْدَ مَنَاجٍ لِلخَيْرِ مُتَعَدٍّ مُّزِيٍّ﴾.

مناع للزكاة المفروضة.

ويقال: يمنع فضل مائه وفضل كلته عن المسلمين.

ويقال: يمنع الناس من الخير والإحسان، ويسيء القول فيهما حتى يزهد الناس فيهما.

ويقال: المناع للخير هو المغوان على الشر.

ويقال: هو الذي قيل فيه: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٧].

﴿مُزِيٍّ﴾: أي يشكك الناس في أمره لأنه غير مخلص، ويلبس على الناس حاله لأنه منافق.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطِغَيْتُمُوهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

يقول الملك من الحفظ المؤكل به: ما أعجلته على الزلة.

وإنما كتبتُها بعدما فعلها - وذلك حين يقول الكافر: لم أفعل هذا، وإنما أعجلني بالكتابة علي، فيقول الملك: ربنا ما أعجلته.

ويقال: هو الشيطان المقرون به، وحين يلتقيان في جهنم يقول الشيطان: ما أكرهته على كفره، ولكنه فعل - باختياره - ما وسوستُ به إليه .
 فيقول جل ذكره: ﴿قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَيْدِ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْبَئِيدِ﴾ .

لا تختصموا لدي اليوم وقد أمرتكم بالرشد ونهيئكم عن الغي .
 قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ .
 ﴿نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ ﴿وَنَقُولُ﴾: القول هنا على التوسع؛ لأنه لو كانت جهنم ممن يجيب لقات ذلك بل يُخَيِّبها حتى تقول ذلك .
 ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾: على جهة التغليظ، والاستزادة من الكفار .

ويقال: بل تقول ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾: أي ليس في زيادة كقوله عليه السلام لما قيل له: يوم فتح مكة: هل ترجع إلى دارك؟ فقال: «وهل ترك لنا عقيل دارة؟!»^(١) أي لم يترك، فإن الله - تعالى - يملأ جهنم من الكفار والعصاة، فإذا ما أخرج العصاة من المؤمنين ازداد غيظ الكفار حتى تمتلئ بهم جهنم .
 قوله جل ذكره: ﴿وَأَزَلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ .
 يقال: إن الجنة تُقَرَّبُ من المتقين، كما أنَّ النار تُجَرُّ بالسلاسل إلى المحشر نحو المجرمين .

ويقال: بل تقرب الجنة بأن يسهل على المتقين حشرهم إليها . . . وهم خواص الخواص .

ويقال: هم ثلاثة أصناف: قوم يُحْشَرُونَ إلى الجنة مشاة وهم الذين قال فيهم: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣] - وهم عوام المؤمنين وقوم يحشرون إلى الجنة ركباناً على طاعاتهم المصوّرة لهم بصورة حيوان، وهم الذين قال فيهم جل وعلا: ﴿يَوْمَ نَخْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ﴾ [مريم: ٨٥] - وهؤلاء هم الخواص وأما خاص الخاص فهم الذين قال عنهم: ﴿وَأَزَلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي تُقَرَّبُ الجنة منهم .

وقوله: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: تأكيد لقوله: «وأزلفت» .

ويقال: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: من العاصين تطيباً لقلوبهم .

قوله جل ذكره: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ﴾ .

(١) أخرجه البيهقي في (السنن الكبرى ٣٤/٦)، والمتقي الهندي في (كتر العمال ٣٠٤٢٩، ٣٠٦٨٥) .

الأَوَّابُ: الراجعُ إلى الله في جميع أحواله.

﴿حَفِيطٌ﴾: أي محافظ على أوقاته، (ويقال محافظ على حواسه في الله حافظ لأنفاسه مع الله).

قوله جلّ ذكره: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾.

الخشيّة من الرحمن هي الخشيّة من الفراق. (والخشيّة من الرحمن تكون مقرونة بالأُنْس؛ ولذلك لم يقل: من خشي الجبار ولا من خشي القهار).

ويقال الخشيّة من الله تقتضي العلم بأنه يفعل ما يشاء وأنه لا يسألُ عما يفعل.

ويقال: الخشيّة اللطف من الخوف، وكأنها قريبة من الهيبة^(١).

﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾: لم يقل بِنَفْسٍ مطيعة بل قال: بقلب منيب ليكون للعصاة في هذا أمل؛ لأنهم - وإن قَصُرُوا بنفوسهم وليس لهم صِدْقُ الْقَدَمِ - فلهم الأسف بقلوبهم وصدق الندم.

قوله جلّ ذكره: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾.

أي يقال لهم: ادخلوها بسلامة من كل آفة، ووجود رضوان ولا يسخط عليكم الحق أبداً.

ومنهم مَنْ يقول له المَلَكُ: ادخلوها بسلام، ومنهم من يقول له: لكم ما تشاؤون فيها - قال تعالى:

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

لم يقل: «لهم ما يسألون» بل قال: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ﴾: فكلُّ ما يخطر ببالهم فإنَّ سؤلهم يتحقق لهم في الوهلة، وإذا كانوا اليوم يقولون: ما يشاء الله فإنَّ لهم غداً منه الإحسان... وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾: اتفق أهل التفسير على أنه الرويّة، والنظر إلى الله سبحانه وقوم

يقولون: المزيد على الثواب في الجنة - ولا منافاة بينهما.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ

نَجَّيْنِ﴾.

(١) قال القرطبي برسالته عند حديثه عن الخوف: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: الخوف على مراتب: الخوف والخشيّة والهيبة. فالخوف من شروط الإيمان وقضاياه. قال الله تعالى: ﴿وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. والخشيّة: من شروط العلم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. والهيبة: من شروط المعرفة، قال الله تعالى: ﴿وَيَعُذُّكُمْ اللَّهُ نَفْسُكُمْ﴾. وقال أبو القاسم الحكيم: الخوف على نوعين: رهبة وخشيّة، فصاحب الرهبة يلتجئ إلى الهرب إذا خاف، وصاحب الخشيّة يلتجئ إلى الرب. (الرسالة القرطبية ص ١٢٥، ١٢٦).

أي اغْتَبِرُوا بِالَّذِينَ تَقْدَمُوكم؛ انهمكوا في ضلالتهم، وأَصْرُوا، ولم يُفْلِعُوا... فاهلكناهم وما أَبْقَيْنَا منهم أحداً.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾. قيل: ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾: أي من كان له عقل. وقيل: قلب حاضر. ويقال قلب على الإحسان مُقْبِل. ويقال: قَلْبٌ غَيْرُ قَلْبٍ.

﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾: استمع إلى ما ينادى به ظاهره من الخلق وإلى ما يعود إلى سرّه من الحق. ويقال: لمن كان له قلبٌ صاح لم يَسْكُر من الغفلة. ويقال: قلبٌ يعد أنفاسه مع الله. ويقال: قلبٌ حيٌّ بنور الموافقة. ويقال: قلبٌ غير مُغْرِضٍ عن الاعتبار والاستبصار.

ويقال: «القلب - كما في الخبر - بين إصبعين من أصابع الرحمن»^(١): أي بين نعمتين؛ وهما ما يدفعه عنه من البلاء، وما ينفعه به من النعماء، فكلُّ قلبٍ مَنَعَ الحقُّ عنه الأوصاف الذميمة وألزمه النعوت الحميدة فهو الذي قال فيه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾.

وفي الخبر: «إن الله أواني الآ وهي القلوب، وأقربها من الله مارقٌ وصفا»^(٢). شبه القلوب بالأواني؛ فقلبُ الكافر منكوسٌ لا يدخل فيه شيء، وقلبُ المنافقٍ إناء مكسور، ما يُلقَى فيه من أوله يخرج من أسفله، وقلبُ المؤمنٍ إناءٌ صحيح غير منكوس يدخل فيه الإيمانُ ويَبْقَى.

ولكن هذه القلوب مختلفة؛ فقلبٌ مُلَطَّخٌ بالانفعالات وفنون الآفات؛ فالشراب الذي يُلقَى فيه يصحبه أثر، ويتلطح به.

وقلبٌ صفا من الكدورات وهو أعلاها قَدْرًا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾.

وَأَنَّى يَمْسُهُ اللُّغُوبُ. وهو صَمَدٌ لا يحدث في ذاته حادث؟

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَصْبَحَ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾.

إِنْ تَأَذَّ سَمْعُكَ بما يقولون في من الأشياء التي يتقدّس عنها نغتي فاصبر على ما يقولون، واسترِخ عن ذلك بتسبيحك لنا.

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/ ٣٠٢).

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٦/ ٢٠٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٢/ ١٧٣).

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَيَرُّهُ وَأَذْبَرَ الشُّجُورَ﴾ .

فالليل وقت الخلوة - والصفاء في الخلوة أتم وأضفى .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَسْتَمِعُ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْعَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ .

النداء من الحق - سبحانه - وارد عليهم، كما أن النجوى تحصل دائماً بينهم . والنداء الذي يرد عليهم يكون بغتة ولا يكون للعبد في فعله اختيار .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ .

إلينا مَزَجُ الكُلِّ ومصيرهم .

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ .

هذا يسير علينا: سواء خلقناهم جملة أو فرادى؛ قال تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعَثْكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَاحِدَةً﴾ [لقمان: ٣١] .

قوله جل ذكره: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذِكْرٌ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ .

ما أنت عليهم بِمُتَسَلِّطٍ تُكْرِهُهم .

وإنما يُؤَثِّرُ التخويفُ والإنذارُ والتذكيرُ في الخائفين، فأما مَنْ لا يخاف فلا ينجح فيه التخويفُ - وطيُرُ السماء على آلافها تقعُ .

سورة الذاريات

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله كلمة عزيزة من ذكرها عزّ لسانه، ومن عرفها اهتزّ بصحبته جنانه .
«بسم الله» كلمة للالباب غلبة، كلمة لأرواح المحبين سلاية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا قُلُوبَهُمْ وَفَرَّوْا قُلُوبَهُمْ يُسْرًا قَالُوا قَسَمْتُ لَكُمْ أَنَّا لَمُؤْمِنُونَ﴾
لَصَادِقٌ وَإِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا .

والذاريات: أي الرياح الحاملات ﴿وَقَرَأَ﴾ أي السحاب ﴿قَالُوا قَسَمْتُ لَكُمْ أَنَّا لَمُؤْمِنُونَ﴾ أي الملائكة... أقسم برّب هذه الأشياء ويقدرته عليها. وجواب القسم: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ...﴾ والإشارة في هذه الأشياء أن من جملة الرياح. الرياح الصالحة تحمل أنين المشتاقين إلى ساحات العزة فيأتي نسيم القربة إلى مشام أسرار أهل المحبة... فعندئذ يجدون راحة من غلّبات اللوعة، وفي معناه أنشدوا:

وإني لأستهدي الرياح نسيمكم إذا أقبلت من أرضكم بهبوب
وأسألها حمل السلام إليكمو فإن هي يوماً بلّغت... فأجيبني

ومن السحاب ما يُمطر بعتاب الغيبة، ويؤذن بهواجم الثوى والفرقة. فإذا عنّ لهم من ذلك شيء أبصروا ذلك بنور بصائرهم، فيأخذون في الابتغال، والتضرّع في السؤال استعاذة منها... كما قالوا:

أقول - وقد رأيت لها سحاباً من الهجران مقبلة إلينا
وقد سحّت عزاليها^(١) يَبْنِي حوالينا الصدود ولا علينا
وكما قد يَحْمِلُ المَلَأُ بعضُ الفقراء بلا أجرة طمعاً في سلامة السفينة -
فهؤلاء يزجون أن يَحْمَلُوا في قُلُوك العنابة في بحار القدرة عند تلاطم الأمواج حول السفينة .

وَمِنَ المَلَأَةِ مَنْ يَتَنَزَّلُ لتفقد أهل الوصلة، أو لتعزية أهل المصيبة، أو لأنواع

(١) الأعزل: سحاب لا مطر فيه . (اللسان ١١/٤٤٣ مادة: عزل).

من الأمور تتصل بأهل هذه القصة، فهؤلاء القوم يسألونهم عن أحوالهم: هل عندهم خيرٌ عن فراقهم ووصالهم - كما قالوا:

بِرَبِّكُمَا يَا صَاحِبَيِّ قِفَا بَيَا أَسْأَلُكُم عَنْ حَالِهِمْ وَأَسْأَلَانِيَا

﴿إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوَفَّيْتُ﴾ : الحق - سبحانه - وَعَدَ المطيعين بالجنة، والتائبين بالرحمة، والأولياء بالقربة، والعارفين بالوصلة، ووَعَدَ أرباب المصائب بقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٦، ١٥٧]، وهم يتصدون لاستبطاء حُسْنِ الميعاد - واللَّهُ رؤوفٌ بالعباد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالسَّامَاءُ ذَاتِ الْحُبُكِ إِنَّكَ لِنِي قَوْلٍ تُخَلِّفُ يَوْمَكَ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ﴾ .

﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ أي ذات الطرائق الحسنة - وهذا قَسَمٌ ثانٍ، وجوابه: ﴿إِنَّكَ لِنِي قَوْلٍ تُخَلِّفُ﴾ يعني في أمر محمد ﷺ فأحدهم يقول: إنه ساحر، وآخر يقول: مجنون، وثالث يقول: شاعر... وغير ذلك.

والإشارة فيه إلى القسم بسماء التوحيد ذات الزينة بشمس العرفان، وقمر المحبة، ونجوم القُرب... إنكم في باب هذه الطريقة لفي قولٍ مختلف؛ فَمِنْ مُنْكَرٍ يَجُحِدُ الطريقة، وَمِنْ مُعْتَرِضٍ يعترض على أهلها يتوهم نقصانهم في القيام بحق الشريعة، ومن متعسفٍ لا يخرج من ضيق حدود العبودية ولا يعرف خبراً عن تخصيص الحقّ أولياءه بالأحوال السنية، قال قائلهم:

قد سَحَبَ النَّاسُ أَذْيَالَ الظُّنُونِ بَنَا وَفَرَّقَ النَّاسُ فِينَا قَوْلَهُمْ فِرْقًا
فَكَاذِبٌ قَدْ رَمَى بِالظَّنِّ غَيْرَتَكُمْ وَصَادِقٌ لَيْسَ يَدْرِي أَنَّهُ صَدَقَا
قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَكَ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ﴾ .

أي يُضَرِّفُ عَنْهُ مَنْ صُرِفَ، وذلك أنهم كانوا يصدّون النَّاسَ عنه ويقولون: إنه لمجنون.

قوله جلّ ذكره: ﴿قِيلَ الْفَرَّاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمَرٍ سَاهَوْتِ﴾ .

لَعَنَ الْكَذَّابُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ الضَّلَالَةِ وظلمة الجهالة ساهون لاهون.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُعْذَّبُونَ دُوقُوا فَنُتَكَّرْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ .

يسألون أيان يومُ القيامة؟ يستعجلون بها، فلأجل تكذيبهم بها كانت نفوسهم لا تسكن إليها. ويوم هم على النار يُخْرَقُونَ ويُعَذَّبُونَ يقال لهم: قاسوا عقوبتكم، هذا الذي كنتم به تَسْتَعْجِلُونَ.

والإشارة فيه إلى الذين يَكْذِبُونَ في أعمالهم لِمَا يتداخلهم من الرياء، ويكذبون في أحوالهم لِمَا يتداخلهم من الإعجاب، ويكذبون على الله فيما يدعونه من الأحوال... قُتِلُوا وَلُعِنُوا... وسيلقون غِبًّا تلييسهم بما يُحَرِّمُونَ من اشتتام رائحة الصدق.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا أَرَاهُمْ رَبُّهُمْ وَإِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾.

في عاجلهم في جَنَاتٍ وَضَلِيلهم، وفي آجلهم في جَنَاتٍ فَضْلِيلهم؛ فغداً درجات ونجاة، واليوم قُرْبَات ومناجاة، فما هو مؤجَّل حَظُّ أَنْفُسِهِمْ، وما هو معجَّل حَقُّ رَبُّهُمْ. هم آخذين اليوم ما آتاهم ربهم؛ يأخذون نصيبه منه بِبَيْدِ الشكر والحمد، وغداً يأخذون ما يعطيهم ربهم في الجنة من فنون العطاء والرِّفْد.

وَمَنْ كَانَ اليومَ آخِذَهُ بلا واسطة من حيث الإيمان والإتقان، وملاحظة القسمة في العطاء والحرمان. كان غداً آخِذَهُ بلا واسطة في الجنان عند اللقاء والعيان. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾؛ كانوا ولكنهم اليوم بانوا^(١) ولكنهم بعد ما أعدناهم حصلوا واستبانوا... فهم كما في الخبر: «أعبد الله كأنك تراه...»^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُشْكِرُونَ﴾.

المعنى إمّا: كانوا قليلاً وكانوا لا ينامون إلا بالليل كقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] أو: كان نومهم بالليل قليلاً، أو: كانوا لا ينامون بالليل قليلاً.

﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُشْكِرُونَ﴾: أخبر عنهم أنهم - مع تهجدهم ودُعائهم - يُنْزِلُونَ أَنْفُسَهُمْ في الأسفار منزلة العاصين، فيستغفرون استصغاراً لِقُدْرِهِمْ، واستحقاراً لِفِعْلِهِمْ.

والليل... للأحباب في أنس المناجاة، وللعصاة في طلب النجاة. والسهرة لهم

(١) قال القشيري في رسالته عند حديثه عن المعرفة بالله: سُئل يحيى بن معاذ عن العارف فقال: رجل كائن بائن، وقال مرة: كان فبان. (الرسالة القشيرية ص ٣١٧).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ١٣٢/٢)، والهيتمي في (مجمع الزوائد ٤٠/٢، ٤٠١/٤)، وابن حجر في (المطالب العالية ٣٠٩٦، ٣٠٩٧)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢٦٨/١، ٥٩٢/٣)، (٢٤٧/٤)، وابن كثير في (التفسير ١٧٩/٢)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ١١٥/٦)، وابن حجر في (فتح الباري ٢٣٤/١١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ١٢٤/٢، ٤٥٣/٧، ٥٩/١٠)، والمراقي في (المغني عن حمل الأسفار ١٠٦/٣)، والسيوطي في (الدر المنثور ٢٩٩/١)، والمتقي الهندي في (كتر العمال ٥٢٥٠، ٥٢٥١، ٥٢٥٦، ٥٢٧٩، ٤٤١٥٤)، وابن أبي شيبه في (المصنف ٢٢٥/١٣).

في لياليهم دائماً؛ إما لَفَزَطِ أَسْفِ أو لِشَدَّةَ لَهْفٍ، وإما لاشتياقٍ أو لفراقٍ - كما قالوا:
 كم ليلة فيك لا صباح لها أفثيئُها قابضاً على كبدي
 قد غُصَّت العينُ بالدموعِ وقد وَصَفْتُ خدي على بنان يدي
 وإما لكمال أنسٍ وطيب روح - كما قالوا:
 سقى الله عيشاً قصيراً مضى زمان الهوى في الصبا والمجون
 لياليه تحكي انسدادَ لحاظٍ لَغِينِي عند ارتداد الجفون
 قوله جلّ ذكره: ﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ﴾.

السائل هو الْمُتَكَفِّفُ، والمحروم هو المتعقّف - ويقال هو الذي يحرم نفسه بترك السؤال... هؤلاء هم الذين يَغْطُونَ بشرط العلم، فأما أصحاب المروءة: فغير المستحق لمالهم أَوْلَى من المستحق. وأما أهل الفترة فليس لهم مالٌ حتى تتوجه عليهم مطالبة؛ لأنهم أهل الإيثار - في الوقت - لكل ما يَفْتَحُ عليهم به.
 قوله جلّ ذكره: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾.
 كما أَنَّ الأرضَ تحمل كل شيء فكذلك العارف يتحمل كل أحد.

ومن استقل أحدًا أو تبرّم برؤية أحدٍ فَلِغَيْبَتِهِ عن الحقيقة، ولمطالعة الخلق بعين التفرقة - وأهل الحقائق لا يتصفون بهذه الصفة.

ومن الآيات التي في الأرض أنها يُلْقَى عليها كل قذارة وقمامة - ومع ذلك تُنْبِتُ كل زهر وتؤوّر... كذلك العارف يتشرب كل ما يُسْقَى من الجفاء، ولا يترشح إلا بكل خُلُقٍ عَلَيَّ وشيمة زكية^(١).

ومن الآيات التي في الأرض أَنَّ ما كان منها سبخاً يترك ولا يُعْمَرُ لأنه لا يحتمل العماره - كذلك الذي لا إيمان له بهذه الطريقة يُهْمَلُ، فمقابلته بهذه الصفة كالقاء البذر في الأرض السبخة.

﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾: أي وفي أنفسكم أيضاً آيات، فمنها وقاحتها في همتها، ووقاحتها في صفتها، ومنها دعاواها العريضة فيما ترى منها وبها، ومنها أحوالها المريضة حين تزعم أَنَّ ذَرَّةً أو (.. .)^(٢) بها أو منها.

(١) قال القشيري في رسالته عند حديثه عن التصوف: قال الجنيد: الصوفي كالأرض، يُطْرَحُ عليها كل قبيح، ولا يخرج منها إلا كل مريح، وقال أيضاً إنه كالأرض يطؤها البر والفاجر وكالسحاب يظل كل شيء، وكالقطر يسقي كل شيء، وقال: إذا رأيت الصوفي يعني بظاهره فاعلم أن باطنه خراب. (الرسالة القشيرية ص ٢٨١).

(٢) بياض في الأصل.

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾: أي قسمة أرزاقكم في السماء، فالملائكة الموكّلون بالأرزاق ينزلون من السماء.

ويقال: السماء ها هنا المطر، فبالمطر ينبت الحَبُّ والمرعى.

ويقال: على رب السماء أرزاقكم لأنه ضَمَنَهَا.

ويقال: قوله: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ وها هنا وقف ثم تبدىء: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ يَتْلُو مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ﴾.

أي: إنّ البعث والنشر لحقّ.

ويقال: إنّ نصري لمحمدٍ ولديني، وللذي أناكم به من الأحكام - لحقّ مثل ما أنكم تنطقون.

كما يقال: هذا حقّ مثل ما أنك ها هنا.

ويقال: معناه: «أَنْ اللَّهَ رازقكم» - هذا القول حقّ مثلما أنكم إذا سُئِلْتُمْ: مَنْ رَبُّكُمْ؟ وَمَنْ خالِقكم؟ قلتم: الله... فكما أنكم تقولون: إنّ الله خالق - وهذا حقّ... كذلك القول بأنّ اللَّهَ رازقٌ - هو أيضاً حقّ.

ويقال: كما أنّ نُطْقَكَ لا يتكلّم به غيرك فرزقك لا يأكله غيرك.

ويقال: الفائدة والإشارة في هذه الآية أنه حال برزقك على السماء، ولا سبيل لك إلى العروج إلى السماء لتشتغل بما كلفك ولا تتعنى في طلب ما لا تصل إليه.

ويقال: في السماء رزقكم، وإلى السماء يُرْفَعُ عَمَلُكُمْ... فإنّ أَرَدْتَ أَنْ ينزل عليك رزقك فأصْبِعْهُ إلى السماءِ عَمَلَك - ولهذا قالوا: الصلاة قرعُ باب الرزق، وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْ رِزْقًا﴾ [طه: ١٣٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾.

قيل في التفسير: لم يكن قد أتاه خبرهم قبل نزول هذه الآية.

وقيل: كان عددهم اثني عشر ملكاً. وقيل: جبريل وكان معه سبعة. وقيل: كانوا ثلاثة.

وقوله: ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾ قيل لقيامه - عليه السلام - بخدمتهم. وقيل: أكرم الضيف بطلاقة وجهه، والاستبشار بوفودهم.

وقيل: لم يتكلّف إبراهيم لهم، وما اعتذر إليهم - وهذا هو إكرام الضيف - حتى لا تكون من المضيف عليه مِنَّةٌ فيحتاج الضيف إلى تحملها.

ويقال: سمّاهم مكرمين لأن غير المدعوّ عند الكرام كريم.

ويقال: ضيفُ الكرام لا يكون إلا كريماً.

ويقال: المكرمين عند الله.

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾.

أي سلمنا عليك ﴿سَلَامًا﴾ فقال إبراهيم: لكم مني ﴿سَلَامًا﴾.

وقولهم: ﴿سَلَامًا﴾ أي لك منا سلام، لأنَّ السلام: الأمان.

﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾: أي أنتم قوم منكرون؛ لأنه لم يكن يعرف مثلهم في الأضياف.

ويقال: غُرَبَاءَ.

قوله جل ذكره: ﴿فَرَأَى إِلَهُه فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.

أي عدل إليهم من حيث لا يعلمون وكذلك يكون الروغان.

﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ فشواه، وقربه منهم وقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ؟﴾ وحين امتنعوا عن

الأكل:

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾.

تَوَهَّمُ أَنَّهُمْ لَصُوصٌ فَقَالُوا لَهُ: ﴿لَا تَخَفْ﴾.

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾: أي بشروه بالولد، وبقاء هذا الولد إلى أن يصير عليمًا؛

والعليم مبالغة من العلم، وإنما يصير عليمًا بعد كبره.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْثَهَا فِي صَرْفٍ فَصَكَتَ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.

﴿فِي صَرْفٍ﴾ أي في صيحة شديدة، ﴿فَصَكَتَ وَجْهَهَا﴾ أي فضربت وجهها بيدها

كفعل النساء ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾: أي أنا عجوز عقيم. وقيل: إنها يومها كانت ابنة

ثمان وتسعين سنة، وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة.

﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾.

أي قلنا لك كما قال ربك لنا، وأن نخبرك أن الله هو المُحْكِمُ لأفعاله،

﴿الْعَلِيمُ﴾ الذي لا يخفى عليه شيء.

﴿قَالَ فَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ؟﴾.

سألهم: ما شأنكم؟ وما أمركم؟ وبماذا أُرْسِلْتُمْ؟

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّن طِينٍ مَّسُومَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُصْرِفِينَ فَأَخْرَجْنَا

مَنْ كَانَ فِيهَا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَا بَعَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

هم قوم لوط، ولم نجد فيها غير لوط ومن آمن به.

قوله جل ذكره: ﴿وَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

تركنا فيها علامةً يعتبر بها الخائفون - دون القاسية قلوبهم^(١).

(١) الآيات من (٣٩ حتى ٤٦) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

أي بحجة ظاهرة باهرة.

... إلى قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْمٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]: أي جعلنا

بينها وبين الأرض سعة، «وإننا لقادرون»: على أن نزيد في تلك السعة.

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُنْهَدُونَ﴾.

أي جعلناها مهاداً لكم ثم أتى على نفسه قائلاً: ﴿فَنِعْمَ الْمُنْهَدُونَ﴾.

دلّ بهذا كله على كمال قدرته، وعلى تمام فضله ورحمته.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

أي صنفين في الحيوان كالذكر والأنثى، وفي غير الحيوان؛ كالحركة والسكون،

والسواد والبياض، وأصناف المتضادات.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَقَرِّئُوا إِلَى اللَّهِ إِنَّ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي فارجعوا إلى الله - والإنسان بإحدى حالتين؛ إمّا حالة رغبة في شيء، أو حالة

رهبة من شيء، أو حال رجاء، أو حال خوف، أو حال جلب نفع أو رفع ضرر... وفي

الحالتين ينبغي أن يكون فراؤه إلى الله؛ فإن النافع والضار هو الله.

ويقال: مَنْ صَحَّ فِرَاؤُهُ إِلَى اللَّهِ صَحَّ قَرَاؤُهُ مَعَ اللَّهِ.

ويقال: يجب على العبد أن يفرّ من الجهل إلى العلم، ومن الهوى إلى التقى،

ومن الشك إلى اليقين، ومن الشيطان إلى الله.

ويقال: يجب على العبد أن يفرّ من فعله - الذي هو بلاؤه إلى فعله الذي هو

كفايته. ومن وصفه الذي هو سخطه إلى وصفه الذي هو رحمته، ومن نفسه - حيث

قال: ﴿وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ تَفْسُكُمُ﴾ [آل عمران: ٢٨] إلى نفسه حيث قال: ﴿فَقَرِّئُوا إِلَى اللَّهِ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَجْمَعُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أخوفكم اليم عقوبته إن أشركتم به - فإنه لا يغفر أن يُشرك به.

ثم بيّن أنه على ذلك جرّت عادتهم في تكذيب الرُّسل، كأنهم قد توصوا فيما

بينهم بذلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾.

فأعرض عنهم فليست تلحقك - بسوء صنيعهم - ملامة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ذكّر العاصين عقوبتي ليرجعوا عن خالفَةِ أمري، وذكّر المطيعين جزيل ثوابي

ليزدادوا طاعةً وعبادةً، وذكّر العارفين ما صرّفت عنهم من بلائي، وذكّر الأغنياء ما

أَتَخْتُ لَهُمْ مِنْ إِحْسَانِي وَعِطَائِي، وَذَكَرْتُ الْفُقَرَاءَ مَا أَوْجِبْتُ لَهُمْ مِنْ صَرْفِ الدُّنْيَا عَنْهُمْ وَأَعْدَدْتُ لَهُ مِنْ لِقَائِي.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.

الذين اصطفتيهم في آزالي، وخصّصتهم - اليوم - بحسن إقبالِي، ووعدتهم جزيل أنصالي - ما خلقتهم إلا ليعبدوني.

والذين سخّطت عليهم في آزالي، وربطتهم - اليوم - بالخذلان فيما كلّفتهم من أعمالي، وخلّقت النار لهم - بحكم إلهيتي ووجوب حكمي في سلطاني - ما خلقتهم إلا لعذابي وأنكالي، وما أعددت لهم من سلاسل وأغلالِي.

ما أريد منهم أَنْ يُطْعَمُوا أو يرزقوا أحداً من عبادي فَإِنَّ الرِّزَّاقَ أَنَا.

وما أريد أَنْ يطعموني فَإِنِّي أَنَا اللَّهُ ﴿ذُو الْقُوَّةِ﴾: المتينُ القوي.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ﴾.

لهم نصيبٌ من العذابِ مثلَ نصيبِ مَنْ سَلَفَ مِنْ أَصْحَابِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ فَلِمَ اسْتَعْجَلَ الْعَذَابُ - والعذابُ لَن يَفُوتَهُمْ؟

﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾.

وهو يوم القيامة.

سورة الطور

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة ما استولت على قلب عارفٍ إلا تيمّنه بكشف جلاله، وما استولت على قلب متأفّفٍ إلا أكرمه بلطف أفضاله... فهي كلمة قهّارة للقلوب... ولكن لا لكل قلب، مذهبة للكروب... ولكن لا لكل كرب.

قوله جل ذكره: ﴿وَالطُّورِ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ﴾.

أقسم الله بهذه الأشياء (التي في مطلع السورة)، وجواب القسم قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾. والطور هو الجبل الذي كلّم عليه موسى عليه السلام؛ لأنه محلّ قدّم الأحباب وقت سماع الخطاب. ولأنه الموضع الذي سمع فيه موسى ذكر محمد ﷺ وذكر أمته حتى نادانا ونحن في أصلاب آبائنا فقال: أعطيتكم قبل أن تسألوني ﴿وَكُتِبَ مَسْطُورٍ﴾ مكتوب في المصاحف، وفي اللوح المحفوظ.

وقيل: كتاب الملائكة في السماء يقرؤون منه ما كان وما يكون.

ويقال: ما كتب على نفسه من الرحمة لعباده.

ويقال ما كتب من قوله: «سبقت رحمتي غضبي»^(١).

ويقال: هو قوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

ويقال: الكتاب المسطور فيه أعمال العباد يُعطى لعباده بأيمانهم وشمائلهم يوم القيامة. ﴿فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ﴾^(٢) يرجع إلى ما ذكرنا من الكتاب. ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾.

(١) أخرجه الحميدي في (المسند ١١٢٦)، وابن أبي عاصم في (السنن ٢٧٠/١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥٥٦/٨، ٥٥٨/١٠)، وابن أبي الدنيا في (حسن الظن ١٣) والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة ٩٦).

(٢) الرّق: الصحيفة البيضاء أو هو ما يكتب فيه وهو جلد رقيق. وقيل: الرق الصحائف التي تخرج إلى بني آدم يوم القيامة فأخذ كتابه بيمينه وأخذ كتابه بشمال. (لسان العرب ١٢٣/١٠ مادة: رقق).

في السماء الرابعة ويقال: هو قلوب العابدين العارفين المعمورة بمحبته ومعرفته .
ويقال: هي مواضع عباداتهم ومجالس خلواتهم . وقيل: الكعبة .
﴿وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعَ﴾ .

هي السماء . وقيل سماء هميمهم في الملكوت .
﴿وَالْبَحْرَ الْمَسْجُورَ﴾ .
البحار المملوءة .

أقسم بهذه الأشياء: ﴿إِنَّ عَذَابَهُ لَوَاقِعٌ﴾ وعذابه في الظاهر ما توعد به عباده العاصين، وفي الباطن الحجاب بعد الحضور، والستر بعد الكشف، والرد بعد القبول .

﴿مَا لَمْ مِنْ دَافِعٍ﴾ .

إذا ردَّ عبداً أبرم القضاء برده:

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكن إليه بوجه آخر - الدهر - تُقْبِلُ قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ .

﴿تَمُورُ﴾: أي تدور بما فيها، وتسير الجبال عن أماكنها، فتسير سيرا .
﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ .

الويل كلمة تقولها العرب لمن وقع في الهلاك .

﴿فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾: في باطل التكذيب يخوضون .

﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ .

يَوْمَ يُدْفَعُونَ إِلَى النَّارِ دَفْعًا، ويقال لهم: هذه هي النار التي كنتم بها تكذبون . . .

ثم يسألون: أهذا من قبيل السحر على ما قلتم أم غطّي على أبصاركم؟!

قوله جل ذكره: ﴿أَصْلَحُوا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

والصبر على الجزاء في العاقبة لا قيمة له، لأن عذابهم عقوبة لهم:

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ فَلَكَاهِنَ يَمَّا ءَانَتْهُمْ رِئَمٌ وَوَقَفَتْهُمْ رِئَمٌ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ .

المتقون في جنات ونعيم عاجلاً وآجلاً . ﴿فَلَكَاهِنَ﴾ أي مُعْجِبِينَ بما آتاهم ربهم وما أعطاهم .

ويقال: فاكهون: أي ذوو فاكهة: كقولهم رجل تامر أي ذو تمر، ولابن أي ذو لبن.
قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قوم يصير لهم ذلك هنيئاً بطعمه ولذته، وقوم يصير هنيئاً لهم سماع قولهم عنه - سبحانه - هنيئاً، وقوم يصير لهم ذلك هيناً ليناً وهم بمشهد منه:
فاشرب على وجهها كغفرتها مدامة في الكؤوس كالشرر^(١)
﴿مُتَكِّينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾.

يظنون في سرور وحبور، ونصيب من الأنس موفور.
قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ قَلِيلًا مِّنْ ذُرِّيَّتِهِمْ﴾.
يُكْمَلُ عليهم سرورهم بأن يُلْحَقَ بهم ذُرِّيَّاتُهُمْ؛ فَإِنَّ الْإِنْفِرَادَ بِالنِّعْمَةِ عَمَّنِ الْقَلْبِ
مَشْتَقِلٌ بِهِ مِنَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَالذَّرِيَةِ يَوْجِبُ تَنْقِصَ الْعِيشِ.
وكذلك كلُّ مَنْ قَلْبُ الْوَلِيِّ يَلَاظِلُهُ مِنْ صَدِيقٍ وَقَرِيبٍ، وَلِيِّ وَخَادِمٍ، قَالَ
تعالى في قصة يوسف: ﴿وَأَتَوْاهُ بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣].

وفي هذا المعنى قالوا:

إني على جفواتها - فبرها وبكل مُتَّصِلٍ بها متوسِّلٍ
لأحبها، وأحب منزلها الذي نزلت به وأحب أهل المنزل
﴿وَمَا أَلْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.

أي ما أنقصنا من أجورهم من شيء بل وفينا ووفرنا. وفي الابتداء نحن أولينا
وزدنا على ما أعطينا.

﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ مُطَالَبٌ بعمله، يوفى عليه أجره بلا تأخير، وإن كان
ذنباً فالكثير منه مغفور، كما أنه اليوم مستور.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ يَنْتَرِعُونَ فِيهَا كَأَنَّهُمْ لَا لَقْوَ فِيهَا وَلَا
تَأْيِيمٌ﴾.

أي لا يجري بينهم باطل ولا يؤثمهم كما يجري بين الشرب^(٢) في الدنيا، ولا
يذهب الشرب بقولهم فيجري بينهم ما يُخْرِجُهُمْ عَنْ حَدِّ الْأَدَبِ وَالِاسْتِقَامَةِ.
وكيف لا يكون مجلسهم بهذه الصفة ومن المعلوم من يسقيهم، وهم بمشهد منه
وعلى رؤية منه؟.

(١) المدامة: الخمر، الشر: ما تطاير من النار، واحدته شررة.

(٢) الشرب: القوم يشربون، ويجمعون على الشراب. (لسان العرب ٤٨٨/١ مادة: شرب).

قوله جل ذكره: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكَوْنٌ﴾.

والقوم عن الدارِ وعمَّن في الدارِ مُخْتَطِّفُونَ لاستيلاء ما يستغرقهم؛ فالشراب يؤنسهم ولكن لا يَمُنَّ يجانسهم؛ وإذا كان - اليوم - للعبد وهو في السجن في طول عمره ساعة امتناع عن سماع خطاب الأغيار، وشهود واحد من المخلوقين - وإن كان ولدًا عزيزًا، أو أخًا شفيقًا - فَمِنْ المحال أن يُظَنَّ أنه يُرَدُّ من الأعلى إلى الأدنى... إن كان من أهل القبول والجنة، ومن المحال أن يظن أنه يكون غداً موسوماً بالشقاوة. وإذا كان العبدُ في الدنيا يقاسي في غُرْبَتِهِ من مُقاساة اللتيا والتي - فماذا يجب أن يقال إذا رجع إلى منزله؟ أيبقى على ما كان عليه في سفرته؟ أم يلقى غير ما كان يقاسي في سفرته، ويتجرع غير ما كان يُسقى من كاسات كُرْبَتِهِ؟

قوله جل ذكره: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنْ كُنَّا عَلَيْهِ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾.

لولا أنهم قالوا: ﴿فَمَنْ كُنَّا عَلَيْهِ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ لكانوا قد لاحظوا إشفاقهم، ولكن الحق - سبحانه - اختطفهم عن شهود إشفاقهم؛ حيث أشهدهم مِنهُ عليهم حتى قالوا: ﴿فَمَنْ كُنَّا عَلَيْهِ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾.

أي أنهم يعلمون أنك ليست بك كهانة ولا جنون، وإنما قالوا ذلك على جهة التسفيه؛ فالتسفيه يسطر لسانه فيمن يشبه بما يعلم أنه منه بريء.

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرَبِّصِينَ﴾.

نترصد به حوادث الأيام؛ فإن مثل هذا لا يدوم، وسيموت كما مات من قبله كهان وشعراء.

ويقال: قالوا: إن أباه مات شابًا، ورَجَوْا أن يموت كما مات أبوه، فقال تعالى:

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا...﴾ فإننا منتظرون، وجاء في التفسير أن جميعهم ماتوا. فلا ينبغي

لأحد أن يؤمل موت أحد. فَقُلْ مَنْ تكون هذه صنعة إلا سبقتة المنيّة - دون أن يدرك ما يتمناه من الأمنية.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُوا بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.

أتأمرهم عقولهم بهذا؟ أم تحملهم مجاوزة الحد في ضلالهم وطغيانهم على هذا؟

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ قَوْلُهُمْ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ فَلْيَاوُوا بَحْدِيثِ مَثَلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾.

إذا كانوا يزعمون أنك تقول هذا القول من ذات نفسك فليأتوا بحديث مثله إن

كانوا صادقين فيما رموك به!

قوله جلّ ذكره: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ .
 كلا ليس الأمر كذلك، بل الله هو الخالق وهم المخلوقون^(١).
 أم هم الذين خلقوا السموات والأرض؟ ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رِزْقِ﴾ .
 - أي خزائن أرزاقه ومقدوراته؟ ﴿أَمْ هُمْ الْمُضْطَرُّونَ﴾ الْمُتَسَلِّطُونَ عَلَى النَّاسِ؟
 أم لهم سُلْمٌ يرتقون فيه فيستمعون ما يجري في السموات؟ ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَعْمِلُهُمْ
 بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ ثم إنه سفة أحلامهم فقال:
 ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ أَمْ تَتْلُوهُنَّ أَجْرًا فَهَمَّ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ .
 أم تسألهم على تبليغ الرسالة أجراً فهم مثقلون من العزم والإلزام في المال
 (بحيث يزهدهم ذلك في اتباعك؟).
 ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ ذلك؟
 ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي أن يمكروا بك مكرًا ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ .
 ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يفعل شيئاً مما يفعل الله؟ تنزيهاً له عن ذلك!
 قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ .
 أي إن رأوا قطعة من السماء ساقطة عليهم قالوا: إنه سحب مركوم رُكِمَ بعضه على
 بعض والمقصود أنهم مهما رأوا من الآيات لا يؤمنون. ولو فتحنا عليهم باباً من السماء حتى
 شاهدوا بالعين لقالوا: إنما سكرت أبصارنا، وليس هذا عياناً ولا مشاهدةً.
 قوله جلّ ذكره: ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلْتَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ
 شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ .
 أي فأعرض عنهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يموتون، يوم لا يغني عنهم
 كيدهم شيئاً، ولا يُمنعون من عذابنا.
 قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .
 دون يوم القيامة لهم عذاب القتل والسبي، وما نزل بهم من الهوان والخزي يوم
 بدر وغيره.
 ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أَنَّ اللَّهَ نَاصِرٌ لِدِينِهِ .
 قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ .
 أنت بمرأى مِنَّا، وفي نصرة مِنَّا.

(١) الآية (٣٦) لم ترد.

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾: في هذا تخفيفٌ عليه وهو يقاسي الصبر.

﴿وَسَيَحْمَدُ رَبَّكَ حِينَ تَقُومُ﴾.

أي تقوم للصلاة المفروضة عليك.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَيَحْمَدُهُ وَلَدَبَّرَ السُّجُودَ﴾.

قيل: المغرب والعشاء وركعتا الفجر.

وفي الآية دليل وإشارة إلى أنه أمره أن يذكره في كل وقت، وألا يخلو وقت من ذكره.

والصبر لحكم الله شديد، ولكن إذا عرفَ اطلاعَ الربِّ عليه سهلَ عليه ذلك وهان.

سورة النجم

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ حلِيمٌ رحيمٌ، يحلم فيما يعلم، ويستتر ما يبصر ويغفر، وعلى العقوبة يقدِر، يَرَى ويُخْفِي، وَيَعْلَم ولا يُبْدِي.

قوله جل ذكره: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾.

والثريا إذا سقط وغرب. ويقال: هو جَسُ النجوم أقسم بها.

ويقال: هي الكواكب. ويقال: أقسم بنجوم القرآن على النبي ﷺ ويقال هي الكواكب التي تُرمى بها الشياطين.

ويقال أقسم بالنبي ﷺ عند مُنْصَرَفِهِ من المعراج.

ويقال: أقسم بضياء قلوب العارفين ونجوم عقول الطالبين.

وجواب القسم قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾: أي ما ضلَّ عن التوحيد قط، ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾: الغي: نقيض الرشد. وفي هذا تخصيصٌ للنبي ﷺ حيث تولَّى - سبحانه - الذب عنه فيما رُمي به، بخلاف ما قال لنوح عليه السلام وأذن له حتى قال: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ [الأعراف: ٦١]، وهود قال: ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ [الأعراف: ٦٧]. وغير ذلك، وموسى قال لفرعون: ﴿وَلَئِنْ لَأُطْنُكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وقال لنبينا ﷺ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾: معناه ما ضلَّ صاحبكم، ولا غفل عن الشهود طَرْفَةً عين.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

أي ما ينطق بالهوى، وما هذا القرآن إلا وحى يُوحَى. وفي هذا أيضاً تخصيصٌ له بالشهادة؛ إذ قال لداود: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦].

وقال في صفة نبينا ﷺ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾.

﴿ومتى ينطق عن الهوى﴾ وهو في محل النجوى؟ في الظاهر مزموومٌ بِزِمَامِ التقوى، وفي السرائر في إيواء المولى، مُصَفًّى عن كدورات البشرية، مُرَقًّى إلى شهود الأخديّة، مُكَاشَفٌ بجلال الصمديّة، مُخْتَلَفٌ عنه بالكُلِّيّة، لم تبق منه إلا للحقُّ بالحقِّ بقية... ومن كان بهذا النعت... متى ينطق عن الهوى؟

قوله جل ذكره: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ .
 أي جبريل عليه السلام . و ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ : أي ذو قوة وهو جبريل . ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ
 الْأَعْلَى﴾ أي جبريل .

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ .
 دنا جبريل من محمد عليه السلام ، فتدلى جبريل : أي نزل من العلو إلى محمد .
 وقيل : «تدلى» تفيد الزيادة في القرب ، وأن محمداً عليه السلام هو الذي دنا من
 ربه دنو كرامة ، وأن التدلى هنا معناها السجود .
 ويقال : دنا محمد من ربه بما أودع من لطائف المعرفة وزوايدها ، فتدلى بسكون
 قلبه إلى ما أدناه .

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ : فكان جبريل - وهو في صورته التي هو عليها - من
 محمد ﷺ بحيث كان بينهما قَدْرُ قَوْسَيْنِ أو أدنى .
 ويقال : كان بينه - ﷺ - وبين الله قَدْرُ قَوْسَيْنِ : أراد به دنو كرامة لا دنو
 مسافة .

ويقال : كان من عاداتهم إذا أرادوا تحقيق الألفه بينهم إصااق أحدهم قوسه
 بقوس صاحبه عبارة عن عقد الموالاة بينهما ، وأنزل الله - سبحانه - هذا الخطاب على
 مقتضى معهودهم . ثم رفع الله هذا فقال : ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ أي بل أدنى .

قوله جل ذكره: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْ عِبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ .
 أي أوحى الله إلى محمد ما أوحى . ويقال : أحمّله أحملاً لم يطّلع عليها أحد .
 ويقال : قال له : ألم أجذك يتيماً فأويتك؟ ألم أجذك ضالاً فهديتك؟
 ألم أجذك عائلاً فأغنيتك؟ ألم أشرح لك صدرك؟
 ويقال : بشّره بالحوض والكوثر .

ويقال : أوحى إليه أن الجنة مُحَرَّمَةٌ عَلَى الأنبياء حتى تدخلها ، وعلى الأمم
 حتى تدخلها أمتك . والأولى أن يقال : هذا الذي قالوه كله حَسَنٌ ، وغيره مما لم
 يطّلع أحد . . . كله أيضاً كان له في تلك الليلة وحده ؛ إذ رُفاه إلى ما رُفاه ، ولقاه
 بما لقاه ، وأدناه حيث لا دنو قبله ولا بعده ، وأخذه عنه حيث لا غير ، وأصحاه له
 في عين ما محاه عنه ، وقال له ما قال . . . دون أن يطّلع أحد على ما كان بينهما
 من السر .

قوله جل ذكره: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ .

ما كَذَّبَ فؤادُ محمدٍ ﷺ ما رآه ببصره من الآيات . وكذلك يقال : رأى ربّه تلك الليلة على الوصف الذي عَلِمَهُ قبل أن يراه .
قوله جلّ ذكره : ﴿ أَفَتَسْمُوهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ .

أفتجادلونه على ما يرى ؟

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴾ .

أي جبريلُ رأى الله مرةً أخرى حين كان محمدٌ عند سدرَةِ المنتهى ؛ وهي شجرة في الجنة ، وهي منتهى الملائكة ، وقيل : تنتهي إليها أرواحُ الشهداء . ويقال : تنتهي إليها أرواحُ الخَلْقِ ، ولا يَعْلَمُ ما وراءها إلا الله تعالى - وعندها ﴿ جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴾ وهي جنة من الجنان .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ .

يغشاها ما يغشاها من الملائكة ما الله أعلمُ به .

وفي خبر : « يغشاها رفرف طير خُضِر » .

ويقال : يغشاها فَرَّاشٌ من ذَهَبٍ .

ويقال : أُعْطِيَ رسول الله ﷺ عندها خواتيم البقرة ، وَغُفِرَ لِمَن مَاتَ مِنْ أُمَّتِهِ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا .

قوله جلّ ذكره : ﴿ مَا رَأَى الْبَصَرُ وَمَا طَفَى ﴾ .

ما مَالٌ - صلوات الله عليه وسلامه - ببصره عمّا أُبَيحَ له من النظر إلى الآيات ، والاعتبارِ بدلائلها .

فما جَاوَزَ حَدَّهُ ، بل رَأَى شروطَ الأدبِ في الحضرة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ .

أي « الآية » الكبرى ، وَحَذَفَ الآيةَ . . . وهي تلك التي رآها في هذه الليلة .
ويقال : هي بقاءه في حال لقائه ربّه بوصفِ الصُّخْرِ ، وَحَفَظَهُ حتى رآه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَوَازِئَ الثَّالِثَةِ ثُمَّ إِلَّاكُمْ أَلْذَكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ .

هذه أصنامٌ كانت العرب تعبدها ؛ فاللات صنمٌ لثقيف ، والعزى شجرةٌ لغطفان ، ومناة صخرةٌ لهذيل وخزاعة .

ومعنى الآية : أخبرونا . . . هل لهذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله من القدرة أن تفعل بعائذٍ بها ما فَعَلْنَا نحن لمحمدٍ ﷺ من الرُتْبِ والتخصيص ؟ .

ثم وبَّحَهُمْ فقال: أرايتم كيف تختارون لأنفسكم البنين وتنسبون البنات إلى الله؟ تلك إذا قسمة ناقصة!

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَابْنَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾.

أنتم ابتدعتم هذه الأسماء من غير أن يكونَ اللهُ أَمَرَكم بهذا، أو أُذِنَ لكم به. فأنتم تتبعون الظنَّ، ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾: فأعرضوا عنه، وكما أن ظنَّ الكفار أوجبَ لهم الجهلَ والخيرةَ والحكمَ بالخطأ - فكذلك في هذه الطريقة: مَنْ عَرَّجَ على أوصافِ الظنِّ لَا يَحْظَى بشيءٍ من الحقيقة؛ فليس في هذا الحديث إلا القطعُ والتحقيقُ، فنهارهم قد مَتَّعَ، وشمسهم قد طلعت، وعلومهم أكثرها صارت ضرورية.

أما الظنُّ الجميلُ بالله فليس من هذا الباب، والتباسُ عاقبةِ الرجلِ عليه ليس أيضاً من هذه الجملة ذاتِ الظنِّ المعلومِ في الله، وفي صفاته وأحكامه. قوله جل ذكره: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾.

أي ليس للإنسان ما يتمناه؛ فإنه يتمنى طولَ الحياةِ والرفاهيةَ وخِصْبَ العيش... وما لا نهايةَ له، ولكنَّ أحداً لا يبلغ ذلك بتمامه.

ويقال: ما يتمناه الإنسان أن يرتفعَ مرادُه واجباً في كل شيء - وأن يرتفعَ مرادُ عبْدٍ واجباً في كل شيء ليس من صفات الخلقِ بل هو الله، الذي له ما يشاء:

﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾.

له الآخرةُ والأولى خَلْقاً وَمِلْكَاً، فهو المَلِكُ المالكُ صاحبُ المُلْكِ التام. فأمَّا المخلوقُ فالنقصُ لازمٌ للكُلِّ.

قوله جل ذكره: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾.

وهذا ردُّ عليهم حيث قالوا: إنَّ الملائكةَ شفاعونا عند الله.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ سَمِيَّةً الْأُنثَى وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾.

هذه التسمية من عندهم، وهم لا يتبعون فيها علماً أو تحقيقاً... بل ظناً - والظنُّ لا يفيد شيئاً.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْآلِهَةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّٰ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ .

أي أعرض عمن أعرض عن القرآن والإيمان به وتدبر معانيه، ولم يرد إلا الحياة الدنيا. ذلك مبلغهم من العلم؛ وإنما رضوا بالدنيا لأنهم لم يعلموا حديث الآخرة، وإن ربك عليهم بالضال، عليهم بالمهتدي... وهو يجازي كلًا بما يستحق.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ﴾ .

يجزي الذين أساءوا بالعقوبات، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كَثِيرَ الْإِنْتِهَاءِ أَفَلَا يَلْمِزُوكَ إِلَّا اللَّعْنَةَ﴾ .

الذنوب كلها كبائر لأنها مخالفة لأمر الله، ولكن بعضها أكبر من بعض. ولا شيء أعظم من الشرك. ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ المعاصي.

﴿إِلَّا اللَّعْنَةَ﴾: تكلموا فيه، وقالوا: إنه استثناء منقطع، واللمم ليس بإثم ولا من جملة الفواحش.

ويقال: اللمم من جملة الفواحش ولكن فيها اشتباهاً - فأخبر أنه يغفرها.

ويقال: اللمم هو أن يأتي المرء ذلك ثم يقلع عنه بالتوبة.

وقال بعض السلف: هو الوقعة من الزنا تحصل مرة ثم لا يعود إليها، وكذلك شرب الخمر، والسرقة... وغير ذلك، ثم لا يعود إليها.

ويقال: هو أن يهمل بالزلة ثم لا يفعلها.

ويقال: هو النظر. ويقال: ما لا حد عليه من المعاصي، وتكفر عنه الصلوات. (والأصح أنه استثناء منقطع وأن اللمم ليس من جملة المعاصي).

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْغُفْرَةَ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمُ إِذْ أَنتَ أَكْرَمُ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتَ أَجَنَّةٌ فِي بَطْنٍ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ .

﴿إِذْ أَنتَ أَكْرَمُ مِنَ الْأَرْضِ﴾: يعني خلق آدم.

ويقال: تزكية النفس من علامات كون المرء محجوباً عن الله؛ لأنَّ المجدوب إلى الغاية والمستغرق في شهود ربه لا يزكي نفسه.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾: لأنه أعلم بكم منكم.

ويقال: من اعتقد أن على البسيطة أحداً شراً منه فهو متكبر.

ويقال: المسلم يجب أن يكون بحيث يرى كل مسلم خيراً منه: فإن رأى

شيخاً، قال: هو أكثرُ منِّي طاعةً وهو أفضلُ منِّي، وإن رأى شاباً قال: هو أفضلُ منِّي لأنه أقلُّ منِّي ذنباً.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَكَّلَ وَأَعْطَى قَلِيلاً وَاكْدَكَ﴾.

أعرض عن الحق، وتصدّق بالقليل. ﴿وَاكْدَكَ﴾ أي قطع عطاءه.

﴿أَعِنْدُهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾.

﴿فَهُوَ يَرَى﴾: فهو يعلم صِحَّةَ ذلك. يقال: هو المنافق الذي يُعين على الجهاد قليلاً ثم يقطع ذلك:

﴿أَعِنْدُهُ عِلْمُ الْغَيْبِ﴾: فهو يرى حاله في الآخرة؟

﴿أَمْ لَمْ يَلْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾.

أم لم يُنبأ هذا الكافر بما في صحف موسى، وصحف إبراهيم الذي وفّى؛ أي أتم ما طوّل به في نفسه وماله وولده.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَا نُرِذُّ وَرِذَّةً وَرِذَّةً أُخْرَى وَأَنْ لِّئْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾.

الناس في سعيهم مختلفون؛ فَمَنْ كان سعيه في طلب الدنيا خَسِرَتْ صفقته، ومن كان سعيه في طلب الجنة ربحت صفقته، ومن كان سعيه في رياضة نفسه وصل إلى رضوان الله، ومن كان سعيه في الإرادة شَكَرَ الله سعيه ثم هداه إلى نفسه.

وأما المذنب - فإذا كان سعيه في طلب غفرانه، وتَدَمَّ القلب على ما اسودَّ من ديوانه، فسوف يجد من الله الثواب والقربة والكرامة والزلفة.

ومن كان سعيه في عَدِّ أنفاسه مع الله؛ لا يُعْرِجُ على تقصير، ولا يُفَرِّطُ في مأمور فسيرى جزاء سعيه مشكوراً في الدنيا والآخرة، ثم يشكره بأن يُخاطِبَهُ في ذلك المعنى بإسماعه كلامه من غير واسطة: عبدي، سَعْيُكَ مشكور، عبدي، ذَنْبُكَ مغفور.

﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾: هو الجزاء الأكبر والأجل، جزاء غير مقطوع ولا ممنوع.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾.

إليه المرجع والمصير، فابتداء الأشياء من الله خَلْقاً، وانتهاء الأشياء إلى الله مصيراً.

ويقال: إذا انتهى الكلام إلى الله تعالى فاسْكُتُوا.

ويقال: إذا وَصَلَ العبدُ إلى معرفة الله فليس بعده شيءٌ إلا أطفافاً من مالٍ أو منالٍ أو تحقيق آمالٍ أو أحوالٍ... يُجربها على مراده - وهي حظوظ للعباد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنْتُمْ هُمْ أَضْحَكٌ وَأَبْكِي﴾.

أراد به الضحك والبكاء المتعارف عليهما بين الناس؛ فهو الذي يُجربه وَيُخْلُقُهُ.

ويقال: أضحك الأرض بالنبات، وأبكى السماء بالمطر.

ويقال: أضحك أهل الجنة بالجنة، وأبكى أهل النار بالنار.

ويقال: أضحك المؤمن في الآخرة وأبكاه في الدنيا، وأضحك الكافر في الدنيا

وأبكاه في الآخرة.

ويقال: أضحكهم في الظاهر، وأبكاهم بقلوبهم.

ويقال: أضحك المؤمن في الآخرة بغفرانه، وأبكى الكافر بهوانه.

ويقال: أضحك قلوب العارفين بالرضا، وأبكى عيونهم بخوف الفراق.

ويقال: أضحكهم برحمته، وأبكى الأعداء بسخطه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنْتُمْ هُمْ أَمَاتٌ وَأَحْيَا﴾.

أماته في الدنيا، وأحياه في القبر؛ فالقبر إما للراحة وإما للإحساس بالعقوبة.

ويقال: أماته في الدنيا، وأحياه في الحشر.

ويقال: أمات نفوس الزاهدين بالمجاهدة، وأحيا قلوب العارفين بالمشاهدة.

ويقال: أمات نفوسهم بالمعاملات، وأحيا قلوبهم بالمواصلات.

ويقال: أماتها بالهيبة، وأحيها بالأنس.

ويقال: بالاستتار، والتجلي.

ويقال: بالإعراض عنه، والإقبال عليه.

ويقال: بالطاعة، والمعصية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنْتُمْ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾.

سماهما زوجين لازدواجهما عند خلقهما من التُّفْطَةِ^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَنْتُمْ هُمْ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾.

﴿أَغْنَى﴾: أعطى الغنى، ﴿وَأَقْنَى﴾: أكثر القنية أي المال. وقيل ﴿وَأَقْنَى﴾: أي

أحوجه إلى المال - فعلى هذا يكون المعنى: أنه خَلَقَ الغنى والفقر.

ويقال: ﴿وَأَقْنَى﴾ أي أرضاه بما أعطاه.

ويقال: ﴿أَغْنَى﴾ أي أقنع، ﴿وَأَقْنَى﴾: أي أرضى.

(١) الآيتان (٤٦، ٤٧) لم تردا.

﴿وَأَنْتُمْ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى﴾.

(الشعرى: كوكبٌ يطلع بعد الجوزاء^(١) في شدة الحر، وكانت خزاعة تعبدوها فأعلمَ الله أنه ربُّ معبودهم هذا).

﴿وَأَنْتَهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى وَثَمُودًا فَإِنِّي أَتَى قَوْمَ نُوحٍ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ كَانُوا أَظْلَمَ وَأَطَى﴾.

عاد الأولى هم قوم هود، وعاد الأخرى هي إرم ذات العماد، كما أهلك ثموداً فما أبقى منهم أحداً. وأهلك من قبلهم قوم نوح الذين كانوا أظلم من غيرهم وأغوى ليطول أعمارهم، وقوة أجسادهم.

﴿وَالْمُؤَنَّفَكَةَ أَمْوَى فَنَشْنَهَا مَا عَشَى﴾.

أي المخسوف بها، وهي قرى قوم لوط، قلبها جبريل عليهم، فهي مقلوبة معكوسة.

وقوله: ﴿أَمْوَى﴾ أي: أسقطها الله إلى الأرض بعدما اقتلعها من أصلها، ثم عكسها وألقاها في الأرض، فغشاها ما غشاها من العذاب.

قوله جل ذكره: ﴿مَا يَأْتِي آلَاءَ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾.

فبأي آلاء ربك - أيها الإنسان - تشكك؟ وقد ذكر هذا بعد ما عدَّ إنعامه عليهم وإحسانه إليهم.

قوله جل ذكره: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذِيرِ الْأُولَى﴾.

هو محمد ﷺ، أرسلناه نذيراً كما أرسلنا الرسل الآخرين.

﴿أَزِفَتِ الْأَافِقَةُ فَيَكُفُّ عَنْهُمْ نَوْدُنَا فَمَا يَكْبَرُونَ﴾.

أي قربت القيامة. ولا يقدر أحدٌ على إقامتها إلا الله، وإذا أقامها فلا يقدر أحدٌ على ردّها وكشفها إلا الله.

ويقال: إذا قامت قيامة هذه الطائفة - اليوم - فليس لها كاشفٌ غيره. وقيامتهم تقوم في اليوم غير مرّة. تقوم بالهجر والتوى والفراق.

قوله جل ذكره: ﴿إِنِّي هَذَا الْغَلِيظُ الْمُجِبُّونَ﴾.

أفمن هذا القرآن تعجبون، وتكونون في شك، وتستهزئون؟

﴿وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ﴾: أي لاهون..

﴿فَاعْبُدُوا اللَّهَ وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾: فاسجدوا لله ولا تعبدوا سواه.

(١) الجوزاء: أحد بروج السماء. ونطاق الجوزاء: ثلاثة نجوم نيرة مصطفة في وسط الجوزاء.

سورة القمر

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: كلمة بها نور القلوب والأبصار، ويعرفانها يحصل سرور الأرواح والأسرار. كلمة تدل على جلاله - الذي هو استحقاقه لأوصافه. كلمة تدل على نعته الذي هو غاية أفضاله والطفاه.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَرَأَيْتِ السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

أجمع أهل التفسير على أن القمر قد انشق على عهد الرسول ﷺ.

قال ابن مسعود^(١): «رأيت حراء بين فلقتي القمر»^(٢) ولم يوجد لابن مسعود مخالف في ذلك؛ فقد روي أيضاً عن أنس^(٣) وابن عمر^(٤) وحذيفة^(٥) وابن عباس^(٦) وجبير بن مطعم^(٧)... كلهم رووا هذا الخبر.

(١) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي (.... - ٣٢ هـ = ٦٥٣ م) أبو عبد الرحمن، صحابي. من أكابرهم، فضلاً وعقلاً، وقرباً من رسول الله ﷺ وهو من أهل مكة، ومن السابقين إلى الإسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة. وكان خادماً رسول الله الأمين وصاحب سره. ورفيقه في حله وترحاله وغزواته. وولي بعد وفاة النبي ﷺ بيت مال الكوفة ثم قدم المدينة في خلافة عثمان فتوفي فيها عن نحو ستين عاماً.

الأعلام ١٣٧/٤، والإصابة ٤٩٥٥ ت، وغاية النهاية ٤٥٨/١، وحلية الأولياء ١٢٤/١.

(٢) هناك روايات أخرى للحديث: «إذا انفلق، انشق، فانشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين أو فلقتين...» أخرجه مسلم (منافقين ٤٤، ٤٥)، والترمذي (تفسير سورة ٥٤، ١)، وأحمد بن حنبل ١، ٤٤٧.

(٣) هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم البخاري الخزرجي الأنصاري (١٠ ق. هـ - ٩٣ هـ = ٦١٢ م - ٧١٢ م) أبو ثمامة أو أبو حمزة. صاحب رسول الله ﷺ وخادمه. روى عنه رجال الحديث ٢٢٨٦ حديثاً مولده بالمدينة وأسلم صغيراً وخدم النبي ﷺ إلى أن قبض. ثم رحل إلى دمشق، ومنها إلى البصرة، فمات فيها. وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة.

الأعلام ٢٤/٢، ٢٥، وطبقات ابن سعد ١٠/٧، وصفة الصفوة ٢٩٨/١، وتهذيب ابن عساكر ١٣٩/٣.

(٤) انظر ترجمته في الأعلام ١٠٨/٤، والإصابة ٤٨٢٥ ت، وحلية ٢٩٢/١، وصفة الصفوة ٢٢٨/١.

(٥) انظر ترجمته في الأعلام ١٧١/٢، وتهذيب التهذيب ٢١٩/٢، وحلية ٢٧٠/١، وصفة الصفوة ٢٤٩/١.

(٦) انظر ترجمته في الأعلام ٩٥/٤، وصفة الصفوة ٣١٤/١، وحلية ٣١٤/١، والإصابة ٤٧٧٢ ت.

(٧) هو جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي (.... - ٥٩ هـ = ٦٧٩ م) أبو عدي صحابي، كان من علماء قريش وسادتهم. توفي بالمدينة. وعده الجاحظ من كبار النسايب. له ٦٠ حديثاً. =

وفيه إعجازٌ من وجهين: أحدهما رؤية مَنْ رأى ذلك، والثاني خفاء مثل ذلك على مَنْ لم يَرَهُ؛ لأنه لا ينكتُم مثله في العادة فإذا خفي كان نقض العادة. وأهل مكة رأوا ذلك، وقالوا: إنَّ محمداً قد سحر القمر.

ومعنى ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾: أي ما بقي من الزمانِ إلى القيامةِ إلا قليلٌ بالإضافةِ إلى ما مضى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾.

يعني أن أهل مكة إذا رأوا آية من الآيات أعرضوا عن النظر فيها، ولو نظروا لحصل لهم العلم واجباً.

﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾: أي دائمٌ قويٌّ شديد.. ويقال إنهم قالوا: هذا ذاهب لا تبقى مدته فاستمر: أي ذهب.

﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾: التكذيب واتباع الهوى قريبان؛ فإذا حصل اتباع الهوى فمن شؤمه يحصل التكذيب؛ لأنَّ اللهَ يُلبَس على قلب صاحبه حتى لا يستبصر الرشد.

أما اتباع الرضا فمقرون بالتصديق؛ لأنَّ اللهَ ببركاتِ اتباع الحق يفتح عين البصيرة فيحصل التصديق.

وكلُّ امرئٍ جرَّث له القِسْمَةُ والتقدير فلا محالة. يستقر له حصول ما قُسمَ وقدر له.

﴿وَكَُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾: يستقر عمل المؤمن فتوجب له الجنة، ويستقر عمل الكافر فيجازى.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَلَغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأَنْذَرُ﴾.

جاءهم من أخبار الأنبياء والأمم الذين من قبلهم والأزمنة الماضية ما يجب أن يحصل به الارتداع، ولكن الحق - سبحانه - أشبَل على بصائرهم سُجُوف^(١) الجهل فَعَمُوا عن مواضع الرشد.

﴿حِكْمَةٌ بَلَغَةٌ..﴾: بدل من (ما) فيما سبق: (ما فيه مزدجر).

= الأعلام ١١٢/٢، والإصابة ٢٣٥/١ وفيه: مات سنة سبع أو ثمان أو تسع وخمسين.
(١) السجوف: (ج) السجف: أحد السترين المقرونيين بينهما فرجة.

والحكمة البالغة هي الصحيحة الظاهرة الواضحة لمن تفكر فيها.

﴿فَمَا تَعْنِيُ التُّذُرُ﴾: وأي شيء يغني إنذار النذير وقد سبق التقدير لهم بالشقاء؟

قوله جل ذكره: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نَّكُرٍ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ﴾.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾: ها هنا تمام الكلام - أي فأعرض عنهم، وهذا قبل الأمر

بالمقاتلة. ثم استأنف الكلام: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾. والجواب: ﴿يَخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ - أراد به يوم القيامة.

ومعنى ﴿نُكْرٍ﴾: أي شيء ينكرونه (بهزوله وفظاعته)^(١) وهو يوم البعث

والحشر.

وقوله: ﴿خُشْعًا﴾ منصوب على الحال، أي يخرجون من الأجداث - وهي القبور -

خاشعي الأبصار.

﴿... كَانَهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ﴾.

كانهم كالجراد لكثرتهم وتفرقهم، ﴿مُّهْطِعِينَ﴾: أي مديمي النظر إلى الداعي -

وهو إسرافيل.

﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ﴾: لتوالي الشدائد التي فيه.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ مَّكَذِبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ فِدْعَا رَبِّهِ أَنِّي

مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرُ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ﴾.

كذب قوم نوح نبيهم، وقالوا: إنه مجنون، وزجروه وشتموه.

وقيل: ﴿وَازْدَجَرَ﴾: أي استطار عقله، أي قوم نوح قالوا له ذلك.

فدعا ربه فقال: إني مغلوب؛ أي بتسلط قومي عليّ؛ فلم يكن مغلوباً بالحنجة

لأن الحجة كانت عليهم، فقال نوح لله: اللهم فانتصر منهم أي انتقم.

ففتحننا أبواب السماء بماء منصب، وشققنا عيوناً بالماء، فالتقي ماء السماء وماء

الأرض على أمرٍ قد قُدِّرَ في اللوح المحفوظ، وقدر عليه بإهلاكهم!

وفي التفاسير: أن الماء الذي تبع من الأرض نضب. والماء الذي نزل من

السماء هو البخار اليوم.

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ آلَوْجٍ وَدُسِّرَ﴾.

وحملنا نوحاً على ﴿ذَاتِ آلَوْجٍ﴾ أي سفينة، ﴿وَدُسِّرَ﴾ يعني المسامير وهي جمع

دسار أي مسمار.

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

﴿تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾.

﴿بِأَعْيُنِنَا﴾: أي بمرأى منا. وقيل: تجري بأوليائنا.

ويقال: بأعين ملائكتنا الذين وكلناهم لحفظهم.

ويقال: بأعين الماء الذي أنبعثه من أوجه الأرض.

﴿جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾: أي الذين كفروا بنوح.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾.

جعلنا أمر السفينة علامة بيّنة لِمَنْ يعتبر بها.

﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾: فهل منكم من يعتبر؟ أمرهم بالاعتبار بها.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَٰبٌ كَانَ عَدَايَ وَنَذِيرٌ﴾.

قالها على جهة التعظيم لأمره.

وقد ذكر قصة نوح هنا على أفصح بيان وأقصر كلام وأنتم معني.

وكان نوح - عليه السلام - أطول الأنبياء عمراً، وأشدّهم للبلاء مقاساة.

ثم إن الله - سبحانه - لما نجى نوحاً من بعد هلاك قومه وامتّع أولاده، فكل من على وجه الأرض من أولاد نوح عليه السلام. وفي هذا قوة لرجاء أهل الدين، إذا لقوا في دين الله محنة؛ فإن الله يهلك - عن قريب - عدوهم، ويؤمنهم من ديارهم وبلادهم، ويورثهم ما كان إليهم.

وكذلك كانت قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، وسنة الله في جميع أهل الضلال أن يعز أوليائه بعد أن يزهق أعداءه.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾.

يسّرنا قراءته على السنة الناس، ويسّرنا علمه على قلوب قوم، ويسّرنا فهمه على قلوب قوم، ويسّرنا حفظه على قلوب قوم، وكلهم أهل القرآن، وكلهم أهل القرآن، وكلهم أهل الله وخاصته.

ويقال: كاشف الأرواح من قوم - بالقرآن - قبل إدخالها في الأجساد.

﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ لهذا العهد الذي جرى لنا معه.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنَذِيرٍ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ

نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ يَنْزِعُ النَّاسَ أَكْأَبًا تَخَلَّى مُنْفَعِرٍ﴾.

كذبوا هوداً، فأرسلنا عليهم ﴿ريحاً صرصراً﴾ أي: باردة شديدة الهبوب، يُسمع لها

صوت.

﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ أي: في يوم شؤم استمر في العذاب بهم، ودام ذلك فيهم

ثمانية أيام وسَنَعَ لِيَالٍ. وقيل: دائم الشؤم تنزع رياحه الناس عن حُفَرِهِم التي حَفَرُوهَا حتى صاروا كأنهم أسافلُ نخلٍ مُنْقَطِع. وقيل: كانت الريح تقتلع رؤوسهم عن مناكبهم ثم تُلقِي بهم كأنهم أصول نخلٍ قطعت رؤوسها.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾.

هُوَ نَا قِرَاءَتَهُ وَحِفْظُهُ؛ فليس كتابٌ من كُتُبِ الله تعالى يُقرأ ظاهراً إلا القرآن.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّدْرِ فَقَالُوا أَبُشِّرُكُمَا وَاحِدًا نَبِيًّا إِنَّآ إِذَا لَفِى ضَلَالٍ وَمُغْرٍ﴾.

هم قوم صالح. وقد مضى القول فيه، وما كان من عقربهم للناقاة.. إلى أن أرسل الله عليهم صيحةً واحدةً أوجبت هذا الهلاك، فَصَيَّرَهُمْ كَالْهَشِيمِ، وهو اليابس من النبات، ﴿الْمُخْطِرِ﴾: أي: المَجْعُولُ فِي الْحَظِيرَةِ، أو الحاصل في الحظيرة^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّدْرِ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ نِعْمَةً مِنَّا عِنْدَنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾.

فأرسلنا عليهم ﴿حَاصِبًا﴾: أي: حجارة رُمُوا بها.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾: أي: جعلنا إنجاءهم في إهلاك أعدائهم.

وهكذا نجزي من شكر؛ فمثل هذا نعامل به مَنْ شَكَرَ نعمتنا.

وَالشُّكْرُ عَلَى نِعَمِ الدَّفْعِ أَتَمُّ مِنَ الشُّكْرِ عَلَى نِعَمِ النِّفْعِ - وَلَا يَعْرِفُ ذَلِكَ إِلَّا كُلُّ مُوَفَّقٍ كَيْسٍ^(٢).

﴿فَطَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرٌ﴾.

جاء جبريلُ وَمَسَحَ بِجَنَاحِهِ عَلَى وَجُوهِهِمْ فَعَمُوا، ولم يهتدوا للخروج - وكذلك أجرى سُنَّتَهُ فِي أَوْلِيَائِهِ أَنْ يَطْمِسَ عَلَى قُلُوبِ أَعْدَائِهِمْ حَتَّى يَلْبَسَ عَلَيْهِمْ كَيْفَ يُوْذُونَ أَوْلِيَائِهِ ثُمَّ يُخْلِصُهُمْ مِنْ كَيْدِهِمْ.

قوله جلّ ذكره: ﴿سَيَهَرُهُمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾.

أخبر أنه يفعل هذا بأعداء الرسول ﷺ، وَحَقَّقَ ذَلِكَ يَوْمَ بَدْرٍ، فَصَارَ ذَلِكَ مَعْجَزَاتِهِ صَلَوَاتِ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامِهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ يُسْجَنُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾.

سَخَبُهُمْ عَلَى الْوُجُوهِِ أَمَارَةٌ لِإِذْلَالِهِمْ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ مَرَّةً وَاحِدَةً لَكَانَتْ عَظِيمَةً - فَكَيْفَ وَهُوَ التَّابِيدُ وَالتَّخْلِيدُ!

وَكَمَا أَنَّ أَمَارَةَ الذُّلِّ تَظْهَرُ عَلَى وَجُوهِِهِمْ فَعَلَامَةٌ إِعْزَازِ الْمُؤْمِنِينَ وَإِكْرَامِهِمْ تَظْهَرُ

(١) الآيات من (٢٥) حتى (٣٢) غير موجودة.

(٢) الآية (٣٦) لم ترد.

على وجوههم، قال تعالى: ﴿وَبُجُوهٌ يُؤْمَرُ بِأَصْرَةٍ﴾ [القيامة: ٢٢]. وقال: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.

أي بِقَدَرٍ مكتوب في اللوح المحفوظ.

ويقال: خلقناه بقدر ما عَلِمْنَا وأرَدْنَا وأخْبَرْنَا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾.

أي إذا أردنا خلق شيء لا يتعسر ولا يتعذر علينا، نقول له: كُنْ - فيكون بقدرتنا. ولا يقتضي هذا استئناف قول في ذلك الوقت ولكن استحقاق أن يقال لقوله القدم أن يكون أمراً لذلك المكون إنما يحصل في ذلك الوقت.

﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾: أي كما أن هذا القدر عندكم أي قدر ما يلمح أحدكم ببصره لا تلحقكم به مشقة - كذلك عندنا: إذا أردنا نخلق شيئاً - قل أو كثر، صغر أو كبر - لا تلحقنا فيه مشقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾.

أي أهلكنا القرون التي كانت قبلكم فكلهم أمثالكم من بني آدم...

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾.

في اللوح المحفوظ مكتوب قبل أن يعمل. وفي صحيفة الملائكة مكتوب. لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها..

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾.

كل صغير من الخلق، وكل كبير من الخلق - تخترمه المنية.

ويقال: كل صغير من الأعمال وكبير مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي ديوان الملائكة.

وتعريف الناس عما يكتبه الملائكة هو على جهة التخويف؛ لئلا يتجاسر العبد على الزلة إذا عرف المحاسبة عليها والمطالبة بها.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الْآتِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ﴾.

لهم بساتين وأنهار، والجمع إذا قوبل بالجمع فالآحاد تُقَابَلُ بالآحاد.

فظاهر هذا الخطاب يقتضي أن يكون لكل واحد من المتقين جنة ونهر.

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾: أي في مجلس صدق.

﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ﴾: أراد به عنديّة القرية والزلفة.

ويقال: مقعد الصدق أي مكان الصدق، والصادق في عبادته مَنْ لا يتعبدُ على ملاحظة الأطماع ومطالعة الأعواض.

ويقال: مَنْ طلب الأعواض هَتَكَتْهُ الأطماع، وَمَنْ صَدَقَ في العبودية تحرَّرَ عن المقاصد الدنيئة.

ويقال: مَنْ اشتغل بالدنيا حَجَبَتْهُ الدنيا عن الآخرة، وَمَنْ أَسْرَه نعيم الجنة حُجِبَ عن القيام بالحقيقة، وَمَنْ قام بالحقيقة شُغِلَ عن الكون بجملته.

سورة الرحمن

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: إخبار عن عزّه وعظمته.

«الرحمن الرحيم»: إخبار عن فضله ورحمته.

فبشهود عظمته يكمل سرور الأرواح، وبوجود رحمته يحصل نعيم الأشباح. ولولا عظمته لما عبّد الرحمن عابداً ولولا رحمته لما أحبّ الرحمن واحداً.

قوله جلّ ذكره: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾.

أي الرحمن الذي عرّفه الموحّدون وجحدّه الكافرون هو الذي علّم القرآن. ويقال: الرحمن الذي رحمهم، وعن الشّرك عصمهم، وبالإيمان أكرمهم، وكلمة التقوى ألزمهم - هو الذي عرفهم بالقرآن وعلّمهم. ويقال: انفرد الحق بتعليم القرآن لعباده.

ويقال: أجرى الله سنّته أنه إذا أعطى نبينا ﷺ شيئاً أشرك أمته فيه على ما يليق بصفاتهم؛ فلما قال له (ﷺ): ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

قال لأمته: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾.

ويقال: علّم الله آدم الأسماء كلّها ثم أمره بعرضها على الملائكة وذكر آدم ذلك لهم - قال تعالى: ﴿أُنَبِّئُكَ بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ [البقرة: ٣٣] يا آدم، وعلّم (نبينا ﷺ)^(١) المسلمين القرآن فقال ﷺ: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب، والمُصلّي مُناجٍ ربه»^(٢) قال لآدم: أذكّر ما علّمتك للملائكة. وقال لنا: ناخني يا عبدي بما علّمتك. وقد يُلاطف مع أولاد الخدم بما لا يُلاطف به آبائهم.

ويقال: لما علّم آدم أسماء المخلوقات قال له: أخبر الملائكة بذلك، وعلّمنا كلامه وأسماءه فقال: اقرأوا عليّ وخاطبوا به معي.

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٢) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٤٧/٣، ٤٨)، وابن حجر في (فتح الباري ٢/٢٥٢)، وأبو عوانة في (المسند ١٢٥/٢)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ١٢٤/٧)، وصاحب (الأذكار النووية ٤٦)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ٤/١٤٣٧).

ويقال: عِلْمُ الأرواحِ القرآن - قَبْلَ تركيبها في الأجساد بلا واسطة، والصبيان إنما يُعَلِّمُونَ القرآن - في حالِ صِبْغِهِمْ - قبل أنْ عَرَفَتْ أرواحنا أحداً، أو سَمِعْنَا من أحدٍ شيئاً. . عَلَّمْنَا أسماءه:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادَفَ قلبي فارغاً فَتَمَكَّنَا
ويقال: سَقِيّاً لأيام مضت - وهو يُعَلِّمنا القرآن.

ويقال: برحمته عَلَّمَهُم القرآن؛ فبرحمته وصلوا إلى القرآن - لا بقراءة القرآن يَصِلُونَ إلى رحمته.

قوله جلّ ذكره: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ أَلْبَانَ﴾.

﴿الْإِنْسَانَ﴾: ها هنا جنسُ الناس؛ عَلَّمَهُم البيانَ حتى صاروا مُمَيِّزِينَ - فانفصلوا بالبيان عن جميع الحيوان. وَعَلَّمَ كُلَّ قَوْمٍ لِسَانَهُم الذي يتكلمون ويتخاطبون به.
والبيان ما به تبيين المعاني - وَشَرَّحَهُ في مسائل الأصول.

ويقال: لَمَّا قال أهلُ مكة إنما يُعَلِّمُهُ بِشَرِّ رَدِّ الله - سبحانه - عليهم وقال: بل عَلَّمَهُ اللَّهُ؛ فالإنسانُ على هذا القول هو محمدٌ ﷺ. وقيل هو آدم عليه السلام.

ويقال: البيان الذي خُصَّ به الإنسان (عموماً) يعرفُ به كَيْفِيَّةُ مخاطبةِ الأغيار من الأمثال والأشكال. وأما أهل الإيمان والمعرفة فبيانهم هو عِلْمُهُم كَيْفِيَّةُ مخاطبةِ مولاهم - وبيانُ العبيد مع الحقِّ مختلفٌ: فقومٌ يخاطبونه بلسانهم، وقومٌ بأنفاسهم، وقومٌ بدموعهم:

دموعُ الفتى عمّا يحسُّ تترجمُ وأشواقه تبدين ما هو يكتُم
وقومٌ بأنينهم وحنينهم:

قُلْ لي بالسنة التنفس كيف أنت وكيف حالك؟

قوله جلّ ذكره: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾.

يعني يجري أمرهما على حدٍّ معلوم من الحساب في زيادة الليل والنهار، وزيادة القمر ونقصانه، وتُعرَفُ بجريانهما الشهورُ والأيامُ والسنون والأعوام. وكذلك لهما حساب إذا انتهى ذلك الأجلُ. . فالشمسُ تُكَوِّرُ والقمرُ يَتَكَدِّرُ.

وكذلك لشمس المعارف وأقمار العلوم - في طلوعها في أوج القلوب والأسرار - في حكمة الله حسابٌ معلومٌ، يُجْريها على ما سَبَقَ به الحُكْمُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾.

ويقال: النجم من الأشجار: ما ليس له ساق، والشجر: ما له ساق.

ويقال: النجوم الطالعة والأشجار الثابتة ﴿يَسْجُدَان﴾ سجود دلالة على إثبات الصانع بنعت استحقاقه للجلال.

قوله جل ذكره: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾.

سَمَكُ السماء وأعلاها، وعلى وصف الإتقان والإحكام بناها، والنجوم فيها أجراها، وبث فيها كواكبها، وحفظ عن الاختلال مناكبها، وأثبت على ما شاء مشارفها ومغاربها.. وخلق الميزان بين الناس ليعتبروا الإنصاف في المعاملات بينهم.

ويقال: الميزان العدل.

﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾.

احفظوا العدل في جميع الأمور؛ في حقوق الآدميين وفي حقوق الله، فيعتبر العدل، وترك الحيف ومجاوزة الحد في كل شيء؛ ففي الأعمال يُعْتَبَرُ الإخلاص، وفي الأحوال الصدق، وفي الأنفاس الحقائق ومساواة الظاهر والباطن وترك المداينة والخداع والمكر ودقائق الشرك وخفايا النفاق وغوامض الجنيات.

﴿وَأَقِيمُوا أُلُوزَكِ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾.

وأقيموا الوزن بالمكيال الذي تحبون أن تكالوا به، وعلى الوصف الذي ترجون أن تنالوا به مطعمكم ومشربكم دون تطفيف.

قوله جل ذكره: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾.

خلق الأرض وجعلها مهاداً ومثوى للأنام.

ويقال: وضعها على الماء ويسط أقطارها، وأثبت أشجارها وأزهارها، وأجرى أنهارها وأغطش ليلها وأوضح نهارها.

﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾. يعني ألوان الفاكهة المختلفة في ألوانها وطعومها وروائحها ونفعها وضررها، وحرارتها وبرودتها.. وغير ذلك من اختلاف في حبها وشجرها، وورقها ونورها.

﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ وأكمام النخل ليفها وما يُغْطِيها من السعف.

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾: حب الحنطة والشعير والعدس وغير ذلك من الحبوب.

﴿ذُو الْعَصْفِ﴾: والعصف ورق الزرع^(١).

(١) العصف: ما كان على ساق الزرع من الورق الذي يبس فيفتت، وقيل: هو ورقه من غير أن يُعَيَّنَ يبس ولا غيره، وقيل: ورقه وما لا يؤكل. وفي التنزيل: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ يعني=

﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ الذي يُشَمُّ.. ويقال: «الرزق لأن العرب تقول: خرجنا نطلب ريحان الله».

ذَكَرَهُمْ عَظِيمٌ مِّنْهُ عَلَيْهِمْ بِمَا خَلَقَ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَنْتَفِعُونَ بِهَا مِنْ مَّاكُولَاتٍ وَمَشْمُومَاتٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

قوله جل ذكره: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

فبأي آلاء ربكما تجحدان؟ والآلاء الثعماء.

والثنية في الخطاب للمكلفين من الجن والإنس.

ويقال: هي على عادة العرب في قولهم: خليلي، وقفاً، وأرحلها بأغلام، وأرجراها بأغلام.

قوله جل ذكره: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾.

﴿الْإِنْسَانُ﴾: يعني آدم، والصلصال الطين اليابس الذي إذا حُرِّكَ صَوَّتَ كالْفَخَّارِ. ويقال: طين مخلوط بالرمل.

ويقال: مُتَّئِنٌّ؛ من قولهم صَلَّ وَأَصْلٌ إِذَا تَغَيَّرَ.

﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ﴾.

المارج: هو اللهب المختلط بواد النار.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يُذَكِّرُ الْخَلْقَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ كَمَا سَبَقَ - وَكَرَّرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ هَذِهِ الْآيَةَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ عَلَى جِهَةِ التَّقْرِيرِ بِالنِّعْمَةِ عَلَى التَّفْصِيلِ، أَيِ نِعْمَةً بَعْدَ نِعْمَةٍ.

وَوَجْهُ النِّعْمَةِ فِي خَلْقِ آدَمَ مِنْ طِينٍ أَنَّهُ رَقَاهُ إِلَى رَتْبَتِهِ بَعْدَ أَنْ خَلَقَهُ مِنْ طِينٍ.

ويقال ذَكَرَ آدَمَ نِسْبَتَهُ وَذَكَّرْنَا نِسْبَتَنَا لثَلَاثَةِ نَعَجَبٍ بِأَحْوَالِنَا.

ويقال عَرَفَهُ قَدْرَهُ لثَلَاثَةِ تَعَدُّى طَوْرِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿الْمَشْرِقَيْنِ﴾: مشرق الصيف ومشرق الشتاء وكذلك مغربيهما.

ووجه النعمة في ذلك جريانها على ترتيب واحد حتى يكمل انتفاع الخلق بهما.

ويقال: مشرق القلب ومغربه، وشوارق القلب وغوار به إنما هي الأنوار

والبصائر التي جرى ذِكْرُ بعضها فيما مضى.

= بالعصف ورق الزرع وما لا يؤكل منه، وأما الريحان فالرزق وما أكل منه، وقيل: العصف التبن وقيل: هو ما على حب الحنطة ونحوها من قشور التبن. (اللسان ٢٤٧/٩ مادة: عصف).

قوله جلّ ذكره: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾.

﴿بَرْزَخٌ﴾ أي حاجز بقدرته لئلا يغلب أحدهما الآخر، أراد به البحر العذب والبحر المالح. ويقال: لا يبغيان على الناس ولا يغرقتهم^(١).

﴿يُخْرِجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤَ وَالْمَرْجَانُ﴾.

اللؤلؤ: كبار الدرّ، والمرجان: صغار الدرّ. ويقال: المرجان النّسل.

وفي الإشارة: خَلَقَ في القلوب بحرين: بحر الخوف وبحر الرجاء. ويقال القبض والبسط. وقيل الهيبة والأنس. يُخرج منها اللؤلؤ والجواهر وهي الأحوال الصافية واللطائف المتوالية.

ويقال: البحرين. إشارة إلى النفس والقلب، فالقلب هو البحر العذب والنفس هي البحر المالح. فمن بحر القلب كلُّ جوهرٍ ثمين، وكلُّ حالة لطيفة. ومن النفس كل خلق ذميم. والدرّ من أحد البحرين يخرج، ومن الثاني لا يكون إلا التماسح مما لا قَدْرَ له من سواكن القلب. ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾: يصون الحقُّ هذا عن هذا، فلا يبغي هذا على هذا^(٢).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَهُ الْبُحَارُ الْأُولَى فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ﴾.

﴿الجواري﴾: واحدها جارية، وهي السفينة.

﴿كَالْأَعْلَمِ﴾: الجبال.

له هذه السفن التي أنشئت وخلقت في البحر كأنها الجبال العالية^(٣).

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾.

كل من على وجه الأرض في حكم الفناء من حيث الجواز. ومن حيث الخبر: «ستفنى الدنيا ومن عليها ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» «والوجه»: صفة لله - سبحانه - لم يدلّ عليه العقل قطعاً ودلّ عليه جوازاً، وورد الخبر بكونه قطعاً.

ويقال: في بقاء الوجه بقاء الذات، لأن الصفة لا تقوم بنفسها، ولا محالة شرطها قيامها بنفسه وذاته. وفائدة تخصيص الوجه بالذكر أن ما عداه يُعرَفُ بالعقل، والوجه لا يُعرَفُ بالعقل، وإنما يُعرَفُ بالنقل والأخبار. و «يبقى»: وفي بقائه. سبحانه خَلَفَ عن كلِّ تلفٍ، وتسليّة للمسلمين عمّا يصيبهم من المصائب، ويفوتهم من المواهب^(٤).

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْأَلُكَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

(١) الآية (٢١) لم ترد.

(٣) الآية (٢٥) لم ترد.

(٢) الآية (٢٣) لم ترد.

(٤) الآيتان (٢٧ - ٢٨) لم تردا.

أهل السموات يسألون أبدأ المغفرة، وأهل الأرض يسألونه الرزق والمغفرة، أي لا بُدَّ لأحدٍ منه (سبحانه).

وفي السموات والأرض مَنْ لا يسأله: وهم مَنْ قيل فيهم: «مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أُعْطِيَتْهُ أَفْضَلُ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ»^(١).

ويقال: ليس كلُّ مَنْ في السموات والأرض يسألونه ممَّا في السموات والأرض ولكن:

بين المحبين سرٌّ ليس يُغشيه قَوْلٌ وَلَا قَلَمٌ لِلخَلْقِ يحكيه ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ مِنْ إحياء وإماتة، وقبض قوم وبسط قوم.. وغير ذلك من فنون أقسام المخلوقات، وما يُجرِّبه عليها من اختلاف الصفات.

وفي الآية ردٌّ على اليهود حيث قالوا: إِنَّ اللَّهَ يَسْتَرِيحُ يَوْمَ السَّبْتِ لَا يَفْعَلُ شَيْئًا، فأخبر أنه كل يوم هو في شأن، ولو أُخْلِِيَ الْعَالَمُ لِحِظَةٍ مِنْ حِفْظِهِ لَتَلَأَشَى وَبَطَلَ. (ومن شأنه أن يغفر ذنباً، وَيَسْتَرَّ عِيْبًا، وَيُذْهِبَ كَرْبًا)، وَيُطِيبُ قَلْبًا، وَيُقْصِي عَبْدًا وَيُذْنِبِي عَبْدًا.. إلى غير ذلك من فنون الأفعال. وله مع عباده كلُّ ساعةٍ بَرٌّ جديدٌ، وسِرٌّ بينه وبين عبده - عن الرقباء - بعيد.

ويقال: كل يوم هو في شأنٍ سَوَّقِ المقادير إلى أوقاتها.

ويقال: كل يوم هو في شأنٍ إظهارٍ مستورٍ وسرٍّ ظاهرٍ، وإحضارٍ غائبٍ وتغييبٍ حاضرٍ^(٢).

قوله جلَّ ذكره: ﴿سَتَرَجُ لَكُمْ آيَةَ الْفُلَانِ﴾^(٣).

أي للحساب يوم القيامة - وليس به اشتغال... تعالى الله عن ذلك. ومعنى الآية: ستقصد لحسابكم^(٤).

قوله جلَّ ذكره: ﴿يَمَتَّعَنَّ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَفْذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَافْذُوا لَا تَفْذُوتَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾.

أقطار السموات والأرض نواحيها. أي إن قدرتم أن تخرجوا من ملكه فاخرجوا.

(١) أخرجه الترمذي (ثواب القرآن ٢٥)، والدارمي (فضائل القرآن ٦).

(٢) الآية (٣٠) لم ترد.

(٣) الفلّان: الجن والإنس سُميا بذلك لتفضيل الله تعالى إياهما على سائر الحيوان المخلوق في الأرض بالتميز والعقل الذي خَصَّ به، وقيل: لأنهما كالثقل للأرض وعليها. (لسان العرب ٨٨/١١ مادة: ثقل).

(٤) الآية (٣٢) لم ترد.

ثم قال: ﴿لَا تَفْذُوتَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾. أي لا تصلون إلى موضع إلا وهناك سلطاني ومُلْكِي ولا تنفذون في قُطْرٍ إلا وهناك عليكم حجة^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنَحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾.

أي فلا تنتقمان. والشواظ: اللهب من النار لا دخان معه. والنحاس: الصُّفْر^(٢) المذاب^(٣).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾.

ينفك بعضها عن بعض وتصير في لون الورد الأحمر. ويقال: بها الفُرْش الموردة كالدهان وهو جمع دهن. أي كدهن الزيت وهو دردي^(٤) الزيت.

ويقال: كما أن الوردة يتلون لونُها؛ إذ تكون في الربيع إلى الصُّفْرة، فإذا اشتدت الوردة كانت حمراء، وبعد ذلك إلى الغبرة - فكذاك حال السماء تتلون من وصف إلى وصف في القيامة^(٥).

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَخُ عَنْ ذُلِّيهِ إِثْرٌ وَلَا جَنَّةٌ﴾.

أراد في بعض أحوال القيامة لا يُسألون، ويُسألون في البعض... فيوم القيامة طويل.

ويقال: لما كانت لهم يومئذ علامات: فللكفار سواد الوجه وزُرْقَةُ العين، وللمسلمين بياض الوجه وغير ذلك من العلامات - فالملائكة لا يحتاجون إلى سؤالهم: من أنتم؟ لأنهم يعرفون كلاً بسيماهم.

ويقال: لا يُسألون سؤالاً يكون لهم ويُسألون سؤالاً يكون عليهم^(٦).

قوله جلّ ذكره: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾.

المؤمنون غرّ مُحَجَّلُونَ^(٧)، والكفار سود الوجوه زُرْقُ العيون، فيعرف الملائكة

(١) الآية (٣٤) لم ترد.

(٢) الصفر: النحاس الجيد، وقيل: الصفر ضرب من النحاس، وقيل: هو ما صفر منه. (اللسان ٤/ ٤٦١ مادة: صفر).

(٣) الآية (٣٦) لم ترد.

(٤) الدردي: ما رسب أسفل الزيت والعمل ونحوهما.

(٥) الآية (٣٨) لم ترد.

(٦) الآية (٤٠) لم ترد.

(٧) الغرّ المحجلون: أي بيض مواضع الوضوء من الأيدي والوجه والأقدام، استعار الوضوء في الوجوه واليدين والرجلين للإنسان من البياض الذي يكون من وجه الفرس ويديه ورجليه. (لسان العرب ١٤٤/١١ مادة: حجل).

هؤلاء فيأخذون بنواصيهم^(١) وَيَجْرُونَهُمْ مَرَّةً بِهَا وَمَرَّةً بِأَقْدَامِهِمْ ثُمَّ يُلْقَوْنَهُمْ فِي النَّارِ،
ويطرحونهم في جهنم^(٢):

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ فِيهَا خَيْرٌ مِّنْ حَمِيمٍ ءَأَنذَرْتُكَ هَٰذَا وَلَٰكِن لَّا تُؤْمِنُ﴾.

يقال لهم: هذه جهنم التي كنتم بها تكذبون!

﴿حَمِيمٍ﴾: ماء حار. ﴿ءَأَنذَرْتُكَ هَٰذَا﴾: تنأى في النصح^(٣).

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانٍ﴾.

يقال: لِمَنْ خَافَ قُرْبَ رَبِّهِ مِنْهُ واطلاعه عليه.

ويقال: لِمَنْ خَافَ وَقُوفَهُ غَدًا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ - جنتان، ولفظة التثنية هنا على العادة في قولهم: خليلي ونحوه.

وقيل: بل جنتان على الحقيقة، مُعَجَّلَةٌ في الدنيا من حلاوة الطاعة وروح الوقت، ومؤجَّلَةٌ في الآخرة وهي جنة الثواب. ثم هم مختلفون في جنات الدنيا على مقادير أحوالهم كما يختلفون في الآخرة على حسب درجاتهم^(٤).

﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ فَيَأْتِيَهُمَا رَيْكًا زَكَاةً فَكَذَّبَا فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾.

دل على أن الجنتين في الآخرة. والأفنان الأعصان. وهي جمع فن.

ويقال: ذواتا ألوان من كل صنف ولون تشتت به النفس والعين - وتكون جمع فن. ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ إحداهما التسليم، والأخرى السلسيل.

ويقال: عينان تجريان غداً لمن كان له - اليوم - عينان تجريان بالدموع^(٥).

﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾.

زوجان أي صنفان وضربان؛ كالرطب واليابس، والعنب والزبيب.

ويقال: إنها في نهاية الحسن والجودة^(٦).

﴿مُسْكِينٍ عَلَى قُرْبٍ بَطَانُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾.

بطائنهما من استبرق فكيف بظواهرهما؟ «البطائن»: ما يلي الأرض.

«والاستبرق»: الديباج الغليظ. وإنما خاطبهم على قَدْرِ فَهْمِهِمْ؛ إذ يقال إنه ليس في الجنة شيء مما يُشْبِه ما في الدنيا، وإنما الخطاب مع الناس على قَدْرِ أَفْهَامِهِمْ.

(١) النواصي: (ج) الناصية: ما يبرز من الشعر في مقدم الرأس يكون حذاء الجبهة.

(٢) الآية (٤٢) لم ترد.

(٣) الآية (٤٥) لم ترد.

(٤) الآية (٤٧) لم ترد.

(٥) الآية (٥١) لم ترد.

(٦) الآية (٥٣) لم ترد.

﴿وَحَيَّ الْجَنَّةِينَ دَانٍ﴾: أي ما يجتنى من ثمرها - إذا أرادوه - دنا إلى أفواههم فتناولوه من غير مَشَقَّةٍ تناولهم. وفي الخبر المسند: «مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ غَرَسَ اللَّهُ لَهُ شَجَرَةً فِي الْجَنَّةِ أَصْلُهَا الذَّهَبُ وَفَرْعُهَا الدَّرُّ وَطَلْعُهَا كَثْدَى الْأَبْكَارِ أَلَيْنَ مِنَ الزَّبَدِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، كُلَّمَا أَخَذَ مِنْهَا شَيْئًا عَادَ كَمَا كَانَ»^(١) - وذلك قوله: ﴿وَدَنَا الْجَنَّةِينَ دَانٍ﴾.

ويقال: ينالها القائم والقاعد والناثم^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿فِيَنَّا قَصْرٌ تُرْفَعُ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الْبَاطِلِينَ وَلَا جَانٌّ﴾.

أي في الجنان حورٌ قَصْرُنَ عِيُونِهِنَّ عن غير أزواجهن.

وإذا كانت الزوجات قاصرات الطَّرْفِ عن غير أزواجهن فأولى بالعبد إذ رجا لقاءه - سبحانه - أن يقصر طَرَفَهُ وَيَغْضَهُ عن غير مُبَاحٍ.

بل عن الكل... إلى أن يلقاه.

ويقال: من الأولياء مَنْ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ - وإن أُبِيحَ لَهُ ذَلِكَ لِتَحْرُورِهِ عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَلَعَلَّوْهُمُ عَنِ الْمَخْلُوقَاتِ - وأنشدوا:

جِنِّنَا بَلِيلِي وَهِيَ جُنَّتْ بَغِيرِنَا وَأُخْرَى بِنَا مَجْنُونَةٌ لَا نَرِيدُهَا

ويقال: هُنَّ لِمَنْ قَصُرَتْ يَدُهُ عَنِ الْحَرَامِ وَالشَّبَهَةِ، وَطَرَفُهُ عَنِ الرَّيْبِ.

﴿لَمْ يَطْمِئْنُوا إِلَّا قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾: لم يصحبهم غير الولي ولم يَحْزَنْ غَيْرَهُ، وفي الخبر: «اشتاقت الجنة لثلاثة»^{(٣)(٤)}.

﴿كَأَنَّ الْيَاقُوتَ وَالْمَرْجَانَ﴾.

أي: في صفاء الياقوت ولون المرجان^(٥).

قوله جل ذكره: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾.

يقال: الإحسان الأول من الله والثاني من العبد؛ أي: هل جزاء مَنْ أَحْسَنَّا إِلَيْهِ بِالنِّصْرَةِ إِلَّا أَنْ يُحْسِنَ لَنَا بِالْخِدْمَةِ؟ وهل جزاء مَنْ أَحْسَنَّا إِلَيْهِ بِالْوَلَاءِ إِلَّا أَنْ يُحْسِنَ لَنَا بِالْوَفَاءِ؟

(١) أخرجه البخاري (إيمان ١٩)، ومسلم (طهارة ١) وأبو داود (صلاة ١٣٥)، (تطويع ١٤)، والترمذي (وتر ١٩)، والدارمي (استئذان ٥٣)، والموطأ (قرآن ٢٣)، وأحمد بن حنبل ٧١/١، ١٥٨/٢، ٢١٠، ٢١١، ٣٥٣/٣، ١٥٢، ٤٤٣، ٢٣٧/٤، ٣٥٣، ٣٥٦، ٣٨٢، ١٠/٥، ١١، ٢٠، ٢١، ١٦٨، ١٧٣، ٢٥٣، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٦٦.

(٢) الآية (٥٥) لم ترد.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في (العلل المتناهية ٢٨٣/١).

(٤) الآية (٥٧) لم ترد.

(٥) الآية (٥٩) لم ترد.

ويصح أن يكون الإحسانُ الأول من العبد والثاني من الله؛ أي: هل جزاء من أحسن من حيث الطاعة إلا أن يُحَسَّنَ إليه من حيث القبول والثواب؟ وهل جزاء من أحسن من حيث الخدمة إلا أن يُحَسَّنَ إليه من حيث النعمة؟ ويصح أن يكون الإحسانان من الحق؛ أي: هل جزاء مَنْ أَحْسَنَّا إليه في الابتداء إلا أن نُحَسِّنَ إليه في الانتهاء؟ وهل جزاء مَنْ فاتحناه باللطف إلا أن نُزَيِّي له في الفضل والعطف؟

ويصح أن يكون كلاهما من العبد؛ أي: هل جزاء من آمن بنا إلا أن يثبت في المستقبل على إيمانه؟ وهل جزاء مَنْ عَقَّدَ معنا عقد الوفاء إلا أن يقوم بما يقتضيه بالتفصيل؟ ويقال: هل جزاء مَنْ بَعَدَ عن نَفْسِهِ إلا أن نُقَرِّبَهُ مِنَّا؟ وهل جزاء مَنْ فَنِيَ عن نَفْسِهِ إلا أن يبقى بنا؟ وهل جزاء مَنْ رَفَعَ لنا خطوة إلا أن نكافئه بكل خطوة ألف خطوة، وهل جزاء من حفظ لنا طَرَفَهُ إلا أن نُكْرِمَهُ بِلِقَائِنَا^(١)؟ قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾. هما جنتان غير هاتين اللتين ذُكِرَتَا؛ جنتان أُخْرَيَان. وليس يريد دونهما في الفضل، ولكن يريد ﴿جَنَّتَانِ﴾ سواهما^(٢). ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾.

أي: خضراوان خُضِرَتْ تضرب إلى السواد. فالدهمة السواد والفعل منه ادهام والاسم منه مُدْهَامٌ. وللمؤنث مدهامة، ولتثنية المؤنث مدهامتان^(٣). ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾. والنَّضْخُ فَوْرَانُ العينِ بالماء^(٤). ﴿فِيهِمَا فُكْكُهُمْ وَنُحْلٌ وَرَمَّانٌ﴾. الأسماء متشابهة.. والعيون فلا^(٥). ﴿فِيهِنَّ خَيْرٌ حَسَنٌ﴾.

أي: حورٌ خَيْرَاتُ الأخلاقِ حسانٌ الوجوه. واحدها خَيْرَةٌ والجمع خَيْرَاتٌ وهذا هو الأصل ثم خُفِّفَ فصارت خيرات^(٦).

(١) الآية (٦١) لم ترد.

(٢) الآية (٦٩) لم ترد.

(٣) الآية (٧١) لم ترد.

(١) الآية (٦١) لم ترد.

(٢) الآية (٦٣) لم ترد.

(٣) الآية (٦٥) لم ترد.

﴿حُرِّمَتْ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَارِ﴾.

محبوسات على أزواجهن. وهُنَّ لِمَنْ هو مقصور الجوارح عن الزَّلَّات، مقصور القلب عن الغفلات، مقصور السرُّ عن مساكنة الأشكال والأعلال والأشياء والأمثال. وفي بعض التفاسير: أن الخيمة من دُرَّةٍ مجوفة فرسخ^(١) في فرسخ لها ألف باب.

ويقال: قصرت أنفسهن وقلوبهن وأبصارهن على أزواجهن. وفي الخبر: «أنهن يقلن: نحن الناعمات. فلا نبؤس، الخالدات فلا نبيد، الراضيات فلا نسخط»^(٢).

وفي خبر عن عائشة رضي الله عنها: «أن المؤمنات أجبنهن: نحن المصليات وما صَلَّيْنَتُنَّ، ونحن الصائمات وما صُفْمَتُنَّ، ونحن المتصدقات وما تَصَدَّقْتُنَّ» قالت عائشة يغلبهن^(٣) قوله:

﴿لَوْ يَطْمِئُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾^(٤).

قوله جل ذكره: ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَقَرٍ خُضِرَ وَعَبْقَرِيَّ حَسَانٍ﴾.

قيل: رياض الجنة، وقيل: المجالس، وقيل: الزرابي^(٥) والوسائد - وهي خُضِرَ

﴿وعبقرى حسان﴾: العبقرى عند العرب كلُّ ثوبٍ مَوْشَى^(٦).

قوله جل ذكره: ﴿تَبَرَّكَ أَنْتُمْ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

مضى تفسيره.

(١) الفرسخ: فرسخ الطريق: مسافة تبلغ ثلاثة أميال هاشمية، والميل الهاشمي ٥٧٦٠ متراً (ج) فراسخ (مع) فارسي.

(٢) أخرجه الترمذي (جنة ٢٤)، وأحمد بن حنبل ١، ١٥٦.

(٣) الآية (٧٣) لم ترد.

(٤) الآية (٧٥) لم ترد.

(٥) الزرابي: (ج) الزريبة: البساط أو السجادة، أو الوسادة تُبسط لِيَتَكأَ عليها.

(٦) الآية (٧٧) لم ترد.

سورة الواقعة

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بِسْمِ اللَّهِ»: اسم جَبَّارٌ مَنْ اعتنى بشأنه أحضره بإحسانه، فإن أبى إلا تمادياً في عصيانه خال بينه وبين اختياره بقهر سلطانته، وإن لم يلزم هذه الطاعة ألجأه بالبلاء فيأتيها باضطرابه.

اسم عزيزٌ أزلِيٌّ، جَبَّارٌ صَمَدِيٌّ، قَهَّارٌ أَحَدِيٌّ، للمؤمنين وليّ، وبالعاصين حَفِيٌّ، ليس لجماله كَفِيٌّ، ولا في جلاله سَمِيٌّ، لكنه للعضاة من المؤمنين وليّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَئِيسَ لَوْفَعِنَهَا كَاذِبَةٌ﴾.

إذا قامت القيامة لا يردّها شيء.

﴿كَاذِبَةٌ﴾ هاهنا مصدر: كالعافية، والعاقبة: أي: هي حقّة لا يردّها شيء، وليس في وقوعها كذب.

ويقال: إذا وقعت الواقعة فَمَنْ سَلَكَ مِنْهَاجَ الصَّحَةِ والاستقامة وَصَلَ إِلَى السَّلامَةِ ولقي الكرامة، وَمَنْ حَاذَ عَنْ نَهْجِ الاستقامة وَقَعَ فِي النَّدَامَةِ والغرامة، وعند وقوعها يتبين الصادق من المماذق:

إذا اشتبكت دموعٌ في خدودٍ تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِنْ تَبَاكِي خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ.

﴿خَافِضَةٌ﴾: لأهل الشقاوة، ﴿رَافِعَةٌ﴾: لأهل الوفاق.

﴿خَافِضَةٌ﴾: لأصحاب الدعاوى، ﴿رَافِعَةٌ﴾: لأرباب المعاني.

﴿خَافِضَةٌ﴾: للنفوس، ﴿رَافِعَةٌ﴾: للقلوب.

﴿خَافِضَةٌ﴾: لأهل الشهوة، ﴿رَافِعَةٌ﴾: لأهل الصفة.

﴿خَافِضَةٌ﴾: لمن جَحَدَ، ﴿رَافِعَةٌ﴾: لمن وَحَدَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾.

خُرُكٌ حركةٌ شديدة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾.

فُتِنَتْ فكانت كالهباء الذي يقع في الكوّة عند شعاع الشمس .
 قوله جلّ ذكره: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ .

﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾؟ على جهته التفخيم لشأنهم والتعظيم لقدرهم وهم أصحاب اليمن والبركة والثواب .

﴿مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾: على جهة التعظيم والمبالغة في ذمهم، وهم أصحاب الشؤم على أنفسهم ويقال: أصحاب الميمنة هم الذين كانوا في جانب اليمين من آدم عليه السلام يوم الذّر^(١)، وأصحاب المشأمة هم الذين كانوا على شماله .

ويقال: الذين يُعْطُونَ الكتابَ بآيمانهم، والذين يُعْطُونَ الكتابَ بشمائلهم .
 ويقال: هم الذين يُؤْخَذُ بهم ذات اليمين . . إلى الجنة، والذين يُؤْخَذُ بهم ذات الشمال . . إلى النار .

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾: وهم الصف الثالث . وهم السابقون إلى الخصال الحميدة، والأفضال الجميلة .

ويقال: السابقون إلى الهجرة . ويقال: إلى الإسلام . ويقال: إلى الصلوات الخمس .

ويقال: السابقون بصدق القَدَم . ويقال: السابقون بعلو الهِمَم . ويقال: السابقون إلى كل خير . ويقال السابقون المتسارعون إلى التوبة من الذنوب فيتسارعون إلى التَّدَمُّ إن لم يتسارعوا بصدق القَدَم .

ويقال: الذين سبقت لهم من الله الحسنى فسبقوا إلى ما سبق إليه:
 ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ .

ولم يقل: ﴿المتقربون﴾ بل قال: أولئك المُقَرَّبُونَ - وهذا عين الجَمْع، فعَلِمَ الكافة أنهم بتقريب ربهم سبقوا - لا يتقربهم .
 ﴿فِي جَنَّاتٍ الْيَعْبَرِ﴾ .

أي: في الجنة . ويقال: مقربون إلا من الجنة فمحال أن يكونوا في الجنة ثم يُقَرَّبُونَ من الجنة، وإنما يُقَرَّبُونَ إلى غير الجنة: يُقَرَّبُونَ من بساط القربة . .
 وأنى بالبساط ولا بساط؟! مقربون . . ولكن من حيث الكرامة لا من حيث المسافة؛ مُقَرَّبَةٌ نفوسهم من الجنة وقلوبهم إلى الحق .

(١) الذر: أي بني آدم .

مُقَرَّبَةً قُلُوبُهُمْ مِنْ بَسَاطِ الْمَعْرِفَةِ، وَأَرْوَاحُهُمْ مِنْ سَاحَاتِ الشُّهُودِ - فالحقُّ عزيز . . لَا قُرْبَ وَلَا بُعْدَ، وَلَا فَضْلَ وَلَا وَضْلَ.

ويقال: مقربون ولكن من حظوظهم ونصيبهم . وأحوالهم - وإن صَفَتْ - فالحق وراء الورا.

قوله جل ذكره: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾.

الثَّلَاةُ: الجماعة. ويقال: ثلثة من الأولين الذين شاهدوا أنبياءهم وقليل من الآخرين الذين شاهدوا نبينا ﷺ.

ويقال: ثلثة من الأولين: من السلف وقليل من المتأخرين: من الأمة. ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾^(١).

أي منسوخة نسيج الدرع من الذهب. جاء في التفسير: طول كل سرير ثلاثمائة ذراع، إن أراد الجلوس عليه تواضع، وإن استوى عليه ارتفع. ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾.

أي لا يرى بعضهم قفا بعض. وَصَفَهُمْ بِصَفَاءِ الْمَوَدَّةِ وَتَهَذُّبِ الْأَخْلَاقِ. ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾.

يطوف عليهم وهم مقيمون لا يرحلون ولدان في سنٍّ واحدة . . لا يهرمون. وقيل: مُقَرَّطُونَ (المخلدة . القرط).

﴿يَا كُؤَابَ وَأَبَارِقَ وَكُنُوسَ مَعِينِ لَا يَصُدَّوْنَ عَنْهَا وَلَا يَرْفُوْنَ﴾.

﴿يَا كُؤَابَ﴾ جمع كوب وهي آنية بلا عروة ولا خرطوم، ﴿وَأَبَارِقَ﴾: جمع إبريق وهو عكس الكوب (أي له خرطوم وعروة).

ولا صداع لهم في شربهم إياها، كما لا تذهب عقولهم بسببها.

ولهم كذلك فاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وخور عين، كأمثال اللؤلؤ المكنون، أي: المصون، جزاء بما كانوا يعملون^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾.

اللغو: الباطل من القول، والتأثيم: الإثم والهديان.

ولا يسمعون إلا قِيلاً سلاماً، وسلاماً: نعت للقليل.

(١) الموضونة: المنسوجة أي منسوجة بالدر والجوهر، بعضها مداخل في بعض. (لسان العرب ١٣/ ٤٥٠ مادة: وضن).

(٢) الآيات من (٢٠ حتى ٣٤) - لم تزد.

﴿وَأَصْحَبُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَبُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَّخْضُورٍ﴾ : لا شك فيه، ﴿وَطَلْحٍ مَّنْضُورٍ﴾ :
والطلح شجر الموز، متراكم نضيد بعضه على بعض.

﴿وَطَلْحٍ مَّمْدُودٍ﴾ : كما بين الإسفار إلى طلوع الشمس. وقيل : ممدود أي دائم.

﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ : جَارٍ لا يتعبون فيه.

﴿وَفَنَكِهِمْ كَثِيرَةٍ﴾ : لا مقطوعة عنهم ولا ممنوعة منهم^(١).

﴿وَفَرَسٍ مَّرْقُوعَةٍ﴾ لهم. وقيل : أراد بها النساء.

﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنثَاءً فَعَلَتهُنَّ أَبْنَاءً﴾ أي الحور العين.

﴿عَرَبًا﴾ جمع عَرُوب وهي الغنجة المتحبة إلى زَوْجِهَا. ويقال عرباً : أي
مُتَشَبِّهَاتٍ إلى أزواجهن.

﴿أَزْوَاجًا﴾ : جمع تِزْب، أي : هُنَّ عَلَى سِنٍّ واحدة.

﴿لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ : أي خلقناهن لأصحاب اليمين.

﴿ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ : أي : ثلثة من أولى هذه الأمة، وثلثة من
آخرها.

﴿وَأَصْحَبُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَبُ الشِّمَالِ فِي سَمُورٍ وَحَمِيرٍ﴾ : والسَّمُوم فيح جهنم وحرها.
والحمير : الماء الحار.

﴿وَطَلْحٍ مِّنْ يَّمُورٍ﴾ ، وهو الدخان الأسود.

﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ : لا بارد : أي لا راحة فيه. ولا كريم : ولا حَسَنٍ لهم ؛
(حيث لا نفع فيه).

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ : أي : كانوا في الدنيا مُتَمَتِّعِينَ.

﴿وَكَانُوا يَصْرُونَ عَلَى لَيْثِ الْعَظِيمِ﴾ أي الذنب العظيم.

﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ؟ أي : أنهم يُكَذِّبُونَ
بالبعث^(٢).

ثم يقال لهم : ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الْفَاسِقُونَ الْمَكِيدُونَ﴾ اليوم ﴿لَا تَكُونُ مِن شَجَرٍ مِّن زُفُورٍ﴾ وجاء
في التفسير : أن الزقوم شجرة في أسفل جهنم إذا طُرِحَ الكافر في جهنم لا يصل إليها
إلا بعد أربعين خريفاً.

﴿قَالُوا وَمِمَّا أَلْبَطُونَ فَتَشْرَبُونَ عَلَيْهِ مَنَ اللَّعِيمِ﴾ شراب لا تهنأون به ﴿فَتَشْرَبُونَ شُرْبَ الْيَمِيرِ﴾ :
وهي الإبل العطاش. ويقال : الهيم أي الرَّمْلُ ينضب فيه كل ما يُصَبُّ عليه.

(٢) الآيات (٤٨، ٤٩، ٥٠) لم ترد.

(١) الآية (٣٣) لم ترد.

﴿هَذَا نَزَّلْنَاهُ بِإِذْنِ رَبِّكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ﴾ .

نحن خلقناكم: يا أهل مكة - فهلاً آمنتم لتتخلصوا؟ توبخون وتعتابون... واليوم تتعذرون! ولكن لا ينفعكم ذلك ولا يُسمع منكم شيء. وإن أشد العقوبات عليهم يومئذ أنهم لا يتفرغون من آلام نفوسهم وأوجاع أعضائهم إلى التحسر على ما فاتهم في حق الله.

ويقال: أشد البلاء - اليوم - على قلوب هذه الطائفة خوفهم من أن يشغلهم - غداً - بمقاساة آلامهم عن التحسر على ما تكدّر عليهم من المشارب في هذا الطريق. وهذه محنة لا شيء أعظم على الأصحاب منها. وإن أصحاب القلوب - اليوم - يبتهلون إليه ويقولون: إن حرمنا مشاهد الأنس فلا تشغلنا بلذات تشغلنا عن التحسر على ما فاتنا، ولا بالآلام تشغلنا عن التأسف على ما عديمنا منك.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ۚ إِنَّهُمْ يَخْلَقُونَهُمْ أَتَمَّ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ .

يقال: منى الرجل وأمنى. والمعنى: هل إذا باشرتم وأنزلتم وانعقد الولد... أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون؟ والخلق ها هنا: التصوير؛ أي: أنتم تجمعون صور المولود وتزكبون أعضائه... أم نحن؟

وهم كانوا يقرؤون بالنشأة الأولى فاحتج بهذا على جواز النشأة الأخرى عند البعث الذي كانوا ينكرونه. وهذه الآية أصل في إثبات الصانع؛ فإن أصل خلقه الإنسان من قطرتين: قطرة من صلب الأب وهو المنى وقطرة من تربية الأم، وتجتمع القطرتان في الرّحم فيصير الولد. وينقسم الماءان المختلطان إلى هذه الأجزاء التي هي أجزاء الإنسان من العظم والعصب والعرق والجلد والشعر... ثم يركبها على هذه الصور في الأعضاء الظاهرة وفي الأجزاء الباطنة حيث يُشكّل كل عضو بشكل خاص، والعظام بكيفية خاصة... إلى غير ذلك.

وليس يخلو: إمّا أن يكون الأبوان يصنعانه - وذلك التقدير محال لتقاصر علمها وقدرتهما عن ذلك وتمنيهما الولد ثم لا يكون، وكراهتهما الولد ثم يكون!

والنطفة أو القطرة محال تقدير فعلها في نفسها على هذه الصورة لكونها من الأموات بعد، ولا علم لها ولا قدرة.

أو من غير صانع... وبالضرورة يُعلم أنه لا يجوز.

فلم يبق إلا أن الصانع القديم المليك العليم هو الخالق.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ يَسْبُوقِ عَلَىٰ أَنْ يُدَلَّ أَثْلُكُمْ وَنُشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

يكون الموت في الوقت الذي يريده؛ منكم مَنْ يموت طفلاً ومنكم من يموت شاباً، ومنكم من يموت كهلاً، وبِعِلَلٍ مختلفة وبأسبابٍ متفاوتة وفي أوقاتٍ مختلفة .
﴿وَمَنْ يَسْبُوقِ﴾ في تقديرنا فيفوتنا شيءٌ وَلَسْنَا بعاجزين عن أن نَخْلُقَ أمثالكم، ولا بعاجزين عن تبديل صُوركم التي تعلمون؛ إِنْ أردنا مَسْحَكُمْ وتبديل صُوركم فلا يمنعنا عن ذلك أحدٌ .

ويقال: وننشئكم فيما لا تعلمون من حكم السعادة والشقاوة .

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ .

أي: أنتم أقررتم بالنشأة الأولى . . فهلأ تذكرون لتعلموا جَوَازَ الإعادة؛ إذ هي في معناها .

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ .

أي: إذا ألقيتم الحَبَّ في الأرض . . أنتم تُنْبِتُونَهُ أم نحن المُنْبِتُونَ؟ وكذلك وَجُوهُ الحِكْمَةِ في إنبات الزَّرْع، وانقسام الحَبَّةِ الواحدة على الشجرة النابتة منها في قَشْرِهَا ولحائها وجذعها وأغصانها وأوراقها وثمارها - كل هذا:

﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ .

لو نشاء لجعلناه حطاماً يابساً بعد خُضْرَتِهِ، فصِرْهُمْ تتعجبون وتندمون على تعبكم فيه، وإنفاقكم عليه، ثم تقولون:

﴿إِنَّا لَمَعْرُومُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ .

أي: لَمَلَزَمُونَا غرامة ما أنفقنا في الزَّرْع، وقد صار ذلك غُرماً علينا - فالمغرم مَنْ ذَهَبَ إنفاقه بغير عَوَضٍ .

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ بل نحن محرومون بعد أن ضاع مِنَّا الرزق .

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ .

أنتم أنزلتموه من السحاب . . أم نحن نُنْزِلُهُ متى نشاء أُنْزِلَ كما نشاء على من نشاء وعلى ما نشاء؟ ونحن الذين نجعله مختلفاً في الوقت وفي المقدار وفي الكيفية، في القِلَّةِ وفي الكثرة .

ولو نشاء لجعلناه ملحاً . أفلا تشكرون عظيم نعمه الله - سبحانه - عليكم في تمكينكم من الانتفاع بهذه الأشياء التي خلقها لكم .

قوله جل ذكره: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ .

وَرَى الزُّنْدَ يُرَى فَهُوَ وَارٍ . وأوراه يوريه أي يقدحه .

يعني: إذا قدحتم الزند . . أرايتم كيف تظهر النار - فهل أنتم تخلقون ذلك؟

أنتم أنشأتم شجرتها - يعني المَرْخ^(١) والعَفَّار^(٢) - أم نحن المنشئون؟

﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ : أي يمكن الاستدلال بها .

﴿وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ : يقال: أقوى الرجل إذا نزل بالقواء أي: الأرض الخالية .

فالمعنى: أن هذه النار ﴿تَذْكِرَةً﴾ يتذكر بها الإنسان ما توعد به في الآخرة من نار جهنم، و ﴿وَمَتَاعًا﴾ : يستمتع بها المسافر في سفره في وجوه الانتفاع المختلفة .

قوله جل ذكره: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ .

أي: اسبح بفكرك في بحار عقلك، وغص بقوة التوحيد فيها تظفر بجواهر العلم، وإياك أن تقصر في الغوص لسبب أو لآخر، وإياك أن تتداخلك الشبهة فيتلف رأس مالك ويخرج من يدك وهو دينك واعتقادك . . ولأغرق في بحار الشبهة، وضللت .

وهذه الآيات التي عدها الله - سبحانه - تمهد لسلوك طريق الاستدلال، فكما في الخبر «فكر ساعة خير من عبادة سنة»^(٣) - وقد نبه الله سبحانه بهذا إلى ضرورة التفكير .

قوله جل ذكره: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ الشُّجُورِ وَإِنَّهُ لَفَسَدٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

(١) المَرْخ: من العضاء وهو ينفرش ويطول في السماء حتى يستظل فيه، وليس له ورق ولا شوك وعيدانه سبلية قضبان دقاق، وينبت في شعب وفي خشب، ومنه يكون الزناد الذي يقتدح به، واحده مرخة . (لسان العرب ٥٤/٣ مادة: مرخ) .

(٢) العَفَّار: شجر يُتخذ منه الزناد . (لسان العرب ٥٨٩/٤ مادة: عفر) .

(٣) للحديث رواية تقول: «فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة» أخرجه السيوطي في (الدر المنثور ٢/١١١)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٧١٠)، والشوكاني في (الفوائد المجموعة ٢٤٢) وابن عراق في (تنزيه الشريعة ٣٠٥/٢)، والمجلوني في (كشف الخفاء ٣٧٠/١ - ٣٧١) والفنني في (تذكرة الموضوعات ١٨٨)، والسيوطي في (اللائيء المصنوعة ١٧٥/٢)، وعلي القاري في (الأسرار المرفوعة ١٦٣)، والألباني في (السلسلة الضعيفة ١٧٣)، وابن الجوزي في (الموضوعات ١٤٤/٣) .

قيل: هي مواقع نجوم السماء. ويقال: مواقع نجوم القرآن على قلب الرسول ﷺ.

﴿إِنَّكُمْ لَقَرَنَآءٌ كَرِيمٌ﴾: وَالكَرَمُ نَفْيُ الدَّنَاءَةِ - أي: أنه غير مخلوق ويقال: هو ﴿لَقَرَنَآءٌ كَرِيمٌ﴾: لأنه يدل على مكارم الأخلاق.

ويقال هو قرآن كريم لأنه من عند رب كريم على رسول كريم، على لسان ملك كريم. ﴿فِي كِتَابٍ مَّكُونٍ﴾: يقال: في اللوح المحفوظ. ويقال: في المصحف. وهو محفوظ عن التبديل. ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ عن الأدناس والعيوب والمعاصي.

ويقال: هو خَبَرٌ فيه معنى الأمر: أي لا ينبغي أَنْ يَمَسَّ المصحفَ إِلَّا مَنْ كَانَ مُتَطَهِّرًا مِنَ الشُّرْكِ وعن الأحداث^(١).

ويقال: لا يجد طَعْمَهُ وَبَرَكَتَهُ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِهِ.

ويقال: لا يقربه إِلَّا الْمُؤَحِّدُونَ، فأما الكفار فيكرهون سماعه فلا يقربونه.

وقرىء الْمُطَهَّرُونَ: أي الذين يُطَهَّرُونَ نفوسهم عن الذنوب والخُلُقِ الدُّنْيِ.

ويقال: لا يَمَسُّ خبره إِلَّا مَنْ طَهَّرَ يَوْمَ الْقِسْمَةِ عن الشقاوة.

ويقال: لا يَفْهَمُ لطائفة إِلَّا مَنْ طَهَّرَ سِرَّهُ عن الكون.

ويقال: المطهرون سرائرهم عن غيره.

ويقال: إِلَّا الْمُخْتَرِمُونَ له القائمون بحقه.

ويقال: إِلَّا مَنْ طَهَّرَ بماء السعادة ثم بماء الرحمة.

﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: مُنْزَلٌ مِنْ قِبَلِهِ - سبحانه.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ وَيَعْمَلُونَ بِرِزْقِكُمْ أَنْتُمْ تَكْذِبُونَ﴾.

أبهذا القرآن أنتم تُنَافِقُونَ، وبه تُكْذِبُونَ.

﴿وَيَعْمَلُونَ بِرِزْقِكُمْ﴾: كانوا إذا أُمْطِرُوا يقولون: أُمْطِرْنَا بِنُوءٍ كَذَا.

يقول: أتعلمون بَدَلْ إِنْعَامِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِالْمَطَرِ الْكَفْرَانِ به، وتوهمون أن المطر - الذي هو نعمة من الله - من الأنواء والكواكب؟!

ويقال: أتعلمون حَظَّكُمْ ونصيبكم من القرآن التَّكْذِيبِ؟.

قوله جل ذكره: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْمُلُوكُومَ وَأَنْتُمْ حِينِلٌ تُنْظَرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُحْرُونَ﴾.

(١) الأحداث: (ج) الحدث (عند الفقهاء): ما ينقض الطهارة.

يخاطِبُ أولياء الميت فيقول: هَلَا إِذَا بَلَغَتْ رَوْحُ الحَلَقُومِ، وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ إِلَى هَذَا الْمَرِيضِ، رَجَعْتُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَتَحَقَّقْتُمْ بِهِ؟ فَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ بِالْعِلْمِ وَالرُّؤْيَةِ وَالْقُدْرَةِ.. وَلَكِنْ لَا تَبْصُرُونَ!

ويقال: أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ الْحَقِّ عِنْدَمَا يَتِمُّ اسْتِيلَاءُ ذِكْرِهِ وَشَهُودِهِ عَلَيْهِ، فَيَنْتَفِي إِحْسَاسُ الْعَبْدِ بغيره، وَعَلَى حَسَبِ انْتِفَاءِ الْعِلْمِ وَالْإِحْسَاسِ بِالْأَغْيَارِ - حَتَّى عَنْ نَفْسِهِ - يَكُونُ تَحَقُّقُ الْعَبْدِ فِي سِرِّهِ حَتَّى لَا يَرَى غَيْرَ الْحَقِّ.

فَالْقُرْبُ وَالْبَعْدُ مَعْنَاهُمَا: أَنَّ الْعَبْدَ فِي أَوَانِ صَحْوِهِ وَأَنَّهُ لَمْ يُؤْخَذْ - بَعْدُ - عَنْ نَفْسِهِ؛ فَإِذَا أُخِذَ عَنْهُ فَلَا يَكُونُ إِلَّا الْحَقُّ.. لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ لَا قُرْبَ وَلَا بُعْدَ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

ليس لكم من أمر الموت شيء.

﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ أي: تَرُدُّونَ الرُّوحَ إِلَى الْجَسَدِ.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: فِي أَنَّهُ لَا بَعْثَ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾.

الْمُقَرَّبُونَ هُمُ الَّذِينَ قَرَّبَهُمُ اللَّهُ بِفَضْلِهِ، فَلَهُمْ ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾.

ويقال: الرُّوحُ الْإِسْتِرَاحَةُ، وَالرَّيْحَانُ الرِّزْقُ.

وقيل: الرُّوحُ فِي الْقَبْرِ، وَالرَّيْحَانُ: فِي الْجَنَّةِ.

ويقال: لَا يَخْرُجُ مُؤْمِنٌ فِي الدُّنْيَا حَتَّى يُؤْتَى بِرَيْحَانٍ مِنْ رِيَّاحِينَ الْجَنَّةِ فَيَشْمُهُ قَبْلَ

خُرُوجِ رَوْحِهِ، فَالرُّوحُ رَاحَةٌ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَالرَّيْحَانُ فِي الْآخِرَةِ.

وقيل: كَانَتْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ ﷺ «الرُّوحُ» بضم الراء أي لَهُمْ فِيهَا حَيَاةٌ دَائِمَةٌ.

ويقال: الرُّوحُ لِقُلُوبِهِمْ، وَالرَّيَّاحُ لِنَفْسِهِمْ، وَالْجَنَّةُ لِأَبْدَانِهِمْ.

ويقال: رَوْحٌ فِي الدُّنْيَا، وَرَيْحَانٌ فِي الْجَنَّةِ، وَجَنَّةُ نَعِيمٍ فِي الْآخِرَةِ.

ويقال: رَوْحٌ وَرَيْحَانٌ مُعْجَلَانِ، وَجَنَّةُ نَعِيمٍ مُؤَجَّلَةٌ.

ويقال: رَوْحٌ لِلْعَابِدِينَ، وَرَيْحَانٌ لِلْعَارِفِينَ، وَجَنَّةُ نَعِيمٍ لِعَوَامِ الْمُؤْمِنِينَ.

ويقال: رَوْحٌ نَسِيمُ الْقُرْبِ، وَرَيْحَانُ كَمَالِ الْبَسْطِ، وَجَنَّةُ نَعِيمٍ فِي مَحَلِّ

الْمُنَاجَاةِ.

ويقال: رَوْحُ رُؤْيَا اللَّهِ، وَرَيْحَانُ سَمَاعِ كَلَامِهِ بِلَا وَاسِطَةٍ، وَجَنَّةُ نَعِيمٍ أَنْ يَدُومَ

هَذَا وَلَا يَنْقَطِعَ.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَّوْا لَهُ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾.

أن نخبرك بسلامة أحوالهم.

ويقال: سترى فيهم ما تحب من السلامة.

ويقال: أمان لك في بابهم؛ فلهم السلامة. ولا تُشغل قلبك بهم.

ويقال: فسلام لك - أيها الإنسان - إنك من أصحاب اليمين، أو أيها الإنسان الذي من أصحاب اليمين.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزِّلْ مِنْ جَحِيمٍ وَفَصِيلَةٌ جَحِيمٍ﴾.

إن كان من المكذبين لله، الضالين عن دين الله فله إقامة في الجحيم.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ فَسَجِّ يَا أَيُّهَا الرَّبُّ الْعَظِيمُ﴾.

هذا هو الحق اليقين الذي لا محالة حاصل.

﴿فَسَجِّ يَا أَيُّهَا الرَّبُّ الْعَظِيمُ﴾.

أي قدس الله عما لا يجوز في وصفه.

ويقال: صل لله. ويقال: اشكر الله على عصمة أمّتك من الضلال، وعلى

توفيقهم في اتباع سبيلك.

سورة الحديد

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

سماعُ بِسْمِ الله الرحمن الرحيم شَرَابٌ يَسْقِي بِهِ الْحَقُّ - سبحانه وتعالى - قلوبَ أَحِبَّائِهِ، فإذا شَرِبُوا طَرِبُوا، وإذا طَرِبُوا انبسطوا^(١)، ثم لشهود حَقِّهِ تَعَرَّضُوا، وينسيم قُرْبُهُ اسْتَأْنَسُوا، وعند الإحساس بهم غابوا.. فعقولهم تُسْتَغْرَقُ في لُطْفِهِ، وقلوبهم تُسْتَهْلِكُ في كَشْفِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

التسبيحُ التقديسُ والتتزيه، ويكون بمعنى سباحة الأسرار في بحار الإجلال، فيظفرون بجواهر التوحيد ويُنظِّمونها في عقود الإيمان، ويُرَضِّعونها في أطواق الوصلة:

وقله ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ المرادُ به «من» في السموات والأرض، يسجدون لله طوعاً وكرهاً؛ طوعاً تسبيح طاعة وعبادة، وكرهاً تسبيح علامة ودلالة.

وتُحْمَلُ «ما» على ظاهرها فيكون المعنى: ما من مخلوق من عينٍ أو أثرٍ إلا ويدلُّ على الصانع، وعلى إثبات جلاله، وعلى استحقاقه لنعوت كبريائه.

ويقال: يُسَبِّحُ الله ما في السموات والأرض، كلٌّ واقفٌ على الباب بشاهدٍ الطَّلَبِ... ولكنه - سبحانه عزيزٌ.

ويقال: ما تَقَلَّبَ أحدٌ من جاحِدٍ أو ساجِدٍ إلا في قبضة العزيز الواحد، فما يُصَرِّفُهُمْ إلا مَنْ خَلَقَهُمْ؛ فَمِنْ مُطِيعٍ أَلْبَسَهُ نِطَاقَ وِفاقه - وذلك فَضْلُهُ، وَمِنْ عَاصٍ رَبَطَهُ بِمُثْقَلَةِ الْخِذلان - وذلك عَذْلُهُ.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: العزيز: الْمُعِزُّ لِمَنْ طَلَبَ الْوَصُولَ، بل العزيز: الْمُتَقَدِّسُ عن كل وصول.. فما وَصَلَ مَنْ وَصَلَ إِلَّا حَظَّهُ وَنَصِيْبُهُ وَصْفَتُهُ على ما يليق به.

قوله جل ذكره: ﴿لَمْ يَكُنْ لَكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(١) قال القشيري في رسالته عند حديثه عن القبض والبسط: هما حالتان بعد ابتعاد العبد عن حالتي الخوف والرجاء، فالقبض للعارف بمنزلة الخوف للمستأنف، والبسط للعارف بمنزلة الرجاء للمستأنف. وكذلك المبسوط: قد يكون فيه بسط يسع الخلق فلا يستوحش من أكثر الأشياء، ويكون مبسوطاً لا يؤثر فيه شيء بحال من الأحوال. (الرسالة القشيرية ص ٥٨).

المُلْكُ مبالغةٌ من المِلْك، وهو القدرة على الإبداع، ولا مالِكَ إلا الله. وإذا قيل لغيره: مالك فعلى سبيل المجاز؛ فالأحكام المتعلقة في الشريعة على مِلْكِ الناس صحيحةٌ في الشرع، ولكنْ لفظُ المِلْك فيها توسُّعٌ كما أن لفظَ التيمم في استعمال التراب - عند عدم الماء - في السفر مجازٌ، فالمسائل الشرعية في التيمم صحيحة، ولكن لفظ التيمم في ذلك مجاز.

﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾: يحيي النفوس ويميتها. ويُحيي القلوب بإقباله عليها، ويميتها بإعراضه عنها. ويقال: يحييها بنظره وتفضله، ويميتها بقهره وتعزُّزه.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿الأول﴾: لاستحقاقه صفة القدم، و ﴿الآخر﴾ لاستحالة نعت العدم.

و ﴿الظاهر﴾ بالعلو والرفعة، و ﴿الباطن﴾: بالعلم والحكمة.

ويقال: ﴿الأول﴾ فلا افتتاح لوجوده و ﴿الآخر﴾ فلا انقطاع لثبوته.

﴿الظاهر﴾ فلا خفاء في جلال عزه، ﴿الباطن﴾ فلا سبيل إلى إدراك حقه.

ويقال ﴿الأول﴾ بلا ابتداء، و ﴿الآخر﴾ بلا انتهاء، و ﴿الظاهر﴾ بلا خفاء، و ﴿الباطن﴾ بنعت العلاء وعزُّ الكبرياء.

ويقال ﴿الأول﴾ بالعناية، و ﴿الآخر﴾ بالهداية، و ﴿الظاهر﴾ بالرعاية، و ﴿الباطن﴾ بالولاية.

ويقال: ﴿الأول﴾ بالخلق، و ﴿الآخر﴾ بالرزق، و ﴿الظاهر﴾ بالإحياء، و ﴿الباطن﴾ بالإماتة والإفناء.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠].

ويقال: ﴿الأول﴾ لا بزمان، و ﴿الآخر﴾ لا بأوان، و ﴿الظاهر﴾ بلا اقتراب، و ﴿الباطن﴾ بلا احتجاب.

ويقال: ﴿الأول﴾ بالوصلة، و ﴿الآخر﴾ بالخلّة، و ﴿الظاهر﴾ بالأدلة، و ﴿الباطن﴾ بالبعد عن مشابهة الجملة.

ويقال: ﴿الأول﴾ بالتعريف، و ﴿الآخر﴾ بالتكليف، و ﴿الظاهر﴾ بالتشريف، و ﴿الباطن﴾ بالتخفيف.

ويقال: ﴿الأول﴾ بالإعلام، و ﴿الآخر﴾ بالإلزام، و ﴿الظاهر﴾ بالإنعام، و ﴿الباطن﴾ بالإكرام.

ويقال: ﴿الأول﴾ بأن اصطفاك ﴿والآخر﴾ بأن هداك، و ﴿الظاهر﴾ بأن رعاك، و ﴿الباطن﴾ بأن كفاك.

ويقال: مَنْ كَانَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ اسْمُهُ ﴿الْأَوَّلُ﴾ كَانَتْ فِكْرَتُهُ فِي حَدِيثٍ سَابِقَتِهِ: بِمَاذَا سَمَّاهُ مَوْلَاهُ؟ وَمَا الَّذِي أَجْرَى لَهُ فِي سَابِقِ حُكْمِهِ؟ أَسْعَدَتُهُ أَمْ بَشَقَاتُهُ؟ وَمَنْ كَانَ الْغَالِبُ عَلَى قَلْبِهِ اسْمُهُ ﴿الْآخِرُ﴾ كَانَتْ فِكْرَتُهُ فِيهِ: بِمَاذَا يَخْتِمُ لَهُ حَالَهُ؟ وَإِلَامٍ يَصِيرُ مَالُهُ؟ أَعْلَى التَّوْحِيدِ يَخْرُجُ مِنْ دُنْيَاءٍ أَوْ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - فِي النَّارِ غَدَاً - مِثْوَاهُ؟

وَمَنْ كَانَ الْغَالِبُ عَلَى قَلْبِهِ اسْمُهُ ﴿الظَّاهِرُ﴾ فَاشْتَغَالَهُ بِشُكْرِ مَا يَجْرِي فِي الْحَالِ مِنْ تَوْفِيقِ الْإِحْسَانِ وَتَحْقِيقِ الْإِيمَانِ وَجَمِيلِ الْكِفَايَةِ وَحُسْنِ الرِّعَايَةِ.

وَمَنْ كَانَ الْغَالِبُ عَلَى قَلْبِهِ اسْمُهُ ﴿الْبَاطِنُ﴾ كَانَتْ فِكْرَتُهُ فِي اسْتِبْهَامِ أَمْرِهِ عَلَيْهِ فَيَتَعَثَّرُ وَلَا يَدْرِي.. أَفْضَلَ مَا يَعَامَلُهُ بِهِ رَبُّهُ أَمْ مَكْرَ مَا يَسْتَدْرِجُهُ بِهِ رَبُّهُ؟

ويقال: ﴿الْأَوَّلُ﴾ عِلْمٌ مَا يَفْعَلُهُ عِبَادُهُ وَلَمْ يَمْنَعَهُ عِلْمُهُ مِنْ تَعْرِيفِهِمْ، ﴿وَالْآخِرُ﴾ رَأَى مَا عَمِلُوا وَلَمْ يَمْنَعَهُ ذَلِكَ مِنْ غَفْرَانِهِمْ ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ لَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَلَيْسَ يَدْعُ شَيْئاً مِنْ إِحْسَانِهِمْ ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ يَعْلَمُ مَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ مِنْ خَسْرَانِهِمْ وَنَقْصَانِهِمْ فَيُدْفِعُ عَنْهُمْ فَنُونَ مَحَنِهِمْ وَأَحْزَانِهِمْ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾.

مَضَى الْكَلَامُ فِي ذَلِكَ.

﴿يَعْلَمُ مَا بَلِغٌ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾.

أَيُّ مَا يَدْخُلُ فِيهَا مِنَ الْقَطْرِ، وَالْكُنُوزِ، وَالْبُذُورِ، وَالْأَمْوَاتِ الَّذِينَ يُدْفَنُونَ فِيهَا، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ مِنَ النَّبَاتِ وَانْفِجَارِ الْعَيُونِ وَمَا يُسْتَخْرَجُ مِنَ الْمَعَادِنِ. ﴿وَمَا يَزِلُّ مِنَ السَّمَاءِ﴾.

مِنَ الْمَطَرِ وَالْأَرْزَاقِ. أَوْ مَا يَأْتِي بِهِ الْمَلَائِكَةُ مِنَ الْقَضَاءِ وَالْوَحْيِ. ﴿وَمَا يَمْزِجُ فِيهَا﴾.

أَيُّ مَا يَصْعَدُ إِلَيْهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَطَاعَاتِ الْعِبَادِ، وَدَعَوَاتِ الْخَلْقِ، وَصَحْفِ الْمُكَلَّفِينَ، وَأَرْوَاحِ الْمُؤْمِنِينَ.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ بِالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ.

ويقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَلِغٌ فِي الْأَرْضِ﴾ إِذَا ذُفِرَ الْعَبْدُ فَاللَّهُ سَبْحَانَهُ يَعْلَمُ مَا الَّذِي كَانَ فِي قَلْبِهِ مِنْ إِخْلَاصٍ فِي تَوْحِيدِهِ، وَوَجْهِ أَحْزَانِهِ خَسْرَانِهِ، وَشُكُّهُ وَجْهِيهِ، وَأَوْصَافِهِ الْمَحْمُودَةِ وَالْمَذْمُومَةِ.. وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا يَخْفَى عَلَيْكُمْ.

﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ على قلوب أوليائه من اللطاف والكشفات وفنون الأحوال العزيزة.

﴿وَمَا يَرْجُ فِيهَا﴾ من أنفاس الأولياء إذا تصاعدت، وحسراتهم إذا علت^(١).

قوله جل ذكره: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾. ماضى معناه.

قوله جل ذكره: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَعْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

صَدَّقُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتَصَدَّقُوا ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَعْلِفِينَ فِيهِ﴾ بتمليككم ذلك وتصديره إليكم. والذين آمنوا منكم وتصدقوا على الوجه الذي أمروا به لهم ثواب عظيم؛ فَإِنَّ مَا تَحْوِيهِ الْأَيْدِي مُعَرَّضٌ لِلزَّوَالِ فَالْسَّعِيدُ مَنْ قَدَّمَ فِي دُنْيَاهُ مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ عِمَارَةَ حَالِهِ، وَالشَّقِيُّ مَنْ سَارَ فِيمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ وَبَالَ مَالِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

أي شيء لكم في تَرْكِكُمْ الإيمان بالله وبرسوله، وما أتاكم به من الحشر والنشر، وقد أراح العلة بأنَّ الْأَخَ لَكُمْ الْحُجَّةُ، وقد أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ وَقْتُ الدُّرِّ، وأوجب عليكم ذلك بحكم الشرع.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يُنَبِّئُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

ليُخْرِجَكُم مِّنَ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ إِلَى نور العلم، ومن ظلمات الشك إلى نور اليقين.

وكذلك يُرِيهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْآيَاتِ بِكُشُوفَاتِ السَّرِّ وما يحصل به التعريف مما يجدون فيه النفع والخير؛ فيخرجهم من ظلمات التدبير إلى سعة فضاء التفويض، وملاحظة فنون جريان المقادير.

وكذلك إذا أرادت النَّفْسُ الْجَنُوحُ إِلَى الرُّخْصِ وَالْأَخْذِ بِالتَّخْفِيفِ وما تكون عليه المطالبة بِالْأَشَقِّ - فَإِنَّ بَادَرَ إِلَى مَا تَدْعُوهُ الْحَقِيقَةُ إِلَيْهِ وَجَدَ فِي قَلْبِهِ مِنَ النُّورِ مَا يَعْلَمُ بِهِ ظِلْمَةَ هَوَاجِسِ النَّفْسِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَبِثُ السَّمَنَاتُ وَالْأَرْضُ﴾.

(١) الآية (٥) لم ترد.

ما في أيديكم ميراثه الله، وعن قريب سيقفل إلى غيركم ولا تبقون بتناول أحمالكم. وهو بهذا يحثهم على الصدقة والبدار إلى الطاعة وتترك الإخلاد إلى الأمل.. ثم قال:

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّكَ أَكْثَرَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَوْا وَكَلاَّ وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

لا يستوي منكم من أنفق قبل فتح مكة والحديبية والذين أنفقوا من بعد ذلك. بل أولئك أعظم ثواباً وأعلى درجة من هؤلاء؛ لأن حاجة الناس كانت أكثر إلى ذلك وكان ذلك أشق على أصحابه.

ثم قال: ﴿وَكَلاَّ وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنُ﴾ إلا أن فضيلة السبق لهم، ولهذا قالوا:

السابق السابق قولاً وفعلاً حذر النفس حسرة المسبوق
قوله جل ذكره: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَمْ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

المراد بالقرض الصدقة، وإنما ذكرها سبحانه كذلك تطيباً لقلوبهم، فكان المتصدق وهو يقرض شيئاً كالذي يقطع شيئاً من ماله ليدفعه إلى المستقرض.

ويقال: ﴿يُقْرِضُ﴾ أي يفعل فعلاً حسناً، وأراد بالقرض الحسن ما يكون من وجهٍ حلالٍ ثم عن طيب قلب، وصاحبه مخلص فيه، بلا رياء يشوبه، وبلا من على الفقير، ولا يكذره تطويل الوعد ولا ينتظر عليه كثرة الأعواض.

ويقال: أن تقرضه وتقطع عن قلبك حب الدارين، ففي الخبر: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى»^(١) ومن لم يتحرز من شيء فخروجه عنه تكلف.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ يَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ١٣٩/٢، ٨١/٧)، ومسلم في (الصحيح الزكاة ب ٣٢ رقم ٩٥) وأبو داود في (السنن الزكاة ب ٤٠)، والنسائي في (السنن ٦٢/٥)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٢/٢٧٨، ٤٠٢، ٤٧٦، ٥٢٤، ٤٣٤/٣)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١٥٤/٤، ١٧٧، ١٨٠، ٧/٤٦٦)، والطبراني في (المعجم الكبير ٢٢٤/٣)، والدولابي في (الكنى والأسماء ١٠٨/١)، والزبيدي في (نصب الراية ٤١٢/٢)، والسيوطي في (الدر المنثور ٢٥٣/١، ٢٥٤)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٥٨٨/١)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ١٩٢٩)، والبخاري في (٢١٣/١)، والالباني في (إرواء الغليل ٤١٥/٣) وابن حجر في (فتح الباري ٥٠٠/٩)، والبخاري في (شرح السنة ١٧٨/٦)، والتميمي في (كنز العمال ١٦٢٦٤، ١٦٢٦٦، ١٦٢٦٧)، وابن خزيمة في (الصحيح ٢٤٣٩)، وابن كثير في (التفسير ٣٧٤/١)، والقرطبي في (التفسير ١١١/٧)، والدارقطني في (السنن ٢٩٦/٣)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء ١٥٨٦/٤)، وعبد الرزاق في (المصنف ١٦٤٠٤).

وهو نورٌ يُغَطِّي للمؤمنين والمؤمنات بِقَدْرِ أعمالهم الصالحة، ويكون لذلك النور مطارحٌ شعاع يمشون فيها والنور يسعى بين أيديهم، ويحيط جميع جهاتهم.

ويقال: ﴿وَيَأْتِيهِمْ﴾ كتبهم.

﴿يُتْرِكُكُمْ الْيَوْمَ جَتَّةً﴾ أي بشارتكم اليوم - من الله جنات. وكما أن لهم في العرصة هذا النور فالיום لهم في قلوبهم وبواطنهم نورٌ يمشون فيه، ويهتدون به في جميع أحوالهم، قال ﷺ: «المؤمن ينظر بنور الله»^(١) وقال تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

وربما ينبسط ذلك النور على مَنْ يَقْرُبُ منهم. وربما يقع من ذلك على القلوب قهراً - ولأوليائه - لا محالة - هذه الخصوصية.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسَبْ مِن نُّورِكُمْ﴾.

انتظرونا فنلحق بكم لنقتبس من نوركم. وذلك لأن المؤمنين والمنافقين يُغَطُّونَ كُتُبَهُمْ وهم في النور، فإذا مروا... انطفأ النور أمام المنافقين وسبق المؤمنون، فيقول المنافقون للمؤمنين: انتظرونا حتى نقتبس من نوركم. فيقول المؤمنون:

﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾.

أي إلى الدنيا وأخلصوا! - تعريفاً لهم أنهم كانوا منافقين في الدنيا.

ويقال: ارجعوا إلى حُكْمِ الْأَزْلِ فاطلبوا هذا من الْقِسْمَةِ! - وهذا على جهة ضرب المثل والاستبعاد.

﴿فَضْرِبَ يَتِيمَهُمْ يُسُورٌ لِّمَ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾.

﴿يُسُورٌ﴾: وهو جَبَلٌ أصحاب الأعراف، يستر بينهم وبين المنافقين، فالوجه الذي يلي المؤمن فيه الرحمة وفي الوجه الآخر العذاب.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾.

ألم نكن معكم في الدنيا في أحكام الإيمان في المناكحة والمعاشرة؟

قالوا: بلى، ولكنكم فتنتم أنفسكم..

﴿وَنَرَضَنتُمُ زِينَتَكُمْ وَاعْتَرَكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾.

(١) أخرجه الترمذي (تفسير سورة ١٥، ١٦).

تربصتم عن الإخلاص، وشككتكم، وغرَّكم الشيطان، وركبتم إلى الدنيا.
قوله جل ذكره: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ هِيَ
 مَوْلَانَكُمْ وَيَشْنَ الْمَصِيرُ﴾.

النار مأواكم ومصيركم ومقتلُكم.

و ﴿هي مولاكم﴾ أي هي أولى بكم، وبش المصير!

ويقال: مخالفة الضمائر والسرائر لا تنكتم بموافقة الظاهر، والأسرار لا تنكتم عند الاختبار.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ
 وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

ألم يحزن للذين آمنوا أن تتواضع قلوبهم وتلين لذكر الله وللقرآن وما فيه من
 العبر؟ ألا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل؟ وأراد بهم اليهود، وكثير من اليهود
 فاسقون كافرون.

وأراد بطول الأمد الفترة التي كانت بين موسى ونبينا ﷺ، وفي الخبر: «أن
 أصحاب رسول الله ﷺ أصابتهُم ملالة فقالوا: لو حَدَّثْتَنَا»^(١).

فأنزل الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣] فبعد مدة قالوا:

لو قَصَصْتَ علينا!

فأنزل الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣] فبعد مدة قالوا:
 لو ذَكَّرْتَنَا وَوَعَّظْتَنَا!

فأنزل الله تعالى هذه السورة.

وفي هذه الآية ما يشبه الاستبطاء.

وإن قسوة القلب تحصل من اتباع الشهوة، والشهوة والصفة لا تجتمعان؛ فإذا
 حَصَلَت الشهوة رَحَلَت الصفة. وموجبُ القسوة هو انحرافُ القلب عن مراقبة الرب.
 ويقال: موجب القسوة أوله خطرة - فالَمْ تُتَذَكَّرْ صارت فكرة، والَمْ تُتَذَكَّرْ صارت
 عزيمة، فإن لَمْ تُتَذَكَّرْ جَرَّتْ المخالفة، فإن لَمْ تُتَذَكَّرْ بالتلافي صارت قسوة وبعدئذ
 تصير طبعاً ورئياً^(٢).

(١) أخرجه أبو داود في (السنن ١٨٩٦).

(٢) الرين: الطبع والدنس، ران الثوب ريناً: تطبع. ران الذنب على قلبه: غلب عليه وغطاه. (لسان
 العرب ١٩٢/١٣ مادة: رين).

قوله جل ذكره: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .

يُحْيِي الْأَرْضَ بعد موتها بإنزال المطر عليها وإخراج الثبّ منها . وَيُحْيِي الْقُلُوبَ الميتة - بعد إعراض الحق عنها - بحسن إقباله عليها .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الْمَصْدِقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ .

أي المتصدقين والمتصدقات .

﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ : يعني في النوافل .

﴿يَضْعَفُ لَهُمْ﴾ في الحسنات، الحسنَةُ بعشر أمثالها . . إلى ما شاء الله .

﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ : ثواب كبير حسن . والثواب الكريم أنه لا يضمن بأقصى الأجر على الطاعة - وإن قلّت .

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ .

الصَّادِقُونَ : مبالغة في الصدق، والشهداء : الذين استشهدوا في سبيل الله، فالمؤمنون بمنزلة الصديقين والشهداء - لهم أجرهم في الجنة ونورهم في القيامة .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ .

والصديق مَنْ استوى ظاهره وباطنه .

ويقال : هو الذي يحمل الأمر على الأسق، ولا ينزل إلى الرخص، ولا يجنح للتأويلات .

والشهداء : الذين يشهدون بقلوبهم مواطن الوصلة، ويعتكفون بأسرارهم في أوطان القربة، ﴿وَنُورُهُمْ﴾ : ما كحل الحق به بصائرهم من أنوار التوحيد .

قوله جل ذكره: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ .

الحياة الدنيا مُعَرَّضَةٌ للزوال، غير لابثة ولا ماكثة، وهي في الحال شاغلة عن الله، مُطْمِعَةٌ وغير مُشْبِعَةٍ، وتجري على غير سنن الاستقامة كجريان لعب^(١) الصبيان، فهي تلهي عن الصواب واستبصار الحق، وهي تفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد .
﴿كَثَلٌ غَيْثٍ أَجْعَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَسْجُ قَوْمُهُ مُصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ .

(١) اللُّغَاب : ما سال من الفم . (اللسان ١/ ٧٤١ مادة : لعب) .

الكفار: الزُّرَّاع.

هو في غاية الحُسْنِ ثم يهيج فتراه يأخذ في الجفاف، ثم ينتهي إلى أن يتحطم ويتكسر.

﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

لأهله من الكفار.

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾.

لأهله من المؤمنين.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾.

الدنيا حقيرة - وأحقر منها قدراً طالِبُها وأقلُّ منه خَطراً المزاحم فيها، فما هي إلا جيفة؛ وطالبُ الجيفة ليس له خطر. وأخس أهل الدنيا مَنْ بَخِلَ بها.

وهذه الدنيا المذمومة هي التي تشغل العبدَ عن الآخرة!

قوله جلّ ذكره: ﴿سَاقِبُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾.

أي سارعوا إلى عملٍ يوجب لكم مغفرةً من ربكم، وذلك العملُ هو التوبة.

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا﴾ ذكر عرضها ولم يذكر طولها؛ فالطول على ما يوافيه العرضُ.

﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾: وفي هذا دليلٌ على أن الجنة مخلوقة.

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

وفي ذلك ردٌّ على من يقول: «إن الجنة مُسْتَحَقَّةٌ على الطاعات، ويجب على الله إيصالُ العبدِ إليها»... لأن الفضل لا يكون واجباً.

ويقال: لما سمعت أسرار المؤمنين هذا الخطاب ابتدرت الأرواحُ مُقْتَضِيَةَ المسارعة من الجوارح، وصارت الجوارحُ مستجيبةً للمطالبة، مُسْتَبْشِرة برعاية حقوق الله؛ لأنها علمت أن هذا الاستدعاء من جانب الحق سبحانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَّا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

المصيبة خضلة تقع وتحصل. فيقول تعالى: لا يحصل في الأرض ولا في أنفسكم شيء إلا وهو مُتَّبَتٌ في اللوح المحفوظ على الوجه الذي سبق به العلم، وحق في الحكم؛ فقبل أن نخلق ذلك أثبتناه في اللوح المحفوظ.

فكلُّ ما حصل في الأرض من خصبٍ أو جَدْبٍ، من سعة أو ضيق، من فتنة أو

استقامة وما حصل في النفوس من حزن أو سرور، من حياة أو موت كل ذلك مُثَبَّت في اللوح المحفوظ قبل وقوعه بزمان طويل .

وفي قوله: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَبْرَأَهُ﴾ دليل على أن أكساب العباد مخلوقة لله سبحانه . وللعبد في العلم بأن ما يصيبه : من بسط وراحة وغير ذلك من واردات القلوب من اللّه - أشد السُرور وأتمّ الإنس ؛ حيث عَلِمَ أنه أُفْرِدَ بذلك بظهر غيب منه ، بل وهو في كثر العَدَم ، ولهذا قالوا :

سقياً لمعهدك الذي لو لم يكن ما كان قلبي للصباية معهدا
قوله جل ذكره: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ .

عَدَمُ الفرحه بما آتاهم هو من صفات المتحررين من رِقِّ النَّفْسِ ، فقيمة الرجال تبين بتغيّرهم - فَمَنْ لم يتغيّر بما يَرُدُّ عليه - مما لا يريده - من جفاء أو مكروه أو محنة فهو كامل ، وَمَنْ لم يتغيّر بالمسار كما لا يتغير بالمضار ، ولا يَسُرُّه الوجود كما لا يُخْزِنُه العَدَم - فهو سَيِّد وقته ^(١) .

ويقال : إذا أردت أن تعرف الرجل فاطلبه عند الموارد ؛ فالتغيّر علامة بقاء النَّفْسِ بأي وجه كان :

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ .

فالاختيال من علامات بقاء النفس ورؤيتها ، والفخر (ناتج) ^(٢) عن رؤية ما به يفتخر .

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ .

بخلوا بكتمان صفة نبيّن ﷺ وأمروا أتباعهم بذلك ، وذلك لما خافوا من كساد سُوقِهِمْ وبطلان رياستهم .

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ﴾ عن الإيمان ، أو إعطاء الصدقة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ .

والبخل - على لسان العلم - مَنعُ الواجب ، فأما على بيان هذه الطائفة فقد قالوا : البخل رؤية قَدْرٍ للأشياء ، والبخل الذي يُعْطِي عند السؤال ، وقيل : مَنْ كَتَبَ على خاتمه اسمه فهو بخيل ^(٣) .

(١) انظر حديث القشيري في الرسالة عن الثلوث والتمكين . ص ٧٨ - ٨٠ .

(٢) ما بين القوسين زيادة يقتضيهما السياق .

(٣) قال القشيري : أصل الفترة أن يكون العبد دائماً في أمر غيره . (انظر الرسالة القشيرية ص ٢٢٦ ،

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.

أي أرسلناهم مؤيدين بالحُجج اللاحقة والبراهين الواضحة، وأزخنا العِلَّةَ لِمَنْ أراد سلوك الحُجَّةِ المثلى، وَيَسِّرْنَا السَّبِيلَ عَلَى مَنْ آثَرَ اتِّبَاعَ الْهُدَى. وأنزلنا معهم الكُتُبَ الْمُنَزَّلَةَ، و﴿المِيزَانَ﴾: أي الحُكْمَ بِالْقُرْآنِ، واعتبار العَدْلِ والتسوية بين الناس. ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾: فلا يَظْلِمُ أَحَدٌ أَحَدًا.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

﴿أنزلنا الحديد﴾: أي خلقنا الحديد.

ونصرة الله هي نصرته دينه، ونصرة الرسول باتِّباعِ سُنَّتِهِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾: أقوى من أن يُتَارَعَ شريكٌ، أو يضارعه في المُلْكِ ملك، وأعزُّ من أن يحتاج إلى ناصر.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾.

أي: أرسلنا نوحاً، ومن بعده إبراهيم، وجعلنا في نسلِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ. ﴿فَعَمَّهُمْ مُهْتَدِينَ﴾.

أي: مستجيب.

﴿وَكَبِيرٌ مِنْهُمْ فَسُفُوتٌ﴾.

خرجوا عن الطاعة.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾.

أي: أرسلنا بعدهم عيسى ابن مريم.

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾.

بَيِّنْ أَنَّهُ لَمْ يَأْمُرْهُم بِالرَّهْبَانِيَّةِ^(١) بل هم الذين ابتدعوها ثم قال:

﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾.

(١) الرهبانية: مصدر الراهب، والاسم الرهبانية من الرهبة: الخوف؛ فالنصارى كانوا يترهبون بالتخلي من أشغال الدنيا، وترك ملاذها، والزهد فيها، والعزلة عن أهلها، وتعهد مشاقها، حتى أن منهم من كان يخصي نفسه ويضع السلسلة في عتقه. (لسان العرب ١/٤٣٧، ٤٣٨ مادة: رهب).

هم الذين انفردوا بما عقدوه معنا أن يقوموا بحقنا .
﴿فَتَأْتِيَنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَّمْ أَجْرُهُمْ وَكَثِيرٌ ۖ فَلَيَقُولُنَّ﴾ .
قوله جل ذكره: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .
نزلت في قوم من أهل الكتاب أسلموا .
﴿كَفْلَيْنِ﴾ : أي نصيبين ؛ نصيباً على الإيمان بالله، وآخر على تصديقهم وإيمانهم بالرُّسل .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ .
ومعناه: يعلم أهل الكتاب، و«لا» صلة . أي: ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرُونَ على شيء من فضل الله، فإن الفضل بيد الله . و«اليد» هنا بمعنى: القدرة، فالفضل بقدرة الله .

والإشارة في هذا: اتَّقُوا اللَّهَ بِحِفْظِ الْأَدَبِ معه، ولا تأمنوا مَكْرَهَ أَنْ يَسْلَبَكُمْ مَا وَهَبَكُمْ من أوقاتكم . وكونوا على حَذَرٍ من بَغْتَاتٍ تقديره في تغيير ما أذاقكم من أنسٍ محبته .

وَاتَّبِعُوا السُّفَرَاءَ وَالرُّسُلَ، وحافظوا على اتباعهم حتى يُؤْتِيَكُمْ نصيبين من فضله: عصمةً ونعمةً؛ فالعصمة من البقاء عنه، والنعمة هي البقاء به .
ويقال: يؤتكم نصيبين: نصيباً من التوفيق في طلبه، ونصيباً من التحقيق في وجوده^(١) .

(١) الوجود هنا لم يقصد به ضد العدم . انظر الرسالة القشيرية ص ٦٣ : فالتواجد بداية والوجود نهاية، والوجد واسطة بين البداية والنهاية .

سورة المجادلة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة مَنْ عَرَفَهَا بَدَّلَ الرُّوحَ فِي طَلِبِهَا - وإن لم يَحْظَ بوصولها، كلمة مَنْ طَلِبَهَا اكْتَفَى بِالطَّلَبِ مِنْ قَبُولِهَا.

كلمة جِبَارَةٌ لَا تَنْظُرُ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ، كلمة قَهَارَةٌ لَا يُوجَدُ مِنْ دُونِهَا مُلْتَحِدٌ.

كلمة مِنْهَا بِلَاءُ الْأَحْبَابِ - لكن بِهَا شِفَاءُ الْأَحْبَابِ.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾.

لَمَّا صَدَقَتْ فِي شِكْوَاهَا إِلَى اللَّهِ وَأَيِسَتْ مِنْ اسْتِكْشَافِ ضُرِّهَا مِنْ غَيْرِ اللَّهِ - أنزل الله فِي شَأْنِهَا: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾.

تَضَرَّعَتْ إِلَى اللَّهِ، وَرَفَعَتْ قِصَّتَهَا إِلَى اللَّهِ، وَنَشَرَتْ غُصَّتَهَا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ - فَتَنَظَرَ إِلَيْهَا اللَّهُ، وَقَالَ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾.

ويقال: صارت فرجةً ورخصةً للمسلمين إلى القيامة في مسألة الظَّهَارِ^(١)، وليعلم العالمون أَنَّ أَحَدًا لَا يَخْصِرُ عَلَى اللَّهِ.

وفي الخبر: أنها قالت: «يا رسول الله، إِنَّ أَوْسًا تزوجني شابةً غنيةً ذاتِ أهلٍ، ومالٍ كثيرٍ، فلما كبرتِ بِنْتِي، وَذَهَبَ مَالِي، وَتَفَرَّقَ أَهْلِي جَعَلَنِي عَلَيْهِ كَظْهَرِ أُمِّهِ، وَقَدْ نَدِمَ وَنَدِمْتُ، وَإِنَّ لِي مِنْهُ صَبِيَّةً صِغَارًا إِنْ ضَمَمْتُهُمْ إِلَيْهِ ضَاعُوا، وَإِنْ ضَمَمْتُهُمْ إِلَيَّ جَاعُوا».

فقال لها الرسول ﷺ - في رواية -: «مَا أَمِزْتُ بِشَيْءٍ فِي شَأْنِكَ»^(٢).

وفي رواية أخرى أنه قال لها: «بَنَيْتَ عَنْهُ» (أي حرمت عليه).

(١) الظَّهَارُ: مِنَ النِّسَاءِ، وَظَاهِرُ الرَّجُلِ امْرَأَتُهُ، وَمِنْهَا، مَظَاهِيرُهَا وَإِذَا قَالَ: هِيَ عَلَيَّ كَظْهَرِ ذَاتِ رَحِمٍ، وَقَدْ تَظْهَرُ مِنْهَا وَتَظَاهَرُ. (اللسان ٥٢٨/٤ مادة: ظهر).

(٢) أَخْرَجَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي (مَجْمَعِ الزَّوَادِ ١١٥/٩)، وَالسَّيُوطِيُّ فِي (الدَّرِّ الْمَشُورِ ٢٠٤/٢)، وَالطَّبْرِيُّ فِي (التفسير ٢٨/٤، ١٤٥/٥).

فترددت إلى رسول الله ﷺ في ذلك، وشكت . . إلى أن أنزل الله حُكْمَ الظَّهَارِ.

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مَنْ نَسَاءَهُمْ مَا هُمْ أُمَّهَاتُهُمْ إِن أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾.

قَوْلُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لِنِسَائِهِمْ - جرياً على عادة أهل الشُّرْكِ - أَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي . . هذا شيء لم يَحْكُمِ اللهُ به؛ ولا هذا الكلام في نَفْسِهِ صِدْقٌ، ولم يثبت فيه شَرْعٌ، وإنما هو زورٌ مَخْضُصٌ وَكَذِبٌ صِرْفٌ.

فَعَلِمَ الكَافَّةُ أَنَّ الحَقَائِقَ بِالتَّلْبِيسِ لَا تَتَعَزَّزُ؛ وَالسَّبَبُ إِذَا لَمْ يَكُنْ صَحِيحاً فَبِالْمَعَاوِدَةِ لَا يَثْبِتُ؛ فَالْمَرَأَةُ لَمَّا سَمِعَتْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَوْلَهُ «بُنْتُ عَنْهُ» - كَانَ وَاجِباً عَلَيْهَا السُّكُونُ وَالصَّبْرُ؛ وَلَكِنَّ الضَّرُورَةَ أَنْطَقَتْهَا وَحَمَلَتْهَا عَلَى الْمَعَاوِدَةِ، وَحَصَلَتْ مِنْ ذَلِكَ مَسْأَلَةٌ: وَهِيَ أَنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَشْيَاءِ يَحْكُمُ فِيهَا ظَاهِرُ الْعِلْمِ بِشَيْءٍ؛ ثُمَّ تُغَيِّرُ الضَّرُورَةُ ذَلِكَ الْحُكْمَ لِصَاحِبِهَا.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ ذَلِكَ تُوعَطُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

الظَّهَارُ - وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْحَقِيقَةِ أَصْلٌ، وَلَا بِتَصْحِيحِهِ نَطْقٌ أَوْ دَلَالَةٌ شَرْعٌ، فَإِنَّهُ بَعْدَ مَا رُفِعَ أَمْرُهُ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ وَلَوَّحَ بِشَيْءٍ مَا، وَقَالَ فِيهِ حُكْمُهُ، لَمْ يُخَلِّ اللهُ ذَلِكَ مِنْ بَيَانٍ سَاقٍ بِهِ شَرْعُهُ؛ فَقَضَى فِيهِ بِمَا انْتَضَمَ جَوَانِبُ الْأَمْرِ كُلِّهِ.

فَارْتَفَاعُ الْأَمْرِ حَتَّى وَصُولِهِ إِلَى مَجْلِسِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالتَّحَاكُمُ لَدَيْهِ حَمْلُ الْمُتَعَدِّي عَنَاءَ فَعَلْتُهُ، وَأَعَادَ لِلْمَرَأَةِ حَقَّهَا، وَكَانَ سَبِيلاً لِتَحْدِيدِ الْمَسْأَلَةِ بِرُؤْمَتِهَا . . . وَهَكَذَا فَإِنْ كُلُّ صَعْبٍ إِلَى زَوَالٍ . . . وَكُلُّ لَيْلَةٍ - وَإِنْ طَالَتْ - فَإِلَى إِسْفَارٍ^(١).

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوتًا كَمَا كُنْتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَرْسَلْنَا عَائِثَةَ بَيْنَتٍ وَاللَّكْفِيرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

الَّذِينَ يَخَالِفُونَ أَمْرَ اللَّهِ وَيَتْرَكُونَ طَاعَةَ رَسُولِ اللَّهِ أُذِلُّوا وَخُذِلُوا، كَمَا أُذِلَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْعُصَاةِ.

وَقَدْ أَجْرَى اللَّهُ سُنتَهُ بِالْإِنْتِقَامِ مِنْ أَهْلِ الْإِجْرَامِ؛ فَمَنْ ضَيَّعَ لِلرَّسُولِ سُنَّةً،

(١) الآية (٤) لم ترد.

وَأُخِذَتْ فِي دِينِهِ بَدْعَةٌ انْخَرَطَ فِي هَذَا السِّلْكِ، وَوَقَعَ فِي هَذَا الذَّلِّ.
 قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

يقال: إذا حُوسِبَ أَحَدٌ فِي الْقِيَامَةِ عَلَى عَمَلِهِ تَصَوَّرَ لَهُ مَا فَعَلَهُ وَتَذَكَّرَهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ قَائِمٌ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ عَنْ بَسَاطَةِ الرُّؤْيَى، فَيَقَعُ عَلَيْهِ مِنَ الْحَجَلِ وَالنَّدَمِ مَا يَنْسَى فِي جَنْبِهِ كُلَّ عَقُوبَةٍ.

فَسَبِيلُ الْمُسْلِمِ أَلَّا يَحُومَ حَوْلَ مُخَالَفَةِ أَمْرِ مَوْلَاهُ، فَإِنْ جَرَى الْمَقْدُورُ وَوَقَعَ فِي هَجْنَةِ التَّقْصِيرِ فَلْتَكُنْ رَأْيُهُ عَلَى بَالٍ، وَلِيَتَضَرَّعَ إِلَى اللَّهِ بِحُسْنِ الْإِتِّهَالِ.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

مَعِيَّةُ الْحَقِّ - سُبْحَانَهُ - وَإِنْ كَانَتْ عَلَى الْعُمُومِ بِالْعِلْمِ وَالرَّوَايَةِ، وَعَلَى الْخُصُوصِ بِالْفَضْلِ وَالنَّصْرَةِ - فَلِهَذَا الْخُطَابُ فِي قُلُوبِ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ أَثَرٌ عَظِيمٌ، وَلَهُمْ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ الْأَمْرُ بِهِمْ إِلَى التَّوَلُّهِ فَالْوَلَوُ فَالْهِيمَانُ فِي غِمَارِ سَمَاعِ هَذَا عَيْشٍ رَاغِدٍ.

ويقال: أصحابُ الكهف - وَإِنْ جَلَّتْ رَتَبَتُهُمْ وَاخْتَصَتْ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ مَرْتَبَتُهُمْ - فَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢] وَلَمَّا انْتَهَى إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ﴾ فَشَتَّانَ بَيْنَ مَنْ رَابِعُهُ كَلْبُهُ وَبَيْنَ مَنْ رَابِعُهُ رَبُّهُ!!

ويقال: أهلُ التَّوْحِيدِ، وَأَصْحَابُ الْعُقُولِ مِنْ أَهْلِ الْأَصُولِ يَقُولُونَ: اللَّهُ وَاحِدٌ لَا مِنْ طَرِيقِ الْعَدَدِ، وَالْحَقُّ يَقُولُ: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ وَيَقَالُ حَيْثُمَا كُنْتُ فَأَنَا مَعَكَ؛ إِنْ كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ فَأَنَا مَعَكَ، وَإِنْ كُنْتُ فِي الْمَصْطَبَةِ فَأَنَا مَعَكَ، إِنْ طَلَبَ الْعُلَمَاءُ التَّأْوِيلَ^(١) وَشَوَّشُوا قُلُوبَ أَوْلِي الْمَوَاجِيدِ فَلَا بَأْسَ - فَأَنَا مَعَهُمْ.

(١) قَالَ الْقَشِيرِيُّ فِي رِسَالَتِهِ عِنْدَ حَدِيثِهِ عَنِ الْوَصِيَّةِ لِلْمُرِيدِينَ: فَإِنْ حَجَّجَ هَؤُلَاءِ فِي مَسَائِلِهِمْ أَظْهَرَ مِنْ حَجَّجِ كُلِّ وَاحِدٍ وَقَوَاعِدِ مَذَاهِبِهِمْ أَقْوَى مِنْ قَوَاعِدِ كُلِّ مَذْهَبٍ. وَالنَّاسُ إِمَّا أَصْحَابُ النُّقْلِ وَالْأَثَرِ، وَإِمَّا أَرْيَابُ الْعَقْلِ وَالْفِكْرِ، وَشَيْخُ هَذِهِ الطَّائِفَةِ ارْتَقَوْا عَنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ فَالَّذِي لِلنَّاسِ غَيْبٌ فَهُوَ لَهُمْ ظُهُورٌ، وَالَّذِي لِلخَلْقِ مِنَ الْمَعَارِفِ مَقْصُودٌ، فَلَهُمْ مِنَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ مَوْجُودٌ، فَهُمْ أَهْلُ الْوَصَالِ، وَالنَّاسُ أَهْلُ الْاِسْتِدْلَالِ. (الرِّسَالَةُ الْقَشِيرِيَّةُ ص ٣٧٨).

إن حضرت المسجد فأنام معك بإسباغ النعمة ولكن وغداً، وإن أتيت المصطبة فأنام معك بالرحمة وإسبال ستر المغفرة ولكن نقداً:

هَبْكَ تَبَاعَذْتَ وَخَالَفْتَنِي تَقْدِيرُ أَنْ تَخْرَجَ عَنْ لُطْفِي
قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَ عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا هُوَ عَنْهُ وَيَنْجَوْنَ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ﴾.

آذوا قلوب المسلمين بما كانوا يتناجون به فيما بينهم، ولم تكن في تناجيهم فائدة إلا قصدهم بذلك شغل قلوب المؤمنين، ولم ينتهوا عنه لما نهوا عنه، وأصرُّوا على ذلك ولم ينزجروا، فتوَعَّدَهم اللَّهُ على ذلك، وتكون عقوبتهم بأن تتغامز الملائكة في باب فيما بينهم، وحين يشاهدون ذلك تترجَّم ظنونهم، ويتعذَّبون بتقسُّم قلوبهم، ثم لا ينكشف الحال لهم إلا بما يزيدهم حزناً على حزن، وأسفاً على أسف.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْأَنْبِيَاءِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالْتَّقْوَىٰ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشُرُونَ﴾.

إنما قُبِحَ ذلك منهم وعَظُمَ الخطرُ لأنه تضمَّن إفساد ذات البين، وخير الأمور ما عاد بإصلاح ذات البين، وبعبارة إذا كان الأمر بضده.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَرَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

النجوى من تزيين الشيطان ليحزن الذين آمنوا. وإذا كانت المشاهدة غالبية، والقلوب حاضرة، والتوكل صحيحاً؛ والنظر من موضعه صائباً فلا تأثير لمثل هذه الحالات، وإنما هذا للضعفاء.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَقَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَانْقَشُوا بِسَجِّهِ اللَّهِ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا﴾.

لكمال رحمته بهم وتمايم رافته عليهم، علَّمهم مراعاة حسن الأدب بينهم فيما كان من أمور العادة دون أحكام العبادة في التفسُّح في المجالس والنظام في حال الزحمة والكثرة... وأغزى بأقوام أمرهم بدقائق الأشياء بعد قيامهم بأصول الدين وتحققهم بأركانه!

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَى صَدَقَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

لَمَّا كَانَ الْإِذْنَ فِي النُّجُوى مَقْرُوناً بِبَذْلِ الْمَالِ امْتَنَعُوا وَتَرَكُوا، وبِذَلِكَ ظَهَرَتْ جواهر الأخلاق ونقاوة الرجال - ولقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالُكُمْ إِن يَسْأَلْكُمْوَهَا فَيُخَفِّصْكُمْ يَتَحَلَّلُوا وَيُخْرِجَ أَصْفَانَكُمْ﴾^(١) [محمد: ٣٧].

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾. مَنْ وافق مغضوباً عليه أَشْرَكَ نَفْسَهُ فِي اسْتِحْقَاقِ غَضَبِ مَنْ هُوَ الْغَضَبَانِ؛ فَمَنْ تَوَلَّى مغضوباً عليه مِنْ قَبْلِ اللَّهِ اسْتَوْجَبَ غَضَبَ اللَّهِ وكفى بِذَلِكَ هَوَاناً وخسراناً. ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أَخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾. هذا وصفٌ للمنافقين.

﴿أَخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ أي وقايةً وسترًا؛ وَمَنْ استتر بِجُنَّةٍ طاعته لَتَسْلَمَ لَهُ دُنْيَاهُ فَإِنَّ سَهَامَ التَّقْدِيرِ مِنْ ورائه تَكْشِفُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ. فلا دِيْنُهُ يَبْقَى، وَلَا دُنْيَاهُ تَسْلَمُ، ولقد قال تعالى: ﴿لَنْ تَغْنَى عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً﴾^(٢) [آل عمران: ١٠]. قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يَعْلَمُ اللَّهُ حَيْثَ يَحْلِفُونَ لَمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى ثِقَةٍ آلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

عَقِبَتْهُمْ الْكِبَرُى طَنَّهُمْ أَنْ مَا عَمِلُوا مَعَ الْخَلْقِ يَتَمَشَّى أَيْضاً فِي مُعَامَلَةِ الْحَقِّ، فَرَطُ الْأَجْنِبِيَّةِ وَغَايَةُ الْجَهْلِ أَكْبَتْهُمْ عَلَى مَنَاخَرِهِمْ فِي وَهْدَةِ نَدْمِهِمْ. قوله جل ذكره: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْمُتَلَبِّسُونَ﴾.

إِذَا اسْتَحْوَذَ الشَّيْطَانُ عَلَى عَبْدٍ أَنْسَاهُ ذِكْرَ اللَّهِ. وَالنَّفْسُ إِذَا اسْتَوْلَتْ عَلَى إِنْسَانٍ أَنْسَتْهُ اللَّهُ. ولقد خَسِرَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ، وَأَخْسَرُ مِنْهُ مَنْ أَعَانَ نَفْسَهُ - الَّتِي هِيَ أَعْدَى عَدُوِّهِ، إِلَّا بَأْنَ يَسْعَى فِي قَهْرِهَا لَعَلَّهُ يَنْجُو مِنْ شَرِّهَا. قوله جل ذكره: ﴿إِنَّهُ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ أُولَئِكَ فِي الْآذِلِينَ﴾. مَنْ أَرْمَتْهُ شَيْفَوْتُهُ لَمْ تُنْعِشْهُ قُوَّتُهُ، وَمَنْ قَصَمَهُ التَّقْدِيرُ لَمْ يَغْصِمِهِ التَّدْبِيرُ، وَمَنْ اسْتَهَانَ بِاللَّذِينَ انْخَرَطَ فِي سَبِيلِكِ الْآذِلِينَ.

(٢) الآية (١٧) لم ترد.

(١) الآية (١٣) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ .

الذي ليس له إلا التدبير . . كيف تكون له مقاومة مع التقدير؟

قوله جل ذكره: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرُسُلَهُ﴾ .

مَنْ جَنَحَ إِلَى مَنْحَرٍ عَنْ دِينِهِ، أَوْ دَاهَنَ مُبْتَدِعاً فِي عَهْدِهِ نَزَعَ اللَّهُ نُورَ التَّوْحِيدِ مِنْ قَلْبِهِ فَهُوَ فِي خِيَانَتِهِ جَائِزٌ عَلَى عَقِيدَتِهِ، وَسَيَذُوقُ قَرِيباً وَبَالَ أَمْرِهِ .

﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ .

خلق الله الإيمان في قلوب أوليائه وأثبتته، ويقال: جعل قلوبهم مُطَرَّرَةً بِاسْمِهِ .
وَأَغْرَزَ بِحُلَّةٍ لِأَسْرَارِ قَوْمٍ طَرَاَهَا اسْمُ «اللَّهِ» !!

سورة الحشر

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ عزيزٌ - الكونُ بجملته في طلبه .. وهو عزيز .
الشموسُ والأقمارُ والنجومُ، والليلُ والنهارُ، وجميع ما خَلَقَ اللَّهُ من الأعيان .
والآثارُ متناديةٌ على أنفُسِها: نحن عبيدُه .. نحن عبيدُ مَنْ لَمْ يَزَلْ .. نريد مَنْ لَمْ يَزَلْ .

قوله جل ذكره: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .
قَدُسَ اللهُ ونَزَهَهُ كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَهُ؛ فكلُّ ما خَلَقَهُ جَعَلَهُ على وحدانيته دليلاً، وَلِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ إلهيته طريقاً وسبيلاً .
أتقن كُلُّ شَيْءٍ وذلك دليلٌ عِلْمِهِ وحكمته، وَرَتَّبَ كُلُّ شَيْءٍ، وذلك شاهدٌ على مشيئته و(إرادته) .

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فلا شبيهه يساويه، ولا شريكٍ له في المُلْكِ يَنَازِعُهُ وَيُضَاهِيهِ .
﴿الْحَكِيمُ﴾ الحاكم الذي لا يُوجَدُ في حُكْمِهِ عَيْبٌ، ولا يتوجَّه عليه عَثْبٌ .
قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ .
هم أهل النضير، وكانوا قد عاهدوا النبي ﷺ ألا يكونوا عليه، ثم بعد أخذ نقضوا العَهْدَ، وباعوا أبا سفيان^(١) وأهل مكة، فأخبر الله تعالى رسوله بذلك، فبعث صلوات الله عليه إليهم محمد بن مسلمة^(٢)، فأوهم أنه يشكو من الرسول في أخذ

(١) هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف (٥٧ ق هـ - ٣١ هـ = ٥٦٧ - ٦٥٢ م) صحابي، من سادات قريش في الجاهلية . وهو والد معاوية رأس الدولة الأموية . كان من رؤساء المشركين في حرب الإسلام عند ظهوره . قاد قريشاً وكنانة يوم أحد والخندق لقتال رسول الله ﷺ، وأسلم يوم فتح مكة (٨ هـ) وأبلى بعد إسلامه البلاء الحسن، وشهد حنيناً والطائف . ففقت عينه يوم الطائف ثم فقت الأخرى يوم اليرموك فعمي . ولما توفي رسول الله ﷺ كان أبو سفيان عاملاً في نجران، ثم أتى الشام، وتوفي بالمدينة، وقيل: بالشام .

الأعلام ٢٠١/٣، والأغانى ٨٩/٦، والإصابة ٤٠٤١، وابن عساكر ٣٨٨/٦ .

(٢) هو محمد بن مسلمة الأوسي الأنصاري (٣٥ ق هـ - ٤٣ هـ = ٥٨٩ - ٦٦٣ م) الحارثي أبو عبد الرحمن، صحابي من الأمراء، من أهل المدينة، شهد بدرًا وما بعدها إلا غزوة تبوك . واستخلفه =

الصَّدَقَةَ. وكان رئيسهم كعب بن الأشرف^(١) فقتله محمد بن مسلمة (غيلة)، وغزاهم رسول الله ﷺ وأجلاهم عن حصونهم المنيعه وأخرجهم إلى الشام، وما كان المسلمون يَتَوَقَّعون الظَّفَر عليهم لكثرتهم، وَلِمَنَعَةِ حصونهم.

وظلُّوا يهدمون دورهم بأيديهم ينقبون ليخرجوا، ويقطعون أشجارهم ليسدوا النقب، فسُمُوا أول الحشر، لأنهم أول من أُخْرِجَ من جزيرة العرب وخُشِرَ إلى الشام.

قال جل ذكره: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَكَاؤِلِي الْأَبْصَارِ﴾.

كيف نَصَرَ المسلمين - مع قِلَّتِهِم - عليهم - مع كَثَرَتِهِم. وكيف لم تمنعهم حصونهم إذا كانت الدائرة عليهم. وإذا أراد الله قَهْرَ عَدُوٍّ استنوق^(٢) أسدُه.

ومن مواضع العبرة في ذلك ما قاله: ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾ بحيث داخلتمكم الرِّبِيَّةُ في ذلك لِقَرْطِ قُوَّتِهِم - فصَانَهُم بذلك عن الإعجاب.

ومن مواضع العبرة في ذلك أيضاً ما قاله ﴿وَلَطَّلُوا أَنَّهُمْ مَازِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ فلم يكن كما ظنُّوه - وَمَنْ تَقَوَّ بمخلوق أسلَّمَه ذلك إلى صَغَارِهِ^(٣) ومَذَلَّتِهِ.

ومن الدلائل الناطقة ما أَلْقِي في قلوبهم من الخوف والرُّعب، ثم تخريبهم بيوتهم بأيديهم علامة ضَعْف أحوالهم، وبأيدي المؤمنين لقوة أحوالهم، فتمت لهم الغلبة عليهم والاستيلاء على ديارهم وإجلاؤهم.

هذا كله لا بُدَّ أَنْ يحصل به الاعتبار - والاعتبارُ أخذُ قوانين الشَّرْع.

وَمَنْ لم يَغْتَبِرْ بغيره اعتَبِرَ به غيره.

= النبي ﷺ على المدينة في بعض غزواته، وولاه عمر على صدقات جهينة، واعتزل الفتنة في أيام علي فلم يشهد الجمل ولا صفين، وكان عند عمر مُعَدًّا لكشف أمور الولاية في البلاد مات بالمدينة.

الأعلام ٩٧/٧، والإصابة ٧٨٠٨، والبدء والتاريخ ١٢٠/٥، والكامل ٢/٣.

(١) هو كعب بن الأشرف الطائي (.... - ٣ هـ = ٦٢٤م) من بني نيهان، شاعر جاهلي. كانت أمه من «بني النضير» فدان باليهودية، وكان سيداً في أخواله. أدرك الإسلام ولم يُسلم، وأكثر من هجو النبي ﷺ وأصحابه، وتحريض القبائل عليهم وإيذائهم، والتشبيب بنسائهم، وخرج إلى مكة بعد وقعة «بدر» فندب قتلى قريش فيها، وحض على الأخذ بثأرهم، وعاد إلى المدينة. وأمر النبي ﷺ بقتله فانطلق إليه خمسة من الأنصار، فقتلوه في ظاهر حصنه، وحملوا رأسه في مخلاة إلى المدينة.

الأعلام ٢٢٥/٥، وإمتاع الأسماع ١٠٧/١ - ١٠٩، وابن الأثير ٥٣/٢، والطبري ٢/٣ والجمحي ٢٣٨.

(٢) استنوق: صار كالناقة في ذلها. (اللسان ٣٦٢/١٠ مادة: نوق).

(٣) الصَّغَار: الذل والضميم. (اللسان ٤٥٩/٤ مادة: صفر).

ويقال: يُخَرَّبُونَ بيوتهم بأيديهم، وقلوبهم باتباع شهوات نفوسهم، ودينهم بما يمزجونه به من البدع.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾.

لولا أن قضى الله عليهم أن يخرجوا لعذبهم الله بالقتل والاستئصال، ثم في الآخرة لهم عذاب النار.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

ذلك بأنهم خالفوا أمر الله. والمشاقة أن يتحول المرء إلى شق آخر.

فالعاصي إذا انتقل من المطيعين إلى العاصين فقد شاق الله، ولمن شاق الله عذاب النار.

قوله جل ذكره: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَرَكْتُمْهَا قَائِمَةً عَلَى أُسُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾.

الليئة: كل نوع من النخيل ما عدا العجوة^(١) والبرني^(٢).

لما أمر رسول الله ﷺ بقطع بعض نخيل بني النضير قالت اليهود: ما فائدة هذا؟!

فبقي المسلمون عن الجواب، فأنزل الله تعالى هذه الآية ليوضح أن ذلك بإذن الله.. فانقطع الكلام.

وفي هذا دليل على أن الشريعة غير معللة، وأن الأمر الشرعي إذا جاء بطل التعليل، وسكتت الألسنة عن المطالبة بـ «لِمَ؟» وخطور الاعتراض أو الاستقباح خروج عن حد العرفان. والشيوخ.

قالوا: مَنْ قال لأستاذه وشيخه: «لِمَ؟» لا يفلح. وكل مريد يكون لأمثال هذه الخواطر في قلبه جَوْلَان لا يجيء منه شيء. وَمَنْ لم يتجرّد قلبه من طلب التعليل، ولم يباشر حُسن الرضا بكل ما يجري واستحسان ما يبدو من الغيب لِسِرّه وقلبه - فليس من الله في شيء.

(١) العجوة: ضرب من أجود أنواع التمر بالمدينة أكبر من الصيحاني يضرب إلى السواد من غرس النبي ﷺ ونخلتها تسمى لينة. (اللسان ٣١/١٥ مادة: عجا).

(٢) البرني: ضرب من التمر أحمر مشرب بصفرة كثير اللحاء عذب الحلاوة. (اللسان ٥٠/١٣ مادة: برن).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا آفَاةَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

يريد بذلك أموال بني النضير، فقد كانت من جملة الفَيء لا من الغنيمة؛ فالفَيء ما صار إلى المسلمين من أموال الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل وركاب، وتدخل في جملة أموالهم إذا ماتوا وصاروا إلى بيت المال. والغنيمة ما كانت بقتال وإيجاف خيل وركاب. وقد خصَّ رسول الله ﷺ بأموال هؤلاء فقراء المهاجرين، واستأثر لنفسه بما شاء، فطابت نفوس الأنصار بذلك، وشكر الله لهم. ذلك لأن تحرر القلب من الأعواض والأملak صفة السادة والأكابر، ومن أسرته الأخطار وبقي في شح نفسه فهو في تضيقه وتدينقه، وهو في مصادقته ومعاملته ومطالبته مع الناس دائماً يبحث في استيفاء حظوظه - وهذا ليس له من مذاقات هذه الطريقة شيء.

وأهل الصفاء لم تبق عليهم من هذه الأشياء بقية، وأما من بقي عليه منها شيء فمترسماً^(١) سوقياً. لا متحقق صوفي.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

هذا أصل من أصول وجوب متابعتها، ولزوم طريقتها وسيرته - وفي العلم تفصيله.

والواجب على العبد عرض ما وقع له من الخواطر وما يكشف به من الأحوال على العلم - فما لا يقبله الكتاب والسنة فهو في ضلال^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِنَ اللَّهِ وَرِزْقاً وَينصرونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

يريد أن هذا الفَيء هؤلاء الفقراء الذين كانوا مقدار مائة رجل.

﴿يَبْتَغُونَ فَضلاً مِنَ اللَّهِ﴾ وهو الرزق ﴿وَرِزْقاً﴾ بالثواب في الآخرة.

وينصرون دين الله، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾: والفقير الصادق هو الذي يترك كل سبب وعلاقة، ويفرغ أوقاته لعبادة الله، ولا يعطف بقلبه على شيء سوى الله، ويقف مع الحق راضياً بجزئان حكمه فيه.

(١) القشيري يربط بين الصفاء والتصفوف. (انظر الرسالة القشيرية ص ٢٧٩ - ٢٨٣).

(٢) اللقاء بين الحقيقية والشريعة عنصر أساسي في مذهب القشيري. (انظر الرسالة ص ٨٢، ٨٣).

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْأَيْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحْجَبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَحْذَرُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

نزلت هذه الآية في الأنصار. ﴿تَبَوَّءُوا الدَّارَ﴾ أي سكنوا المدينة قبل المهاجرين. . . ﴿يُحْجَبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ من أهل مكة.

﴿وَلَا يَحْذَرُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾ مما خُصَّصَ به المهاجرون من الفيء، ولا يحسدونهم على ذلك، ولا يَغْتَرِضُونَ بقلوبهم على حُكْمِ الله بتخصيص المهاجرين، حتى لو كانت بهم حاجة أو اختلال أحوال.

﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

قيل نزلت الآية في رجلٍ منهم أُهْدِيَتْ له رأسُ شاةٍ فطاف على سبعة أبيات حتى انتهى إلى الأول.

وقيل نزلت في رجلٍ منهم نزل به ضيفٌ فقرب منه الطعام وأطفا السراج ليؤمهم ضيفه أنه يأكل، حتى يؤثر به الضيف على نفسه وعلى عياله، فأنزل الله الآية في شأنه.

ويقال: الكريمُ مَنْ بنى الدار لضيفانه وإخوانه (واللثيمُ من بناها لنفسه).

وقيل: لم يقل الله: وَمَنْ يَتَّقِ شُحَّ نَفْسِهِ بل قال: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾.

ويقال: صاحبُ الإيثارِ يؤثرُ الشبعانَ على نفسه - وهو جائع.

ويقال: مَنْ مَيَّزَ بين شخصٍ وشخصٍ فليس بصاحبِ إيثارٍ حتى يؤثر الجميع دون تمييز.

ويقال: الإيثار أن تَرَى أنَّ ما بأيدي الناسٍ لهم، وأن ما يحصل في يدك ليس إلا كالوديعة والأمانة عندك تنتظر الإذن فيها.

ويقال: مَنْ رأى لنفسه ملكاً فليس من أهل الإيثار.

ويقال: العابدُ يؤثرُ بدنياء غيره، والعارفُ يؤثرُ بالجنة غيره.

وعزيرٌ مَنْ لا يطلبُ مِنَ الحقِّ لِنَفْسِهِ شيئاً: لا في الدنيا من جاءه أو مالٍ، ولا في الجنة من الأفضال، ولا منه أيضاً ذرةٌ من الإقبال والوصال وغير ذلك من الأحوال.

وهكذا وصف الفقير؛ يكون بسقوط كلِّ أربٍ.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

أي والذين هاجروا من بعدهم، ثم أجيالُ المؤمنين من بعد هؤلاء إلى يوم القيامة. . . كلُّهم يَتَرَحَّمُونَ على السلف من المؤمنين الذين سبقوهم، ويسلكون طريق

الشفقة على جميع المسلمين، ويستغفرون لهم، ويستجيرون من الله أن يجعل لأحد من المسلمين في قلوبهم غلاً أي حقدًا. وَمَنْ لَا شَفَقَةَ لَهُ عَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ لَهُ نَصِيبٌ مِنَ الدِّينِ.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُظِيعَ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ لِمَن لَّكَذِبُونَ﴾.

يريد بهم منافقي المدينة؛ ظاهروا بني النضير وقريظة، وعاهدوهم على الموافقة بكل وجه، فأخبر الله - سبحانه - أنهم ليسوا كما قالوا وعاهدوا عليه، وأخبر أنهم لا يتناصرون، وأنهم يتخاذلون، ولئن ساعدوهم في بعض الحروب فإنهم يتخاذلون إن رأوهم ينهزمون أمام من يجاهدونهم^(١).

قوله جل ذكره: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

أخبر - سبحانه - أن المسلمين أشد رهبة في صدورهم من الله، وذلك لِقَلَّةِ يقينهم، وإعراض قلوبهم عن الله.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَقُولُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُّحَضَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَادٍ جُدِرَ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾.

أخبر أنهم لا يجسرون على مقاتلة المسلمين إلا مُحَاذَلَةً، أو من وراء جدران. وإنما يشتد بأسهم فيما بينهم، أي إذا حارب بعضهم بعضاً، فأما معكم.. فلا. ﴿مَحْشَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَقَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

اجتماع النفوس - مع تنافر القلوب واختلافها - أصل كل فساد، وموجب كل تخاذل، ومقتضى تجاسر العدو.

واتفاق القلوب؛ والاشتراك في الهمة؛ والتساوي في القصد يوجب كل ظفر وكل سعادة.. ولا يكون ذلك للأعداء قط؛ فليس فيهم إلا اختلال كل حال، وانتقاض كل شغل.

قوله جل ذكره: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُوا وِبَالٍ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. مثَلُ بني قريظة كمثَل بني النضير؛ ذاق النضير وِبَالَ أَمْرِهِمْ قبل قريظة بِسَنَةٍ؛ وذاق قريظة بَعْدَهُمْ وِبَالَ أَمْرِهِمْ.

(١) الآية (١٢) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَلِ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَنِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ .

أي مثل هؤلاء المنافقين مع النصير - في وغدهم بعضهم لبعض بالتناصر ﴿كَذَلِ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَنِ﴾ .

وكذلك أرباب الفترة وأصحاب الزلة وأصحاب الدعاوى .. هؤلاء كلهم في درجة واحدة في هذا الباب - وإن كان بينهم تفاوت - لا تنفع صُحْبَتُهُمْ في الله؛ قال تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] وكلُّ أحدٍ - اليوم - يألف شكله؛ فصاحب الدعوى إلى صاحب الدعوى، وصاحب المعنى إلى صاحب المعنى^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ .

التقوى الأولى على ذكر العقوبة في الحال والفكر في العمل خيره وشره^(٢) .

والتقوى الثانية تقوى المراقبة والمحاسبة، ومن لا محاسبة له في أعماله ولا مراقبة له في أحواله .. فعن قريب سيفتضح^(٣) .

وعلاوة من نَظَرَ لِغَدِهِ أَنْ يُحْسِنَ مِرَاعَةَ يَوْمِهِ؛ ولا يكون كذلك إلا إذا فَكَّرَ فيما عَمِلَهُ في أمسه والناس في هذا على أقسام: مُفَكِّرٌ في أمسه؛ ما الذي قَسِمَ له في الأزل؟ وآخر مفكر في غده؛ ما الذي يلقاه؟؟ وثالث مُسْتَقِيلٌ بوقته فيما يلزمه في هذا الوقت فهو مُضْطَلَمٌ عن شاهده موصول بربه، مُنْذَرَجٌ في مذكوره؛ لا يتطلع لماضيه ولا لمستقبله، فتوقيت الوقت يشغله عن وقته^(٤) .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ .

تركوا طاعته فتركهم في العذاب؛ وهو الخذلان حتى لم يتوبوا ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ .

(١) الآية (١٧) لم ترد.

(٢) انظر الرسالة القشيرية ص ٦٩ (الغية والحضور).

(٣) انظر حديث القشيري عن المراقبة بالرسالة القشيرية ص ١٨٩ ، ١٩٢ .

(٤) قال القشيري برسالته عند حديثه عن الوقت: يقولون: الصوفي ابن وقته، يريدون بذلك أنه مشغول بما هو أولى به في الحال، قائم بما هو مطالب به في الحين، ويقولون: فلان بحكم الوقت أي أنه مستسلم بما يبدو له من الغيب من غير اختيار له. ومن ساعده الوقت فالوقت له وقت. ومن ناكده الوقت فالوقت عليه مقت. (الرسالة القشيرية ص ٥٥، ٥٦).

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾.

لا يستوي أهل الغفلة مع أهل الوصلة.

وأصل كل آفة نسيان الرب، ولولا النسيان لما حصل العصيان، والذي نسي أمر نفسه فهو الذي لا يجتهد في تحصيل توبته، ويُسوف فيما يلزمه به الوقت من طاعته.

قوله جل ذكره: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَا خَشْيَةً مِّنْ خَشْيَةٍ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي لو كان للجبل عقلٌ وصلاح ففكر وسر، وأنزلنا عليه هذا القرآن لخضع وخشع. ويجوز أن يكون على جهة ضرب المثل كما قال: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠] ويدل عليه أيضاً قوله.

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾: ليعقلوا ويهتدوا، أي بذلك أمرناهم، والمقصود بيان قسوة قلوبهم عند سماع القرآن.

ويقال: ليس هذا الخطاب على وجه العتاب معهم، بل هو على سبيل المدح وبيان تخصيصه إياهم بالقوة؛ فقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾ لم يُطِقْ ولخشع - وهؤلاء خصصتهم بهذه القوة حتى أطاقوا سماع خطابي.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿الْغَيْبُ﴾: ما لا يُعرف بالضرورة، ولا يُعرف بالقياس من المعلومات. ويقال: هو ما استأثر الحق بعلمه، ولم يجعل لأحد سبيلاً إليه.

﴿وَالشَّهَادَةُ﴾: ما يعرفه الخلق.

وفي الجملة: لا يغزب عن علمه معلوم.

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿الْمَلِكُ﴾: ذو القدرة على الإيجاد.

﴿الْقُدُّوسُ﴾: المنزه عن الآفة والنقص.

﴿السَّلَامُ﴾: ذو السلامة من النقائص، الذي يُسلم على أوليائه، والذي سلم المؤمنون من عذابه.

﴿الْمُؤْمِنُ﴾: الذي يصدق عبده في توحيده فيقول له: صدقت يا عبيدي.

والذي يُصَدِّق نفسه في إخباره أي يعلم أنه صادق .
ويكون بمعنى المصدق لوعده . ويكون بمعنى المخبر لعباده بأنه يؤمنهم من عقوبته .

﴿الْمُهَيِّئُ﴾ : الشاهد، وبمعنى الأمين، ويقال مؤيمن (مُفَيِّل) من الأمن قلبت همزته هاء وهو من الأمان، ويقال بمعنى المؤمنين .

﴿الْمُزِيلُ﴾ : الغالب الذي لا يُغْلَب، والذي لا مثيل له، والمستحق لأوصاف الجلال، وبمعنى : المُعَزِّ لِعِبَادِهِ . وَالْمَنِّعُ الذي لا يَقْدِرُ عليه أحد .

﴿الْجَبَّارُ﴾ : الذي لا تصل إليه الأيدي . أو بمعنى المُضْلِح لأمورهم من : جَبَرَ الكَسَرَ . أو بمعنى القادر على تحصيل مراده مِنْ خَلَقِهِ على الوجه الذي يريده من : جَبَرْتُهُ على الأمر وأجبرته .

﴿الْمُنَكِّرُ﴾ : المتقدِّس عن الآفات .

قوله جل ذكره : ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

هو المنشئ للأعيان والآثار .

﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ : الْمُسَمَّياتِ الْحَسَنَاتِ .

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ : مضى معناهما، وقد استقصينا الكلام في معاني هذه الأسماء (في كتابنا المسمَّى : «البيان والأدلة في معاني أسماء الله تعالى»).

سورة الممتحنة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسم ملك لا أصل لملكه عند حدث ولا نسل له، فعنه يرث. ملك لا يستظهر بجيش وعدد، ولا يتعزذ بقوم وعدد. ملك للخلق بأجمعهم - لكنه اختار قوماً - لا لينفع بهم - بل لينفعهم، ورد آخرين وأذلهم بمنعهم ووضعهم:

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَآيَةٍ مَرْضَانِي﴾.

قال ﷺ: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»^(١) وأوحى الله سبحانه إلى داود عليه السلام: «عاد نفسك فليس لي في المملكة منازع غيرها». فمن عادى نفسه فقد قام بحق الله، ومن لم يعاد نفسه لحقته هذه الوصمة^(٢). وأصل الإيمان الموالاة والمعاداة في الله ومن جَنَحَ إلى الكفار أو إلى الخارجين عن دائرة الإسلام انحاز إلى جانبهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

أنا أعلم ﴿بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾ من دقائق التصنع وخفيات الرياء.

﴿وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ من التزئ للناس.

﴿بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾ من الاستسار بالزلة، ﴿وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾، من الطاعة والبر.

﴿بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾ من الخيانة ﴿وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ من الأمانة.

(١) أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٢٠٦/٧، ٣٣/٩)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٤/٣).

قال القشيري في رسالته عند حديثه عن النفس: ليس المراد من إطلاق لفظ النفس الوجود ولا القلب الموضوع، إنما أرادوا بالنفس ما كان معلولاً من أوصاف العبد، ومذموماً من أخلاقه وأفعاله. (الرسالة القشيرية ص ٨٦، ٨٧).

(٢) الوصمة: العيب والعار.

﴿يَمَّا أَخَفَّتُمْ﴾ من الغُلِّ والغِشِّ للناس، ﴿وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ من الفضيحة للناس.
 ﴿يَمَّا أَخَفَّتُمْ﴾ من ارتكاب المحظورات، ﴿وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ من الأمر المعروف.
 ﴿يَمَّا أَخَفَّتُمْ﴾ من ترك الحشمة مني وقلة المبالاة بأطلاعي، وما أعلنتم من تعليم الناس ووعظهم.
 ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ فقد حاد عن طريق الدين، ووقع في الكفر.

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ يَتَفَقَّهْتُمْ بِكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءُ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾.

إِنْ يَظْفَرُوا بِكُمْ وصادفوكم يكونوا لكم أعداء، ولن تسلموا من أيديهم بالسوء ولا من ألسنتهم بالذم وذكر القبيح.
 ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾: ولن ينفعكم تؤذوكم وتقرّبكم إليهم، ولا ما بينكم وبينهم من الأرحام. ثم عقوبة الآخرة تذكركم.

وكذلك صفة المخالفة، ولا ينبغي للمرء أن يتعطش إلى عشيرته - وإن داهنته في قاله، ولا أن ينخدع بتغيرها - وإن لا يثبت في حالة.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

أي لكم قُدوةٌ حسنة بإبراهيم ومَنْ قبله من الأنبياء حيث تبرؤوا من الكفار من أقوامهم؛ فافتدوا بهم.. إلا استغفار إبراهيم لأبيه - وهو كافر - فلا تقتدوا به.
 وَلَا تَسْتَغْفِرُوا لِلْكَفَارِ. وكان إبراهيم قد وعده أبوه أنه يؤمن فلذلك كان يستغفر له، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ تَبَرَّأَ مِنْهُ.

ويقال: كان منافقاً.. ولم يعلم إبراهيم ذلك وقت استغفاره له.

ويقال: يجوز أنه لم يعلم في ذلك الوقت أن الله لا يغفر للكفار.

والفائدة في هذه الآية تخفيف الأمر على قلب الرسول ﷺ والمؤمنين بتعريفهم أن مَنْ كانوا قبلهم حين كذبوا بأنبيائهم أهلهم الله، وأنهم صبروا، وأنه ينبغي لذلك أن يكون بالصبر أمرهم.

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

أخبر أنهم قالوا ذلك.

ويصح أن يكون معناه: قولوا: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾.

وقد مضى القول في معنى التوكل والإنابة.

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

رَبَّنَا لَا تُظْفِرْهُمْ بِنَا، وَلَا تُقَوِّمَهُمْ عَلَيْنَا.

والإشارة في الآية: إلى الأمر بِسُنَّةِ إِبْرَاهِيمَ فِي السَّخَاءِ وَخُسْنِ الْخُلُقِ وَالْإِخْلَاصِ وَالصَّدْقِ وَالصَّبْرِ وَكُلِّ خُصْلَةٍ لَهُ ذَكَرَهَا لَنَا^(١).

قوله جل ذكره: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَادَبْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ رَحِيمٌ﴾.

وقفهم في مقتضى قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ﴾ عند حد التجويز... لا حُكْمًا بِالْقَطْعِ، وَلَا دَفْعَ قَلْبٍ بِالْيَأْسِ.. ثم أَمَرَهُم بِالْاِقْتِصَادِ فِي الْعِدَاوَةِ وَالْوَلَايَةِ مَعَهُمْ بِقُلُوبِهِمْ، وَعَرَفَهُمْ بِوُقُوعِ الْأَمْرِ حَسَبَ تَقْدِيرِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَجَزَّيَانِ كُلِّ شَيْءٍ عَلَى مَا يَرِيدُ لَهُمْ، وَصَدَّقَ هَذِهِ التَّرْجِيَةَ بِإِيمَانٍ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ عِنْدَ فَتْحِ مَكَّةَ، وَكَيْفَ أَسْلَمَ كَثِيرُونَ، وَحَصَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مَوَدَّةٌ أَكِيدَةُ.

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَلَمُوا عَلَىٰ إِمْرَأَتِكُمْ أَنْ تَتَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

أَمَرَهُمْ بِشِدَّةِ الْعِدَاوَةِ مَعَ أَعْدَائِهِمْ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَفْعَلُونَهُ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ فِيهِمْ ذَا خُلُقٍ حَسَنٍ، أَوْ كَانَ مِنْهُ لِلْمُسْلِمِينَ وَجْهٌ نَفْعٌ أَوْ رِفْقٌ - فَقَدْ أَمَرَهُم بِالْمَلَايَنَةِ مَعَهُ. وَالْمَوْلَفَةُ قُلُوبِهِمْ^(٢) شاهدٌ لهذه الجملة، «فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ»^(٣).

(١) الآية (٦) لم ترد.

(٢) المؤلفَةُ قُلُوبِهِمْ: قوم من سادات العرب أمر الله تعالى نبيه ﷺ في أول الإسلام بتألفهم أي بمقاربتهم وإعطائهم ليرغبوا من وراءهم في الإسلام فلا تحملهم الحمية مع ضعف نياتهم على أن يكونوا إلباً مع الكفار على المسلمين، وقد نقلهم النبي ﷺ يوم حنين بمائتين من الإبل تألفاً لهم. منهم الأقرع بن حابس والعباس بن مرداس وغيرهما. (لسان العرب ١١/٩ مادة: ألف).

(٣) أخرجه البخاري في (الصحيح ١٤/٨، ٧١، ١٠٤)، ومسلم في (الصحيح (السلام ١٠)، والترمذي في (السنن ٢٧٧١)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٣٦/٦، ٣٧، ٨٥، ١٩٩)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٢٠٣/٩) والدارمي في (السنن ٣٢٣/٢)، والطبراني في (المعجم الكبير ١٠/٢٨)، والهيثمي في (مجمع الزوائد ١٩/١٩)، وابن حجر في (فتح الباري ٤٤٩/١٠، ٤١/١١، ١٩٤)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٥١٩٤) والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٣٣٣)، والخطيب البغدادي =

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ إِنَّهُ أَكْثَرُ عِلْمٍ بِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۚ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۚ﴾ .

كان النبي ﷺ يمتحنهن باليمين، فَيَخْلِفْنَ إِنْهَن لَمْ يَخْرُجْنَ إِلَّا لِلَّهِ، وَلَمْ يَخْرُجْنَ مَغَاطِلَةً لِأَزْوَاجِهِنَّ، وَلَمْ يَخْرُجْنَ طَمَعًا فِي مَالٍ .

وفي الجملة: الامتحان طريق إلى المعرفة، وجواهرُ الناس تبيّن بالتجربة . وَمَنْ أَقْدَمَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ غَيْرِ تَجْرِبَةٍ تَحْسَى كَأَسَ النَّدَمِ .

﴿وَلَا تُنْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُفَّارِ﴾ .

لا توافقوا مَنْ خَالَفَ الْحَقَّ فِي قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ ^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ قَبَائِعُهُنَّ وَاسْتَغْفِرَ لهنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ۚ﴾ .

إذا جاءك النساء يبايعنك على الإسلام فطالبنهن وشارطنهن بهذه الأشياء :

تَرْكُ الشُّرْكِ، وترك السرقة والزنا وقتل الأولاد والافتراء في إلحاق النِّسْبِ، وألا يعصينك في معروف؛ فلا يخالفنك فيما تأمرهن به، ويدخل في ذلك تَرْكُ النِّيَاحَةِ وشقّ الجيوب ونثف الشَّعْرِ عند المصيبة وتخميم ^(٢) الوجوه والتبرُّج ^(٣) وإظهار الزينة . . وغير ذلك مما هو من شعائر الدين في الجملة .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ۚ﴾ .

الذين غضب الله عليهم هم الكفار . يشسوا من الآخرة كما يشس أصحاب القبور أن يعودوا إلى الدنيا ويُبْعَثُوا (بعد ما تبينوا سوء منقلبهم) .

ويقال : كما يشس الكفار حين اعتقدوا أن الخلق لا يُبْعَثُونَ في القيامة .

= في (تاريخ بغداد ١٠/٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/٤٥، ١٦٤)، والبغوي في (شرح السنة ٧٣/١٣) وعبد الرزاق في (المصنف ٩٨٣٩، ١٩٤٦٠)، وابن عساكر في (تهذيب تاريخ دمشق ٢٦/٢) والبخاري في (التاريخ الكبير ٨٤/٤)، والبخاري في (الأدب المفرد ٤٦٢)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء ٦/٣٥٠) .

(١) الآية (١١) لم ترد .

(٢) الخمش: الخدش يظهر في الوجه وغيره (ج) خموش .

(٣) التبرج: إظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال . (اللسان ٢/٢١٢ مادة: برج) .

سورة الصف

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة مَنْ وقفه الله لعرفانها لم يَضْبِرْ عن ذكرها بلسانه ثم لا يفتر حتى يصل إلى المُسَمَّى بها بِجَنَانِهِ: في البداية بتأمل برهانه لمعرفة سلطانه، ثم لا يزال يزيده في إحسانه حتى ينتهي في شأنه بالتحقق مما هو كَيَانُهُ.

قوله جل ذكره: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

مَنْ أراد أن يصفو له تسييحه فليُصِفْ قلبه من آثار نفسه، وَمَنْ أراد أن يصفو له في الجنة عيشه فليُصِفْ من أوضار^(١) ذنبه نفسه.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

جاء في التفاسير أنهم قالوا: لو عَلِمْنَا ما فيه رضا الله لَفَعَلْنَا ولو فيه كل جهد.. ثم لَمَّا كان يومُ أُحُدٍ لم يثبتوا، فتزلت هذه الآية في العتاب.

وفي الجملة: خلف الوعد مع كلٍّ أَحَدٍ قبيح، ومع الله أقبح.

ويقال إظهارُ التجلُّد من غير شهود مواضع الفقر إلى الحق في كلِّ نفسٍ يؤذِنُ بالبقاء عمَّا حصل بالدعوى.. والله يحب التبرِّي من الحول والقوة.

ويقال: لم يتوَعَّد - سبحانه - زَلَّةً بِمِثْلِ ما على هذا حين قال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بَيْنَينَ مَرْصُوصٍ﴾.

المحبةُ توجبُ الإثارة، وتقديم مُرَادٍ حبيبك على مُرَادِ نَفْسِكَ، وتقديم محبوب حبيبك على محبوب نَفْسِكَ. فإذا كان الحقُّ تعالى يحبُّ من العبد أن يُقاتِلَ على الوجه الذي ذكره فَمَنْ لم يُؤَيِّزْ محبوب الله على محبوب نفسه - أي

(١) الأوضار: (ج) الوضر: الوسخ من الدسم أو غيره.

على سلامته - انسلخ من محبته لربه، ومن خلا من محبة الله وَقَعَ فِي الشَّقِّ الْآخِرَ، فِي خُسْرَانِهِ .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوِّمُ لِمَ تُوذُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ .

لَمَّا زَاغُوا بِتَرْكِ الْحَدِّ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِنَقْضِ الْعَهْدِ .

ويقال: لَمَّا زَاغُوا عَنْ طَرِيقِ الرُّشْدِ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِالصَّدِّ وَالرَّدِّ وَالْبُعْدِ عَنِ الْوُدِّ .

ويقال: لَمَّا زَاغُوا بِظَوَاهِرِهِمْ أَزَاغَ اللَّهُ سَرَائِرَهُمْ .

ويقال: لَمَّا زَاغُوا عَنْ خِدْمَةِ الْبَابِ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عَنِ التَّشَوُّقِ إِلَى الْبَسَاطِ .

ويقال: لَمَّا زَاغُوا عَنِ الْعِبَادَةِ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عَنِ الْإِرَادَةِ .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ .

بَشَّرَ كُلَّ نَبِيٍّ قَوْمَهُ بِنَبِيِّنَا ﷺ، وَأَفْرَدَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - عِيسَى بِالذِّكْرِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ لِأَنَّهُ آخِرُ نَبِيٍّ قَبْلَ نَبِيِّنَا ﷺ: فَبَيَّنَ بِذَلِكَ أَنَّ الْبَشَارَةَ بِهِ عَمَّتْ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ حَتَّى انْتَهَتْ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ (١) .

قوله جل ذكره: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ .

فَمَنْ احْتَالَ لَوَهْنَهُ، أَوْ رَامَ وَهْيَهُ انْعَكَسَ عَلَيْهِ كَيْدُهُ، وَانْتَقَضَ عَلَيْهِ تَدْبِيرُهُ .

﴿وَيَأْتِيكَ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُسَيِّرَ نُورُكَ﴾: كَمَا قَالُوا:

وَاللَّهُ سَيَّرَ فِي غُلَاةٍ وَإِنَّمَا كَلَامُ الْعِدَى ضَرْبٌ مِنَ الْهَذْيَانِ

كَأَنَّهُ قَالَ: مَنْ تَمَنَّى أَنْ يُطْفِئَ نُورَ الْإِسْلَامِ بِكَيْدِهِ كَمَنْ يَحْتَالَ وَيَزَاوِلُ إِطْفَاءَ شِعَاعِ الشَّمْسِ بَنَفْثِهِ وَتَفْخِجِهِ فِيهِ - وَذَلِكَ مِنَ الْمُحَالِ .

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ .

لَمَّا تَقَاعَدَ قَوْمُهُ عَنْ نَصْرَتِهِ، وَانْبَرَى أَعْدَاؤُهُ لَتَكْذِيبِهِ، وَجَحَدُوا مَا شَاهَدُوهُ مِنْ صِدْقِهِ قَبِضَ اللَّهُ لَهُ أَنْصَارًا مِنْ أُمَّتِهِ هُمْ: نَزَاغُ الْقَبَائِلِ، وَالْأَحَادُ الْأَفَاضِلِ، وَالسَّادَاتُ الْأَمَائِلِ، وَأَفْرَادُ الْمَنَاقِبِ - فَبَذَلُوا فِي إِعَانَتِهِ وَنَصْرَةِ دِينِهِ مُهَجَّهُمْ، وَلَمْ يُؤْثِرُوا عَلَيْهِ شَيْئًا مِنْ كِرَائِمِهِمْ، وَوَقَوْهُ بِأَرْوَاحِهِمْ، وَأَمَدَّهُمْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِتَوْفِيقِهِ كَيْ يَنْصُرُوا

(١) الآية (٧) لم ترد.

دينه، أولئك أقوامٌ عَجَزَ اللهُ بَما السَّعادة طيبتهم، وَخَلَقَ من نور التوحيد أرواحهم وأهلهم يومَ القيامة للسيادة على أضرابهم.

ولقد أرسل اللهُ نبيَّه لدينه مُوضِّحاً، وبالحقِّ مُفصِّحاً، ولتوحيدِهِ مُغْلِناً، ولجهده في الدعاء إليه مستفِرِغاً. . فافترَعَ بِنُضْجِهِ قلوباً تُكْرَأُ، وببَصَرِ بنور تبليغه عيوناً عُمياً.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَىٰ مَعْرَفَةِ نَجِيَّتِكُمْ مِنْ عَذَابِ إِلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

سمَّى الإيمانَ والجهادَ تجارةً لِمَا في التجارة من الرِّبح والخسران ونوع تكسُّبٍ من التاجر - وكذلك: في الإيمان والجهاد رِبْحُ الجَنَّةِ وفي ذلك يجتهد العبد، وخسرانها إذا كان الأمرُ بالضدِّ.

وقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أي في ذلك جهادكم وإيمانكم واجتهدواكم، وهو خيرٌ لكم.

ثم بيَّن الرِّبْحَ على تلك التجارة ما هو فقال:

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

قدَّم ذِكْرَ أَهمِّ الأشياء - وهو المغفرة. ثم إذا فرغَت القلوبُ عن العقوبة قال:

﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ﴾ فبعد ما ذَكَرَ الجَنَّةَ ونعيمَها قال: ﴿وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ﴾، وبماذا تطيب تلك المساكن؟ لا تطيب إلا برؤية الحقِّ سبحانه، ولذلك قالوا:

أجيراننا ما أوحش الدارَ بعدكم إذا غبثتموها ونحنُ حضورٌ
نحنُ في أكمل السرورِ ولكن ليس إلا بكم يتمُّ السرورُ
عيبُ ما نحنُ فيه يا أهلَ وُدِّي أنكم عُيِّبَ ونحنُ حضورٌ

قوله جل ذكره: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُتَّقِينَ﴾ .

أي ولكم نعمة أخرى تحبونها: نصرٌ من الله؛ اليومَ حَفِظَ الإيمانَ وتثبيتُ الأقدام على صراط الاستقامة، وغداً على صراط القيامة.

﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾: الرؤية والزلفة. ويقال الشهود. ويقال: الوجود أبد الأبد.

﴿وَبَشِيرٌ الْمُتَّقِينَ﴾: بأنهم لا يبقون عنك في هذا التواصل.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَصْأَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ

أَنْصَارِيٍّ إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَامْنَتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتَ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٠﴾

أي كونوا أنصاراً لدينه ورسوله كما أن عيسى لما استعان واستنصر الحواريين نصره . فأنصروا محمداً إذا استنصركم .

ثم أخبر أن طائفة من بني إسرائيل آمنوا بعيسى فأكرموا، وطائفة كفروا فأذلوا، وأظفر أوليائه على أعدائه . . لكي يعرف الرسول ﷺ أن الله سبحانه يُظْفِرُ أوليائه على أعدائه .

سورة الجمعة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسم عزيز إذا تجلّى لقلب عبّد بوصف جماله تجمعت أفكاره على بساط جوده فلم يتفرّق بسواه^(١).

ومن تجلّى لبيّره بنعت جلاله اندرجت جملته، واستهلّك في وجوده فلم يشعر بكرائم دُنياه ولا بعظائم عُقباه.

وكم له من إنعام! وكم له من إحسان! وكم في أمثالهم: «جرى الوادي فطمّ على القرّي»^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

تَسَبَّحَ في بحار توحيد الحق أسرار أهل التحقيق، وبخروهم بلا شاطيء؛ فبعد ما حصلوا فيها فلا خروج ولا براح، فحازت أيديهم جواهر التفريد فرصعوها في تاج العرفان كي يلبسوه يوم اللقاء.

﴿الَّذِي الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْمُكَرِّمُ﴾.

﴿الَّذِي﴾: الملك المتفرد باستحقاق الجبروت.

﴿الْقُدُّوسُ﴾: المنزّه عن الدرك والوصول: فليس بيد الخلق إلا عرفان الحقائق بنعت التعالي، والتأمل في شهود أفعاله، فأما الوقوف على حقيقة أثّته - فقد جَلَّتْ الصمدية عن إشراف عليه، أو طمع إدراك في حال رؤيته، أو جواز إحاطة في العلم به.. فليس إلا قالة بلسان مُسْتَطَقٍّ، وحالة بشهود حق مستغرق.

وقُلْنِ لَنَا: نحن الأهلة إنما نُضيء لمن يسري بليل ولا نُقرّي

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَيِّنَ صَلِيلٍ مُبِينٍ﴾.

(١) انظر حديث الجمع والفرق للقسيري برسالته ص ٦٤، ٦٧.

(٢) القرّي: مجرى الماء في الروض (ج) أقرية وقریان. (اللسان ١٧٩/١٥ مادة: قرأ).

جرّده عن كلِّ تكليفٍ لتعلّم، وعن الاتصافِ بتطلّب. ثمّ بعثه فيهم وأظهر عليه من الأوصاف ما فاق الجميع.

فكما ائتمّه في الابتداء عن أبيه وأمه، ثم آواه بلطفه - وكان ذلك أبلغ وأتمّ - فإنه كذلك أفرده عن تكليفه العلم - ولكن قال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

وقال: ﴿مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا أَلِكْتُبُ وَلَا أَلِإِيْمُنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوْرًا﴾ [الشورى: ٥٢] ألْبسه لباسَ العِزّة، وتوجّه بتاج الكرامة، وخلّع عليه حُسن التوليّ. لتكون آثارُ البشرية عنه مندرجة، وأنوارُ الحقائق عليه لائحة.

﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

أي بعثه في الأميين، وفي آخرين منهم وهم العجم، ومن يأتي... إلى يوم القيامة؛ فهو ﷺ مبعوثٌ إلى الناس كافة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

يقصد به هنا النبوة، يؤتيها ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾؛ وفي ذلك ردٌّ على مَنْ قال: إنها تُستحقُّ لكثرة طاعة الرسول - وردّ على مَنْ قال: إنها لتخصيصهم بطيئتهم؛ فالفضل ما لا يكون مُستحقّاً، والاستحقاق قَرَضٌ لا فضل.

ويقال: ﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾ هنا هو التوفيق حتى يؤمنوا به.

ويقال: هو الأُنْس بالله، والعبدُ يَنْسَى كلَّ شيءٍ إذا وَجَدَ الأُنْسَ.

ويقال: قَطَعَ الأسباب، - بالجملة - في استحقاق الفضل، إذ أحاله على المشيئة.

قوله جلّ ذكره: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَاثِتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾: ثم لم يعملوا بها.

ويُلْحَقُ بهؤلاء في الوعيد - من حيث الإشارة - الموسومون بالتقليد في أي معنى شئت: في علم الأصول، ومما طريقه أدلّة العقول، وفي هذه الطريقة ممّا طريقه المنازلات.

قوله جلّ ذكره: ﴿قُلْ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا يَسْتَوِنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

هذا من جملة معجزاته ﷺ، فَصَرَفَ قلوبهم عن تمني الموتِ إلى هذه المدة دَلَّ على صِدْقِهِ صلوات الله عليه.

ويقال: من علامات المحبة الاشتياقُ إلى المحبوب؛ فإذا كان لا يَصِلُ إلى لقائه

إلا بالموتِ فتمتبه - لا محالة - شرطاً، فأخبر أنهم لا يتمنونه أبداً.. وكان كما أخبر.
قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّزِ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

الموت حتمٌ مَقْضِيٌّ. وفي الخبر: «مَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»^(١). والموت جِسْرٌ والمقصود عند الله.. وَمَنْ لَمْ يَعِشْ عَفِيفاً فَلَيْمَتْ ظَرْفياً.
قوله جل ذكره: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أَوْجَبَ السَّغْيَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِذَا نُودِيَ لَهَا، وَأَمَرَ بِتَرْكِ الْبَيْعِ.
ومنهم من يحمله على الظاهر؛ أي ترك المعاملة مع الخلق، ومنهم من يحمله عليه وعلى معنى آخر: هو ترك الاشتغال بملاحظة الأعراض، والتناسي عن جميع الأغراض إلا معانقة الأمر؛ فمنهم مَنْ يسعى إلى ذكر الله، ومنهم من يسعى إلى الله، بل يسعون إلى ذكر الله جَهْراً بَجَهْرٍ، ويسعون إلى الله تعالى سِرّاً بِسِرٍّ.
قوله جل ذكره: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَبِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

إنما ينصرف مَنْ كَانَ لَهُ جَمْعٌ يرجع إليه، أو شغل يقصده ويشغل به - ولكن.. مَنْ لَا شُغْلَ لَهُ وَلَا مَأْوَى.. فإلى أين يرجع؟ وإنما يقال: ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ إذا كَانَ لَهُ أَرْبٌ.. فأما مَنْ سَكَنَ عن المطالبات، وكُفِيَ دَاءَ الطَّلَبِ.. فما لَهُ وابتغاء ما ليس يريده ولا هو في رِقَّة؟!

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِو وَمِنَ النَّجْوَى وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

مَنْ أَسْرَتْهُ أخطارُ الأشياء استجاب لكلِّ دَاعٍ جَرَّهَ إِلَيْهِ لَهُوَ أَوْ حَمَلَهُ عَلَيْهِ سَهْوٌ وَمَنْ مَلَكَه سلطانُ الحقيقة لم ينحرف عن الحضور، ولم يلتفت في حال الشهود. ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِو وَمِنَ النَّجْوَى﴾ وما عند الله للعباد والزهاد - غداً - خيرٌ مما نالوه في الدنيا نقداً. وما عند الله للعارفين - نقداً - من واردات القلوب وبواده^(٢) الحقيقة خيرٌ مما يُؤْمَلُ المستأنف في الدنيا والعقبى.

(١) أخرجه البخاري (رقاق ٤١)، ومسلم (ذكر ١٤ - ١٨)، والترمذي (زهد، ٦)، والنسائي (جنانز ١٠)، وابن ماجه (زهد ٣١)، والدارمي (رقاق ٤٣)، وأحمد بن حنبل ٤٢٠/٢، ١٠٧/٣، ١٠٧/٤، ٢٥٩، ٣١٦/٥، ٣٢١، ٤٥، ٤٤/٦، ٢٠٧، ٢١٨، ٢٣٦.

(٢) انظر حديث القشيري عن البوادة والهجوم بالرسالة القشيرية ص ٧٨.

سورة المنافقون

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسم مَنْ تَحَقَّقَ بِهِ صَدَقَ فِي أَقْوَالِهِ، ثُمَّ صَدَقَ فِي أَعْمَالِهِ، ثُمَّ صَدَقَ فِي أَخْلَاقِهِ ثُمَّ صَدَقَ فِي أَحْوَالِهِ، ثُمَّ صَدَقَ فِي أَنْفَاسِهِ.. فَصِدْقُهُ فِي الْقَوْلِ أَلَا يَقُولُ إِلَّا عَنْ بَرَهَانٍ، وَصِدْقُهُ فِي الْعَمَلِ أَلَا يَكُونُ لِلْبِدْعَةِ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ، وَصِدْقُهُ فِي الْأَخْلَاقِ أَلَا يُلَاحِظُ إِحْسَانَهُ مَعَ الْكَافَّةِ بَعِينَ النِّقْصَانِ، وَصِدْقُهُ فِي الْأَحْوَالِ أَنْ يَكُونَ عَلَى كَشْفٍ وَبَيَانٍ، وَصِدْقُهُ فِي الْأَنْفَاسِ أَلَا يَتَنَفَّسُ إِلَّا عَلَى وَجُودِ كَالْعَيَانِ.

قوله جل ذكره: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.

كَذَّبَهُمْ فِيمَا قَالُوا وَأُظْهِرُوا، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَشْهَدُوا عَنْ بَضِيْرَةٍ وَلَمْ يَعْتَقِدُوا تَصْدِيْقَكَ، فَهُمْ لَمْ يَكْذِبُوا فِي الشَّهَادَةِ وَلَكِنْ كَذَّبَهُمْ فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّهُمْ مُخْلِصُونَ لَكَ، مُصَدِّقُونَ لَكَ. فَصِدْقُ الْقَالَةِ لَا يَنْفَعُ مَعَ قُبْحِ الْحَالَةِ.

وَيَقَالُ: الْإِيمَانُ مَا يُوْجِبُ الْأَمَانَ؛ فَالْإِيمَانُ يُوْجِبُ لِلْمُؤْمِنِ إِذَا كَانَ عَاصِيًا خِلَاصَهُ مِنَ الْعَذَابِ أَكْثَرَهُ وَأَقْلَهُ.. إِلَّا مَا يَنْقُلُهُ مِنْ أَعْلَى جَهَنَّمَ إِلَى أَسْفَلِهَا.

قوله جل ذكره: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. تَسْتَرُّوْا بِأَقْرَارِهِمْ، وَتَكْشِفُوْا بِنِفَاقِهِمْ عَنْ أَسْتَارِهِمْ فَافْتَضَحُوا، وَذَاقُوا وَبَالَ أَحْوَالِهِمْ.

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُوْنَ﴾. اسْتَضَاؤُوا بِنُورِ الْإِجَابَةِ فَلَمْ يَنْبَسِطْ عَلَيْهِمْ شِعَاعُ السَّعَادَةِ، فَانْطَفَأَ نُورُهُمْ بِقَهْرِ الْحَرَمَانِ، وَبَقُوا فِي ظِلْمَاتِ الْقِسْمَةِ السَّابِقَةِ بِحُكْمِ الشَّقَاوَةِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمُ تَفَاجَعُوا لَعَنُوا أَسْمَاءَهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُنْسَدَّدٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صِغِيرَةٍ عَلَيْهِمْ هُوَ الْعَذَابُ فَأَعِزَّهُمُ فَلَلَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُوَفَّقُوْنَ﴾.

أَيُّ هُمْ أَشْبَاحُ وَقَوَالِبُ وَلَيْسَ وَرَاءَهُمُ الْبَابُ وَحَقَائِقُ - فَالْجَوْزُ الْفَارِغُ مُزَيَّنٌ ظَاهِرُهُ وَلَكِنَّهُ لِلْعَبِ الصَّيْيَانِ.

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك لِجُبْنِهِمْ؛ إذ ليس لهم انتعاش برُبِّهم؛ ولا استقلالٌ بغيرهم.

﴿هُرُّ الْقَدَرِ فَأَحْذَرْتُمْ﴾ هم عدوُّك - يا محمد - فاخْذَرهم، ولا يَغُرَّنكَ تَبَسُّطُهُمْ في الكلام على وجه التودُّد والتقرب.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾.

سمعوا إلى ما يقال لهم على وجه التكبر، وإظهار الاستغناء عن استغفاركَ لهم.. فخلَّ سبيلهم؛ فلبس للصح فيهم مساعً، ولن يُضجِّحهم من سَكَرَتَهُمْ إِلَّا حَرُّ مَا سيلقونه من العقوبة، فما دام الإصرارُ من جانبهم فإنهم:

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

فقد سبق العلمُ بذلك:

قوله جل ذكره: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

كانهم مربوطون بالأسباب، محجوبون عن شهود التقدير، غير متحققين بتصريف الأيام، فأنطقهم بما خامر قلوبهم مِنْ تَمَنِّي انطفاء نور رسول الله، وانتكاث شملهم، فتواصوا فيما بينهم بقولهم: ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ﴾.

وليس استقلالُك - يا محمد - ولا استقلالُ أصحابك بالمرزوقين.. بل بالرازق؛ فهو الذي يمسككم.

قوله جل ذكره: ﴿يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

إنما وقع لهم الغلطُ في تعيين الأعزَّ والأذلَّ؛ فتوهموا أن الأعزَّ هم المنافقون، والأذلَّ هم المسلمون، ولكن الأمر بالعكس، فلا جَرَمَ غَلَبَ الرسول ﷺ والمسلمون، وأذلَّ المنافقون بقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾: لله عزُّ الإلهية، وللرسول عزُّ النبوة، وللمؤمنين عزُّ الولاية. وجميع ذلك لله؛ فعزُّه القديم صِفَتُهُ، وعزُّ الرسول وعزُّ المؤمنين له فعلاً ومِثَّةً وفضلاً، فإذا لله العِزَّةُ جميعاً.

ويقال: كما أن عِزَّةَ الله - سبحانه - لا زوالَ لها فعِزَّةُ الأنبياء بأن لا عَزَلَ لهم، وعِزَّةُ المؤمنين بالآبِ يَبْقَى منهم مُخَلَّدٌ في النار.

ويقال: مَنْ كَانَ إِيمَانُهُ حَقِيقًا فَلَا زَوَالَ لَهُ.

ويقال: مَنْ تَعَزَّزَ بِاللَّهِ لَمْ يَلْحَقْهُ تَغْيِيرٌ عَنْ حَالِهِ بِغَيْرِ اللَّهِ.

ويقال: لَا عِزَّ إِلَّا فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَلَا ذُلَّ إِلَّا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ. . وما سوى هذا فلا أصل له.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرُونَ﴾.

لَا تُضَيِّعُوا أُمُورَ دِينِكُمْ بِسَبَبِ أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ بَلْ آثَرُوا حَقَّ اللَّهِ، وَاشْتَغَلُوا بِهِ يَكْفِيكُمْ أُمُورَ دُنْيَاكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ؛ فَإِذَا كُنْتَ لِلَّهِ كَانَ اللَّهُ لَكَ.

ويقال: حَقُّ اللَّهِ مِمَّا أَلْزَمَكَ الْقِيَامَ بِهِ، وَحَقُّكَ ضَمَنَ لَكَ الْقِيَامَ بِهِ؛ فَاشْتَغِلْ بِمَا كُفِّتَ لَا بِمَا كُفِّيتَ.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَيَّ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَكَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

لَا تَغْتَرُّوا بِسَلَامَةِ أَوْقَاتِكُمْ، وَتَرْقُبُوا بَغْتَاتِ أَجَالِكُمْ، وَتَأْمَهُبُوا لِمَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ مِنَ الرِّحَالِ، وَلَا تَعْرُجُوا فِي أَوْطَانِ التَّسْوِيفِ^(١).

(١) الآية (١١) لم ترد.

سورة التغابن

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة عزيزة مَنْ ذَكَرَهَا يحتاج إلى لسانٍ عزيز في الغيبة لا يُتَنَدَّلُ، وفي ذِكْرِ الأغيار لا يُسْتَعْمَلُ. وَمَنْ عَرَفَهَا يحتاج إلى قلبٍ عزيز ليس في كلِّ ناحية منه خليط، ولا في كلِّ زاوية زبيط^(١).

قوله جل ذكره: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

المخلوقات كلها بجملتها لله سبحانه مُسَبِّحَةٌ... ولكن لا يَسْمَعُ تسبيحها مَنْ به طَرَشُ النكرة.

ويقال: الذي طَرَأَ صَمَمُهُ فقد يُزَجَى زواله بنوع معالجة، أمّا مَنْ يُولَدُ أَصَمًّا فلا حيلة في تحصيل سماعه. قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ [الروم: ٥٢] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣].

قوله جل ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرْتُمْ كَافِرًا وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

منكم كافرٌ في سابق حُكْمِهِ سَمَاءُ كافرًا، وَعَلِمَ أنه يكفر وأراد به الكفر... وكذلك كانوا. ومنكم مؤمنٌ في سابق حُكْمِهِ سَمَاءُ مؤمنًا، وَعَلِمَ في آزاله أنه يؤمن وخلقَه مؤمنًا، وأرادَه مؤمنًا... والله بما تعملون بصير.

قوله جل ذكره: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَهُمْ فَأَحْسَنَ صُورَهُمْ وَلِئِنْ أَلْمِيزُ﴾.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ﴾: أي وهو مُحِقٌّ في خلقه.

﴿وَصَوَّرَهُمْ فَأَحْسَنَ صُورَهُمْ﴾: لم يَقُلْ لشيءٍ من المخلوقات هذا الذي قال لنا، صُورَ الظاهر وصُورَ الباطن؛ فالظاهر شاهدٌ على كمال قدرته، والباطن شاهدٌ على جلال قربه.

(١) الزبيط: صياح البطة. (اللسان ٣٠٧/٧ مادة: زبط).

قوله جل ذكره: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُشِيرُونَ وَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

قَصِّرُوا حِيلَكُمْ عَنْ مَطْلُوبِكُمْ، فهو تتقاصر عنه علومكم، وأنا أعلم ذلك دونكم.. فاطلبوا مني، فأنا بذلك أعلم، وعليه أقدر.

ويقال: ﴿يَعْلَمُ مَا تُشِيرُونَ﴾. فاحذروا دقيق الرياء، وخفي ذات الصدور ﴿وَمَا تَعْلَمُونَ﴾: فاحذروا أن يخالف ظاهركم باطنكم.

في قوله: ﴿مَا تُشِيرُونَ﴾ أمرٌ بالمراقبة بين العبد وربّه.

وفي قوله: ﴿مَا تَعْلَمُونَ﴾ أمرٌ بالصدق في المعاملة والمحاسبة مع الخلق.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمُ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌ حَمِيدٌ﴾.

المراد من ذلك هو الاعتبار بمن سلف، ومن لم يعتز عثر في مهواة من الأمل، ثم لا يتنعم إلا بعد فوات الأمر من يده.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ﴾. شاهدوا الأمر من حيث الخلق فتطوخوا في متاهات الإشكالات المختلفة الأحوال. ولو نظروا بعين الحقيقة لتخلصوا من تفرقة الأباطيل، واستراحوا بشهود التقدير من اختلاف الأحوال ذات التغيير.

قوله جل ذكره: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُغْنَى عَنْهُمْ قُلُوبُهُمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾.

الموت نوعان: موت نفس، وموت قلب، ففي القيامة يُبعثون من موت النفس، وأمّا موت القلب فلا يغنى منه - عند كثير من مخلصي هذه الطائفة، قال تعالى مُخْبِرًا عنهم: ﴿قَالُوا يَتَوَلَّوْنَا مِنْ بَعَثِنَا مِنْ مَرْقَدًا﴾ [يس: ٥٢] فلو عرفوه لما قالوا ذلك؛ فموت قلوبهم مُسرمدٌ إلى أن تصير معارفهم ضرورية، فهذا الوقت وقت موت قلوبهم.

قوله جل ذكره: ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ رَشِيدًا وَالَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿النور الذي أنزلنا﴾: القرآن. ويجوز أن يكون ما أنزل في قلوب أوليائه من السكينة وفنون اللطاف.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ لِيَوْمِ الْحُجَّةِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

المطيع - يومئذ - في غيب لأنه لم يستكثر من الطاعة، والعاصي في غيب لأنه استكثر من الزلة.

وليس كل الغني في تفاوت الدرجات قلة وكثرة، فالغني في الأحوال أكثر^(١).
قوله جل ذكره: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي حُضَلَة حَصَلَتْ مِنْ قِبَلِهِ خَلْقًا، وبعلمه وإرادته حكمًا.
﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ حتى يهتدي إلى الله في السراء والضراء - اليوم - وفي الآخرة يهديه إلى الجنة.

ويقال: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ للأخلاق السنية، والتنقي من شح النفس.
ويقال: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ لاتباع السنة واجتناب البدعة.
قوله جل ذكره: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاءُ الْمُنِينُ﴾.

طاعة الله واجبة، وطاعة الرسل - الذين هم سفراء بينه وبين الخلق - واجبة كذلك. والأنوار التي تظهر عليك وتطالب بمقتضياتها كلها حق، ومن الحق. فتجب طاعتها أيضاً^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمِنَ أَرْوَاهِكُمْ وَأَوَّلِدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

إذا دعوك لتجمع لهم الدنيا فهم عدو لك، أما إذا أخذتم منها على وجه العفاف فليسوا لكم أعداء.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.
﴿فِتْنَةٌ﴾: لأنهم يشغلونكم عن أداء حق الله؛ فما تبق عن الله مشغولاً بجمعه فهو غير ميمون عليك.

ويقال: إذا جمعتم الدنيا لغير وجهه فإنكم تُشغَلُون بذلك عن أداء حق مولاكم، وتشغلكم أولادكم، فتبقون بهم عن طاعة الله - وتلك فتنة لكم. . . ترومون إصلاحهم. تفسدون أنتم وهم لا يضلحون!

قوله جل ذكره: ﴿فَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ وَمَن يُنْفِقْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُضْغَفِرْ لَهُ سَيِّئَاتِهِ كُلَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

أي ما دتم في الجملة مستطيعين ويتوجه عليكم التكليف فاتقوا الله. والتقوى

(٢) الآية (١٣) لم ترد.

(١) الآية (١٠) لم ترد.

عن شهود التقوى بعد ألا يكون تقصير في التقوى غاية التقوى .

﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ حتى ترتفع الأخطار عن قلبه، ويتحرر من رق المكنونات، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ تُرِضُوا اللَّهَ فَرَضًا حَسَنًا يُضَاعِفْ لَكُمْ وَلَهُ شُكْرٌ حَلِيمٌ﴾ .

يتوجه بهذا الخطاب إلى الأغنياء لينذل أموالهم، وللفقراء في إخلاء أيامهم وأوقاتهم من مراداتهم وإيثار مراد الحق على مراد أنفسهم .

فالغني يُقال له: آثر حُكْمِي على مرادك في مالك، والفقير يُقال له: آثر حُكْمِي في نَفْسِكَ وقلبك ووقتك وزمانك .

﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ﴾ .

جل شأنه .

سورة الطلاق

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ مَنْ لا سبيلَ إلى وصاله، ولا غُنيّة - في غيره - عن فعّاله، اسمٌ مَنْ عَلِمَه وقع في كل سكّونٍ وراحة، اسمٌ مَنْ عرفه وقع في كل اضطراب وإطاحة^(١)، العلماء بسراب علمهم استقلّوا فاستراحوا، والعارفون بسلطانِ حُكمه اضطلموا عن شواهدهم... فبادوا وطاحوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ...﴾.

الطلاق - وإن كان فراقاً - فلم يجعله الحقّ محظوراً... وإن كان من وجهٍ مكروهاً.

وللطلاق وقتية: سُنيّة وبدعية، ومباحة، لا سنية ولا بدعية؛ فالسنية: أن تطلّق في طُهرٍ لم تُباشِر فيه طلقةً واحدة، والبدعية: في حال الحيض وطُهرٍ جُمِعت فيه، والمباحة: في طهرٍ بعد حيضٍ ثم يطلقها من قبل أن يجامعها - والطلاق أكثر من واحدة.

والعِدَّة - وإن كانت في الشريعة لتحصيل ماء الزوج محاماةً على الأنساب لئلا يدخل على ماء الزوج ماءً آخر - فالغالب والأقوى في معناها أنها للوفاء للمصحبة الماضية في وصلة النكاح.

والإشارة في الآيات التالية إلى أنه بعد أن انتهت الوصلة فلا أقلّ من الوفاء مدةً لهذه الصغيرة التي لم تحضّ، وهذه الآية من الحيض، وتلك التي انقطع حيضُها، والحُبلى حتى تلد... كل ذلك مراعاةً للحرمة: وعِدَّةُ الوفاة تشهد على هذه الجملة في كونها أطول؛ لأن حُرْمَةَ الميت أعظم وكذلك الإمداد في أيام العِدَّة... المعنى فيه ما ذكرنا من مراعاة الوفاء والحرمة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَكُمْ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾.

(١) أطاح ماله: أفناه وأذهب.

العبودية: الوقوف عند الحد، لا بالنقصان عنه ولا بالزيادة عليه، ومن راعى مع الله حده أخلص الله له عهده...

﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾.

قالوا: أراد ندمًا، وقيل: ولدًا، وقيل: مئلاً إليها، أولها إليه؛ فإن القلوب تتقلب:

والإشارة في إباحة الطلاق إلى أنه إذا كان الصبر مع الأشكال حقًا للحرمة المتقدمة فالخلاص من مساكنة الأمثال، والتجرد لعبادة الله تعالى أولى وأحق. قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

إذا صدق العبد في تقواه أخرجه من بين أشغاله كالشعرة تُخرج من بين العجين لا يغلق بها شيء. ويضرب الله تعالى على المتقي سرادقات عنايته، ويدخله في كنف الإيواء، ويصرف الأشغال عن قلبه، ويخرجه من ظلمات تدبيره، ويجرده من كل أمر، وينقله إلى شهود فضاء تقديره.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.

لم يقل: ومن يتوكل على الله فتوكله حسبه، بل قال: ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾؛ أي فالله حسبه أي كافي.

﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾.

إذا سبق له شيء من التقدير فلا محالة يكون، ويتوكله لا يتغير المقدور ولا يستأخر، ولكن التوكل بنيانه على أن يكون العبد مروح القلب غير كاره... وهذا من أجل النعم.

قوله: ﴿وَأَلْتَمِسْ يَسِّنَ مِنَ الْمَجِيزِ﴾... إلى قوله:

﴿يَجْعَلْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾.

التوكل: شهود نفسك خارجاً عن المنة^(١) تجري عليك أحكام التقدير من غير تدبير منك ولا اطلاع لك على حكمه، ومبيل العبد الخمود والرضا دون استعمال الأمر، وفي الخبر: «أعوذ بك من علم لا ينفع»^(٢): ومن العلم الذي لا ينفع - ويجب أن تستعيذ منه - أن يكون لك شغل أو يستقبلك مهم من الأمر ويشته عليك وجه التدبير فيه، وتكون مطالباً بالفوضى - فطلبك العلم وتمنيك أن تعرف متى يصلح هذا

(١) المنة: القوة (ج) منن.

(٢) أخرجه صاحب (ميزان الاعتدال ٤١١٩)، والزيدي في (إتحاف السادة المتقين ١/٢٢٧).

الأمْر؟ ولأي سبب؟ ومن أي وجه؟ وعلى يد مَنْ؟ ... كل هذا تخليط، وغير مُسَلَّم شيء منه للأكابر.

فيجب عليك السكون، وحسن الرضا. حتى إذا جاء وقت الكشف فسترى صورة الحال وتعرفه، وربما ينتظر العبد في هذه الحالة تعريفاً في المنام أو ينظر في (...).^(١) من الجامع، أو يرجو بيان حاله بأن يجري على لسان مستنطق في الوقت ... كل هذا ترك للأدب، والله لا يرضى بذلك من أوليائه، بل الواجب السكون.

قوله جلّ ذكره: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا آتَاهَا﴾.

إذا اتسع رزق العبد فعلى قدر المكنة يطالب بالإعطاء والنفقة فمن قدر عليه رزقه - أي ضيق - فلينفق مما آتاه الله أي من متاع البيت، ومن رأس المال - إن لم يكن من الربح، ومن ثمن الضيعة - إن لم يكن من العلة.

ومن ملك ما يكفيه للوقت، ثم اهتم بالزيادة للغد فذلك اهتمام غير مرضي عنه، وصاحبه غير مُعَان. فأما إذا حصل العجز بكل وجه، فإن الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا آتَاهَا﴾ وسيجعل الله بعد عسر يسراً. هذا من أصحاب المواعيد - وتصديقه على حسب الإيمان، وذاك على قدر اليقين - ويقينه على حسب القسمة. وانتظار اليسر من الله صفة المتوسطين في الأحوال، الذين انحطوا عن حد الرضا واستواء وجود السبب وفقدته، وارتقوا عن حد اليأس والقنوط، وعاشوا في أفياء الرجال يُعَلِّلُونَ بحسن المواعيد ... وأبدأ هذه حالتهم وهي كما قلنا:

إِنْ نَابَكَ الدَّهْرُ بِمَكْرُوهِهِ فِعِشْ بِتَهْوِينِ تَصَانِيْفِهِ

فَعَنْ قَرِيبٍ يَنْجَلِي غَيْمُهُ وَتَنْقُضِي كُلَّ تَصَارِيْفِهِ

قوله جلّ ذكره: ﴿وَكَايْنِ مِّن قَرِيْبَةٍ عَنَتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَذِّبْنَهَا عَذَابًا نُكَرًا فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خُتْرًا﴾.

من زرع الشوك لم ينجن الورد، ومن أضاع حق الله لا يطاع في حظ نفسه. ومن اجتراً بمخالفة أمر الله فليصبر على مقاساة عقوبة الله.

قوله جلّ ذكره: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّخُرَاجِ الَّذِينَ آمَنُوا وَحِمْلُوا الصَّلَاحَاتِ مِنَ الظَّالِمَاتِ إِلَى التَّوَرِّ﴾.

إِنَّ كِتَابَ اللَّهِ فِيهِ تَبْيَانٌ لِّكُلِّ شَيْءٍ . . . فَمَنْ اسْتِضَاءَ بِنُورِهِ اهْتَدَى ، وَمَنْ لَجَأَ إِلَى سَعَةِ فَنَائِهِ وَصَلَ مِنْ دَاءِ الْجَهْلِ إِلَى شِفَائِهِ .

وَمَنْ يَزِيحُ بِاللَّهِ ، وَيَعْمَلُ صَالِحاً لِلَّهِ ، وَفِي اللَّهِ ، فَلَهُ دَوَامُ النُّعْمِ مِنَ اللَّهِ . . . قَالَ تَعَالَى :

﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَكَ رِزْقًا﴾ .

وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ مَا كَانَ عَلَى حُدِّ الْكَفَايَةِ ؛ لَا نَقْصَانٌ فِيهِ تَتَعَطَّلُ الْأُمُورُ بِسَبَبِهِ ، وَلَا زِيَادَةٌ فِيهِ تُشْغَلُ عَنْ الْإِسْتِمْتَاعِ بِمَا رُزِقَ لِخُرْصِهِ .

كَذَلِكَ أَرْزَاقُ الْقُلُوبِ . أَحْسَنُهَا أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنَ الْأَحْوَالِ مَا يَشْتَغِلُ بِهِ فِي الْوَقْتِ ؛ مِنْ غَيْرِ نَقْصَانٍ يَجْعَلُهُ يَتَعَذَّبُ بِتَعَطُّشِهِ ، وَلَا تَكُونُ فِيهِ زِيَادَةٌ فَيَكُونُ عَلَى خَطَرٍ مِنْ مَغَالِيطٍ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا إِلَّا بِتَأْيِيدِ سَمَآوِيٍّ مِنَ اللَّهِ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ .

خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ، وَخَلَقَ مَا خَلَقَ وَهُوَ مُجِئٌ فِيمَا خَلَقَ وَأَمْرٌ ، حَتَّى نَعْلَمَ اسْتِحْقَاقَ جَلَالِهِ وَكَمَالِ صِفَاتِهِ ، وَأَنَّهُ أَمْضَى فِيمَا قَضَى حُكْمًا ، وَأَنَّهُ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا .

سورة التَّحْرِيمِ

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله». اسمٌ عزيزٌ يُنْهَلُ مَنْ عصاه، فإذا رجع وناداه... أجابه ولَّبه فإن لم يتوسَّلْ بِصِدْقِ قَدَمِهِ فِي ابتداء أمره ثم تَنَصَّلَ بِصِدْقِ نَدَمِهِ فِي آخر عمره أَوْسَعَهُ غَفْراً، وقبل منه عُذْراً، وَأَكْمَلَ لَهُ دُخْراً، وَأَجَزَلَ لَهُ بَرّاً.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ لَكَ مَرْضَاتُ أَنْفُسِكَ وَاللَّهُ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾.

جاء في القصة: أن النبي ﷺ حَرَّمَ عَلَى نفسه مارية القبطية^(١)، وفي الحال حَلَفَ ألا يطأها شهراً مراعاةً لقلب حفصة^(٢) حيث رأت النبي ﷺ معها في يومها.

وقيل: حَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ شَرْبَ العسل لما قالت له زوجاته، إِنَّا نشم منك ريح المغافير!

- والمغافير صمغ في البادية كريح الرائحة، ويقال: بقلة كريهة الرائحة... فعاتبته الله على ذلك.

وهي صغيرةٌ منه على مذهب مَنْ جَوَّزَ الصغائر عليه، وتَرَكَ لِلأَوَّلَى على مذهب مَنْ لَمْ يَجُوزْ.

(١) هي مارية بنت شمعون القبطية (.... - ١٦ هـ = ٦٣٧ م) أم إبراهيم، من سراري النبي ﷺ) مصرية الأصل، بيضاء، ولدت في قرية «حفن» بمصر، وأهداها المقوقس القبطي إلى النبي ﷺ هي وأخت لها تدعى «سيرين» فولدت له «إبراهيم» فقال: أعتقها ولدها. وأهدى أختها سيرين إلى حسان بن ثابت - الشاعر - فولدت له عبد الرحمن، فلما علم الحسن بن علي أن مارية من قرية حفن كلم معاوية، فوضع عن أهل القرية خراج أرضهم، ولما توفي النبي ﷺ تولى الإنفاق عليها أبو بكر، ثم عمر، وماتت في خلافة عمر بالمدينة، ودفنت بالبقيع.

الأعلام ٢٥٥/٥، والسمط الثمين ١٣٩، ومعجم البلدان (حفن)، وأسد الغابة (٥/٥٤٣).

(٢) هي حفصة بنت عمر بن الخطاب (١٨ ق هـ = ٦٠٤ - ٦٦٥ م) صحابية جليلة صالحة من أزواج النبي ﷺ ولدت بمكة وتزوجها خنيس بن حذافة السهمي، فكانت عنده إلى أن ظهر الإسلام، فأسلمها وهاجرت معه إلى المدينة فمات عنها، فخطبها رسول الله ﷺ من أبيها فزوجه إياها، واستمرت في المدينة بعد وفاة النبي ﷺ إلى أن توفيت بها. روى لها البخاري ومسلم في الصحيحين ٦٠ حديثاً.

الأعلام ٢٦٥/٢، والإصابة ٢٧٣/٤، وطبقات ابن سعد ٥٦/٨، وصفة الصفوة ١٩/٢، وحلية ٥٠/٢.

وقيل: إنه طَلَّقَ حفصة طلاقاً واحدة، فأمره الله بمراجعتها، وقال له جبريل: إنها صَوَامَةٌ قَوَامَةٌ.

وقيل: لم يطلقها ولكن هَمَّ بتطليقها فَمَنَعَهُ اللَّهُ عن ذلك.

وقيل: لَمَّا رَأَتْهُ حفصة مع مارية في يومها قال لها: إِنِّي مُسِرٌّ إِلَيْكَ سِرًّا فلا تخبري أحداً: إِنَّ هذا الأمر يكون بعدي لأبي بكر ولأبيك.

ولكن حفصة ذكرت هذا لعائشة، وأوحى الله له بذلك، فسأل النبي حفصة: لِمَ أَخْبَرْتِ عائشة بما قلت؟

فقالت له: وَمَنْ أَخْبَرَكَ بذلك؟ قال أخبرني الله، وَعَرَفَ حفصة بعض ما قالت، ولم يصْرُحْ لها بجميع ما قالت، قال تعالى: ﴿عَرَفَ بَعْضُهُمْ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾، فعاتبها على بعضٍ وَأَعْرَضَ عن بعض - على عادة الكرام.

ويقال: إن النبي - ﷺ - لَمَّا نَزَلَتْ هذه الآية كان كثيراً ما يقول: «اللهم إني أعوذ بك من كل قاطع يقطعني عنك».

وظاهرُ هذا الخطاب عتاب على أنه مراعاة لقلب امرأته حَرَّمَ على نفسه ما أحلَّ اللَّهُ له.

والإشارة فيه: وجوبُ تقديم حقِّ الله - سبحانه - على كل شيء في كل وقت.

قوله جلَّ ذكره: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

أنزل الله ذلك عنايةً بأمره عليه السلام، وتجاوزاً عنه. وقيل: إنه كَفَّرَ بعقوبة رقية، وعادَ مارية.

واللَّهُ - سبحانه - أجرى سُنَّتَهُ بأنه إذا ساكَنَ عَبْدٌ بقلبه إلى أحدٍ شَوْشَ على خواصِّه محلَّ مساكنته غَيْرَةً على قلبه إلى أَنْ يُعَاوِدَ رَبَّهُ، ثم يكفيه ذلك - ولكن بعد تطويل مدَّة، وأنشدوا في معناه:

إِذَا عُلِّقَتْ رُوحِي حَبِيباً تَعَلَّقْتُ بِهِ غَيْرُ الْأَيَّامِ كُلِّ تَسْلَبَنِيَّةٍ

وقد ألقى الله في قلبِ رسوله ﷺ تناسياً بينه وبين زوجاته فاعتزلهن، وما كان من حديث طلاق حفصة، وما عاد إلى قلب أبيها، وحديث الكفاية، وإمساكه عن وطء مارية تسعاً وعشرين ليلة... كل ذلك غَيْرَةٌ من الحق عليه، وإرادته - سبحانه - تشويش قلوبهم حتى يكون رجوعهم كلهم إلى الله تعالى بقلوبهم^(١).

قوله جلَّ ذكره: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَفَتْ قُلُوبُكُمْ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

(١) الآية (٣) لم ترد.

عاتبهما على السير من حَطَرَاتِ القلب، ثم قال: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ...﴾. ﴿وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ فِي قَلْبِهِ نِفَاقٌ، مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وجاء: أن عمر بن الخطاب لما سَمِعَ شيئاً من ذلك قال لرسول الله: لو أمرتني لأضربنَّ عُنُقَهَا!

والعتاب في الآية مع عائشة وحفصة رضي الله عنهما إذ تكلمتا في أمر مارية. ثم قال تعالى زيادةً في العتاب وبيان القصة: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُدْلِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ مِثْلُ مَنِّي مُؤْمِنَتٍ قَانِتَةٍ تَحِبُّنَّ عِبَادَتِي سَكَنَتِ نَيْبَتِي وَابْتَكَرْتُ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾. أي: فقهوهم، وأدبوهم، وادعوهم إلى طاعة الله، وامنعوهم عن استحقاق العقوبة بإرشادهم وتعليمهم.

ودلت الآية: على وجوب الأمر بالمعروف في الدين للأقرب فالأقرب: وقيل: أظهروا من أنفسكم العبادات ليتعلموا منكم، ويعتادوا كعادتكم. ويقال: دلّوهم على السُّنَّة والجماعة. ويقال: علّموهم الأخلاق الحسان. ويقال: مرّوهم بقبول النصيحة.

﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾: الوقود: الحطب.

ويقال: أمر الناس يصلح بحجارة أو مَدَرَةٌ^(١)، فإن أصل الإنسان مدرّة، ولو أنه أقام حَجَرَةً مقامَ مدرّة فلا غرر من فضل الله. اللهم فآلّق فيها بذلنا حَجَرًا وخلصنا منها.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْبُدُوا الْيَوْمَ إِلَّا مَا تَجُرُّونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

إذا فات الوقت استفحل الأمر، وانغلق الباب، وسقطت الحِيل... فالواجب البِدَارُ والفَرَارُ لتصل إلى رَوْحِ الْفَرَارِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾. التوبة النصوح: هي التي لا يعقبها نقص.

(١) المدرّة: واحدة المدر: قطع الطين اليابس المتماسك. أو التراب المتلبّد.

ويقال: هي التي لا تراها من نفسك، ولا ترى نجاتك بها، وإنما تراها ببرك.

ويقال: هي أن تجد المرارة في قلبك عند ذكر الزلة كما كُنت تجد الراحة لنفسك عند فعلها.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نَوْمَهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتَيْمْنَا نَورًا وَغُفِرَ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

لا يخزي الله النبي بترك شفاعة، والذين آمنوا معه بافتضاجهم بعد ما قبل فيهم شفاعة.

﴿نَوْمَهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ عبّر بذلك عن أن الإيمان من جميع جهاتهم.

ويقال: بأيمانهم كتاب نجاتهم: أراد نور توحيدهم ونور معرفتهم ونور إيمانهم، وما يخصهم الله به من الأنوار في ذلك اليوم.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتَيْمْنَا نَورًا﴾: يستديمون التضرع والابتهاال في السؤال.

قوله جل ذكره: ﴿يَتَذَكَّرُ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا يُنْفِخُ فِي قُلُوبِهِمُ الْمُغْفِرَ وَالْمُغْفِرَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾.

أمره بالملائكة في وقت الدعوة، وقال: ﴿وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] ثم لما أصرروا - بعد بيان الحجة - قال: ﴿وَأَغْلَطْ عَلَيْهِمْ﴾: لأن هذا في حال إصرارهم، وزوال أذارهم.

قوله جل ذكره: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الْفَاحِشِينَ﴾.

لما سبقت لهما الفرقة يوم القسمة لم تنفعهما القربة يوم العقوبة.

قوله جل ذكره: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتِ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

قالوا: صغرت هممتها حيث طلبت بيتاً في الجنة، وكان من حقها أن تطلب الكثير... ولا كما توهموا: فإنها قالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ﴾ فطلبت جوار القربة، وليبت في الجوار أفضل من ألف قصر في غير الجوار. ومن المعلوم أن العندية هنا عندية القربة والكرامة... ولكنه على كل حال بيت له مزية على غيره، وله خصوصية. وفي معناه أنشدوا:

إني لأخسّد جازكم لجواركم طوبى لمن أضحى لدارك جارا
يا ليت جازك باعني من داره شبراً لأعطيه شبر دارا
قوله جل ذكره: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَتَ فَرجَهَا فَنفَخْنَا فيه مِن رُّوحِنَا
وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا وَكَانَتْ مِنَ الْمُقْسِيَاتِ﴾.

ختم السورة بذكرها بعد ما ذكر امرأة فرعون، وهما من جملة النساء، ولما كثر
في هذه السورة ذكر النساء أراد الله سبحانه ألا يخلو السورة من ذكرها تخصيصاً
لقدرها.

سورة الملك

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسم مَنْ لم تَنعَطِزْ القلوبُ إِلَّا بنسيم إقباله، ولم تَنقَطِزْ الدموعُ إِلَّا للوعة فراقه أو رُوح وصاله؛ فدموعُهم في كلتا الحالتين مُنْسِكِبَةٌ، وقلوبُهم في عموم أحوالهم مُلْتَهَبَةٌ وعقولُهم في غالب أوقاتهم مُشْتَهَبَةٌ.

قوله جل ذكره: ﴿بِزَكِّ الَّذِي يَدِيهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

تَقْدَسَ وتعالى، مَنْ إحسانه تَوَاتَرَ وتَوَالَى، فهو المتكَبِّرُ في جلالِ كبريائه، المتجَرِّدُ في علاءِ بهائه ودوامِ سنائه.

﴿يَدِيهِ الْمُلْكُ﴾: بقدرته إظهارُ ما يريد، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾.

خَلَقَ الموتَ والحياةَ، ابتلاءً لِلخَلْقِ، يختبرهم لِيُظْهِرَ لَهُ شكرانهم وكفرانهم، كيف يكونان عند المحنة في الصبر وعند النعمة في الشكر - ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾.

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ﴾.

عَرَفْهم كمالَ قدرته بدلالات خَلْقِهِ، فَمَسَكَ السماءَ وأمسكها بلا عَمَدٍ، وَرَكَّبَ أجزاءها غيرَ مُستعينٍ بأحدٍ في خَلْقِهَا، وبالنجومِ رَئَيْنَهَا، وَمِنْ استراقِ سَمْعِ الشياطينِ حَصْنَهَا، وبغيرِ تعليمٍ مُعَلِّمٍ أحكمها وأتقنها.

﴿مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ؟﴾: لا ترى فيما خَلَقَ تفاوتاً ينافي آثارَ الحكمة ولا يدل على كمال القدرة.

ويقال: ما ترى فيها تفاوتاً، في استغنائه عن الجميع... ما ترى فيها تفاوتاً في الخَلْقِ؛ فَخَلَقَ الكثيرَ واليسيرَ عنده سيَّان، فلا يَسْهُلُ عنده القليلُ ولا يَشْقُ عليه الكثيرُ؛ لأنه مُتَنَزَّهٌ عن السهولة عليه ولحوقِ المشقة به.

فَأَنْعِمِ النظرَ، وَكُرِّرِ السَّبْرَ والفِكرَ... فلن تجد فيها عيباً ولا في عِزِّه قصوراً^(١).

(١) الآية (٤) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَيِّرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

خَوْفَهُمْ يَعْلَمُهُ، وَنَذَبَهُمْ إِلَى مَرَابِقَتِهِ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، وَيَسْمَعُ الْجَهْرَ وَالنَّجْوَى... ثُمَّ قَالَ مُبَيَّنًا:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

وَفِي كُلِّ جُزْءٍ مِنْ خَلْقِهِ - مِنَ الْأَعْيَانِ وَالْآثَارِ - أُدْلَةٌ عَلَى عِلْمِهِ وَحُكْمَتِهِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهَا وَإِلَيْهِ الشُّرُورُ﴾.

أَي إِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَضْرِبُوا فِي الْأَرْضِ سَهْلًا عَلَيْكُمْ ذَلِكَ.

كَذَلِكَ جَعَلَ النَّفْسَ ذُلُولًا؛ فَلَوْ طَالَبْتَهَا بِالْوَفَاقِ وَجَدْتَهَا مُسَاعِدَةً مُوَافِقَةً، مُتَابِعَةً مُسَابِقَةً... وَقَدْ قِيلَ فِي صِفَتِهَا:

هِيَ النَّفْسُ مَا عَوَّدَتْهَا تَتَعَوَّدُ وَلِلدَّهْرِ أَيَّامٌ تُذَمُّ وَتُخَمَدُ

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَيْسَتْ لَكُمْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ إِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَلَيْسَتْ لَكُمْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَلْمِزُونَهُ كَيْفَ نَذِيرٌ﴾.

﴿مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ أَرَادَ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ السَّمَاءَ، فَهَمُ مُوَكَّلُونَ بِالْعَذَابِ.

وَخَوْفُهُمُ بِالْمَلَائِكَةِ أَنْ يُنْزِلُوا عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَةَ مِنَ السَّمَاءِ، أَوْ يَخْسِفُوا بِهِمُ الْأَرْضَ، وَكَذَلِكَ خَوْفُهُمْ أَنْ يُرْسِلُوا عَلَيْهِمُ حَجَارَةً كَمَا أَرْسَلُوا عَلَى قَوْمِ لُوطٍ. وَيَبَيِّنُ أَنَّ مَنْ كَذَّبَ قَبْلَ هَؤُلَاءِ رُسُلَهُمْ كَيْفَ كَانَتْ عُقُوبَتُهُمْ، ثُمَّ زَادَ فِي الْبَيَانِ^(١) وَقَالَ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْفُلْجِ فَوْقَهُمْ صَفَعْتِ وَيَقْبِضُنَّ مَا يُمِسُّهُمْ إِنْ أَلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾.

أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ الطُّيُورَ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهَا، وَاخْتِصَاصِهَا بِالطُّيُرَانِ لِأَنَّ لَهَا أَجْنَحَةً - بِخِلَافِ الْأَجْسَامِ الْآخَرَ... مَنْ الَّذِي يُمْسِكُهُنَّ وَيَحْفَظُهُنَّ وَهَنْ يَقْبِضُنَّ وَيَبْسُطُنَّ أَجْنَحَتَهُنَّ فِي الْفُضَاءِ؟ وَمَا الَّذِي يُوْجِبُهُ الْعَقْلَ حِفْظَ هَذِهِ الطُّيُورِ أَمْ بَقِيَّةُ الْأَجْسَامِ الْآخَرِ؟.

﴿أَمَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾.

إِنْ أَرَادَ الرَّحْمَنُ بِكَ سُوءًا... فَمَنْ الَّذِي يُوسِّعُ عَلَيْكُمْ مَا قَبَضَهُ، أَوْ يَمْحُو مَا أَثْبَتَهُ، أَوْ يُقَدِّمُ مَا أَخَّرَهُ، أَوْ يُؤَخِّرُ مَا قَدَّمَ؟^(٢).

(١) الآية (١٨) لم ترد.

(٢) الآية (٢١) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿أَمَّنْ يَمِشُ مِكْبًا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمِشُ سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾.

وَحُصِّصَكم بالسمع والبصر والأفئدة، وأنتم لا تشكرون عظيمَ نِعَمِهِ^(١).
﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ؟﴾.

وأجاب عنه حيث قال: لا تستعجلوا العذاب، وبين أنهم إذا رأوه كيف يخافون وكيف يندمون^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا...﴾.
وإليه أمورنا - جملة - فَوَضَّنا.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَلٍّ مَّعِينٍ﴾.

مَنْ الذي يأتيكم بالماء إذا صار غائراً في الأرض لا تناله الأيدي.

وهذه الآيات جميعها على وجه الاحتجاج عليهم... ولم يكن لواحدٍ عن ذلك جواب.

(١) الآية (٢٤) لم ترد.

(٢) الآيتان (٢٦، ٢٧) لم تردا.

سورة الْقَلَم

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ كريمٌ مَنْ شهد لُطْفَهُ لم يتَذَلَّلْ بعده لمخلوق، ولم يَسْتَعِزْ فيما نابَه من ضُرٍّ أصابه أو خيرٍ أراده بِمُحَدِّثٍ مرزوق.

إن أعطاه قابله بالشُّكْرِ، وإن منعه استجابَه بِجميل الحمد.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَوَالَّفَ وَمَا يَسْطُورُنَّ﴾.

﴿تَوَالَّفَ﴾ قيل: الحوت الذي على ظهره الكون، ويقال: هي الدواة.

ويقال: مفتاح اسمه ناصر واسمه نور.

ويقال: إنه أقسم بِضُرَّةِ الله تعالى لعباده المؤمنين.

وأقسم بالقلم - وجواب القسم قوله:

﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾.

ما أوجب لصدره من الوحشة من قول الأعداء عنه:

إنه مجنون، أزاله عنه بنفيه، ومحققاً ذلك بالقَسَمِ عليه... وهذه سُنةُ الله تعالى

مع رسوله ﷺ؛ فما يقوله الأعداء فيه يرُدُّه - سبحانه - عليهم بخطابه وعنه بنفيه.

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾: أي غير منقوص... لَمَّا سَمَتْ هِمَّتُهُ ﷺ عن طلبِ

الأعواض أثبت اللّهُ له الأجر، فقال له: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ - وإن كُنْتَ لا

تریده.

ومن ذلك الأجر العظيم هذا الخُلُق، فأنت لست تريدُ الأجر - وبِئْسَ لست تريد؛

فلولا أن خَصَصْنَاكَ بهذا التحرُّر لَكُنْتَ كأمثالِكَ في أنهم في أسْرِ الأعواض.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

كما عرّفهُ اللّهُ سبحانه أخباراً مَنْ قَبْلَهُ من الأنبياء عرّفهُ أنه اجتمعت فيه متفرقات

أخلاقهم فقال له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

ويقال: إنه عَرَضَ عليه مفاتيح الأرض فلم يقبلها، ورقاه ليلة المعراج، وأراه

جميع المملكة والجنة فلم يلتفت إليها، قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:

[١٧] فما التفت يميناً ولا شمالاً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا لَعَلِّي خُلِّفْتُ عَظِيمٍ﴾. . . ويقال: ﴿على خلق عظيم﴾: لا بالبلاء تنحرف، ولا بالعطاء تنصرف؛ احتتمل صلوات الله عليه في الأذى شج راسه وثغره، وكان يقول:

«اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»^(١). وغداً كلُّ يقول: نفسي نفسي وهو صلوات الله عليه يقول: «أمتي أمتي»^(٢).

ويقال: علّمه محاسن الأخلاق بقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

سأل صلوات الله عليه جبريل: «بماذا يأمرني ربي؟ قال: يأمرك بمحاسن الأخلاق؛ يقول لك: صِلْ مَنْ قَطَعَكَ وَأَغِطْ مَنْ حَرَمَكَ وَاغْفِرْ عَمَّنْ ظَلَمَكَ»^(٣)، فتأدّب بهذا؛ فأنى عليه وقال: ﴿وَلَوْلَا لَعَلِّي خُلِّفْتُ عَظِيمٍ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَسْتَبِصِّرْ وَنُبَيِّرْ وَبَيِّنْ بَيِّنَاتِكُمْ أَلْفَقُتُونَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَلَ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

المفتون: المجنون لأنه فتن أي مجن بالجنون.

﴿فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

معبودك واحد فليكن مقصودك واحداً. . . وإذا شهدت مقصودك واحداً فليكن مشهودك واحداً.

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾.

من أصبح عليلًا تمنى أن يكون الناس كلهم مَرْضَى. . . وكذا من وسم بكبي الهجران ود أن يشاركه فيه من عاداه.

(١) أخرجه البخاري في (المصحح ٢١٤/٤)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٤٤١/١)، والهيثم في (مجمع الزوائد ١١٧/٦)، والطبري في (التفسير ١٣/١)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٤١٩/٣)، والقرطبي في (التفسير ١٩٩/٤، ٤٧٣/٨، ١٥٦/١٤)، والقاضي عياض في (الشفاء ٢٢٢/١)، والطحاوي في (مشكل الآثار ١٨٩/٣)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٣١٣/١، ٦٨/٣، ٢٨٣)، (مناهل الصفا ١٦)، والآجري في (الشيعة ٤٦٠)، والسيوطي في (الدر المنثور ٩٥/٣)، والطبراني في (التفسير ١٤٦/٦، ٢٠١)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥٤/٥، ٩٣/٧، ١٠٨، ٣٦٠، ٢٥٨/٨)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٩٨٨٣، ٣٥٥٦٣)، والسيوطي في (جمع الجوامع ٩٧٩٩، ٩٨٧٢)، وابن حجر في (فتح الباري ٢٧٣/٧، ٢٨٢/١٢)، والبيهقي في (دلائل النبوة ٢١٥/٣).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢٨٢/١)، والعراقي في (المغني عن حمل الأسفار ٥١٠/٤) والسيوطي في (الدر المنثور ٦٤/٥)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٤٨٧/١٠)، وابن حجر في (فتح الباري ٤٢٨/١١، ٤٤٣)، وابن أبي عاصم في (السنة ٣٨٠/٢)، وابن أبي شيبة في (المصنف ٣١/١١).

(٣) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ١٤٨/٤، ١٥٨).

﴿وَلَا تُطْعَمُ كُلُّ سَلَافٍ مَّهِينٍ﴾ .

وهو الذي سقط من عيننا، وأقميناه بالبعد عنا .

﴿هَٰذَا نَسْأَلُ بِمَقَامِكِ﴾ .

محجوب عنا مُعَذَّبٌ بخذلان الوقعة في أولياتنا .

﴿مَنَاجِرَ اللَّحْمِ﴾ .

مُهَانٍ بالشُّعْ، مسلوب التوفيق .

﴿مُعْتَدٍ أَيْمٍ﴾ .

ممنوع الحياء، مُشْتَبِّهٌ في أودية الحرمان .

﴿عُتِّلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْبٍ﴾ .

لثيم الأصل، عديم الفضل، شديد الخصومة بباطله، غير راجع في شيء من الخير إلى حاصله .

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ .

أي: لا تطعه لأن كان ذا مالٍ وبنين . . . ثم استأنف الكلام فقال: إذا تتلى . . .
قابلاً بالتكذيب، وَحَكَمَ أَنَّ الْقُرْآنَ مِنَ الْأَسَاطِيرِ .

﴿سَيَسْمِعُ عَلَى الْغُرُورِ﴾ .

أي سنجعل له في القيامة على أنفه تشويهاً لصورته كي يُعْرِفَ بها .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْكَلْبِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ .

أي امتحناهم . . . حين دعا عليهم النبي ﷺ، فابتلاهم الله بالجوع، حتى أكلوا الجِيفَ - كما بلونا أصحاب الجنة، قيل: إن رجلاً من أهل اليمن كانت له جنة مشمرة وكان له ثلاثة بنين، وكان للمساكين كل ما تَعَدَّاهُ المِثْجَل فلم يجده من الكَرَم، فإذا طُرِحَ على البساط فكل شيء سقط عن البساط فهو أيضاً للمساكين، فما أخطأه القُطَافُ من نخله وكَرَمه يَدَعُه للمساكين، وكان يجتمع منه مال، فلما مات هو قال وَرَثَتُهُ: إِنَّ هَذَا الْمَالَ تَفَرَّقَ فِينَا، وليس يمكننا أن نفعل ما كان يفعله أبونا، وأقسموا ألا يُعْطُوا للفقراء شيئاً، فاهلك الله جَنَّتَهُمْ؛ فندموا وتابوا .

وقيل: أبذلهم الله جنةً حسنة، فأقسموا ليصرمن جنتهم وقت الصبح قبل أن تفتن المساكين، ولم يقولوا: إن شاء الله^(١) :

﴿ظَلَمَ عَلَيْهَا مَا بُدِّئَ مِنْ رَيْكَ وَهُمْ ذَاهِبُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالْعَصَرِ﴾ .

(١) الآية (١٨) لم ترد .

أرسل عليها من السماء آفة فأحرقت ثمارهم. وأصبحت ﴿كَالْعَرِيِّ﴾ أي كالليل المسود، فنادى بعضهم بعضاً وقت الصبح: أن اغدوا على حرثكم إن أردتم الصرام، فانطلقوا لا يرفعون أصواتهم فيما بينهم لئلا يسمعون أحدًا. وقصدوا إلى الصرام^(١) ﴿عَلَى حَرْبٍ﴾ أي: قادرين عند أنفسهم، ويقال: على غضبٍ منهم على المساكين.

فلما رأوا الجنة وقد استوصلت قالوا: ليست هذه جنتنا!!

ثم قالوا: بل هذه جنتنا... ولكننا حرمتنا خيرها.

قال أوسطهم: أي أعدلهم طريقة وأحسنهم قولاً^(٢):

﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ؟﴾.

أي: تستثنون وتقولون: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٧٠].

﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

ثم أقبل بعضهم على بعض يتلاومون، ويقولون^(٣):

﴿عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَلْقَيْنَا لِلْهَلِكِ لِأَهْلِ مَكَّةَ﴾ وَلَقَدْ أَتَى الْآخِرَةَ أَكْبَرُ

وهكذا تكون حال مَنْ له بداية حسنة ويجد التوفيق على التوالي، ويجتنب المعاصي، فيُعَوِّضه الله في الوقت نشاطاً، وتلوح في باطنه الأحوال... فإذا بدّر منه سوء دعوى أو ترك أدب من آداب الخدمة تشد عليه تلك الأحوال ويقع في قزوة^(٤) من الأعمال فإذا حصل منه بالعبادات إخلال، ولبعض الفرائض إهمال - انقلب حاله، ورُدّ من الوصال إلى البعاد، ومن الاقتراب إلى الاغتراب عن الباب، فصارت صفوته قسوة. وإن كان له بعد ذلك توبة، وعلى ما سَلَفَ منه ندامة - فقد فات الأمر من يده، وقلما يصل إلى حاله.

ولا يبعد أن ينظر إليه الحق بأفضاله، فيقبله بعد ذلك رعاية لما سَلَفَ في بدايته من أحواله... فإن الله تعالى رؤوفٌ بعباده.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾.

الذين يتقون الشرك والكفر، ثم المعاصي والفسق، لهم عند الله الثواب والأجر.

قوله جل ذكره: ﴿أَفَتَجْمَلُ السُّلَيْمِينَ كَالْعَبْرِيِّينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾.

(١) الآيات من (٢١ حتى ٢٤) لم ترد. (٢) الآيات (٢٦ - ٢٧) لم ترد.

(٣) الآيات (٣٠، ٣١) لم ترد.

(٤) قرة جلده: تقشر أو اسود من شدة الضرب. (اللسان ١٣/ ٥٣٠ مادة: قرة).

كيف تحكمون؟ هل لديكم حجة؟ ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾؟ أم لكم منا عهدود فيها تحكمون؟ والمقصود من هذه الأسئلة نفى ذلك^(١).

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

﴿عَنْ سَاقٍ﴾: أي عن شدة يوم القيامة.

ويقال في التفسير عن ساق العرش.

يُؤْمَرُونَ بالسجود؛ فأما المؤمنون فيسجدون، وأما الكفار فتشدد أصلابهم فلا

تنحني.

وقيل: يكشف المريض عن ساقه - وقت التوفي - لِيُبْصَرَ ضعفه، ويقول المؤذن: حي على الصلاة - فلا يستطيع.

وعلى الجملة فقد خَوْفَهُمْ بهذه القالة: إِمَّا عند انتهائهم في الدنيا أو ابتدائهم في الآخرة.

﴿... وَقَدْ كَانُوا يَدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾.

يذكرهم بذلك ليزدادوا حسرة، ولتكون الحجة عليهم أبلغ.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ رَفِئَ وَمَنْ يَكْذِبُ يَهْدِنَا لِلْجِدِّ سَتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

سَنَقْرُبُهُمْ من العقوبة بحيث لا يشعرون.

والاستدراج: أَنْ يريد الشيء وَيَطْوِي عن صاحبه وَجْهَ الْقَضِ فيه، وَيُذَرِّجُهُ إليه شيئاً بعد شيء، حتى يأخذه بغتة.

ويقال: الاستدراج: التمكين من النعم مقروناً بنسيان الشكر.

ويقال: الاستدراج: أنهم كلما ازدادوا معصية زادهم نعمة.

ويقال: أَلَّا يُعَاقِبَهُ فِي حَالِ الزَّلَّةِ، وإنما يؤخّر العقوبة إلى ما بعدها.

ويقال: هو الاشتغال بالنعمة مع نسيان المنعم.

ويقال: الاغترار بطول الإمهال.

ويقال: ظاهر مغبوط وباطن مُسَوِّش.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَمْلِ لَمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.

أَمْلُهُمْ... ثم إِذَا أَخَذْتَهُمْ فَأَخِذِي أَلِيمٌ شديد.

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ تَتْلُوهُمْ أُجْراً فَهُمْ مِنْ مَفْرَرٍ مُتَّقِلُونَ﴾.

أي: ليس عليهم كلفة مقابل ما تدعوهم إليه، وليست عليهم غرامة إن هم اتبعوك... فانت لا تسأل أجراً... فما موجبات التأخر وترك الاستجابة؟

(١) الآيات من (٣٨ - ٤١) لم ترد.

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ؟﴾ .

أم عندهم شيء من الغيب انفردوا به وأوجب لهم ألا يستجيبوا؟ .

قوله جل ذكره: ﴿فَأَمَّا لِلنَّارِ رَيْثُكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ .

صاحب الحوت: هو يونس عليه السلام: ﴿نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾: مملوء بالغَيْظ على قومه. فلا تستعجل - يا محمد - بعقوبة قومك كما استعجل يونس فلقي ما لقي، وتثبت عند جريان حكمنا، ولا تُعارض تقديرنا.

﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُكُمْ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ لَكُنْتُمْ بِالْعُرَى وَهُمْ مَذْمُومٌ﴾ .

أي: لولا أن الله رَحِمَهُ بِفَضْلِهِ لَطَرَحَ بالفناء وهو مذموم ولكن:

﴿فَلَجَبْنَاهُ رَيْثُكُمْ فَجَعَلْنَا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ .

فاصطفاه واختاره، وجعله من الصالحين بأن أرسله إلى مائة ألف أو يزيدون.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَكَاذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُنَكَ بِإِصْرِهِمْ﴾ .

كانوا إذا أرادوا أَنْ يُصِيبُوا شيئاً بأعينهم جاعوا ثلاثة أيام، ثم جاؤوا ونظروا إلى ذلك الشيء قائلين: ما أحسنه من شيء! فكان يسقط المنظور في الوقت. وقد فعلوا ذلك بالنبي صلوات الله عليه، فقالوا: ما أفصحه من رجل! ولكن الله سبحانه حفظه، ومن بذكره عليه^(١).

(١) الآية (٥٢) لم ترد.

سورة الحاقة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة عزيزة تحتاج في سماعها إلى سَمْعٍ عزيزٍ لم يُسْتَعْمَلْ في سماع الغيبة، وتحتاج في معرفتها إلى قلبٍ عزيزٍ لم يَتَبَدَّلْ في الغفلة والغبية، لم ينظر صاحبه بعينه إلى ما فيه رُتبة، ولم تتبع نَفْسُهُ اللُّبْسَ والطَّبَّةَ^(١).

قوله جل ذكره: ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾.

«الحاقة»: اسمٌ للقيامة لأنها تَحُوقُ كُلَّ إنسانٍ بعملِهِ خَيْرُهُ وشرُّه.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ استفهام يفيد التعظيم لأمرها، والتفخيم لشأنها.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾.

ذَكَرَ في هذه السورة: الذين كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ من الأمم، وأَصْرُوا على كُفْرِهِمْ، ولم يقبلوا النصيحة من أنبيائهم، فأهلكهم، وانقَمَ لأنبيائهم منهم.

والفائدة في ذِكْرِهِمْ: الاعتبار بهم، والتحرُّرُ عما فعلوا لئلا يُصِيبَهُمْ ما أصابهم. وعقوبة هذه الأمة مُؤَجَّلَةٌ مُؤَخَّرَةٌ إلى القيامة، ولكنَّ خواصَّهُم عقوبَتُهُمْ مُعَجَّلَةٌ؛ فقومٌ من هذه الطائفة إذا أشاعوا سِرًّا، أو أضاعوا أدبًا يعاقبهم بريح الحجة، فلا يَبْقَى في قلوبهم أثرٌ من الاحتشام للذَّيْنِ، ولا مِمَّا كان لهم من الأوقات، ويصيرون على خَطَرٍ في أحوالهم بأن يُمْتَحِنُوا بالاعتراض على التقدير والقِسْمة.

وأما فرعون وقومه فكان عذابهم بالغَرَقِ... كذلك مَنْ كان له وقتٌ فارغٌ وهو بطاعة ربِّه مشغولٌ، والحقُّ عليه مُقْبِلٌ - فإذا لم يشكر النعمة، وأساء أدبه، ولم يَعْرِفْ قَدْرَ ما أنعم الله به عليه رَدَّه الحقُّ إلى أسباب التفرقة، ثم أغرقه في بحار الاشتغال فيتكدر مشربُهُ، ويصير على خَطَرٍ بأن يُذْرَكَ سُخْطُ الحقِّ وغضبه^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا لَنَّا طَعْنَا أَلَمَاءَ مَمْلُوكٍ فِي اللَّبَازَةِ﴾.

وكذلك تكون مِثْلُهُ على خواصِّ أوليائه حين يسلمهم في سفينة العافية، والكون يتلاطم في أمواجِ الاشتغالِ على اختلاف أوصافها، فيكونون بوصف السلام، لا

(١) الطب: الحلق والمهارة.

(٢) الآيات من (٥ حتى ١٠) لم ترد.

مُنَازَعَةً وَلَا مُحَاسِبَةً لَهُمْ مَعَ أَحَدٍ، وَلَا تَوَقَّعَ شَيْءٍ مِنْ أَحَدٍ؛ سَالِمُونَ مِنَ النَّاسِ، وَالنَّاسُ مِنْهُمْ سَالِمُونَ^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا تُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ...﴾.

بدأ في وصف القيامة والحساب^(٢)...

قوله جلّ ذكره: ﴿...يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

وفي كلّ نفسٍ مع هؤلاء القوم محاسبة ومطالبة، منهم من يستحق المعاقبة، ومنهم من يستحق المعاقبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِرِسَالِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ مَآثِرُكُمْ وَهُوَ فِي كِتَابِهِ إِلَىٰ ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾.

يسلم له السرورُ بنعمة الله، ويأخذ في الحمد والمدح.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾.

القوم - غداً - في عيشة راضية أي مَرْضِيَّةٍ لَهُمْ، وهؤلاء القوم - اليوم - في عيشة راضية، والفرق بينهما أنهم - غداً - في عيشة راضية لأنه قد قُضِيَتْ أَوْطَارُهُمْ، وارتفعت مآربهم، وحصلت حاجاتهم، وهم - اليوم - في عيشة راضية إذ كَفَّوْا مآربهم فَدَفَعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ حَوَائِجَهُمْ؛ فليس لهم إرادة شيء، ولا تَمَسُّهُمْ حاجة. وإنما هم في رُوح الرضا... فغِيْشُ أولئك في العطاء، وغيْشُ هؤلاء في الرضاء؛ لأنه إذا بدا عِلْمٌ من الحقيقة أو معنى من معانيها فلا يكون ثمة حاجة ولا سؤال. ويقال لأولئك غداً^(٣).

﴿كُلُّوا وَآمُرُوا بِحَيَاتِكُمْ إِنَّمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ اللَّالِيَةِ﴾.

ويقال لهؤلاء: اسمعوا واشهدوا... اسمعوا مثلاً... وانظروا إلينا، واستأنسوا بقرئنا، وطالعوا جمالنا وجلالنا... فأنتم بنا ولنا.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ: يَلَيْتَنِي لَوْ أَوتِيتُ كِتَابِي وَلَوْ أَذِرَ مَا حِسَابِيَّةٍ يَلَيْتَنِي كَانَتْ الْفَاقِيَةَ﴾.

هناك - اليوم - أقوامٌ مهجورون تتصاعد حسراتهم، ويتضاعف أُنْيُهُمْ - ليلهم ونهارهم - فليْلُهُمْ وَيَلُّ ونهارهم بَعَادٌ؛ تَكَدَّرَتْ مشاربهم، وخربت أوطانُ أُنْسِهِمْ، ولا بكاءَ لهم يُرْحَمُ، ولا أُنْيُهُمْ يُسْمَعُ... فيندمهم أنهم مُبْعَدُونَ... وهم في الحقيقة من اللّه مرحومون، أسبل عليهم السترَ فَصَغَّرَهُمْ في أعينهم - وهم أكرمُ أهل القصة! كما قالوا^(٤):

لَا تُشْكِرُنَّ جِجْدِي هَوَاكَ فَلِإِنَّمَا ذَاكَ الْجِجْدُ عَلَيْكَ سِتْرٌ مُسْبِلٌ

(٢) الآيات من (١٤) حتى (١٧) لم ترد.

(٤) الآيات من (٢٨) حتى (٣٧) لم ترد.

(١) الآية (١٢) لم ترد.

(٣) الآيات (٢٢ - ٢٣) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾.

«لا»: صلة والمعنى: أقسم؛ كأنه قال: أقسم بجميع الأشياء، لأنه لا ثالث لما يبصرون وما لا يبصرون. وجواب القسم:

﴿إِنَّمَا لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾.

أي وجيه عند الله. وقول الرسول الكريم هو القرآن أو قراءة القرآن^(١).

وما هو بقول شاعر ولا بقول كاهن أي أن محمداً ليس شاعراً ولا كاهناً بل هو: ﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾.

أي لو كان محمداً يكذب علينا لمنعناه منه وعصمناه عنه، ولو تعمّد لعذّبناه. والقول بعصمة الأنبياء واجب. ثم كان لا ناصر له منكم ولا من غيركم، وهذا القرآن^(٢):

﴿وَإِنَّمَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا لَعْنَةٌ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ وَإِنَّمَا لِحَسْرَةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ وَإِنَّمَا لِحَقِّ الْيَقِينِ﴾.

حقّ اليقين هو اليقين فالإضافة هكذا إلى نفس الشيء.

وعلم الناس تختلف في الطرق إلى اليقين خفاءً وجلاءً؛ فما يقال عن الفرق بين علم اليقين وعين اليقين وحقّ اليقين يرجع إلى كثرة البراهين، وخفاء الطريق وجلائه، ثم إلى كون بعضه ضرورياً وإلى بعضه كسبياً، ثم ما يكون مع الإدراكات^(٣).

(١) الآيتان (٤١، ٤٢) لم تردا.

(٢) الآية (٤٧) لم ترد.

(٣) انظر حديث القشيري عن علم وعين وحقّ اليقين برسائله ص ٨٥.

الآية (٥٢) لم ترد.

سورة المَعَارِج

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة من قالها وَجَدَ جمالها، وَمَنْ شهدا شهد جلالها.

وليس كُلُّ مَنْ قالها نالها، ولا كُلُّ مَنْ احتالها عَرَفَ جلالها.

كلمة رفيعة عن إدراك الألباب منيعة، كلمة على الحقيقة الصمدية دالة، كلمة لا بُدَّ للعبد من ذكرها في كل حالة.

قوله جلّ ذكره: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾.

الباء في ﴿بِعَذَابٍ﴾ بمعنى عن، أي سأل سائل عن هذا العذاب لِمَنْ هو؟ فقال تعالى:

﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾.

هذا العذاب للكافرين ليس له دافع ﴿مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾؛ فهذا العذاب من الله.

ومعنى ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ ذي الفضل ومعالي الدرجات التي يُبْلَغُ إليها أولياءه.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

﴿وَالرُّوحُ﴾ أي جبريل، في يوم كان مقداره ألف سنة من أيام الدنيا يعني به يوم القيامة.

ويقال: معناه يحاسب الخلق في يوم قصير ووقت يسير ما لو كان الناس يشتغلون به لكان ذلك خمسين ألف سنة، والله يُجْزِي ذلك ويُمضيه في يوم واحد.

ويقال: من أسفل المخلوقات إلى أعلاها مسيرة خمسين ألف سنة للناس؛ فالملائكة تخرج فيه من أسفل إلى أعلاه في يوم واحد.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾.

فاصبر - يا محمد - على مقاساة أذاهم صبراً جميلاً. والصبر الجميل ما لا شكوى فيه.

ويقال: الصبر الجميل ألا تستثقل الصبر بل تستعذبه.

ويقال: الصبر الجميل ما لا يتنظر العبد الخروج منه، ويكون ساكناً راضياً.

ويقال: الصبرُ الجميل أن يكون على شهود المُبلي.

ويقال: الصبرُ الجميل ما تجرد عن الشكوى والدَّغوى.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾.

إنَّ ما هو آتٍ فقريبٌ، وما استبعدَ مَنْ يستبعد إلا لأنه مُرتابٌ؛ فأما الواثقُ بالشيء فهو غيرُ مُستبعدٍ له.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلْهِلِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾.

الإشارة فيه أنه في ذلك اليوم مَنْ كان في سُمْو نخوته ونُبُو صولته يلين ويستكين ويضعفُ مَنْ كان يَشْرَفُ، ويذلُّ مَنْ كان يُذِلُّ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾.

لا يَتَفَرَّغُ قريبٌ إلى قريبٍ؛ فلكلٍّ امرئٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه.

ولا يَتَعَهَّدُ المساكينَ - في ذلك اليوم - إلا الله.

﴿يُصْرَوْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ الْمَجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِهِمْ بِبَنِيهِ وَصَحِيَّتِهِ وَلَاحِو وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَدُّ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُجِيبُهُ﴾.

﴿يُصْرَوْنَهُمْ﴾ أي يعرفون أقاربهم، ولكن لا ترقُّ قلوبُ بعضهم على بعض.

ويتمنى المجرم يومئذٍ أن يُفْتَدِيَ من عذاب جهنم بأعزَّ مَنْ كان عليه في الدنيا من قريبٍ ونسيبٍ وحميمٍ ووليدٍ، وبكلِّ من الأرض حتى يخلص من العذاب.

﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْلَى﴾.

اسم من أسماء جهنم.

﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى﴾^(١).

قَلَّاعَةٌ للأطراف. تكشف الجلدَ عن الوجه وعن العظم.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾.

تقول جهنمُ للكافر والمنافق: يا فلان... إلَيَّ إلَيَّ.

والإشارة فيه: أنَّ جهنم الدنيا تعلق بقلب المرء فتدعوه بكلام الجزص إلى نفسه وتجره إلى جمعها حتى يؤثرها على نفسه وكلِّ أحدٍ له؛ حتى لقد يَنَحِلُ بدنياه على أولاده وأعزّته... وقليلٌ مَنْ نجا من مكر الدنيا وتسويلاتها^(٢).

(١) الشوى: البدان والرجلان وأطراف الأصابع وقحف الرأس، وجلدة الرأس يقال لها: شواة وما كان

غير مقتل فهو شوى، وقيل: الشوى: (ج) الشواة: وهي جلدة الرأس. (الرسالة القشيرية ص ٤٤٧

مادة: شوا).

(٢) الآية (١٨) لم ترد.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾.

وتفسيره ما يتلوه:

﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾.

والهَلُوعُ شِدَّةُ الْجَرِصِ مع الجزع. ويقال هَلُوعًا: متقلبًا في غمرات الشهوات.

ويقال: يُرْضِيهِ الْقَلِيلُ وَيُسْخِطُهُ الْيَسِيرُ.

ويقال: عند المحنة يدعو، وعند النعمة ينسى ويسهو.

﴿إِلَّا الْمَصْلِينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾.

استثنى منهم المصلين - وهم الذين يلزمون أبدأ مواطن الافتقار؛ مِنْ صِلَى بِالْمَكَانِ^(١).

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلْسَّائِلِ وَالْمَرْغُورِ﴾.

وهم الْمُتَكَفِّفُ وَالْمُتَعَفِّفُ.

وهم على أقسام: منهم مَنْ يُؤْثِرُ بِجَمِيعِ مَالِهِ؛ فَأَمْوَالُهُمْ لِكُلِّ مَنْ قَصَدَ، لَا يَخْصُونُ سَائِلًا مِنْ عَائِلٍ. ومنهم مَنْ يعطي ويمسك - وهؤلاء منهم - ومنهم مَنْ يرى يَدَهُ يَدَ الْأَمَانَةِ فَلَا يَتَكَلَّفُ بِاخْتِيَارِهِ، وَإِنَّمَا يَنْتَظِرُ مَا يُشَارُ عَلَيْهِ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ؛ إِمَّا بِالْإِمْسَاكِ فَيَقِفُ أَوْ بِبَذْلِ الْكُلِّ أَوْ الْبَعْضِ فَيَسْتَجِيبُ عَلَى مَا يُطَالَبُ بِهِ وَمَا يَقْتَضِيهِ حُكْمُ الْوَقْتِ... وهؤلاء أَتْمُهُمْ.

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَاتِ الْيَوْمِ﴾.

وأما رَتْمُهُمُ الاستعدادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نَزْوِهِ، وَأَنْ يَكُونُوا كَمَا قِيلَ:

مُسْتَوْفِزُونَ عَلَى رِجْلِ كَأَنَّهُمْ فَقَدْ يَرِيدُونَ أَنْ يَمْضُوا فَيَرْتَحِلُوا^(٢)

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَقْرَبِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمِنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾.

وإنما تكون صحبتهم مع أزواجهم لِلتَّعَفُّفِ وَصَوْنِ النَّفْسِ، ثُمَّ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ مِنْ صِلْبِهِ يَذْكُرُ اللَّهَ. وَشَرَطُ هَذِهِ الصَّحْبَةِ: أَنْ يَعِيشَ مَعَهَا عَلَى مَا يَهُونُ، وَأَلَّا يَجْزَّهَا إِلَى هَوَى نَفْسِهِ وَيَحْمِلَهَا عَلَى مَرَادِهِ وَهَوَاهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾.

(١) أصلت الناقية: إذا وقع ولدها في صلاها وقُرْبِ نَاجِهَا. (اللسان ٤٦٦/١٤ مادة: صلا).

(٢) الآيتان (٢٧، ٢٨) لم تردا.

يحفظون الأمانات التي عندهم للخلق ولا يخونون فيها. وأمانات الحق التي عندهم أعضاؤهم الظاهرة - فلا يُدَسُّونها بالخطايا؛ فالمعرفة التي في قلوبهم أمانة عندهم من الحق، والأسرار التي بينهم وبين الله أمانات عندهم. والفرائض واللوازم والتوحيد... كل ذلك أمانات.

ويقال: من الأمانات إقرارهم وقت الدُّر. ويقال: من الأمانات عند العبد تلك المحبة التي أودعها الله في قلبه.

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِم قَائِمُونَ﴾.

شهادتهم لله بالوحدانية، وفيما بينهم لبعضهم عند بعض - يقومون بحقوق ذلك كله^(١).

قوله جل ذكره: ﴿فَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَكَ مُهْطِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾.

والإهطاع أن يُقبل ببصره إلى الشيء فلا يرفعه عنه، وكذلك كانوا يفعلون عند النبي ﷺ ﴿عِزِينَ﴾: أي خلقاً خلقاً، وجماعة جماعة.

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾.

كلا... إنك لا تدعو عن هذا! وليس هذا بصواب؛ فإنهم - اليوم - كفار، وغداً يعاملون بما يستوجبون.

﴿فَلَا أَقِيمُ رَبِّي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ لا - هنا صلة، والمعنى أقسم. وقد مضى القول في المشارق والمغارب - ﴿إِنَّا لَقَدِيرُونَ﴾ على ذلك^(٢).

﴿فَذَرَهُمْ خَوْضًا وَيُلْبُوا﴾ غاية التهديد والتوبيخ لهم.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ يَرَوْنَهَا﴾ كأنهم يسرعون إلى أصنامهم، شبه إسراعهم حين قاموا من القبور بإسراعهم إلى النصب - اليوم - كي يقوموا بعبادتهم إياها^(٣).

(١) الآيتان (٣٤، ٣٥) لم تردا.

(٢) الآية (٤٤) لم ترد.

(٣) الآية (٤١) لم ترد.

سورة نوح

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسم لمن قامت السموات والأرض بقدرته واستقامت الأسرار والقلوب بنصرته.. ذلك الأفعال على جلال شأنه، وذلك الرقاب عند شهود سلطانه. أشرقت الأقطار بنوره في العقبى، وأشرقت الأسرار بظهوره في الدنيا، فهو المقدس بالوصف الأعلى.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أرسلنا نوحاً بالنبوة والرسالة. ﴿أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ﴾ أي بأن أنذرهم وإرسال الرسل من الله فضل، وله بحق ملكه أن يفعل ما أراد، ولم يجب عليه إرسال الرسل لأن حقيقته لا تقبل الوجوب.

وإرسال الرسل إلى من علم أنه لا يقبل جائز، وتكليفهم من ناحية العقل جائز فنوح - علم منهم أنهم لا يقبلون.. ومع ذلك بلغ الرسالة وقال لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ يَتَوَمَّنْ إِنَّ لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ إِنَّ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ لَا تُؤْمِنُونَ وَيُؤْخِرُكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾ من هنا للجنس لا للتبويض كقوله تعالى: ﴿فَأَجْتَبَيْنَاهُ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحج: ٣٠].

ويقال: ما عملوه دون ما هو معلوم أنهم سيفعلونه؛ لأنه لو أخبرهم بأنه غفر لهم ذلك كان إغراء لهم.. وذلك لا يجوز. فأبوا أن يقبلوا منه، فقال:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لِنَارٍ وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا﴾.

بَيَّنَّ أَنَّ الهداية ليست إليه، وقال: إِنَّ أَرَدْتُ إِيمَانَهُمْ فَقَلُوبُهُمْ بِقُدْرَتِكَ - سبحانه.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا أَسْتَكْبَرُوا﴾.

وإني ما ازددتُ لهم دعاءً إلا ازدادوا إصراراً واستكباراً.
ويقال: لما دام بينهم إصرارُهم تَوَلَّدَ من الإصرار استكبارُهم، قال تعالى:
﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كَانُمْ عَنْكَ إِزِيلَ السَّمَاءِ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ يَبْنَئُ وَيَحْمِلُ لَكُمْ جَنْبًا وَيَجْعَلُ لَكُمْ آتِنًا﴾.

ليعلم العالمون: أنَّ الاستغفار قَرُغَ أبوابِ النعمة، فمن وقعت له إلى الله حاجةٌ فلن يصلِ إلى مراده إلا بتقديم الاستغفار.
ويقال: مَنْ أَرَادَ التَّفَضُّلَ فعليه بالعُذْر والتَّضَلُّلِ.

قوله: ﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ﴾: كان نوح عليه السلام كلما ازداد في بيان وجوه الخير والإحسان زادوا هم في الكفر والنسيان.
قوله جل ذكره: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾.

ما لكم لا تخافون لله عَظَمَةً؟ وما لكم لا ترجون ولا تؤمنون على توكيركم للأمر من الله لُطْفًا ونعمة؟^(١).

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾.
ثم نَبَّهَهُمْ إِلَى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وما فيهما من الدلالات على أنها مخلوقة، وعلى أَنَّ خَالِقَهَا يستحقُّ صفاتِ العُلُوِّ والعِزَّةِ^(٢).

ثم شكَا نوحَ إلى الله وقال:
﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهْمُ عَصَوْنِي وَأَتَّبِعُوا مَن لَّا يَزِدُّهُم مَّا لَمْ يُولَدُ لَهُ إِلَّا خَسَارًا وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا كَبِيرًا﴾.
يعني كبراءهم وأغنياءهم الذين ضلُّوا في الدنيا وهلكوا في الآخرة^(٣).
﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾.

وذلك بتعريف الله تعالى إياه أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ من قومك إلا من قد آمن. فاستجاب الله فيهم دعاءه وأهلكهم^(٤).

(٣) الآيات من (٢٣، ٢٥) لم ترد.

(٤) الآيتان (٢٧، ٢٨) لم تردا.

(١) الآية (١٤) لم ترد.

(٢) الآيات من (١٧، ٢٠) لم ترد.

سورة الجن

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسم عزيز به أَقَرُّ مَنْ أَقَرَّ بِرَبِّهِ، وبه أَصَرُّ مَنْ أَصَرَّ عَلَى مَعْرِفَتِهِ، وبه اسْتَقَرَّ مَنْ اسْتَقَرَّ مِنْ خَلْقَتِهِ، وبه ظَهَرَ مَا ظَهَرَ مِنْ مَقْدُورَاتِهِ، وبه بَطَّنَ مَا بَطَّنَ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، فَمَنْ جَحَدَ فَبِخْذَلَانِهِ وَحَرَمَانِهِ، وَمَنْ وَحَدَ فَبِإِحْسَانِهِ وَامْتِنَانِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾.

قيل: إِنْ الْجِنُّ كَانُوا يَأْتُونَ السَّمَاءَ فَيَسْتَمِعُونَ إِلَى قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ، فَيَحْفَظُونَهُ، ثُمَّ يَلْقَوْنَهُ إِلَى الْكَهْنَةِ، فَيَزِيدُونَ فِيهِ وَيَنْقُصُونَ. . . وَكَذَلِكَ كَانُوا فِي الْفِتْرَِةِ الَّتِي بَيْنَ نَبِيِّنَا ﷺ وَبَيْنَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. فَلَمَّا بُعِثَ نَبِيُّنَا ﷺ وَرُجِمُوا بِالشُّهُبِ عَلِمَ إِبْلِيسُ أَنَّهُ وَقَعَ شَيْءٌ فَفَرَّ جُنُودَهُ، فَاتَى تِسْعَةَ مَنَّهُمْ إِلَى بَطْنِ نَخْلَةٍ وَاسْتَمَعُوا قِرَاءَتَهُ ﷺ فَلَامَنُوا، ثُمَّ أَتَوْا قَوْمَهُمْ وَقَالُوا: إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَأَمَّنَّا بِهِ. . . إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ^(١).

(وَجَاءَ سَبْعُونَ مِنْهُمْ وَاسْلَمُوا وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ

الْجِنِّ. . .﴾ [الأحقاف: ٢٩].

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾.

الْجَدُّ الْعِظْمَةُ، وَالْعِظْمَةُ اسْتِحْقَاقُ نَعْوَتِ الْجَلَالِ. . .

﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾.

أَرَادَ بِالسَّفِيهِ الْجَاهِلِ بِاللَّهِ يَعْنِي إِبْلِيسَ. وَالشَّطَطُ السَّرَفُ.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنِّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

فِي كُفْرِهِمْ وَكَلِمَتِهِمْ بِالشُّرْكِ.

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

أَيُّ ذِلَّةٍ وَصَغَارٍ؛ فَالْجِنُّ زَادُوا لِلْإِنسِ ذِلَّةً وَرَهَقًا فَكَانُوا إِذَا نَزَلُوا يَقُولُونَ: نَعُوذُ بِرَبِّ هَذَا الْوَادِي فَيَتَوَهَّمُ الْجِنُّ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ حَيْثُ اسْتَعَاذُوا بِهِمْ.

(١) الآية (٢) لم ترد.

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنَّهُمْ ظُنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنَّ لَنَ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ .

أي ظنوا كما ظن الكفار من الجن ألا بعث ولا نشور - كما ظنتم أيها الإنس .

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِثَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ .

يعني حين مُنِعوا عن الاستماع .

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسَمِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَحِدْ لَمْ شَهَابًا رَصَدًا﴾ .

فالآن قد مُنِعنا^(١) .

﴿وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَسْرُ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمَرُ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ .

﴿وَالْوَلَّيْ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ .

الاستقامة على الطريقة تقتضي إكمال النعمة وإكثار الراحة . والإعراض عن الله

يوجب تَنْعُصُ العيش ودوام العقوبة^(٢) .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ .

للمسجد فضيلة، ولهذا خصه الله سبحانه وأفرده بالذكر من بين البقاع؛ فهو

محلُّ العبادة . . وكيف يُحلُّ العابد عنده إذا حلَّ محلُّ قَدَمِهِ؟!

ويقال: أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها، أخبر أنها لله، فلا تعبدوا بما

لِلَّهِ غَيْرَ اللَّهِ .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ .

لما قام عبد الله يعني محمداً عليه السلام يدعو الخلق إلى الله كاد الجن والإنس

يكونون مجتمعين عليه، يمنعونهم عن التبليغ^(٣) قل يا محمد:

﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَن أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ .

لا أقدر أن أدفع عنكم ضراً، أو أسوق لكم خيراً . فكل شيء من الله . ولن

أجد من دونه ملتحداً:

﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتٍ﴾ .

فلن يُنَجِّنِي من الله إلا تبليغي رسالاته بأمره .

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ إِن أَدْرَيْتُ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لِمَنْ رَزَىٰ أَمَدًا﴾^(٤) .

(١) الآيات من (١١ حتى ١٥) لم ترد .

(٣) الآية (٢٠) لم ترد .

(٤) الآية (٢٤) لم ترد .

(٢) الآية (١٧) لم ترد .

أي: لا أذري ما تُوعَدون من العقوبة، ومن قيام الساعة أقرب أم بعيد؟ فكونوا على حذر. ويجب أن يتوَقَّع العبدُ العقوبات أبداً مع مجاري الأنفاس لِيَسْلَمَ من العقوبة.

قوله جلّ ذكره: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾. فيطلعه بقَدْرٍ ما يريد.

﴿يَعْلَمُ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولِي رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخَصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.

أرسل مع الوحي ملائكةً قُدَّامه وخلفه.. هم ملائكةٌ حَفَظَته، يحفظون الوحي من الكهنة والشیاطين، حتى لا يزيّدوا أو ينقصوا الرسالات التي يحملها... والله يعلم ذلك، وأحاطَ عِلْمُهُ به.

سورة المزمل

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: الحادثات بالله حصلت، فقلوب العارفين بالله عرفت ما عرفت وأرواح الصّديقين بالله ألفت من ألفت وفهوم الموحّدين بساحات جلاله وقفت، ونفوس العابدين بالعجز عن استحقاق عبادته اتّصفت وعقول الأولين والآخرين بالعجز عن معرفة جلاله اعترفت.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ فَرِّ آلَيْلًا قَلِيلًا﴾.

أي: المتزمل المتلفف في ثيابه. وفي الخبر: «أنه كان عند نزول هذه الآية عليه مِرْطٌ^(١) من شَعَرٍ وَبَرٍ، وقالت عائشة رضي الله عنها: كان نصفه عليّ وأنا نائمة، ونصفه على رسول الله وهو يُصَلِّي، وطول المِرْط أربعة عشر ذراعاً».

﴿نِصْفَهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَتَّلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾.

﴿فَرِّ آلَيْلًا قَلِيلًا﴾ نصفه بدّل منه؛ أي: قم نصف الليل، وأنقص من النصف إلى الثلث أو زد على الثلث، فكان عليه الصلاة والسلام في وجوب قيام الليل مُحْخِرًا ما بين ثلث الليل إلى النصف وما بين النصف إلى الثلث. وكان ذلك قبل قَرْضِ الصلوات الخمس، ثم نُسِخَ بعد وجوبها على الأمة - وإن كانت بقيت واجبة على الرسول ﷺ.

ويقال: يا أيها المتزمل بأعباء النبوة.. ﴿فَرِّ آلَيْلًا﴾.

ويقال: يا أيها الذي يُخْفِي ما خصصناه به قُمْ فأنذر.. فَإِنَّا نَصْرُنَاكَ.

ويقال: قُمْ بنا.. يا مَنْ جعلنا الليل ليسكن فيه كل الناس.. قُمْ أنت.

فليسكن الكل.. وَلْتَقُمْ أَنْتَ.

ويقال: لَمَّا قَرْضَ عليه القيام بالليل أخبر عن نفسه لأجل أمته وإكراماً لشأنه وقدره.

(١) المِرْط: كساء من خَزٍّ أو صوف أو كتان. (لسان العرب / ٤٠١ مادة: مرط).

وقيل: هو الثوب الأخضر، وجمعه مروط.

وفي الخبر: «أنه ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا...»^(١) ولا يُدْرَى التأويل للخبر، أو أنَّ التأويل معلوم... وإلي أن ينتهي إلى التأويل فللأحبابِ راحاتٍ كثيرة، ووجوه من الإحسان موفورة.

قوله جلّ ذكره: ﴿عَلَيْهِ وَرَبِّ الْقُرْآنِ تَرْتِيلًا﴾.

ارتفع بِسِرِّكَ في فهمه، وتأنَّ بلسانك في قراءته.

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾.

قيل: هو القرآن. وقيل: كلمة لا إله إلا الله.

ويقال: الوحي؛ وسمّاه ثقيلاً أي خفيفاً على اللسان ثقيلاً في الميزان.

ويقال: ثقیل أي: له وزن وخطر. وفي الخبر «كان إذا نزل عليه القرآن - وهو على ناقته - وضعت جرائنها»^(٢)، ولا تكاد تتحرك حتى يُسرَّى عنه»^(٣).

وروى ابن عباس: أن سورة الأنعام نزلت مرة واحدة فبركت ناقة رسول الله ﷺ من ثقل القرآن وهيته.

ويقال ﴿ثَقِيلًا﴾ سماعه على مَنْ جحدته.

ويقال: «ثَقِيلًا بِعَيْنِهِ - إلّا على من أُيدَ بقوة سماوية، وزُبِّي في جِجْرِ التقريب».

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْناً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾.

أي: ساعات الليل، فكل ساعة تحدث فهي ناشئة، وهي أشد وطناً أي: موطأة أي: هي أشد موافقة للسان والقلب، وأشد نشاطاً.

ويحتمل: هي أشد وأغلظ على الإنسان من القيام بالنهار.

﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ أي: أثبت قولاً.

ويقال: هي أشد مواطأة للقلب وأقوم قِيلاً لأنها أبعد من الرياء، ويكون فيها حضور القلب وسكون السرّ أبلغ وأتم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾.

أي: سبْحاً في أعمالك، والسبح: الذهاب والسرعة، ومنه السباحة في الماء.

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢/٥٠٤، ٤/٨١)، وصاحب (الإتحافات السنية ٣٢٦)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٧/٢٢١).

وللحديث رواية أخرى «إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه ينزل الله...» أخرجه ابن أبي عاصم في (السنن ٢١٨/١).

(٢) الجران: باطن العنق. (اللسان ١٣/٨٦ مادة: جرن).

(٣) أخرجه الترمذي (وصايا، ٥) وأحمد بن حنبل (٤/١٨٧، ٢٣٨، ٢٣٩).

فالمعنى: مذهبك في النهار فيما يشغلك كثيرة - والليل أخلى لك .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَبَيِّنْ لَهُ تَبَيُّلاً﴾ .

أي: انقطع إليه انقطاعاً تاماً .

﴿رَبُّ الشَّرِيقِ وَالْعَرَبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ .

الوكيل مَنْ تَوَكَّلَ إِلَيْهِ الْأُمُورُ؛ أي: تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَكَلَّ أُمُورَكَ إِلَيْهِ، وَثِقَ بِهِ .

ويقال: إنك إذا اتخذت من المخلوقين وكيلاً اختزلوا مالكَ وطالبوك بالأجرة، وإذا اتخذتني وكيلاً أَوْفَرُ عَلَيْكَ مَالَكَ وَأَعْطَيْكَ الْأَجْرَ .

ويقال: وكيلك ينفق عليك من مالك، وأنا أرزقك وأنفق عليك من مالي .

ويقال: وكيلك مَنْ هُوَ فِي الْقَدَرِ دُونَكَ، وَأَنْتَ تَتَرَفَّعُ أَنْ تَكَلِّمَهُ كَثِيراً . وَأَنَا رَبُّكَ سَيِّدُكَ وَأَحَبُّ أَنْ تَكَلِّمَنِي وَأَكَلِّمَكَ .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْبِزْهُمْ هَزْجًا جَمِيلاً﴾ .

الَهْبِزُ الْجَمِيلُ: أَنْ تَعَاشِرَهُمْ بظَاهِرِكَ وَتُبَايَنَهُمْ بِسِرِّكَ وَقَلْبِكَ .

ويقال: الهبِزُ الجميل ما يكون لحقَّ رَبِّكَ لَا لِحَظَّ نَفْسِكَ .

ويقال: الهبِزُ الجميلُ أَلَا تُكَلِّمُهُمْ، وَتَكَلِّمَنِي لِأَجْلِهِمْ بِالْدَعَاءِ لَهُمْ .

وهذه الآية منسوخة بآية القتال .

قوله جل ذكره: ﴿وَذَرَىٰ وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَىٰ النَّعْمَةِ وَمَهَلُكُمْ قَلِيلاً﴾ .

أي: أُولَى النَّعْمَةِ وَأَنْظَرَهُمْ قَلِيلاً، وَلَا تَهْتَمُّ بِشَأْنِهِمْ، فَإِنِّي أَكْفِيكَ أَمْرَهُمْ .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيماً﴾ .

ثم ذكر وصف القيامة فقال:

﴿يَوْمَ تَرُفُّهُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلاً﴾ .

ثم قال:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِيدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ .

يعني: أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ مُحَمَّدًا ﷺ شَهِيدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا،

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً﴾ ثَقِيلاً .

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا﴾ مِنْ هَوْلِهِ يَصِيرُ الْوِلْدَانُ شِيبًا - وهذا على ضَرْبِ

المثل .

﴿الْأَسْمَاءُ مِنْفَطِرٌ يَدٌ﴾ أي بذلك: اليوم لهوله .

ويقال: مُتَفَطِّرٌ بالله أي: بأمره.

﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾: فما وَعَدَ اللَّهُ سيصده.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾: يعني هذه السورة، أو هذه الآيات مَوْعِظَةٌ؛ فَمَنْ اتَعِظَ بِهَا سَعِدَ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي إِلِيلٍ وَيَصِفُّهُمْ وَأُتْلَىٰ مِنْ أَلْذِينَ مَعَكَ﴾ من المؤمنين.

﴿وَاللَّهُ يَقْدِرُ الْإِلَّ وَالنَّهَارَ﴾ فهو خالقهما ﴿عَلِمَ أَنَّ لَنْ تُخْصَوْهُ﴾ وتطيعوه.

﴿فَنَابَ عَلَيْكَ﴾ أي: خَفَّفَ عنكم ﴿فَاقْرَأُوا مَا يَنْسَرُ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ من خمس آيات إلى ما زاد. ويقال: من عشر آيات إلى ما يزيد.

﴿عَلِمَ أَنَّ سَبْكُوكُمْ مِنْكُمْ مَرَّجَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يسافرون، ويعلم أصحاب الأعدار، فَتَسَخَّ عَنْهُمْ قِيَامَ اللَّيْلِ.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة.

﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ مضى معناه.

﴿وَمَا تَقْضُوا لَكُمْ مِنْ كُلِّ مَتَاعٍ الدُّنْيَا﴾ أي: ما تقدّموا من طاعة تجدوها عند الله ثواباً هو خيرٌ لكم من كلِّ متاع الدنيا.

سورة المدثر

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة سماعها نزهة قلوب الفقراء، كلمة سماعها بهجة أسرار الضعفاء، راحة أرواح الأحياء، قوة قلوب الأولياء، سلوة صدور الأصفياء، قرة عيون أهل البلاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ﴾.

يا أيها المتدثر بثوبه.

وهذه السورة من أول ما أنزل من القرآن. قيل: إن رسول الله ﷺ ذهب إلى جرّاء قبل النبوة، فبدأ له جبريل في الهواء، فرجع الرسول إلى بيت خديجة^(١) وهو يقول «دثروني دثروني»^(٢) فدثر بثوب فنزل عليه جبريل وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ﴾.

وقيل: أيها الطالب صرّف الأذى عنك بالدثار اطلبه بالإنذار.

ويقال: قُمْ بنا، وأسقط عنك ما سوانا، وأنذر عبادنا؛ فلقد أقمنك بأشرف المواقف، ووقفناك بأعلى المقامات.

ويقال: لما سكّن إلى قوله ﴿قُمْ﴾ وقام قطع سِرّه عن السكون إلى قيامه، ومن الطمانينة في قيامه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾.

(١) هي خديجة بنت خويلد بن أسعد بن عبد العزى (٦٨ - ٣ ق هـ = ٥٥٦ - ٦٢٠ م) من قریش زوجة رسول الله ﷺ الأولى، وكانت أمّن منه بخمس عشرة سنة. ولدت بمكة، ونشأت في بيت شرف ويسار، ومات أبوها يوم الفجار، وتزوجت بأبي هالة بن زرة فمات عنها وكانت ذات مال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام، فلما بلغ الرسول ﷺ الخامسة والعشرين خرج في تجارة لها إلى سوق بصري وعاد رابحاً، فدست له من عرض عليه الزواج بها فأجاب وتزوجها فولدت له القاسم وعبد الله وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، ولما بعث رسول الله ﷺ دعاها إلى الإسلام، فكانت أول من أسلم من الرجال والنساء. توفيت بمكة.

الأعلام ٣٠٢/٢، وطبقات ابن سعد ٧/٨ - ١١، وصفة الصفوة ٢/٢، والدر المشور ١٨٠.

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٣/٣٧٧)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٣٥٥٢٨) وابن أبي شيبه في (المصنف ٣/٧٤)، والطبري في (التاريخ ٢/٣٠٤)، وابن حجر في (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ١٧٩).

كَبَّرَهُ عَنْ كُلِّ طَلَبٍ، وَوَضَلَ وَفَضَلَ، وَعِلَّةٌ وَخَلَقِي. ﴿وَيَايَاكَ فَطَعِرْ﴾.

طَهَّرَ قَلْبَكَ عَنِ الْخَلَائِقِ أَجْمَعِ، وَعَنِ كُلِّ صِفَةٍ مَذْمُومَةٍ. وَطَهَّرَ نَفْسَكَ عَنِ الزُّلَّاتِ، وَقَلْبَكَ عَنِ الْمَخَالَفَاتِ، وَسِرِّكَ عَنِ الْاِلْتِفَاتَاتِ. وَيُقَالُ: أَهْلَكَ طَهَّرَهُمْ بِالرَّعْظِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ لِيَأْسَ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فَيَعْبُرُ عَنْهُمْ - أحياناً - بِالثِّيَابِ وَاللِّبَاسِ. قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَالْأَرْجَ فَأَهْجِرْ﴾.

أَيُّ: الْمَعَاصِي. وَيُقَالُ: الشَّيْطَانُ. وَيُقَالُ: طَهَّرَ قَلْبَكَ مِنَ الْخَطَايَا وَأَشْغَالَ الدُّنْيَا.

وَيُقَالُ: مَنْ لَا يَصِيحُ جِسْمُهُ لَا يَجِدُ شَهْوَةَ الطَّعَامِ كَذَلِكَ مَنْ لَا يَصِيحُ قَلْبُهُ لَا يَجِدُ حَلَاوَةَ الطَّاعَةِ.

﴿وَلَا تَمْنَنَّ تَسْتَكْثِرُ﴾.

لَا تُعْطِ عَطَاءً تَطْلُبُ بِهِ زِيَادَةً عَلَى مَا تَعْطِيهِ.

وَيُقَالُ: لَا تَسْتَكْثِرُ الطَّاعَةَ مِنْ نَفْسِكَ.

وَيُقَالُ: لَا تَمْنَنَّ بِعَمَلِكَ فَتَسْتَكْثِرَ عَمَلَكَ، وَتُعْجَبَ بِهِ.

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾.

أَيُّ: أَنْتَ تُؤَذِّي فِي اللَّهِ. فَاصْبِرْ عَلَى مَقَاسَةِ أَذَاهِمِ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِذَا نُفِرَ فِي النَّافِرِ فَذَلِكَ يَوْمَ عَسِيرٍ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾.

يَعْنِي: إِذَا قَامَتِ الْقِيَامَةُ، فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ هَيِّنٍ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِيدًا﴾.

أَيُّ: لَا تَهْتَمُّ بِشَأْنِهِمْ، وَلَا تَحْتَقِلْ؛ فَإِنِّي أَكْفِيكَ أَمْرَهُمْ.

إِنِّي خَلَقْتُهُ وَحَدِي؛ لَمْ يَشَارِكْنِي فِي خَلْقِي إِثْنَاءَ أَحَدٍ.

وَيَحْتَمِلُ: خَلَقْتُهُ وَخَدَهُ لَا نَاصِرَ لَهُ.

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَجَعَلْتُ لَكُمْ مَالًا مَمْدُودًا وَيَبِينَ شُهُودًا﴾.

حُضُورًا مَعَهُ لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى السُّفَرِ.

﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَهْجِيدًا﴾.

أَرَادَ: تَسْهِيلَ التَّصَرُّفِ، أَيْ: مَكْنَتُهُ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي الْأُمُورِ.

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾.

يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَهُ فِي النِّعْمَةِ:

﴿كَلَّا إِنَّكُمْ كَأَن لَّابِلَيْنَا لَعِندَا﴾ .

جحدوا .

﴿سَأَرْهِفُهُمْ صَعُودًا﴾ .

سأحمله على مشقة من العذاب .

﴿إِنَّمْ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ .

أي : لعن كيف فكَّر، وكيف قَدَّر، ويعني به : الوليد بن المغيرة^(١) الذي قال في النبي ﷺ : إنه ليس بشاعر ولا بمجنون ولا بكذاب، وإنه ليس ساحر، وما يأتي به ليس إلا سحر يزوي :

﴿ثُمَّ نَظَرُ ثُمَّ عَبَّ سِرًّا ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَى إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ لَا يَقْبِ وَلَا تَذَرُ لَوَاسِئُهُ لِلْبَشَرِ﴾ .

لا تبقي لحمًا، ولا تذر عظمًا، تحرق بشرة الوجه وتسودها، من لاحت الشمس ولوحت .

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ .

قال المشركون : نحن جَمَعُ كثير . . فما يفعل بنا تسعة عشر؟ ! فأنزل الله سبحانه :

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَرِزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيَّاكَ وَلَا يَرْجَبَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ .

فيزداد المؤمنون إيمانًا، ويقول هؤلاء : أي فائدة في هذا القدر؟ فقال تعالى :

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ .

ثم قال :

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ .

أي : تقاصرت علوم الخلق فلم تتعلق إلا بمقدار دون مقدار، والذي أحاط بكل شيء علماً هو الله - سبحانه

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾ .

(١) هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم (٩٥ هـ - ١ هـ = ٥٣٠ - ٦٢٢ م) أو عبد شمس، من قضاة العرب في الجاهلية، ومن زعماء قريش، ومن زنادقتها. يقال له «العدل» لأنه كان عدل قريش كلها، كان ممن حرم الخمر في الجاهلية، وأدرك الإسلام وهو شيخ هرم، فعاداه وقاوم دعوته. هلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر، ودفن بالحجون وهو والد سيف الله خالد بن الوليد. الأعلام ٨/ ١٢٢، والكمال لابن الأثير ٢/ ٢٦، وروضة الأمل ٥/ ٢٩، واليعقوبي ١/ ٢١٥.

كَلَّا - حرف ردع وتنبيه؛ أي: ارتدعوا عما أنتم عليه، وانتهبوا لغيره.
وأقسم بهذه الأشياء ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾: أي بالقمر، أو بقدرته على القمر.
﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ﴾ وقُرِء «وَدَبَرَ» أي: مضى، ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرَ﴾ أي: تجلّى.
﴿إِنِّي لَأَحْدَى الْكُبَرِ﴾.

أي: النار لإحدى الدواهي الكُبرى.

ويقال في ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾ إشارة إلى أعمار العلوم إذا أخذ هلالها في الزيادة بزيادة البراهين، فإنها تزداد، ثم إذا صارت إلى حد التمام في العلم وبلغت الغاية تبدو أعلام المعرفة، فالعلم يأخذ النقصان، وتطلع شمس المعرفة، فكما أنه إذا قُرب القمر من الشمس يزداد نقصانه حتى إذا قرب من الشمس تماماً صار محاقاً - كذلك إذا ظهر سلطانُ العرفان تأخذ أعمارُ العلوم في النقصان لزيادة المعارف؛ كالسراج في ضوء الشمس وضياء النهار. ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ﴾ أي إذا انكشفت ظلمُ البواطن، ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرَ﴾ وتجلّت أنوار الحقائق في السرائر.. إنها لإحدى العظائم! وذلك من باب التخويف من عودة الظلم إلى القلوب.
﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾.

في هذا تحذير من الشواغل التي هي قواطع عن الحقيقة، فيحذروا المساكنة والملاحظة إلى الطاعات والمواقفات.. فإنها - في الحقيقة - لا خطر لها.
﴿لَئِنْ شَاءَ مِنكُمُ أَنْ يَفْتَدَىٰ بِكُمْ إِنَّا فَنُفِّرَ﴾ عن الطاعات.. وهذا على جهة التهديد.
قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾.
أي: مرتبهة بما عملت، ثم استثنى:
﴿إِلَّا أَصْحَابَ آيَاتٍ﴾.

فقال: إنهم غير مرتبهين بأعمالهم، ويقال: هم الذين قال الله تعالى في شأنهم: «هؤلاء في الجنة ولا أبالي»!
وقيل: أطفال المؤمنين.

﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ قَالُوا لَوْ نَدْرِكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ لَوَدَّ نَحْنُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ وَكُنَّا نَحْوُكُمْ مَعَ الْفَاطِمِينَ وَكُنَّا نَكْذِبُ بِرَبِّهِ الدِّينِ﴾.

هؤلاء يتساءلون عن المجرمين، ويقولون لأهل النار إذا حصل لهم إشراف عليهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ؟﴾ ﴿قَالُوا أَلَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ أَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ؟ وهذا يدل على أنَّ الكفار مُحَاطَبُونَ بتفصيل الشرائع.

﴿وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْخَاطِئِينَ﴾: نَشْرَعُ فِي الْبَاطِلِ، وَنَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ.
﴿حَتَّى أَتِنَّا الْيَقِينَ﴾.

وَهُوَ مَعَايِنَةُ الْقِيَامَةِ.

﴿فَمَا نَفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾.

أَي: لَا تَنَالُهُمْ شَفَاعَةُ مَنْ يَشْفَعُ.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾.

وَالتَّذْكَرَةُ: الْقُرْآنُ:

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾.

كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ نَافِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ أَسَدٍ.

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً﴾.

بَلْ يَرِيدُ كُلُّ مِنْهُمْ أَنْ يُعْطَى كِتَابًا مَنشُورًا.

﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾.

أَي: كَلَّا لَا يُعْطَوْنَ مَا يَتَمَنُّونَ لِأَنَّهُمْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ.

﴿كَلَّا إِنَّكُمْ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾.

إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ - لَا أَنْ تَشَاوَرُوا.

﴿هُوَ أَهْلُ الْقُرَى﴾.

أَهْلٌ لِأَنْ يَتَّقَى.

﴿وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ﴾.

وَأَهْلٌ لِأَنْ يَغْفِرَ لِمَنْ يَتَّقِي - إِنْ شَاءَ.

سورة القيامة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة عزيزة مَنْ سمعها بشاهد العلم استبصر، ومن سمعها بشاهد المعرفة تحير. . فالعلماء في سكون برهانه، والعارفون في دهش سلطانه. . أولئك في نجوم علومهم، فأحوالهم صَحَوْ في صَحْو، وهؤلاء في شمسِ معارفهم: فأوقائهم محو في محو. . فشتان ما هما!!

قوله جل ذكره: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾.

أي: أقسم بيوم القيامة.

﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾.

أي: أقسم بالنفس اللوامة، وهي النفس التي تلوم صاحبها، وتعرف نقصان حالها.

ويقال: غداً. . كل نفس تلوم نفسها: إمّا على كفرها، وإمّا على تقصيرها - وعلى هذا فالقسم يكون بإضمار «الرب» أي: أقسم برَبِّ النفس اللوامة. وليس للوم النفس في القيامة خطر - وإن حُجِلَ على الكل ولكن الفائدة فيه بيان أن كل النفوس غداً - ستكون على هذه الجملة. وجواب القسم قوله: ﴿بَلَى﴾.

قوله جل ذكره: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُجَمَعَ عَظَامُهُ﴾.

أيظن أنا لن نبعثه بعد موته؟

﴿بَلَى قَدِيرِينَ عَلَيَّ أَنْ تُسَوَّى بَنَاتُهُ﴾.

﴿قَدِيرِينَ﴾ نصب على الحال؛ أي بلى، نسوي بنانه في الوقت قادرين، ونقدر أي نجعل أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كَحُفٍّ^(١) البعير وظلف^(٢) الشاة. . فكيف لا نقدر على إعادته؟!

(١) الحُفُّ للبعير: كالحافر للفرس (ج) أخفاف.

(٢) الظلف: الظفر المشقوق لكل حيوان مجتزئ كالبقرة والشاة والظبي ونحوها، وهو بمنزلة الحافر للفرس (ج) أطلاف. وظلوف.

﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرُ أَعْمَاهُ﴾ .

يُقَدِّمُ الزَّلَّةَ ويؤخر التوبة . ويقول : سوف أتوب ، ثم يموت ولا يتوب . ويقال : يعزم على ألا يستكثر من معاصيه في مستأنف وقته ، وبهذا لا تَنَحَّلُ - في الوقت - عقدة الإصرار من قلبه ، وبذلك لا تصح توبته ؛ لأن التوبة من شرطها العزم على ألا يعود إلى مثل ما عمل . فإذا كان استحلاء الزَّلَّةِ في قلبه ، ويفكر في الرجوع إلى مثلها - فلا تصح ندامته .

قوله جل ذكره : ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمَ إِلْيَاسَ﴾ .

على جهة الاستبعاد ، فقال تعالى :

﴿إِذَا رَءَى الْبَصَرَ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ﴾ .

﴿بَرْقٍ﴾ بكسر الراء معناها تحير ، ﴿وَبَرْقٍ﴾ بفتح الراء شَخَصَ (فلا يَطْرِف) من البريق ، وذلك حين يُقَاد إلى جهنم بسبعين ألف سلسلة ، كل سلسلة بيد سبعين ألف مَلَك ، لها زفير وشهيق ، فلا يَبْقَى مَلَكٌ ولا رسول إلا وهو يقول : نفسي نفسي !

﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ كأنهما ثوران عقيران .

ويقال : يجمع بينهما في ألا نور لهما .

﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ؟ وَالْمَفْرُ موضع الفرار إليه ، فيقال لهم :

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾^(١) .

اليوم ، ولا مَهْرَبَ من قضاء الله .

﴿إِن رَّيَكَ يَوْمَئِذٍ نُفُورٌ﴾ .

أي : لا مَجِيدَ عن حُكْمِهِ .

﴿يُنَادُوا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ .

أي : يَعْرِفُ ما أَشْلَفَهُ من ذنوب أحصاها اللَّهُ - وإن كان العبد نسيها .

﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْفَ مَعَادِيرٍ﴾ .

للإنسان على نفسه دليل علامة وشاهد ؛ فأعضاؤه تشهد عليه بما عمله .

ويقال : هو بصيرةٌ وَحُجَّةٌ على نفسه في إنكار البعث .

ويقال : إنه يعلم أنه كان جاحداً كافراً ، ولو أتى بكل حجة فلن تُسمع منه ولن

تنفعه .

قوله جل ذكره : ﴿لَا تَحْزَنْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأَهُ فَالْفُجْرَانَهُ﴾ .

(١) الْوَزَرُ : الملجأ يُعْتَصَمُ بِهِ .

لا تستعجل في تَلْقُفِ الْقُرْآنِ عَلَى جبريل، فَإِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ فِي قَلْبِكَ وَحِفْظَهُ، وكذلك علينا تيسير قراءته على لسانك، فإذا قرأناه أي: جمعناه في قلبك وحفظك فاتبع بإقراءك جَمْعَهُ.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾.

نُبَيِّنُ لَكَ مَا فِيهِ مِنْ أَحْكَامِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَغَيْرِهَا. وكان رسول الله ﷺ يستعجل في التلقف مخافة النسيان، فنهى عن ذلك، وضمن الله له التيسير والتسهيل.

قوله جلّ ذكره: ﴿كَلاَّ بَلْ تُخَيَّبُونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾.

أي: إنما يحملهم على التكذيب للقيامة والنشر أنهم يحبون العاجلة في الدنيا، أي: يحبون البقاء في الدنيا.

﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾: أي: تتركون العمل للآخرة. ويقال: تكفرون بها.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُؤْمَرُ تَائِرُهُ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرُهُ﴾.

﴿تَائِرُهُ﴾: أي مشرقة حسنة، وهي مشرقة لأنها إلى ربها «ناظرة» أي رائية لله. والنظر المقرون بـ «إلى» مضافاً إلى الوجه لا يكون إلا الرؤية، فالله تعالى يخلق الرؤية في وجوههم في الجنة على قلوب العادة، فالوجوه ناظرة إلى الله تعالى. ويقال: العين من جملة الوجه فاسم الوجه يتناوله.

ويقال: الوجه لا ينظر ولكن العين في الوجه هي التي تنظر؛ كما أن النهر لا يجري ولكن الماء في النهر هو الذي يجري، قال تعالى: ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥]. ويقال: في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُؤْمَرُ تَائِرُهُ﴾ دليل على أنهم بصفة الصحو، ولا تتداخلهم حيرة ولا ذهش؛ فالنضرة من أمارات البسط لأن البقاء في حال اللقاء أتم من اللقاء.

والرؤية عند أهل التحقيق تقتضي بقاء الرائي، وعندهم استهلاك العبد في وجود الحق أتم؛ فالذين أشاروا إلى الوجود رأوا الوجود أعلى من الرؤية.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُؤْمَرُ بَاسِرُهُ تَنْظُرُ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا قَافِرُهُ﴾.

﴿بَاسِرُهُ﴾: أي كالحلة عابسة. ﴿قَافِرُهُ﴾: أي: داهية وهي بقاؤهم في النار على التأيد. تظن أن يخلق في وجوههم النظر.

ويحتمل أن يكون معنى ﴿تَنْظُرُ﴾: أي يخلق ظناً في قلوبهم يظهر أثره على وجوههم.

﴿كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ النَّارَ قَبِيلٌ مِّنْ رَّاوٍ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ وَالنَّفَى السَّاقِ إِلَى السَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾.

أي ليس الأمر على ما يظنون؛ بل إذا بلغت نفوسهم التراقي^(١)، ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ؟﴾ أي يقول من حوله: هل أحد يزقيهم؟ هل طبيب يداويه؟ هل دواء يشفيه؟ ويقال: من حوله من الملائكة يقولون: من الذي يزقي برُوحه؛ أملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب؟.

﴿وَلَقَدْ أَنذَرْنَاكَ الْفِرَاقَ﴾: وعلم الميت أنه الموت!.

﴿وَالْقَبْرِ أَلَسَاقُ بِالْسَاقِ﴾: ساقا الميت. فتتكرر شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة.

﴿إِنْ رَيْكَ يَوْمَئِذٍ النَّاسُ أُمَّيَّاتٌ﴾ أي الملائكة يسوّمون روحه إلى الله حيث يأمرهم بأن يحملوها إليه: إما إلى عليين - ثم لها تفاوت درجات، وإما إلى سجين^(٢) - ولها تفاوت درجات.

ويقال: الناس يُكفّنون بدن الميت ويغسلونه، ويصّلون عليه.. والحق سبحانه يلبس روحه ما تستحق من الحُلل، ويغسله بماء الرحمة، ويصلي عليه وملائكته.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى وَلَكِنْ كَذَّبَ وَقَتَّلَ﴾.

يعني: الكافر ما صدق الله ولا صلى له، ولكن كذب وتولى عن الإيمان. وتدل الآية على أن الكفار مخاطبون بتفصيل الشرائع.

﴿ثُمَّ دَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَمْتَطِينَ﴾.

أي: يتبختر ويختال.

﴿أَوَّلًا لَكَ فَأُولَٰئِكَ﴾.

العرب إذا دعيت على أحد بالمكروه قالوا: ﴿أَوَّلًا لَكَ﴾ وهنا أتبع اللفظ اللفظ على سبيل المبالغة.

ويقال: معناه الويل لك يوم تحيا، والويل لك يوم تموت، والويل لك يوم تُبعث، والويل لك يوم تدخل النار.

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾.

مُهْمَلًا لا يُكَلِّفُ؟! ليس كذلك.

﴿أَلَمْ يَكُنْ مِنْ مَتْنٍ يَتَّبِعُ ثُمَّ كَانَ عَلَاقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾.

(١) التراقي: (ج) الترقوة: هي عظم وصل بين ثغره النحر والعاتق من الجانبين. (لسان العرب ١٠/٣٢ مادة: ترق).

(٢) سجين: واد في جهنم.

﴿يَنْ مَيِّتَنَّ﴾ أي تُلْقَى فِي الرَّحْمِ ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ أي: دَمًا عَبِيطًا^(١)، فسَوَّى أَعْضَاءَهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَرَكَّبَ أَجْزَاءَهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي الْخَلْقَةِ، وَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ: إِنْ شَاءَ خَلَقَ الذَّكَرَ، وَإِنْ شَاءَ خَلَقَ الْأُنْثَى، وَإِنْ شَاءَ كِلَيْهِمَا. ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾.

أليس الذي قدر على هذا كله بقادر على إحياء الموتى؟ فهو استفهام في معنى التقرير.

(١) العبيط: من اللحم: الطري غير النضيج. (لسان العرب ٧/٣٤٧ مادة: عبط).

سورة الإنسان

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ جبارٌ تَوَحَّدَ في آزاله بوصف جبروته، وتَفَرَّدَ في آباده بنعت ملكوته؛ فَأَزَلَهُ أَبَدُهُ، وَأَبَدَهُ أَزَلُهُ، وجبروته ملكوته، وملكوته جبروته.

أحدِي الوصفِ، صَمَدِيّ الذات، مُقَدَّسُ الثَّغَتِ، واحدُ الجلالِ، فَزُدُ التعالي، دائمُ العِزِّ، قديمُ البقاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾.

في التفسير: قد أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً له خَطَرٌ ومقدار. قيل: كان آدم عليه السلام أربعين سنة مطروحاً جَسَدُهُ بين مكة والطائف. ثم من صلصال^(١) أربعين سنة، ثم من حملاً مسنون أربعين سنة، فتمَّ خَلْقُهُ بعد مائة وعشرين سنة.

ويقال: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ...﴾: أي لم يأتِ عليه وقتٌ إلا كان مذكوراً إليّ.

ويقال: هل غَفَلْتُ ساعةً عن حِفْظِكَ؟ هل أَلْقَيْتُ - لحظةً - حَبْلَكَ على غارِبِكَ؟ هل أخْلَيْتُكَ - ساعةً - من رعاية جديدة وحماية مزيده.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾: أي من قطرة ماء، ﴿أَمْشَاجٍ﴾: أخلاط من بين الرجل والمرأة.

ويقال: طوراً نطفة، وطوراً علقّة، وطوراً عَظْماً، وطوراً لَحْماً.

﴿نَّبْتَلِيهِ﴾: نمتحنه ونختبره. وقد مضى معناه.

﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

أي: عَرَفْنَاهُ الطريق؛ أي طريق الخير والشر.

(١) الصلصال: الطين اليابس، أو الطين الحر خلط بالرمل فصار يتصلصل (يصوت) إذا جف فإذا طبع بالنار فهو الفجار.

وقيل: إمّا للشقاوة، وإمّا للسعادة، إمّا شاكراً من أوليائنا، وإما أن يكون كافراً من أعدائنا؛ فإن شَكَرَ فبالتوفيق، وإن كَفَرَ فبالخذلان.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَلْنَا وَسْمِيرًا﴾.

أي: هيأنا لهم سلاسل يُسحبون فيها، ﴿وَأَغْلَلْنَا﴾ لأعناقهم يُهانون بها، ﴿وَسْمِيرًا﴾: ناراً مستعرة.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾.

قيل: البرُّ: الذي لا يُضمِرُ الشرَّ، ولا يؤذي الذرَّ.

وقيل: ﴿الْأَبْرَارَ﴾: هم الذين سَمَتْ هِمَّتُهُمْ عن المستحققات، وظهرت في قلوبهم ينابيع الحكمة فاتقوا عن مُساكنة الدنيا.

﴿يَشْرُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾ رائحتها كرائحة الكافور^(١)، أو ممزوجة بالكافور.

ويقال: اختلفت مشاربهم في الآخرة؛ فكلُّ يُسقى ما يليق بحاله... وكذلك في الدنيا مشاربهم مختلفة؛ فمنهم مَنْ يُسقى مَزْجاً، ومنهم مَنْ يُسقى صِرْفاً، ومنهم مَنْ يسقى على الثوب، ومنهم مَنْ يُسقى بالثُجْب ومنهم مَنْ يُسقى وحده ولا يُسقى مما يُسقى غيره، ومنهم مَنْ يسقى هو والقوم شراباً واحداً.. وقالوا:

إن كنت من ندماي فبالأكبر اسقني ولا تَسْقِنِي بالأصغر المتثلّم

وفائدة الشراب - اليوم - أن يشغلهم عن كل شيء فيريحهم عن الإحساس، ويأخذهم عن قضايا العقل.. كذلك قضايا الشراب في الآخرة، فيها زوال الأرب، وسقوط الطلب؛ ودوام الطرب، وذهاب الحرب، والغفلة عن كل سبب.

ولقد قالوا:

عاقز عقارك واضطبخ واقذخ سرورك بالقَدَح

واخلع عذارك^(٢) في الهوى وأرخ عذولك واسترخ

وافرخ بوقيتك إنما عُمِرُ الفتى وقت الفَرَح

قوله جل ذكره: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾.

(١) الكافور: هنا قيل: نبات له نور أبيض كنور الأحوان. والكافور عين ماء في الجنة طيب الريح، والكافور من أخلاط الطيب. (لسان العرب ١٤٩/٥، ١٥٠، مادة: كفر).

(٢) يقال: خلع فلان عذاره؛ أي: انهلك في الفجاء ولم يستح منه واتبع هواه.

يُشَقِّقُونَهَا تَشْقِيقًا، ومعناه أن تلك العيون تجري في منازلهم وقصورهم على ما يريدون. واليوم - لهم عيون في أسرارهم من عين المحبة، وعين الصفاء، وعين الوفاء، وعين البسط، وعين الروح. . . وغير ذلك، وغداً لهم عيون. ﴿يُوفُونَ بِالَّذِذِ﴾.

ثم ذكر أحوالهم في الدنيا فقال: يوفون بالعهد القديم الذي بينهم وبين الله على وجه مخصوص:

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾.

قاسياً، منتشرأ، ممتدأ.

﴿وَيُطْعَمُونَ الْطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِمْ وَنَيْمًا وَأَيْمًا﴾.

أي: على حُبِّهِمْ للطعام لحاجتهم إليه. ويقال: على حُبِّ الله، ولذلك يُطْعَمُونَ.

ويقال: على حُبِّ الإطعام.

وجاء في التفسير: أن الأسير كان كافراً - لأنَّ المسلم ما كان يُستأسر في عهده - فطاف على بيت فاطمة رضي الله عنها وقال: تأسرونا ولا تطعمونا!

﴿إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لِرَبِّهِ اللَّهِ لَا تُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾.

إنما نطعمكم ابتغاء مرضاة الله، لا نريد من قبلكم جزاء ولا شكراً.

ويقال: إنهم لم يذكروا هذا بالستهم، ولكن كان ذلك بضمايرهم.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا﴾.

أي: يوم القيامة.

﴿فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾.

﴿وَلَقَدْهُمْ﴾ أي: أعطاهم ﴿نَصْرَةً وَسُرُورًا﴾.

﴿وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾.

كافأهم على ما صبروا من الجوع ومقاساته جنةً وحريراً.

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾.

واحداه أريكة، وهي السرير في الحجال^(١).

﴿لَا يَرْوَدُ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾.

(١) الحجال: (ج) الحجلة: مثل القبة، وحجلة العروس: بيت يُزين بالثياب والأسرة والستور. (لسان العرب ١٤٤/١١ مادة: حجل).

أي: لا يتأذون فيها بحرٌ ولا برٌ.
﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾.

يتمكنون من قطافها على الوجه الذي هم فيه من غير مشقة؛ فإن كانوا قعوداً تدلّى لهم، وإن كانوا قياماً - وهي على الأرض - ارتقت إليهم.
﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِبَاقِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾.

الاسم فضة، والعين لا تشبه العين.
﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا قَوَارِيرًا مِّن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾.
أي: في صفاء القوارير وبياض الفضة.. قَدَّرَ ذلك على مقدار إرادتهم.
﴿وَسُقُونَ فِيهَا كَأْسًا كَانَتْ رِزَاقًا رِزْقِيلاً﴾.

المقصود منه الطيب، فقد كانوا (أي العرب) يستطيون الزنجبيل^(١)، ويستلذون نكهته، وبه يشبهون الفاكهة، ولا يريدون به ما يقرص اللسان.
﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا﴾.

أي: يُسَقَوْنَ من عين - أثبت المَسْقِيَّ وأَجْمَلَ مَنْ يسقيهم؛ لأنَّ منهم من يسقيه الحق - سبحانه - بلا واسطة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانِ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنشُورًا﴾.
أي: يخدمهم ﴿وَلَدَانِ مُخَلَّدُونَ﴾ وصفا لا يجوز واحد منهم حدّ الوصائف.
وجاء في التفسير: لا يَهْرَمُونَ ولا يموتون. وجاء مَقْرَطُونَ.
إذا رأيتهم حسبتهم من صفاء ألوانهم لؤلؤاً منشوراً.
وفي التفسير: ما من إنسان من أهل الجنة إلا ويخدمه ألف غلام.
قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ نَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾.
﴿ثُمَّ﴾: أي في الجنة.

﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾: في التفسير أن الملائكة تستأذن عليهم بالدخول.
وقيل: هو قوله: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ [ق: ٣٥] ويقال: أي لا زوال له.
﴿عَلَيْهِمْ ثَابُ سُدُنٍ خُضَرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَطُورٌ أَسَاوِرٌ مِّن فِضَّةٍ وَسَقَمَهُمْ رُبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾.

(١) الزنجبيل: مما ينبت في بلاد العرب بأرض عُمان، وهو عروق تسري في الأرض، ونباته شبيه بنبات الراسن وليس منه شيء بريء، وليس بشجر، يؤكل رطباً كما يؤكل البقل، ويستعمل يابساً وأجوده ما يؤتى به من الزنج وبلاد الصين.
وقيل: الزنجبيل: العود الحزيف الذي يحلّي اللسان. (لسان العرب ١١/٣١٢ مادة: زنجبيل).

يحتمل أن يكون هذا الوصف للأبرار. ويصح أن يكون للولدان وهو أَوْلَى،
والاسم يوافق الاسم دون العين.

﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾: الشراب الطهور هو الطاهر في نفسه المُطَهَّرُ لغيره.

فالشراب يكون طهوراً في الجنة - وإن لم يحصل به التطهير لأن الجنة لا يُحتاجُ فيها إلى التطهير.

ولكنه - سبحانه - لما ذَكَرَ الشراب - وهو اليوم في الشاهد نجس - أخبر أن ذلك الشراب غداً طاهر، ومع ذلك مُطَهَّر؛ يُطَهَّرُهم عن محبة الأغيار، فمن يَحْتَسِب من ذلك الشراب شيئاً طَهَّرَه عن محبة جميع المخلوقين والمخلوقات.

ويقال: يُطَهَّرُ صدورهم من الغِلِّ والغِشِّ، ولا يَبْقَى لبعضهم مع بعض خصيصة ولا عداوة ولا دَعْوَى ولا شيء.

ويقال: يُطَهَّرُ قلوبهم عن محبة الحور العين.

ويقال: إن الملائكة تعرض عليهم الشراب فيأبون قبوله منهم، ويقولون: لقد طال أخذنا مِنْ هؤلاء، فإذا هم بكاساتٍ ثَلَاثِي أَفْوَاهَهُمْ بغير أَكْفٍ؛ من غيبٍ إلى عَبْدٍ.

ويقال: اليوم شرابٌ وغداً شراب. . اليوم شرابُ الإيناس وغداً شرابُ الكاس، اليوم شرابٌ من اللُّطْفِ وغداً شرابٌ يُدار على الكَفِّ.

ويقال: مَنْ سقاه اليومَ شرابَ محبَّتِهِ أَنَسَهُ وَشَجَّعَهُ؛ فلا يستوحش في وقته من شيء، ولا يَضِنُّ بروحه عن بَذَل. ومن مقتضى شُرْبِهِ بكأسٍ محبته أن يجودَ على كُلِّ أحدٍ بالكونين من غير تمييز، ولا يَبْقَى على قلبه أثرٌ للأخطار.

ومن آثارِ شُرْبِهِ تذُلُّهُ لكلِّ أحدٍ لأجل محبته، فيكون لأصغرِ الخدمِ تُرَابِ القَدَمِ، لا يتحرَّك فيه للتكبرِ عِزٌّ.

وقد يكون من مقتضى ذلك الشراب أيضاً في بعض الأحيان أن يَتِيَه على أهل الدارين.

ومن مقتضى ذلك الشراب أيضاً أن يَمْلِكَهُ سرورٌ ولا يَتَمَالَكُ معه من خَلْعِ العذار والقاء قناع الحياء ويظهر ما هو به من المواجهيد:

يخلع فيك العذار قومٌ فكيف مَن ماله عذار؟

ومن موجبات ذلك الشراب سقوط الحشمة، فيتكلم بمقتضى البسط، أو بموجب لفظ الشكوى، وبما لا يَسْتَخْرِجُ منه - في حال صَخْوه - سفية

بالمناقش^(١)... وعلى هذا حَمَلُوا قول موسى: ﴿رَبِّ أَوْفِّيْ أَنْظَرَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فقالوا: سَكِرَ من سماع كلامه، فَتَنَطَّقَ بذلك لسانه. وأما مَنْ يسقيهم شراب التوحيد فيُنْفِي عنهم شهوة كلِّ غَيْرٍ فيهيِّمون في أودية العزِّ، ويتيهون في مفاوز^(٢) الكبرياء، وتتلاشى جملتهم في هواء الفردانية.. فلا عقل ولا تمييز ولا فهم ولا إدراك.. فكلُّ هذه المعاني ساقطة.

فالعبدُ يكون في ابتداء الكشف مُستوعباً ثم يصير مستغرقاً ثم يصير مُستهلكاً.. ﴿وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ٤٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾.

يقال لهم: هذا جزاء لكم، ﴿مَشْكُورًا﴾: وشكره لسعيهم تكثير الشواب على القليل من العمل - هذا على طريقة العلماء، وعند قوم شكرهم جزاؤهم على شكرهم.

ويقال: شكره لهم ثاؤه عليهم بذكر إحسانهم على وجه الإكرام.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾.

في مدة سنين.

﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ إِنَّمَا أَوْ كَفُورًا﴾.

أي: ارضَ بقضائه، واستسلم لحكمه.

﴿وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ إِنَّمَا أَوْ كَفُورًا﴾: أي: ولا كفوراً، وهذا أمر له بإفراد ربّه بطاعته.

﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾.

الفرَض في الأول، ثم الثقل.

﴿إِنَّكَ هَؤُلَاءَ...﴾.

أي كفار قريش:

﴿يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾.

أي: لا يعملون ليوم القيامة.

قوله جلّ ذكره: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ بَدِيلًا﴾.

(١) المناقش: (ج) المناقش: ما يُنقَش به.

(٢) المفاوز: (ج) المفازة: الصحراء الواسعة التي لا ماء فيها، وهي كذلك الموضع المهلك.

أعدمناهم ، وخلقنا غيرهم بدلاً عنهم . ويقال : أخذنا عنهم الميثاق .

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ...﴾ .

أي : القرآن تذكرة .

﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ .

بطاعته .

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنََّّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ

وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ .

أي : عذاباً أليماً موجعاً يخلص وجعه إلى قلوبهم .

سورة المرسلات

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة من سمعها بسمع الوجد وفي له فلم ينظر إلى أحد، ومن سمعها بسمع العلم جاد له فلم يبخل بروحه على أحد.

ومن سمعها بسمع التوحيد جرد سِرّه عن إثارة ما سواه في الدنيا والعقبى عيناً وأثراً فما كان هذا كله إلا حاصلًا به كائنًا منه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾.

﴿المرسلات﴾: الملائكة، ﴿عرفًا﴾ أي: أرسلوا بالمعروف من الأمر، أو كثيرين كعرف الفرس.

﴿فَالْمُصَفَّتِ عَصْفًا﴾.

الرياح الشديدة (العواصف تأتي بالعصف وهو ورق الزرع وحطامه).

﴿وَالنَّشِيرَاتِ تَشْرًا﴾.

الأمطار (لأنها تنشر النبات. فالنشر بمعنى الإحياء). ويقال: السحب تنشر الغيث. ويقال: الملائكة.

﴿فَالْفَرَقَاتِ فَرَقًا﴾.

الملائكة؛ تفرق بين الحلال والحرام.

﴿فَالْمُلْقَاتِ ذِكْرًا عَذْرًا أَوْ نَذْرًا﴾.

الملائكة: تلقى الوحي على الأنبياء عليهم السلام؛ إعدارًا وإنذارًا..

وجواب القسم:

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾.

فأقسم بهذه الأشياء: إن القيامة لحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُيَسَتْ﴾.

إنما تكون هذه القيامة. و ﴿طمست﴾: ذهب ضوؤها^(١).

(١) الآية (٩) لم ترد.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ﴾ .

ذَهَبَ بِهَا كُلُّهَا بِسَرْعَةٍ، حَتَّى لَا يَبْقَى لَهَا أَثَرٌ .

﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتْ لَأَيِّ يَوْمٍ أُبْلِتَ لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ .

أَي: جَعَلَ لَهَا وَقْتًا وَأَجَلًا لِفَضْلِ الْقَضَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَيَقَال: أُرْسِلَتْ لِأَوْقَاتٍ مَعْلُومَةٍ .

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ .

عَلَى جِهَةِ التَّعْظِيمِ لَهُ .

﴿وَبَلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ .

مَضَى تَفْسِيرُ مَعْنَى الْوَيْلِ .

وَيَقَال فِي الْإِشَارَاتِ: فَإِذَا نَجُومُ الْمَعَارِفِ طَمَسَتْ بِوُقُوعِ الْغِيَةِ .

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ﴾ الْقُلُوبُ السَّاكِنَةُ بِبَقِيَّةِ الشُّهُودِ حُرُكَتْ عَقُوبَةً عَلَى مَا هَمَّتْ

بِالَّذِي لَا يَجُوزُ . فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِأَرْيَابِ الدَّعَاوَى الْبَاطِلَةِ الْحَاصِلَةِ مِنْ ذَوِي الْقُلُوبِ الْمُطْبَقَةِ الْخَالِيَةِ مِنَ الْمَعَانِي .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿أَلَمْ نُهِكِ الْأَوَّلِينَ ثُمَّ نُنَعِّمُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ .

الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ، وَجَحَدُوا آيَاتِنَا؛ فَمَثَلَمَا أَهْلَكْنَا الْأَوَّلِينَ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ إِذَا فَعَلُوا مِثْلَ فَعْلِهِمْ^(١) .

﴿وَبَلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ الَّذِينَ لَا يَسْتَوِي ظَاهِرُهُمْ وَبَاطِنُهُمْ فِي التَّصْدِيقِ .

وَهَكَذَا كَانَ الْمُتَقَدِّمُونَ مِنْ أَهْلِ الزَّلَّةِ وَالْفَتْرَةِ فِي الطَّرِيقَةِ، وَالْخِيَانَةِ فِي أَحْكَامِ

الْمَحَبَةِ فَعُدُّبُوا بِالْحَرَمَانِ فِي عَاجِلِهِمْ، وَلَمْ يَذُوقُوا مِنَ الْمَعَانِي شَيْئًا .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ .

أَي: حَقِيرٍ . وَإِذْ قَدْ عَلِمْتُمْ ذَلِكَ فَلِمَ لَمْ تَقْسُوا أَمْرَ الْبَعْثِ عَلَيْهِ؟

وَيَقَال: ذَكَّرَهُمْ أَصْلَ خَلْقَتُمْ لثَلَا يُعْجَبُوا بِأَحْوَالِهِمْ؛ فَإِنَّهُ لَا جِنْسَ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ

وَالْمَخْلُوقَاتِ أَشَدَّ دَعَاوَى مِنْ بَنِي آدَمَ . فَمَنْ الْوَاجِبُ أَنْ يَتَفَكَّرَ الْإِنْسَانُ فِي أَصْلِهِ . . .

كَانَ نَظْفَةً وَفِي انْتِهَائِهِ يَكُونُ جِيْفَةً، وَفِي وَسَائِطِ حَالِهِ كَنِيفٌ^(٢) فِي قَمِيصٍ!! فَبِالْحَرِيِّ أَلَّا يُدِلَّ وَلَا يَفْتَحَرَ:

كَيْفَ يَزْهَوُ مَنْ رَجِيعُهُ أَبَدَ الدَّهْرِ ضَجِيعُهُ

(٢) الْكَنِيفُ: السَّاتِرُ أَوِ الْمَرَحَاضُ .

(١) الْآيَةُ (١٨) لَمْ تَرُدْ .

فَهُوَ مِنْهُ وَإِلَيْهِ وَأَخُوهُ وَرَضِيْعُهُ
 وَهُوَ يَدْعُوهُ إِلَى الْحُسْنِ ^(١) شُ بَصَغْرٍ فَيَطِيعُهُ!!
 ويقال: يُذَكِّرُهُمْ أَصْلَهُمْ.. كيف كان كذلك... ومع ذلك فقد نقلهم إلى
 أحسن صورة، قال تعالى:

﴿وَصَوَّرَكُمُ فَاَحْسَنَ صُوْرَكُمْ﴾، والذي يفعل ذلك قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُرْقِيَكُمْ مِنَ
 الأحوال الخسيسة إلى تلك المنازل الشريفة ^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾.

﴿كِفَاتًا﴾ أي: ذات جَمْع؛ فالأرض تضمهم وتجمعهم أحياء وأمواتاً؛ فهم
 يعيشون على ظهرها، ويودعون بعد الموت في بطنها..
 ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوْاسٍ شَلْجِدَنتُ وَأَسْفَيْنَا مَاءً قُرْآنًا﴾.

أي: جبلاً مرتفعات، وجعلنا بها الماء سقياً لكم. يُذَكِّرُهُمْ عَظِيمُ مِثْنِهِ بِذَلِكَ
 عليهم. والإشارة فيه إلى عَظِيمِ مِثْنِهِ أَنَّهُ لَمْ يَخْشَفْ بِكُمْ الْأَرْضَ - وَإِنْ عَمِلْتُمْ مَا عَمِلْتُمْ ^(٣).
 ﴿أَنْطَلِقُوا لِمَا كُنْتُمْ بِهِ تُكْذِبُونَ﴾.

يقال لهم: انطلقوا إلى النار التي كذبتكم بها.

﴿أَنْطَلِقُوا لِمَا ظَلَمْتُمْ ذِي ظُلُمٍ لَا ظُلُمٍ وَلَا يَغْنَى مِنَ اللَّهِ﴾.

كذلك إذا لم يعرف العبد قَدْرَ انفتاح طريقه إلى الله بقلبه، وتعزُّره بتوكله.. فإذا
 رجع إلى الخَلْقِ عند استيلاء الغفلة نَزَعَ اللَّهُ عَنْ قَلْبِهِ الرَّحْمَةَ، وانسَدَّتْ عَلَيْهِ طُرُقُ
 رُشْدِهِ، فيتردد من هذا إلى هذا إلى هذا.

ويقال لهم: انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون. والاستقلال بالله جنة المأوى،
 والرجوع إلى الخَلْقِ قَرْعُ باب جهنم.. وفي معناه أنشدوا:

ولم أَرِ قَبْلِي مَنْ يُفَارِقُ جَنَّةً وَيَقْرَعُ بِالتَّطْفِيلِ بَابَ جَهَنَّمَ ^(٤)

ثم يقال لهم إذا أخذوا في التَّصَلُّ والاعتذار:

﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَظْلُمُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾.

فلما أَنْتَهِيَ مُدَّةُ الْعُقُوبَةِ فَحِينَئِذٍ: إِنَّ اسْتَأْنَفْتَ وَقْتًا اسْتَوْفَ لَكَ وَقْتُ. فَمَا
 الْآنَ.. فصبراً حتى تنقضي أيام العقاب ^(٥).

(١) الْحُسْنُ: البستان: أو مكان قضاء الحاجة.

(٢) الآيات من (٢١ - ٢٤) لم ترد.

(٣) الآية (٢٨) لم ترد.

(٤) الآية (٣٧) لم ترد.

(٥) الآيات من (٣٢ - ٣٤) لم ترد.

﴿هَذَا يَوْمُ الْقَصَلِ جَمَعْتُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾.

فعلنا بكم ما فعلنا بهم في الدنيا من الخذلان، كذلك اليوم سنفعل بكم ما نفعل بهم من دخول النيران^(١).

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّلٍ وَعُيُونٍ﴾.

اليوم.. في ظلال العناية والحماية، وغداً.. هم في ظلال الرحمة والكلاءة.

اليوم.. في ظلال التوحيد، وغداً.. في ظلال حُسن المزيد.

اليوم.. في ظلال المعارف، وغداً.. في ظلال اللطائف.

اليوم.. في ظلال التعريف، وغداً.. في ظلال التشريف^(٢).

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

اليوم تشربون على ذكره.. وغداً تشربون على شهوده، اليوم تشربون بكاسات الصفاء وغداً تشربون بكاسات الولاء^(٣).

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

والإحسان من العبد ترك الكل لأجله! كذلك غداً: يجازيك بترك كل الحاصل عليك لأجلك.

قوله جلّ ذكره: ﴿كُلُوا وَتَمَنَّوْا فَلَيْلًا إِنَّا نَجْزِي الْمُجْرِمُونَ﴾.

هذا خطاب للكفار، وهذا تهديد ووعد، والويل يومئذ لكم^(٤).

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾.

كانوا يُضْرَوْنَ على الإباء والاستكبار فسوف يقاسون البلاء العظيم.

[ذكر في التفسير: أن المتقين دائماً في ظلال الأشجار، وقصور الدرّ مع الأبرار، وعيون جارية وأنهار، وألوان من الفاكهة والثمار.. من كل ما يريدون من الملك الجبار. ويقال لهم في الجنة: كلوا من ثمار الجنات، واشربوا شراباً سليماً من الآفات. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الطاعات. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ من الكرامات. قيل: كلوا واشربوا ﴿هَنِيئًا﴾: لا تبعة عليكم من جهة الخصومات، ولا أذية في المأكولات والمشروبات.

وقيل: الهنيء الذي لا تبعة فيه على صاحبه، ولا أذية فيه من مكروه لغيره^(٥).

(٢) الآية (٤٢) لم ترد.

(٤) الآية (٤٧) لم ترد.

(١) الآيتان (٣٩، ٤٠) لم تردا.

(٣) الآية (٤٥) لم ترد.

(٥) الآيتان (٤٩، ٥٠) لم تردا.

سورة النبأ

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمُ مَلِكٍ تَجَمَّلَ عِبَادُهُ بِطَاعَتِهِ، وَتَزَيَّنَ خَدَمُهُ بِعِبَادَتِهِ وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يَتَجَمَّلُ بِطَاعَةِ الْمُطِيعِينَ، وَلَا يَتَزَيَّنُ بِخِدْمَةِ الْعَابِدِينَ؛ فزينة العابدين صُدار طاعتهم، وزينة العارفين حُلَّةُ معرفتهم، وزينة المحبين تاجُ ولايتهم.. وزينة المذنبين غَسْلُ وجوههم بِصُوبِ عِبَرَتِهِمْ.

قوله جل ذكره: ﴿عَمَّ يَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخْلَفُونَ﴾.

مختلفون بشدة إنكارهم أمرَ البعث، ولالتباسِ ذلك عليهم، وكثرة مُساءلتهم عنه، وكثرة مراجعتهم إلى الرسول ﷺ في معناه.

تكرَّر من الله إنزالُ أمرِ البعث، وكم استدلَّ عليهم في حوازه بوجوه من الأمثلة.. فهذا من ذلك، يقول: ﴿عَمَّ يَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ﴾: عن الخبر العظيم الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخْلَفُونَ قال الله تعالى على جهة الاحتجاج عليهم^(١):

﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾.

دَلَّلْنَاهَا لَهُمْ حَتَّى سَكَنُوهَا.

﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾.

أَوْتَادًا لِلْأَرْضِ حَتَّى تَمِيدَ بِهِمْ.

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾.

ذَكَرًا وَأُنْثَى، وَحَسَنًا وَقَبِيحًا.. وَغَيْرَ ذَلِكَ.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾.

أَي رَاحَةً لَكُمْ، لِتَنْقُطِعُوا عَنْ حَرَكَاتِكُمْ الَّتِي تَعْبَتُمْ بِهَا فِي نَهَارِكُمْ.

﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لِبَاسًا﴾.

تُغَطِّي ظُلْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ فَتَسْكُنُوا فِيهِ.

(١) الْآيَتَانِ (٤، ٥) لَمْ تَرْدَا.

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ .

أي وقت معاشكم .

﴿وَبَيَّنَّا فَوَاقِكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ .

أي سبع سموات .

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ .

أي الشمس، جعلناها سراجاً وقادراً مشتعلاً .

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ .

﴿الْمُعْصِرَاتِ﴾ الرياح التي تغصّر السحاب .

﴿مَاءً ثَجَّاجًا﴾ مطراً صَبَّابًا .

﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ .

﴿حَبًّا﴾ كالحنطة والشعير، ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ بساتين يلتفت بعضها ببعض .

وإذا قد علمتم ذلك فهلاً علمتم أنني قادرٌ على أن أعيدَ الخلقَ وأقيمَ القيامةَ؟

فبعد أن عدّ عليهم بعضُ وجوهِ إنعامه، وتمكينهم من منافعهم . . قال :

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ .

مضى معناه .

﴿يَوْمَ يُفْعَلُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ .

أي في ذلك اليوم تأتون زُمراً وجماعاتٍ .

﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ .

أي : تَشَقَّقَتْ وانفطرت .

﴿وُسِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ .

أي كالسراب .

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ .

أي ممرّاً . ويقال : ذات ارتقابٍ لأهلها .

﴿لِلظَّالِمِينَ مَقَابًا﴾ .

أي مرجعاً .

﴿لَيُبَيِّنَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ .

أي دهوراً، والمعنى مُؤبِّدين .

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حِيمًا وَعَسَاقًا﴾ .

مضى معناه . ثم يُعَذِّبون بعد ذلك بأنواعٍ أُخَر من العذاب .

﴿جَزَاءً وَفَاءً﴾ .

أي : جُوزُوا على فرق أعمالهم . ويقال : على وفق ما سَبَقَ به التقديرُ، وجرى به الحكم .

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ .

لا يؤمنون فيرجعون الثواب ويخافون العقاب .

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ .

أي : تكذَّبوا .

﴿وَكُلُّ شَقٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ .

يأي : كتبناه كتاباً ، وعلمناه علماً .

والمسبُحُ الزاهدُ يحصي تسبيحه ، والمهجورُ البائسُ يحصي أيامَ هجرانه ، والذي هو صاحبُ وصالٍ لا يتفرَّغ من وُضْله إلى تذكُّرِ أيامه في العدد ، أو الطول والقصر .

والملائكةُ يُحصون زَلَّاتِ العاصين ، ويكتبونها في صحائفهم . والحق سبحانه يقول :

﴿وَكُلُّ شَقٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ فكما أحصى زَلَّاتِ العاصين وطاعات المطيعين فكذلك أحصى أيامَ هجرانِ المهجورين وأيامَ مِحْنِ الممتحنين ، وإنَّ لهم في ذلك لَسَلْوةً ونَفْسًا :

ثمانٍ قد مضينَ بلا تلاقٍ وما في الصبرِ فضلٌ عن ثمانٍ

وكم من أقوامٍ جاوزت أيامُ فترتهم الحدَّ! وأزبَتْ أوقاتُ هجرانهم على الحَضْر!

قوله جلَّ ذكره : ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ .

يا أيها الْمُتَعَمِّونُ في الجنة . . افرحوا وتمتعوا فلن نزيدكم إلا ثواباً .

أيها الكافرون . . احترقوا في النار . . ولن نزيدكم إلا عذاباً .

ويا أيها المطيعون . . افرحوا وارتعوا فلن نزيدكم إلا فضلاً على فضل .

يا أيها المساكين . . ابكوا واجزعوا فلن نزيدكم إلا عزلاً على عزل .

قوله جلَّ ذكره : ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدِيدًا وَعَتَبًا وَكُوَاعِبَ آثَارًا وَكَلِمًا وَهَاقًا لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا

وَلَا كِذَابًا جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ .

مُسَلِّمٌ للمتقين ما وعدناهم به . . فهنيئاً لهم ما أعددنا لهم من الفوزِ بالبُغْيَةِ

وَالظَّفَرِ بِالسُّؤْلِ وَالْمُتْنَةِ: من حدائق وأعقاب، ومن كواعب أترابٍ وغير ذلك.
فيا أيها المَهَيِّمُونَ الْمُتَيِّمُونَ هنيئاً لكم ما أنتم فيه اليوم في سبيل مولاكم من
تجرّد وفقر، وما كلّفكم به من توكل وصبر، وما تجرّعتم من صَدٍّ وهجر.

أحرى الملابس ما تَلَقَّى الحبيب به يوم التزاور في الشوب الذي خَلَعَا
قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ آذانهم مصونة عن سماع الأغيار، وأبصارهم محفوظة
عن ملاحظة الرسوم والآثار.

قوله جلّ ذكره: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً﴾.
وكيف تكون للمُكُونِ المخلوقِ الفقيرِ المسكينِ مُكْنَةً أَنْ يملك منه خطاباً؟ أو
يتنفس بدونه نفساً؟ كلا. بل هو الله الواحدُ الجبار.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ
صَوَاباً﴾.

إنما تظهر الهيبة على العموم لأهل الجمع في ذلك اليوم، وأمّا الخواص
وأصحابُ الحضور فهُم أبدأ بمشهد العزّ بنعت الهيبة، لا نفس لهم ولا راحة؛ أحاط
بهم سرادقها واستولت عليهم حقانها.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ آمَنَ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَتَاباً﴾.
هم بمشهد الحق، والْحَكْمُ عليهم الحق، حكم عليهم بالحق، وهم مجذوبون
بالحق للحق.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾.
وهو عند أهل الغفلة بعيد، ولكنه في التحقيق قريب.
﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً﴾.

مضوا في ذلّ الاختيار والتعني، وبُعِثُوا في حسرة التمني، ولو أنهم رضوا
بالتقدير لتخلّصوا عن التمني.

سورة النازعات

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ عزيزٌ لربِّ عزيز، سماعه يحتاج إلى سَمْعٍ عزيز، وذِكْرُه يحتاج إلى وقتٍ عزيز، وفهمه يحتاج إلى قلبٍ عزيز.

وأنتى لصاحبِ سَمْعٍ بالغية مُبْتَدَل، ووقتِ مُعْطَلٍ في الخسائسِ مُسْتَعْرَق، وقلبٍ في الاشتغال بالأغيارِ مستعمل. . أنتى له أَنْ يَصْلُحَ لِسَمَاعِ هذا الاسمِ؟!

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْاقًا﴾.

أي الملائكة؛ تنزعُ أرواحَ الكفارِ من أبدانهم.

﴿غَرْاقًا﴾: أي إغراقاً كالْمُغْرِقِ في قَوْسِهِ.

ويقال: هي النجوم تنزع من مكانٍ إلى مكان.

﴿وَالنَّشِيطَاتِ تَشَاطًا﴾.

هي أنفس المؤمنين تَنَشِطُ للخروج عند الموت.

ويقال: هي الملائكة تنشطُ أرواحَ الكفار، وتنزعها فيشتدُّ عليهم خروجُها.

ويقال: هي الوحوش تنشط من بلدٍ إلى بلدٍ.

ويقال: هي الأوهاق^(١).

ويقال: هي النجوم تنشط من المشارق إلى المغارب ومن المغارب إلى

المشارق.

﴿وَالسَّيِّحاتِ مَیْمًا﴾.

الملائكة تسح في نزولها.

ويقال: هي النجوم تسح في أفلاكها.

ويقال: هي السفن في البحار.

ويقال: هي أرواح المؤمنين تخرج بسهولة لشوقها إلى الله.

﴿وَالسَّيِّقاتِ سَبَّاقًا﴾.

(١) الأوهاق: (ج) الوهق: الحبل المُفَارِيزُ من فيه أنشودة فتؤخذ فيه الدابة والإنسان. (لسان العرب ٣٨٥/١٠ مادة: وهق).

الملائكة يسبقون إلى الخير والبركة، أو لأنها تسبق الشياطين عند نزول الوحي، أو لأنها تسبق بأرواح الكفار إلى النار.

ويقال: هي النجوم يسبق بعضها بعضاً في الأفول.
﴿فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا﴾.

الملائكة تنزل بالحرام والحلال.

ويقال: جبريل بالوحي، وميكائيل بالقَطْرِ والنبات، وإسرافيل بالصُور، ومَلَكُ الموت يَقْبِضُ الأرواح.. عليهم السلام.

وجوابُ القسم قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَتَخَفُّ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِفَةُ﴾.

تتحرك الأرض حركةً شديدة.

﴿تَتَّبِعَهَا الرّادِّةُ﴾.

النفخة الأولى في الصُور. وقيل: الراجفة النفخة الأولى والرادفة النفخة الثانية.

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾.

خائفة.

﴿يَقُولُونَ أَوْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾.

أي إلى أول أمرنا وحالنا، يعني أيّذا متنا نبعث ونُرَدُّ إلى الدنيا (ونمشي على الأرض بأقدامنا)؟. قالوه على جهة الاستبعاد.

﴿أَوَدَا كُنَّا عِظَمًا خَجَرًا﴾.

أي بالية.

﴿قَالُوا يَلَيْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾.

رَجَعَتْ ذات خسران (ما دام المصيرُ إلى النار).

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾.

جاء في التفسير إنها أرض المحشر، ويقال: إنها أرض بيضاء لم يُغصَّ الله فيها.

ويقال: ﴿الساهرة﴾ نَفْخَةُ الصُور تذهب بنومهم وتسهرهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

أي الأرض المطهرة المباركة. ﴿طُوًى﴾ اسم الوادي هناك.

﴿أَذْهَبَ إِلَيْكَ فِيْهِنَّ إِنَّهُ طُوًى فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَهٌ أَن تَزُكَّ﴾.

قلنا له: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾، فقل له: هل يقع لك أن تؤمنَ وتتطهر من ذنوبك.

وفي التفسير: لو قُلْتَ لا إله إلا الله فَلَكَ مُلْكٌ لا يزول، وشبابك لا يهرم، وتعيش أربعمئة سنة في السعادة والنعمة.. ثم لك الجنة في الآخرة. ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾.

أَقْرُرُ لك بالآيات صِحَّةَ ما أقول، وأعرفك صحة الدين.. فهل لك ذلك؟ فلم يَقْبَلْ.

ويقال: أظهر له كل هذا التلطف ولكنه في خفي سِرِّه وواجب مَكْرِه به أنه صَرَفَ قلبه عن إرادة هذه الأشياء، وإيثار مراده على مراد ربِّه، وألقى في قلبه الامتناع، وتَرَكَ قبول التَّضْحِج.. وأي قلب يسمع هذا الخطاب فلا ينقطع لعذوبة هذا اللفظ؟ وأي كِبِدٍ تعرف هذا فلا تَتَشَقَّقُ لصعوبة هذا المكر؟ قوله جلَّ ذكره: ﴿فَآرَأَيْتَ الْكُفْرَىٰ﴾.

جاء في التفسير: هي إخراج يده بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس. فقال فرعون: حتى أشاورَ هامانَ، فشاورَه، فقال له هامان: أبعد ما كُنْتُ رِبًّا تكون مربوباً؟! وبعد ما كنت مَلِكاً تكون مملوكاً؟

فكذَّبَ فرعونُ عند ذلك، وَعَصَى، وَجَمَعَ السَّحَرَةَ، ونادى^(١): ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾.

ويقال: إن إبليس لما سَمِعَ هذا الخطاب فرَّ وقال: لا أطيق هذا! ويقال قال: أنا أَدْعِيْتُ الخيرية على آدم فلقيت ما لقيت.. وهذا يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾^(٢).

قوله جلَّ ذكره: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾. أي في إهلاكنا فرعون لَعِبْرَةً لمن يخشى.

قوله جلَّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ السَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا رَفَعْنَا سَعَكُمَا فَوَنَّاهَا وَاعْطَشْنَا لَيْلَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا دُمُوءًا مَّسْكِيَّةً﴾. جعلها مستوية. ﴿وَاعْطَشْنَا لَيْلَهَا﴾ أظلم ليلها. ﴿مُصْنَهَا﴾ ضوؤها ونهارها. ﴿دَحْنَهَا﴾ بَسَطَهَا وَمَدَّهَا^(٣). ﴿أَخْرَجْنَا مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَهَا﴾.

(٢) الآية (٢٥) لم ترد.

(١) الآيات من (٢١ - ٢٣) لم ترد.

(٣) الآية: (٣٠) لم ترد.

أخرج من الأرض العيون المتفجرة بالماء، وأخرج النبات . .
﴿وَالْجِبَالُ أَوَّسَهَا﴾ .

أثبتها أوتاداً للأرض .

﴿مَنَا لَكُمْ وَلَاقَمِكُمْ﴾ .

أي أخرجنا النبات ليكون لكم به استمتاع، وكذلك لأنعامكم .
﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى﴾ .

الداحية العظمى . . وهي القيامة .

﴿يَوْمَ يَذَّكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ .

وبرزت الجحيم لمن يرى، فأما من طغى وكفر وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم له
المأوى والمستقر والمشوى^(١) .

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ .

﴿مَقَامَ رَبِّهِ﴾ : وقوفه غداً في محل الحساب . ويقال : إقبال الله عليه وأنه راء
له . . وهذا عين المراقبة، والآخر محل المحاسبة .

﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أي لم يتابع هواه .

قوله جل ذكره : ﴿يَتْلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَبَانَ مُرْسَهَا﴾ .

أي متى تقوم؟

﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا﴾ .

من أين لك علمها ولم نعلمك ذلك .

﴿إِلَّا رَبُّكَ مُنْهَبَهَا﴾ .

أي إنما يعلم ذلك ربك .

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَخْشَهَا﴾ .

أي تخوف، فيقبل تخويفك من يخشاها ويؤمن .

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ .

كانهم يوم يرون القيامة ﴿لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى﴾ فلشدة ما يرون تقل عندهم
كثرة ما لبسوا تحت الأرض .

(١) الآيات من (٣٦ - ٣٩) لم ترد .

سورة عبس

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسم كريم بَسَطَ للمؤمنين بساطَ جوده، اسم عزيز انسَدَّ على الأولين والآخرين طريقَ وُجُودِهِ. . . وأتَى بذلك ولا حَدَّ له؟ مَنْ الذي يدركه بالزَّمانِ والزَّمانُ خَلَقَهُ؟ ومن الذي يحسبه في المكانِ والمكانُ فِغْلُهُ؟ وَمَنْ الذي يعرفه - إِلَّا وبه يعرفه؟ وَمَنْ الذي يَذْكُرُهُ - إِلَّا وبه يذكره؟

قوله جل ذكره: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾.

نَزَلَتْ في ابن أم مكتوم^(١)، وكان ضريراً. . . أتى النبي ﷺ وكان عنده العباس بن عبد المطلب^(٢) وأمية بن خلف الجُمُحِي^(٣) - يرجو الرسول ﷺ إيمانَهما، فَكَّرَهُ أَنْ يَقْطَعَ حديثَهُ معهما، فأعرض عن ابن أم مكتوم، وَعَبَسَ وَجْهَهُ، فأنزل الله هذه الآية.

وجاء في التفسير: أن النبي ﷺ خرج على أثره، وأمرَ بطلبيه، وكان بعد ذلك يَبْرُهُ وَيُكْرِمُهُ، فاستخلفه على المدينة مرتين.

(١) هو عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم (.... - ٢٣ هـ = - ٦٤٣ م) ابن أم مكتوم، صحابي شجاع كان ضريح البصر. أسلم بمكة، وهاجر إلى المدينة بعد وقعة بدر، وكان يؤذن لرسول الله ﷺ في المدينة، مع بلال، وكان النبي يستخلفه على المدينة، يصلي بالناس، في عامة غزواته وحضر حرب القادسية ومعه راية سوداء وعليه درع سابغة، فقاتل وهو أعمى ورجع بعدها إلى المدينة، فتوفي فيها قبيل وفاة عمر بن الخطاب.

الأعلام ٨٣/٥، وابن سعد ١٥٣/٤، وصفة الصفوة ٢٣٧/١.

(٢) هو العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف (٥١ ق هـ - ٣٢ هـ = ٥٧٣ - ٦٥٣ م) أبو الفضل، من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام، وجدّ الخلفاء العباسيين، وهو عم النبي ﷺ كان محسناً لقومه، سديد الرأي، واسع العقل، مولعاً بإعتاق العبيد، كارهاً للرق، اشترى ٧٠ عبداً وأعتقهم، وكانت له سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، أسلم قبل الهجرة وكنم إسلامه وأقام بمكة يكتب إلى رسول الله ﷺ أخبار المشركين. ثم هاجر إلى المدينة، وشهد وقعة حنين، وشهد فتح مكة، وعمي في آخر عمره، كانت وفاته في المدينة، وله في كتب الحديث ٣٥ حديثاً.

الأعلام ٢٦٢/٣، ونكت الهميان ١٧٥، وصفة الصفوة ٢٠٣/١، وذيل المذيل ١٠.

(٣) انظر ترجمته في الأعلام ٢٢/٢، وسيرة ابن هشام ٥٢/٢، والكمال لابن الأثير ٤٨/٢ وعيون الأثر ٢٥٩/١.

وجاء في التفسير: أنه ﷺ لم يغيب - بعد هذا - في وجه فقير قط، ولم يُعرض عنه .
ويقال: في الخطاب لطف... وهو أنه لم يواجهه بل قاله على الكناية، ثم
بعده قال:

﴿وَمَا يَذْكُرُكَ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ﴾ .

أي يتذكر بما يتعلم منك أو .

﴿أَوْ يَذْكُرُ فَنَنْفَعَهُ الْذِكْرُ﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ فَأَن تَلَمْ تَصَدَّىٰ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبُ﴾ .

أما من استغنى عن نفسه فإنه استغنى عن الله .

ويقال: استغنى بما له فانت له تصدَّى، أي تُقيل عليه بوجهك .

﴿وَمَا عَلَيْكَ﴾ فانت لا تؤاخذ بالآلات يتركى هو وإنما عليك البلاغ .

﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعًا﴾ .

لطلب العلم، ويخشى الله فانت عنه تتلهى، وتتشاغل... وهذا كله من قبيل العتاب معه لأجل الفقراء^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿كَلَّا إِنَّمَا تَذْكُرُهُ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾ .

القرآن تذكرة؛ فمن شاء الله أن يذكره ذكره، ومن شاء الله ألا يذكره لم يذكره؛

أي بذلك جرى القضاء، فلا يكون إلا ما شاء الله .

ويقال: الكلام على جهة التهديد؛ ومعناه: فمن أراد أن يذكره فليذكره،

ومن شاء ألا يذكره فلا يذكره! كقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف:

٢٩] .

وقال سبحانه: ﴿ذَكَّرْهُ﴾ ولم يقل «ذَكَرَهَا» لأنه أراد به القرآن .

قوله جل ذكره: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ .

أي صحف إبراهيم وموسى وما قبل ذلك، وفي اللوح المحفوظ .

﴿تَرْفَعُهُمْ مِّثْقَالَهُمْ﴾ .

مرفوعة في القدر والرتبة، مطهرة من التناقض والكذب .

﴿بِأَيِّ سَفَرٍ﴾ .

أي: الملائكة الكتبة .

(١) الآيات (٩، ١٠) لم تردا .

﴿كَرَّامٌ يَذَرُّ﴾.

كرام عند الله بَرَّة.

قوله جل ذكره: ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ﴾.

لُعِنَ الإنسان ما أعظم كفْره!..

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ مِنْ نَفْثِهِ خَلْقًا فَقَدَرُ﴾.

خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ وَقَدَرَهُ أَطْوَارًا: من نطفة، ثم علقة، ثم طوراً بعد طور.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ السَّيْلَ يَسْرُ﴾.

يَسْرُ عليه السبيل في الخير والشر، وألهمه كيف التصرف.

ويقال: يَسْرُ عليه الخروج من بطن أمه يخرج أولاً رأسه منكوساً.

﴿ثُمَّ أَمَّا نَفْسُهَا فَكَرِهَ﴾.

أي: جعل له قبراً لثلاً تفتريسه السباع والطيور ولثلاً يفتضح.

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾.

بَعَثَهُ من قبره.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُ﴾.

أي: عصى وخالف ما أمر به.

ويقال: لم يقض الله له ما أمره به، ولو قضى عليه وله ما أمره به لَمَّا عصاه.

قوله جل ذكره: ﴿فَنَنْظُرُ الْإِنْسَانَ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنبَتْنَا فِيهَا

حَبًّا وَنَبَاتًا وَفَضًّا وَزُيْتُونًَا وَأَنجَلًا وَحَدَائِقَ غُلًّا﴾.

في الإشارة: صَبَبْنَا ماء الرحمة على القلوب القاسية فَلَانَتْ للتوبة، وصَبَبْنَا ماء

التعريف على القلوب فنبتت فيها أزهارُ التوحيد وأنوارُ التجريد.

﴿وَفَضًّا﴾ أي القَت^(١).

﴿وَحَدَائِقَ غُلًّا﴾ متكاثفة غلاظاً.

﴿وَالْزُيْتُونََ وَأَنَّا﴾.

الفاكهة: جمع الفواكه، و ﴿وَأَنَّا﴾: المرعى.

﴿مُتَنَمِّئًا لَكُمْ وَلاَ تَنَمُّوْا...﴾.

(١) القَت: الفصفاة، وخص بعضهم به اليابسة منها، وقيل: الفسفة، ويكون رطباً ويكون يابساً.

(لسان ٧١ / ٢ مادة: قَت).

﴿إِذَا جَاءَتِ الصَّلَٰةُ﴾ أي: القيامة؛ فيومئذ يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، ثم بين ما سبب ذلك فقال^(١).

﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُنْبِئُ﴾.

لا يتفرغ إلى ذاك، ولا ذاك إلى هذه. كذلك قالوا: الاستقامة أن تشهد الوقت قيامة، فما من ولي ولا عارف إلا وهو - اليوم - بقلبه يفر من أخيه وأمه وأبيه، وصاحبه وبنيه.

فالعارف مع الخلق ولكنه يفارقهم بقلبه - قالوا:

فلقد جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحث جسمي من أراد جلوسي

قوله جل ذكره: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّشْفَرَةٌ ضَٰحِكَةٌ مُّتَبَشِّرَةٌ﴾.

وسبب استبشارهم مختلف؛ فمنهم من استبشاره لوصوله إلى جنته، ومنهم لوصوله إلى الحور العين من حظيته. . ومنهم ومنهم، وبعضهم لأنه نظر إلى ربه فرآه.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَٰبِرَةٌ رَّغْمًا قَرَرَتْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾.

وهي غبرة الفساق. ﴿رَّغْمًا قَرَرَتْ﴾. وهي ذل الحجاب.

(١) الآيات من (٣٤ - ٣٦) لم ترد.

سورة التَّكْوِيْرِ

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيْمِ﴾.

«بسم الله» كلمة أُلْجِنَتْ من قوم قلوباً، وأوهجت من آخرين قلوباً؛ من المطيعين أُلْجِنَتْهَا، ومن العاصين أَوَهَجَتْهَا، ومن المريدين أبهَجَتْهَا، ومن العارفين أزعَجَتْهَا.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾.

ذَهَبَ ضَوْؤُهَا.

﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾.

تناثرت وسقطت عَلَى الأرض.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَإِذَا الْبِلَالُ سُيِّرَتْ﴾.

أُزِيلَتْ عنها مناكبُهَا.

﴿وَإِذَا الْمَآءُ عُوْلَتْ﴾.

وهي الثَّوْقُ الحواملُ التي أتى حَمْلُهَا عَشْرَةُ أَشْهُرٍ... أهملت في ذلك اليوم لشدة أهواله، (واشتغال الناس بأنفسهم عنها).

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾.

أُخِيطَتْ، وَجُمِعَتْ في القيامة لِيُفْتَنَ لِبَعْضِهَا من بعض؛ فيقتصر للجَمَاءِ^(١) من القَرْنَاءِ - وهذا على جهة ضَرْبِ المثل؛ إذ لا تكليف عليها.

ولا ينبغي أن يكون بإيصال منافع إلى ما وصل إليه الألم - اليوم - على العِوَضِ... جوازاً لا وجوباً على ما قاله أهلُ البِدْعِ.

﴿وَإِذَا الْإِنْحَارُ سُجِّرَتْ﴾.

أوقدت - مِنْ سَجَرَتِ النُّورِ أَسْجُرُهُ سَجْراً، أي: أَخْمَيْتُهُ.

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾.

بالأزواج.

(١) شاة جماء: إذا لم تكن ذات قرن بينة الجمم. (اللسان ١٠٨/١٢ مادة: جمم).

﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سَلَتْ بِأَيِّ ذُنْبٍ قُنِلَتْ وَإِذَا الشُّفُفُ تُشِرَتْ ﴾ .

تُشِرَتْ، أي: بُسِطَتْ .

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾ .

أي: تُزْعَثُ وَطَوِيَتْ .

﴿وَإِذَا الْجَبِيمُ سُفِرَتْ ﴾ .

أُوقِدَتْ .

﴿وَإِذَا الْبَلَّةُ أُنْفِلَتْ ﴾ .

أي: قُرِبَتْ مِنَ الْمُتَّقِينَ .

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ .

هو جوابٌ لهذه الأشياء، وهذه الأشياء تحصل عند قيام القيامة .

وفي قيام هذه الطائفة (يقصد الصوفية) عند استيلاء هذه الأحوال عليهم، وتجلي

هذه المعاني لقلوبهم توجد هذه الأشياء .

فمن اختلاف أحوالهم: أَنَّ لشموسهم في بعض الأحيان كسوفاً وذلك عندما

يُرْدُونَ .

ونجومٌ علوهم قد تنكدر لاستيلاء الهوى على المريرين في بعض الأحوال،

فعند ذلك ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ .

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿فَلَا أُقِيمُ لِلنَّفْسِ لِلْجَوَارِ الْكُنْصِ ﴾ .

أي: أُقِيمُ، وَالْخُنْصُ وَالْكُنْصُ هي النجوم إذا غربت .

ويقال: البقر الوحشي .

قوله جَلَّ ذَكَرَهُ: ﴿وَالْأَيْلُ إِذَا عَسَمَسَ وَالْفَتِيجُ إِذَا نَفَسَ ﴾ .

عسَمَسَ: أي جاء وأقبل . ﴿نَفَسَ﴾: خرج من جوف الليل .

أقسم بهذه الأشياء، وجواب القسم:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ .

إن هذا القرآن لقولٌ رسولٍ كريمٍ، يعني به جبريل عليه السلام .

﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ .

﴿مَكِينٍ﴾ من المكانة، وقد بلغ من قوته أنه قلع قرية آل لوط وقلبها^(١) .

(١) الآية (٢١) لم ترد .

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ .

وهذا أيضاً من جواب القسم .

﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ .

رأى محمد جبريل عليه السلام بالأفق المبين ليلة المعراج .

ويقال : رأى ربه وكان ﷺ بالأفق المبين .

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ .

بمُتَّهِمٌ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿فَأَن تَذَهَبُونَ﴾ .

إلى متى تتطوحون في أودية الظنون والحسبان؟

وإلى أين تذهبون عن شهود مواضع الحقيقة؟

وهلاً رجعتم إلى مولاكم فيما سركم أو أساءكم؟

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَفِيمَ﴾ .

ما هذا القرآن إلا ذكرى ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَفِيمَ﴾ . . . وقد مضى القول في

الاستقامة .

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ .

أَنْ يَشَاءُوا .

(١) الآية (٢٥) لم ترد .

سورة الانفطار

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة منيعة ليس يسمو إلى فهمها كل خاطر؛ فإذا كان الخاطر غير عاطر فهو عن علم حقيقتها متقاصر.

قوله جل ذكره: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾.

أي: انشقت.

﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَزَعَتْ﴾.

تساقطت وتهافتت.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾.

أي: فُتِحَ بعضها على بعض.

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾.

أي: قُلِبَ ترابها، وبُعث الموتى الذين فيها، وأُخرج ما فيها من كنوز وموتى.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾.

جواب لهذه الأمور؛ أي إذا كانت هذه الأشياء: عَلِمَتْ كل نفس ما قدمت من خيرها وشرها.

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾.

أي: ما خدعَكَ وما سَوَّلَ لَكَ حتى عَمِلْتَ بمعاصيه؟

ويقال: سألَه وكأنما في نفس السؤال لَقْنَه الجواب يقول: غَرَّبَنِي كَرَمُكَ بِي، ولولا كَرَمُكَ لَمَّا فَعَلْتُ؛ لأنك رأيت فَسَّرْتَ، وقَدَّرْتَ فَأَمَهَلْتَ.

ويقال: إن المؤمن وثق بِحُسْنِ إفضاله فاغتر بطول إمهاله فلم يرتكب الزلة لاستحلاله، ولكن طول جلعه عنه حَمَلَه على سوء خصاله، وكما قلت:

يقول مولاي: أما تستحي مما أرى من سوء أفعالك

قلت: يا مولاي رفقا فقد جُرَّأني كثرة أفضالك

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾.

أي: رُكِبَ أَعْضَاءُكَ عَلَى الْوُجُوهِ الْحَكَمِيَّةِ ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ﴾، من الْحُسْنِ وَالْقُبْحِ، وَالطَّوْلِ وَالْقِصَرِ. ويصح أن تكون الصورة هنا بمعنى الصِّفَةِ، و «في» بمعنى «على»؛ فيكون معناه: على أي صفة شاء رُكِبَكَ؛ من السعادة أو الشقاوة، والإيمان أو المعصية...

قوله جل ذكره: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾.

أي: القيامة.

﴿وَلَنْ عَلَيْكُمْ لِحُفَظَيْنِ كِرَامًا كَنِينٍ يَعْمَلُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

هم الملائكة الذين يكتبون الأعمال. وقد خُوفَهُمْ بِرُؤْيَا الْمَلَائِكَةِ وَكَتَابَتِهِمُ الْأَعْمَالِ لِقَاصِرِ حَشْمَتِهِمْ مِنْ أَطْلَاعِ الْحَقِّ، وَلَوْ عَلِمُوا ذَلِكَ حَقَّ الْعِلْمِ لَكَانَ تَوْفِيهِمْ عَنِ الْمَخَالَفَاتِ لِرُؤْيَا سُبْحَانِهِ، وَاسْتِحْيَاؤِهِمْ مِنْ أَطْلَاعِهِ - أُنْتُمْ مِنْ رُؤْيَا الْمَلَائِكَةِ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾.

﴿الْأَبْرَارَ﴾: هم المؤمنون؛ الْيَوْمَ فِي نِعْمَةِ الْعِصْمَةِ، وَغَدًا هُمْ فِي الْكِرَامَةِ وَالنِّعْمَةِ ﴿الْفُجَّارَ﴾: الْيَوْمَ فِي جَهَنَّمَ بِاسْتِحْقَاقِ اللَّعْنَةِ وَالْإِصْرَارِ عَلَى الشُّرْكِ الْمَوْجِبِ لِلْفُرْقَةِ، وَغَدًا فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِ التَّخْلِيدِ وَالتَّائِيدِ.

ويقال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾. فِي رَوْحِ الذِّكْرِ، وَفِي الْأَنْسِ فِي أَوَانِ خَلْقِهِمْ.

﴿وَلِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾. فِي ضَيْقِ قُلُوبِهِمْ وَتَسْخُطِهِمْ عَلَى التَّقْدِيرِ، وَفِي ظُلُمَاتِ

تدبيرهم، وَضَيْقِ اخْتِيَارِهِمْ.

﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ وَمَا عَنْهَا بِمَأْيِينَ﴾.

﴿يَصَلُّونَهَا﴾ أي النار. ﴿يَوْمَ الَّذِينَ﴾. يوم القيامة.

﴿وَمَا عَنْهَا﴾ عن النار. ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ قالها على جهة التهويل^(١).

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾.

الأمر لله يومئذٍ، والله من قبله ومن بعده، ولكن ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تنقطع الدعاوى، إذ

يتضح الأمر وتصير المعارف ضرورية.

(١) الآية (١٨) لم ترد.

سورة المطففين

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسم عزيز رداؤه كبرياؤه، وسناؤه علاؤه، وعلاؤه بهاؤه، وجلاله جماله، وجماله جلالة. الوجود له غير مُستَفْتَح، والموجود منه غير مُستَفْتَح. المعهود منه لطفه، المأمول منه لطفه... كيفما قَسَمَ للعبدِ فالعبدُ عبده؛ إن أقصاه فالحكم حكمه، وإن أدناه فالأمر أمره.

قوله جل ذكره: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

﴿وَيْلٌ﴾: الويلُ كلمة تُذكر عند وقوع البلاء، فيقال: ويلٌ لك، وويلٌ عليك! و«المطفف»، الذي يُنْقِصُ الكيلَ والوزنَ، وأراد بهذا الذين يعاملون الناس فإذا أخذوا لأنفسهم استوفوا، وإذا دفعوا إلى من يعاملهم نقصوا، ويتجلى ذلك في: الوزن والكيل، وفي إظهار العيب، وفي القضاء والأداء والافتضاء؛ فَمَنْ لم يَرْضَ لأخيه المسلم ما لا يرضاه لنفسه فليس بمنصف. وأما الصديقون فإنهم كما ينظرون للمسلمين فإنهم ينظرون لكل مَنْ لهم معهم معاملة - والصدق عزيز، وكذلك أحوالهم في الصُحبة والمعاشرة... فالذي يرى عيبَ الناس ولا يرى عيبَ نفسه فهو من هذه الجملة - جملة المطففين - كما قيل:

وَتُبْصِرُ فِي الْعَيْنِ مَنِي الْقَذَى^(١) وفي عينِكَ الجذعَ لا تُبْصِرُ

وَمَنْ اقْتَضَى حَقَّ نَفْسِهِ - دون أن يَقْضِيَ حقوقَ غيره مثلما يقتضيها لنفسه - فهو من جملة المطففين.

والفتى مَنْ يَقْضِي حقوقَ الناس ولا يقتضي من أحدٍ لنفسه حقاً.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

أي: ألا يستيقن هؤلاء أنهم مُحَاسِبُونَ غداً، وأنهم مُطَالَبُونَ بحقوق الناس؟

ويقال: مَنْ لم يَذْكُرْ - في حال معاملة الناس - معاينة القيامة ومحاسبتها فهو في خسرانٍ في معاملته.

(١) القذى: ما يتكوّن في العين من رمص وغمص وغيرهما.

ويقال: مَنْ كَانَ صَاحِبَ مِرَاقِبَةِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ اسْتَشْعَرَ الْهَيْبَةَ فِي عَاجِلِهِ، كَمَا يَكُونُ حَالُ النَّاسِ فِي الْمَحْشَرِ؛ لِأَنَّ اِطْلَاعَ الْحَقِّ الْيَوْمَ كَاطْلَاعِهِ غَدًا.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُتُورِ لَفِي سِتْرَيْنِ وَمَا أَذْرُكَ مَا يَحْجُبْنَ؟ كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾.

﴿سِتْرَيْنِ﴾ قيل: هي الأرض السابعة، وهي الأرض السفلى، يُوضَعُ كِتَابُ أَعْمَالِ الْكَفَّارِ هُنَاكَ إِذْ لَا لَهُمْ وَاهَانَةٌ، ثُمَّ تُحْمَلُ أَرْوَاحُهُمْ إِلَى مَا هُنَاكَ.

ويقال: «السُّجَّين» جُبٌّ فِي جَهَنَّمَ. وقيل: صَخْرَةٌ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، وَفِي اللُّغَةِ السُّجَّين: فَعِيلٌ مِنَ السَّجَنِ.

﴿وَمَا أَذْرُكَ مَا يَحْجُبْنَ﴾. اسْتَفْهَامٌ عَلَى جِهَةِ التَّهْوِيلِ.

﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾. أَي مَكْتُوبٌ؛ كَتَبَ اللَّهُ فِيهِ مَا هُمْ عَامِلُونَ، وَمَا هُمْ إِلَيْهِ صَائِرُونَ. وَإِنَّمَا الْمَكْتُوبُ عَلَى بَنِي آدَمَ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالشَّقَاوَةِ وَالسَّعَادَةِ فَهُوَ عَلَى مَا تَعَلَّقَ بِهِ عِلْمُهُ وَإِرَادَتُهُ، وَإِنَّمَا أَخْبَرَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي عِلْمُ أَنْ يَكُونَ أَوْ لَا يَكُونَ، وَكَمَا عِلْمُ أَنَّهُ يَكُونَ أَوْ لَا يَكُونَ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ أَوْ لَا يَكُونَ. ثُمَّ إِنَّهُ سَبَّحَانَهُ لَمْ يُطْلِعْ أَحَدًا عَلَى أَسْرَارِ خَلْقِهِ إِلَّا مَنْ شَاءَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ بِالْقَدْرِ الَّذِي أَرَادَهُ؛ فَإِنَّهُ يُجْرِي عَلَيْهِمْ فِي دَائِمِ أَوْقَاتِهِمْ مَا سَبَقَ لَهُمْ بِهِ التَّقْدِيرُ.

ثم قال: ﴿وَقِيلَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾.

وَيْلٌ لِلَّذِينَ لَا يُصَدِّقُونَ بَيِّومَ الدِّينِ، وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُجَاوِزٍ لِلْحَدِّ الَّذِي وُضِعَ لَهُ؛ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِ الْقُرْآنُ كَفَّرَ بِهِ^(١).

﴿كَلَّا بَلْ رَأَى عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمُحْجُورُونَ﴾.

أَي: غَطِّيَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ مِنَ الْمَعَاصِي... وَكَمَا أَنَّهُمْ - الْيَوْمَ - مَمْنُوعُونَ عَنْ مَعْرِفَتِهِ فَهُمْ غَدًا مَمْنُوعُونَ عَنْ رُؤْيَيْهِ. وَدَلِيلُ الْخُطَابِ يَوْجِبُ أَنْ يَكُونَ الْمُؤْمِنُونَ يَرَوْنَهُ غَدًا كَمَا يَعْرِفُونَهُ الْيَوْمَ^(٢).

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ﴾.

﴿عِلِّيَّينَ﴾ أَعْلَى الْأَمَكَةِ، تَحْمِلُ إِلَيْهِ أَرْوَاحُ الْأَبْرَارِ تَشْرِيفًا لَهُمْ وَإِجْلَالًا.

ويقال: إِنَّهَا سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى^(٣). وَيُقَالُ: فَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ. كِتَابٌ مَرْقُومٌ فِيهِ أَعْمَالُهُمْ مَكْتُوبَةٌ يَشْهَدُ الْمُقَرَّبُونَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ^(٤).

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾.

(٣) سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى: شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ.

(٤) الْآيَاتُ (١٩، ٢٠، ٢١) لَمْ تَرُدَّ.

(١) الْآيَةُ (١٣) لَمْ تَرُدَّ.

(٢) الْآيَتَانِ (١٦، ١٧) لَمْ تَرُدَا.

اليومَ وغداً: اليومَ في رَوْحِ العرفان، وراحةِ الطاعة والإحسان، ونعمةِ الرضا وأنسِ القربةِ وبَسْطِ الوصلة. وغداً - في الجنة وما وُعدوا به من فنون الزلفة والقربة.
قوله جلّ ذكره: ﴿عَلَى الْأَرْكَانِ يُنْظَرُونَ﴾.

أُثْبِتَ النَّظَرَ ولم يَبَيِّنِ المنظور إليه لاختلافهم في أحوالهم؛ فمنهم من ينظر إلى قُصُوره. ومنهم من ينظر إلى حُوره، ومنهم ومنهم... ومنهم الخواص فهم على دوام الأوقات إلى الله - سبحانه - يَنْظُرُونَ.

قوله جلّ ذكره: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾.

مَنْ نَظَرَ إِلَيْهِمْ عَلِمَ أَنَّ أَثَرَ نَظَرِهِ إِلَى مَوْلَاهُ مَا يُلَوِّحُ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ النِّعَمِ؛ فَأَحْوَالُ الْمُحِبِّ شَهُودٌ عَلَيْهِ أَبَداً. فَإِنْ كَانَ الْوَقْتُ وَقْتُ وَصَالٍ فَاحْتِيَالُهُ وَدَلَالُهُ، وَسُرُورُهُ وَحُبُورُهُ، وَنَشَاطُهُ وَانْبِسَاطُهُ. وَإِنْ كَانَ الْوَقْتُ وَقْتُ غِيْبَةٍ وَفِرَاقٍ فَالشَّهَادَةُ عَلَيْهِ نَحْوُهُ وَذُبُولُهُ، وَحَيْنُهُ وَأَنْيَتُهُ، وَدُمُوعُهُ وَهَجُوعُهُ... وفي معناه قلت:

يَا مَنْ تَغَيَّرَ صَوْرَتِي لَمَّا بَدَا - لجميع ما ظنونا بنا - تحقيق
وقلت:

وَلَمَّا أَتَى الْوَاشِينَ أَنِّي زُرْتُهَا جَحَدْتُ حَذَاراً أَنْ تُشِيعَ السَّرَائِرُ
فَقَالُوا: نَرَى فِي وَجْهِكَ الْيَوْمَ نَضْرَةَ كَسَتْ مُحْيَاكَ^(١). . . وَهَازَكَ ظَاهِرُ!
وَبُرْذُكَ لَا ذَاكَ الَّذِي كَانَ قَبْلَهُ بِهِ طَيْبٌ نُشِرَ لَمْ تُشِغْهُ الْمَجَامِرُ
فَمَا كَانَ مَثِي مِنْ بَيَانٍ أَقِيمَهُ وَهِيَّاهُ أَنْ يَخْفِيَ مُرِيْبٌ مَسَاتِرُ!
قوله جلّ ذكره: ﴿يَسْقُونَ مِنْ رَحِيْقٍ مَخْتُومٍ خِتْمُهُ مِنْكَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾.
﴿مَخْتُومٍ﴾ أَي رَحِيْقٌ لَا غِشٍّ فِيهِ.

ويقال: عَتِيقٌ طَيِّبٌ.

ويقال: إِنَّهُمْ يَشْرَبُونَ شَرَاباً آخِرَهُ مِنْكَ.

ويقال: بَلْ هُوَ مَخْتُومٌ قَبْلَ حُضُورِهِمْ.

ويقال: ﴿خِتْمُهُ مِنْكَ﴾. مَمْنُوعٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، مُعَدُّ مُدْخَرٌ لِكُلِّ أَحَدٍ بِاسْمِهِ.

﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾. وَتَنَافُسُهُمْ فِيهِ بِالْمُبَادَرَةِ إِلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَالسَّبَاقِ إِلَى الْقُرْبِ، وَتَعْلِيْقِ الْقَلْبِ بِاللَّهِ، وَالْإِنْسِلَاحِ عَنِ الْأَخْلَاقِ الدُّنْيَا، وَجَوْلَانِ الْهَمِّ فِي الْمَلَكُوتِ، وَاسْتِدَامَةِ الْمَنَاجَاةِ.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَزَاجُهُمْ مِنْ تَنْزِيلٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾.

(١) الْمُحْيَا: جَمَاعَةُ الْوَجْهِ أَوْ حُرُّهُ، يُقَالُ: فَلَانٌ طَلَقَ الْمُحْيَا؛ أَي: بِشَوْشِ الْوَجْهِ.

﴿تَنْبِيْرٌ﴾: أي: عينٌ تَسْنُمُ عليهم من علُوِّ.

وقيل: ميزابٌ يَنْصَبُ عليهم من فوقهم.

ويقال: سُمِّيَ تسنيمًا؛ لأن ماءه يجري في الهواء مُتَسَنِّمًا فينصبُ في أواني أهل الجنة؛ فمنهم مَنْ يُسْقَى مَزْجًا، ومنهم مَنْ يُسْقَى صِرْفًا. . . الأولياء يُسْقَوْنَ مَزْجًا، والخواصُّ يُسْقَوْنَ صِرْفًا.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾.

كانوا^(١) يضحكون استهزاء بهم ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾!

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَىٰ آلَائِكَ يَتُفَرِّحُونَ هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿هَلْ...﴾ استفهام يراد منه التقرير.

ويقال: إذا رأوا أهل النار في النار يُعَذِّبُونَ لا تأخذهم بهم رافة، ولا تَرِقُّ لهم قلوبهم، بل يضحكون ويستهزئون ويُغيِّرونهم.

(١) الآيات (٣١ - ٣٣) لم ترد.

سورة الانشقاق

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ جليلٌ جلاله لا بالأشكال، وجماله لا على احتذاء أمثال، وأفعاله لا بأغراض وأعلال، وقدرته لا باجتلاب ولا احتيال، وعلمه لا بضرورة ولا استدلال، فهو الذي لم يزل ولا يزال، ولا يجوز عليه فناء ولا زوال.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾.

﴿انْشَقَّتْ﴾: انصدعت.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾.

أي قابلت أمر ربها بالسمع والطاعة... وحق لها أن تفعل ذلك.

﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾.

بُسطت باندكالك آكامها وجبالها حتى صارت ملساء، وألقت ما فيها من الموتى والكنوز وتخلّت عنها... وقابلت أمر ربها بالسمع والطاعة^(١).

وجواب هذه الأشياء في قوله: ﴿فَمَلَقِيهِ﴾ أي يلقي الإنسان ما يستحقه على أعماله.

قوله جلّ ذكره: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَارِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَذَبًا فَمَلَقِيهِ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ﴾: يأتيها المكلف... إنك ساعٍ بما لك سعيًا ستلقى جزاءه؛

بالخير خيراً وبالشرّ شرّاً.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْتَبٍ يَمِينِهِ﴾.

وهو المؤمن المحسن.

﴿فَسَوْفَ يَحْصِبُ حِسَابًا يَّسِيرًا﴾.

أي حساباً لا مشقة فيه. ويقال: ﴿حِسَابًا يَّسِيرًا﴾ أي يُسمِعُه كلامه - سبحانه - بلا واسطة، فيُخَفِّفُ سماعُ خطابه ما في الحساب من عناء.

ويقال: ﴿حِسَابًا يَّسِيرًا﴾: لا يُذَكِّرُه ذنوبه. ويقال: يقول: ألم أفعَل كذا؟ وألم أفعَل كذا؟ يُعَدُّ عليه إحسانه... ولا يقول: ألم تفعل كذا؟ لا يُذَكِّرُه عصيانه.

(١) الآيتان (٤، ٥) لم تردا..

﴿وَنَقْلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ .

أي بالنجاة والدرجات، وما وَجَدَ من المناجاة، وقبول الطاعات، وغفران الزَّلَّات.

ويقال: بأن يُشَفِّعَهُ فيمن يتعلَّق به قلبه. ويقال: بألا يفضحه.

ويقال: بأن يَلْقَى رَبَّهُ وَيُكَلِّمَهُ قبل أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ فَيَلْقَى حَظِيَّتَهُ مِنَ الْحَوَرِ العِين.

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْبَرُ وِرَاةً ظَاهِرًا﴾ .

وهو الكافر.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا بُرُورًا﴾ .

أي وَنِلًا.

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ .

جهنم.

﴿إِنَّمْ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ .

من البَطَرِ والمدح.

﴿إِنَّمْ ظَنَّ أَنَّ لَنْ يَحُورَ﴾ .

أنه لن يرجع إلينا، ولن يُبْعَثَ^(١).

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ .

بالحُمْرَةِ التي تعقب غروب الشمس.

﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ . .

وما جَمَعَ وضمَّ.

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ .

تَمَّ واستوى واجتمع.

ويقال: الشَّفَقُ حين غربت شمسُ وصالهم، وأذيقوا الفراقَ في بعض أحوالهم، وذلك زمانٌ قبضٍ بعد بَسْطٍ، وأوانُ فَرْقٍ عُقَيْبٍ جَمْعٍ^(٢). ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ : ليالي غيبتهم وهم بوصف الاستيقاظ؛ أو ليالي وصالهم وهم في روح التلاقي، أو ليالي طَلَبِهِمْ وهم بنعت القلبِ والاحتراق.

(١) الآية (١٥) لم ترد.

(٢) انظر حديث القشيري (عن الجمع والغرق) في رسالته ص ٦٤ - ٦٧.

﴿وَالْقَمَرَ إِذَا انْشَقَّ﴾ : إِذَا ظَهَرَ سُلْطَانُ الْعُرْفَانِ عَلَى الْقُلُوبِ فَلَا بَخْسَ وَلَا نَقْصَانَ .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ .

أي حالاً بعد حال . وقيل : من أطباق السماء . ويقال : شِدَّةٌ بعد شِدَّةٍ .

ويقال : تَارَتْ الْإِنْسَانِ طِفْلاً ثُمَّ شَاباً ثُمَّ كِهَلاً ثُمَّ شَيْخاً .

ويقال : طَالِباً ثُمَّ وَاصِلاً ثُمَّ مُتَّصِلاً .

ويقال : حالاً بعد حالٍ ، من الفقر والغنى ، والصحة والسقم .

ويقال : حالاً بعد حالٍ في الآخرة .

قوله جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿فَمَا لَكُمْ لَا يُؤْمِنُونَ؟﴾ .

أي فما الكُفَّارِ أُمْتِكَ لَا يُصَدِّقُونَ . . . وقد ظهرت البراهين؟

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ .

﴿يُوعُونَ﴾ أي تنطوي عليه قلوبهم - من أَوْعَيْتُ الْمَتَاعَ فِي الظَّرْفِ أي جعلته

فيه .

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ .

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم ليسوا منهم ، ولهم أَجْرٌ غَيْرُ مَقْطُوعٍ .

سورة البروج

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ مَنْ لا عقل يَكْتَنِبُهُ، اسمٌ مَنْ لا مِثْل يُشَبِّهُه، اسمٌ مَنْ لا فَهْمٌ^(١) يرتقي إليه بالتصوير، اسمٌ مَنْ لا علم ينتهي إليه بالتقدير، اسمٌ مَنْ لم يَرَهُ بَصَرٌ إِلَّا واحدٌ - وهو أيضاً مُخْتَلَفٌ فيه، اسمٌ مَنْ لا يَجْسُرُ أَحَدٌ أَنْ يتكلّمَ بغير ما إِذْنٌ فيه، اسمٌ مَنْ لا قُطَرَ يحويه، ولا سِرٌّ يُخْفِيه، ولا أَحَدٌ يصل إلى معرفته إِلَّا مَنْ يرتضيه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ﴾.

أراد البروج الاثني عشر^(٢).

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾.

يوم القيامة.

وجواب القسم قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾.

يقال: الشاهدُ الله، والمشهودُ الخلق.

ويقال: الشاهدُ الخلق، والمشهودُ الله؛ يشهدونه اليوم بقلوبهم، وغداً بأبصارهم.

ويقال: الشاهدُ محمد ﷺ، والمشهودُ القيامة، قال تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ

هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وقال في القيامة: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

وقيل: الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة^(٣).

(١) ربما كانت: لا وهم أو لا خيال. فمن أقوال ذي النون المصري: وليس في السموات العلا ولا في الأرضين السفلى مدبر غير الله، وكل ما تصوّر في خيالك فالله بخلاف ذلك. (الرسالة القشيرية ص ٤٣).

(٢) قيل: ذات الكواكب؛ وقيل: ذات القصور في السماء، وقيل: هي النجوم، وقالوا: هي البروج المعروفة اثنا عشر برجاً، وقالوا: هي القصور في السماء، والله أعلم بما أراد. (اللسان ٢١٢/٢ مادة: برج).

(٣) يوم عرفة: عرفة: جبل قرب مكة يقف عليه الحجاج يوم التاسع من ذي الحجة ويوم عرفة غير منون ولا تدخله الألف واللام.

ويقال: الشاهد المَلَكُ الذي يكتب العمل، والشاهد الإنسان يشهد على نفسه، وأعضاؤه تشهد عليه؛ فهو شاهد وهو مشهود.

ويقال: الشاهد يوم القيامة، والمشهود الناس.

ويقال: المشهود هم الأمة لأنه ﷺ يشهد لهم وعليهم.

ويقال: الشاهد هذه الأمة، والمشهود سائر الأمم.

ويقال: الشاهد الحجر الأسود^(١) لأن فيه كتاب العهد.

ويقال: الشاهد جميع الخلق؛ يشهدون لله بالوحدانية، والمشهود الله.

ويقال: الشاهد الله؛ شهد لنفسه بالوحدانية، والمشهود هو لأنه شهد لنفسه.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَتَحِبُّ الْأَخْدُودَ﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ﴿.

أي لُجِنُوا. والأخدود: الحفرة في الأرض إذا كانت مستطيلة، وقصبتهم في التفسير معلومة و«الوقود» الحطب.

وهم أقوام كتموا إيمانهم فلما عَلِمَ مَلِكُهُمْ بذلك أضرم عليهم ناراً عظيمة، وألقاهم فيها. وَأَخِرُ مَنْ دَخَلَهَا امرأةٌ كان معها رضيعٌ، وهَمَّتْ أَنْ تَرْجِعَ، فقال لها الولد: قُفِّي واصبري... فأنت على الحق.

وألقوها في النار، واقتحمتها، وبينما كان أصحاب الملك قعوداً حوله يشهدون ما يحدث ارتفعت النار من الأخدود وأحرقتهم جميعاً، ونجا من كان في النار من المؤمنين وسَلِمُوا^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ما غَضِبُوا مِنْهُمْ إِلَّا لِإِيمَانِهِمْ.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾.

أي أحرقوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا عن كفرهم ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾: نوع من العذاب، ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾: نوع آخر.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾.

(١) الحجر الأسود: حجر في الكعبة يستلمه الحُجَّاج عند طوافهم. يُقال: ما بيدك غير الحجر ويُكنى به عن الحرمان والخيبة.

(٢) الآيتان (٦، ٧) لم تردا.

﴿ذَلِكَ الْقَرَارُ الْكَبِيرُ﴾: النجاة العظيمة.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.

البطش الأخذ بالشدة.

﴿إِنَّهُمْ هُمْ بِئِدْيُ وَيُئِدُّ﴾.

يُئِدُّ الخلق ثم يُعيدهم بعد البعث.

ويقال: يئد بالعداب ثم يُعيد، وبالثواب ثم يُعيد.

ويقال: يئد على حُكم العداوة والشقاوة ثم يعيد عليه، ويئد على الضعف ويعيدهم إلى الضعف.

ويقال: يئد الأحوال السنية فإذا وقعت حجة يعيد ثانية.

ويقال: يئد بالخذلان أموراً قبيحة ثم يتوب عليه، فإذا نَقَضَ توبته فلأنه أعاد له من مقتضى الخذلان ما أجراه في أول حاله.

ويقال: يئد لطائف تعريفه ثم يعيد لتبقى تلك الأنوار أبداً لائحةً، فلا يزال يئد ويعيد إلى آخر العمر.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾.

«الغفور» كثير المغفرة، «الودود» مبالغة من الودّ، ويكون بمعنى المودود؛ فهو يغفر له كثيراً لأنه يودّهم، ويغفر لهم كثيراً لأنهم يودّونه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾.

ذو المُلْكِ الرفيع، والمُجْد الشريف.

﴿قَمَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

لأنه مالِك على الإطلاق؛ فلا حَجْر عليه ولا حَظَر.

قوله جلّ ذكره: ﴿هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾.

الجموع من الكفار.

﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾.

وقد تقدم ذكر شأنهما.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني مُشْرِكِي مكة؛ ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ للبعث والنشر.

﴿وَاللَّهُ يَنْزِلُ فِي آيَاتِهِمُ الْخَبْرَ﴾.

عالم بهم.

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾.

﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ مكتوب فيه . وجاء في التفسير: أنَّ اللوحَ المحفوظ خُلِقَ من دُرَّةٍ بيضاء، دِفْقَتَاهُ^(١) من ياقوتة حمراء عَرَضُهَا بين السماء والأرض، وأعلىه متعلّق بالعرش، وأسفله في حِجْرِ مَلِكٍ كريم.

والقرآن كما هو محفوظ في اللوح كذلك محفوظ في قلوب المؤمنين، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْزِلُ فِي صُذُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩] فهو في اللوح مكتوب، وفي القلوب محفوظ.

(١) الدقة من كل شيء: جنبه أو صفحته.

سورة الطارق

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ عزيزٌ إذا أراد إعزازَ عبدٍ وفَقَّهَ لعرفانه، ثم زَيَّنَه بإحسانه، ثم استخلصه بامتثانه؛ فَعَصَمَه من عِصْيَانِه، وقام بحسن التولّي - في جميع أحواله - بشأنه، ثم قَبَضَه على إيمانه، ثم بَوَّأَه في جنانه، وأكرمه برضوانه، ثم أكمل عليه نِعْمَتَه برؤيته وعيانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالسَّمَاءَ وَالْطَّارِقَ﴾.

أقسم بالسماء، وبالنجم الذي يَطْرُق ليلاً. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْطَّارِقُ﴾.

استفهامٌ يراد منه تفخيم شأن هذا النجم. ﴿الْجَمُّ الثَّاقِبُ﴾.

المضيءُ العالي. وقيل: الذي ترمى به الشياطين.

ويقال: هي نجوم المعرفة التي تدل على التوحيد يستضيء بنورها ويهتدي بها أولو البصائر.

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾.

ما مِنْ نَفْسٍ إلا عليها حَافِظٌ من الملائكة، يحفظ عليه عمله ورزقه وأجله، ويحمله على دوام التيقُّظ وجميل التحفُّظ.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يُخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾.

يخرج من صُلْبِ الأب، وتربية الأم.

وهو بذلك يحثُّه على النَّظَر والاستدلال حتى يعرف كمال قدرته وعلمه وإرادته - سبحانه.

﴿إِنَّهُ عَلَى رَجَائِهِ لَقَائِدٌ﴾.

إنه على بَعْثِهِ، وخَلْقِهِ مرةً أخرى لقائِدٌ؛ لأنه قادر على الكمال - والقدرة على الشيء تقتضي القدرة على مثله، والإعادة في معنى الابتداء.

﴿يَوْمَ يُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ .

يوم تُمْتَحَنُ الضمائر .

﴿فَأَلَّوْا مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرَ﴾ .

أي ما لهذا الإنسان - يومئذ - من مُعِينٍ يدفع عنه حُكْمَ الله .

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ .

أي المطر .

﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّعْثِ﴾ .

«الصدع» : الانشقاق بالنبات للزرع والشجر .

﴿إِنَّا لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ .

أي : إن القرآن لقول جَزْمٍ .

﴿وَمَا هُوَ بِالْمُزَلِّ﴾ .

الهزل ضد الجِدَّة ، فليس القرآن بباطلٍ ولا لَعِبٍ .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ .

أي يحتالون حيلةً .

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ .

هم يحتالون حيلةً ، ونحن نُحَكِّمُ فِعْلًا وَنُبْرِمُ خَلْقًا ، ونجازيهم على كيدهم ، بما

نعاملهم به من الاستدراج والإمهال .

﴿فَقَهِّلْ الْكَافِرِينَ أَمْهَلَهُمْ رُؤْيَا﴾ .

أي أَنْظِرْهُمْ ، وأمهلهم قليلاً ، وأزودهم رويداً .

سورة الأعلى

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ عزيزٌ مَنْ قَصَدَهُ وَجَدَهُ، وَمَنْ اسْتَسَعَفَهُ حَمِدَهُ. مَنْ طَلَبَهُ عَرَفَهُ، وَمَنْ عَرَفَهُ لَا طَفَقَهُ، فَإِذَا وَجَدَ لُطْفَهُ أَلْفَهُ، وَإِذَا أَلْفَهُ أَنْفٌ أَنْ يَخَالِفَهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾.

أَي سَبِّحْ رَبِّكَ بِمَعْرِفَةِ أَسْمَائِهِ، وَاسْبِحْ بِسِرِّكَ فِي بَحَارِ عِلَالِهِ، وَاسْتَخْرِجْ مِنْ جَوَاهِرِ غُلُوبِهِ وَسَنَائِهِ مَا تَرْضَعُ بِهِ عِقْدَ مَدْحِهِ وَثَنَائِهِ.

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾.

خَلَقَ كُلَّ ذِي رُوحٍ فَسَوَّى أَجْزَاءَهُ، وَرَكَّبَ أَعْضَاءَهُ عَلَى مَا خَصَّهُ بِهِ مِنَ النِّظَمِ الْعَجِيبِ وَالتَّرَكِيبِ الْبَدِيعِ.

﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾.

أَي قَدَّرَ مَا خَلَقَهُ، فَجَعَلَهُ عَلَى مِقْدَارٍ مَا أَرَادَهُ، وَهَدَى كُلَّ حَيَوَانٍ إِلَى مَا فِيهِ رَشْدُهُ مِنَ الْمَنَافِعِ، فَيَأْخُذُ مَا يُضْلِحُهُ وَيَتْرَكُ مَا يَضُرُّهُ - بِحُكْمِ الْإِلَهَامِ.

وَيَقَالُ: هَدَى قُلُوبَ الْغَافِلِينَ إِلَى طَلَبِ الدُّنْيَا فَعَمَرُوهَا؛ وَهَدَى قُلُوبَ الْعَابِدِينَ إِلَى طَلَبِ الْعَقْبَى فَأَثَرُوهَا، وَهَدَى قُلُوبَ الزَّاهِدِينَ إِلَى فَنَاءِ الدُّنْيَا فَرَفَضُوهَا، وَهَدَى قُلُوبَ الْعُلَمَاءِ إِلَى النَّظَرِ فِي آيَاتِهِ وَالِاسْتِدْلَالِ بِمَصْنُوعَاتِهِ فَعَرَفُوا تِلْكَ الْآيَاتِ وَلَا زَمَوَهَا.

وَهَدَى قُلُوبَ الْمُرِيدِينَ إِلَى عِزِّ وَضْفِهِ فَأَثَرُوهَا، وَاسْتَغْفَرُوا جُهِدَهُمْ فَطَلَبُوهَا، وَهَدَى الْعَارِفِينَ إِلَى قُدْسِ نَعْتِهِ فَرَاقِبُوهَا ثُمَّ شَاهَدُوهَا، وَهَدَى الْمُوَحِّدِينَ إِلَى عِلَاءِ سُلْطَانِهِ فِي تَوْحِيدِ كِبَرِيَّاتِهِ فَتَرَكُوا مَا سِوَاهُ وَهَجَرُوهَا، وَخَرَجُوا عَنْ كُلِّ مَأْلُوفٍ لَهُمْ وَمَعْهُودٍ حَتَّى قَصَدُوهَا. فَلَمَّا ارْتَقَوْا عَنْ حُدِّ الْبِرْهَانِ ثُمَّ عَنْ حُدِّ الْبَيَانِ ثُمَّ عَمَّا كَالْعَيَانِ عَلِمُوا أَنَّهُ عَزِيزٌ، وَأَنَّهُ وَرَاءَ كُلِّ فَضْلٍ وَوَضِلٍ، فَارْجِعُوا إِلَى مَوْطِنِ الْعَجْزِ فَتَوَسَّدُوهَا.

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾.

أَي النَّبَاتِ.

﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾.

جعله هشيماً^(١) كالغشاء، وهو الذي يقذفه السيل. و «أحوى» أسود.

﴿سَتُرْثُكَ فَلَا تَنْسَى﴾.

سنجمع القرآن في قلبك - يا محمد - حفظاً حتى لا تنسى لأننا نحفظه عليك.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾.

مما لا يدخل تحت التكليف فتنساه قبل التبليغ ولم يجب عليه أدائه.

وهو - سبحانه - يعلم السر والعلن^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿فَذَكِّرْ لِنَقَمَتِ الذِّكْرِ﴾.

والذكرى تنفع لا محالة، ولكن لمن وفقه الله للاتعاظ بها، أما من كان المعلوم

من حاله الكفر والإعراض فهو كما قيل:

وما انتافع أخى الدنيا بمقلته إذا استوت عند الأنوار والظلم

﴿سَيَذَرُ مَنْ يَخْفَى﴾.

الذي يخشى الله ويخشى عقوبته.

﴿وَسَجَّيْنَاهُ الْأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَخْرُجُ﴾.

أي يتجسب الذكر الأشقى الذي يصلى النار الكبرى، ثم لا يموت فيها موتاً

يريه، ولا يحيا حياة تليد له.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾.

من تطهر من الذنوب والعيوب، ومشاهدة الخلق وأدى الزكاة - وجد النجاة،

والظفر بالبغية، والفوز بالطلبة.

﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصْلَى﴾.

ذكر اسم ربه في صلاته. ويقال: ذكره بالوحدانية وصلّى له.

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

تميلون إليها؛ فتقدمون حظوظكم منها على حقوق الله تعالى.

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

والآخرة للمؤمنين خير وأبقى - من الدنيا - لطلابها.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾.

إن هذا الوعظ لفي الصحف المتقدمة، وكذلك في صحف إبراهيم وموسى

وغيرهما؛ لأن التوحيد، والوعد والوعيد... لا تختلف باختلاف الشرائع.

(١) الهشيم: النبت اليابس المتكسر. أو المتكسر من كل شيء.

(٢) الآية (٨) لم ترد.

سورة الفاشية

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة من سمعها وفي قلبه عرفائه تلالات أنوار قلبه، وتفرقت أنواع كُربِه، وتضاعفت في جماله طوارق حُبِه، وتحيرت في جلاله شوارق لُبِه.

كلمة مَنْ عَرَفَهَا - وفي قلبه إيمانه - أَحَبَّهَا من داخل الفؤاد، وهَجَرَ - في طَلَبِهَا - الرُّقاد، وَتَرَكَ - لأجلِهَا - كُلَّ هَمٍّ ومراد.

قوله جل ذكره: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَاشِيَةِ﴾.

«الفاشية» الْمُجَلَّلَةُ، يريد بها القيامة تَغْشَى الْخَلْقَ، تَغْشَى وجوه الكفار.

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾.

وجوه - إذا جاءت القيامة - خاشعة أي ذليلة. عاملة ناصبة: النَّصَبُ التعب.

جاء في التفسير: أنهم يُجْزَوْنَ على وجوههم.

﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾ تلزم ناراً شديدة الحر.

ويقال: «عاملة» في الدنيا بالمعاصي، «ناصبية» في الآخرة بالعذاب.

ويقال: «ناصبية» في الدنيا «عاملة» لكن من غير إخلاص كعمل الرهبان، وفي

معناه عمل أهل النفاق.

﴿تُشَقَّقْنَ مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ﴾.

تناهى حَرْهَا.

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ لَا يُسَيْنُ وَلَا يُفْنِي مِنْ جُوعٍ﴾.

نَبَتْ ينمو بالحجاز له شوك، وهو سم لا تأكله الدواب، فإذا أكلوا ذلك في النار

يُقْضَوْنَ، فَيَسْقَوْنَ الزُّقُومَ.

وإن اتصاف الأبدان - اليوم - بصورة الطاعات مع فَقْدِ الأرواح وجدان

المكاشفات (وفقد^(١)) الأسرار أنوار المشاهدات، (وفقد) القلب الإخلاص

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

والصدق في الاعتقادات لا يجدي خيراً، ولا ينفع شيئاً - وإنما هي كما قال: ﴿عَايِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ النَّعْمُ﴾.

أي: مُتَّعَمَةٌ، ذات نعمٍ ونضارة.

﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾.

حين وَجَدَتْ الثَّوَابَ على سعيها، والقبول لها.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾.

عالية في درجتها ومنزلتها وشرفها. هم بأبدانهم في درجاتهم، ولكن بأرواحهم.

مع الله في عزيز مناجاتهم.

﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَفِيَةٌ﴾.

لأنهم يسمعون بالله؛ فليس فيها كلمة لغو.

قومٌ يسمعون بالله، وقومٌ يسمعون لله، وقومٌ يسمعون من الله، وفي الخير:

«كنت له سمعاً وبصراً فبي يسمعُ وببي يُبصرُ»^(١).

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾.

أراد عيوناً؛ لأن العين اسم جنس، والعيون الجارية هنالك كثيرة ومختلفة.

ويقال: تلك العيون الجارية غداً لِمَنْ له - اليوم - عيونٌ جارية بالبكاء، وغداً

لهم عيونٌ ناظرةٌ بحُكم اللقاء.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَوَاجٌ مَبْثُوثَةٌ﴾.

النمارق المصفوفة في التفسير: الطنافس المبسوطة.

الزواجر المبثوثة في التفسير: البُسُط المتفرقة.

وإنما خاطبهم على مقادير فهمهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾.

لَمَّا ذَكَرَ وصفَ تلك السُّرُرِ المرفوعة المشيدة قالوا: كيف يصعدها المؤمن؟

فقال: أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت؟ كيف إذا أرادوا الحَمْلَ عليها أو ركوبها

تنزل؟ فكَذَلِكَ تلك السُّرُرُ تتطامن حتى يركبها الوليُّ.

(١) رواية الحديث: «ما يزال عبيدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت عينه التي يبصر بها،

وسمعه الذي يسمع به...» أخرجه الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٨/٤٧٧، ٩/٦١٠)، وابن

حجر في (فتح الباري ١١/٣٤١).

والحديث بالرسالة القشيرية ص ٣١٨ بغير هذه الرواية انظره.

وإنما أنزلت هذه الآيات على وجه التنبيه، والاستدلال بالمخلوقات على كمال قدرته - سبحانه.

فالقوم كانوا أصحاب البوادي لا يرون شيئاً إلا السماء والأرض والجبال والجمال... فأمرهم بالنظر في هذه الأشياء.

وفي الإبل خصائص تدل على كمال قدرته وإنعامه جل شأنه؛ منها: ما في إمكانهم من الانتفاع بظهورها للحمْلِ والركوب، ثم بنسْلِها، ثم بلحمها ولبنها ووبرها... ثم من سهولة تسخيرها لهم، حتى ليستطيع الصبي أن يأخذ بزمامها، فتتجر وراءه. والإبل تصبر على مقاساة العطش في الأسفار الطويلة، وهي تقوى على أن تحمِل فوق ظهورها الكثير من الحمولات... ثم جزائها إذا حققت، واسترواؤها إلى صوت من يحدوها عند الإعياء والتعب، ثم ما يُعَلِّل المرء بما يناط بها من برّها^(١).

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾.

لست عليهم بمُسلِّطٍ؛ فذكّر - يا محمد - بما أمرناك به، فبذلك أمرناك.

﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾.

إلا من تولى عن الإيمان وكفر فيعذبه الله بالخلود في النار.

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾.

إن إلينا رجوعهم، ثم نجازيهم على الخير والشر.

(١) الآيات (١٨، ١٩، ٢٠) لم ترد.

سورة الفجر

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله كلمة ما استولت على قلب فقير فأقلقته، وما تمكنت من سرٍّ مُتَّيَّم فَشَّتَتْه، وما استولت على روح محبٍّ فرحمته. كلمة قهارة للقلوب.. ولكن لا لكل قلب، كلمة لا سبيل لها لكل عقل، كلمة تكتفي من العابدين بقراءتهم لها، ولكنها لا ترضى من المحبين إلا ببذل أرواحهم فيها.

قوله جل ذكره: ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾.

الفجر انفجار الصبح وهو اثنان: مستطيل وقصير؛ ففي التفسير: إنه فجر المحرم لأنه ابتداء السنة كلها، وقيل: فجر ذي الحجة.

ويقال: هو الصخور ينفجر منها الماء.

ويقال: أقسم به لأنه وقت عبادة الأولياء عند افتتاحهم النهار.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قيل: هي عشر ذي الحجة، ويقال: عشر المحرم؛ لأن آخرها عاشوراء. ويقال: العشر الأخيرة من رمضان.

ويقال: هي العشر التي ذكرها الله في قصة موسى عليه السلام ثم به ميعاده بقوله: ﴿وَأَتَمَمْتَهَا بِعَشْرِ﴾.

ويقال: هو «فجر» قلوب العارفين إذا ارتقوا عن حد العلم، وأسفر ضبح معارفهم، فاستغنوا عن ظلمة طلب البرهان بما تجلّى في قلوبهم من البيان. ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾.

جاء في التفاسير: الشفع يوم النحر^(١)، والوتر يوم عرفة.

ويقال: آدم كان وترأ فشفع بزوجه حواء.

وفي خبر: إنها الصلوات منها وتر (كصلاة المغرب) ومنها شفع كصلاة الضبح.

ويقال: الشفع الزوج من العدد، والوتر الفرد من العدد.

(١) يوم النحر: اليوم العاشر من ذي الحجة لنحرهم فيه.

ويقال: الشفع تضادُ أوصافِ الخَلْق: كالعلم والجهل، والقدرة والعجز، والحياة والموت. والوتر انفرادُ صفاتِ الله سبحانه عما يضادُّها؛ علم بلا جهل، وقدرة بلا عجز، وحياة بلا موت.

ويقال: الشفعُ الإرادة والنية، والوتر الهمة؛ لا تكتفي بالمخلوق ولا سبيل لها إلى الله - لَتَقْدُسِهِ عَنِ الْوَضَلِ وَالْفَضْلِ.. فبقيت الهمة غريبةً.

ويقال: الشفع الزاهد والعابد، لأن لكل منهما شكلاً وقريناً، والوتر المرید فهو كما قيل:

فريدٌ من الخِلَافِ في كل بلدةٍ إذا عَظَمَ المطلوبُ قَلَّ المساعدُ
﴿وَأَتْلِيلٌ إِذَا بَسَرَ﴾

«يسري» يمضي.

قوله جل ذكره: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ﴾.

«حِجْرٍ». لُبٌّ. وجوابُ القَسَمِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِذْ رَأَوْا الْعِمَادَ﴾.

ذكر^(١) قصص هؤلاء المتقدمين.. إلى قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾.

أي: شدة العذاب.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾.

لا يفوته شيء.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾.

﴿فيقول ربي أكرمني﴾: أي: شكره.

﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾. أي: ضيق، ﴿فيقول ربي أهانني﴾. أي: أذلني. كلا.. ليس الإذلالُ بالفقر إنما الإذلالُ بالخذلان للعصيان.

قوله جل ذكره: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ﴾.

أي: أنتم تستحقون الإهانة على هذه الخصال المذمومة؛ فلا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ.

﴿وَلَا تَخْشَوْنَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ وَتَأْكُلُونَ الْقُرْآنَ أَعْمَاءً﴾.

لما. أي شديداً.

(١) الآيات من (٨ - ١٢) لم ترد.

﴿وَتَجِبُونَ أَلَمَالاً حُبّاً جَمّاً﴾ .

جَمّاً أي كثيراً .

قوله جل ذكره: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً﴾ .

أي: قامت القيامة .

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أي الملائكة بأمره .

ويقال: يفعل فعلاً فيُسميه مجيئاً .

﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ .

يقال: تُقَاد جهنم بسبعين ألف زمام^(١) .

وفي ذلك اليوم يتذكر الإنسان . . ولا يتفقه التذكُّر، ولا يُقْبَلُ منه العذرُ .

﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ .

أي: أَطَعْتُ رَبِّي ونظرت لنفسي .

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾ .

أي: لا يعذب في الدنيا أحدٌ مثلما يعذبه الله في ذلك اليوم . . إذا قرئت الذال

بالكسر .

أما إذا قرئت بالفتح ﴿لا يعذب﴾ فالمعنى: لا يُعَذَّبُ أحدٌ مثلما يُعَذَّبُ هذا

الكافر .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ .

الروحُ المطمئنةُ إلى النفس .

ويقال: المطمئنةُ بالمعرفة: ويقال: المطمئنة بذكر الله .

ويقال: بالبشارة بالجنة . ويقال: النفس المطمئنة: الروح الساكنة .

﴿أَرْجِئِ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْثِيَةً﴾ .

راضيةٌ عن الله، مُرْضِيَةٌ من قِبَلِ الله .

﴿فَأَدْخِلْ فِي عِبَادِي وَأَدْخِلْ جَنَّتِي﴾ .

أي: في عبادي الصالحين .

(١) «تُقَاد جهنم بسبعين ألف زمام كل زمام يقوده . . .» أخرجه الزبيدي في «إتحاف السادة المتقين ١٠/

سورة البلد

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة تُخبر عن جلالِ أزلِّي، وجمالِ سرمدِّي، جلالِ ليس له زوال، وجمالِ ليس له انتقال، جلالِ لا بأغيارِ وأمثال، جمالِ لا بصورةٍ ومثال، وجلالِ وهو استحقاقه لجبروته وجمالِ وهو استيجابه لملكوته، جلالِ مَنْ كاشَفَه به فأوصافه فناء في فناء، وجمالِ مَنْ لاطَفَه به فأحواله بقاء في بقاء.

قوله جل ذكره: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾.

أي: أقسم بهذا البلد، وهو مكة.

﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾

وإنما أُجِلْتُ له ساعةً واحدةً.

﴿وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾

كلُّ والدٍ وكلُّ مولود. وقيل: آدم وأولاده.

وجواب القسم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾.

ويقال: أقسم بهذا البلد لأنك حِلٌّ به.. ويلدُ الحبيبُ حبيباً.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾.

أي: في مشقة؛ فهو يقاسي شدائد الدنيا والآخرة.

ويقال: خَلَقَه في بطن أمه (منتصباً رأسه) فإذا أَدْنَى اللهُ أن يخرج من بطن أمه

تنكَّس رأسه عند خروجه، ثم في القِمَاط^(١) وشدُّ الرِّباط.. ثم إلى الصُّراط هو في الهياط والمِياط^(٢).

قوله جل ذكره: ﴿أَيَسَّرَ لَنَ أَنْ يُقَدِّرَ عَلَيْنَ أَحَدًا﴾.

أي: لقوته وشجاعته عند نفسه يقول:

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ﴾.

(١) القِمَاط: خرقه عريضة يُلف بها المولود (ج) أقمطة وقمط.

(٢) يقال: ما زال في هياط ومياط أي في ضجاج وشر وجلبة، وقيل: في دنو وتباعد. (لسان العرب ٤٢٤/٧ مادة: هيط).

﴿لَبَدًا﴾ كثيراً، في عداوة محمد ﷺ.

﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾.

أليس يعلم أن الله يراه، وأنه مُطَّلِعٌ عليه؟

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَكَ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾.

أي: ألم نخلقه سمياً بصيراً متكلماً.

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾.

ألهمناه طريق الخير والشر.

﴿فَلَا أَقْنَمُ الْقَبْءَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَبْءُ فَكَ رَقَبَةً أَوْ إِطْعَمَةً فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ يَبَيْمًا ذَا مَقَرَبَةٍ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتَرَبَةٍ﴾.

أي: فهلاً اقتحم العقبة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَبْءُ﴾ استفهام على التضييق لسانها.

ويقال: هي عَقَبَةُ بَيْنِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ يجاوزها مَنْ فَعَلَ مَا قَالَ: وهو فك رَقَبَةٍ؛

أي: إعتاق مملوك، والفق الإزالة. وأطعم في يوم ذي مجاعة وقحط وشدة يتيماً ذا

قربة، أو ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتَرَبَةٍ﴾: لا شيء له حتى كأنه قد التصق بالتراب من الجوع.

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾.

أي: من الذين يرحم بعضهم بعضاً.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾.

أي: أصحاب اليمين والبركة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَبَّهْنَ أَمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ﴾.

هم المشائيم على أنفسهم، عليهم نارٌ مُطْبِقَةٌ؛ يعني أبواب النيران (عليهم مغلقة).

والعقبة التي يجب على الإنسان اقتحامها: نفسه وهواه، وما لم يَجْزُ تلك العقبة

لا يفلح ﴿فَكَ رَقَبَةً﴾ هو إعتاق نفسه من رِقِّ الأغراض والأشخاص.

ويكون فك الرقبة بأن يهدي مَنْ يَفْكُهِ - من رق هواه ونفسه - إلى سلامته من

شَحْ نفسه، ويرجعه إليه، ويخرجه من ذلّه.

ويكون فك الرقبة بالتحَرُّزِ من التدبير، والخروج من ظلمات الاختيار إلى سعة

الرضا.

ويقال: يطعم من كان في متربة ويكون هو في مسغبة^(١).

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي تكون خاتمة على ذلك.

(١) المتربة: الفقر الشديد والمسكنة، والمسغبة: المجاعة.

سورة الشمس

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» إخبار عن وجود الحق بنعتي القِدَم. «الرحمن الرحيم»: إخبار عن بقاءه بوصف العلاء والكُرم.

كاشَفَ الأرواحَ بقوله: «بسم الله» فهيَّما، وكاشَفَ النفوسَ بقوله: «الرحمن الرحيم» فتَيَّما؛ فالأرواحُ ذهَبَتْ في كَشَفِ جلاله، والنفوسُ عَطَشَتْ إلى لُطْفِ جماله.

قوله جل ذكره: ﴿وَالشَّمْسُ وَضَحَهَا﴾.

ضَحَا الشمسُ صَدُرَ وقت طلوعها.

﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا﴾.

أي: تَبِعَهَا؛ وذلك في النصف الأول من الشهر.

﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا﴾.

إذا جَلَّى الشمسَ وكَشَفَهَا.

﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى﴾.

أي: يَغْشَى الشمسَ (فيذهب بضوئها).

﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾.

أي وبنائها. ويقال: وَمَنْ بَنَاهَا.

﴿وَالْأَرْضَ وَمَا طَعْنَهَا﴾.

أي: وطَعْنَهَا. ويقال: وَمَنْ طَحَاهَا (أي بسطها أو قسمها أو خلقها).

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾.

ومن سَوَّى أجزائها وأعضاءها.

﴿فَأَلَمَسَهَا جُورَهَا وَتَقَوَّاهَا﴾.

أي: بَانَ خَذَلَهَا وَوَقَّقَهَا.

ويقال: فجورها: حركتها في طلب الرزق، وتقواها: سكونها بِحُكْمِ القدير.

وقيل: طريق الخير والشر.

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾.

هذا جواب القسم. أي «لقد أفلح من زكّاها».

ويقال: مَنْ زَكَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾.

أي: دسّاها الله. وقيل: دسّها في جملة الصالحين وليس منهم.

وقيل: خاب مَنْ دَسَّ نَفْسَهُ بمعصية الله. وقيل دسّاها: جعل خسيصةً حقيرةً.

وأصل الكلمة دسساها.

قوله جل ذكره: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَنِهَا﴾.

﴿يَطْغَوْنَهَا﴾: لطغيانها، وقيل: إن صالحاً قد مات، فكفّر قومه، فأحياه الله،

فدعاهم إلى الإيمان، فكذبوه، وسألوه علامةً وهي الناقة، فأناهم صالح بما سألوا.

﴿إِذْ أُنْبِئَتْ أَشْقَاهَا﴾.

«أشقاها» عاقرها.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾.

أي: احذروا ناقةَ اللَّهِ، واحذروا سقياها: أي لا تتعرضوا لها.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾.

أي كذبوا صالحاً، فعقروا الناقة.

﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَحَوَّاهَا﴾.

أي: أهلكهم بجُزُمِهِم «فسواها»: أي أطبق عليهم العذاب.

ويقال: سَوَّى بينهم رَبُّهُمْ في العذاب لأنهم كلهم رضوا بعقر الناقة.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَخَافُ عَذَابَهَا﴾.

أي: أن الله لا يخاف عاقبة ما فَعَلَ بهم من العقوبة.

ويقال: قد أفلح مَنْ دَاوَمَ على العبادة، وخَابَ مَنْ قَصَرَ فيها.

وفائدة السورة: أنه أفلح مَنْ طَهَّرَ نَفْسَهُ عن الذنوبِ والعيوبِ، ثم عن الأطماعِ

في الأعواض والأغراض، ثم أَبْعَدَ نَفْسَهُ عن الاعتراض على الأقسام، وعن ارتكاب

الحرام. وقد خَابَ مَنْ خَانَ نَفْسَهُ، وأهملها عن المراعاة، ودَسَّاهَا بالمخالفات؛ فلم

يرضَ بِعَدَمِ المعاني حتى ضَمَّ إلى قَفْرِهَا منها الدعاوى المظلمة. . . ففرقت في بحرِ

الشفاء سفينته.

سورة الليل

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله كلمة تُخْبِرُ عن إلهية الله؛ وهي استحقاقه لنعوتِ المجد والتوحد، وصفاتِ العِزِّ والتفرد؛ فَمَنْ تَجَرَّدَ في طَلْبِهِ عن الكسلِ، ولم يستوطن مركبَ العجزِ والقسلِ، ووضَعَ النظرَ موضِعَهُ وَصَلَ بِدليلِ العقلِ إلى عرفانه، وَمَنْ بَدَلَ رَوْحَهُ ونَفْسَهُ وَوَدَعَ في الطَلَبِ راحته وأَنَسَهُ، ولم يُعَرِّجْ في أوطانِ الوقفة ظفرَ بحكمِ الوصولِ إلى شهودِ سلطانه، والناسُ فيه بين مُوقِفٍ ومخذولٍ، أو مؤيِّدٍ ومردودٍ.

قوله جل ذكره: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَنسُقُ﴾.

يغشى الأفقَ، وما بين السماء والأرض فيستره بظلمته.
والليل لأصحاب التحير يستغرق جميع أقطار أفكارهم فلا يهتدون الرشداً.
﴿وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى﴾.

أَنَارَ وظَهَرَ، ووضَحَ وأسفر.

ونهارُ أهلِ العرفان بضياء قلوبهم وأسرارهم، حتى لا يَخْفَى عليهم شيء، فسكنوا بطلوع الشمس عن تكلف إيقاد السراج.
﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾.

أي: «من» خَلَقَ الذكر والأنثى؛ وهو الله سبحانه:
﴿إِنْ سَأَلْتَهُ لَشَيْءٌ﴾.

هذا جوابُ القَسَمِ، والمعنى: إِنَّ عَمَلَكُمْ لمختلف؛ فمنكم: مَنْ سَعَى في طلب دنياه، ومنكم مَنْ سَعَى في شهواتِ نَفْسِهِ واتباعِ هواه، ومنكم مَنْ سَعَى في شهواتِ، ومنكم مَنْ في طَلَبِ جَاهِهِ ومُنَاه، وآخر في طلبِ عقباه، وآخر في تصحيح تقواه، وآخر في تصفية ذكراه، وآخر في القيام بحُسْنِ رضاه، وآخر في طلبِ مولاه.

ومنكم: من يجمع بين سعي النفس بالطاعة، وسعي القلب بالإخلاص، وسعي البدن بالقرب، وسعي اللسان بذكر الله، والقول الحسن للناس، ودعاء الخلق إلى الله والنصيحة لهم.

ومنهم مَنْ سَعِيهِ فِي هَلَاكِ نَفْسِهِ وَمَا فِيهِ هَلَاكُ دُنْيَاهُ . . . ومنهم . . . ومنهم .

قوله جل ذكره: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ .

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى﴾ من ماله، ﴿وَاتَّقَى﴾ مخالفةً ربّه . .

ويقال: ﴿أَعْطَى﴾ الإنصاف من نفسه، ﴿وَاتَّقَى﴾ طَلَبَ الإنصافِ لنفسه . .

ويقال: «اتقى» مساحطَ الله. ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾: بالجنة، أو بالكرّة الآخرة،

وبالمغفرة لأهل الكبائر، وبالشفاعَة من جهة الرسول ﷺ، وبالخلف من قِبَلِ الله . . .

فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى: أي تُسَهِّلُ عليه الطاعات، وتُكَرِّهُ إليه المخالفات، وتُشْهِي إليه

القُرْبَ، وتُحِبُّ إليه الإيمان، وتُزَيِّنُ في قلبه الإحسان.

ويقال: الإقامة على طاعته والعود إلى ما عمله من عبادته.

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ .

أما من مَنَعَ الواجب، واستغنى في اعتقاده، وكَذَّبَ بالحسنى: أي بما ذَكَّرْنَا،

فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى؛ فيقع في المعصية ولم يُدَبِّرْهَا، ونوقف له أسباب المخالفة.

ويقال: «أعطى» أَعْرَضَ عن الدارين، «واتقى» أن يجعل لهما في نفسه مقداراً.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ .

يعني: إذا مات . . فما الذين يغني عنه ماله بعد موته؟

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ .

لأوليائنا، الذين أَرشدناهم. ويقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ بنصيب الدلائل.

﴿وَلَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ .

مُلْكاً، نعطيهِ من نشاء.

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ .

أي: تتلظى.

﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ .

أي: لا يُعَذَّبُ بها إِلَّا الْأَشْقَى، وهو:

﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ .

يعني: كَفَرَ.

﴿وَسَيَجْزِيهَا الْآلَتَى الَّتِي يُؤْتَى مَالُهَا يُزَكَّى﴾ .

يُعْطَى الزكاة المفروضة.

ويقال يَتَطَهَّرُ من الذنوب .

ونزلت الآية في أبي بكر رضي الله عنه . والآية عامة .

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدُكُمْ مِنْ نَقْمٍ تُجْزَى﴾ .

حتى تكون هذه مكافأة له . ولا يفعل هذا لِيَتَّخِذَ عند أَحَدٍ يَدًا ، ولا يطلب منه مكافأة :

﴿إِلَّا أَنْعَاءَ وَجُو رِيٍّ الْأَعْلَى﴾ .

أي : لِيَتَقَرَّبَ بها إلى الله .

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ .

يَرْضَى اللَّهُ عنه ، ويرضى هو بما يعطيه .

سورة الضحى

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسم لا يُشبهه كُفُو في ذاته وصفاته، ولا يستفزه لَهْو في إثبات مصنوعاته، ولا يعتريه سَهْو في علمه وحكمته، ولا يعترضه لَغْو في قوله وكلمته.

فهو حكيم لا يلهو، وعليم لا يسهو، وحليم يُثبِت ويمحو؛ فالصدق قَوْلُه، والحق حُكْمُه، والخلق خَلْقُه والمُلك مُلْكُه.

قوله جل ذكره: ﴿وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ﴾.

«والضحى»: ساعة من النهار. أو النهار كله يُسمَى ضُحَى. ويقال: أقسم بصلاة الضحى.

ويقال: الضحى الساعة التي كَلِم فيها موسى عليه السلام.

﴿وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ﴾ أي: ليلة المعراج، و«سجا»: أي سَكَن، ويقال: هو عامٌ في جِئْسِ الليل.

ويقال: «الضحى» وقت الشهود. ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ﴾ الذي قال: إنه لِيُغَانَّ على قلبي^(١).

ويقال: «الليل إذا سجا» حين ينزل اللُّهُ فيه إلى السماء الدنيا - على التأويل الذي يصح في وصفه.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَنَ﴾.

ما قَطَعَ عنك الوحي وما أبغضك.

وكان ذلك حين تأخر جبريل - عليه السلام - عنه أياماً، فقال أهل مكة: إن محمداً قد قلاه ربه. ثم أنزل اللُّهُ هذه السورة.

(١) أخرجه مسلم في الصحيح (الذكر ٤١)، وأبو داود في (السنن ١٥١٥)، وأحمد بن حنبل في (المستند ٤/ ٢١١ - ٢٦٠)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٥٢/ ٧)، والطبراني في (المعجم الكبير ٢٨٠/ ١)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٢٣٢٤)، والزبيدي في (إتحاف السادة المتقين ٥٧/ ٥، ٢٩٩/ ٨، ٥١٧، ٥٩/ ٩، ٦٢٨)، والبخاري في (التاريخ الكبير ٤٣/ ٢) (البغوي ١٨٠/ ٦)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦٣/ ٦)، وابن حجر في (فتح الباري ١٠١/ ١١) والمثني الهندي في (كتر العمال ٢٠٧).

وقيل: احتبس عنه جبريل أربعين يوماً، وقيل: اثني عشر يوماً، وقيل: خمسة وعشرين يوماً.

ويقال: سبب احتباسه أن يهودياً سأله عن قصة ذي القرنين وأصحاب الكهف، فَوَعَدَ الجواب ولم يقل: إن شاء الله.

﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾.

أي: ما يعطيك في الآخرة خيرٌ لك مما يعطيك في الدنيا.

ويقال: ما أعطاك من الشفاعة والحوض، وما يُلبسُك من لباس التوحيد - غداً - خيرٌ مما أعطاك اليوم.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾.

قيل: أفترضى بالعطاء عن المُعْطِي؟ قال: لا.

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَكَأْوًى﴾.

قيل: إلى عمه أبي طالب.

ويقال: بل آواه إلى كَتَفِ ظِلِّهِ، ورباه بلطف رعايته.

ويقال: فأواكَ إلى بساطِ القربة بحيث انفردت بمقامك، فلم يُشاركك فيه أحدٌ.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾.

أي: ضللت في شعاب مكة، فهَدَى إليك عمك أبا طالب في حال صباك.

ويقال: «ضالاً» فينا متحيراً.. فهديناك بنا إلينا.

ويقال: «ضالاً» عن تفصيل الشرائع؛ فهديناك إليها بأن عرفناك تفصيلها.

ويقال: فيما بين الأقوام ضلالاً فهدهم بك.

وقيل: «ضالاً» للاستنشاء فهذاك لذلك.

ويقال: «ضالاً» في محبتنا، فهديناك بنور القربة إلينا.

ويقال: «ضالاً» عن محبتي لك فعرفتكَ أني أُحِبُّكَ.

ويقال: جاهلاً بمحلِّ شرفك، فعرفتكَ قَدْرَكَ.

ويقال: مستتراً في أهل مكة لا يعرفك أحدٌ فهديناهم إليك حتى عرفوك.

﴿وَوَجَدَكَ عَالِمًا غَافِقًا﴾.

في التفسير: فأغناكَ بمال خديجة.

ويقال: أغناكَ عن الإرادة والطلب بأن أرضاك بالفَقْد.

ويقال: أغناك بالنبوة والكتاب. ويقال: أغناك بالله.

ويقال: أغناك عن السؤال حينما أعطاك ابتداءً؛ بلا سؤالٍ منك.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾.

فلا تُخَفِّه، وارفق به، وقرّبه.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾.

أي: إمّا أن تُعْطِيَه.. أو تَرُدَّه بِرِفْقٍ، أو وعدٍ.

ويقال: السائلُ عثاً، والسائلُ المتحيرُ فينا - لا تنهرهم، فإننا نهديهم، ونكشف

مواضع سؤالهم عليهم.. فلا طِفْهم أنت في القول.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

فاشكّر، وصرّح بإحسانه إليك، وإنعامه عليك.

سورة ﴿الم نشرح﴾

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ عزيزٌ عزَّزَ مَنْ التَّجَأَ إِلَيْهِ، وَجَلَّ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ، وَفَازَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَنْ تَوَسَّلَ بِهِ إِلَيْهِ؛ فَمَنْ تَقَرَّبَ مِنْهُ قَرَّبَهُ وَمَنْ شَكَا إِلَيْهِ حَقَّقَ لَهُ مَطْلَبَهُ، وَمَنْ رَفَعَ قِصَّتَهُ إِلَيْهِ قَضَى مَآرَبَهُ.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

أَلَمْ نُوسِّعْ قَلْبَكَ لِلْإِسْلَامِ؟ أَلَمْ نُلَيِّنْهُ لِلْإِيمَانِ؟
ويقال ألم نوسع صدرك بنور الرسالة؟ ألم نوسّع صدرك لقبول ما نوردُ عليك.
﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ۖ أَتَقَعُ الْآيَةُ أَنْفَقَ ظَهْرَكَ﴾.

أي: إثنك قبل النبوة.

ويقال: عصمتك عن ارتكاب الوزر؛ فَوَضَعَهُ عَنْهُ بِأَنَّهُ لَمْ يَسْتَوْجِبْهُ قَطُّ.

ويقال: خففنا عنك أعباء النبوة وجعلناك محمولا لا متحملا.

ويقال: قويناك على التحمل من الخلق، وقويناك لمشاهدتنا، وحفظنا عليك ما استحفظت، وحرسانك عن ملاحظة الخلق فيما شرفناك به.
﴿الْآيَةُ أَنْفَقَ ظَهْرَكَ﴾: أثقله، ولولا حملنا عنك لكسير.
﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾.

بِذِكْرِنَا؛ فكما لا تصح كلمة الشهادة إلا بي، فإنها لا تصح إلا بك.

ويقال: رفعنا لك ذكرك بقول الناس: محمد رسول الله!

ويقال: أثبتنا لك شرف الرسالة.

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

وفي الخبر: «لن يغلب عُسْرُ يُسْرَيْنِ»^(١) ومعناه: أن العسر بالآلف واللام في

(١) أخرجه الحاكم في (المستدرک ٥٢٨/٢)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٢٩٤٦)، وابن حجر في (فتح الباري ٧/٧١٢)، والطبري في (التفسير ١٥١/٣٠)، والقرطبي في (التفسير ١٠٧/٢٠) والمجلوني في (كشف الخفاء ٢/٢١٣)، والسيوطي الحلبي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المنتشرة ١٣٢).

الموضعين للعهد - فهو واحد، واليُسْر مُنْكَرٌ في الموضعين فهما شيثان. والعُسْر الواحد: ما كان في الدنيا، واليسران: أحدهما في الدنيا في الخصب، وزوال البلاء، والثاني في الآخرة من الجزاء وإذا فُعُسِرُ جميع المؤمنين واحد - وهو ما نابهم من شدائد الدنيا، وَيُسْرُهُم اثنان: اليوم بالكُشْفِ والصَّرْفِ، وغداً بالجزاء.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾.

فإذا فَرَغْتَ من الصلاة المفروضة عليك فانصَبْ في الدعاء.

ويقال: فإذا فرغت من العبادة فانصب في الشفاعة.

ويقال: فإذا فرغت من عبادة نَفْسِكَ فانصَبْ بقلبك.

﴿وَلِكِنَّ رَبَّكَ فَاَرْغَبْ﴾.

في جميع الأحوال.

ويقال: فإذا فرغت من تبليغ الرسالة فارغب في الشفاعة.

سورة النين

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

اسم «الله» يدلّ على جلال مَنْ لم يَزَلْ، ويُخْبِرُ عن جمال مَنْ لم يَزَلْ، ينبه على إقبال مَنْ لم يَزَلْ، يشير إلى إفضال مَنْ لم يَزَلْ؛ فالعارف شهد جلاله فطّاش، والصفّي شهد جماله فعاش، والوليّ شهد إقباله فارتاش، والمريدُ يشهد إفضاله فلا يطلب مع كفايته المعاش.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ﴾.

أقسم بالتين لما به من عظيم المنة على الخلق حيث لم يجعل فيه الثوى، وخلّصه من شائب التنغيص، وجعله على مقدار اللّمة لتكمل به اللذة. وجعل في «الزيتون» من المنافع مثل الاستصباح والتأدّم والاصطباغ به. ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾.

الجبل الذي كلّّم الله موسى عليه. ولموضع قَدَمِ الأحبابِ حُرمة.

﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾.

يعني: مكة، ولهذا البلد شرف كبير، فهي بلدُ الحبيب، وفيها البيت؛ ولبيتِ الحبيبِ وبلدِ الحبيبِ قَدَرٌ ومنزلة.

قوله جلّ ذكره: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

في اعتدال قامته، وحُسن تركيب أعضائه. وهذا يدلّ على أن الحقّ - سبحانه - ليس له صورة ولا هيئة؛ لأنّ كلّ صفةٍ اشترك فيها الخلقُ والحقّ فالمبالغة للحقّ. . كالعلم، فالأعلمُ الله، والقدرة: فالأقْدَرُ الله فلو اشترك الخلقُ والخالقُ في التركيب والصورة لكانَ الأحسن في الصورة الله. . . فلما قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ عَلِمَ أَنَّ الحقّ - سبحانه - مُتَرَفِّعٌ عن التقويم وعن الصورة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ثُمَّ رَدَدْتُهُ أَشْفَلًا سَافِلِينَ﴾.

أي: إلى أرذل العمر وهو حال الخَرْفِ^(١) والهَرَمِ.

(١) الخَرْفُ: فساد العقل من الكبير أو المرض.

ويقال: ﴿أَسْفَلَ سَفِيلَيْنِ﴾: إلى النار والهاوية في أقبح صورة؛ فيكون أول الآية عامًا وآخرها خاصًا بالكفار.. كما أن التأويل الأول - الذي هو حال الهرم - خاص في البعض؛ إذ ليس كل الناس يبلغون حال الهرم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

أي: غير منقوص.

ويقال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَفِيلَيْنِ﴾ أي: إلى حال الشقاوة والكفر إلا المؤمنين.

قوله جل ذكره: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ الدِّينِ﴾.

أيها الإنسان.. مع كل هذا البرهان والبيان؟

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْكِرَ الْمُتَكِبِينَ﴾.

سورة العلق

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة سماعها يوجب أحد أمرين: «إِمَّا صَخَوًا وَإِمَّا مَخَوًا؛ صَخَوًا لِمَنْ سَمِعَهَا بشاهد العلم فيستبصر بواضح برهانه، أو مَخَوًا لِمَنْ سَمِعَهَا بشاهد المعرفة لأنه يتحير في جلال سلطانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

هذه السورة من أوّل ما نَزَلَ على المصطفى ﷺ لما تعرّض له جبريل في الهواء، ونَزَلَ عليه فقال: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. فالنَّاسُ كُلُّهُمْ يريدون - وهو ﷺ كان مُرَادًا. فاستقبل الأمر بقوله: «ما أنا بقارىء»، فقال له: اقرأ، فقال: ما أنا بقارىء، فقال له: «اقرأ كما أقول لك؛ ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾»^(١) أي خلقهم على ما هم به. ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾.

العَلَقُ جمع عَلَقَةٍ؛ كشَجَرٍ وشَجَرَةٍ.. (والعَلَقَةُ الدَّمُ الجامد فإذا جرى فهو المسفوح).

﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾.

«الأكرم»: أي الكريم.

ويقال: الأكرم من كلِّ كريم.

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

عَلَّمَهُمْ ما لم يعلموا: الضروري، والكسبي.

(١) أخرجه البخاري في (الصحيح ١/١٣، ٦/٢٠٢، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٨/٥٩، ٩/٣٧)، ومسلم في (الصحيح الإيمان ب٧٣ رقم ٢٥٢)، والبيهقي في (السنن الكبرى ٧/٥١، ٩/٦)، وعبد الرزاق في (المصنف ٩٧١٩)، (البغوي ٧/٢٦٨)، والحاكم في (المستدرک ٣/١٨٣)، والبغوي في (شرح السنة ١٣/٣١٧)، وأبو عوانة في (المسند ١/١١٠)، والبيهقي في (دلائل النبوة ٢/١٣٥)، والسيوطي في (الدر المنثور ٦/٣٦٨)، وابن حجر في (فتح الباري ١/٢٢، ٨/٧١٥)، وأبو نعيم في (دلائل النبوة ١/٦٨)، والقرطبي في (التفسير ٢٠/١١٨) وابن كثير في (التفسير ٨/٤٥٨).

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّافٍ ۚ﴾ .

أي: يتجاوز جَدَّهُ إذا رأى في نفسه أنه استغنى؛ لأنه يَغْمَى عن مواضع افتقاره .
ولم يقل: إن استغنى بل قال: ﴿أَن رَّاهُ أَشْتَقَى﴾ فإذا لم يكن مُعْجَباً بنفسه، وكان مشاهداً لمحل افتقاره - لم يكن طاغياً .

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ﴾ .

أي: الرجوع يوم القيامة .

قوله جلّ ذكره: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ .

أليس لو لم يفعل هذا كان خيراً له؟ ففي الآية هذا الإضمار .

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْمَذْهَبِ أَوْ أَمَرَ بِالْقُوَّةِ﴾ .

لكان خيراً له؟

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ . كَذَّبَ بالدِّينِ، وتولّى عن الهداية .

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ يَلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ .

أي: ما الذي يستحقّه مَنْ هذه صفته؟

والتخويفُ برؤية الله تنبيه على المراقبة - وَمَنْ لَمْ يَبْلُغْ حَالَ المراقبة لم يَزْتَقِ منه

إلى حال المشاهدة .

قوله جلّ ذكره: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِلَةٍ﴾ .

لَنَأْخُذَنَّ بِنَاصِيَتِهِ (وهي شَعْرُ مُقَدِّمِ الرَّأْسِ) أَخَذَ إِذْلالٍ . ومعناه لَنَسْوَدَنَّ وَجْهَهُ .

وقوله: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِلَةٍ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ .

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَدَّعُ الزَّبَانِيَةِ﴾ .

فليدعُ أَهْلَ نَادِيَتِهِ وَأَهْلَ مَجْلِسِهِ، وسدعو الزبانية ونامرهم بإهلاكه .

قوله جلّ ذكره: ﴿كَلَّا لَا تُلْفَعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ .

أي: اقترب من شهود الربوبية بقلبك، وقِفْ على بساط العبودية بتفكيرك .

ويقال: فاسجدْ بنفسيك، واقتربْ بسمرك .

سورة القدر

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة تُخَضِّرُ قلوب العلماء لتأمل الشواهد، وتُشكِّرُ قلوب العارفين إذا وردوا المشاهد... فهؤلاء أحضرهم قَبَضَرهم، وعلى استدلالهم نصرهم.

وهؤلاء بشراب محابه أسكّرهم، وفي شهود جلاله خيّرهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾.

في ليلة قَدَرٍ فيها الرحمة لأوليائه، في ليلة يجد فيها العابدون قَدَرَ نفوسهم، ويشهد فيها العارفون قَدَرَ معبودهم... وشتان بين وجود قَدَرٍ وشهود قَدَرٍ! فلهؤلاء وجود قَدَرٍ ولكن قدر أنفسهم، ولهؤلاء شهود قَدَرٍ ولكن قدر معبودهم.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾.

استفهام على جهة التفتيح بشأن تلك الليلة.

﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾.

أي: هي خير من ألف شهر ليست فيها ليلة القدر. هي ليلة قصيرة على الأحياب لأنهم فيها في مسامرة وخطاب... كما قيل:

يا ليلة من ليالي الدهر قابلت فيها بذرها ببذر
ولم تكن عن شفتي وفجر حتى تولت وهي بكر الدهر

قوله جلّ ذكره: ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾.

﴿وَالرُّوحُ فِيهَا﴾: قيل جبريل. وقيل: ملك عظيم.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾: أي بأمر ربهم

﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَّمَ﴾: أي مع كل مأمور منهم سلامي على أوليائي.

﴿هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾: أي هي باقية إلى أن يطلع الفجر.

سورة البينة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسم عزيز تنصّل إليه المذنبون فغفر لهم وجبرهم: وتوسّل إليه المطيعون فوصلهم ونصرهم.

تعرّف إليه العالمون فبصرهم، وتقرّب منه العارفون فقرّبهم... لكنه - سبحانه - في جلاله خيرهم.

قوله جل ذكره: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.

«منفكين»: منتهين عن كفرهم حتى تأتيهم البيّنة: وهي رسول الله ﷺ، أي لم يزالوا مجتمعين على تصديقه؛ لما وجدوه في كتبهم إلى أن بعثه الله تعالى. فلما بعثه حسدوه وكفروا.

﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾.

أي حتى يأتيهم رسول من الله يقرأ كتباً مطهرة عن تبديل الكفار.

﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾: مستوية ليس فيها اعوجاج.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا لَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾.

يعني: القرآن.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾.

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي موحدين لا يشركون بالله شيئاً؛ فالإخلاص ألا يكون شيء من حركاتك وسكناتك إلا لله.

ويقال: الإخلاص تصفية العمل من الخلل.

«حنفاء»: مائلين إلى الحق، عادلين عن الباطل.

﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ... وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾: أي دين الملة القيمة، والأمة القيمة، والشريعة القيمة.

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: مقيمين. ﴿الْبَرِيَّةِ﴾: الخليقة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾.

أي: خير الخلق، وهذا يدل على أنهم أفضل من الملائكة.

قوله جل ذكره: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

﴿جَزَاؤُهُمْ﴾: أي ثوابهم في الآخرة على طاعاتهم.

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: من تحت أشجارها الأنهار.

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

فلم تبق لهم مطالبة إلا حَقَّقَهَا لَهُمْ.

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾.

أي: خافه في الدنيا.

والرضا سرور القلب بمر القضا.

ويقال: هو سكون القلب تحت جريان الحكم.

سورة الزلزلة

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة من تأملها بمعانيها ووقف على ما أودع فيها رتعت أسرارها في رياض من الأنس موبقة، وأينعت أفكاره بلوائح من اليقين مشرقة، فهي على جلال الحق شاهدة، وهي على ما يحيط به الذكر ويأتي عليه الحضر زائدة.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَنْفَعَالَهَا﴾.

أي: أمواتها، وما فيها من الكنوز والدفائن.

﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾.

يعني الكافر الذي لا يؤمن بها أي بالبعث.

﴿يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَنْبَارَهَا﴾.

يومئذ تخبر الأرض:

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾.

أي: إنما تفعل ذلك بأمر الله.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشُنَاكَ لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ﴾.

﴿أَشُنَاكَ﴾: متفرقين. ﴿لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ﴾: ليحاسبوا.

قوله جلّ ذكره: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

شَرًّا يَرَهُ﴾.

فيقاسي عناه.

سورة العاديات

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّازِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة غيور لا يصلح لذكرها إلا لسان مصون، عن اللغو والغيبة، ولا يصلح لمعرفتها إلا قلب محروس عن الغفلة والغيبة^(١) ولا يصلح لمحبتها إلا روح محفوظة عن العلاقة والحجة.

قوله جلّ ذكره: ﴿وَالْمَدْيَنَ صَبَاحًا﴾.

﴿وَالْمَدْيَنَ﴾: الخيل التي تعدو^(٢).

﴿صَبَاحًا﴾ أي إذا ضبحن صباحاً، والضبح: هو صوت أجوافها إذا عدوّن. ويقال: ضبحها هو شدة نفسيها عند العدو.

وقيل: ﴿وَالْمَدْيَنَ﴾؛ الإبل.

وقيل: أقسم الله بأفراس الغزاة.

﴿فَالْمُورِيَّتَ قَدْحًا﴾.

تورى بحوافرها النار إذا عدّت وأصابَتْ سنابكها^(٣) الحجارة بالليل.

ويقال: الذين يورون النار بعد انصرافهم من الحرب.

ويقال: هي الأسيئة.

﴿فَالْمُغِيرَتِ صُبْحًا﴾.

تغير على العدو صباحاً.

﴿فَأَنْزَنَ بِهِ نَقْعًا﴾.

أي: هيّجن به غباراً.

﴿فَوَسَطَنَ بِهِ جَمْعًا﴾.

أي: توسّطن المكان، أي: تتوسط الخيل بفوارسها جمّع العدو.

(١) انظر حديث القشيري عن الغيبة برسائه ص ٦٩، ٧٠.

(٢) العدو: الجري. (٣) السنايك: (ج) السبك: طرف مقدم الحافر.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ .

هذا هو جواب القسم .

﴿لَكَنُودٌ﴾ : أي لكفور بالنعمة .

﴿وَإِنَّكُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ لَشَهِيدٌ﴾ .

أي : وإنه على كنوده لشهيد .

﴿وَإِنَّكُمْ لِحَبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ .

أي : وإنه لبخيل لأجل حب المال .

قوله جل ذكره : ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ .

أي : بُعث الموتى .

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ .

يُتَبَيَّنُ ما في القلوب من الخير والشر .

﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ .

أفلا يعلم أن الله يُجازيهم - ذلك اليوم - على ما أسلفوا، ثم قال على

الاستئناف : ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ .

ويقال في معنى الكنود : هو الذي يرى ما إليه من البلوى، ولا يرى ما هو به من

النعمى .

ويقال : هو الذي رأسه على وسادة النعمة، وقلبه في ميدان الغفلة .

ويقال : الكنود : الذي ينسى النعم ويعتد المصائب .

وقوله : ﴿وَإِنَّكُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ لَشَهِيدٌ﴾ ، يحتمل : وإن الله على حاله لشهيد .

سورة القارعة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة إذا سمعها العاصون نُسُوا زَلَّتْهُمْ في جنب رحمته، وإذا سمعها العابدون نسوا صولتْهم في جنب إلهيته.

كلمة مَنْ سمعها ما غادَرَتْ له شُغْلاً إِلَّا كَفَّتْهُ، ولا أمراً إِلَّا أَصْلَحَتْهُ، ولا ذنباً إِلَّا غَفَرَتْهُ، ولا أرباباً إِلَّا قَضَتْهُ.

قوله جل ذكره: ﴿الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ﴾.

القارعة: اسمٌ من أسماء القيامة، وهي صيغة «فاعلة» من القَرَعَ، وهو الضرب بشدة. سُمِّيَتْ قارعة لأنها تقرعهم.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾.

تهويلاً لها.

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾.

أي: الْمُتَفَرِّقُ . . . وعند إعادتهم يركب بعضهم بعضاً.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾.

أي: كالصوف المصبوغ.

والمعنى فيه: أن أصحاب الدعاوى وأرباب القوة في الدنيا يكونون - في القيامة إذا بُعِثُوا - أضعف من كل ضعيف؛ لأن القوى هنالك تسقط، والدعاوى تَبْطُلُ.

قوله جل ذكره: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾.

مَنْ ثَقُلَتْ موازينه بالخيرات فهو في عيشة راضية؛ أي مَرْضِيَةٍ.

ووزن الأعمال يومئذ يكون بوزن الصحف. ويقال: يخلق بَدَل كل جزء من

أفعاله جوهراً، وتوزن الجواهر ويكون ذلك وزن الأعمال.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾.

مَنْ خَفَّتْ موازينه من الطاعات - وهم الكفار - فمأواه هاوية.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ هَارٌ حَامِيَةٌ﴾.

سؤال على جهة التهويل. ولم يرد الخبر بأن الأحوال توزن، ولكن يُجَاوِز كلُّ

بحالة مما هو كَسَبَ له، أو وَصَلَ إلى أسبابها بِكَسْبٍ منه.

سورة النكاثر

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ عزيزٌ تقدّسَ في آزاله عن كل مكان، ولم يَحْتَجْ في آباده إلى زمانٍ أو إلى مكان؛ لا يقطعه حدٌّ فأنى يجوز في وَضْفِهِ المكان؟ ولا يقطعه عَدٌّ فأنى تجوز في وَضْفِهِ الزيادة والنقصان؟

قوله جلّ ذكره: ﴿الْهَنَكُ الْكَافِرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾.

أي: شَغَلَكُم تَفَاخُرُكُمْ فيما بينكم إلى آخر أعماركم إلى أنْ مِتُّم. ويقال: كانوا يفتخرون بآبائهم وأسلافهم؛ فكانوا يشيدون بذكر الأحياء، وبمن مضى من أسلافهم.

فقال لهم: شَغَلَكُم تَفَاخُرُكُمْ فيما بينكم حتى عَدَدْتُم أَمْوَاتِكُمْ مع أحيائكم. وأنساكم تكاثركم بالأموال والأولاد طاعةً الله.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

على جهة التهويل.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾.

أي: لو علمتم حقَّ اليقين لارتدعتم عما أنتم فيه من التكذيب.

﴿لَتَرْوُنَّ الْجَنَّةَ ثُمَّ لَتَرْوُنَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾.

أراد جميع ما أعظاهم الله من النعمة، وطالبهم بالشكر عليها.

ومن النعيم الذي يُسأل عنه العبد تخفيفُ الشرائع؛ والرُّخْصُ في العبادات.

ويقال: الماء الحار في الشتاء، الماء البارد في الصيف.

ويقال: منه الصَّحَّةُ في الجسد، والفراغ.

ويقال: الرضاء بالقضاء. ويقال: القناعة في المعيشة.

ويقال: هو المصطفى ﷺ.

سورة العصر

قوله جلّ ذكره: ﴿يَسِّرْ اللَّهُ الْكَفْرَ الْكَفْرَ﴾.

كلمة مَنْ سَمِعَهَا لم يَدْخُرْ عنها مَالَهُ؛ لَأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ - سبحانه - يُحْسِنُ مَالَهُ، وَمَنْ عَرَفَهَا لم يُؤَيِّزْ عليها نَفْسَهُ؛ لَأَنَّهُ لم يجد بدونها أَنْسَهُ.
كلمة مَنْ صَحِبَهَا لم يمنع عنها روحَهُ؛ إِذْ وَجَدَ الحَيَاةَ الأبدية له ممنوحة.
قوله جلّ ذكره: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾.
﴿العصر﴾: الدهر - أقسم به.

ويقال: أراد به صلاة العصر. ويقال: هو العَشي.

﴿الْإِنْسَانُ﴾: أراد به جنس الإنسان. «والخُسْرُ»: الخسران.

والمعنى: إن الإنسان لفي عقوبةٍ من ذنوبه. ثم استثنى المؤمنين فقال:

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

الذين أخلصوا في العبادة وتواصوا بما هو حقٌّ، وتواصوا بما هو حَسَنٌ وجميلٌ، وتواصوا بالصبر.

وفي بعض التفاسير: قوله: ﴿الذين آمنوا﴾ يعني أبا بكر، ﴿وعملوا الصالحات﴾: يعني عمر.

و ﴿تواصوا بالحق﴾ يعني عثمان، و ﴿تواصوا بالصبر﴾ يعني علياً - رضي الله عنهم أجمعين.

والخسران الذي يلحق الإنسان على قسمين: في الأعمال ويتبين ذلك في المال، وفي الأحوال ويتبين ذلك في الوقت والحال؛ وهو القبضُ بعد البسط، والحاجة بعد القربة، والرجوعُ إلى الرخص بعد إيثار الأشتى والأولى.

﴿وتواصوا بالحق﴾: وهو الإيثارُ مع الخلق، والصدقُ مع الحق.

﴿وتواصوا بالصبر﴾: على العافية... فلا صبرَ أُنْتُمْ منه.

ويقال: بالصبر مع الله.. وهو أشدُّ أقسام الصبر^(١).

(١) انظر حديث القشيري عن الصبر برسالته ص ١٨٣ - ١٨٩.

سورة الهمزة

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ مَنْ لا غَرْضَ له في أفعاله، اسمٌ من لا عِوَضَ عنه في جلاله وجماله. اسمٌ مَنْ لا يصِيرُ العبدُ عن مختاراً، اسمٌ مَنْ لا يَجِدُ الفقير من دونه قَراراً، اسمٌ مَنْ لا يَجِدُ أحدٌ من حُكْمِهِ فراراً.

قوله جل ذكره: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾.

يقال: رجلٌ هُمَزَةٌ لُمَزَةٌ: أي كثيرُ الهمزِ واللُّمَزِ للناس وهو العيب والغيبة.
ويقال: الهمزة الذي يقول في الوجه، واللُّمزة الذي يقول مِنْ خَلْفِهِ.
ويقال: الهمزُ الإشارةُ بالرأس والجفن وغيره، واللُّمزُ باللسان.
ويقال: الهمزة الذي يقول ما في الإنسان، واللُّمزة الذي يقول ما ليس فيه.
قوله جل ذكره: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾.

«جمع» بالتشديد على التكثير، وبالتخفيف.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾.

أي: يَتَّقِيهِ في الدنيا. . . كَلَّا ليس كذلك:

﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْنَدَةِ﴾.

لِيُطْرَحَنَّ في جهنم. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ؟﴾ على جهة التهويل لها.

فهم في نار الله الموقدة التي يبلغ ألَمُها الفؤاد.

﴿إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ﴾.

مُطَبَقَةٌ.

﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾.

«عمد»: جمع عماد. وقيل: إنها عُمْدٌ من نارٍ تُمَدَّدُ وتُضْرَبُ عليهم؛ كقوله:

﴿أَحَاطَ بِهُمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

ويقال: الغِنَى بغيرِ اللّهِ فَقَرٌّ، والأُنْسُ بغيره وَخَشَّةٌ، والعِزُّ بغيره ذُلٌّ.
ويقال: الفقيرُ مَنْ استغنى بماله، والحقيرُ: مَنْ استغنى بجاهه، والمُقْلِسُ:
مَنْ استغنى بطاعته، والذليلُ: مَنْ استغنى بغير الله، والجليلُ: مَنْ استغنى بالله.
ويقال: بَيَّنَّ أن المعرفة إذا اتَّقدت في قلب المؤمن أحرقت كلَّ سُؤْلِ وأَرَبَ
فيه، ولذلك تقول جهنهم - غداً - للمؤمن: «جُزْ، يا مؤمن..» فَإِنَّ نورك قد أَطْفَأَ
لَهَبِي!!

سورة الفيل

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ غنيٌّ من أطاعةٍ أغناه، ومن خالفه أضله وأعماه.

اسمٌ عزيزٌ من وافقه رفاه إلى الرتبة العليا، ومن خالفه ألقاه في المحنة الكبرى.

قوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾.

ألم يتيه إليك فيما أنزل عليك علمٌ ما فعل ربك بأصحاب الفيل؟

وفي قصة أصحاب الفيل دلالة على تخصيص اللّه البيت العتيق^(١) بالحفظ والكلاءة^(٢). وذلك: أن أبرهة^(٣) - ملك اليمن - كان نصرانياً، وبنى بيعة لهم بصنعاء، وأراد هدم الكعبة ليصرف الحج إلى بيعتهم.

وقيل: نزل جماعة من العرب ببلاد النجاشي، وأوقدوا ناراً لحاجة لهم، ثم تغافلوا عنها ولم يطفئوها، فهبت الريح وحملت النار إلى الكنيسة وأحرقتها، فقصد أبرهة الكعبة لينهدمها بجيشه.

فلما قرب من مكة أصاب مائتي جمل لعبد المطلب، فلما أخبر بذلك ركب إليهم، فعرفه رجلان، فقالا له:

ارجع.. فإن الملك غضبان.

فقال: واللات والعزى لا أزعج إلا بإبلي.

ف قيل: لأبرهة: هذا سيّد قريش ببابك؛ فأذن له، وسأله عن حاجته؛ فأجاب أبرهة: إنها لك غداً، إذا تقدّمت إلى البيت.

فعاد عبد المطلب إلى قريش، وأخبرهم بما حدث، ثم قام وأخذ بحلقه باب الكعبة، وهو يقول:

(١) البيت العتيق: الكعبة.

(٢) الكلاءة: الحراسة والحفظ.

(٣) هو أبرهة بن الصباح من ملوك اليمن في الجاهلية، حبشي لا صلة له بالعرب، ذكر ابن الأثير - في خبر الفيل - أنه حين تكلم مع عبد المطلب كان بينهما ترجمان.

الأعلام ٨٢/١.

لَا هُمْ إِنْ الْعَبْدَ يَمُ — نَعُ زَخْلَهُ فَا مَنَعُ حَلَالِكَ
 لَا يَسْغَلِبَنَّ صَلِيْبُهُمْ — وَمَحَالُهُمْ عَذْوًا مِحَالِكَ
 إِنْ يَدْخُلُوا الْبَلَدَ الْحَرَا — مَ فَأَمْرٌ مَا بَدَالِكَ
 فأرسل الله عليهم طيراً أخضر من جهة البحر طوال الأعناق، في مناقر كل طائر
 حَجَرٌ وفي مخبله حجران.

قيل: الحَجَرَةُ منها فوق العدس دون الحمص.
 وقيل: فوق الحمص دون الفستق، مكتوب على كل واحدة اسم صاحبها.
 وقيل: مُخَطَّطَةٌ بالسَّوَادِ. فَأَمْطَرَتْ عليهم، وماتوا كُلُّهُمْ.
 وقيل: كان الفيل ثمانية؛ وقيل: كان فيلاً واحداً.
 وفي رواية: إنه كان قبل مولده ﷺ بأربعين سنة.
 وقيل: بثلاثة وعشرين سنة. وفي رواية «وُلِدْتُ عَامَ الْفِيلِ»^(١).
 قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾.

أي: مَكْرَهُمْ في إبطال.
 ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾.
 ﴿أَبَابِيلَ﴾: مجمعة ومتفرقة.
 ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾.
 قيل بالفارسية: سنگل أو گل - أي طينٌ طَبَخَ بالنار كالآجر.
 ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ أَلْعُكُلٍ﴾.

﴿كَعَصِفٍ﴾: كأطراف الزرع قبل أن يدرك. «مأكول» أي ثمره مأكول.

ويقال: إذا كان عبد المطلب - وهو كافر - أخلص في التجائه إلى الله في
 استدفاع البلاء عن البيت - فالله لم يُخَيِّبْ رجاءه...، وَسَمِعَ دُعَاءَهُ... فالمؤمن
 المخلص إذا دعا ربّه لا يردهُ خائباً.

ويقال: إنما أُجيبَ لأنه لم يسأل الله لِنَفْسِهِ، وإنما لأجل البيت... وما كان لله
 لا يضيع.

(١) أخرجه الترمذي (مناقب، ٢)، وأحمد بن حنبل ٢١٥/٤.

سورة قريش

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم»: الباء في «بسم» تشير إلى براءة سير الموحدين عن حسابان الجدثان^(١)، وعن كل شيء مما لم يكن فكان، وتشير إلى الانقطاع إلى الله في السراء والضراء، والشدة والرخاء.

والسين تشير إلى سكونهم في جميع أحوالهم تحت جريان ما يبدو من الغيب بشرط مراعاة الأدب.

والميم تشير إلى مئة الله عليهم بالتوفيق لما تحققوا به من معرفته، وتخلقوا به من طاعته.

قوله جل ذكره: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قُرَيْشٍ لِّإِلَهِهِمْ رَحْلَةٌ الْبَيْتِ وَالصَّيْفِ﴾.

«الإيلاف»: مصدر أَلَفَ، إِذَا جَعَلْتَهُ يَأْلَفُ. وهو أَلَفَ الْفَأَ.

والمعنى: جعلهم كعصفٍ مأكولٍ لإيلافٍ قريشٍ، أي ليألفوا رحلتهم في الشتاء والصيف.

وكانت لهم رحلتان للامتيار^(٢): رحلة إلى الشام في القيظ^(٣)، ورحلة إلى اليمن في الشتاء والمعنى: أنعم الله عليهم بإهلاك عدوهم ليؤلفهم رحلتهم.

وقيل: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا قُرَيْشٍ﴾ كأنه أعظم المنة عليهم وأمرهم بالعبادة:

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾.

فليعبدوه لما أنعم به عليهم.

وقيل: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ بعد ما أصابهم من القحط حينما دعا عليهم الرسول ﷺ^(٤).

(١) الجدثان: حدثان الأمر والشباب: أوله وابتدأه.

(٢) امتار لأهله: تطلب لهم الميرة، أتاهم بالميرة وهي الطعام من الحب والقوت.

(٣) القيظ: شدة الحر أو صميم الصيف.

(٤) قال: «اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف» أخرجه البخاري في (الصحيح ٢/٢٣، ٨/٥٥ =

﴿وَأَمَّهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾ .

حين جعلَ الحرَمَ آمِنًا، وأجازهم من عدوهم .

ويقال: أنعم عليهم بأن كفاهم الرحلتين بجلبِ الناسِ الميرةَ إليهم من الشام ومن اليمن .

وَوَجْهِ الْمِنَّةِ فِي الإِطْعَامِ وَالْأَمَانِ هُوَ أَنْ يَتَفَرَّغُوا إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ؛ فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ مَكْفِيَّ الْأُمُورِ لَا يَتَفَرَّغُ إِلَى الطَّاعَةِ، وَلَا تَسَاعِدُهُ الْقُوَّةُ وَلَا الْقَلْبُ - إِلَّا عِنْدَ السَّلَامَةِ بِكُلِّ وَجْهِ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ [البقرة: ١٥٥] فَقَدَّمَ الْخَوْفَ عَلَى جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْبَلَاءِ .

= (١٠٤)، والبيهقي في (السنن الكبرى ١٩٨/٢)، وابن كثير في (التفسير ٣٤٤/٢) والقرطبي في (التفسير ٢٦٤/٣، ٢٦٣/٧، ٢٠٩/٢٠)، وابن حجر في (فتح الباري ٥٨٠/١٠، ١٩٤/١١).

سورة الدين

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة سماعها غذاء أرواح المحبين، ضياء أسرار الواصلين، شفاء قلوب المؤمنين؛ بلاء مهبج المساكين، دواء كل فقير مسكين.

قوله جل ذكره: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ﴾.

نزلت الآية على جهة التوبيخ، والتعجب من شأن تظلم اليتيم من الكفار. فقال: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ﴾، وبالحساب والجزاء؟

﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ أَيْتِيْمَ﴾.

يدفعه بجفوة، ويقال: يدفعه عن حقه.

﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾.

أي: لا يحث على إطعام المسكين، وإنما يدع اليتيم؛ لأن الله تعالى قد نزع الرحمة من قلبه «ولا تنزع الرحمة إلا من قلب شقي»^(١).

وهو لا يحث على طعام المسكين، لأنه في شح نفسه وأمر بخله.

قوله جل ذكره: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ

يُرَآهُمْ﴾.

الساهي عن الصلاة الذي لا يصلي. ولم يقل: الذين هم في صلاتهم ساهون.. ولو قال ذلك لكان الأمر عظيماً.

(١) أخرجه الترمذي في (السنن ١٩٢٣)، وأبو داود في (السنن ٤٩٤٢)، وأحمد بن حنبل في (المسند ٣١٠/٢، ٤٤٢، ٤٦١، ٥٣٩)، والدولابي في (الكنى والأسماء ٣/٢)، والبخاري في (الأدب المفرد ٣٧٤)، وابن أبي شيبة في (المصنف ٣٣٩/٨)، والتبريزي في (مشكاة المصابيح ٤٩٦٨)، والمنذري في (الترغيب والترهيب ٢٠٣/٣)، والمتقي الهندي في (كنز العمال ٥٩٧٣)، وابن حجر في (فتح الباري ٤٧٨/١١)، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ١٨٣/٧)، والمجلوني في (كشف الخفا ٥٢٧/٢).

﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَآكَوْنَ﴾: أي يصلون ويفعلون ذلك على رؤية الناس - لا إخلاصَ لهم .
 ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ .

الماعون: مثل الماء، والنار، والكلا، والفأس، والقِذْر وغير ذلك من آلة البيت .
 ويدخل في هذا: البُخلُ، والشُّحُّ بما ينفع الخلق مما هو مُمكنٌ ومُسْتَطاع .

سورة الكوثر

قوله جلّ ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» اسمٌ يُجَلُّ العبدُ بإجلاله ولا يجلّ هو إلا باستحقاقٍ علوّه في آزاله .
اسمٌ عزيزٌ أعزّ من شاء بأفضاله وإقباله؛ وأذلّ أعداءه بسلاسله وأغلاله، والتخليد
في جحيمه وأنكاله .

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾.

﴿الْكَوْثَرَ﴾: أي الخبر الكثير . ويقال: هو نهرٌ في الجنة .

ويقال: النبوة والكتاب . وقيل: تخفيف الشريعة .

ويقال: كثرة أمته .

ويقال: الأصحاب والأشياء . ويقال: نورٌ في قلبه .

ويقال: معرفته بربوبيته .

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾.

أي صلّ صلاة العيد ﴿وَأَنْحَرْ﴾ التَّسْكُ .

ويقال: جمع له في الأمر بين: العبادة البدنية، والمالية .

ويقال «وانحر» أي استقبل القبلة بنحرك . أو ارفع يديك في صلاتك إلى نحرك .

ويقال: ضغ يمينك على يسارك في الصلاة واجعلها تحت نحرك .

﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

أي: لا يُذكرُ بخيرٍ، مُنْقَطِعٌ عنه كل خير .

سورة الكافرون

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة مَنْ آمَنَ بها آمِنَ مِنْ زوال النعمى، وَحَظِيَّ بنعيم الدنيا والعقبى، وَسَعِدَ سعادة لا يَشْقَى، وَوَجَدَ مُلكاً لا يَفْنَى، وَبَقِيَ في العزِّ والعلى.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ يَكْفُرُ الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾.

من أصنامكم:

﴿وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.

«ما» أعبد أي «من» أعبد.

﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾.

في زمانكم.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.

كَرَّرَ اللفظ على جهة التأكيد.

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

أي: لكم جزاؤكم على دينكم، ولي الجزاء على ديني.

والعبودية^(١) القيام بأمره على الوجه الذي به أَمَرَ، وبالقَدَر الذي به أَمَرَ، وفي الوقت الذي فيه أَمَرَ.

(١) القشيري هنا يشير إلى العبودية لكن الآيات تتحدث عن العبادة لكن هناك صلة وثيقة بينهما وبين العبادة وهذا يتضح من خلال حديث القشيري بالرسالة عن العبودية قال: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: العبودية أتم من العبادة فأولاً عبادة ثم عبودية ثم عبادة، فالعبادة للعوام المؤمنين، والعبودية للخواص، والعبودية لخواص الخواص وسمعت يقول: العبادة لمن له علم اليقين، والعبودية لمن له حق عين اليقين، والعبودية لمن حق اليقين وسمعت يقول: العبادة لأصحاب المجاهدات، والعبودية لأرباب المكابذات، والعبودية صفة أهل المشاهدات، فمن لم يدخر عنه نفسه فهو صاحب عبادة، ومن لم يرض عليه بقلبه فهو صاحب عبودية، ومن لم يبخل عليه بروحه فهو صاحب عبودة. (الرسالة القشيرية ص ١٩٧، ١٩٨).

ويقال: صِدْقُ العبودية في تَرْكِ الاختيار، ويظهر ذلك في السكون تحت
تصاريف الأقدار من غير انكسار.
ويقال: العبودية انتفاء الكراهية بكل وجهٍ من القلب كيفما صَرَّفَكَ مولاك.

سورة النصر

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسم كريم يُبَصِّرُ وَيَسْتُرُ، وَيَعْلَمُ وَيَحْلُمُ، ويمدح ولا يَفْضَحُ، ويعفو عن جميع ما يجترم العبد ويصفح؛ يَغْضَى العبدُ على التوالي، وَيَغْفِرُ الحقُّ ولا يُبَالِي.

قوله جل ذكره: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾.

النصرُ الظَّفَرُ بالعدوِّ، و﴿الفتح﴾ فتح مكة.

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾.

يُسْلِمُونَ جماعاتٍ جماعاتٍ.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ﴾.

أَكْثِرْ حَمْدَ رَبِّكَ، وصلِّ له، وَقَدِّسه.

ويقال: صَلِّ شُكْرًا لهذه النعمة.

﴿وَأَسْتَغْفِرْهُ﴾ وسَلِّ مغفرته.

﴿إِنَّمَا كَانَ تَوَّابًا﴾.

لِمَنْ تَاب؛ فإنه يقبل توبته.

ويقال: نصره الله - سبحانه - له بأن أفناه عن نَفْسِهِ، وأبعد عنه أحكامَ البشرية، وصفَّاه من الكدورات النفسانية. وأما «الفتح»: فهو أن رَقَّاه إلى محلِّ الدنو، واستخلصه بخصائص الزلفة، وألبسه لباسَ الجمع، واصطلمه عنه، وكان له عنه، ولنَفْسِهِ - سبحانه - منه، وأظهر عليه ما كان مستورا من قَبْلُ من أسرارِ الحقِّ، وعَرَفَه - من كمال معرفته به - ما كان جميعُ الخَلْقِ متعطشا إليه.

سورة المسد

قوله جل ذكره: ﴿يَسِّرْ أَقْرَبَ الْغَنِيِّ﴾.

«بسم الله» كلمة جبارة للمذنبين، تجبر أعمالهم، وتحقق آمالهم، وهي للعارفين تُصغّر في أعينهم أحوالهم، وتُكَمِّل - عن شواهدهم - امتحانهم واستئصالهم، وتحقق لهم - بعد فناءهم عنهم - وصالهم.

قوله جل ذكره: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

أي: خَسِرَتْ يداه.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾.

ما أغنى عنه ماله ولا كسبه الخبيث - شيئاً.

وقيل: ﴿ما كسب﴾: ولّذه.

قوله جل ذكره: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾.

يلزمها إذا دخلها؛ فلا براح له منها. وامراته أيضاً ستصلى النار معه.

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾.

«مسد» شيء مفتول، وكانت تحمل الشوك وتنقله وتبثه في طريق رسول الله عليه

الصلاة والسلام.

ويقال: سُخِّقاً لِمَنْ لَا يَعْرِفُ قُدْرَكَ - يا محمد. وَبُعْدًا لِمَنْ لَمْ يَشْهَدْ مَا

خَصَصْنَاكَ بِهِ مِنْ رَّفْعِ مَحَلِّكَ، وإكبار شأنك. . . وَمَنْ نَاصَبَكَ كَيْفَ يَنْفَعُهُ مَالُهُ؟ والذي

أَقَمِينَاهُ لِأَجْلِكَ وَقَدْ (أَسَاءَ)^(١) أَعْمَالَهُ. . . فَإِنَّ إِلَى الْهُوَانِ وَالْخِزْيِ مَالَهُ، وَإِنَّ عَلَى أَقْبَحِ

حَالٍ حَالِ امْرَأَتِهِ وَحَالِهِ.

(١) ما بين قوسين زيادة يقتضيه السياق.

سورة الإخلاص

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله» كلمة عزيزة عزَّ لسانَ ذَكَرَها، وأَعَزَّ منه قلبَ عَرَفَها، وأَعَزَّ من هذا رُوحَ أَحَبَّها، وأَعَزَّ من هذا سِرَّ شَهِدَها.
ليس كُلُّ مَنْ قَصَدَها وَجَدَها، ولا كُلُّ مَنْ وَجَدَها بَقِيَ معها.
قوله جل ذكره: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

لَمَّا قال المشركون: أَنَسِبَ لَنَا رَبُّكَ. أَنزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾
فمَعْنَى «هُوَ» أَي: الَّذِي سَأَلْتُمْ عَنْهُ «هُوَ» اللهُ. وَمَعْنَى «أَحَدٌ» أَي: هُوَ أَحَدٌ.
وَيُقَالُ: «هُوَ» مُبْتَدَأٌ، وَ«الله» خَبَرُهُ وَ«أَحَدٌ» خَبَرُ ثَانٍ كَقَوْلِهِمْ: هَذَا حَلَوٌ حَامِضٌ.
﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾.

﴿الصَّمَدُ﴾: السَّيِّدُ الَّذِي يُضَمَّدُ إِلَيْهِ فِي الْحَوَائِجِ، وَيُقَصَّدُ إِلَيْهِ فِي الْمَطَالِبِ.
وَيُقَالُ: الْكَامِلُ فِي اسْتِحْقَاقِ صِفَاتِ الْمَدْحِ.
وَيَرْجِعُ تَحْقِيقُ قَوْلِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ إِلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ لَا... (١)

﴿لَمْ يَكُنْ لَكَ يُولَدٌ﴾.

ليس بوالدٍ ولا مولود.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكَ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

تقديره لم يكن أحدٌ كفواً له.

و«أحد» أصله وَخَدٌ، وَوَحْدٌ، وَوَاحِدٌ بِمَعْنَى، وَكَوْنُهُ وَاحِدًا: أَنَّهُ لَا قَسِيمَ لَهُ وَلَا شَبِيهَ لَهُ وَلَا شَرِيكَ لَهُ.

وَيُقَالُ: السُّورَةُ بَعْضُهَا تَفْسِيرٌ لِبَعْضٍ؛ مَنْ هُوَ اللهُ؟ هُوَ اللهُ. مَنْ اللهُ؟ الْوَاحِدُ، مَنْ الْوَاحِدُ؟ الصَّمَدُ، مَنْ الصَّمَدُ؟ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، مَنْ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ؟ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ.

(١) بياض في الأصل.

ويقال: كاشَفَ الأسرارَ بقوله: «هو». وكاشَفَ الأرواحَ بقوله: «الله» وكاشَفَ القلوبَ بقوله: «أحد». وكاشَفَ نفوسَ المؤمنين بباقي السورة.

ويقال: كاشَفَ الوالهيين بقوله: «هو»، والموحدِين بقوله: «الله» والعارفين بقوله: «أحد» والعلماء بقوله: «الصمد»، والعقلاء بقوله: «لَمْ يَكِلْذَ وَلَمْ يُؤَكِلْذَ».. إلى آخره.

ويقال: لَمَّا بسطوا لسانَ الذمِّ في الله أَمَرَ نَبِيَّنَا بِأَنْ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. أي دُبَّ عني ما قالوا، فانت أولى بذلك. وحينما بسطوا لسانَ الذمِّ في النبي ﷺ تولى الحقُّ الردَّ عليهم، فقال: ﴿تَوَّابٌ وَأَلْفَافٌ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ١، ٢] وقال: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١، ٢] أي أنا أذبُّ عنك؛ فأنا أولى بذلك منك.

ويقال: خاطَبَ الذين هم خاص الخواص بقوله: «هو» فاستقلوا، ثم زاد لمن نزل عنهم فقال: «الله»، ثم زاد في البيان لمن نزل عنهم. فقال: «أحد» ثم لمن نزل عنهم فقال: «الصمد».

ويقال: الصمدُ الذي ليس عند الخلقِ منه إلا الاسم والصفة.

ويقال: الصمدُ الذي تقدَّس عن إحاطةِ عِلْمِ المخلوقِ به وعن إدراكِ بَصَرِهِمْ له، وعن إشرافِ معارفهم عليه.

ويقال: تقدَّس بصمديته عن وقوف المعارف عليه.

ويقال: تنزَّه عن وقوف العقول عليه.

سورة الفلق

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

«بسم الله»: اسمٌ عزيزٌ إذا تجلّى لقلبٍ فإن لاطفَهُ بجماله أحياء، وإن كاشفَهُ بجلاله أباده وأفناه؛ فالعبدُ في حالتي: بقاءٍ وفناءٍ، ومحورٍ وإثباتٍ، ووجدٍ وفقدٍ.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.

أي امتنع واعتصم برَبِّ الْفَلَقِ. والفلقُ الضُّبُحُ.

ويقال: هو الخَلْقُ كُلُّهُم وقيل الْفَلَقُ وادٍ في جهنم.

﴿وَمِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.

أي من الشرور كلها.

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾.

قيل: الليلُ إذا دَخَلَ. وفي خبر، أنه ﷺ أخذ بيد عائشة ونَظَرَ إلى القمر فقال: يا عائشة، تَعُوذِي بالله من شرِّ هذا فإنه الغَاسِقُ إذا وَقَبَ^(١).

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾.

وهن السواحر اللواتي ينفخن في عُقَد الخيط (عند الرقية)^(٢) ويوهمن إدخال الضررِ بذلك.

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

والحَسَدُ شرُّ الأخلاق.

وفي السورة تعليمٌ استدفاع الشرور من الله. وَمَنْ صَحَّ تَوَكُّلُهُ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ الَّذِي صَحَّ تَحَقُّقُهُ بِاللَّهِ، فإذا تَوَكَّلَ لَمْ يُؤَفِّقْهُ اللَّهُ لِلتَّوَكُّلِ إِلَّا وَالْمَعْلُومُ مِنْ حَالِهِ أَنَّهُ يَكْفِيهِ مَا تَوَكَّلَ بِهِ عَلَيْهِ؛ وَإِنَّ الْعَبْدَ بِهِ حَاجَةٌ إِلَى دَفْعِ الْبَلَاءِ عَنْهُ - فَإِنْ أَخَذَ فِي التَّحَرُّزِ مِنْ تَدْبِيرِهِ وَخَوَلَهُ وَقُوَّتُهُ، وَفَهِمَهُ وَبَصِيرَتُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ اسْتِرَاحَ مِنْ تَعَبِ تَرُدُّدِ الْقَلْبِ فِي التَّدْبِيرِ، وَعَنْ قَرِيبٍ يُرْفَى إِلَى حَالَةِ الرِّضَا. كُفِّي مُرَادَهُ أَمْ لَا. وعند ذلك الملك الأعظم، فهو بظاهره لا يفتر عن الاستعاذة، وبقلبه لا يخلو من التسليم والرضا.

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (المسند ٢٠٦/٦)، والطبري في (التفسير ٢٢٧/٣٠).

(٢) الرقية: كلام يطلب به شفاء المريض ونحوه (ج) رُقِيَ.

سورة الناس

قوله جل ذكره: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

بسم الله الذي قصرت عنه العقول فوقفت، وعجزت العلوم فتحيرت، وتقاصرت المعارف فخرجت، وانقطعت الفهوم فدهشت... وهو بنعت علائمه ووصف سنائه وبهائه وعز كبريائه يُعلم ولكن الإحاطة في العلم به مُحال، ويُرى ولكن الإدراك في وصفه مستحيل، ويُعرف ولكن الإشراف في نعته غير صحيح.

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾.

اعتصم رب الناس خالقهم وسيدهم.

﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾.

أي مالِكهم جميعهم.

﴿إِلَهُ النَّاسِ﴾.

القادر على إيجادهم.

﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَفَّاسِ﴾.

من حديث النفس بما هو كالصوت الخفي.

ويقال: مِنْ شَرِّ ذي الوسواس.

ويقال: مِنْ شَرِّ الوسوسة التي تكون بين الجنة والناس.

«والخناس» الذي يغيب ويخنس عن ذكر الله. وهو من أوصاف الشيطان.

﴿الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾.

قيل: «الناس» يقع لفظها على الجن والإنس جميعاً - كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ

صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الأحقاف: ٢٩] فسماهم نفراً، وكما قال:

﴿يُودُونَ بِهَآءِ مِنَّا وَلَآئِن لَّمْ يَآئِمْ لَّآئِن﴾ [الجن: ٦] فسماهم رجالاً... فعلى هذا استعاذ من

الشيطان الذي يوسوس في صدور الناس، والشيطان الذي له تسلط على الناس كالوسواس؛ فللنفس من قبل العبد هواجس، وهواجس النفس ووساوس الشيطان يتقاربان؛ إذ إن ما يدعو إلى متابعة الشهوة أو الضلالة في الدين أو

إلى ارتكاب المعصية، أو إلى الخصال الذميمة - فهو نتيجة الوسواس والهواجس .

وبالعلم يُمَيِّزُ بين الإلهام وبين الخواطرِ الصحيحة وبين الوسواس^(١) .
(ومما تجب معرفته)^(٢) أن الشيطان إذا دعا إلى محظورٍ فإن خالفته يَدْعُ ذلك (ثم) يدعوك إلى معصيةٍ أخرى؛ إذ لا غَرَضَ له إلا الإقامة على دعائك (. . .)^(٣) غير مختلفة .

تم الكتاب بعونه تعالى

(١) قال القشيري عند حديثه عن الخواطر بالرسالة: والخواطر خطابات ترد على الضمائر، وقد يكون الخطاب بإلقاء ملك أو إلقاء شيطان أو أحاديث نفس أو من الحق سبحانه فإذا كان من الملك فهو الإلهام، وإذا كان من قبل النفس قيل له الهواجس، وإذا كان من الشيطان فهو الوسواس، وإذا كان من الله سبحانه وكان إلقاؤه في القلب فهو خاطر حق وجملة ذلك من قبيل الكلام، فإذا كان من الملك فإنما يُعلم صدقة بموافقة العلم. (الرسالة القشيرية ص ٨٣، ٨٤).

(٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) يياض في الأصل.

فهرس المحتويات

تفسير الآيات : ٢٤ - ٢٩ ٢٩

تفسير الآية : ٣٠ ٣٠

سورة الأحزاب

تفسير الآيات : ١ - ٣ ٣١

تفسير الآيات : ٤ - ٦ ٣٢

تفسير الآيتين : ٧ و ٨ ٣٣

تفسير الآيات : ٩ - ١٣ ٣٤

تفسير الآيات : ١٥ - ١٩ ٣٥

تفسير الآيات : ٢٠ - ٢٣ ٣٦

تفسير الآيات : ٢٤ - ٢٦ و ٢٨ و ٢٩ ٣٧

تفسير الآيات : ٣٠ - ٣٥ ٣٨

تفسير الآية : ٣٦ ٣٩

تفسير الآيات : ٣٧ - ٤٠ ٤٠

تفسير الآيات : ٤١ - ٤٤ ٤١

تفسير الآيات : ٤٥ - ٥٠ ٤٢

تفسير الآيات : ٥١ - ٥٣ ٤٣

تفسير الآيات : ٥٤ - ٥٩ ٤٤

تفسير الآيات : ٦٠ - ٦٢ و ٦٩ و ٧١ ٤٥

تفسير الآية : ٧٢ ٤٦

تفسير الآية : ٧٣ ٤٧

سورة سبا

تفسير الآيات : ١ - ٣ ٤٨

تفسير الآيات : ٤ و ١٠ و ١١ ٤٩

تفسير الآيتين : ١٢ و ١٣ ٥٠

تفسير الآيتين : ١٤ و ١٥ ٥١

تفسير الآيات : ١٦ - ١٩ ٥٢

تفسير الآيات : ٢١ و ٢٤ - ٢٦ ٥٣

تفسير الآيات : ٢٧ - ٣١ ٥٤

تفسير الآيات : ٣٤ و ٣٥ و ٣٧ - ٤٠ ٥٥

سورة الروم

تفسير الآيات : ١ - ٥ ٣

تفسير الآيات : ٦ - ٩ ٤

تفسير الآيات : ١٠ - ١٨ ٥

تفسير الآيات : ١٩ - ٢٢ ٦

تفسير الآيات : ٢٣ - ٢٧ ٧

تفسير الآيات : ٢٨ - ٣٠ ٨

تفسير الآيات : ٣١ - ٣٤ ٩

تفسير الآيات : ٣٥ - ٣٩ ١٠

تفسير الآية : ٤٠ ١١

تفسير الآيات : ٤١ - ٤٣ و ٤٦ ١٢

تفسير الآيات : ٤٧ و ٤٨ و ٥٠ ١٣

تفسير الآيات : ٥١ - ٥٥ ١٤

تفسير الآية : ٦٠ ١٥

سورة لقمان

تفسير الآيات : ١ - ٥ ١٦

تفسير الآيات : ٦ - ١١ ١٧

تفسير الآيات : ١٢ - ١٥ ١٨

تفسير الآيات : ١٦ - ١٩ ١٩

تفسير الآيات : ٢٠ - ٢٢ ٢٠

تفسير الآيات : ٢٣ و ٢٦ و ٢٨ و ٣٠ و ٣١ ٢١

تفسير الآيات : ٣٢ - ٣٤ ٢٢

سورة السجدة

تفسير الآيات : ١ - ٤ ٢٣

تفسير الآيات : ٥ - ١٠ ٢٤

تفسير الآيات : ١١ - ١٤ ٢٥

تفسير الآيتين : ١٥ و ١٦ ٢٦

تفسير الآيتين : ١٧ و ١٨ ٢٧

تفسير الآيات : ١٩ و ٢١ - ٢٣ ٢٨

تفسير الآيات: ٣٦-٤٧	٨٩
تفسير الآيات: ٤٨-٥٠ و ٥٦ و ٥٧	
و ٦٠-٦٢ و ٧٥ و ٧٦	٩٠
تفسير الآيات: ٧٧ و ٧٨ و ٨٣-٨٥	

و ٨٧-٨٩	٩١
تفسير الآيات: ٩٧-١٠٢	٩٢
تفسير الآيات: ١٠٣-١٠٥ و ١١٤	
و ١١٧-١٢٠ و ١٢٣	٩٤
تفسير الآيات: ١٣٣ و ١٣٩ و ١٤٢-١٤٦	٩٥
تفسير الآيات: ١٤٩ و ١٦١-١٦٤	
و ١٧١-١٧٦	٩٦
تفسير الآيات: ١٨٠-١٨٢	٩٧

سورة صّ

تفسير الآيات: ١-٦	٩٨
تفسير الآيات: ٧-٩ و ١٢ و ١٤-١٦	٩٩
تفسير الآيات: ١٧-٢٠	١٠٠
تفسير الآية: ٢١	١٠١
تفسير الآيات: ٢٢-٢٥	١٠٢
تفسير الآيات: ٢٦ و ٢٧ و ٢٩-٣١	١٠٣
تفسير الآيات: ٣٢-٣٤	١٠٤
تفسير الآيات: ٣٥-٣٩	١٠٥
تفسير الآيات: ٤١ و ٤٢ و ٤٤	١٠٦
تفسير الآيات: ٤٥-٥٠	١٠٧
تفسير الآيات: ٥٥ و ٥٧-٥٩ و ٦١	
و ٦٢ و ٦٤-٦٦	١٠٨
تفسير الآيات: ٦٧-٧٢	١٠٩
تفسير الآيات: ٧٥-٨٨	١١٠

سورة الزمر

تفسير الآيات: ١-٣	١١١
تفسير الآيتين: ٤ و ٥	١١٢
تفسير الآيتين: ٦ و ٧	١١٣
تفسير الآيتين: ٨ و ٩	١١٤
تفسير الآيات: ١٠-١٣	١١٥
تفسير الآيات: ١٤-١٨	١١٦

تفسير الآيات: ٤٢-٤٤	٥٦
تفسير الآيات: ٤٦ و ٤٨-٥٢	٥٧
تفسير الآية: ٥٤	٥٨

سورة فاطر

تفسير الآيتين: ١ و ٢	٥٩
تفسير الآيات: ٣-٥	٦٠
تفسير الآيات: ٦-٨	٦١
تفسير الآيتين: ٩ و ١٠	٦٢
تفسير الآيتين: ١١ و ١٢	٦٣
تفسير الآيات: ١٣-١٥	٦٤
تفسير الآيات: ١٦-٢٤	٦٦
تفسير الآيات: ٢٥ و ٢٧-٢٩	٦٧
تفسير الآيتين: ٣١ و ٣٢	٦٨
تفسير الآيات: ٣٣-٣٧	٧١
تفسير الآيات: ٣٨-٤١	٧٢
تفسير الآيات: ٤٢-٤٥	٧٣

سورة يس

تفسير الآيات: ١-٩	٧٤
تفسير الآيات: ١٠-١٣	٧٥
تفسير الآيات: ١٥ و ١٦ و ١٨-٢١	
و ٢٦-٣٠	٧٦
تفسير الآيات: ٣١-٣٣ و ٣٦	٧٧
تفسير الآيات: ٣٧-٤٠	٧٨
تفسير الآيات: ٤١-٤٥ و ٤٧	٧٩
تفسير الآيات: ٤٩-٥٢ و ٥٤ و ٥٥	٨٠
تفسير الآيتين: ٥٦ و ٥٧	٨١
تفسير الآيات: ٥٨-٦١ و ٦٥	٨٢
تفسير الآيات: ٦٨ و ٦٩ و ٧١-٧٣	٨٣
تفسير الآيات: ٧٤-٨٠	٨٤
تفسير الآيتين: ٨٢ و ٨٣	٨٥

سورة الصافات

تفسير الآيات: ١-٥	٨٦
تفسير الآيات: ٦ و ٧ و ١٠-١٣ و ١٦-١٩	٨٧
تفسير الآيات: ٢٠-٢٧ و ٣٣-٣٥	٨٨

١٤٨	تفسير الآيات: ٢٦-٣٠
١٥٠	تفسير الآيتين: ٣١ و ٣٢
١٥١	تفسير الآيتين: ٣٣ و ٣٤
١٥٢	تفسير الآيات: ٣٥-٣٧
١٥٣	تفسير الآيات: ٣٨-٤٠
١٥٤	تفسير الآيات: ٤١-٤٤
١٥٥	تفسير الآيات: ٤٥-٤٩
١٥٦	تفسير الآيات: ٥٠-٥٤

سورة الشورى

١٥٨	تفسير الآيات: ١-٥
١٥٩	تفسير الآيات: ٦-٨
١٦٠	تفسير الآيتين: ١٠ و ١١
١٦١	تفسير الآيات: ١٢-١٥
١٦٢	تفسير الآيات: ١٦-١٩
١٦٣	تفسير الآيتين: ٢٠ و ٢١
١٦٤	تفسير الآيتين: ٢٢ و ٢٣
١٦٥	تفسير الآيات: ٢٤-٢٦
١٦٦	تفسير الآيتين: ٢٧ و ٢٨
١٦٧	تفسير الآيتين: ٢٩ و ٣٠
١٦٨	تفسير الآيات: ٣٢ و ٣٦-٣٩
١٦٩	تفسير الآيات: ٤٠-٤٤ و ٤٧
١٧٠	تفسير الآيات: ٤٨ و ٤٩ و ٥١ و ٥٢
١٧١	تفسير الآية: ٥٣

سورة الزخرف

١٧٢	تفسير الآيات: ١-٧
١٧٣	تفسير الآيات: ٨-١٣
١٧٤	تفسير الآيات: ١٥ و ١٦ و ٢٠-٢٤
١٧٥	تفسير الآيات: ٢٦ و ٢٩ و ٣٢
١٧٦	تفسير الآيات: ٣٣ و ٣٦ و ٣٨
١٧٧	تفسير الآيات: ٣٩-٤٧
١٧٨	تفسير الآيات: ٥١ و ٥٢ و ٥٤ و ٥٥ و ٥٧
١٧٩	تفسير الآيات: ٥٨-٦٣
١٨٠	تفسير الآيات: ٦٧-٧١
١٨١	تفسير الآيات: ٧٢-٧٨

١١٧	تفسير الآيات: ١٩-٢٢
١١٨	تفسير الآيتين: ٢٣ و ٢٤
١١٩	تفسير الآيات: ٢٥ و ٢٧ و ٣١
١٢٠	تفسير الآيات: ٣٢-٣٤
١٢١	تفسير الآيات: ٣٥ و ٣٦ و ٣٨-٤١
١٢٢	تفسير الآيات: ٤٢ و ٤٣ و ٤٥
١٢٣	تفسير الآيات: ٤٥-٤٩ و ٥٢
١٢٤	تفسير الآيتين: ٥٣ و ٥٤
١٢٥	تفسير الآيات: ٥٦-٦١
١٢٦	تفسير الآيات: ٦٢-٦٥ و ٦٧ و ٦٨
١٢٧	تفسير الآيات: ٦٩ و ٧١ و ٧٣
١٢٨	تفسير الآيتين: ٧٤ و ٧٥

سورة غافر (سورة المؤمن)

١٢٩	تفسير الآيات: ١-٣
١٣١	تفسير الآيات: ٤-١٣
١٣٢	تفسير الآيتين: ١٤ و ١٥
١٣٣	تفسير الآيات: ١٦-١٨
١٣٤	تفسير الآيتين: ١٩ و ٢٠
١٣٥	تفسير الآيات: ٢١-٢٤
	تفسير الآيات: ٢٥ و ٢٦ و ٢٨ و ٣٤
١٣٦	٣٦ و ٣٧
١٣٧	تفسير الآيات: ٣٨-٤٣
١٣٨	تفسير الآيات: ٤٤-٥١
١٣٩	تفسير الآيات: ٥٢-٥٦
١٤٠	تفسير الآيات: ٥٧-٦٠
١٤١	تفسير الآيات: ٦١ و ٦٢ و ٦٤
	تفسير الآيات: ٦٥-٦٧ و ٦٩ و ٧١

١٤٢	٧٧ و ٧٢
١٤٣	تفسير الآيات: ٧٨-٨٢

سورة فصلت

١٤٤	تفسير الآيات: ١-٧
١٤٥	تفسير الآيات: ٨-١١
١٤٦	تفسير الآيات: ١٢-١٨
١٤٧	تفسير الآيات: ١٩-٢٥

٢١٣	تفسير الآيتين: ١٦ و ١٧
٢١٤	تفسير الآيتين: ١٨ و ٢٠
٢١٥	تفسير الآيات: ٢١ - ٢٤
٢١٦	تفسير الآيتين: ٢٥ و ٢٦
٢١٧	تفسير الآيتين: ٢٧ و ٢٨
٢١٨	تفسير الآية: ٢٩

سورة الحجرات

٢١٩	تفسير الآيات: ١ - ٣
٢٢٠	تفسير الآيات: ٤ - ٧
٢٢١	تفسير الآيات: ٨ - ١٠
٢٢٢	تفسير الآيتين: ١١ و ١٢
٢٢٣	تفسير الآيات: ١٣ - ١٥
٢٢٤	تفسير الآيات: ١٦ - ١٨

سورة ق

٢٢٥	تفسير الآيات: ١ - ٤
٢٢٦	تفسير الآيات: ٥ - ١٠
٢٢٧	تفسير الآيات: ١١ - ١٦ و ١٩
٢٢٨	تفسير الآيات: ٢٠ - ٢٧
٢٢٩	تفسير الآيات: ٢٨ - ٣٢
٢٣٠	تفسير الآيات: ٣٣ - ٣٦
٢٣١	تفسير الآيات: ٣٧ - ٣٩
٢٣٢	تفسير الآيات: ٤٠ - ٤٥

سورة الذاريات

٢٣٣	تفسير الآيات: ١ - ٦
٢٣٤	تفسير الآيات: ٧ - ١٤
٢٣٥	تفسير الآيات: ١٥ - ١٨
٢٣٦	تفسير الآيات: ١٩ - ٢٢
٢٣٧	تفسير الآيتين: ٢٣ و ٢٤
٢٣٨	تفسير الآيات: ٢٥ - ٣٧
٢٣٩	تفسير الآيات: ٣٨ و ٤٧ - ٥٥
٢٤٠	تفسير الآيات: ٥٦ - ٦٠

سورة الطور

٢٤١	تفسير الآيات: ١ - ٤
٢٤٢	تفسير الآيات: ٥ - ١٨

١٨٢	تفسير الآيات: ٧٩ - ٨٦
١٨٣	تفسير الآيات: ٨٧ - ٨٩

سورة الذخان

١٨٤	تفسير الآيات: ١ - ٦
١٨٥	تفسير الآيات: ٧ - ١٢
١٨٦	تفسير الآيات: ١٣ و ١٥ - ١٨ و ٢٣ - ٢٩
١٨٧	تفسير الآيات: ٣٠ - ٤٢
١٨٨	تفسير الآيات: ٤٣ - ٥٢ و ٥٤ و ٥٦ و ٥٨

سورة الجاثية

١٨٩	تفسير الآيات: ١ - ٥
١٩٠	تفسير الآيات: ٦ - ١٠ و ١٢
١٩١	تفسير الآيات: ١٣ - ١٦ و ١٨
١٩٢	تفسير الآيات: ١٩ - ٢١ و ٢٣ و ٢٤
١٩٣	تفسير الآيات: ٢٥ و ٢٨ و ٣٦ و ٣٧

سورة الأحقاف

١٩٤	تفسير الآيات: ١ - ٦
١٩٥	تفسير الآيات: ٧ - ٩ و ١١ و ١٣
١٩٦	تفسير الآيات: ١٥ و ١٦ و ٢٠
١٩٧	تفسير الآيات: ٢١ و ٢٩ و ٣١
١٩٨	تفسير الآيات: ٣٣ - ٣٥

سورة محمد ﷺ

١٩٩	تفسير الآيات: ١ - ٤
٢٠٠	تفسير الآيات: ٥ - ١١
٢٠١	تفسير الآيات: ١٢ - ١٤
٢٠٢	تفسير الآيات: ١٥ - ١٩
٢٠٤	تفسير الآيات: ٢٠ - ٢٤
٢٠٥	تفسير الآيات: ٢٥ و ٢٩ - ٣٢
٢٠٦	تفسير الآيات: ٣٣ و ٣٥ - ٣٨

سورة الفتح

٢٠٨	تفسير الآيتين: ١ و ٢
٢٠٩	تفسير الآيات: ٣ - ٥
٢١٠	تفسير الآيات: ٦ و ٨ و ٩
٢١١	تفسير الآيتين: ١٠ و ١١
٢١٢	تفسير الآيات: ١٢ - ١٥

سورة الواقعة

٢٧٣	تفسير الآيات: ١-٦
٢٧٤	تفسير الآيات: ٧-١٢
٢٧٥	تفسير الآيات: ١٣-١٩ و ٢٥ و ٢٦
	تفسير الآيات: ٢٧-٣٢ و ٣٤-٤٧
٢٧٦	٥١-٥٥
٢٧٧	تفسير الآيات: ٥٦-٥٩
٢٧٨	تفسير الآيات: ٦٠-٧٠
٢٧٩	تفسير الآيات: ٧١-٨٠
٢٨٠	تفسير الآيات: ٨١-٨٥
٢٨١	تفسير الآيات: ٨٦-٩١
٢٨٢	تفسير الآيات: ٩٢-٩٦

سورة الحديد

٢٨٣	تفسير الآيتين: ١ و ٢
٢٨٤	تفسير الآية: ٣
٢٨٥	تفسير الآية: ٤
٢٨٦	تفسير الآيات: ٦-١٠
٢٨٧	تفسير الآيتين: ١١ و ١٢
٢٨٨	تفسير الآيتين: ١٣ و ١٤
٢٨٩	تفسير الآيتين: ١٥ و ١٦
٢٩٠	تفسير الآيات: ١٧-٢٠
٢٩١	تفسير الآيتين: ٢١ و ٢٢
٢٩٢	تفسير الآيتين: ٢٣ و ٢٤
٢٩٣	تفسير الآيات: ٢٥-٢٧
٢٩٤	تفسير الآيتين: ٢٨ و ٢٩

سورة المجادلة

٢٩٥	تفسير الآية: ١
٢٩٦	تفسير الآيات: ٢ و ٣ و ٥
٢٩٧	تفسير الآيتين: ٦ و ٧
٢٩٨	تفسير الآيات: ٨-١٢
٢٩٩	تفسير الآيات: ١٤-١٦ و ١٨-٢٠
٣٠٠	تفسير الآيتين: ٢١ و ٢٢

سورة الحشر

٣٠١	تفسير الآيتين: ١ و ٢
-----	----------------------

٢٤٣	تفسير الآيات: ١٩-٢٣
٢٤٤	تفسير الآيات: ٢٤-٣٤
٢٤٥	تفسير الآيات: ٣٥ و ٤٨
٢٤٦	تفسير الآية: ٤٩

سورة النجم

٢٤٧	تفسير الآيات: ١-٤
٢٤٨	تفسير الآيات: ٥-١١
٢٤٩	تفسير الآيات: ١٢-٢٢
٢٥٠	تفسير الآيات: ٢٣-٢٨
٢٥١	تفسير الآيات: ٢٩-٣٢
٢٥٢	تفسير الآيات: ٣٣-٤٢
٢٥٣	تفسير الآيات: ٤٣-٤٥ و ٤٨
٢٥٤	تفسير الآيات: ٤٩-٦٢

سورة القمر

٢٥٥	تفسير الآية: ١
٢٥٦	تفسير الآيات: ٢-٥
٢٥٧	تفسير الآيات: ٦-١٣
٢٥٨	تفسير الآيات: ١٤-٢٠
	تفسير الآيات: ٢٢-٢٤ و ٣٣-٣٥
٢٥٩	٣٧ و ٤٥ و ٤٨
٢٦٠	تفسير الآيات: ٤٩-٥٥

سورة الزمر

٢٦٢	تفسير الآيتين: ١ و ٢
٢٦٣	تفسير الآيات: ٣-٦
٢٦٤	تفسير الآيات: ٦-١٢
٢٦٥	تفسير الآيات: ١٣-١٨
	تفسير الآيات: ١٩ و ٢٠ و ٢٢ و ٢٤

٢٦٦	٢٦ و ٢٩
٢٦٧	تفسير الآيتين: ٣١ و ٣٣
٢٦٨	تفسير الآيات: ٣٥ و ٣٧ و ٣٩ و ٤١
	تفسير الآيات: ٤٣ و ٤٤ و ٤٦ و ٤٨-٥٠
٢٦٩	٥٢ و ٥٤
٢٧٠	تفسير الآيات: ٥٦ و ٥٨ و ٦٠
٢٧١	تفسير الآيات: ٦٢ و ٦٤ و ٦٦ و ٦٨ و ٧٠
٢٧٢	تفسير الآيات: ٧٢ و ٧٤ و ٧٦ و ٧٨

سورة التحريم

٣٣٢	تفسير الآية: ١
٣٣٣	تفسير الآيتين: ٢ و ٤
٣٣٤	تفسير الآيات: ٥ - ٨
٣٣٥	تفسير الآيات: ٩ - ١١
٣٣٦	تفسير الآية: ١٢

سورة الملك

٣٣٧	تفسير الآيات: ١ - ٣
٣٣٨	تفسير الآيات: ٤ - ١٢
٣٣٩	تفسير الآيات: ١٣ - ١٧ و ٢٩ و ٣٠
٣٤٠	تفسير الآيات: ٢٢ و ٢٣ و ٢٥ و ٢٨ و ٣٠

سورة القلم

٣٤١	تفسير الآيات: ١ - ٤
٣٤٢	تفسير الآيات: ٥ - ٩
٣٤٣	تفسير الآيات: ١٠ - ١٧ و ١٩ و ٢٠
٣٤٤	تفسير الآيات: ٢٥ و ٢٨ و ٢٩ و ٣٢ - ٣٧
٣٤٥	تفسير الآيات: ٤٢ - ٤٦
٣٤٦	تفسير الآيات: ٤٧ - ٥١

سورة الحاقة

٣٤٧	تفسير الآيات: ١ - ٤ و ١١
	تفسير الآيات: ١٣ و ١٨ - ٢١
٣٤٨	٢٤ - ٢٧ و
	تفسير الآيات: ٣٨ - ٤٠ و ٤٣ - ٤٦
٣٤٩	٤٨ - ٥١ و

سورة المعارج

٣٥٠	تفسير الآيات: ١ - ٥
٣٥١	تفسير الآيات: ٦ - ١٧
٣٥٢	تفسير الآيات: ١٩ - ٢٦ و ٢٩ - ٣٢
	تفسير الآيات: ٣٣ و ٣٦ - ٣٨ و ٤٠
٣٥٣	٤٢ و ٤٣

سورة نوح

٣٥٤	تفسير الآيات: ١ - ٧
	تفسير الآيات: ٨ - ١٣ و ١٥ و ١٦
٣٥٥	٢١ و ٢٢ و ٢٦

٣٠٣	تفسير الآيات: ٣ - ٥
٣٠٤	تفسير الآيات: ٦ - ٨
٣٠٥	تفسير الآيتين: ٩ و ١٠
٣٠٦	تفسير الآيات: ١١ و ١٣ - ١٥
٣٠٨	تفسير الآيات: ٢٠ - ٢٣
٣٠٩	تفسير الآية: ٢٤

سورة الممتحنة

٣١٠	تفسير الآية: ١
٣١١	تفسير الآيات: ٢ - ٤
٣١٢	تفسير الآيات: ٥ و ٧ - ٩
٣١٣	تفسير الآيات: ١٠ و ١٢ و ١٣

سورة الصف

٣١٤	تفسير الآيات: ١ - ٤
٣١٥	تفسير الآيات: ٥ و ٦ و ٨ و ٩
٣١٦	تفسير الآيات: ١٠ - ١٤

سورة الجمعة

٣١٨	تفسير الآيتين: ١ و ٢
٣١٩	تفسير الآيات: ٣ - ٧
٣٢٠	تفسير الآيات: ٨ - ١١

سورة المنافقون

٣٢١	تفسير الآيات: ١ - ٤
٣٢٢	تفسير الآيات: ٥ - ٨
٣٢٣	تفسير الآيتين: ٩ و ١٠

سورة التغابن

٣٢٤	تفسير الآيات: ١ - ٣
٣٢٥	تفسير الآيات: ٦ - ٩
٣٢٦	تفسير الآيات: ١١ و ١٢ و ١٤ - ١٦
٣٢٧	تفسير الآيتين: ١٧ و ١٨

سورة الطلاق

٣٢٨	تفسير الآية: ١
٣٢٩	تفسير الآيات: ٢ - ٤
٣٣٠	تفسير الآيات: ٧ - ١١
٣٣١	تفسير الآية: ١٢

سورة النبا

٣٨٤	تفسير الآيات: ١-٣ و ٦-١٠
٣٨٥	تفسير الآيات: ١١-٢٣
٣٨٦	تفسير الآيات: ٢٤-٣٦
٣٨٧	تفسير الآيات: ٣٧-٤٠

سورة النازعات

٣٨٨	تفسير الآيات: ١-٤
٣٨٩	تفسير الآيات: ٥-١٨
٣٩٠	تفسير الآيات: ١٩ و ٢٠ و ٢٤ و ٢٦-٣١
٣٩١	تفسير الآيات: ٣٢-٣٥ و ٤٠-٤٦

سورة عبس

٣٩٢	تفسير الآيتين: ١ و ٢
٣٩٣	تفسير الآيات: ٣-٨ و ١١-١٥
٣٩٤	تفسير الآيات: ١٦-٣٢
٣٩٥	تفسير الآيات: ٣٣ و ٣٧-٤٢

سورة التكوثر

٣٩٦	تفسير الآيات: ١-٧
٣٩٧	تفسير الآيات: ٨-٢٠
٣٩٨	تفسير الآيات: ٢٢-٢٤ و ٢٦-٢٩

سورة الانفطار

٣٩٩	تفسير الآيات: ١-٨
٤٠٠	تفسير الآيتين: ١٧ و ١٩

سورة المطففين

٤٠١	تفسير الآيات: ١-٦
٤٠٢	تفسير الآيات: ٧-١٥ و ١٨ و ٢٢
٤٠٣	تفسير الآيات: ٢٣-٢٨
٤٠٤	تفسير الآيات: ٢٩ و ٣٠ و ٣٤-٣٦

سورة الانشقاق

٤٠٥	تفسير الآيات: ١-٣ و ٦-٨
٤٠٦	تفسير الآيات: ٩-١٤ و ١٦-١٨
٤٠٧	تفسير الآيات: ١٩-٢٥

سورة البروج

٤٠٨	تفسير الآيات: ١-٣
-----	-------------------

سورة العجن

٣٥٦	تفسير الآيات: ١ و ٣ و ٦
	تفسير الآيات: ٧-١٠ و ١٦ و ١٨
٣٥٧	١٩ و ٢١-٢٣ و ٢٥
٣٥٨	تفسير الآيات: ٢٦-٢٨

سورة المزمل

٣٥٩	تفسير الآيات: ١-٤
٣٦٠	تفسير الآيات: ٥-٧
٣٦١	تفسير الآيات: ٨-١٨
٣٦٢	تفسير الآيتين: ١٩ و ٢٠

سورة المدثر

٣٦٤	تفسير الآيات: ١-١٥
٣٦٥	تفسير الآيات: ١٦-٣٢
٣٦٦	تفسير الآيات: ٣٣-٤٦
٣٦٧	تفسير الآيات: ٤٧-٥٦

سورة القيامة

٣٦٨	تفسير الآيات: ١-٤
٣٦٩	تفسير الآيات: ٥-١٧
٣٧٠	تفسير الآيات: ١٨-٣٠
٣٧١	تفسير الآيات: ٣١-٣٩
٣٧٢	تفسير الآية: ٤٠

سورة الإنسان

٣٧٣	تفسير الآيات: ١-٣
٣٧٤	تفسير الآيات: ٤-٦
٣٧٥	تفسير الآيات: ٧-١٣
٣٧٦	تفسير الآيات: ١٤-٢١
٣٧٨	تفسير الآيات: ٢٢-٢٨
٣٧٩	تفسير الآيتين: ٢٩ و ٣٠

سورة المرسلات

٣٨٠	تفسير الآيات: ١-٨
٣٨١	تفسير الآيات: ٩-١٧ و ١٩ و ٢٠
	تفسير الآيات: ٢٥-٢٧ و ٢٩-٣١
٣٨٢	٣٥ و ٣٦
	تفسير الآيات: ٣٨ و ٤١ و ٤٣ و ٤٤
٣٨٣	٤٦ و ٤٨

تفسير الآيتين: ٧ و ٨ ٤٣٣

سورة التين

تفسير الآيات: ١ - ٥ ٤٣٤

تفسير الآيات: ٦ - ٨ ٤٣٥

سورة العلق

تفسير الآيات: ١ - ٥ ٤٣٦

تفسير الآيات: ٦ - ١٩ ٤٣٧

سورة القدر ٤٣٨

سورة البينة

تفسير الآيات: ١ - ٥ ٤٣٩

تفسير الآيات: ٦ - ٨ ٤٤٠

سورة الزلزلة ٤٤١

سورة العاديات

تفسير الآيات: ١ - ٥ ٤٤٢

تفسير الآيات: ٦ - ١١ ٤٤٣

سورة القارعة ٤٤٤

سورة النكاثر ٤٤٥

سورة العصر ٤٤٦

سورة الهمة ٤٤٧

سورة الفيل

تفسير الآية: ١ ٤٤٩

تفسير الآيات: ٢ - ٥ ٤٥٠

سورة قريش ٤٥١

سورة الماعون (سورة الدين)

تفسير الآيات: ١ - ٦ ٤٥٣

تفسير الآية: ٧ ٤٥٤

سورة الكوثر ٤٥٥

سورة الكافرون ٤٥٦

سورة النصر ٤٥٨

سورة المسد ٤٥٩

سورة الإخلاص ٤٦٠

سورة الفلق ٤٦٢

سورة الناس ٤٦٣

تفسير الآيات: ٤ و ٥ و ٨ و ١١ ٤٠٩

تفسير الآيات: ١٢ - ٢٠ ٤١٠

تفسير الآيتين: ٢١ و ٢٢ ٤١١

سورة الطارق

تفسير الآيات: ١ - ٨ ٤١٢

تفسير الآيات: ٩ - ١٧ ٤١٣

سورة الأعلى

تفسير الآيات: ١ - ٥ ٤١٤

تفسير الآيات: ٦ - ٨ و ٩ - ١٩ ٤١٥

سورة الغاشية

تفسير الآيات: ١ - ٧ ٤١٦

تفسير الآيات: ٨ - ١٧ ٤١٧

تفسير الآيات: ٢١ - ٢٦ ٤١٨

سورة الفجر

تفسير الآيات: ١ - ٣ ٤١٩

تفسير الآيات: ٤ - ٧ و ١٣ - ١٩ ٤٢٠

تفسير الآيات: ٢٠ - ٣٠ ٤٢١

البلد

تفسير الآيات: ١ - ٦ ٤٢٢

تفسير الآيات: ٧ - ٢٠ ٤٢٣

سورة الشمس

تفسير الآيات: ١ - ٨ ٤٢٤

تفسير الآيات: ٩ - ١٥ ٤٢٥

سورة الليل

تفسير الآيات: ١ - ٤ ٤٢٦

تفسير الآيات: ٥ - ١٨ ٤٢٧

تفسير الآيات: ١٩ - ٢١ ٤٢٨

سورة الضحى

تفسير الآيات: ١ - ٣ ٤٢٩

تفسير الآيات: ٤ - ٨ ٤٣٠

تفسير الآيات: ٩ - ١١ ٤٣١

سورة الشرح (الم نشرح)

تفسير الآيات: ١ - ٦ ٤٣٢